النهر الماد من البحر المحيط

تصنيف

الإمام أبي حيّان الأندلسي

٦٥٤-٧٤٥هـ

تحقيق

الدكتور عمر الأسعد

المجلّد الثاني

النّساء - الأعراف

دار الجيل

بيروت

سورة النساء

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

سورة النساء[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ الجمهور على أنها مدنية. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أحوال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب والمؤمنين أولي الألباب، ونبّه تعالى بقوله «أني لا أضيع عمل عامل منكم» [آل عمران: ١٩٥] على المجازاة، وأخبر أنَّ بعضَهم من بعضٍ في أصلِ التوالد - نبّه تعالى في أول هذه السورة على اتحادِ الأصلِ وتفرّع العالم الإنساني منه ليحثّ على التوافق والتوادّ والتعاطف وعدمِ الاختلاف، ولينبّه بذلك على أنَّ أصلَ الجنس الإنساني كان عابداً لله تعالى مُفْرِدَه بالتوحيدِ والتقوى، طائعاً له، فكذلك[2] ينبغي أن تكون فروعُه التي نشأت منه، فنادى تعالى نداءً عامًّا للناس وأمرهم بالتقوى التي هي ملاكُ [١٠٦/أ] الأمر، وجعل سبباً للتقوى تذكاره تعالى إياهم بأنه أوجدهم وأنشأهم من نفسٍ واحدة. ومَنْ كان قادراً على مثل هذا الإيجادِ الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال

---

(١) مدنية وآياتها مئة وست وسبعون.

(٢) ق: فلذلك.

والنفعِ والضرِّ[1] فهو جدير بأنْ يُتّقى[2].

ونبّه بقوله ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ على ما هو مركوزٌ في الطبائع من ميلِ بعضِ الأجناس إلى بعضٍ وإلْفه له دون غيره ليتألّف [بذلك عباده على تقواه. والظاهر في «الناس» العموم لأن الألف واللام فيه] تفيده[3]، وللأمر بالتقوى وللعلة إذ ليسا مخصوصين بل هما عامّان. «من نفس واحدة» المراد به آدم[4] عليه السلام. وقرىء: واحدة، على تأنيث النفس، وواحد على التذكير. والنفس تذكر وتؤنث والغالب عليها التأنيث. ومعنى الخَلْق هنا الاختراع بطريق التفريع والرجوع إلى أصلٍ واحد كما قال الشاعر[5]:

[من الوافر]

إلى عِرْقِ الثرى وشجتْ عروقي ... وهـذا المـوتُ يسلبنـي شبـابـي

وفي قوله «من نفس واحدة» إشارة إلى ترك المفاخرة والكِبْر لتعريفه إياهم بأنهم من أصلٍ واحد، ودلالة على المَعَاد لأنَّ القادر على إخراج أشخاص مختلفين من شخص واحد فقدرته على إحيائهم بطريق الأَولى.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ الظاهر أنها منشأة من آدم نفسه. ويحتمل أن يكون المعنى في قوله «منها» من جنسِهِ لا من نفسهِ حقيقةً بل اشتركا في الإنسانية.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من تلك النفس وزوجها، أي: نشر وفرق في الوجود. ويقال: أبثّ الله الخلق رباعياً وبثّ ثلاثياً.

---

(١) ق: والصرف.

(٢) ق: تبقى.

(٣) ق: تقييده.

(٤) «به آدم» كتبت في الحاشية.

(٥) هو امرؤ القيس والبيت في ديوانه ص٩٨.

﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أي: كثيرة، وحذف الوصف لدلالة ما قبله عليه. وقرئ: وخالق وباثّ باسم الفاعل على إضمار وهو.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيداً للأول، وقيل لاختلاف التعليل. وذكر أولاً الرَّب الذي يدل على الإحسان والتربية، وثانياً «الله» الذي يدل على القهر والهيبة، بنى أولاً على الترغيب وثانياً على الترهيب كقوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة].

وقرئ: تَسَّاءلون بتشديد السين، أصله تتساءلون فأدغم التاء في السين. وقرئ: تساءلون بتخفيف السين على حذف[1] التاء الثانية. قال ابن عطية: وذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفاً، وهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى[2] لاجتماع حروف متقاربة. قال أبو علي: فإذا اجتمعت المتقاربة خففت بالحذف والإدغام والإبدال، كما قالوا في [طسّ] طست، فأبدلوا من السين الواحدة تاء إذ الأصل طس قال[3]: [من الرجز]

حنّ إليها كحنين الطسّ

انتهى. أما قول ابن عطية: حذفوا التاء الثانية، فهذا مذهب أهل البصرة، وذهب هشام بن معاوية الضرير إلى أنَّ المحذوفةَ هي الأولى وهي تاءُ

---

(١) كتبت في الحاشية.

(٢) ق: الآخر.

(٣) الرجز لأعرابي في اللسان (طسس) وقبله:

لو عرضتْ لأيبليٍّ قَسّ

أشعث في هيكله مندسّ

وهو في البحر ٣: ١٥٦ منسوب للعجاج.

المضارعة وهي مسألة خلاف ذكرت دلائلها في علم النحو.

وأما قوله: وهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى، كان ينبغي أنْ يُنبّه على الإثبات، إذ يجوز الإثبات وهو الأصل، والإدغام وهو قريب من الأصل إذ لم يذهب الحرف إلا بأن أبدل منه مماثل ما بعده وأدغم، والحذف لاجتماع المِثْلين.

وظاهر كلامه اختصاص الإدغام والحذف بتتفاعلون، وليس كذلك[١]. أما الإدغام فلا يختص به بل ذلك في الأمر والمضارع والماضي واسم الفاعل واسم المفعول والمصدر، وأما الحذف فمختصّ بما دخلت عليه التاء من المضارع.

وقوله: لاجتماع حروف متقاربة، ظاهره تعليل الحذف فقط لقربه أو تعليل الحذفِ والإدغام. وليس كذلك، أما إن كان تعليلاً للحذف فليس كذلك بل الحذف علّته اجتماع متماثلة لا متقاربة. وأما إن [١٠٦/ب] كان تعليلا لهما[٢] فيصح في الإدغام [لا] الحذف كما ذكرنا. وأما قول أبي علي إذا اجتمعت المتقاربة[٣] خففت بكذا، فلا يعني أن ذلك حكم لازم إنما معناه أنه قد يكون التخفيف فكم وجد من اجتماع متقاربة لم تخفف لا بحذف ولا إدغام ولا بدل.

وأما تمثيله بطست في طس فليس البدل هنا لاجتماع متقاربة من الكلمة، بل هذا من اجتماع المِثْلين كقولهم في لصّ: لصت. وقرىء: تسألون

---

(١) عبارة ق: والحذف بتفاعلون وليس بتفاعلون وليس كذلك.

(٢) عبارة ق: كان تعليلاً للحذف فليس كذلك لهما.

(٣) ق: المقاربة.

مضارع سأل، وتَسَلون بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى السين.

وقرىء: والأرحامَ نصباً على الجلالة على حذف مضاف تقديره: وقطع الأرحام، ويجوز أن يكون معطوفاً على موضع «به» لأنه في موضع نصب. وقرىء: والأرحامِ عطفاً على الضمير في «به» ويبيّنه قراءة من قرأ: وبالأرحام[١]، كذا اختيارنا وإن كان مخالفاً لأهل البصرة في أنهم لا يعطفون على الضمير المخفوض إلا بإعادة الخافض، وقد استدللنا على صحة ما اخترناه عند الكلام على قوله ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

ومَنْ ذهب إلى أنَّ الجر هو بواو القسم فبعيد عن الفصاحة قال ابن عطية: الضمير المخفوض لا ينفصل فهو كحرف من الكلمة ولا يعطف على حرف. ويَرِدُ عندي هذه القراءة - يعني قراءة حمزة: والأرحامِ بالجر - وجهان أحدَهما أن ذِكْرَ الأرحام مما يتساءل به لا معنى له في الحض على تقوى الله تعالى، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يُتساءل بها، وهذا تفريق في معنى الكلام وغض من فصاحته، وإنما الفصاحةُ في أنْ يكون في ذكر الأرحام فائدة مستقلّة. والوجه الثاني أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتّساؤل[٢] بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يردُّ ذلك في قوله عليه السلام: «من كان حالفاً فَلْيحلفْ بالله أو ليصمتْ» انتهى كلامه.

وما ذهب إليه البصريون واتبعهم فيه الزمخشري وابن عطية من امتناع العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجارّ[٣]، ومن اعتلالهم لذلك غير صحيح،

(١) ق: بالأرحام.

(٢) ق: تقدير التساؤل.

(٣) ق: الجرّ.

بل الصحيح مذهب الكوفيين في ذلك وأنه يجوز، وقد أطلنا الاحتجاجَ على ذلك عند قوله ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة] وذكرنا[١] ثبوت ذلك في لسان العرب نثرها ونظمها فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وأما قول ابن عطية: ويردُّ عندي هذه القراءة من المعنى وجهان إلخ، فجاسرةٌ قبيحةٌ منه لا تليقُ بحاله ولا بطهارةِ لسانه، إذ عمد إلى قراءةٍ متواترةٍ عن رسولِ الله ﷺ قرأ بها سَلَفُ الأمةِ واتصلت بأكابرِ الصحابةِ الذين تلقّوا القرآن مِن في رسولِ الله ﷺ بغير واسطة: عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت، وأقرأ الصحابة أبيّ بن كعب رضي الله عنهم، عَمَدَ إلى ردِّها بشيء خطر له في ذهنه. وجَسَارتُه هذه لا تليقُ إلا بالمعتزلةِ كالزمخشريِّ وغيره فإنه كثيراً ما يطعنُ في نقلِ القراء وقراءاتهم[٢].

وحمزةُ رضي الله عنه أخذَ القرآنَ عن سليمان بن مهران الأعمش وحمران بن أعين ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد الصادق، ولم يقرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثرٍ. وكان حمزةُ صالحاً ورعاً ثقة في الحديث، وهو من الطبقة الثالثة ولد سنة ثمانين فأحكم القراءة وله خمس عشرة سنة وأمّ الناسَ سنة مئة، وعرض عليه القرآنَ من نظرائه جماعةٌ منهم سفيان الثوري والحسن بن صالح، ومن تلاميذه إمام الكوفة في [١٠٧/أ] القراءة والعربية أبو الحسن الكسائي، وقال الثوري وأبو حنيفة ويحيى بن آدم: غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض.

وإنما ذكرتُ هذا وأطلتُ فيه لئلا يطّلع غَمْرٌ على كلامِ الزمخشريِّ وابن

---

(١) ق: وذكر.

(٢) ق: وقراءتهم.

عطية في هذه القراءة فيسيء ظنًّا بها وبقارئها فيقارب أن يقع في الكفر بالطعن في ذلك. ولسنا مُتَعبّدينَ بقولِ نُحاةِ البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم، فكم حُكْمٍ ثبتَ بنقلِ الكوفيينَ من كلامِ العربِ لم ينقله البصريون[1]، وكم حكم ثبتَ بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون، وإنما يعرفُ ذلك مَنْ له استبحارٌ في علم العربية لا أصحاب الكنانيش[2] المشتغلون بضروب من مبادىء العلوم، الآخذون عن الصحف دون الشيوخ. وقرىء: والأرحامُ على أنه مبتدأ حُذف خبره لدلالة ما قبله عليه كأنه قيل: والأرحام أي: وقطعُها مما يُتّقى.

﴿عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ الرقيب فعيل للمبالغة من رَقَبَ يَرْقُبُ رَقْباً وَرُقوباً ورقباناً: أَحَدَّ النظرَ إلى أمرٍ ليتحقّقه على ما هو عليه ويقرن به الحفظ، ومنه قيل للذي يرقب خروج السهم رقيب. والمعنى أنه عزّ وجلّ مُرَاعٍ لكم لا يَخْفَى عليه من أمركم شيء.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ
وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾
وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا
تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ قيل: نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير

(١) ق: الكوفيون.

(٢) جمع كناشة وهي الدفتر تقيد به الفوائد.

لابن أخٍ له يتيم، فلما بلغ طلب المال فَمَنَعه. واليتيم اسم لمن كان قبل البلوغ ويشترك في جمعه الذكور والإناث. والظاهر أن قوله «وآتوا» هو أمر لمن له ولاية على اليتامى، والمعنى والله أعلم أنهم إذا كانوا غير رشداء كان معنى الإيتاء إيصال ما يكفيهم من أموالهم، فمن بلغ منهم رشيداً كان إيتاؤه ماله واجباً.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ كان بعضهم يبدل الشاة السمينة من مال اليتيمِ بالشاةِ الهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالدرهم الزّيف من ماله فنهُوا عنه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ هذا من باب التضمين، ضمّن «تأكلوا» معنى تضمّوا بالأكل، فلذلك عَدَّاه بإلى. ودلّ قوله «إلى أموالكم» أنَّ المخاطبين أغنياء ذوو أموال. وقد جاء ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ۝٦﴾ [النساء]. والضمير في «إنه» عائد على فعل المنهيّ عنه من التبديل والأكل.

﴿كَانَ حُوبًا﴾ الحوب الإثم، يقال منه: حاب يحوب حُوباً وحَوباً [وحاباً][1] وحؤوباً وحيابة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الآية، في صحيح مسلم[2] عن عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمالُ وليّاتِهم فيريدونَ أنْ يبخسوهنَّ[3] في المهر لمكانِ ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أقسطوا في مهورهنَّ فمن خاف أن لا يقسط فليتزوج ما طابَ له من الأجنبيات اللاتي يماكس في حقوقهن. ولمّا أُمروا بأنْ يؤتوا اليتامى أموالهم ونُهوا عن

(١) انظر لسان العرب «حوب».
(٢) لم أجده فيه، وانظر القرطبي ٥: ١١.
(٣) ق: جمال أوليائهم.. يبخسوهم.

ولا يسوغ دخول «أو» هنا مكان الواو لأنه كان يصير المعنى أنهم لا ينكحون كلّهم إلا على أحد أنواع العدد المذكور وليس لهم أن يجعلوا بعضه على تثنية وبعضه على تثليث وبعضه على تربيع لأن «أو» لأحد الشيئين أو الأشياء والواو تدل على مطلق الجمع [فليأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها على طريق الجمع] إن شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد وإن شاؤوا متفقين فيها محظوراً عليهم ما زاد. وقرىء: ثُنَى مقصوراً، وثُلَث ورُبَع على وزن فُعَل ممنوع الصرف.

قال الزمخشري[1]: إنما منعت الصرف لما فيها من العدلين: عدلها من صيغتها وعدلها عن تكررها وهي نكرات تعرَّفن بلام التعريف، يقال: فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع انتهى.

وما ذهب إليه من امتناعها الصرف لما فيها من العدلين عدلها من صيغتها وعدلها عن تكررها، لا أعلم أحداً ذهب إلى ذلك بل المذاهب المنقولة في عِلَّةِ منعِ الصرف أربعة، أحدها: قول سيبويه والخليل وأبي عمرو وهو العدل والوصف، والثاني: قول الفرّاء إنها منعت للعدل والتعريف بنيّة الألف واللام فهي ممتنعة الإضافة لنيّة الألف واللام، ومنع ظهور الألف واللام كونها في نيّة الإضافة. الثالث: ما نقل عن الزجّاج أنها معدولة عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، وأنه عدل عن التأنيث. الرابع: ما نقله أبو الحسن عن بعض النحويين أن العلة المانعة من الصرف هي[2] تكرر العدل فيه لأنه عدل عن لفظ اثنين وعدل عن معناه، وذلك أنه لا يستعمل في موضع تستعمل فيه

(١) الكشاف ١: ٤٩٦.

(٢) ق: وهي.

الاستبدال[١] المذكور وعن أكلِ أموال اليتامى - كان في ذلك مزيد اعتناء باليتامى واحتراز[٢] من ظلمهن، فَخُوطِبَ أولياءُ يتامى النساء أو الناس بقوله «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى». والخوفُ هنا على بابِه[٣] وهو الحَذَر.

ومعنى ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ في نكاح اليتامى، وظاهره العموم كُنَّ بُلَّغاً أو غير بُلَّغ، فإنْ كان أُريدَ به اليتيم الشرعي فينطلق على الصغيرات اللاتي لم يبلغن، وقد منع من نكاحهنّ ابن شبرمة والأصم. وإذا كان المراد به اليتم[٤] اللغوي فيندرج فيه البالغات، والبالغة يجوز تزويجها بدون مهر المِثْل إذا رضيت، فأي معنى للعدول إلى نكاح غيرها؟. والجواب أن العدول إنما كان لأنَّ الوليَّ يستضعفها ويستولي على مالها وهي لا تقدر على مقاومته.

﴿فَٱنكِحُواْ﴾ أمرُ إباحةٍ، و﴿مَا طَابَ﴾ ما هنا [واقعة على النوع أي: النوع الذي طابَ لكم، ومن قال إن «ما»] تقع على آحاد من يعقل جَوّز ذلك هنا، وكانت «ما» هنا مثل مَن.

ولما كان قوله «ما طاب لكم من النساء» عاماً في الأعداد كلها خصّ ذلك بقوله «مثنى وثلاث [١٠٧/ب] ورباع» فظاهر هذا التخصيص تقسيم المنكوحات إلى أنَّ لنا أنْ نتزوجَ اثنتين اثنتين[٥] وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً، ولا يجوز لنا أن نتزوج خمساً خمساً ولا ما بعد ذلك من الأعداد.

---

(١) ق: الاستبذال.
(٢) ق: لأن في ذلك.. واحترز.
(٣) ق: باب.
(٤) ق: اليتيم.
(٥) ق: اثنين اثنين.

لأعداد غيرالمعدولة[١]، تقول: جاءني اثنان وثلاثة، ولا يجوز: جاءني مثنى وثلاث[٢] حتى يقدّم قبله جمع، لأن هذا الباب جعل بياناً لترتيب الفعل، فإذا قال: جاءني القوم مثنى، أفاد أن ترتيب مجيئهم وقع اثنين اثنين، فأما الأعداد غير المعدولة فإنما الغرض منها الإخبار عن مقدار المعدود دون غيره، فقد بان بما ذكرنا اختلافهما في المعنى فلذلك جاز أن تقوم العلة مقام العلّتين لإيجابهما حكمين مختلفين انتهىٰ ما قرّر به هذا المذهب. والزمخشري لم يسلك شيئاً من هذه العلل المنقولة، فإن كان تقدّمه سلف ممن[٣] قال ذلك فيكون قد تبعه وإلا فيكون مما انفرد بمقالته.

وأما قوله: تعرّفن بلام التعريف، يقال فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع - فهو معترض من وجهين أحدهما: زَعْمُه أنها تعرّف بلام التعريف وهذا لم يذهب إليه أحد بل لم تستعمل في لسان العرب إلا نكرات. والثاني: أنه قد مثّل بها وقد وَلِيَتِ العوامل بقوله فلان[٤] ينكح المثنى والثلاث والرباع، ولا تلي العوامل إنما يتقدمها ما يلي العوامل ولا تقع إلا خبراً كما جاء[٥] «صلاةُ الليل مَثْنى مثنى»، أو حالاً نحو «ما طاب لكم من النساء مثنى» أو صفةً نحو ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ ۝١﴾ [فاطر] وقوله[٦]: [من الطويل]

---

(١) ق: المعمولة.

(٢) بعدها في ق: ورباع، وشطبت.

(٣) ق: مما.

(٤) ق: فلا.

(٥) صحيح الجامع الصغير ٣: ٢٥٧.

(٦) ق: وبات يبغّي. وصدره:

ولكنّما أهلي بوادٍ أنيسُه

والبيت لساعدة بن جؤيّة في ديوان الهذليين ١: ٢٣٧، وهو من شواهد الكتاب =

ذئابٌ تَبَغَّى النّاسَ مَثْنى ومَوْحَدُ

وقد تجيء مضافة قليلاً نحو قوله[(١)]: [من الطويل]

بمثنى الزِّقاق المُتْرَعات وبالجُزُرْ

وقد ذكر بعضهم أنها تلي العامل على قلّة وقد يستدلّ له بقول الشاعر[(٢)]:

ضربتُ خُماسَ ضربةَ عبشميٍّ أدار سُـداسَ أن لا يستقيمـا

ومن أحكام هذا المعدول أنه لا يؤنث فلا يقال مثناة ولا ثُلاثة ولا رُباعة بل يجري بغير تاء على [١٠٨/أ] المذكر والمؤنث.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ في نكاح اثنتين أو ثلاث أو أربع فانكحوا واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عام غير مقيد بعدد والمعنى: أَو طَؤُوا ما مَلكتْ أيمانُكم.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: أقرب أنْ لا تكثر عيالكم. ونقل ابن الأعرابي أنه يقال: عال الرجل وأعال الرجل: كثر عياله، فلا التفاتَ لمن ردَّ على الشافعيِّ رضي الله عنه قوله «أن تعولوا» معناه تُعيلوا أي: تكثر عيالكم.

﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ الصدقة المهر على وزن سَمُرة وقد تسكن الدال ويقال صُدْقة على وزن غرفة، وقد تضم الدال. والنِّحْلَةُ العَطِيَّةُ عن طِيبِ نَفْسٍ، والنحلة:

= ٣: ٢٢٦.

(١) عجز بيت لامرىء القيس في ديوانه ص١١٣، وصدره:
يفاكهنا سُعْدٌ ويغدوْ لِجَمْعِنا

(٢) البيت في همع الهوامع غير منسوب ١ : ٢٦.

الشرعة. «وآتوا» أمر للأزواج بإعطائهم مهور نسائهم عن طيب قلب. والضمير في «منه» عائد على المهر المفهوم من قوله «صدقاتهن» وانتصب «نفساً» على التمييز وهو مفرد أريد به الجمع، ويجوز جمعه في غير القرآن، تقول: الهندات طِبْنَ نفساً وطِبْنَ أنفساً.

﴿فَكُلُوهُ﴾ أي: استمتعوا به بأكلٍ وغيره.

﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ يقال: هَنُؤَ الطعامُ ومَرُؤَ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، ويقال: هنا يهنا بغير همز، وهنأني الطعام ومرأني، فإذا لم تذكر هنأني قلت: أمرأني رباعيا، واستعمل مع هنأني ثلاثياً للإتباع. وانتصاب «هنيئاً» على أنه نعت لمصدر محذوف أي فكلوه هنيئاً، أو على أنه حال من ضمير المفعول هكذا أعربه الزمخشري[١] وغيره، وهو قول مخالف لأئمة العربية لأنه عند سيبويه وغيره منصوب بإضمارِ فعلٍ لا يجوز إظهاره. وقد ذكرنا في «البحر»[٢] في المفردات نصّ سيبويه على ذلك، فعلى ما قاله أئمةُ العربية يكون «هنيئاً مريئاً» من جملة أخرى غير قوله «فكلوه» ولا تعلّق له به من حيث الإعراب بل من حيث المعنى، وقال كثير عزّة[٣]:

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامر   لِعَزَّةَ مِنْ أعراضنا ما اسْتَحَلَّتِ

وقد أَفَضْنا الكلام في هذه المسألة في «البحر» فيُوقَفُ عليه هناك[٤].

(١) انظر الكشاف ١ : ٤٩٩.

(٢) البحر ٣: ١٥٢. وقوله «في المفردات» ينسجم مع خطة المؤلف في البحر إذ يورد مجموعة من الآيات ثم يفسّر مفرداتها ثم يأتي على شرحها وتفسيرها.

(٣) ديوانه ص١٠٠.

(٤) انظر ٣: ١٦٧ وما بعدها.

وانتصب «مريئاً» على أنه صفة لقوله «هنيئاً» وبه قال الحوفي، أو على أنه منصوب بما انتصب [به] «هنيئاً» فالتقدير: ثبت مريئاً قاله الفارسي.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ عام في الذكور والإناث. والسَّفَهُ تبذيرُ المال فيما لا ينبغي. وأضاف الأموالَ إلى المخاطبينَ الناظرين في أموال السفهاء تغبيطاً للأموال لما كانوا يتصرفون فيها للسفهاء، والإضافةُ تكونُ بأدنى ملابسة. وقرىء: اللاتي جمعاً. وقرأ الجمهور: التي بالإفراد وإن كان نعتاً لجمع. و«جعل» صلة حذف منها الضمير تقديره: جعلها.

ومعنى ﴿قِيَـٰمًا﴾ تقومون بها وتنتعشون[1] بها ولو ضيَّعتموها لتلِفَتْ أحوالكم. ويُقامُ بها الحَجُّ والجهادُ وأعمال البر وفكاك الرقاب من الرق ومن الأسر ومن النار.

وقال ﴿فِيهَا﴾ ولم يقل: منها، تنبيهاً[2] على ما قاله عليه السلام: «ابتغوا في أموالِ اليتامى التجارةَ لا تأكلها الزكاةُ»[3] فعلى هذا يكون الرزقُ والكسوةُ من الأرباحِ التي تحصل من أصل الأموال. وقد يكون معنى الآية أمر ذوي الأموال أنْ لا يؤتوا أموالهم السفهاء فيبقون فقراء بتبذيرِ السفهاءِ الأموالَ كمن يُعطي زوجته وولده السَّفيهينِ مالَهُ فأمر أنْ لا يفعل ذلك وأنْ يمسكَ ماله ويرزقهما ويكسوهما فيها أي في أمواله نفسه، وتكون «في» بمعنى [مِن] فتكون إضافة الأموال إليهم حقيقةً لا مجازاً.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ

(١) ق: وتنعشون.

(٢) ق: تنبّهاً.

(٣) ضعيف. انظر الجامع الصغير ١ : ٦٤.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية، قيل: توفي أوس بن ثابت عن زوجته [أمّ] كجة وثلاث بنات وابنَيْ عمٍّ سويد وعرفجة، فأخذا ماله، ولم يعطيا المرأةَ ولا البنات شيئاً، وقيل: المانع إرثهن هو ابن عمّ بنيها ثعلبة. وكانوا في الجاهلية لا يُوَرِّثون النساءَ ولا البنات ولا الابنَ الذَّكَرَ [١٠٨/ب] الصغيرَ. فشكتهما أمُّ كجّة إلى رسولِ الله ﷺ فدعاهما فقالا: يا رسولَ الله ولدها لا يركبُ فرساً ولا يحملُ كَلاًّ ولا ينكي[(١)] عدواً. فقال: انصرفوا حتى أنظرَ ماذا يحدث الله تعالى فنزلت.

وابتلاءُ اليتامى اختبارُهم في عقولهم ودينهم وحفظ أموالهم وحُسْنِ تصرّفهم. وكيفيةُ ابتلاء الصغير أنه يُدفَعُ إليه نَزْرٌ من المال يتصرفُ فيه والوصيّ يراعي حاله فيه لئلا يتلفه. واختبارُ الصغيرةِ أنْ يردَّ إليها أمرُ البيتِ والنظر في الاستغزال دفعاً وأجرة واستيفاءً، واختبار كل منهما بحال ما يليقُ به وبما يُعانيه من الأشغالِ والصنائع. ولم تتعرض الآيةُ لسنِّ البلوغ، وقد غَيّا الابتلاء بوقتِ البلوغ[(٢)].

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أي: بعد البلوغ، ودلَّ ذلك على أنه لا يُعطى ماله إلا بشيئين: بلوغه وإيناس رشده، فلو بلغ غير رشيد دام عليه الحَجْر، أو أُوْنِسَ منه رُشْدٌ قبل البلوغ فكذلك[(٣)]. هذا الظاهر وهو عام في جميع اليتامى، ولو

(١) نكى العدو ينكيه نكاية: قهره.

(٢) أي ربطه به.

(٣) ق: أو آنس.. فلذلك.

عاشوا سنين بعد البلوغ من غير رشدٍ فالحجر عليهم. وانتصب «إسرافاً وبداراً» على أنهما مصدران، أو على أنهما في موضعِ الحالِ أي: مسرفين ومبادرين[١]. و«أن يكبروا» معمول لقوله «وبداراً». وجاء «ولا تأكلوها»[٢] ولا يُراد خصوصيةُ الأكلِ بل عبّر بذلك عن أخذِ مالِ اليتامى إذ الأكلُ أعظم منافع الأخذ.

«ومن كان غنياً» الجملتين[٣]، الظاهر يدل على أنه تقسيمٌ لحالِ الوصيِّ على اليتيم فأمره تعالى بالاستعفافِ عن ماله إنْ كان غنيًّا واقتناعه بما رزقه الله تعالى من الغنى، وأباح له الأكلَ بالمعروفِ من مال اليتيم إنْ كان فقيراً بحيث يأخذ قوتاً محتاطاً في تقديره. وظاهرُ هذه الإباحةِ أنه لا تبعةَ عليه ولا يترتب في ذمته ما أخذ ممّا يسدُّ جوعته ويستر عورته بما لا يكونُ رفيعاً[٤] من الثيابِ ولا يقضي إذا أيسر.

﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أمر تعالى بالإشهادِ لحسم مادة النزاعِ وسوء الظن بهم والسلامة من الضمان والغرم على تقدير إنكار اليتيم، وطيّب خاطره[٥] بفكِّ الحَجْرِ عنه وانتظامه في سلك مَنْ يعامِل ويعامَل. وإذا لم يُشهد فادّعى عليه صُدِّقَ مع اليمين عند أبي حنيفة وأصحابه، وعند مالك والشافعي لا يُصدّق إلا بالبيِّنة فكان في الإشهاد الاحتراز عن توجّه الحلف المفضي إلى التهمة أو من وجوب الضمان إذا لم تقم البيّنة، وظاهرُ الأمر أنه واجبٌ.

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ ﴾ بالله فاعل كفى، والباء زائدة أي وكفى الله [حسيبا].

---

(١) ق: ومبدرين.

(٢) ق: لتأكلوها.

(٣) ق: الجملتان.

(٤) ق: بما يأكلون رفيعاً.

(٥) ق: خاطر اليتيم.

و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز، فقيل مبالغة من حاسب، وقيل معناه محاسب كجليس بمعنى مجالس.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾
وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية، كان اليونان يعطون جميعَ [المالِ] للبنات لأنَّ الرجلَ لا يعجزُ عن الكسبِ والمرأة تعجز، وكانت العربُ لا يعطون البنات فردّ على الفريقين. والمعنيُّ بالرجالِ الذكورِ وبالنساء الإناث لقوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴿١﴾﴾ [النساء]. وأبهمَ في قوله «نصيب» [وكذا] أبهم في الأقربين لم يعيّن مَنْ هم. قال الزمخشري[(1)]: و«نصيباً مفروضاً» نصب على اختصاص بمعنى أعني نصيباً مفروضاً مقطوعاً واجباً انتهى. إنْ عنى بالاختصاص ما اصطلح عليه النحويون فهو مردودٌ بكونه نكرة، والمنصوب على الاختصاص نَصُّوا على أنه لا يكون نكرة.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمةَ الميراثِ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: من المالِ المقسوم.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ﴾ ظاهر هذه الجملة أنه أَمْرٌ بخشيةِ الله واتّقائه. والقول السديد مَنْ ينظر في حال [١٠٩/أ] ذرية ضعاف لتنبيهه على ذلك بكونه هو

---

(١) الكشاف ١ : ٥٠٣.

يتركُ ذريةً ضِعافاً، فيدخل في ذلك وُلاةُ الأيتام قاله ابن عباس.

[﴿إِنَّ] ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية، قيل: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون من أموال اليتامى ما لم يُبح لهم، وهي تتناولُ كُلَّ أكلٍ بظلمٍ وإنْ لم يكن وصياً. وانتصاب «ظلماً» على أنه مصدر في موضع الحال، أو مفعول من أجله. وخبر إنَّ هي الجملة من قوله «إنما يأكلون». وفي ذلك دليلٌ على جوازِ وقوع الجملة المصدَّرة بإنَّ خبراً لإنَّ، وفي ذلك خلاف. وحسّن [ذلك هنا] تباعدهما بكون اسم إنَّ موصولاً فطال الكلام بذكر صلته.

و﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ معناه ملء بطونهم وهو متعلقٌ بـ«يأكلون». وقال أبو البقاء[1]: في موضع الحال من قوله «ناراً» انتهى. والأوْلى تعلّقه بـ«يأكلون» كما قلنا. ونبّه بقوله «في بطونهم» على نَقْصِهم ووصفهم بالشَّرهِ في الأكلِ والتهافتِ في نيل الحرام بسبب البطن. وظاهر قوله «ناراً» أنهم يأكلون ناراً حقيقة. وفي حديث أبي سعيد عن ليلةِ الإسراء قال رسول الله ﷺ[2] «رأيتُ قوماً لهم مشافرُ كمشافرِ الإبلِ، وقد وكّل بهم مَنْ يأخذ بمشافرِهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافِلهم. فقلتُ: يا جبريل مَنْ هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً». وقرىء: وسيصلون بفتح الياء وبضمّها.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن ١ : ١٦٨.

(٢) الترغيب والترهيب ٦ : ١٥٢ بألفاظ مقاربة. وهو جزء من حديث الإسراء رواية أبي سعيد الخذري أورده ابن كثير ٤ : ٢٥٦.

﴿الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية، لما أَبهم في قوله ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴿٧﴾﴾ [النساء][1] في المقدر والأقربين، بَيَّنَ في هذه الآية المقاديرَ ومَنْ يرث من الأقربين، وبدأ بالأولادِ[2] وإرثهم من والديهم كما بدأ في قوله «للرجال نصيب مما ترك الوالدان» بهم. وفي قوله «في أولادكم» إجمالٌ أيضاً بَيَّنَهُ بَعْدُ. وبدأ بقوله «للذَّكَرِ» وتبيين ما له، دلالة على فضله [وكان تقديم الذكر أدلّ على فضله] من ذكر بيانِ نقص الأنثى عنه، ولأنهم كانوا يورثون الذكورَ دون الإناث فكفاهم أنْ ضُوعفَ لهم نصيب الإناث فلا يُحرمن إذْ هنّ يدلين بمثل ما يدلون من الولديّة. وقد اختلف القول في سبب النزول، ومضمن أكثر تلك الأقوال أنهم كانوا لا يورثون البنات كما تَقَدَّمَ فنزلت تَبْييناً لذلك ولغيره.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ ظاهر هذا التقسيم أنّ ما زاد على الثنتين من الأولاد يرثن الثلثين مما ترك مورثها، وظاهرُ السياق انحصار الوارث فيهن. ولما كان لفظُ الأولاد يشملُ الذكورَ والإناث وقصد بيان حكم الإناث، أخلص الضمير للتأنيث إذ الإناث أحد قسمي ما ينطلق عليه الأولاد فعاد الضمير على أحد القسمين. والضمير في «كنّ» ضمير الإناث كما قلنا، أي: فإن كان الوارثات نساء، وحسّن[3] كونه خبراً الوصف بقوله «فوق اثنتين».

---

(١) بعده في ق: في المقدار والأقربون.

(٢) ق: بأولادكم.

(٣) ق: حسن.

وأجاز الزمخشري(١) أن يكون «نساءً» خبراً(٢) و«فوق» خبراً ثانياً لكان. وليس بشيء لأن الخبر لا بد أن تستقل به فائدة الإسناد، ولو سكت على قوله «فإن(٣) كنّ نساءً» لكان نظير: إنْ كان الزيدون رجالاً، وهذا ليس بكلام. وقال بعض البصريين: التقدير: وإن كان المتروكات نساءً فوق اثنتين، وقدّره الزمخشري: البنات أو المولودات.

وقال الزمخشري(٤): فإن قلت: هل [يصحّ] أن يكون الضميران في «كنّ» و«كانت» مبهمين ويكون «نساء» و«واحدة» تفسيراً(٥) لهما على أنّ كان تامّة؟ قلت: لا أبعد ذلك انتهى. ويعني بالإبهام أنهما لا يعودان على مفسّر متقدم بل يكون مفسّرهما هو المنصوب بعدهما. وهذا الذي لم يبعده الزمخشري هو بعيد أو ممنوع ألبتّة، لأن «كان» ليست من الأفعال التي يكون فاعلها مضمراً يفسّره ما بعده، بل هذا مختص من الأفعال بنعم وبِئْسَ [١٠٩/ب] وما حمل عليهما وفي باب التنازع [على] ما قرر في النحو. ومعنى «فوق اثنتين» أكثر من اثنتين بالغات ما بلغنَ من العددِ فليس [لهن] إلا الثلثان.

ومَنْ زعم أن معنى قوله «نساء فوق اثنتين» [اثنتان] فما فوقهما وأن قوة الكلام تقتضي ذلك كابن عطية، أو أنّ «فوق» زائدة. مُسْتَدِلاًّ بأن «فوق» قد زِيدت في قوله ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ١٢﴾ [الأنفال] فلا نحتاجُ في(٦) ردِّ ما

(١) انظر الكشاف ١: ٥٠٦.

(٢) ق: خبر.

(٣) ق: وإن.

(٤) الكشاف ١: ٥٠٦.

(٥) ق: تفسير.

(٦) ق: إلى.

زعمَ إلى حجةٍ لوضوحِ فساده. وذكروا أن سهم الثنتين في الميراث الثلثان كالبنات، قالوا: ولم يخالف في ذلك إلا ابن عباس فإنه يرى لهما النصف إذا انفردا كحالهما إذا اجتمعا مع الذكر. وورد في الحديث في قصة أوس بن ثابت أن رسول الله ﷺ أعطى البنتين الثلثين.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي: وإن كانت الوارثة واحدة. قرىء بضم التاء على أنّ كان تامة، وبنصبها على الخبر. وقرىء: النصف بضم النون وكسرها.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ [مِمَّا تَرَكَ] إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لما ذكر الفروع ومقدار ما يرثون، أخذ في ذكر الأصول ومقدار ما يرثون فذكر أن الميّتَ يرثُ منه أبواهُ كل واحدِ السدس إنْ كان للميتِ ولدٌ. وأبواه هما أبوه وأمه، وغلّب لفظ الأب في التثنية كما قيل القمران فغلّب القمر لتذكيره على الشمس وهي تثنية لا تنقاس. وشمل قوله «إن كان له ولد»[1] الذكر والأنثى والواحد والجماعة. وظاهر الآية أنَّ فرض الأب السدس إذا كان للميت ولد أيّ ولدٍ كان، وباقي المال للولد ذكراً كان أو أنثى. والحكم عند الجمهور أنه لو كان الولد ابنة أخذ السدس فرضاً والباقي تعصيباً. وتعلّقت الروافضُ بظاهر لفظ «ولد» فقالوا: السدس لكل واحد من أبويه والباقي للبنت أو الابن إذِ الولد يقع على الذكر والأنثى.

والضمير في «لأبويه» عائدٌ على ما عاد عليه الضميرُ في «ترك» وهو ضمير الميت الدالّ عليه معنى الكلام وسياقه. و«لكل واحد منهما» بدل من «أبويه»

---

(١) ق: وله ولد.

ويفيد معنى التفصيل وتبيين[١] أنَّ السدس لكل واحد منهما، إذْ لولا هذا البدل لكان الظاهر اشتراكهما في السدس وهو أبلغ وآكد من قولك: لكل واحد من أبويه السّدس إذ تكرر ذكرهما مرتين بالإظهار ومرة بالضمير العائد عليهما.

قال الزمخشري[٢]: و«السدس» مبتدأ وخبره «لأبويه» والبدل متوسط بينهما انتهى. وفي قوله: و«السدس» مبتدأ وخبره «لأبويه» نظر، لأن البدل هو الذي يكون الخبر له دون المبدل منه كما مثّلناه في قولك: أبواك كل [واحد] منهما يصنع كذا، إذا أعربنا كُلًّا بدلاً وكما تقول: إن زيداً عينه حسنة. فكذلك ينبغي أن يكون إذا وقع البدل خبراً فلا يكون المبدل منه هو الخبر. واستغني عن جعل المبدل منه خبراً بالبدل كما استغني عن الإخبار عن اسم إنّ وهو المبدل منه بالإخبار عن البدل.

ولو كان التركيب: ولأبويه[٣] السدسان لأوهم التنصيف أو الترجيح في المقدار بين[٤] الأبوين، فكان هذا التركيب القرآني في غاية النصّية والفصاحة.

وظاهر قوله «لأبويه» أنهما اللذان ولدا الميتَ قريباً لا جَدَّاه[٥] ولا من علا من الأجداد.

وزعموا أن قوله «في أولادكم» يتناول من سفل من الأبناء قالوا: لأن الأبوين لفظ مثنى لا يحتمل العموم ولا الجمع، بخلاف قوله «في أولادكم».

---

(١) ويتبيّن.

(٢) الكشاف ١: ٥٠٧.

(٣) ق: ولا به.

(٤) ق: من.

(٥) ق: ولد الميت.. لأجداده.

وفيما قالوه نظر وهما عندي سواء في الدلالة إنْ نظر إلى حمل اللفظ على حقيقته فلا يتناول إلا الأبناءَ الذين ولدهم الأبوان قريباً لا من سفل، كالأبوين لا يتناول إلا من ولداه قريباً لا من علا - أو إلى حمل اللفظ على مجازه فيشترك اللفظان في ذلك فينطلق الأبوان على مَنْ ولداه قريباً ومَنْ علا، كما ينطلقُ الأولاد على مَنْ ولداهم ومن سفل. ويبيّن حمله على الحقيقة في الموضعين أنَّ ابن الابن لا يرث مع الابن وأن الجدة [١١٠/أ] لا يفرض لها الثلث بإجماع، فلم يتنزّل ابن الابن منزلة الابن مع وجوده، ولا الجدة منزلة الأم.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾. قوله: «فإن لم يكن له ولد» قسيمٌ لقوله «إن كان له ولد». «وورثه أبواه» دليلٌ على أنهما انفردا بميراثه ليس معهما أحدٌ من أهلِ السهام لا ولد ولا غيره، فيكون قوله «وورثه أبواه» حكماً لهما بجميع المال، فإذا خلص[١] للأم الثلث كان الباقي وهو[٢] الثلثان للأب، فذِكْر القسم الواحد يدل على الآخر كما تقول: هذا المال لزيد وعمرو: لزيد منه الثلث، فيعلم قطعاً أن باقيه وهو الثلثان لعمرو. فلو كان معهما زوج كان للأم السدس وهو الثلث بالإضافة إلى الأب.

وقال ابن عباس وشريح: للأم الثلث من جميع المال مع الزوج، والنصف للزوج وما بقي للأب، فيكون معنى «وورثه أبواه» منفردين أو مع غير ولد. وهذا مخالف لظاهر قوله «وورثه أبواه» إذ يدل على أنهما انفردا بالإرث فيتقاسمان للذكر مثل حظ الأنثيين. ولا شك أنَّ الأبَ أقوى من الأم في الإرثِ إذْ يضعف نصيبه على نصيبها إذا انفردا بالإرث، ويرث بالفرض

(١) ق: أخلص.

(٢) ق: هو.

وبالتعصيب وبهما. وفي [قول] ابن عباس وشريح يكون لها[1] مع الزوج والأب مثل حظ الذكرين فتصير أقوى من الأب، وتصير الأنثى لها مِثْلا حَظِّ الذكر. ولا دليل على ذلك من نصٍّ ولا قياس.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ المعنى إذا كان أب وأم وإخوة كان نصيب الأم السدس، وحطّها الإخوة من الثلث إلى السدس، وصار الأب يأخذ خمسة الأسداس. وذهب ابن عباس إلى أنَّ الإخوةَ يأخذون ما حجبوا الأمَّ عنه وهو السدس ولا يأخذه الأب. وروي عنه أن الأب يأخذه لا الإخوة كقول الجماعة.

وقال الزمخشري[2]: الإخوة تفيد[3] معنى الجمعية المطلقة بغير كمية والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق فدلّ بالإخوة عليه انتهى. ولا يسلم له دعوى أن الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بل تفيد معنى [الجمعية] التي بعد التثنية بغير كمية فيما بعد التثنية، فيحتاج في إثبات دعواه إلى دليل.

وظاهر «إخوة» الإطلاق فيتناول الإخوة من الأم فيحجبون كما قلنا. قيل: وذهبت الروافضُ إلى أنَّ الإخوة من الأم لا يحجبون الأُمَّ لأنهم يدلون بها فلا يجوز أن يحجبوها ويجعلوها كغيرها فيصيرون ضارّين لها نافعين لغيرها. واستُدِلَّ بهذه الآية على أنَّ البنتَ تقلب حق الأم من الثلث إلى السدس بقوله «فإن كان له إخوة» لأنها إذا حُرمت الثلث بالإخوة وانتقلت إلى

(١) ق: لهما.

(٢) الكشاف ١ : ٥٠٨.

(٣) ق: تقيّد.

السّدس فلأن تحرم بالبنت أولى.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ المعنى أن قسمة المال بين من ذكر إنما يكون بعد خروج ما يجب إخراجه بوصية أو بدَين. وليس تعلّق الوصية والدَّين بالتركة سواء؛ إذ لو هلك من التركة شيء قبل القسمة ذهب من الورثة والموصى له جميعاً ويبقى الباقي بينهم بالشركة ولا يسقط من الدَّين شيءٌ بهلاكِ شيء من التركة. وليس تعلق الوصية والدَّين بالمال الموروث سواء، ألا ترى أنَّ الدَّينَ لا يسقطُ منه شيء بذهابِ بعض المال، بخلافِ الوصيةِ فإنه يسقط منها ما يقابل بعض المال الذاهب. ويتعلق «من بعد» بفعلٍ محذوفٍ تقديره: يستحقون ذلك من بعدِ وصيةٍ. وقرىء: يوصي بكسر الصاد وفتحها، وهو مضارع في موضع الماضي. و«أو» هنا كهي في قولهم: جالِسِ الحسن أو ابن سيرين.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ أي: فاقسموا الميراث على ما بيّن لكم من يعلم النفع والمصلحة فإنكم لا تدرون أنتم ذلك. وقال الزّجاج: إنه تعالى قد فرض الفرائض على ما هو حكمة عنده[1] [١١٠/ب] ولو وكّل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فتضيعون الأموال على غير حكمة، ولهذا أتبعه بقوله «إن الله كان عليماً» أي: بمصالح خلقه «حكيماً» فيما فرضَ. و«أيهم أقرب» مبتدأ وخبره علّق عنه «تدرون» لأنه من أفعالِ القلوبِ، والجملة في موضع نصب. ويجوز أن يكون «أيهم» موصولاً مفعولاً بـ«تدرون» وهو مبنيٌّ على الضم إذ قد وُجد شرط بنائها وهو إضافتها لما بعدها وحذف صدر صلتها فالمعنى: لا تدرون الذين هم أقربُ لكم نفعاً.

(١) ق: عنده حكمة.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انتصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة في قَسْم المواريث، فوقع «فريضة» موقع فرضاً من الله، أو على أنها[1] حال مؤكدة لمضمون الجملة السابقة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [أي: عليماً بمصالح العباد حكيماً] فيما فرضَ وقسمَ من المواريثِ وغيرها.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ لما ذكر تعالى ميراثَ الفروعِ من الأصولِ وميراث الأصول من الفروع، أخذ في ذكر ميراث المتصلين بالسبب لا بالنسب وهو الزوجية، ولم يذكر في القرآن التوارثَ بسببِ الولاء. والتوارث المستقر في الشرع هو بالنسب والسبب الشامل للزوجية والولاء. وكان في صدر الإسلام يُتوارثُ بالموالاةِ والحلفِ والهجرة فنسخ ذلك. وقدّم ذكر ميراث سبب الزوجية على ذكر الكلالةِ وإنْ كان بالنسب لتواشجِ ما بين الزوجين واتصالهما واستغناء كُلٍّ واحدٍ منهما بعشرة صاحبه دون عشرة

---

(١) وأنها على.

الكلالة. وبُدىء بخطابِ الرجالِ لما لهم من الدرجاتِ على النساء. ولمّا كان الذكر من الأولاد حظُّه من الأنثى مثل حَظِّ الأُنثيين، جعل في سبب التزوج الذكر له مِثْلا[1] حظِّ الأنثى.

ومعنى ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: منكم أيها الوارثون أو من غيركم. والولدُ هنا ظاهره أنه مَنْ ولدته لبطنها ذكراً كان أو أنثى واحداً أو أكثر. وحُكْم بني[2] الذكور منها وإنْ سفلوا حُكْم الولدِ للبطن في أنّ فَرْض الزوج منها الربع مع وجوده بإجماع. والكلالةُ خُلُوُّ الميتِ عن الوالدِ والولد، والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالّة ضعيفة. وقرىء: يورَث مبنياً للمفعول ويورِث مبنياً للفاعل، فعلى قراءة من قرأ: يورَث فانتصابها على الحالِ من الضمير المستكنِّ في «يورث». وإذا وقع على الوارث احتيج إلى تقدير: ذا كلالةٍ لأنَّ الكلالةَ ليست نفس الضمير في «يورث». وإن كان معنى الكلالة القرابة فانتصابها على أنه مفعول من أجله أي يورث لأجل الكلالة، وعلى قراءة من قرأ: يورِث بكسر الراء فإن كانت الكلالةُ هي الميت فانتصابها على الحال والمفعولان محذوفان، التقدير[3]: يورِث وارثه ماله في حال كونه كلالة، وإنْ كان المعنيّ بها الوارث فانتصاب الكلالة على المفعول به بـ«يورث» ويكون المفعول الثاني محذوفاً تقديره: يورث كلالةً مالَه أو القرابة فعلى المفعول من أجله، والمفعولان محذوفان أيضاً.

(١) ق: مثل.

(٢) ق: بين.

(٣) ق: فإن التقدير.

﴿ أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ معطوف على قوله «رجل» وحذف منه «كلالة» لدلالة ما قبلها عليه.

[وظاهر] ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ الإطلاق، إذ الأخوَّةُ تكون من الأخيافِ والأعيانِ وأولادِ العلاّت[1]، وأجمعوا على أنَّ المراد في هذه الآية الإخوة من الأم ويوضح ذلك قراءة أبيٍّ: وله أخ أو أخت من الأم.

﴿ فَإِن كَانُوٓاْ ﴾ الضمير عائد على الوارث، ومعنى «أكثر» زائداً على أخ أو أخت. ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ وسيأتي أيضاً حكم الكلالة في آخر هذه السورة. وجاءت الوصيةُ مطلقةً وهي مقيدة في الشرع بالثلث فما دونه إن كان للموصي وارث، فإن لم يكن له وارث فأجاز شريكٌ وأبو حنيفة وأصحابه الوصيةَ [١١١/أ] بجميعِ ماله.

﴿ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ انتصب على الحال من الفاعل في «يوصى». وهذا القيد ليس مخصوصاً بهذه الآية الأخيرة بل هو معتبر في قوله «يوصى» أولاً و«يوصين» و«توصون» وحذف لدلالة ما بعده عليه، والمعنى: غير مضارّ ورثته، ووجوه الضرر كثيرة كأن يوصي بأكثر من الثلث أو يحابي به أو يهبه أو يصرفه إلى وجوه القُرَب من عتق أو غيره فراراً عن وارث محتاج أو يقرّ بدين ليس عليه. وانتصب «وصية من الله» على أنه مصدر مؤكد أي يوصيكم الله بذلك وصية كما انتصب «فريضة من الله»[2]، أو مصدر في موضع الحال والعامل «يوصيكم». وقرىء بإضافة «مضار» لـ«وصية» والمعنى: غير مضارّ

---

(١) الأعيان: الإخوة من الأب والأم، والأخياف: الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى، والعلاّت: الذين أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

(٢) في الآية السابقة.

في وصية، حذف «في» وأضاف اسم الفاعل كما قال[1]: [من الرجز]

يا سارقَ الليلةِ أهل الدارْ

أصله يا سارقاً في الليلة. وانظر إلى حُسْن هذا التقسيم في الميراث، وسبب الميراث هو الاتصال بالميت فإنْ كان بغير واسطة فهو النسب وبدأ فيه بالفروع والأصول، [أو] بسبب وهو الزوجية. فالأول ذاتي والثاني عَرَضي، ثم ذكر آخراً الكلالة وهو ميراث الحواشي وليست أصولاً ولا فروعاً للميت. والمذكورون في الآيتين قبل آية الكلالة لا يسقط أحد منهم في الميراث بخلاف الكلالة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ الأَوْلى أن تكون «تلك» إشارة إلى الأحكام السابقة في أحوالِ اليتامى والزوجات والوصايا والمواريث. وجعل هذه الشرائع حدوداً لأنها مضروبة مؤقتة للمكلَّفين لا يجوزُ لهم أنْ يتعدّوها إلى غيرها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ حمل أولاً على لفظة «مَن» في قوله «يطع» و«يدخله» فأفرد، ثم حمل على المعنى في قوله «خالدين» فجمع. وانتصاب «خالدين» على الحال المقدرّة والعامل فيه «يدخله» وصاحب الحال هو ضمير المفعول في «يدخله».

---

(١) الكتاب ١ : ١٧٥ وشرح ديوان الحماسة ٢ : ٦٥٥، غير منسوب فيهما.

قال ابن عطية: وجمع «خالدين» على معنى «مَن» بعد أن تقدم الإفراد مراعاةً للفظ «مَن» وعكس هذا لا يجوز انتهى. وما ذكر أنه لا يجوز من تقدم الحمل على المعنى ثم على اللفظ جائز عند النحويين، وفي مراعاة الحملين تفصيل وخلاف مذكور في كتب النحو المطوّلة.

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: هل يجوز أن يكونا صفتين لـ«جناتٍ» و«ناراً»؟ قلتُ: لأنهما جَرَتا على غيرِ مَنْ هُمَا له[٢] فلا بد من الضمير وهو قولك: خالدين هم فيها وخالداً هو فيها انتهى. وما ذكره ليس مُجْمعاً عليه بل فرع على مذهب البصريين، وأما عند الكوفيين فيجوز ذلك ولا يحتاج إلى إبراز الضمير إذا لم يلبس، على تفصيل لهم في ذلك ذكر في النحو. وقد جوّز ذلك في الآية الزّجاج والتبريزي أخذاً بمذهب الكوفيين.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ حمل على لفظ «مَن» في جميع الضمائر فأفرد، وزاد ها هنا على العصيان تَعدِّي الحدود، وذكر مقابله الإهانة لأنه لا يتعدّاها إلا من اعتزّ[٣] فناسبته الإهانة. وأفرد هنا «خالداً» وجمع في الآية قبله لأن أهل الطاعة أهل الشفاعة، وإذا شفع في غيره دخلها هو ومن يشفع فيه، والعاصي لا يدخل النار به غيره فبقي وحيداً انتهى.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا

(١) الكشاف ١: ٥١١.
(٢) ق: لهما.
(٣) ط: اغترّ.

فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا
حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ جمع التي وهي [أحد] الجموع التي لها. والفاحشةُ هنا الزنى بإجماع من المفسرين إلا ما ذهب إليه مجاهد وتبعه أبو مسلم الأصبهاني من أنَّ الفاحشةَ هنا المساحقة وأن قوله تعالى «واللَّذانِ يَأْتيانها منكم» في اللواط، وقول غيرهما من المفسرين أنَّ الآيتين في الزنى. ومناسبة الآيتين لما قبلهما أنه ذكر مَنْ يعصي الله تعالى [١١١/ب] ويتعدَّى[١] حدوده فأَتْبَعَ ذلك بذكرِ بعضِ أحوالِ العُصاة.

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ السبيل هو ما استقرَّ عليه حكم الزنى من الحدِّ وهو البِكْرُ بالبكرِ جلدُ مئةٍ وتغريبُ عام، والثَّيِّبُ بالثّيب رجمٌ بالحجارة. وثبت تفسير السبيل بهذا من حديث عبادة بن الصامت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ فوجبَ المصيرُ إليه[٢]. وحديثُ عبادة ليس بناسخٍ لهذه الآية ولا لآية الجلد بل هو مبّين لمجمل في هذه الآية، إذ غيّا إمساكهن في البيوت إلى أنْ يجعل الله لهن سبيلاً، وهو مخصص لعموم آية الجلد. وفي تفسير مجاهد وأبي مسلم في الفاحشة أنها السحاق فالسبيل عندهما أن تتزوج المساحقة. وفي قوله «فاستشهدوا» دلالة على طلب الاستشهاد وجواز نظر

(١) عبارة ق: أنه في ذكر من يعص الله تعالى ويعص الله ويتعدى.

(٢) نصّه فيه ٣: ١٣١٦ «خُذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهنَّ سبيلاً: البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم».

الشاهد إلى فرج المزنيِّ بها لأجل الشهادة.

﴿ وَٱلَّذَانِ﴾ تثنية الذي [وغلّب التذكير إذ المراد الزاني والزانية. وقرىء: واللذانّ بالتشديد]. «يأتيانها» الضمير عائد على الفاحشة. ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ يدل على مطلق الإيذاء، وتبيّن في غير [هذه] الآية تعيين الأذى بالجلد والرجم للمحصن، وبالجلد فقط للبكرين واعتبار شهادة أربعة في هذه الآية كما سبق في الآية قبلها. ﴿فَإِن تَابَا﴾ أي: عن المعصية ﴿وَأَصْلَحَا﴾ عملهما في الطاعة ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ هي متاركة، ودلَّ ذلك على أنَّ الأذى المذكور في الآية ليس ما تقرر آخراً في الشرعِ من الجلد والرجم، بل هو ضربٌ بالأيدي والنعال وتقبيحٌ للفعلِ وما أشبه ذلك.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه محذوفان، تقديره: إنما قبول التوبة على فضل الله. وليس ذلك على[(١)] سبيلِ الوجوب كما ذهب إليه الزمخشري وغيره من المعتزلة. والسوء يعمّ الكفر [والمعاصي].

و﴿ بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال أي: جاهلين بما يترتب على المعصية من العقوبة لأنه لو تيقّن العقوبة لما عصى. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي: من زمان قريب من زمان المعصية فلا يصرّون على فعلها[(٢)] كقوله تعالى ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نفى تعالى أن تكون التوبة للعاصي الصائر في حيّز اليأس من[(٣)] الحياة، ولا للذي وافى على الكفر،

(١) ق: وليس حاكمه على.
(٢) ق: على ما فعلها.
(٣) ق: عن.

فالأول كفرعون إذ لم ينفعه إيمانه وهو في غمرة الماء والغرق، وكالذين قال تعالى فيهم ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر]. وحضور الموت أول أحوال الآخرة، فكما أنَّ مَنْ مات على الكفر لا تُقبلُ منه التوبةُ في الآخرة فكذلك هنا الذي حضره الموت.

قال الزمخشري[1]: فإنْ قلت: مَن المراد بالذين يعملون السيئات أهم الفُسَّاق من أهل القبلة أم الكفار؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أنْ يراد به الكفار لظاهر قوله «وهم كفار»، وأن يراد به الفسّاق لأنَّ الكلامَ إنما وقع في الزانيين والإعراض عنهما إن تابا وأصلحا، ويكون قوله «وهم كفار» وارداً[2] على سبيل التغليظ كقوله تعالى ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله «فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر[3]» لأنَّ مَنْ كان مصرًّا ومات وهو لا يُحدِّثُ نفسه بالتوبةِ حالُه قريبٌ من حال الكفار لأنه لا يجترىءُ على ذلك إلا قلبٌ مُصْمت انتهى كلامه.

وهو في غاية الاضطراب لأنه قبل ذلك حملَ الآيةَ على أنها دالّة على قسمين أحدهما الذين سَوَّفوا بالتوبةِ إلى حضور الموت، والثاني[4] الذين ماتوا على الكفر. وفي هذا الجواب حملُ الآية على أنها أُريد بها أحد القسمين إما الكفار فقط وهم الذين وصفوا عنده بأنهم يعملون السيئات ويموتون على الكفر، وعلّل هذا الوجه بقوله: لظاهر قوله «وهم كفار»

(١) الكشاف ١: ٥١٣.

(٢) ق: وارد.

(٣) في سنن ابن ماجة ١: ٣٤٢ «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».

(٤) كتبت في الحاشية.

فجعل هذه الحال دالّة على أنه أريد بالذين يعملون السيئات هم الكفار - وإما الفسّاق من المؤمنين فيكون قوله «وهم كفار» لا يراد به الكفر حقيقة [ولا أنهم يوافون على الكفر حقيقة] وإنما جاء ذلك على [١١٢/أ] سبيل التغليظ عنده، فقد خالف تفسيره في هذا الجواب صدر تفسير الآية أولاً، وكل ذلك انتصاراً لمذهبه حتى يرتب العذاب إما للكافر وإما للفاسق، فخرج بذلك عن قوانين النحو والحمل على الظاهر، لأن قوله «وهم كفار» ليس[1] ظاهره إلا أنه قيّد في قوله «ولا الذين يموتون» فظاهره الموافاة على الكفر حقيقة. وكما أنه شرط في انتفاء قبول توبة الذين يعملون السيئات إيقاعها في حال حضور الموت، كذلك شرط في ذلك كفرهم حالة الموت، وظاهر العطف التغاير. والزمخشري [في هذا] كما قيل في المثل: حُبُّكَ الشيء يُعْمِي ويصمّ[2].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن عباس وعكرمة والحسن وأبو مِجْلَز: كان

(١) ق: ليست.

(٢) مجمع الأمثال ١: ٢٠٥.

أولياء الميت أحق بامرأته من أهلها إن شاؤوا زوّجوها غيرهم أو تزوّجها أحدهم أو منعوها، وكان ابنه من غيرها يتزوجها، وكان ذلك في الأنصار لازماً وفي قريش مباحاً. وقال مجاهد: كان الابنُ الأكبر أحق بامرأةِ أبيه من غيره يتزوجها. وقال السدّي: إنْ سبقَ الولي فوضع ثوبه عليها كان أحق بها، أو سبقته[1] إلى أهلها كانت أحق بنفسها، فأذهبَ اللهُ ذلك بهذه الآية. والخطاب للأولياء نُهوا أنْ يرثوا النساءَ المخلفات عن الموتى كما يورث المال[2].

والمرادُ نفيُ الوراثة في حالِ الطوعِ والكراهةِ لا جوازها في حال الطوع استدلالاً بالآية، فخرج قيد الكره مخرجَ الغالبِ لأنَّ غالبَ أحوالهن أنْ يكن مجبوراتٍ على ذلك إذ كان أولياؤه أحق بها من أولياء نفسها.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن وتُضَيِّقُوا عليهن. وظاهر هذا الخطاب أنه للأزواج لقوله «ببعض ما آتيتموهن» لأنَّ الزوج هو الذي أعطاها الصَّداقَ وكان يكره صحبة زوجته ولها عليه مهر فيحبسها ويضربها حتى تفتدي منه قاله ابن عباس. ويحتمل أن يكون الخطاب للأولياء والازواج في قوله «يا أيها الذين آمنوا»، فلُفّوا في هذا الخطاب ثم أفرد كل [واحد] في النهي بما يناسبه، فخوطب الأولياءُ بقوله «لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها» وخوطب الأزواج بقوله «ولا تعضلوهن» فعادَ كُلُّ خطابٍ إلى ما يناسبه.

والظاهر أن قوله «ولا تعضلوهن» أنّ «لا» نهيٌ فالفعل مجزوم بها، والواو

(١) ق: سبقه.

(٢) ق: عن الولي كما يرث المال.

عاطفة لجملة طلبية على جملة خبرية لتضمُّنِ الخبريةِ معنى النهي، لأنَّ معنى قوله «لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء» لا ترثوا النساء، هذا على قول من ذهب إلى أن العطف في الجمل يُشترط فيها المناسبة. وأما على مذهب سيبويه فلا يشترط فيجوز عطف جملة النهي على جملة الخبر.

وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون «تعضلوهن» نصباً عطفاً على «ترثوا» فتكون الواو مشركة عاطفة فعلاً[1] على فعل. وقرأ ابن مسعود: ولا أن[2] تعضلوهن، فهذه القراءة تقوّي احتمال النصب فإن العضل مما لا يحلّ[3] بالنص. وعلى تأويل الجزم هو نهي معرض لطلب القرائن في التحريم أو الكراهة، واحتمال النصب أقوى. انتهى ما ذكره من تأويل هذا الوجه، وهو لا يجوز وذلك أنك إذا عطفتَ فعلاً مَنْفياً بلا على مُثْبَتٍ وكانا منصوبين فإنَّ الناصبَ لا يقدّر إلا بعد حرف العطف لا بعد «لا»، فإذا قلت: أريدُ أنْ أتوبَ ولا أدخل النار، فالتقدير: أريد أن أتوب وأن لا أدخل النار، لأن الفعل يطلب الأول على سبيل الثبوت، والثاني على سبيل النفي فالمعنى: أريد التوبة وانتفاء دخول النار، فلو كان الفعل المتسلّط على المتعاطفين منفياً فكذلك، ولو قدّرت هذا التقدير في الآية لم يصحّ. لو قلت: لا يحل لكم أن لا تعضلوهن، لم يصحّ إلا أن تجعل «لا» زائدة لا نافية وهو خلاف الظاهر، وأما أن تقدّر أنْ بعد لا النافية فلا يصح. وإذا قدّرت أنْ بعد لا كان من باب عطف المصدر المقدّر على المصدر المقدّر لا من باب عطف الفعل

(١) ق: فعل.

(٢) ق: وأن لا.

(٣) ق: يحمل.

[١١٢/ب] على الفعل، [فالتبسَ على ابنِ عطية العطفان، وظَنَّ أنه بصلاحية تقدير أنْ بعد لا يكون من عطف الفعل على الفعل] وفرق بين قولك: لا أريد أن تقوم وأن لا تخرج، وقولك: لا أريد أن تقوم ولا أن تخرج. ففي الأول نفي إرادة وجود قيامه وإرادة انتفاء خروجه فقد اراد خروجه، وفي الثاني[1] نفي إرادة وجود قيامه ووجود خروجه فلا يريد[2] لا القيام ولا الخروج، وهذا في فهمه بعض غموض على من لم يتمرن في علم العربية.

﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ وهذا استثناءٌ متصل ولا حاجة إلى دعوى الانقطاعِ فيه كما ذهب إليه بعضهم، وهو استثناء من ظرف زمان عام أو من علة كأنه قيل: ولا تعضلوهنّ في وقت من الأوقات إلا وقت أن يأتين، أو لا تعضلوهن لعلَّةٍ من العللِ إلا أنْ يأتين.

والظاهر أن الخطاب بقوله «ولا تعضلوهن» للأزواج إذْ ليس للولي حبسها حتى يذهبَ بمالها[3] إجماعاً من الأمة وإنما ذلك للزوج على ما تبين. والفاحشة هنا الزنيِ قاله أبو قلابة والحسن. قال الحسن: إذا زنت البكرُ جُلدت مئة ونُفيت سنة ورَدَّتْ إلى زوجها ما أخذت منه. وقال أبو قلابة: إذا زنت امرأةُ الرجل فلا بأس أنْ يُضارَّها ويشقّ عليها حتى تَفتدي منه. وقال السدّي: إذا فعلن ذلك فَخُذُوا مهورهن. وقال عطاء: كان هذا الحكم ثم نُسخ بالحدود. وقال ابن سيرين وأبو قلابة: لا يحلُّ الخلع حتى يوجدَ رجلٌ على بطنها. وقال قتادة: لا يحلّ له أن يحبسها ضرراً حتى تفتدي منه، يعني وإن زنت. وقال ابن عباس وعائشة والضحّاك وغيرهم: الفاحشةُ هنا النشوزُ

(١) ق: الثانية.

(٢) ق: يردّ.

(٣) ق: مالها.

فإذا نَشزت حلَّ أنْ يأخذ مالها وهذا مذهب مالك. وقال قوم: الفاحشةُ البَذاءُ باللسان وسوء العشرة قولاً وفعلاً.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ هذا أمرٌ بحسن المعاشرة والظاهر أنه أمرٌ للأزواجِ لأنَّ التَلبس بالمعاشرة غالباً إنما هو للأزواج وكانوا يسيئون معاشرة النساء. وقوله «بالمعروف» أي: بالنَّصفة في المَبيتِ والنفقة والإجمال في القول، ويقال: المرأة تسمن من أذنها[1].

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: كرهتم معاشرتهن. وعسى: معناها الترجّي ولذلك جاء الجواب للشرط بالفاء في قوله «فعسى». و«شيئاً» أي: شيئاً من أخلاقهن. ولم يعد الضمير عليهن وهو كقوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۝٢١٦﴾ [البقرة]. والضمير في «فيه» عائد على شيء أو على الكراهة وهو المصدر المفهوم من قوله «أن تكرهوا».

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ الآية، لما أذن بمضارّتهن إذا أَتين بفاحشةٍ ليذهب ببعض ما أعطاه، بيّن تحريم ذلك في غير الفاحشة، وأقام الإرادةَ مقامَ الفعل فكأنه قال: وإن استبدلتم.

وظاهر قوله «وآتيتم» أن الواو للحال أي وقد آتيتم، وقيل هو معطوف على فعل الشرط وليس بظاهر. والاستبدال وضع الشيء مكان الشيء، والمعنى أنه إذا كان الفراقُ من اختياركم فلا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً. واستدل بقوله ﴿وَءَاتَيْتُمْ[2] إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ على جواز المغالاة في الصدقات. ﴿بُهْتَـٰنًا﴾ البهتانُ الكذب الذي يتحيرُ منه صاحبه، ثم صار يُطلقُ

(١) لم أجده.
(٢) ق: أو آتيتم.

على الباطل. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ هذا استفهام على سبيل الإنكار [أي] أتفعلون هذا مع ظهورِ قُبْحِه؟. وسُمِّي بهتاناً لأنهم[1] كانوا إذا أرادوا تطليق امرأة رموها بفاحشة حتى تخاف وتفتدي منه بمهرها فجاءت الآية على الأمر الغالب.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ أنكر أولاً الأخذ وأنكر ثانياً حالة الأخذ وأنها ليست مما يمكن أن تجامع حال الإفضاء لأن الإفضاء هو المباشرة [والدنو]، والإفضاء الجماع وهو كناية حسنة. والميثاق الغليظ قوله تعالى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ كان قوم من العرب يتزوجون نساء آبائهم إذا ماتوا فنهاهم الله عن ذلك. و«ما» في قوله «ما نكح» واقعةٌ[2] على النوع كقوله ﴿مَا طَابَ لَكُم ﴿٣﴾﴾ [النساء]. والآباء هنا يشمل [١١٣/أ] الأب ومن قبله من عمود النسب.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع والمعنى لكن ما سبق في الجاهلية قبل ورود النهي فلا إثم عليه. والضمير في «إنه» عائد على المصدر المفهوم من قوله «ولا تنكحوا» أي نكاح الأبناء نساء الآباء.

﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: زنى ﴿وَمَقْتًا﴾ المقت البغض باستحقار.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ إن كان الضمير في «ساء» عائداً[3] على ما عاد عليه

---

(١) ق: لأنه.

(٢) ق: واقع.

(٣) ق: عائد.

الضمير قبل ذلك، كان «سبيلاً» نصباً[١] على التمييز، وهو منقول من الفاعل والتقدير: ساء سبيله. وإن كانت «ساء» أجريت مجرى بئس كقوله تعالى ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف] ففي «ساء» ضمير يفسره ما بعده، وكان «سبيلا» تمييزاً للضمير المستكن في «ساء»، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وساء سبيله سبيلا أي سبيل ذلك النكاح. وفي الحديث[٢]: قال البراء بن عازب: لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ قال: أرسلني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ وهو على حذف مضاف أي: نكاح أمهاتكم ويدل عليه قوله قبلُ «ولا تنكحوا»[٣]. والأم حقيقة هي الوالدة،

(١) ق: نصب.

(٢) مشكاة المصابيح ٢: ٩٤٧ بألفاظ مقاربة.

(٣) الآية السابقة.

وفي معناه كل امرأةٍ رجع نسبكَ إليها بالولادةِ من جهةِ أبيك أو من جهة أمك.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ هي كل ابنة ولدتها، وفي معناه كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات بإناث أو ذكور. وقد كان في العرب مَنْ تزوج ابنته وهو حاجبُ بن زرارة تَمَجَّس.

﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ الأخت المحرّمة كُلُّ مَنْ جمعكَ وإياها صلب أو بطن.

﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ العمةُ أختُ الأبِ والخالةُ أختُ الأم. وخصَّ تحريم العمّات والخالات دون أولادهن، وتحريم عمة الأب وخالته وعمة الأم وخالتها وعمّة العمّة، وأما خالة العمة فإن كانت أخت أبٍ لأمٍ أو لأب وأمٍ فلا تحلّ خالة العمة لأنها أخت الجدة. وإن كانت العمة إنما هي أخت أبٍ لأبٍ فقط فخالتها أجنبية من بني أخيها تحلّ للرجال ويجمع بينها وبين النساء. وأما عمّة الخالة فإن كانت الخالة أخت أمٍ لأبٍ فلا تحلّ عمة الخالة لأنها أخت جدّ، وإن كانت الخالة أخت أمٍ لأمٍ فقط فعمّتها أجنبية من بني أختها[(١)].

﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ تحرم بناتهما وإنْ سفلن[(٢)]. وأفرد الأخ والأخت ولم يأتِ جمعاً لأنه أُضيف إليه الجمع فكان لفظ الإفراد أخفّ، وأُريدَ به الجنس المنتظم في الدلالة الواحد وغيره. فهؤلاء سبع من النسب تحريمهنّ مؤبّدٌ.

وأما اللواتي صرن محرمات بسببٍ طارىءٍ فذكرهن في القرآن سبعاً وهن في قوله تعالى «وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» نبّه بهذين المثالين على أنَّ الحال في باب الرضاع كالحال في باب

(١) ق: أخيها.

(٢) ق: تحريم.. سلفن.

النسب. ثم إنه عليه السلام أكَّدَ هذا بصريح قوله «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»(١) فصار صريحُ الحديثِ مطابقاً لما أشارت إليه الآيةُ، فزوج المرضعة أبوه، وأبواه جدّاه، وأخته عمّته، وكل ولد وولد له من غير المرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدّته، وأختها خالته، وكل من ولد [لها] من هذا الرجل فهم(٢) إخوته وأخواته لأبيه وأمّه، وأما ولدها من غيره فهم إخوته وأخواته لأمه.

وقالوا: تحريم الرضاع كتحريم النسب إلا في مسألتين: إحداهما: أنه لا يجوز للرجل أنْ يتزوج(٣) أخت ابنه من النسب ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع، لأنَّ المانع في النسب وطؤه أمها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع. والثانية: لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب ويجوز في الرضاع، لأن المانع في النسب وطء [الأب] إياها وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

وظاهرُ الكلام إطلاقُ الرضاعِ، ولم تتعرض الآية إلى [١١٣/ب] سِنِّ الرضاع ولا عددِ الرضعاتِ ولا للبن الفحل ولا لإرضاع الرجل لبن نفسه للصبي أو إيجاره به أو تسعيطه بحيث يصل إلى الجوف، وفي هذا كُلِّه خلافٌ مذكور في كتب الفقه. وقرىء: التي واللاتي، ومن الرضاعة بكسر الراء.

﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ ﴾ الجمهور على أنها على العموم فسواء عقد عليها ولم يدخل [بها] أو دخل بها. وروي عن علي ومجاهد وغيرهما أنه إذا

(١) صحيح مسلم ٢: ١٠٦٨، وصحيح الجامع الصغير ٦: ٣٢٧.

(٢) ق: فهو.

(٣) بعدها في ق: أم أخيه من النسب ويجوز في الرضاع لأن المانع.

طلّقها قبل الدخول فله أن يتزوج أمها وأنها في ذلك بمنزلة الربيبة.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ ظاهره أنه يشترط في تحريمها أن تكون في حجره، وإلى هذا ذهب علي وبه أخذ داود وأهل الظاهر، فلو لم تكن في حجره وفارق أُمَّها بعد الدخولِ جازَ له أنْ يتزوجها. وقالوا: حَرَّمَ اللهُ الربيبةَ بشرطين أحدهما: أنْ تكون في حجر الزوج، الثاني: الدخول بالأم، فإذا فقد أحد الشرطين لم يوجد التحريم.

و﴿ٱلَّٰتِي﴾ صفة «لنسائكم» المجرور بمن. ولا جائز أن يكون «اللاتي» وصفاً لنسائكم من قوله «وأمهات نسائكم» و«نسائكم» المجرور بمن، لأن العامل في المنعوتين قد اختلف: هذا مجرور بمن وذلك مجرور بالإضافة. ولا جائز أن يكون «من نسائكم» متعلقاً بمحذوف ينتظم [به مع] «أمهات نسائكم وربائبكم» لاختلاف مدلول حرف الجر إذ ذاك، لأنه بالنسبة إلى قوله «وأمهات نسائكم» يكون «من نسائكم» لبيانِ النساء وتمييز المدخولِ بها من غير المدخولِ بها، وبالنسبة إلى قوله «وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن» يكون «من نسائكم» لبيانِ ابتداءِ الغاية كما تقول: هذا ابني من فلانة. قال الزمخشري[1]: إلا أن [تقول]: أعلقه بالنساء والربائب وأجعل «مِن» للاتصال كقوله تعالى ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۝٦٧﴾ [التوبة]،

فإنّي لَسْتُ منكَ ولَسْتَ منّي[2] [من الوافر]

---

(١) الكشاف ١ : ٥١٦.

(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص١٩٩، وصدره:

إذا حاولت في أسدٍ فجوراً

«ما أنا من ددٍ ولا الدّد منّي[١]». وأمهات النساء متصلات بالنساء لأنهن أمهاتهن، كما أن الربائب متصلات بأمهاتهن لأنهن بناتهن انتهى.

ولا نعلمُ أحداً ذهب إلى أنّ من معاني «مِن» الاتصال وأما ما شبّه به من الآية والشعر والحديث فمتأول. وإذا جعلنا «من نسائكم» متعلقاً بالنساء والربائب كما زعم الزمخشريُّ فلا بد من صلاحيته لكل من النساء والربائب؛ فأما تركيبه مع الربائب ففي غاية الفصاحة والحسن وهو نظم الآية، وأما تركيبه مع قوله «وأمهات نسائكم[٢]» فإنه يصير: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فهذا تركيبٌ لا يمكن أنْ يقعَ في القرآنِ ولا في كلام فصيحٍ لعدم الاحتياجِ في إفادة هذا المعنى إلى قوله: من نسائكم.

والدخول هنا كناية عن الجماع كقولهم[٣]: بَنَى عليها وضربَ عليها الحجاب، والباء للتعدية، والمعنى: اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس وغيره.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في نكاح الربائب اللاتي[٤] لم تدخلوا بأمهاتهن وفارقتموهن. فلو [طلّقها] بعد البناء وقبل الجماع جاز أن يتزوج ابنتها. وفي تحريمِ الربيبةِ بالنظرِ إلى أُمِّها بشهوةٍ أو مَسِّها بشهوةٍ أو النظرِ إلى شعرها وصدرها بلذةٍ أو مَسِّ فرجها وإنْ لم يدخل بالأم خلاف.

وظاهر قوله ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ اختصاص ذلك بالزوجات كما ذكرناه، واتفقوا على أنَّ مُطْلَقَ عقدِ الشراء للجارية لا يُحَرِّمُهَا على أبيهِ ولا

(١) النهاية ٢: ١٠٩، والدّد: اللهو واللعب، محذوفة اللام كندى.
(٢) بعده في ق: من نسائكم فإنه يصير: وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن.
(٣) ق: كقوله.
(٤) ق: التي.

ابنه، فلو لمسها أو قبّلها حرمت على أبيه وابنه لا يختلف في تحريم ذلك، واختلفوا في مجرد النظر بشهوة.

﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ احتراز مما كانت العرب تتبنّى الشخص وليس ابنه حقيقة، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب].

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾ في موضع رفع، و«بين الأختين» ظاهره العموم بنكاح أو ملك يمين، وفي بعض الصور خلاف.

﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ استثناء منقطع يتعلق بالأخير وهو «أن تجمعوا بين الأختين» والمعنى: لكن ما سلف من ذلك ووقع وأزالت شريعة [١١٤/أ] الإسلام حكمه فإن الله يغفره والإسلام يجبّه. ويدل على عدم المؤاخذة به قوله تعالى «إن الله كان غفوراً رحيماً».

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ قرىء بكسر الصاد وفتحها. والمعني بها هنا المزوّجات واستثنيَ منهن ما مُلِكَتْ ملك يمين فإنه بالملك ينفسخُ نكاحها من زوجها وتحلّ لمن ملكها.

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ انتصب بإضمار فعل، وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة من قوله «حرمت عليكم» وكأنه قيل: كتب الله عليكم تحريم ذلك كتاباً. ولا حُجَّةَ للكسائي في دعواه أنَّ هذا من بابِ الإغراءِ وأنَّ التقدير: عليكم كتاب الله، وقدّم المفعول. ولا يجوز ذلك عند البصريين في باب الإغراء.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ لما نصّ على المحرمات في النكاح أخبر تعالى أنه أحلّ من سوى ما ذكر. وظاهر ذلك العموم، وبهذا الظاهر استدلّت الخوارجُ ومَنْ وافقهم من الشيعة على جوازِ نكاحِ المرأةِ على عمتها وعلى

خالتها والجمع بينهما، وقد أطالَ الاستدلالَ في ذلك أبو جعفر الطوسي أحد علماء الشيعة الاثني عشرية في كتابه في التفسير.

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: علام عطف قوله «وأحل لكم»؟ قلت: على الفعل المضمر الذي نصب «كتاب الله» أي: كتب الله عليكم تحريم ذلك وأحلّ لكم ما وراء ذلكم، ويدل عليه قراءة اليماني «كتب الله عليكم وأحلّ لكم». ثم قال: ومن قرأ: وأُحلّ مبنياً للمفعول فقد عطفه على «حُرّمت» انتهى كلامه. ففرق في العطف بين القراءتين، وما اختاره من التفرقة غير مختار، لأن انتصاب «كتاب الله عليكم» إنما هو انتصاب المصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة من قوله «حرّمت»، فالعامل فيه وهو «كتب» إنما هو تأكيد لقوله «حرمت»، فلم يُؤتَ بهذه الجملة على سبيل التأكيد للحكم، إنما التأسيس حاصل بقوله «حرمت» وهذه كلها جيء بها على سبيل التأكيد لتلك الجملة المؤسسة، وما كان سبيلهُ هكذا فلا يناسب أنْ تعطف عليه[٢] الجملة المؤسسة لحكم، إنما يناسب أنْ تعطف على جملة مؤسسة مثلها لا سيما والجملتان متقابلتان إذ إحداهما للتحليل والأخرى للتحريم، فناسب أن تعطف هذه على هذه. وقد أجاز الزمخشري ذلك في قراءة: وأُحل مبنياً للمفعول فكذلك يجوز فيه مبنياً للفاعل.

﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ نصب على أنه بدل اشتمال من «ما وراء ذلكم». ويشملُ الابتغاءُ بالمالِ النكاح والشراء، وقيل: الابتغاء بالمال هو على وجه النكاح. وقال الزمخشري[٣]: «أن تبتغوا» مفعول له بمعنى: بيّن لكم ما يحلّ مما

(١) الكشاف ١: ٥١٨.

(٢) ق: يعطف على.

(٣) الكشاف ١: ٥١٨.

يحرم إرادة [أن يكون] ابتغاؤكم بأموالكم التي جعل اللهُ لكم قياماً في حال كونكم مُحْصِنينَ غير مسافحين لئلا تُضيعوا أموالكم وتُفقروا أنفسكم فيما [لا] يحلُّ لكم فتخسروا دنياكم وآخرتكم، ولا مفسدةَ أعظم مما يجمع بين الخسرانين انتهى كلامه.

وانظر إلى جعجعةِ هذه الألفاظِ وكثرتها وتحميلِ لفظِ القرآن ما لا يدلُّ عليه، وتفسير الواضح الجَليِّ باللفظ المعقد، ودسّ مذهب الاعتزال في غضونِ هذه الألفاظ الطويلة دسّاً خفياً إذْ فسّر قوله «وأحلّ لكم» بمعنى بَيَّنَ لكم ما يحلّ، وجعل قوله «أنْ تبتغوا» على حذف مضافين أي: إرادة أنْ يكون ابتغاؤكم، أي إرادة كون(1) ابتغائكم بأموالكم. وفسّر الأموال بعدُ بالمهور وما يخرج في المناكح فتضمن تفسيره أنه تعالى بيّن لكم ما يحلّ لإرادته كون ابتغائكم بالمهور، فاختصت إرادته بالحلال الذي هو النكاح دون السفاح.

وظاهر الآية غير هذا الذي فهمه الزمخشري، إذ الظاهر أنه تعالى أحلَّ لنا [ابتغاءَ] ما سوى المُحَرَّمات السابق ذكرها بأموالنا حالة الإحصان لا حالة السفاح. وعلى هذا الظاهر لا يجوز [أن يعرب] «أن تبتغوا» مفعولاً له كما ذهب الزمخشري، لأنه فات شرطٌ [من شروطِ] المفعول له وهو اتحادُ الفاعلِ في [العامل والمفعول له، لأنَّ الفاعلَ بقوله «وأحل» هو الله تعالى، والفاعل في] «أن تبتغوا» هو ضمير المخاطبين. ولما أحسّ [١١٤/ب] الزمخشريُّ إنْ كان أحسَّ بهذا، جعل «أن تبتغوا» على حذفِ إرادة، حتى يتّحد الفاعل في قوله «وأحلّ» وفي المفعول له، ولم يجعل «أن تبتغوا» مفعولاً له إلا على حذف مضاف وإقامته مقامه، وهذا كله خروجٌ عن الظاهرِ لغير داعٍ إلى ذلك.

---

(١) ق: كونكم.

ومفعول «تبتغوا» محذوف اختصاراً إذ هو ضمير يعود على «ما» من قوله «ما وراء ذلكم» وتقديره: أن تبتغوه.

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: أين مفعول «تبتغوا»؟ قلت: يجوز أن يكون مقدّراً وهو النساء، والأجود ألاّ يقدّر وكأنه قيل: أن تخرجوا أموالكم انتهى. فأما تقديره إذا كان مقدّراً بالنساء فإنه لما جعله مفعولاً له غايرَ بين متعلق المفعول له[٢] وبين متعلق المعلول. وأما قوله وأجود ألاّ يقدّر وكأنه قيل: أن تخرجوا[٣] أموالكم، فهو مخالفٌ للظاهرِ لأنَّ مدلول «تبتغوا» ليس مدلول «تخرجوا»، ولأن تعدّي «تبتغوا» إلى الأموالِ بالباء ليس على طريقِ المفعول به الصريح كما هو في «تخرجوا» وهذا كله تَكَلُّفٌ ينبغي أن يُنَزَّه كتابُ الله عنه.

والإحصانُ العفَّةُ وتحصينُ النفس عن الوقوع في الحرام. وانتصب «محصنين» على الحال.

و﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ حال مؤكدة لأن الإحصان لا يجامع السفاح.

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ أي: ما استمتعتم به من الزوجة وهو الوطء ولو مرةً فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر. ولفظة «ما» تدل على أنّ يسير الوطء يوجب إيتاء الأجر. وقال الزمخشري[٤]: فما استمتعتم به من المنكوحاتِ من جماعٍ أو خلوةٍ صحيحةٍ أو عقدٍ عليهن فآتُوهن أجورهن

(١) الكشاف ١: ٥١٩.

(٢) عبارة ق: غير بين يتعلق المفعول وبين.

(٣) ق: أتخرجوا.

(٤) الكشاف ١: ٥١٩.

عليه انتهى. وأدرج في الاستمتاع[1] الخلوةَ الصحيحةَ على مذهب أبي حنيفة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾ لما أُمروا بإيتاء أجور النساء المستمتع بهنّ كان ذلك يقتضي الوجوب فأخبر تعالى أنه لا حرج ولا إثم في نقص ما تراضوا عليه أو ردّه أو تأخيره أعني الرجال والنساء بعد الفريضة، فلها أن تردّ عليه وأن تنقص وأن توخر، هذا ما يدل عليه سياق الكلام وهو نظير قوله تعالى ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ [النساء]، الآية.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَن لَّمْ[2] يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ الطول: السَّعةُ في المال قاله ابن عباس. و«المحصنات» هن الحرائر، والظاهر أن «المؤمنات» شرط في نكاحهن، وكذلك في قوله «من فتياتكم المؤمنات». وفي نكاح الحرائر غير المؤمنات

(١) ق: في الاستدراج.

(٢) ق: ولم.

وفي نكاح الفتيات غير المؤمنات خلاف. والظاهر أنه لا يجوزُ نكاحُ الإماء لمن يجد الطَّوْل. و«أن ينكح» مفعول بيستطيع. و«ما ملكت» متعلق بفعل محذوف تقديره فلينكح مما ملكت.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمۚ﴾ لما خاطب المؤمنين بالحكم الذي ذكره من تجويزِ نكاحِ عادمِ طَوْلِ الحُرَّةِ المؤمنةِ للأمةِ[١] المؤمنة، نَبَّه على أنَّ الإيمانَ هو[٢] وصفٌ باطنٌ وأنَّ المطَّلعَ عليه هو الله تعالى. فالمعنى أنه لا يشترط في إيمان الفتيات أن يكونوا عالمين بذلك العلم اليقين، لأنَّ ذلك إنما هو لله فيكفي من الإيمان إظهاره، فمتى كانت مُظْهِرةً للإيمانِ فنكاحها صحيحٌ، وربما كانت خَرْساءَ أو قريبةَ عهدٍ بسباء وأظهرت الإيمانَ فيكتفى بذلك منها.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ وهذا أمر إباحة والمعنى بولاية ملاّكهنّ، والمراد بالنكاح هنا العقد ولذلك ذكر إيتاء الأجر بعده أي المهر. وسَمَّى مُلاَّكَ الإماء أهلاً لهن لأنهم كالأهلِ إذْ رجوعُ الأمَةِ إلى سيدها في كثيرٍ من الأحكام. وقيل: هو على حذف مضاف أي: بإذنِ أهلِ ولايتهنّ، وأهل ولاية نكاحهنّ هم الملاّك. ومقتضى هذا الخطاب أن الإذن شرط في صحة النكاح، فلو تزوجت بغير إذنِ السيد لم يصحّ النكاح.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ الأجور هنا المهور، وفيه دليلٌ على وجوب إيتاء الأمة مهرها وأنها[٣] أحَقُّ بمهرها من سَيِّدها وهذا مذهبُ مالك قال: ليس للسيد أنْ يأخذ مهر أمته ويدعها بلا جهاز. وجمهورُالعلماء على أنه يجب

(١) ق: الطول الحرة.. لا الأمة.

(٢) ق: وهو.

(٣) ق: وأن.

دفعه للسيد دونها.

﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ متعلق بقوله [١١٥/أ] «وآتوهن أجورهن» قيل معناه بغير مطلٍ وضِرارٍ وإحواجٍ إلى اقتضاء.

﴿ مُحۡصَنَٰتٍ﴾ عفائف ﴿ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ أي: غير مُعْلنات بالزنى وهي التي لا تردُّ يَدَ لامس ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ هن المتسترات بالزنى لخلّ واحد، والخدن الصديق، وعلى هذين النوعين كان زنى الجاهلية. ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ أي: تزوجن. وقرىء مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول. ﴿ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ هي الزنى ﴿ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر، يعني إذا زَنَيْنَ ﴿ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ وهو خمسون جلدة.

﴿ ذَٰلِكَ﴾ إشارةَ إلى نكاحِ عادمِ الطَّوْلِ للحرةِ المؤمنةِ [أو] للأمة المؤمنة. والعَنَتُ هنا الزنى قاله ابن عباس وغيره، وأصله المشَقَّةُ ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ [ٱللَّهُ] لَأَعۡنَتَكُمۡۚ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة]. أي: لشقّ عليكم. ﴿ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ ظاهرهُ الإخبارُ عن صبرٍ خاص وهو عن نكاح الإماء قاله ابن عباس وغيره. وجهةُ الخيريةِ كونه لا يرق ولده، وأنْ(١) لا يبتذل هو وينقص في العادةِ بنكاحِ الأمة. وفي سنن ابن ماجة(٢) من حديث أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوجِ الحرائرَ».

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ مفعول «يريد» محذوف وتقديره: يريد الله هذا، أي تحليل ما حلّل وتحريم ما حرّم وتشريع ما تقدم ذكره. وقيل «يريد» في معنى

---

(١) ق: ولا أن.

(٢) انظر ١ : ٥٩٨.

المصدر من غير سابك تقديره: إرادة[١] الله ليبين لكم، وهذان القولان عن[٢] البصريين. وقال الكوفيون: مفعول «يريد» هو «ليبيّن» واللام زائدة والمعنى يريد الله التبيين لكم واللام ناصبة بنفسها.

وقال الزمخشري[٣]: أصله يريد الله أنْ يبين لكم فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زِيدتْ في: لا أبالك لتأكيد إضافة الأب، والمعنى يريد الله أنْ يبينَ لكم ما خفيَ عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم انتهى كلامه.

وهو خارج عن أقوال البصريين والكوفيين؛ أما كونه خارجاً عن أقوال البصريين فلأنه جعل اللام مؤكدة مقويّة لتعدّي «يريد» والمفعول متأخر، وأضمر «أنْ» بعد هذه اللام. وأما كونه خارجاً عن قول الكوفيين فإنهم يجعلون النصب باللام لا بانْ وهو جعل النصب بأنْ مضمرة بعد اللام، ومفعول «يبين» محذوف تقديره: شرائع دينكم ومصالح أموركم. ويجوز عندي أنْ يكونَ من بابِ الإعمال فيكون مفعول «ليبيّن» ضميراً محذوفاً يفسّره مفعول «ويهديكم» نحو: ضربت وأهنتُ زيداً، التقدير: ليبيّنها لكم ويهديكم.

﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ هي مناهج الأنبياء والصالحين. قال ابن عطية: وتكرار إرادة الله للتوبة على عباده تقوية للإخبار الأول، وليس المقصود في الآيةِ إلا الإخبار عن إرادةِ الذين يتبعون الشهوات فَقُدِّمَتْ إرادةُ الله توطئةً مُظْهِرةً لفسادِ مُتَّبِعي الشهواتِ انتهى كلامه. فاختار مذهب الكوفيين

(١) ق: أراد.
(٢) ق: عند.
(٣) الكشاف ١: ٥٢١.

في أن جعلوا قوله «ليبيّن» في معنى أن يبيّن، فيكون مفعولاً «ليريد» وعطف عليه «ويتوب» فهو مفعول مثله، ولذلك قال: وتكرار إرادة الله للتوبة على عباده إلخ. وكان قد حكى قول الكوفيين وقال: هذا ضعيف فرجع آخراً إلى ما ضعّفه، وكان قد قدّم أن مذهب سيبويه أن مفعول «يريد» محذوف والتقدير: يريد الله هذا التبيين[(١)].

والشهوةُ هو ما يغلبُ على القلب مَحَبَّتُه وهواهُ. ولما كانت التكاليفُ الشرعيةُ فيها قمع النفس وردّها عن مشتهياتها كان اتباع شهواتها سبباً لكل مَذمّة. وعبّر عن الكافر والفاسق بمتّبع الشهوة كما قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ٥٩﴾ [مريم]. واتباع الشهوة في كُلِّ حالٍ مذموم لأنَّ ذلك ائتمار لها من حيث ما دعت الشهوة إليه. أما إذا كان الاتباع من حيث العقل والشرع فذلك هو اتباعٌ لهما لا للشهوة. ومُتَّبِعُو الشهواتِ [١١٥/ب] هنا هم الزُّناةُ قاله مجاهد. ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ عن الحَقِّ أو إلى الشهوات. ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ أي: لا يصبرُ عن الشهوات وعلى مشاقّ الطاعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١ وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ

(١) ق: ليبيّن.

وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ تقدم تفسير نظيرها[1]. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما بين كيفية [التصريف في النفوس بالنكاح بيّن كيفية] التصرف في الاموال الموصلةِ إلى النكاح وإلى ملك اليمين، وأنَّ المهورَ والأثمان المبذولة في ذلك لا تكون مما ملكت بالباطل، والباطلُ هو كل طريق لم تُبِحْهُ الشريعةُ. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ استثناءٌ منقطع[2] إذْ لم تندرج التجارةُ تحت أكلِ الأموالِ بالباطل. وقرىء: تجارةً بالنصب على خبر «تكون» وبالرفع على أنّ «تكون» تامة. و«عن تراضٍ» أي من البائع والمشتري. والظاهر أنه إذا حصل التراضي جاز بيع التافه اليسير بالنفيس الكثير. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ظاهرهُ النهيُ عن قتلِ الإنسان نفسَهُ، ويجوز أنْ يكون المعنى النهي[3] عن قتلِ بعضنا بعضاً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى ما وقع النهيُ عنه في هذه الجملة من أكلِ المالِ بالباطل وقتل النفس.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ مناسبتها [لما قبلها] ظاهرة لأنه تعالى لما ذكر الوعيد على فعل بعض الكبائر، ذكر الوعد على اجتناب الكبائر. والظاهر أنَّ الذنوبَ تنقسمُ إلى كبائر وسيئات، وهي التي عبَّر عنها أكثر

(١) آل عمران ٣: ١٣٠.

(٢) ق: منقطعاً.

(٣) ق: عن النهي.

العلماء بالصغائر. قال ابن عباس: كُلُّ ما وردَ عليه وعيدٌ بنارٍ أو عذاب أو لعنة أو ما أشبه ذلك فهو كبيرة.

وإلى نحوٍ من هذا ذهب الوزير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي القرطبي قال: قد أطلتُ التفتيشَ عن هذا مُذْ سنين فَصَحَّ لي أنَّ كل ما توعدَّ اللهُ عليه بالنارِ فهو من الكبائر، ووجد أنه صلى الله عليه وسلم قد أدخلَ في الكبائر بنصّ لفظه أشياء غير التي ذكر في الحديث - يعني الذي في البخاري[١] - فمنها قول الزور وشهادة الزور وعقوق الوالدين والكذب عليه صلى الله عليه وسلم، وتعريض المرء أبويه للسبّ بأن يسبّ آباء الناس. وذكر عليه السلام الوعيدَ الشديد بالنار على الكِبْر وعلى كفر نعمة المحسن في الحق، وعلى النياحةِ في المأتم وحلقِ الشعر فيه وخرقِ الجيوب والنميمة، وتركِ التحفّظ من البول وقطيعة الرحم، وعلى الخمر وعلى تعذيب الحيوان بغير الذكاة لأكل ما يحلّ أكله منها[٢]، وعلى إسبالِ الإزار على سبيل التّجوّه[٣]، وعلى المنَّانِ بما يفعل من الخير، وعلى المنفق سلعته بالحلف الكاذب، وعلى مانعِ فَضْلِ مائهِ من الشارب، وعلى الغُلولِ وعلى مبايعةِ الأئمةِ للدنيا فإنْ أُعطِيَ منها وَفَى لهم وإنْ لم يُعطَ منها لم يوف لهم، وعلى المقتطعِ بيمينهِ حَقَّ امرىءٍ مسلم، وعلى الإمامِ الغاشِّ لرعيته، وعلى من ادّعى لغير أبيه، وعلى العبد الآبق وعلى من غلّ وعلى من ادّعى ما ليس له،

---

(١) في فتح الباري ١٠: ٤٠٥ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال ثلاثاً: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور. فما زال يقولها حتى قلتُ لا يسكت».

(٢) عبارة ق: كأكل ما لا يحل أكله منها. وما أثبتّه من ط.

(٣) ق: النخوة. والتجوّه: التعظم وتكلّف الجاه.

وعلى لاعنِ مَنْ لا يستحقُّ اللعنَ، وعلى بَغْضِ الأنصارِ رضي الله عنهم، وعلى تاركِ الصلاة وعلى تاركِ الزكاة، وعلى بغض عليٍّ كرم الله وجهه. ووجدنا الوعيدَ الشديدَ في نص القرآن قد جاء على الزُّناةِ وعلى المفسدين في الأرض بالحرابة، فصحَّ بهذا قول ابن عباس، انتهى كلام أبي محمد رحمه الله.

وقرىء: مُدخلاً بضم الميم، وهو مصدر أو مكان الإدخال، وبفتح الميم وهو مكان الدخول أو مصدر. وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: فيدخلون مدخلاً، حذف لدلالة الفعل المطاوع عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآية، قال قتادة والسدي: لما نزل ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ⁽١١⁾﴾ [النساء] قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء في الحسنات كالميراث، وقال النساء: إنّا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كالميراث فنزلت.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ [١١٦/أ] الآية، المعنى أنَّ اللهَ جعلَ لكلٍّ من الصنفين مكاسب تختص به فلا يتمنى أحدٌ منهما ما جعل للآخر، فجعل للرجالِ الجهاد والإنفاق في المعيشة وحمل التكاليف الشاقّة كالأحكام والإمارة والحسبة وغير ذلك، وجعل للنساء الحمل ومشقته وحسن التبعّل وحفظ غيب الزوج وخدمة البيوت. وقيل: المعنى مما اكتسبَ من نعيم الدنيا فينبغي أنْ يرضى بما قسم الله تعالى، وهذه الأقوال الثلاثة هي بالنسبة لأحوال الدنيا.

وقال الزمخشري(١): جعل ما قسم لكلّ من الرجال والنساء على حسب

(١) الكشاف ١: ٥٢٣.

ما عرفَ اللهُ من حالِه الموجبة للبسط والقبض كسباً له انتهى.

وفي قوله: عرف الله نظر، فإنه لا يُقالُ في الله عارف، نَصَّ الأئمةُ على ذلك لأنَّ المعرفةَ في اللغة تستدعي قبلَها جهلاً بالمعروف، وذلك بخلافِ العلم فإنه لا يستدعي جهلاً قبله. وتسمية ما قسم الله [له] كسباً له، فيه نظر أيضاً فإنَّ الاكتسابَ يقتضي الاعتمالَ والتطلب كما قلناه، إلا إنْ قلنا إنَّ أكثر ما قسم الله[1] يستدعي اكتساباً من الشخص، فأطلق الاكتساب على جميع ما قسم له تغليباً للأكثر. وفي تعليقِ النصيبِ بالاكتسابِ حَضٌّ على العملِ وتنبيهٌ على كسب الخير.

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ قرىء بسكون السين وبالهمز إذا كان أمر مخاطب وقبله الفاء أو الواو، وقرىء بفتح السين فاحتمل أن يكون أصله الهمز ونُقلت حركتها إلى السين وحذفت [الهمزة]، واحتمل أن يكون من سال يسال كخاف يخاف فعين الفعل واو فهما مادتان، ولذلك قيل: يتساءلان ويتساولان. ووهم ابن عطية في ذكره الإجماع على قوله ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة] أنه بالهمز لم يُقرأ بغيره، ونصوص المقرئين على خلاف قوله، ونصّ على الخلاف فيه بخصوصه ابن شيطا في كتابه المستنير[2].

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾ الآية، لما نهى عن التمني المذكور وأمر بسؤال الله من فضله، أخبر تعالى بشيء من أحوال الميراث. ولما ذكر تعالى أن «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» وهو ما حصل بالتطلب والتكسب، ذكر حالَهم فيما يحصل لهم بغير طلبٍ ولا تعبٍ فقال

(١) ق: قلنا إذا أكثر ما قسم له.

(٢) في البحر ٣: ٢٣٦: ابن شيطا في كتاب التذكار.

«ولكلٍّ» وهي مضافةٌ لمحذوفٍ تقديره: ولكلِّ إنسان. «جعلنا موالي» أي يكون أمره في قسمة ما يرث «مما ترك» أي: من أجل ما ترك، و«مِن» للسبب.

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ أي: والدا ذلك الإنسان وأقربوه. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ هو في التزوج. والمعنى أن الذين يتولون أمرَ الميراثِ ويُوصلونه لمن يستحقه أُمروا بأنْ يُؤتوا ما يحصل من الميراث لذلك الإنسان، ويكون الأمر في قوله «فآتوهم» للذين يتولَّونَ النظرَ في ذلك، والضمير المنصوب في «فآتوهم» وفي «نصيبهم» عائد على كل إنسان مراعى فيه الجمع، وهذا الذي فهمتُه من الآية. وذكرنا في «البحر» أقوالاً كثيرة يوقف عليها فيه[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لما ذكر تعالى تشريع التوريث وأمر بإيتاء النصيب، أخبر بأنه مطلع على كل شيء وهو المجازي [به]، وفي ذلك تهديد للعاصي ووعدٌ للمطيع، وتنبيه على أنه شهيد[2] على المعاقدة بينكم والصلة فأوفوا بالعهد.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا

(١) انظر البحر ٣: ٣٢٧ وما بعدها.

(٢) ق: شهد.

تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا
مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية، لما ذكر تعالى أمرَ الرجال والنساء في اكتسابِ النصيب وأمْرهم في الميراثِ، أخبر تعالى أنَّ الرجالَ يقومون بمصالح النساء، و«قوامون» صفة مبالغة.

ومعنى «بما فضل الله» أي: بتفضيل الله بعضَ الرجال على بعضٍ في كونِ هذا رُزق أكثرَ من هذا وحال هذا أمشى من حالِ هذا.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ أي: على النساء. و«ما» مصدرية في الموضعين. ويجوز أن تكون «ما» في قوله «وبما أنفقوا» موصولة وحذف الضمير العائد عليها، التقدير: وبالذي أنفقوه من أموالهم، وتقدير الأولى المصدرية: بتفضيل الله.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: [١١٦/ب] الخيِّراتُ في الدين. ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ عابداتٌ لله تعالى. ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي: لما غاب عن أزواجهن من سرٍّ وغيره كما قال الشاعر(١): [من الطويل]

إذا غاب عنها البَعْلُ لم تَفْشِ سِرَّهُ وترضى إيابَ البعل حينَ يؤُوبُ

و«ما» في قوله «بما حفظ الله» مصدرية، والمعنى أن حفظهن للغيب ليس من قبل أنفسهن بل ذلك بحفظ الله إياهن لذلك.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النشوزُ] أنْ تتمنَّع المرأةُ مما يريدُ منها زوجُها

---

(١) هو علقمة بن عبدة، والبيت في المفضليات ص٣٩٠.

من وطءٍ واستمتاعٍ وتصنُّع بتعطُّرٍ وغير ذلك. ويقال [نسور] بالسين[١] والراء، ويقال نشوص بالشين والصاد. والظاهر أنَّ الخوفَ على بابه، وأُمِرَ بوعظها إذا خاف نشوزَها.

ويكون معنى قوله ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ مُقَيَّداً بوقوعِ النشوز والتقدير: إذا نشزت، إذِ[٢] الهجرُ في المضجعِ والضرب لا يترتب على الخوف، إنما يترتب عليه الوعظ. ودلّ على تقدير: إذا نشزت، معنى التقسيم. وقوله «واضربوهن» مُطْلَقٌ في الضرب والمعنى والله أعلم، أنه ضربٌ غير مُبَرّحٍ كالضربِ باللطمةِ والقضيبِ اللين ممّا لا يُحدثُ شيئاً ويؤْذِن بالاحتقار لها. وقد كان بعضُ الصحابة يضرب بالسوط[٣] المؤلم.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ أي: صرن طائعات لما تريدون منهن، ودلَّ ذلك على أنَّ نشوزهن كان معصية ولذلك قابله بقوله «فإن أطعنكم»، وقوله «سبيلا» أي: من وعظ أو هجر أو ضرب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ ولما كان في تأديبهن بما أمرَ به تعالى الزوجَ اعتلاءً للزوجِ على المرأة، ختم تعالى الآيةَ بصفةِ العُلُوِّ والكبر لينبّه العبدَ على أنَّ المُتَّصِفَ بذلك حقيقةً هو الله تعالى، وإنما أَذِنَ لكم فيما أذن على سبيلِ التأديب لهنّ فلا تَسْتَعْلُوا عليهن [ولا تتكبروا] فإنَّ ذلك ليس مشروعاً لكم. وفي هذا وعظٌ عظيمٌ للأزواج وإنذارٌ[٤] أنَّ قدرةَ الله عليكم فوقَ قدرتكم عليهن.

(١) في ق: بالشين، والصواب بالسين والراء المهملتين، انظر البحر ٣: ٢٤١.

(٢) ق: إذا.

(٣) ق: بالصوت.

(٤) ق: وإنذاراً.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ﴾ المشاقّة بأنْ يتمادى نُشوزها ولا ينفع فيها وعظٌ ولا هجر ولا ضرب وتصير هي في شقٍّ وهو في شق، والمعنى شقاقاً. ﴿بَيْنِهِمَا﴾ أي: بين الزوجة والزوج. وأضيف «شقاق» إلى «بين» وهو ظرف على جهةِ الاتِّساع كما قالوا: هو نقي بين الحاجبين.

والأمر في قوله «فابعثوا» هو لمن يتولى أمرَ النساء والرجال[1] من القُضاةِ والولاة. والظاهر أنهما ليسا وكيلين بل هما ناظران في أمرهما على سبيلِ الصلح أو الفرقة. والضمير في ﴿إِن يُرِيدَآ﴾ عائد على الحَكَمين. ﴿إِصْلَٰحًا﴾ أي: بين الزوجين. والضمير في «بينهما» عائد على الحَكَمين، أي فيما بُعِثَا فيه من تمامِ الإصلاح أو التفرقة على حسب ما يظهر لهما، وقيل: الضمير في بينهما عائدٌ على الزوجين، وفي كتب الفقه تفاريع في الحكمين يُنْظَرُ فيها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ يعلم ما يقصد الحكمان وكيف يوفق بين المختلفين، ويَخْبر خفايا ما يلفظانِ به في أمرِ الزوجين.

﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي: صاحب الدار القريبة من دارك ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ هو البعيد الدار من دارك. ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ المتصل المسكن بمسكنك المختال التيّاه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه [وأصحابه] ومماليكه ولا يتحفّى بهم ولا يلتفت إليهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ

(١) ق: أمر الناس.

ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ قيل: هو بدل من «مَنْ»[1]. وقيل: «من [كان] مختالاً فخوراً» حملاً على لفظ مَن، ثم قال «الذين» حملاً على معنى مَن. ويجوز عندي أنْ يكون صفةً لمَنْ ولم يذكروا هذا الوجه. وقيل هو في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ تقديرهُ: هم الذين يبخلون. وهذه الأقوالُ على تقدير اتصال «الذين» بما قبله، ومن أعرب «الذين مبتدأ» فهو قلق إذ[2] لم يصرّح في الآية بخبر.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ معطوف [١١٧/أ] على «الذين يبخلون» وتقدم تفسير نظيرها في البقرة[3].

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا﴾ لما ذكر تعالى مَنِ اتَّصَفَ بالبخلِ والأمر به وكتمان فضل الله تعالى والإنفاق رياءً وانتفاء إيمانه بالله تعالى وباليوم الآخر - ذكر أنَّ هذه من نتائجِ مقارنةِ الشيطان ومخالطتهِ وملازمته للمتَّصفِ بذلك لأنها شرٌّ مَحْضٌ إذْ[4] جمعت بين سوءِ الاعتقادِ الصادر عنه الإنفاق رياء وسمعة وسائر تلك الأوصاف المذمومة، ولذلك قدّم تلك الأوصاف، وذكر ما صدرت عنه وهو انتفاءُ الإيمانِ بالمُوجِدِ وبِدارِ الجزاء، ثم ذكر أنَّ ذلك من مقارنة الشيطان، والقرين المقارن، و«ساء» هنا بمعنى بئس وهي لا تتصرف ولذلك دخلت الفاء في جواب «مَن» الشرطية.

---

(١) في الآية السابقة.

(٢) ق: إذا.

(٣) انظر تفسير الآيتين ٣، ٤.

(٤) ق: إذا.

وقال ابن عطية: وقرن الطبري هذه الآية بقوله تعالى ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [الكهف]، وذلك مردودٌ لأنَّ «بدلًا» حالٌ وفي هذا نظر انتهى. والذي قاله الطبري صحيح، و«بدلاً» تمييز لا حال وهو مفسر للضمير المستكن في «بئس» على مذهب البصريين، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هم، أي الشيطان وذريته. وإنما ذهب إلى إعراب المنصوب بعد نعم وبئس حالاً، الكوفيون على اختلاف بينهم مقررٍ في علم النحو، والظاهر أن هذه المقارنة في الدنيا.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق في سبيل الله.

﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لحصلت لهم السعادة. ويحتمل أن يكون جملة واحدة وذلك على مذهب مَنْ يثبت أنَّ «لو» تكون مصدرية في معنى أنْ كأنه قيل: وماذا عليهم أن آمنوا أي في الإيمان بالله، ولا جواب لها إذ ذاك فيكون كقول الشاعر[1]: [من الطويل]

ومـاذا عليـه أن ذَكَـرْتُ أوانسـاً كغِزْلانِ رملٍ في محاريبِ أقيالِ

و«ماذا» استفهام وفيه معنىٰ الإنكار.

قال ابن عطية: وجواب «لو» في قوله «ماذا» فهو جواب مقدم انتهى. إن أراد ظاهر هذا الكلام فليس موافقاً لكلام النحويين، لأنَّ الاستفهامَ لا يقعُ جوابِ لو، ولأن قولهم: أكرمتك لو قام زيد، إنْ ثبت أنه من كلام العرب حُملَ على أنّ «أكرمتك» دالّ على الجواب لا جواب كما قالوا في قولهم: أنت طالق إن فعلتِ. وإن أراد تفسير المعنى فيمكن ما قاله.

(١) هو امرؤ القيس والبيت في ديوانه ص٣٤.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ﴾ مناسبةُ هذه الآية لما قبلها واضحةٌ لأنه تعالى لما أمر بعبادةِ الله وبالإحسان للوالدين ومن ذكر معهم، ثم أعقب ذلك بذمِّ البخلِ والأوصاف المذكورة معه، ثم وبَّخَ مَنْ لم يؤمن ولم[1] ينفق في طاعة الله، فكان هذا كله توطئةً لذكرِ الجزاء على الحسناتِ والسيئاتِ فأخبر تعالى بصفةِ عدلِهِ وأنه تعالى لا يظلمُ أدنى شيءٍ، ثم أخبر بصفةِ الإحسان فقال «وإن تك حسنة يضاعفها». و«يظلم» يتعدى لواحد وهو محذوف وتقديره: لا يظلم أحداً مثقال ذرة. وينتصب «مثقال» على أنه نعت لمصدر محذوف أي ظلماً وزن ذرة، كما تقول: لا أظلم قليلاً ولا كثيراً. وقيل: ضُمِّنتْ معنى ما يتعدى لاثنين فانتصب «مثقال» على أنه مفعولٌ ثانٍ والأول محذوف، التقدير: لا ينقص أو لا يغصب أو لا يبخس أحداً مثقال ذرة من الخير أو الشر. وقرىء: وإن تك حسنة بالنصب فتكون ناقصة واسمها مستتر فيها، عائد على «مثقال»، وأنّث الفعل لعوده على مضاف إلى مؤنث أو على مراعاة المعنى لأن «مثقال» معناه زنة [أي وإن تك زنة] ذرة. وقرىء بالرفع على أن «تك» تامة تكتفي بمرفوع.

﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ ﴾ هو نبيهم ليشهد عليهم بما فعلوا كما قال تعالى ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة]. والأمّةُ هنا مَن

(١) ق: ومن.

[١١٧/ب] بُعثَ إليهم النبيُّ من مؤمنٍ به وكافر. لما أعلم تعالى بعدله وإيتاء فضله أتبع ذلك بأنْ نبّه على الحالةِ التي يحضر فيها للجزاء ويشهد عليهم فيها. و«كيف» في موضع رفع إن كان المحذوف مبتدأ، التقدير: فكيف حال هؤلاء السابق ذكرهم، أو كيف صنعهم. وهذا المبتدأ العامل في خبره هو العامل في «إذا»، أو في موضع نصب إن كان المحذوف فعلاً أي: فكيف يصنعون أو فكيف يكونون، والفعل أيضاً هو العامل في «إذا».

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التنوين في «يومئذ» هو تنوين العوض حذفت الجملة السابقة وعوض منها هذا التنوين والتقدير: يومئذْ جئنا. وقرىء: تسوّى مبنياً للمفعول، وتَسّوى بإدغام التاء في السين[١]، وسوّى بحذف التاء. ومعنى التسوية أنهم يستوون مع الأرض فيكونون تراباً كهي، كما قال تعالى في حق الكافر ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ]. والعامل في «يومئذ» «يودّ»، ومفعول «يود» محذوف تقديره: تسويةَ الأرض بهم، ودلّ عليه قوله «لو تسوّى بهم الأرض». و«لو» حرف لما كان سيقع لوقوع غيره وجوابه محذوف تقديره: لسرّوا بذلك، وحذف لدلالة «يود» عليه. ومن أجاز في «لو» أن تكون مصدرية مثل أن جوّز ذلك هنا وكانت[٢] إذ ذاك لا جوابَ لها بل تكون في موضع مفعول «يود». ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ﴾ معطوف على «يود»، أو تكون الواو للاستئناف، التقدير: وهم لا يكتمون الله تعالى. وفي يوم القيامة مواطن كثيرة يكتمون الله[٣] كقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام] ومواطن لا يكتمون كقولهم ﴿يَٰلَيْتَنَا

---

(١) وأصله: تتسوى فأدغمت التاء في السين، وهو مضارع تسوّى.

(٢) ق: ولو كانت.

(٣) بعده في ق: في مواطن.

نُرَدُّ ﴿٢٧﴾ [الأنعام] الآية[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الآية، روي أن جماعة من الصحابة شربوا قبل تحريم الخمر وحانت صلاة فتقدم أحدهم فقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] فخلط فيها فنزلت. ومناسبتها لما قبلَها أنه لما أمرَ تعالى بعبادةِ الله والإخلاص فيها وأمر ببرِّ الوالدين ومكارمِ الأخلاق وذم البخل، واستطرد منه إلى شيءٍ من أحوال القيامة. وكان قد وقع من بعض المسلمين تخليطٌ في الصلاة التي [هي] رأس العبادة بسبب شرب الخمر، ناسب أنْ تَخلصَ الصلاةُ من شوائبِ الكدر التي تُوقِعها على غير وجهها [فأمر تعالى بإتيانها على وجهها] دونَ ما يُفسدها ليجمعَ لهم بين إخلاصِ عبادةِ الحق ومكارم الأخلاق التي بينهم وبين الخلق. وبالغ تعالى في النهي عن أنْ يصلي المؤمنُ وهو سكران بقوله «لا تقربوا الصلاة» لأنَّ النهيَ عن قربان الصلاة أبلغ من قوله: لا تُصَلُّوا وأنتم سكارى، ومنه ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام] ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] والمعنى: لا تَغْشَوُا الصلاة، وغَيَّا ذلك بقوله «حتى تعلموا».

﴿ وَلَا جُنُبًا﴾ حالٌ معطوفة على قوله «وأنتم سكارى» إذ هي جملةٌ حالية،

(١) وتمامها «ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين».

والجملةُ الاسمية أبلغ لتكرار الضمير، فالتقييد [بها] أبلغ في الانتفاء منها من التقييد بالمفرد الذي هو «ولا جنباً». ودخول «لا» دالٌّ على مراعاة كُلِّ قيدٍ منهما بانفراده. وإذا كان النهي عن إيقاع الصلاة مصاحبة لكل حال منهما بانفراده، فالنهي[1] عن إيقاعها بهما مجتمعَيْن آكدُ وأدخلُ في الحظر. والجُنُبُ هو غيرُ الطاهرِ من الإنزالِ أو مجاوزةِ ختان، هذا قولُ جمهور الأمة. والجنب من الجنابة وهي البُعْدُ كأنه جَانَبَ الطُّهْرَ، أو من الجَنْب كأنه ضاجع أو مسّ بجنبه، قال الزمخشري[2]: الجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب انتهى. والذي ذكره هو المشهور في اللغة والفصيح، وبه جاء القرآن وقد جمعوه جمع سلامة بالواو والنون قالوا: قوم [١١٨/أ] جنبون، وجمع تكسير قالوا: قوم أجناب، وأما تثنيته فقالوا: جنبان.

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ العبورُ الخُطُورُ والجواز ومنه: ناقة عبر الهواجر. و«عابري» منصوب على الحال وهو استثناء من الأحوال، ويُلْحَظُ محذوفٌ أي: ولا تقربوا مواطنَ الصلاةِ وأنتم جنب إلا في حالِ عبورِكم في الطريق، وغَيّا ذلك بقوله «حتى تغتسلوا» فإذا اغتسلَ [الجُنُبُ] جازَ له أنْ يصلي وأنْ يمكثَ في المسجد.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ الآية، نزلت بسبب عدم الصحابة الماء في غزوة المريسيع حين[3] أقامَ [صلى الله عليه وسلم بالناس] على التماسِ العِقد. ﴿مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ الظاهر مُطْلَقُ المرضِ ومطلق السفر، فإذا لم يجد ماءً

---

(١) ق: وإذا كان النهي.

(٢) الكشاف ١ : ٥٢٨.

(٣) ق: حتّى. والعقد الملتمس للسيدة عائشة أو أسماء، انظر القرطبي ٥ : ٢١٤.

تيمَّم. والغائطُ كناية عن الحَدَثِ وحُمِلَ عليه الريحُ والبولُ والمَنِيُّ والوَدْيُ [والمَذْيُ]، ولا خلاف أنَّ هذه الستة أحداث.

﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ﴾ وقرىء: لامستم ماضي يلامس، ولَمَسْتُم ماضي يَلْمَسُ. والظاهر في «لامستم» أنه أُريدَ به الجماعُ، وينبغي أن يحمل عليه «لمستم»، ومن العلماء مَنْ حمل ذلك على أنَّ المراد اللمس باليد أو غيرها[1] من الجوارح على تفصيلٍ مذكورٍ في كتب الفقه.

﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ الضمير عائد على من أسند إليهم الحكم في الأخبار الأربعة، وفيه تغليب الخطاب إذ قد اجتمع خطاب وغيبة فالخطاب «كنتم مرضى أو على سفر، أو لامستم» والغيبة قوله «أو جاء أحد» وما أحسنَ ما جاءت هذه الغيبة، لأنه لما كنّى عن الحاجةِ بالغائطِ كره إسنادَ ذلك إلى المخاطَبين فنزع به إلى لفظِ [الغائب] بقوله «أو جاء أحدٌ» وهذا من أحسنِ الملاحظاتِ وأجمل المخاطبات، ولما كان المرضُ والسفرُ ولمسُ النساء لا يفحش الخطاب بها، جاءت على سبيلِ الخطاب. وظاهر انتفاء الوجدان أن سبق تطلّبه وعدم الوصول إليه، فأما في حَقِّ المريض فجعل الموجود حسّاً في حَقِّه إذا كان لا يستطيعُ استعماله، كالمفقود شرعاً، وأما غيره باقي الأربعة فانتفاء وجدان الماء في حقهم هو على ظاهره.

﴿ فَتَيَمَّمُواْ ﴾ اقصدوا ﴿ صَعِيدًا ﴾ تراباً ﴿ طَيِّبًا ﴾ طاهراً ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ ﴾ المسحُ البَلَلُ بالماء وإمرارُ اليد من غير غسل، والظاهر عموم الوجه تقول: مسحت برأسه ومسحت رأسه بمعنى واحد. «وأيديكم» هو مجمل، وجاء في الحديث أنَّ التيمّم مسح الوجه ومسح الكفين بالتراب وذكر ذلك في صحيح

(١) ق: غيره.

مسلم[1]. وفي تحديد اليد في التيمّم خلافٌ مذكورٌ في كتب الفقه. ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ كناية عن الترخيص والتيسير.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الآية، نزلت في اليهود، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر شيئاً من أحوالِ الآخرة وأنَّ الكفار إذْ ذاكَ يَودُّون لو تُسوَّى بهم الأرض ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً، وجاءت الآية بعد ذلك كالاعتراضِ بين ذكر أحوالِ الكفار في الآخرة وذكرِ أحوالهم في الدنيا [مع المؤمنين، ذكر أحوالهم في الدنيا] وما هم عليه من معاداةِ المؤمنينَ، وكيف يعاملون رسولَ الله ﷺ الذي يأتي عليهم شهيداً وعلى غيرهم، ولما كان اليهودُ أشَدَّ إنكاراً للحق وأبعد من قبول الخير، وكان قد تقدم أيضاً ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النساء] وهم أشد [الناس] تحلّياً بهذين الوصفين. ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الظاهر أنَّ «مِنَ الكتابِ» صفة لقوله «نصيباً»، وأُريدَ بالكتابِ الجنس، والنصيب التوراة. ويجوز أن يتعلق «من الكتاب» بقوله «أوتوا».

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أي: بالهدى، وحذفه لأنَّ الضلالة تدلُّ عليه كما صرّح

(١) نصه فيه ١ : ٢٨١ «إنما كان يكفيكَ أنْ تضربَ بيديك الأرضَ ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهكَ وكَفَّيك».

به في قوله ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة]. والمعنى: ألا تعجب ممن أنزل عليه من الكتب الإلهية ومع ذلك لم يَتَّبِعْ ما أنزل إليه وآثرَ الضلالةَ على الهدى.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: لم يَكْفِهم أنْ ضَلُّوا في أنفسهم حتى تعلقت آمالهم بضلالكم أنتم أيها المؤمنون عن سبيلِ الحق، لأنهم لما[1] علموا أنهم قد خرجوا [١١٨/ب] من الحق إلى الباطل كرهوا أنْ يكونَ المؤمنون مختصين باتباع الحق، فأرادوا أن يضلوا كما ضلّوا هم كما قال عز وجل ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء]. وقرىء: أن تُضِلوا بضم التاء وكسر الضاد، من أضلّ، وقراءة الجمهور بفتح التاء[2] وكسر الضاد، من ضلّ.

و﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ لما ذكر تعالى أنهم أُوتوا التوراةَ وآثروا اشتراء[3] الضلالة، ذكر أيضاً مما يذمّهم به وهو تحريف الكَلِم عن مواضعه.

وقوله ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صفة لمبتدأ محذوف وخبره الجار والمجرور قبله، وحذفه فصيح كقول العرب: منّا ظعن ومنّا أقام. وأجاز الفراء أنْ يكون المحذوف الموصول[4] تقديره: مَنْ يحرفون، «فيحرّفون» صلة لمَنْ المحذوفة.

---

(١) ق: لو.

(٢) ق: أن يضلّوا بضم الياء.. بفتح الياء. وما أثبتّه من ط. وفي البحر ٣: ٢٦١ وقرىء: أن يضلوا بالياء وفتح الضاد وكسرها.

(٣) ق: اشتروا.

(٤) ق: الوصل.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الظاهر أنهم شَافَهُوا النبيَّ ﷺ بهاتين الجملتين وخاطبوه بقولهم «واسمع غير مسمع» وهذا كلامٌ موجّه، والظاهر أنهم أرادوا به الوجهَ المكروه لسياق ما قبله من قوله «سمعنا وعصينا». وانتصب «غير مسمع» على الحال أي: واسمع حال كونك لا تسمع، فيكون ذلك على سبيل الدعاء كأنهم قالوا: واسمع لا سمعت. ويجوز أن يكون «غير مسمع» صفة لمصدر محذوف أي واسمع [سمعاً] غير مسمع.

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ تقدم تفسير «راعنا» في البقرة[١]. و«ليّاً» أي: فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل. وانتصاب «ليّاً، وطعناً» على المفعول من أجله، أو على أنهما مصدران في موضع الحال. وطعنهم في الدين إنكار نبوته وتغيير نعته.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لو تَبَدَّلُوا بالعصيانِ الطاعةَ ومِنْ «رَاعِنَا» بـ«انظرنا».

وقال الزمخشري[٢]: ولو ثبت قولهم: سمعنا وأطعنا لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأقوم وأعدل وأسدّ[٣] انتهى. سبك الزمخشري من «أنهم قالوا» مصدراً مرتفعاً بثبت على الفاعلية، وهذا مذهبُ المبرد خلافاً لسيبويه إذ يرى سيبويه أنّ أَنْ بعد لو مع ما عملت فيه تتقدّر[٤] باسم مبتدأ، وهل الخبر محذوف أو لا يحتاج إلى تقدير الخبر لجريان المسند والمسند إليه في صلة أن - قولان أصحّهما هذا، فالزمخشري وافق مذهب المبرد، وهو

---

(١) الآية ١٠٤.

(٢) الكشاف ١ : ٥٣١.

(٣) ق : وأشد.

(٤) ق : تتقدم.

مذهب مرجوح في علم النحو.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء من ضمير المفعول في «لعنهم» أي: إلا قليلاً لم يلعنهم فآمنوا، أو استثناء من الفاعل في «فلا يؤمنون» كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما، أو راجع إلى المصدر المفهوم من قوله «فلا يؤمنون» أي: إلا إيماناً قليلاً قلّله أنْ[١] آمنوا بالتوحيد وكفروا بمحمد ﷺ وبشرائعه. وقال الزمخشري[٢]: إلا إيماناً قليلاً أي: ضعيفاً ركيكاً لا يُعبأُ به وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كُفْرِهم بغيره، أو أراد بالقلّة [العَدَم] كقوله[٣]:

قليلُ التَّشَكِّي للهمومِ تُصيبه [من الطويل]

أي: عديم التشكّي. وقال ابن عطية: من عبّر بالقلّة عن الإيمان قال هي عبارة عن عدمه، على ما حكى سيبويه من قولهم: أرضٌ قَلَّما تُنبتُ كذا وهي لا تنبت جملة. وهذا الذي ذكره الزمخشري وابن عطية من أنَّ القليلَ يراد به العدم هو صحيحٌ في نفسه لكن ليس هذا التركيب الاستثنائي من تراكيبه[٤]، فإذا قلت: لا أقوم إلا قليلاً لم يوضع هذا لانتفاء القيام ألبتّة، بل هذا يدلُّ على انتفاءِ القيامِ منك إلا قليلاً فيوجد منك. وإذا قلت: قلّما يقوم أحد إلا زيد، وأقل رجلٍ يقول ذلك، احتمل هذا أنْ يُرادَ به التقليل المقابل للتكثير، واحتمل أن يراد به النفي المحض وكأنك قلت: ما يقوم أحد إلا زيد، وما رجل يقول ذلك. أما أنْ تنفي ثم توجب ويصير الإيجاب بعد النفي

(١) ق: إذا.

(٢) الكشاف ١: ٥٣١.

(٣) البيت لتأبط شراً في العقد ١: ٨٥ وعجزه:

كثير النوى شَتُّ الهوى والمسالك

(٤) ق: تركيبه.

يدل على النفي فلا، إذ تكون «إلا» وما بعدها على [هذا] التقدير [١١٩/أ] جِيءَ بها لغواً لا فائدةَ فيه، إذ الانتفاء قد فهم من قولك: لا أقوم، فأيّ فائدةٍ في استثناء مثبت يراد به الانتفاء المفهوم من الجملة السابقة؟ وأيضاً فإنه يؤدي إلى أن يكون ما بعد إلاّ موافقاً لما قبلها في المعنى، وبابُ الاستثناء لا يكونُ فيه ما بعدَ إلاَّ موافقاً لما قبلَها. وظاهر قوله «فلا يؤمنون إلا قليلاً» إذا جعلناه عائداً إلى الإيمان، أنَّ الإيمان يتجزّأُ بالقِلَّةِ والكثرة فيزيد وينقص، والجواب أن زيادته ونقصه هو بحسب قلة المتعلقات وكثرتها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ أحبار اليهود منهم عبد الله بن صوريا[١] وكعب إلى الإسلام وقال لهم: إنكم لتعلمون أنَّ الذي جئتُ به حق. فقالوا: ما نعرف ذلك فنزلت، قاله ابن عباس. ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما رجاهم بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ ﴿٤٦﴾﴾ [النساء] الآية، خاطبَ مَنْ يُرجى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقرن بالوعيد البالغ على تركه ليكون أدعى لهم إلى الإيمانِ والتصديقِ به، ثم أزال خوفهم من سوءِ الكبائر السابقة بقوله «إن الله لا يغفر أن يشرك به» الآية، وتوَعَّدهم إنْ لم يؤمنوا بأحدِ أمرينِ: الطمس أو اللعن الموصوف.

(١) ق: رصويا، والتصويب من البحر ٣: ٢٦٦ والقرطبي ٥: ٢٤٤. وكعب هو ابن أسد.

والظاهر أنَّ معنى الطمس جعل الحاجبين والعينين والأنف والفم لوحاً واحداً ثم يقلب مشرفاً على الظهر ويصير القفا مشرفاً على الصدر، وهذا تشويهٌ عظيمٌ لمحاسن الإنسان. وقيل: هو على حذفِ مضافٍ أي: نطمسُ أعينَ وجوهٍ ونجعلها في القفا. وقرىء: نطمس[١] بضم الميم وكسرها. واللعنُ هو المتعارف، وتقدم قبلُ ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴿٤٦﴾﴾ [النساء] وهذا لعنٌ مطلق، وفي هذه الآية لعنٌ مُقَيَّدٌ بقوله «كما لعنا أصحاب السبت» قيل: أصحاب السبت هم أهلُ إيلة مُسِخُوا قردةً وخنازير. ولما سمع عبدالله بن سلام الآية جاء إلى النبي ﷺ قبل أن يأتي أهله ويده على وجهه وأسلم وقال: يا رسولَ الله ما كنتُ أرى أنّي[٢] أصلُ إليك حتى يُحوَّلُ وجهي في قَفاي. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ المعنى: الذي أراد إيجاده[٣] وتعلّق أمره به لا بدّ من وجوده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية، قيل: نزلت في وحشي وأصحابه وكان جُعِلَ له على قتلِ حمزة أن يُعتقَ فلم يُوف [له] فقدم مكة وندم على الذي صنعه هو وأصحابه، ثم قدموا مسلمين وقصّ كيفية قتله لحمزة، فقال له رسول الله ﷺ: غَيِّبْ وجهكَ عني، فلحق بالشام وبقي[٤] بها حتى مات، وقصتهُ مشهورةٌ في السير.

ومذاهبُ الناس في هذه الآية مختلفة فأجمع المسلمون على تخليدِ مَنْ مات كافراً في النار، وعلى تخليدِ مَنْ مات مؤمناً لم يذنب قطّ في الجنة، فأما تائبٌ مات على توبتهِ ففي الجنة، وأما مذنبٌ مات

---

(١) ق: يطمس.
(٢) ق: أن.
(٣) ق: أراده أوجده.
(٤) ق: ونفي.

قبل[١] توبته فالخوارج تقول: هو مُخَلَّدٌ في النار سواء كان صاحبَ كبيرةٍ أو صاحبَ صغيرة. والمُرْجِئةُ تقول: هو في الجنة بإيمانه ولا تضرّه سيئاته. والمعتزلة تقول: إنْ كان صاحبَ كبيرة خُلِّدَ في النار. وأهلُ السنة يقولون: هو في المشيئة فإن شاء الله تعالى غفر له وأدخله الجنة من أول وهلة، وإن شاء عَذَّبه وأخرجه من النار وأدخله الجنة مخلداً فيها. وحججُ هذه المذاهب مذكورةٌ في علم أصول الدين.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ المعنى مَنْ مات مشركاً لا يغفر له وهو أصلٌ مُجْمَعٌ عليه من الطوائفِ الأربع.

وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ رادّ على الخوارج وعلى المعتزلة لأن «ما دون ذلك» عامٌّ يدخلُ فيه الكبائرُ والصغائر.

وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ رادّ على المرجئة، إذ مدلوله أنَّ غفران ما دونَ الشرك إنما هو لقومٍ دونَ قومٍ على ما شاءَ [١١٩/ب] تعالى بخلافِ ما زعموه بأنَّ كُلَّ مؤمنٍ مغفورٌ له.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ

(١) ق: ما تقبل.

بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم
بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ
فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ قيل هم اليهود وقيل النصارى. وتزكيتهم قولهم نحن أبناءُ الله وأحباؤه. وفي ذلك غَضٌّ على مَنْ يُزكِّي نفسه بلسانه ويصفها بزيادة الطاعة والتقوى][1].

قال ابن عطية: «كيف» يصح أن تكون في موضع نصب بـ«يفترون» ويصح[2] أن تكون في موضع رفع بالابتداء والخبر في قوله «يفترون» انتهى. أما قوله: يصح أن تكون في موضع نصب بـ«يفترون» فصحيح، وأما قوله: ويصح أنْ تكونَ في موضعِ رفعٍ بالابتداء والخبر في قوله «يفترون» فهذا لم يذهبْ إليه أحدٌ لأنَّ «كيف» ليست من الأسماء التي يجوزُ الابتداءُ بها، وإنما قوله «كيف يفترون على الله الكذب» في التركيب نظير قولك: كيف يضرب زيد عمراً. ولو كانت [مما] يجوز الابتداء بها ما جاز أنْ تكونَ مبتدأ في هذا التركيب لأنه ذكر أن الخبر هي الجملة من قوله «يفترون» وليس فيها رابطٌ يربطُ هذه الجملة بالمبتدأ، وليست الجملة نفس المبتدأ في المعنى فلا تحتاج إلى رابط، فهذا الذي قاله فيه هو فاسد على كل تقدير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أجمعوا على أنَّ المرادَ بأهلِ الكتاب هنا اليهود، والكتاب التوراة. وسبب نزولها أنَّ كعبَ بنَ الأشرفِ

(١) ورد هذا المقطع في الأصل بعد شرح الآية التالية.
(٢) ق: ويصلح.

وحييّ بن أخطب وجماعة خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربةِ رسولِ الله ﷺ فقالوا: أنتم أهلُ كتابٍ وأنتم أقربُ إلى محمدٍ فلا نأمنُ مكراً منكم إلينا[١] فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا، فقال[٢] أبو سفيان: أنحنُ أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقال كعب: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمرُ بعبادةِ الله وحده وينهى عن الشرك. قال كعب: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاةُ البيتِ نسقي الحاج ونقري الضيف ونَفكُّ العاني، وذكروا[٣] أفعالهم فقال: أنتم أهدى سبيلاً.

و«الجبت والطاغوت» صنمان لقريش وقيل غير ذلك.

﴿أَمْ [لَهُمْ] نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أم هنا منقطعة، التقدير: بل أَلَهُمْ نصيبٌ من الملك، انتقلَ من كلامٍ إلى كلام بأم واستفهم على سبيلِ الإنكار أنْ يكون لهم نصيبٌ من الملك. قال الأزهري: الفتيل والنّقير والقطمير يُضْرَبُ مثلاً للشيءِ التافهِ الحقير، وخُصَّت الأشياءُ الحقيرة بقوله «فتيلاً» في ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء] وهنا بقوله «نقيراً» لو فاق النظير من الفواصل.

﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ﴾ الآية، هو تصريحٌ ببخلهم. و«إذاً» حرف جزاء وجواب والتقدير من حيث المعنى أنهم إنْ كان لهم نصيبٌ من الملك لا يسمحون بشيء وإن كان تافهاً[٤] لبخلهم.

ثم انتقل من هذه الخصلة الذميمة إلى خصلة أشد منها وهي الحسد،

---

(١) عبارة ق: إلى محمد منكم إلينا فلا تأمن مكركم.

(٢) ق: وقال.

(٣) ق: فقال وذكروا.

(٤) ق: باقيها لهم.

فالبخلُ مَنْعُ فضولِ خيرٍ من الإنسانِ إلى غيرِه، والحَسَدُ تَمنِّي زوال ما أعطى الله الإنسان من الخير وإيتاؤه له. وفي ذلك إشارةٌ إلى حسدهم لرسولِ الله ﷺ.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو النبوة ولذلك جاء بعده ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. وإبراهيمُ هو جَدُّ رسولِ الله صلى الله عليهما وسلم الأعلى[1]، و«آل إبراهيم» يحتمل أنْ يريد شخص إبراهيم عليه السلام. و«الكتاب» الصحف التي نزلت على إبراهيم، وقد يراد بآله مَنْ كان من ذريته كموسى عليه السلام، ويكون الكتاب التوراة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ هو ما كان في بني إسرائيل من الملوك كداود وسليمان عليهما السلام، ألا ترى إلى قول موسى عليه السلام ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ۝٢٠﴾ [المائدة]، الآية.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الضمير عائد على إبراهيم وقيل على الكتاب، أي فمن آل إبراهيم من آمن بالكتاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [١٢٠/أ] لَمَّا ذَكَرَ «ومنهم مَنْ صَدَّ عنه» أتبعه بما لهم من العذاب، ثم ذكرَ ما للمؤمنينَ من النعيم في الآخرة فصار نظير ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ۝١٠٦﴾ [آل عمران] ثم قال تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ۝١٠٧﴾ [آل عمران]. وقرىء: نُصْلِيهم من أصلى، ونَصليهم من صليت، وقرىء بضم الهاء وكسرها.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ قال أبو مسلم: الظليلُ هو القويُّ المتمكِّن، قال: ونعت الشيء بمثل ما اشتُقَّ من لفظه يكون مبالغة كقولهم: ليلٌ أليلُ وداهيةٌ دَهياء.

(١) ق: الأصلي.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ سبب نزولها ما ذكروا في قصة مضمونها أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذ مفتاح الكعبة من سادنَيْها[1] عثمان بن طلحة وابن عمه شيبة بن عثمان بعد تأبٍّ من عثمان ولم يكن أسلم، فسأل العباسُ رسولَ الله ﷺ أنْ يجمعَ له بين السقاية والسّدانة فنزلت، فردَّ المفتاحَ إليهما وأسلم عثمان وقال رسولُ الله ﷺ: خُذوها يا بني طلحة خالدةً تالدةً لا يأخذها منكم إلا ظالم. وعن ابن عباس وغيره: نزلت في الأمراء أن يؤدوا الأمانةَ فيما ائتمنهم اللهُ من أمرِ رعاياهم.

ومناسبتها لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر ما أعدّ للمؤمنين[2] وذكر عمل الصالحات، نَبّه على هذين العملين الشريفين اللذين مَن اتَّصَفَ بهما كان أحرى أنْ يتصف بغيرهما من الأعمال الصالحة، فأحدهما ما يختصّ به الإنسان فيما بينه وبين غيره وهو أداء الأمانة التي عُرضت على السماواتِ والأرض والجبال فأبَيْنَ أنْ يحملنها، والثاني ما يكون بين اثنين من الفصلِ بينهما بالحكمِ العدلِ الخالي عن الهوى، وهو من الأعمالِ العظيمة التي أمرَ اللهُ بها رُسُلَهُ وأنبياءه والمؤمنين.

ولما كان الترتيبُ الصحيح أنْ يبدأ الإنسانُ بنفسه في جلبِ المنافع ودفع

---

(١) ق: سادنها.

(٢) ق: ذكر وعد المؤمنين.

المضار ثم يشتغل بحال غيره، أمر تعالى بأداء الأمانةِ أولاً، ثم بعده بالأمر بالحكم بالحق.

و﴿أَن تَحْكُمُواْ﴾ ظاهره أن يكون معطوفاً على «أن تؤدوا» وفصل بين حرف العطف والمعطوف بإذا، وقد ذهب إلى ذلك بعضُ أصحابنا وجعله كقوله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴿٩﴾﴾ [يس] ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق] ففصل في هذه الآيات[١] بين الواو والمعطوف بالمجرور، وأبو علي يخصّ هذا بالشعر وليس بصواب؛ فإن كان المعطوف مجروراً أُعيد الجارّ نحو: امرر[٢] بزيدٍ وغداً بعمرو، ولكن قوله «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» ليس من هذه الآيات لأنَّ حرف الجر يتعلق في هذه الآيات بالعامل في المعطوف. والظرف هنا ظاهره أنه منصوب بـ«أنْ تحكموا» ولا يمكن ذلك لأن الفعل في صلة أن ولا يمكن أن ينتصب بالناصب لـ«أن تحكموا» لأنَّ الأمرَ ليس واقعاً وقت الحكم، وقد خرّجه على هذا بعضهم. والذي يظهر أن «إذا» معمولة «لأن تحكموا» مقدّرة، و«أن تحكموا» المذكورة[٣] مفسرة لتلك المقدّرة، هذا إذا فَرَّعنا على قولِ الجمهور. وأما إذا قلنا بمذهب الفراء «فإذا» منصوبة بـ«أن تحكموا» هذه الملفوظ بها لأنه يجيز: يعجبني العسل أن يشرب، فيقدم معمول صلة أنْ عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ تقدم الكلامُ عليه في البقرة عند قوله ﴿فَنِعِمَّا هِيَ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة].

---

(١) ق: الآية.

(٢) ق: أمر.

(٣) ق: مذكورة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالِكم الصادرة منكم فيالأحكام ﴿بَصِيرًا﴾ بردِّ الأماناتِ إلى أهلها.

[١٢٠/ب] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، قيل نزلت في أمراءِ رسولِ الله ﷺ، وذكروا قصةً طويلة مضمونها أن عمّاراً أجار رجلاً قد أسلم وفرَّ أصحابه حين أُنذروا[١] بالسّرية فهربوا وأقام الرجل، وأنَّ أميرها خالداً أخذ الرجلَ وماله، فأخبره عمار بإسلامه وإجارته فقال خالد: وأنتَ تجيرُ؟ فاستابَّا[٢] وارتفعا إلى رسولِ الله ﷺ، فأجاز أمانَ عمّار ونَهاه أنْ يُجيرَ على أميرٍ. ومناسبتها لما قبلها أنه لما أمر الولاة أنْ يحكموا بالعدل أمرَ الرعيةَ بطاعتهم.

﴿وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ هم كُلُّ مَنْ وليَ ولايةً صحيحةً شرعية.

﴿فَرُدُّوهُ﴾ إلى كتاب [الله] وسؤالِ رسولِ الله ﷺ في حياته وإلى سنّته بعد وفاته. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الردّ إلى الكتاب والسنّة. و«خير» و«أحسن» لا يُرادُ بهما أفعلُ التفضيل إذْ لا خيرَ ولا حسن في الردِّ إلى غيرِ الكتابِ والسنّة. و«تأويلاً» معناه مآلاً ومَرْجعاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

(١) ق: ندروا.
(٢) أي: تشاتما.

وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ
وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا
قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ
ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا
لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا
مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ
مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ سببُ نزولها أنَّ خصمين اختصما فدعا أحدهما إلى الكاهن والآخر إلى رسولِ الله ﷺ فنزلت. و«الطاغوت» هو الكاهن، ودلّ على أنَّ أحدَ المُدَّعيين كان منافقاً بدليلِ قوله «رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا» حيث مالوا إلى الكاهن دون الرسول ﷺ.

﴿فَكَيۡفَ﴾ في موضع نصب على الحال تقديره: كيف تراهم، أو في موضع رفع أي فكيف صنيعهم. و«إذا» ظرف منصوب بـ«تراهم» أو بصنيعهم «بما قدمت أيديهم» من الكفر.

والمصيبة[1] ما ظهر عليهم من الذلة والمسكنة والاستنقاص من المسلمين الخلّص. ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ﴾ جملة في موضع الحال. وقيل: المصيبة هي هدم مسجد الضرار الذي بنوه. ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ جملة هي جواب القسم، و«إن»

(١) والمعصية.

نافية بمعنى ما، أي: ما أردنا في العدولِ عنكَ عند التحاكمِ إلا إحساناً بالتقريب في الحكم وتوفيقا بين الخصوم دون الحمل على الحق.

﴿ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق، وعبَّر عن المجازاةِ بالعلم والقول البليغ هو الزاجر والرادع. ويتعلق قوله «في أنفسهم» بقوله [قل] على أحدِ معنيين أي: قُلْ لهم خالياً بهم لا يكون معهم أحد من غيرهم مسارّاً لأنَّ النُّصْحَ إذا كان[١] في السرِّ كان أنجع وكان بصدد أن يقبل سريعاً. ومعنى «بليغاً» أي مؤثراً فيهم. أو قُلْ لهم في معنى أنفسهم النجسة المنطوية على النفاقِ قولاً بليغاً يبلغ منهم[٢] ما يزجرهم عن العَوْدِ إلى ما فعلوا.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: بم تعلق قوله «في أنفسهم»؟ قلت: بقوله «بليغاً» أي: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماماً ويستشعرونَ منه الخوفَ استشعاراً وهو التوعُّدُ بالقتلِ والاستئصالِ إنْ نجم منهم النفاقُ انتهى إعرابه. وتعليقه «في أنفسهم» بقوله «بليغاً» لا يجوز على مذهب البصريين لأنَّ معمولَ الصفة لا يتقدم عندهم على الموصوفِ، لو قلت: هذا رجلٌ ضارب زيداً، لم يجز أن تقول: هذا زيداً[٤] رجل ضارب، لأنَّ حق المعمول أنْ لا يحلَّ إلا في موضع يحلُّ فيه العامل. ومعلوم أنَّ النعت لا يتقدم على المنعوتِ لأنه تابع، والتابعُ لا يتقدم على المتبوع، وأجاز ذلك الكوفيون، أجازوا: هذا طعامَك رجل يأكل. والزمخشري أخذ في ذلك بمذهب الكوفيين.

(١) «إذا كان» كتبت في الحاشية.

(٢) ق: قولاً بليغ منهم.

(٣) الكشاف ١: ٥٣٧.

(٤) ق: زيد.

واللام في «ليطاع» لام كي، وهو استثناء مفرغ من المفعول من أجله، أي: وما أرسلنا من رسولٍ لشيء من الأشياء [١٢١/أ] إلا لأجلِ الطاعة.

وقال ابن عطية: وعلى التعليقين فالكلام عامُّ اللفظِ خاصُّ المعنى لأنَّا نقطعُ أنَّ الله تبارك وتعالى قد أراد من بعض خلقه ألا يطيعوه، ولذلك خرّجت طائفة معنى الإذن إلى العلم، وطائفة خرّجته إلى الإرشاد لقوم دون قوم، وهو تخريج حسن لأن الله تعالى إذا علم من أحد أنه يؤمن وفّقه لذلك فكأنه أذن له انتهى. لا يلزم ما ذكره من أنَّ الكلامَ عام اللفظ خاص المعنى، لأنَّ قوله «ليطاع» مبني للمفعولِ الذي لم يُسمَّ فاعله، ولا يلزمُ من الفاعل المحذوف أن يكون عاماً فيكون التقدير: ليطيعه العالم، بل المحذوف ينبغي أن يكون خاصاً ليوافق الموجود[1] فيكون أصله: إلا ليطيعه من أراد طاعته.

وفي قوله «بإذن الله» التفات وهو الخروج من ضمير المتكلم في «أرسلنا» إلى الاسم الغائب، والعامل في «إذ» خبر أنّ وهو «جاؤوك».

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: «لا» الأولى أكّدت معنى النفي. و«لا يؤمنون» جواب القسم وهو قوله «وربك» ونظيره في التوكيد قول الشاعر[2]: [من الوافر]

فلا وأبيكَ لا يُلفى لما بي ... ولا لِلِما بهم أبداً دواء

و«حتى» هنا للغاية أي: لا يصحُّ إيمانُهم إلى أن يحكّموك، وقد تكون حتّى بمعنى إلّا، وهذا أظهر من الغاية، وشَجَر الأمرُ: التبس، يشجر شجوراً [وشجراً]، وشاجَر الرجلُ غيره في الأمرِ: نازعه فيه، وتشاجروا.

---

(١) ق: الوجود.

(٢) ق: لما بهم. والبيت من شواهد مغني اللبيب ١: ١٨١، ونسب في شرح المفصل ٧: ١٧ إلى مسلم بن معبد الوالبي.

و«أنْ» في قوله «أن اقتلوا» يجوز أن تكون مفسرة بمعنى أي لأنه تقدّمها «كتبنا» وهو في معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية. وقرأ الجمهور: إلا قليل، بالرفع وهو بدل من ضمير الفاعل في «فعلوه»، وقرأ ابن عامر وغيره بالنصب، والرفع أكثر في لسان العرب لأن قبله نفي.

وقال الزمخشري[١]: وقرىء: إلا قليلاً بالنصب على أصل الاستثناء [أو على: إلا فعلاً قليلا انتهى. أما على النصب على أصل الاستثناء] فهو الذي وجّه الناسُ عليه هذه القراءة، وأما قوله: إلا فعلاً قليلاً فهو ضعيف لمخالفة مفهوم التأويل[٢] قراءة الرفع ولقوله «منهم» فإنه تعلّق على هذا [التركيب]، ولو قلت: ما ضربوا زيداً إلا ضرباً قليلا منهم، لم يحسن إذ[٣] يكون «منهم» لا فائدة في ذكره. وضمير النصب في «ما فعلوه» عائد على أحد المصدرين المفهومين من قوله «أن أقتلوا، أو أخرجوا»، وقال أبو عبد الله الفخر الرازي[٤]: الكناية في قوله «ما فعلوه» عائدة على القتل والخروج[٥] معاً وذلك لأنَّ الفعلَ جنس واحد وإن اختلفت ضُروبُه[٦] انتهى. وهو كلام غير نحوي.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَـٰهُم﴾ الآية، قال الزمخشري[٧]: وإذاً جواب لسؤالٍ مُقَدَّر كأنه

(١) الكشاف ١: ٥٣٩.
(٢) ق: تأويل.
(٣) ق: أن.
(٤) انظر تفسيره ٣: ٢٥٥.
(٥) ق: أو الخرج.
(٦) ق: صوره، والتصويب من الرازي.
(٧) الكشاف ١: ٥٣٩.

قيل: وماذا يكون لهم أيضاً بعد التثبيت؟ فقيل: وإذاً لو ثَبَتُوا لآتيناهم، لأن إذاً جواب وجزاء انتهى. ظاهر قول الزمخشري: لأن إذاً جواب وجزاء، يُفهم منه أنها تكونُ لمعنيين في حالٍ واحدة على كل حال وهذه مسألة خلاف، وذهب الفارسي إلى أنها قد تكون جواباً فقط في موضع وجواباً[(١)] وجزاءً في موضع، ففي مثل: إذن أظنك صادقاً لمن قال: أزورك، هي جوابٌ خاصةً. وفي مثل: إذن أكرمك لمن قال: أزورك، هي جواب وجزاء. وذهب الأستاذ أبو علي إلى أنها تقدّر[(٢)] بالجواب والجزاء في [كل] موضع وقوفاً مع ظاهر كلام سيبويه. والصحيح قول الفارسي وهي مسألةٌ يُبحثُ فيها في علمِ النحو.

[﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾] أجاز الراغبُ أن يتعلق «من النبيّين» بقوله «ومن يطع الله والرسول» أي: من النبيين ومَن بعدهم، ويكون قوله «فأولئك» [إشارة] إلى الملأ الأعلى، ثم قال «وحسن أولئك رفيقا». وبيّن ذلك قول النبي ﷺ حين الموت[(٣)]: «اللهم ألحقني بالرفيقِ الأعلى» وهذا ظاهر انتهى. وهذا الوجه الذي [هو] عنده ظاهر فاسد من جهة المعنى ومن جهة [١٢١/ب] النحو.

أما من جهة المعنى فإنَّ الرسولَ هنا هو محمد ﷺ أخبر الله تعالى أنَّ مَنْ يطيعه ويطيع رسوله فهو [مع] من ذكر، ولو كان «من[(٤)] النبيين[(٥)]» معلقاً بقوله «ومن يطع الله والرسول» لكان قوله «من النبيين» تفسيراً لمَنْ في قوله

(١) ق: وجواب.

(٢) ق: تقدير.

(٣) صحيح مسلم ٤: ١٨٩٤.

(٤) ق: مع.

(٥) كتبت في الحاشية.

«ومن يطع» فيلزم أن يكون في زمانِ الرسولِ ومن بعده أنبياء يطيعونه وهذا غير ممكن لأنه قد أخبر تعالى أنَّ محمداً هو خاتم النبيين وقال صلى الله عليه وسلم: «لا نبيَّ بعدي»[١].

وأما من جهة النحو فما قبل فاء الجزاء لا يعمل فيما بعدها، لو قلت: إن تقم هند فعمرو ذاهب ضاحكة، لم يَجُزْ[٢].

قال أبو عبد الله الفخر الرازي[٣]: هذه الآيةُ تنبيهٌ على أمرين من أحوالِ المَعَاد؛ الأول إشراق الأرواح بنور المعرفة، والثاني كونهم مع النبيين، وليس المراد بهذه المعيّة في الدرجة فإن ذلك ممتنع بل معناه أن الأرواح الناقصة إذا استكملت علائقها مع الأرواح الكاملة في الدنيا بقيت بعد المفارقة تلك العلائق فينعكس الشعاعُ من بعضها على بعض فتصير أنوارها في غايةِ القوة فهذا ما خطرَ لي انتهى كلامه. وهو شبيه بمقال الفلاسفة في الأرواح إذا فارقت الأجساد، وأهلُ الإسلامِ يأبون هذه الألفاظَ ومدلولاتها ولكن مَنْ غلب عليه حُبُّ شيءٍ جرى في كلامه.

والرفيقُ الصاحبُ سُمِّيَ بذلك للارتفاقِ به وعلى هذا يجوز أن ينتصب «رفيقاً» على الحال من «أولئك» أو على التمييز، وإذا انتصب على التمييز فيحتمل أن لا يكون مفعولاً فيجوز دخول مِنْ عليه ويكون هو المميز، وجاء مفرداً إما لأنَّ الرفيقَ مثل الخليط والصديق يكون للمفرد والمثنى والجمع بلفظ واحد، وإما لإطلاق المفرد في باب التمييز اكتفاء ويراد به

(١) في فتح الباري ٦: ٥٥٨ «وأنا خاتم النبيين».

(٢) بعده في ق: من النبيين.

(٣) انظر تفسيره ٣: ٢٥٧. وقد نقله أبو حيان بتصرف.

الجمع ويحسّن ذلك هنا كونه فاصلة. ويحتمل أنْ يكون منقولاً من الفاعل فلا يكون هو المميز والتقدير: وحسن رفيق أولئك، فلا تدخل عليه مِنْ. ويجوز أن يكون «أولئك» إشارة إلى «من يطع الله والرسول» وجمع على معنى «مَنْ». ويجوز في انتصاب «رفيقاً» الأوجه السابقة. وقرأ الجمهور: وحُسن بضم السين وهي الأصل ولغة الحجاز، وقرأ أبو السمال: وحُسْن بسكون السين وضم الحاء على تقدير نقل حركة السين إليها وهي لغة بعض بني قيس.

قال الزمخشري[١]: «وحسن أولئك رفيقا» فيه معنى التعجب كأنه قيل: وما أحسن أولئك رفيقاً، ولاستقلاله بمعنى التعجب قرىء: وحَسْنَ بسكون السين يقول المتعجب: وحسن الوجه وجهك بالفتح والضم مع التسكين انتهى كلامه.

وهو تخليطٌ وتركيبُ مذهبٍ على مذهب فنقول: اختلفوا في فعل المراد به المدح والذم فذهب الفارسي وأكثر النحويين إلى جواز[٢] إلحاقهِ ببابِ نِعْمَ وبئس فقط فلا يكون فاعله إلا ما يكون فاعلاً لهما.

وذهب الأخفش والمبرد إلى جواز إلحاقه بباب نعم وبئس فيجعل فاعله كفاعلهما وذلك إذا لم يدخله معنى التعجب، وإلى جواز إلحاقه بفعل التعجب فلا يجري مجرى نعم وبئس في الفاعل ولا في بقية أحكامهما بل يكون فاعله ما يكون مفعول فعل التعجب فنقول لضربت يدك ولضربت اليد، والكلام على هذين المذهبين تصحيحاً وإبطالاً مذكور في علم النحو.

---

(١) الكشاف ١: ٥٤٠.

(٢) ق: الجواز. وكتبت «إلى» في الحاشية.

والزمخشري لم يتبع واحداً من هذين المذهبين بل خلط وركّب فأخذ التعجب من مذهب الأخفش، وأخذ التمثيل بقوله: وحسن الوجه وجهك من مذهب الفارسي. وأما قوله: ولاستقلاله بمعنى التعجب قرىء: وحسن بسكون [١٢٢/أ] السين، وذكر أن المتعجب يقول: وحَسَن وحَسُن، وهذا ليس بشيء لأن الفراء ذكر أن تلك لغات للعرب فلا يكون التسكين ولا هو والنقل لأجل التعجب.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الظاهر أنَّ الإشارةَ إلى كينونة المطيع مع النبيين ومن عطف عليهم لأنه هو المحكوم به في قوله «فأولئك مع الذين» وكأنه على تقدير سؤال أي: وما الموجب لهم استواءهم مع النبيين في الآخرة مع أن الفرق بينهم في الدنيا بيّنٌ، فذكر أنه أعطى ذلك بفضله لا بوجوبٍ عليه، ومع استوائهم معهم في الجنة فهم متفاوتون في المنازل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ
مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ
يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ
فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل
لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه

تعالى لما ذكر طاعته وطاعةَ رسولِه وكان من أهم الطاعات إحياء دين الله تعالى، أمر بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته، وأمرهم أنْ لا يقتحموا على عدوهم على جهالة فقال: «خذوا حذركم» فعلّمهم مباشرة الحروب. ولما تقدم ذِكْرُ المنافقين ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قبول مقالاتهم وتثبيطهم عن الجهاد فنادى أولاً باسم الإيمان على عادته تعالى إذا أراد أن يأمر المؤمنين أو ينهاهم. والحِذْر والحَذَر بمعنى واحد. قالوا: ولم يسمع في هذا التركيب إلا: خذ حِذْرك لا خذ حَذَرك. ومعنى خذ حِذْرك أي استعِدَّ بأنواع ما تستعدّ به للقاء من تلقاه فيدخل فيه أخذ السلاح وغيره. يقال: أخذ حِذْره إذا احترز من المخوف كأنه جعل الحذر آلته التي يتقي بها ويعتصم، والمعنى احترزوا من العدوّ. ثم أمر تعالى بالخروجِ إلى الجهادِ جماعةً [بعد] جماعةٍ وسرية بعد سريّةٍ أو كتيبةً واحدة مجتمعة.

وقرأ الجمهور: فانفروا بكسر الفاء فيهما، وقرأ الأعمش بضمّها فيهما. وانتصاب «ثُبات» و«جميعاً» على الحال. ولم يقرأ «ثباتٍ» فيما علمناه إلا بكسر التاء وحكى الفراء فيها الكسر والفتح. والثُّبَةُ الجماعة الاثنان والثلاثة في كلام العرب، وقيل هي فوق العشرة من الرجال وزنها فُعْلة ولامها قيل واو، وقيل ياء مشتقة من ثبيت على الرجل إذا أثنيت[1] عليه كأنك جمعت محاسنه. ومن قال إن لامها واو جعلها من ثبا يثبو مثل حلا يحلو.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ الخطابُ لعسكرِ رسول الله ﷺ.

﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ هم المنافقون وجُعلوا من المؤمنين باعتبارِ الجنس أو النسب أي الانتماء إلى الإيمان ظاهراً. و«مَن» موصولة و«ليبطّئنّ» جواب

---

(١) ق: أثيب.

[قسم محذوف و]القسم المحذوف وجوابه صلة لمن، وقد ذهب أحمد بن يحيى إلى أن القسم وجوابه لا يكون صلة للموصول وهو محجوج بهذه الآية. ومعنى «ليبطئنّ» ليثبطن المجاهدين على الجهاد.

والمصيبة: الهزيمة وما يلحق المؤمنَ من القتلِ أو تولِّي الأدبار. والشهيد الحاضر.

والفضل هنا الظفر بالعدو والغنيمة.

﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ ﴾ هذه الجملة اعتراض بين قوله «ليقولن» ومعمول القول وهو قوله «يا ليتني كنت معهم».

واختلف المفسرون في معنى هذه الجملة ودخولها بين القول ومعموله. قال الزمخشري[١]: والمعنى كأن لم يتقدم له معكم مودة لأنَّ المنافقين كانوا يوادُّونَ المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر وإنْ كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن. والظاهر أنه تَهكُّمٌ بهم لأنهم كانوا أعدى عدوٍّ للمؤمنين وأشدهم حسداً لهم فكيف يوصفون بالمودّة إلا على وجه العكس تهكماً بحالهم.

وقال ابن عطية: المنافقُ يُعاطي المؤمنينَ المودَّةَ ويعاهد على التزام [١٢٢/ب] كلف الإسلام ثم يتخلّف نفاقاً وشكًّا وكفراً بالله ورسوله، ثم يتمنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين فعلى هذا يجيء قوله تعالى «كأن لم تكن بينكم وبينه مودة» [التفاتة] بليغة واعتراضاً بين القائلِ والمقولِ بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم.

---

(١) الكشاف ١: ٥٤١.

ولغير هذين الرجلين كلام في الآية مذكور في «البحر المحيط»[1]، وملخص ما قالوا أن هذه الجملة التشبيهية إما أن يكون لها موضعٌ من الإعرابِ نصب على الحال من الضمير المستكنّ في «ليقولن» أو نصب على المفعول بيقولنّ على الحكاية فيكون من جملة المقول، وجملة المقول هو مجموع الجملتين: جملة التشبيه وجملة التمني، وضمير الخطاب للمتخلفين عن الجهاد، وضمير الغيبة في «وبينه» للرسول وعلى الوجه الأول ضمير الخطاب للمؤمنين وضمير الغيبة للقائل.

وإما أن لا يكون لها موضعٌ من الإعرابِ لكونها اعتراضاً في الأصل بين جملة الشرط وجملة القسم وأخّرت، والنيّة بها التوسّط بين الجملتين، أو لكونها اعتراضاً بين «ليقولن» ومعموله الذي هو جملة التمني، وليس اعتراضاً يتعلق بمضمون هذه الجملة المتأخرة بل يتعلق بمضمون الجملتين، والضميرُ الذي للخطاب هو «للمؤمنين» وفي «بينه» للقائلِ، واعترض به بين أثناء الجملة الأخيرة ولم يتأخر بعدها وإنْ كان من حيث المعنى متأخراً إذ معناه متعلق بمضمون الجملتين لأنَّ معمولَ القولِ النيةَ به التقديم لكنه حَسُنَ تأخيره كَوْنَه وقع فاصلة، ولو تأخرتْ جملةُ الاعتراض لم يحسن لكونها ليست فاصلةً والتقديرُ: ليقولن يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً كأنْ لم يكن بينكم وبينه مودة إذْ صدر منه قوله وقت المصيبة: قد أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيداً، وقوله وقت الغنيمة: يا ليتني كنتُ معهم، وهذا قول مَنْ لم تسبق منه مودة لكم. وفي الآيتين تنبيهٌ على أنهم لا يعدون من المنح إلا أغراض الدنيا يفرحون بما ينالون منها، ولا من المحن إلا مصائبها فيتألمون لما يصيبهم منها كقوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ

(١) انظر ٣: ٢٩٣ وما بعدها.

﴿رَبُّهُ ⑮﴾ [الفجر]، الآية.

قال ابن عطية: و«كأنْ» مضمنة معنى التشبيه ولكنها ليست كالثقيلةِ في الحاجةِ إلى الاسم والخبر وإنما تجيءُ بعدها الجمل انتهى. وهذا الذي ذكره غير محرر ولا على إطلاقه، أما إذا خففت ووليها ما كان يَلِيها وهي ثقيلة فالأكثر والأفصح أن ترفع تلك الجملة على الابتداء والخبر، ويكون اسم كأنْ ضمير شأن محذوفاً وتلك الجملة في موضع خبر كأن، وإذا لم يُنْوَ ضمير الشأن جاز لها أن تنصب الاسم إذا كان مظهراً وترفع الخبر، هذا كلام سيبويه. ولا يخص ذلك بالشعر فتقول: كأنْ زيداً قائم. قال سيبويه[1]: وحدثنا مَنْ يُوثَقُ به أنه سمع من العرب مَنْ يقول: إنْ عمراً لمنطلق، وأهل المدينة يقرؤون، «وإنْ كلاًّ لما» [هود: ١١١] يخففون وينصبون كما قالوا:

كأنْ ثَدْيَيْهِ حُقّانِ [من الهزج]

وذلك لأن الحرف بمنزلة الفعل فلما حذف من نفسه شيء لم يغير عمله كما لم يغيّر عمل: لم يكُ ولم أُبَلْ حين حذف انتهى. فظاهر تشبيه سيبويه إنْ عَمْراً لمنطلق بقوله:

كأنْ ثدييه حقَّان

جواز ذلك في الكلام وأنه لا يختص بالشعر.

وقد نقل صاحبُ رؤوس المسائل أنَّ كأنَّ إذا خففت لا يجوزُ إعمالها عند الكوفيين وأنَّ البصريين أجازوا ذلك. فعلى مذهب الكوفيين قد يتمشى قول ابن

---

(١) الكتاب ٢: ١٤٠، وعجز البيت فيه، وصدره ٢: ١٣٥:
وَوَجْهٍ مُشْرِقِ النَّحْرِ

عطية في أنّ كأنْ المخففة ليست [١٢٣/أ] كالثقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر. وأما على مذهب البصريين فلا[(١)] لأنها لا بدَّ لها عندهم من اسمٍ وخبر.

﴿يَشْرُونَ﴾ يبيعون عَرَضَ الحياة الدنيا وهو الفاني بنعيم الآخرة وهو الباقي. ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ عطف على فعل الشرط، وبدأ بالأكثر ثواباً وهو القتل. وجواب الشرط ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾. والأجرُ العظيم هنا زيادةُ الثوابِ وقيل الجنة.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ الآية، هذا استفهامُ حَثٍّ وتحريضٍ على الجهاد في سبيل الله وعلى تخليص المستضعفين. «لا تقاتلون» في موضع الحال ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على الجلالة تقديره: وفي سبيلِ المستضعفين. ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ ومنهم عبد الله بن عباس ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ منهن أم عبد الله ومن جرى مجراهما. ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ هم الصبيان واحدهم وليد، ويجوز أن يكون واحدهم ولداً كقول العرب وَرَلَ ووِرْلان[(٢)]. ثم ذكر تعالى حالةَ استضعافِهم بقوله في دعائهم «ربنا أخرجنا من هذه القرية» وهي مكة.

﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ هم مَنْ كان بها من صناديد قريش المانعين لهم من الهجرة ومن ظهور الإسلام.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، لما أمر تعالى المؤمنين أولاً بالنفر إلى الجهاد ثم ثانياً بقوله «فليقاتل في سبيل الله» ثم ثالثاً على طريق الحَثِّ والحضِّ بقوله «وما لكم لا تقاتلون» - أخبر في هذه الآية بالتقسيم أنَّ المؤمنَ هو الذي يقاتل في سبيل الله، وأنَّ الكافر هو الذي يقاتل في سبيل

---

(١) ق: فلأنها.

(٢) الوَرَل: دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه، والجمع وِرلان.

وجواب «فلما كتب» إذا الفجائية وما بعدها، ودلَّ ذلك على أنَّ لمّا حرف وجوبٍ لوجوبٍ لا ظرف بمعنى حين، إذْ لو كانت ظرفاً لكان لها عامل وإذا الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

﴿أَوْ أَشَدَّ﴾ انتصب «أشد» على أنه حال من قوله «خشية» لأنه صفة لنكرة وتقدمت عليها فانتصب على الحال، والمعنى: يخشون الناسَ خشيةً مثلَ خشيةِ الله أو [خشية] أشدّ من خشيةِ الله، فأشدّ أفعل تفضيل والمفضل عليه محذوف وتقديره: من خشية الله.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ الآية، الظاهر أنَّ القائلينَ هم المنافقون لأنَّ الله تعالى إذا أمر بشيء لا يَسأل عن عِلَّته مَنْ هو خالصُ الإيمان.

﴿لَوْلَآ﴾ يكون حرف امتناع لوجود كقولك: لولا زيد لأكرمتك، ويكون حرف تحضيض كقوله هنا «لولا أخرتنا إلى أجل قريب». والأجل القريب استزادة في كفهم عن القتال.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ[1]﴾ أين ظرف مكان وتكون شرطاً فيزاد بعدها ما، وقد تخلو مِن ما كقول الشاعر[2]: [من الخفيف]

أين تضرب بنا العداة تَجِدْنا

وتكون استفهاماً كقولك: أين زيد؟. ولا يحفظ زيادة ما بعد أين إذا كانت استفهاماً. والبروج القصور العالية.

---

(١) ق: تكون.

(٢) صدر بيت لابن همام السّلولي كما في شرح المفصل ٧: ٤٥، وهو فيه:

أين تَصرفْ بها العداةُ تجدنا نصرف العيس نحوها للتلاقي

الطاغوت ليتبيّن للمؤمن فرق ما بينهم وبين الكفار ويقوّيهم بذلك ويشجّعهم ويحرّضهم وأنّ مَنْ قاتل في سبيل الله هو الذي يغلب لأنَّ الله تعالى هو وليّه وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب.

والطاغوت هنا الشيطان لقوله «فقاتلوا أولياء الشيطان» [وهنا محذوف، التقدير]: فإنكم تغلبونهم لقوّتكم بالله تعالى، ثم علّل هذا المحذوف وهو غلبتكم إياهم بأن كيد الشيطان ضعيف فلا يقاوم نصر الله وتأييده.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ﴾ الآية، خَرَّج النسائيُّ في سننه[1] عن ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبيَّ ﷺ بمكة فقالوا: يا نبيَّ الله كنا في عزٍّ ونحن مشركون فلما آمنّا صرنا أذلّةً فقال: إني أُمرتُ بالعفو فلا تقاتلوا القومَ، فلما حوّله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتالِ فكفُّوا فأنزلَ الله تعالى هذه الآية.

ومعنى ﴿ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ[2] ﴾: عن القتال، وكانوا مُتشوقين إلى قتال الكفار.

(١) لم أجده فيه، والحديث في لباب النقول ص٧٤.

(٢) ق: أيديهم.

﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مَبنيّة بالشيد وهو الجصّ.

قال [١٢٣/ب] الزمخشري[١]: ويجوز أن يتصل بقوله «ولا تُظلمونَ فتيلاً» أي: لا تنقصون شيئاً ممّا كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم حروبٍ أو غيرها، ثم ابتدأ بقوله «يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة»، والوقف على هذا الوجه [على] «أينما تكونوا» انتهى.

هذا تخريجٌ ليس بمستقيمٍ لا من حيث المعنى ولا من حيث الصناعة النحوية؛ أما من حيث المعنى[٢] فإنه لا يناسب أنْ يكون متصلاً [بقوله] «ولا تُظلمون فتيلاً» لأنَّ ظاهرَ انتفاء الظلم إنما هو في الآخرةِ لقوله «قُلْ متاعُ الدنيا قليل والآخرة خيرٌ لمن اتَّقى». وأما من جهة النحو فإنه على ظاهر كلامه يدل[٣] على [أن] «أينما» متعلق بقوله «ولا تظلمون» بمعنى ما فسّرد من قوله، أي: لا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم حروب أو غيرها.

وهذا لا يجوز لأن «أينما» اسم شرط فالعاملُ فيه إنما هو فعل الشرط بعده، ولأنَّ اسم الشرط لا يتقدم عليه عامله فلا يمكن أن يعمل فيه «ولا تظلمون»، بل إذا جاء نحو: اضرب زيداً متى جاء [لا] يجوز أن يكون الناصب لمتى «اضرب»، فإن قال: يقدّر له جواب محذوف يدل عليه ما قبله وهو قوله «ولا تظلمون» كما يقدّر في: اضرب زيداً، فالتقدير: أينما تكونوا[٤] فلا تُظلمون فتيلاً أي: فلا ينقص شيءٌ من آجالكم وحذف لدلالة

(١) الكشاف ١: ٥٤٥.

(٢) بعده في ق: ولا من حيث الصناعة النحوية أما من حيث المعنى.

(٣) ق: يد على.

(٤) ق: تكون.

ما قبله عليه - قيل له: لا يحذف الجواب إلا إذا كان فعل الشرط بصيغة الماضي، وفعلُ الشرط هنا مضارع، تقول العرب: أنتَ ظالمٌ إنْ فعلت ولا تقول: أنت ظالم إن تفعل. و«يدرككم» مجزوم جواب «أينما». وجواب «لو» محذوف تقديره: لأدرككم الموت.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الظاهر أنَّ هذا من كلام المنافقين. والحسنةُ ما يحصلُ لهم من الخير، والسيئةُ ما يصيبهم من السوء. ومَنْ قال إنهم اليهود فليس بظاهرٍ لأنهم لم يكونوا في طاعةِ الإسلام ولم يكتب عليهم القتال. والمعنى أن هؤلاء المنافقين إذا أصابتهم حسنةٌ نسبوها إلى اللهِ تعالى وأنها ليست بسبب اتباعِ الرسولِ ولا الإيمان به، وإنْ تُصبهم سيئةٌ أضافوها إلى الرسولِ وقالوا هي بسببهِ كما جاء في قوم موسى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف] وفي قوم صالح ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل]. وروى جماعةٌ من المفسرين أنَّ النبيَّ ﷺ لما قدم المدينةَ قال اليهود والمنافقون: ما زلنا نعرف النقصَ في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه.

﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ خلْقاً وتقديراً ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ استفهامُ إنكارٍ حيثُ نسبوا إليه السيئة. و﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ فيه نفي المقاربة وهو أبلغ من نفي الفعل. والحديث: قيل هو القرآن.

﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ الظاهر أنه خطاب لكل سامع. وقوله[1]: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: بسبب ما اكتسبه الإنسانُ من الذَّنْبِ والله هو المُقَدِّرُ لذلك. وانتصب قوله «رسولاً» على الحال المؤكدة للجملة التي هي «وأرسلناك».

(١) ق: قوله.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠
وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ
يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ
ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ وَإِذَا جَآءَهُمۡ
أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ
لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤ مَّن
يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ
مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ
رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ .

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ ارتفع «طاعة» على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره أَمْرُنا طاعة، أي لك. وقرىء بإدغام التاء من «بيّت» في الطاء وبإظهارها. ﴿غَيۡرَ[1] ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ من قولهم: أمرنا طاعة، وهم في حال تبييتهم[2] يبغون لك الغوائل ويتكلمون بغير الطاعة. ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ كناية عن مجازاتهم على ما بيّتُوا للرسول ﷺ من السوء.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ قرىء: يتدبرون، ويدّبرون بإدغام التاء في الدال. والمعنى أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ولا يعرضون عنه، فإنه في تدبّره يظهر برهانه. والضمير في «فيه» عائد على القرآن. ووجه هذا الدليل

(١) ق: على.

(٢) ق: تثبيتهم.

أنه ليس من متكلم كلاماً طويلاً إلا وُجد في كلامه اختلافٌ كثير إما في الوصف واللفظ [١٢٤/أ] وإما في المعنى بتناقض أخبار، أو الوقوع على خلاف المخبَر [به]، أو اشتماله على ما لا يلائم ولا يلتئم، أو كونه تمكن معارضته. والقرآن العظيم ليس فيه شيء من ذلك. وقد ردَّ محمد بن المستنير الملقّب بقطرب على الملاحدة الذين طعنوا في القرآن وزعموا أنَّ فيه تناقضاً، ردَّ عليهم في كتاب كبير صنّفه(١)، بَيَّنَ فيه جهلَ الملاحدةِ بلسانِ العرب وبُعْدَ أفهامِهم عن فصاحة الكلام وبلاغته وصحة معناه، أثابه الله تعالى ورحمه.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ روي عن ابن عباس أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا بعث سرية من السّرايا فغُلبت أو غَلبت تحدثوا بذلك وأفشوه ولم يصبروا حتى يكون هو المحدّث به فنزلت.

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي الأمر إلى إعلام الله والرسول ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ يستخرجونه ويكشفون عن حقيقته بإعلامِ الرسول عليه السلام لهم.

ثم انتقل الكلامُ عن المنافقين إلى خطاب عام وهو قوله تعالى ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ الآية، ودلَّتْ على كثرةِ أتباعِ الشيطانِ وقلّة مَنْ لا يتبعه ولذلك جاء الاستثناء بقوله «إلا قليلاً». قال ابن عطية: لاتبعتم الشيطان كلكم إلا قليلا من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها انتهى. فسّره في الاستثناء بالمتّبع فيه فيكون استثناء من المتبع فيه المحذوف لا من الاتباع ويكون استثناء مفرغاً، والتقدير: لاتبعتمُ الشيطانَ في كُلِّ شيءٍ إلا قليلاً من الأشياء فلا تتبعونه فيه. فإن كان ابن عطية شرح من حيث المعنى فهو صحيح لأنه

(١) سمّاه «الردّ على الملحدين في تشابه القرآن» انظر وفيات الأعيان ٤ : ٣١٢

يلزم من استثناء الاتباع القليل أنْ يكون المتبع فيه قليلاً. وإن كان شرح من حيث الصناعة النحوية فليس بجيد لأنَّ قوله: إلا اتباعاً قليلاً، لا يرادف إلا قليلاً[1] من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها انتهى.

وقال قوم «إلا قليلاً» عبارة عن العدم يريدون: لاتّبعتم الشيطان كلّكم، قال ابن عطية: هذا قولٌ قَلِقٌ وليس يشبه ما حكى سيبويه من قولهم: أرض قلّما تنبت كذا، بمعنى لا تنبته لأنَّ اقترانَ القلة بالاستثناء يقتضي حصولها ولكن ذكره الطبري[2] انتهى. هذا الذي ذكره ابن عطية صحيح ولكن قد جوّزه هو في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴿٤٦﴾﴾ [النساء] ولم يقلق عنده هناك ولا ردّه، وقد رددناه عليه هناك فليطالع ثمّة.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قيل: نزلت في بدر الصغرى، دعا الناسَ إلى الخروجِ وكان أبو سفيان واعدَ رسولَ الله ﷺ اللقاء فيها فكره بعضُ الناس أن يخرجوا فنزلت، فخرجَ عليه السلام وما معه إلا سبعون لم يَلْوِ على أحدٍ، ولو لم يتبعه أحدٌ لخرجَ وحده. ومناسبةُ هذه الآية هي أنه لما ذكر في الآيات قبلها تثبيطَهم[3] عن القتال واستطرد من ذلك إلى أنَّ الموتَ يدركُ كُلَّ أحدٍ ولو اعتصم بأعظم معتصم فلا فائدة في الهروبِ من القتال، وأتبع ذلك بما أتبع من سوء خطاب المنافقين لرسولِ الله ﷺ وفعلهم معه من إظهار الطاعة بالقول وخلافها بالفعل، وبكّتهم في عدم تأمّلهم ما جاء به الرسول من القرآن الذي فيه كتب القتال عليهم - عاد إلى أمر القتال، وهكذا عادةُ كلامِ العرب تكونُ في شيءٍ ثم تستطردُ من ذلك إلى شيء آخر له [به] مناسبة

(١) ق: لا يرادف القليل.
(٢) انظر تفسيره ٥: ١١٦.
(٣) ق: يثبّطهم.

وتعلّق ومعنى.

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ أي: لا تُكَلَّفُ في القتالِ إلا نفسكَ فقاتلْ ولو وحدكَ. وقيل: المعنى إلا طاقتكَ ووُسْعَكَ. والنَّفْسُ يُعَبَّر بها عن القوة يقال: سقطت نفسه أي قوته. [١٢٤/ب] وقرأ الجمهور: لا تُكلَّف خبراً مبنياً للمفعول، قالوا: والجملة في موضع الحال. ويجوز أن يكون إخباراً من الله تعالى لنبيّه لا حالاً شرع له فيها أنه لا يُكلَّف أمر غيره من المؤمنين إنما يكلف أمر نفسه فقط. وقرىء: لا نُكلِّف بالنون وكسر اللام ويحتمل وجهي الإعراب الحال والاستئناف. وقرأ عبد الله بن عمر: لا تُكلَّفْ بالتاء وفتح اللام والجزم على جواب الأمر، فأمره تعالى بحثّ المؤمنين على القتال وتحريك هممهم إلى قتال عدوهم وترغيبهم بما أعد[١] الله لهم من حسن الجزاء وفضيلة الشهادة.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ قال الزمخشري[٢]: الشفاعة الحسنة هي التي رُوعيَ فيها حقُّ مسلمٍ ودُفع بها عنه شَرٌّ أو جلب إليه خير وابتُغي بها وجه الله تعالى ولم يؤخذ عليها رشوة وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود الله ولا حقٍّ من الحقوق. والسيئة ما كان بخلاف ذلك انتهى، وهذا بسط ما قاله الحسن قال: الشفاعةُ الحسنة هي [في] البِرّ والطاعةِ، والسيئة في المعاصي.

والكِفْلُ النصيبُ كقوله تعالى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد] أي نصيبين. والظاهر أن «مِن» للسبب أي: نصيب من الخير بسببها وكفل من الشر بسببها. وغاير في النصيب فذكره بلفظِ الكِفْلِ في الشفاعةِ السيئة لأنه

---

(١) ق: وعد.

(٢) الكشاف ١: ٥٤٩.

أكثر ما يستعمل في الشر وإنْ كان قد استُعمل في الخير كما تقدم قبلُ. قالوا: وهو مستعارٌ من كفل البعير وهو كساء يُدار على سنامه ليُرْكَبَ عليه، وسمّي كفلاً لأنه لم يَعُمَّ الظهر بل نصيباً منه.

﴿مُقِيتًا﴾ مقتدراً، والمقيت الحافظ والشاهد، قيل: هو مشتق من القوت، والقوت ما يحفظ به الإنسان نفسه من التلف.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ الظاهر أنَّ التحيةَ هنا السلام ووزنها تَحْيِيَة تَفْعِلَة لأنها مصدر حَيَّا، نقلت حركة الياء إلى الحاء وأدغمت الياء في الياء. والظاهر أن قوله «حيّيتم» خطابٌ للمسلمين يسلّم عليهم من هو مسلم. وظاهر الأمر في قوله ﴿فَحَيُّوا﴾ الوجوب، فإذا قال: سلام عليكم ردّ بقوله: عليكم السلام ورحمة الله، أو يكتفي بقوله: عليك السلام. وإذا زاد «وبركاته» فالأحسن أن يُردّ بمثل ذلك، ولو اقتصر على قوله: وعليكم السلام كان جائزاً. وقوله ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ على حذف مضاف تقديره: أو رُدُّوا[1] مِثْلَها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لما فرض القتال وقال المنافقون ما قالوا وأمر رسول الله ﷺ بالقتال وبتحريض المؤمنين عليه وذكر حديث الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة وتعليم ردّ السلام وأنه تعالى حسيب على ذلك - أخبر بجمعه تعالى العالم في يوم القيامة للمجازاة وثواب الجهاد في سبيل الله تعالى. ولما ذكر الجمع مقسماً عليه أردفه بقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: لا أحد أصدق من الله. وقرىء بإخلاص الصاد وبإشمامها الزاي. وانتصب «حديثاً» على التمييز.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ

(١) ق: فردوها.. فردّوا.

مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ
فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ
يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ رجع في الأخبار إلى حال المنافقين الذين قالوا ربنا لِمَ كَتَبْتَ علينا القتال[1]. والخطاب في «لكم» هو للمؤمنين، قال ناسٌ منهم: نقتل المنافقين، وقال ناس: لا نقتلهم لأنهم نطقوا بكلمة الإسلام، فعاتبهم الله تعالى على كونهم انقسموا فرقتين. وانتصب «فئتين» على الحال. و«ما» استفهام [إنكار وهو] مبتدأ و«لكم» خبره.

﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ قال ابن عباس: ردَّهم في كفرهم ولذلك قال تعالى «ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء».

قال الزمخشري[2]: «فتكونون» [عطف على «تكفرون»] ولو نصب على جواب التمني لجاز والمعنى [١٢٥/أ] وَدُّوا كفركم وكونكم معهم شرعاً واحداً فيما هم عليه من الضلال واتباع دين الآباء انتهى. كون التمني بلفظ

(١) الآية ٧٧ السابقة.
(٢) الكشاف ١ : ٥٥١.

الفعل [ويكون له جواب فيه نظر، وإنما المنقول أن الفعل] ينتصب في جواب التمنّي إذا كان بالحرف نحو ليت ولو، وإلا إذا أُشْرِبَتا معنى التمني. أما إذا كان بالفعل فيحتاج إلى سماع من العرب، بل لو جاء لم تتحقق فيه الجوابية لأن «ودّ» التي تدل على التمني إنما متعلّقها المصادر لا الذوات، فإذا نصب الفعل بعد الفاء لم يتعين أن تكون فاء الجواب لاحتمال أن يكون من باب عطف المصدر المقدر على المصدر الملفوظ به فيكون [من باب][1]:

لَلُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني [من الوافر]

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما نصّ على كفرهم وأنهم تمنّوا أنْ يكونوا مثلهم بانت عداوتهم لاختلافِ الدينين، فنهى تعالى أنْ يُوالى أحدٌ منهم وإنْ آمنوا حتى يظاهروا بالهجرة الصحيحة لأجل الإيمان لا لأجل حظ الدنيا، وإنما غيّا بالهجرةِ فقط لأنها تتضمن الإيمان. وفي هذه الآية دليلٌ على وجوبِ الهجرة إلى المدينة إلى النبيِّ ﷺ ولم يزلْ حكمها كذلك حتى فتحت مكة فنسخ ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم[2]: «لا هجرةَ بعد الفتحِ ولكن جهادٌ ونيّةٌ وإذا اسْتُنفرتُم فانفروا».

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ هذا استثناء من قوله «فخذوهم واقتلوهم» والوصولُ هنا البلوغ. قال ابن عطية: كان هذا الحكم في أول الإسلام قبل أنْ يستحكم أمر الطاعة من الناس، فكان رسولُ الله ﷺ قد هادنَ من العربِ قبائلَ كرهط هلال بن عويمر الأسلمي وسراقة بن مالك بن جعشم وخزيمة بن عامر بن

---

(١) الشعر لميسون بنت بحدل زوج معاوية وهو من شواهد الكتاب ٣: ٤٥، وانظر أمالي ابن الشجري ١: ٢٨٠. وعجزه:

أحبّ إليّ من لبس الشفوف

(٢) صحيح مسلم ٣: ١٤٨٨. وفي ق: وإن استنفرتم.

عبد مناف، فقضت هذه الآيةُ أنه مَنْ وصل من المشركين الذين لا عهدَ بينهم وبين النبيِّ ﷺ إلى أهل العهد ودخل في عِدَادِهم وفَعَلَ فِعْلَهم من الموادعةِ فلا سبيلَ عليه. قال عكرمة: لما تَقَوَّى الإسلامُ وكثر ناصره نسخت هذه الآية والتي بعدها بما في سورة براءة[1] انتهى.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنين وهو معطوف على صلة «الذين» فاستثنى تعالى من الذين يُقتلون[2] صنفين أحدهما: مَنْ يصل إلى قومٍ بين المؤمنين وبينهم ميثاقٌ، والصنفُ الثاني: مَنْ جاء المؤمنينَ من الكفارِ وقد امتنع من قتالِ المؤمنين وعن قتالِ قومهم.

و﴿حَصِرَتْ﴾ جملة في موضع الحال ويبيّن ذلك قراءة من قرأ: حَصِرَةً صدورهم، وقراءة من قرأ: حاصرات صدورهم بالجمع. ومعنى «حصرت» أي: ضاقت، وأصلُ الحصر في المكان ثم تُوسّع فيه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تقريرٌ للمؤمنين على مقدار نعمته تعالى عليهم، أي: لو شاء لقوّاهم وجَرَّأهم عليكم وإذْ قد أنعم عليكم بالهدنةِ فاقبلوها. قال ابن عطية: واللام في قوله «لسلّطهم» جواب «لو»، وفي «فلقاتلوكم» لام المحاذاة[3] والازدواج لأنها بمثابة الأولى، لو لم تكن الأولى كنت تقول [لو شاء الله] لقاتلوكم انتهى.

تسميةُ هذه اللام [لام] المحاذاة والازدواج تسميةٌ غريبة لم أرها[4] إلا في

(١) بقوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [براءة]، الآية.
(٢) ق: لا يقتلون.
(٣) ق: المجازاة، وكذا في الموضع التالي.
(٤) ق: لم أر ذلك.

عبارة هذا الرجل وعبارة مكّي.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ الضمير عائد على الذين جاؤوكم، أي: لم يخالطوكم.

قال الزمخشري[(١)]: الوجه العطف على الصلة لقوله «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم» الآية، بعد قوله «فخذوهم واقتلوهم» فقرر أنَّ كفَّهم عن القتالِ أحد سببي استحقاقهم لنفي التعرض لهم وترك الإيقاع بهم. فإن قلت: كل واحد من الاتصالين[(٢)] له تأثير في صحة الاستثناء واستحقاق ترك التعرض الاتصال بالمعاهدين والاتصال بالمكافين [لأن الاتصال بهؤلاء أو هؤلاء دخول في حكمهم] فهلاّ جوّزت أن يكون العطف على صفة «قوم» ويكون قوله «فإن اعتزلوكم» تقريراً لحكم [١٢٥/ب] اتصالهم بالمكافين[(٣)] واختلاطهم فيهم وجريهم على سننهم؟ قلت: هو جائز ولكن الأول أظهر وأجرى على أسلوب الكلام انتهى.

إنما كان أظهر وأجرى على أسلوبِ الكلامِ لأنَّ المستثنى محدّث عنه محكوم [له] بخلاف حكم المستثنى منه، وإذا عطفت على الصلة كان محدّثاً عنه [وإذا عطفت على الصفة لم يكن محدّثاً عنه] وإنما يكون ذلك تقييداً في «قوم» الذين هم قيد في الصلة المحدّث عن صاحبها. وإذا دار الأمرُ بين أن تكونَ النسبةُ إسناديةً في المعنى وبين أنْ تكون تقييديةً كان حملها على الإسنادية أوْلى للاستقلال الحاصل بها دون التقييدية.

هذا من جهة الصناعة النحوية، وأما من حيث ما يترتب على كل واحد

(١) الكشاف ١: ٥٥١.

(٢) ق: الاتصال.

(٣) ق: بالكافين، في الموضعين.

من العطفين [من المعنى] فإنه يكون تركهم القتال سبباً لتركِ التعرض لهم وهو سببٌ قريب، وذلك على العطفِ على الصلة، ووصولهم إلى مَنْ يترك القتال سبب لترك التعرض لهم وهو سبب بعيد وذلك على العطف على الصفة. ومراعاةُ السبب القريب أوْلى من مراعاة السبب البعيد.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الانقياد فلا قتلَ لكم عليهم ولا قتال.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ الآية، لما ذكر صفة المحقّين في المتاركةِ المجدّين في إلقاء السّلم نبَّه على طائفةٍ مُخادعة يريدون الإقامةَ في مواضعهم مع أهليهم يقولون نحن معكم على دينكم، ويقولون للمسلمين كذلك إذا وَفَدُوا. قيل: كانت أسد وغطفان بهذه الصفةِ فنزلت فيهم، قاله مقاتل.

﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: ظفرتم بهم لقوله تعالى ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة]. وما دلَّتْ عليه هذه الآيةُ من موادعةِ الكفار وترك قتلهم منسوخٌ بآيةِ السيف التي في براءة[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا

(١) وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴿٥﴾﴾ [براءة]. وانظر تفسير ابن كثير ٣: ٣٦٥

عَظِيمًا ﴿٩٣﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ الآية، كان عياش بن أبي ربيعة قد أسلم وهاجر فتحيّل أبو جهل - وكان عياش أخاه لأمه - والحارث بن زيد بن أنيسة حتى أخرجاه من المدينة فجلده كُلُّ واحدٍ منهما مئة جلدة وأتيا به إلى أمه بمكّة فحلف عياش أنه إنْ ظفر بالحارث ليقتلنَّهُ، فأسلم الحارثُ ولقيه عياش بظهرِ قباء فقتله ولم يشعر بإسلامهِ فنزلت.

﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ استثناءٌ ظاهرهُ الانقطاعُ لأنَّ قتل المؤمن على قسمين: العَمْدُ وهو لا يجوزُ أَلبتّة ومُتوعَّدٌ عليه بالخلودِ في النار، والخطأُ وهو مُتجاوزٌ عنه في الآخرةِ لكن يجب على القاتل ما ذكره الله تعالى في هذه الآية من الأحكام. قيل: وانتصب «خطأ» على أنه مفعول من أجله، أو نصباً على الحال، أو نعتاً لمصدر محذوف تقديره: إلا قتلاً خطأً.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ التحريرُ الإعتاقُ، والعتيقُ الكريمُ لأنَّ الكرمَ في الأحرارِ كما أنَّ اللُّؤمَ في العبيد، ومنه عتاق الخيل وعتاق الطير لكرامها. وحرّ[1] الوجه أكرم موضع فيه: والرقبة عُبِّرَ بها عن النسمة كما عُبِّرَ عنها بالرأس في قولهم: فلانٌ يملكُ كذا رأساً من الرقيق. والظاهر أنَّ كلَّ رقبة اتصفت بأن يُحكم لها بالإيمانِ منتظمٌ تحت قوله «رقبة مؤمنة» انتظامَ عمومِ البدلِ فيندرجُ فيها مَنْ وُلد بين مسلمين، ومَنْ أَحَدُ أبويه مسلم صغيراً كان أو كبيراً، ومَنْ سباه مسلمٌ من دارِ الحرب قبل البلوغ. وإطلاقُ الرقبة المؤمنة لا يدل إلا على من تَسمَّتْ مؤمنة[2] من غيرِ اعتبارِ شرطٍ آخر. والظاهر أنَّ

(١) ق: وخدّ.

(٢) ق: مسلمة.

وجوبَ التحرير والدية على القاتلِ لأنه مستقر[1] في الكتابِ والسنة أنَّ مَنْ فعل شيئاً يلزم فيه أمرٌ من الغرامات بمثل الكفارات إنما يجب ذلك على فاعله.

قوله: ﴿وَدِيَةٌ﴾ أصله مصدر يقال وَدَاهُ يَدِيهِ دِيَةً، وذلك عبارة عما يغرم في قتل الخطأ. ولم يأتِ في كتابِ الله مقدارُ الدية ولا من أيِّ شيءٍ تكون [١٢٦/أ] وللفقهاء في ذلك اختلاف كثير. وينبغي أنْ يُرجعَ في تفسيرِ الدية إلى[2] ما ثبتَ في الحديثِ الصحيح عن رسول الله ﷺ.

ومعنى ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ أي: مؤدّاةٌ مدفوعةٌ إلى أهلِ المقتول أي: إلى أوليائه الذين يرثونه يقتسمونها كالميراث لا فرق بينها وبين سائر التركة في كل شيء، يُقضى منها الدَّين وتنفذ الوصية. وإذا لم يكن له وارثٌ فهي لبيتِ المال. وقال شريك: لا يُقضى من الدية دَيْنٌ ولا ينفذ منها وصية. وقال ابن مسعود: يرث كل وارث منها غير القاتل.

ومعنى قوله ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ أي: إلا أنْ يعفو وارثُه عن الديةِ فلا دية. وجاء بلفظ التصدق تنبيهاً على فضيلةِ العفو وحضًا عليه وأنه جارٍ مجرى الصدقة في استحقاق الثواب الآجل دون طلب العوض العاجل. وهذا حكمُ مَنْ قُتلَ في دارِ[3] الإسلام خطأً. وفي قوله «إلا أن يصدّقوا» دليلٌ على جواز البراءة من الدّين بلفظ الصدقة، ودليلٌ على أنه لا يشترطُ القبولُ في الإبراء خلافاً لزُفر فإنه قال: لا يبرأ الغريمُ من الدَّيْنِ إلا أنْ يقبل البراءة.

---

(١) ط: مستقراً.

(٢) ق: أي.

(٣) ق: ولد.

والظاهر أن الجماعة[1] إذا اشتركوا في قتلِ رجلٍ خطأً ليس عليهم كلهم إلا كفارة واحدة لعموم قوله «ومن قتل»، وترتيب: وتحرير رقبة واحدة ودية على ذلك، وبه قال أبو ثور وحكي عن الأوزاعي.

وقال الحسن وعكرمة والنخعي ومالك والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي: على كُلِّ واحدٍ منهم الكفارة. وهذا الاستثناء قيل منقطع وقيل إنه متصل.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: بم تعلّق «أن يصّدقوا» وما محلّه؟ قلت: تعلق بعليه أو بمسلّمة كأنه قيل: ويجب عليه الدية أو يسلّمها إلا[3] حين يتصدقون عليه، ومحلّها النصب على الظرف بتقدير حذف الزمان كقولهم اجلس ما دام زيد جالساً، ويجوز أن يكون حالاً من «أهله» بمعنى إلا متصدقين انتهى.

وكلا التخريجين خطأ؛ أمّا جَعْلُ أنْ مع ما بعدها ظرفاً فلا يجوز، نصّ النحويون على ذلك، وإنه مما انفردت به ما المصدرية ومنعوا أنْ تقول: أجيئك أنْ يصيح الديك، تريد: وقت صياح الديك. وأما أنْ ينسبكَ منها مصدرٌ فيكون في موضعِ الحال فَنَصُّوا أيضاً على أن ذلك لا يجوز؛ قال سيبويه[4] [في] قول العرب: أنت الرجل أن تنازل أو أن تخاصم، في معنى أنت الرجل نزالاً وخصومة، إن انتصاب هذا انتصاب المفعول من أجله لأن المستقبل لا يكون حالاً. فعلى هذا الذي قررناه يكون كونه استثناء منقطعاً هو الصواب.

---

(١) ق: الجملة.

(٢) الكشاف ١: ٥٥٣.

(٣) ق: إلى.

(٤) انظر الكتاب ١: ٣٩٠.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قال ابن عباس وجماعة: المعنى إن كان هذا المقتول خطأ، رجلاً مؤمناً قد آمن وبقي في قومه وهم كفرة عدوّكم فلا دية فيه وإنما كفارته تحرير رقبه. والسبب عندهم في نزولها أنَّ جيوشَ المسلمين كانت تمرُّ بقبائلِ الكفر، فربما قُتلَ مَنْ آمن ولم يهاجر، أو مَنْ هاجر ثم رجع إلى قومهِ فيقتل في حملاتِ الحربِ على أنه من الكفار فنزلت الآية.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ الآية، قال الحسن وجماعة: إنْ كان المقتولُ خطأ مؤمناً من قومٍ مُعاهدينَ لكم، فعهدهم يُوجِبُ أنهم أحقّ بديةِ صاحبهم، فكفارتهُ التحريرُ وأداءُ الدّيةِ إليهم. وقال النخعي: ميراثه[1] للمسلمين. وقال ابن عباس وجماعة: المقتول من أهل العهد خطأ كان مؤمناً أو كافراً على عهد قومه، فيه الدية كدية المسلم والتحرير. واختلف على هذا في دية المعاهد فقال أبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم، وروي ذلك عن أبي بكر وعمر [١٢٦/ب] وقال مالك وأصحابه: نصف دية المسلم. وقال الشافعي وأبو ثور: ثلث دية المسلم. والظاهر أن قتل المؤمن خطأ تارة في دار الإسلام وتارة يكون في دار الحرب وتارة في دار المعاهدين. وأطلق في قوله «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق» المراد تقييد المقتولِ بالإيمانِ كما قيّد فيما قبله، فَحُمِلَ المطلقُ هنا على المُقَيَّدِ فيما قبل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني رقبةً ولا ما يتوصل به إلى تملّكها وأعوزت الدية فالواجبُ عليه صوم شهرين متتابعين لا يتخلّلهما[2] فطر، فلو عَرَضَ حيضٌ لم

(١) ق: ميراث.

(٢) ق: يتخلّلها.

يعَدَّ قطعاً بإجماع، والمرضُ المانع[١] من الصوم كالحيض.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية، نزلت في مِقْيَس[٢] بن صُبابة حين قَتل أخاه هشام بن صبابة رجلٌ من الأنصار، فأخذ له رسولُ الله ﷺ الدية ثم بعثه مع رجلٍ من فهر بعد ذلك في أمرٍ ما فقتله مقيس ورجع إلى مكة مرتدّاً وجعل ينشد: [من الطويل]

قتلتُ[٣] به فهراً وحمّلت عَقْله ... سراة بني النجار أرباب فارِعِ
حللتُ به وِتري وأدركتُ ثُؤرتي ... وكنت إلى الأوثانِ أوّلَ راجعِ

فقال رسول الله ﷺ: لا أؤمّنه في حلٍّ ولا حرم، وأمرَ بقتلهِ يومَ فتح مكة وهو متعلقٌ بالكعبة. والظاهر تخليد هذا القاتلِ في النار، وتأوَّلَ أهلُ السنّة على أنْ يكون القاتل استحلَّ قتلَ المؤمنِ فيكون بذلك كافراً، أو على أن معنى «فجزاؤه جهنم» أي: فجزاؤه إنْ جازاه. وقالت المعتزلة بظاهر هذه الآية وهو تخليد مَنْ قتل مؤمناً متعمداً في النار دائماً. قالوا: وهذه الآيةُ نزلت بعد قوله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء] فخصصت[٤] العموم كأنه قال: ويغفر لمن يشاء إلا مَنْ قتل مؤمناً متعمداً فلا يغفر له.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ

---

(١) ق: المتابع.

(٢) ق: نفيس، والتصويب من ط والبحر ٣: ٣٢٦، وانظر بقية الخبر ثمّة.

(٣) ق: فقلت. والبيتان في السيرة النبوية ٣: ٣٠٦. والثّؤرة: الثأر.

(٤) ق: فخصّت.

مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ
أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ذكروا أسباباً في نزول هذه الآية مُضَمَّنها أنه[1] ظهرَ لهم رجلٌ اعتقدوه كافراً فتلفَّظَ بما يدل على الإسلامِ من كلمةِ الشهادة أو غيرها فقتلوه فنزلت. ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا توعَّدَ مَنْ قتل مؤمناً متعمداً بما وعد، أمر بالتَّثَبُّتِ في قتلِ مَنْ يُظَنُّ به أنه كافر وقد أعلم بظهور الإسلام. وقرىء: فتثبّتوا وفتبيّنوا في الموضعين وفي الحجرات[2].

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ هذه عِدَةٌ بما يسنُّ الله تعالى لهم من الغنائم على وجهها من حلٍّ دون ارتكابِ محظورٍ بشبهة[3] وغير تثبّت. وفي الكلام حذف تقديره: لست مؤمناً فتقتلوه تريدون عرض الدنيا. والكاف في «كذلك» للتشبيه أي كنتم مثل ذلك الذي ألقى إليكم السلام فمنّ الله عليكم بالإسلام.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ الآية، نزلت من أجل قوم كانوا إذا حضرت غزاة

---

(١) ق: أنهم.

(٢) في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات].

(٣) ق: يشبهه.

يستأذنون في القعود والتخلف عن رسول الله ﷺ.

وأما ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ فسببها قول ابن أم مكتوم: كيف بمن[1] لا يستطيعُ الجهادَ؟. ومناسبة هذه الآية لما قبلَها هو أنه تعالى لما رغَّبَ المؤمنينَ في القتالِ في سبيل الله أعداء الله الكفار قسمهم إلى قاعدٍ ومجاهدٍ وذكر عدم التساوي بينهما. وقرىء: غير بالرفع لصفةٍ لقوله «القاعدون» أو بدل منه، وبالجر صفة لقوله «من المؤمنين» وبالنصب على الاستثناء كأنه قال: إلا أولي الضرر فهو استثناء من «القاعدون»، وقيل استثناء من قوله «من المؤمنين»، وقيل انتصب على الحال.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ الآية، الظاهر أن المفضل عليهم هم القاعدون غير أولي الضرر، لأنهم هم الذين [١٢٧/أ] نفى التسوية بينهم فذكر ما امتازوا به عليهم وهو تفضيلهم[2] عليهم بدرجة. فهذه الجملة بيانٌ للجملةِ الأولى جواب سؤال مقدر كأن قائلاً قال: ما لهم لا يستوون؟ فقيل: فضّل الله المجاهدين. والمفضّل عليهم هنا درجة هم المفضل عليهم أخيراً درجات وما بعدها وهم القاعدون غير أولي الضرر. وتكرارُ التفضيلين[3] باعتبار متعلّقهما؛ فالتفضيلُ الأول بالدرجة هو ما يأتي في الدنيا من الغنيمةِ، والتفضيل الثاني هو ما يخولهم في الآخرة. فنبّه بإفراد الأول وجمع الثاني على أنَّ ثوابَ الدنيا في جنبِ ثواب الآخرة يسير. وقيل: المجاهدون تتساوى رتبهم في الدنيا بالنسبةِ إلى أحوالهم كتساوي القاتلينَ بالنسبة إلى أخذِ سَلَب مَنْ قتلوه وتساوي نصيب كُلِّ واحدٍ من الفرسان ونصيب كل واحد

(١) ق: من.
(٢) ق: تفضيله.
(٣) ق: التفضيلان.

من الرجال. وهم في الآخرةِ متفاوتون بحسب إيمانهم فلهم درجاتٌ بحسب استحقاقهم فمنهم مَنْ يكون له الغفرانُ ومنهم من تكونُ له الرحمة فقط، فكأن الرحمة أدنى المنازل والمغفرة فوق الرحمة ثم بعد الدرجات على الطبقات وعلى هذا نبّه بقوله ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران] ومنازلُ الآخرة تتفاوت.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية، روى البخاري عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهدِ رسول الله ﷺ، يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم أو يضرب فيقتل فنزلت. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر ثوابَ مَنْ أقدم على الجهادِ أتبعه بعقابٍ(١) مَنْ قعد عن الجهاد وسكن في بلاد الكفر. وقال ابن عباس: التوفّي هنا قبض الأرواح. وقرىء: تَوَفَّاهم، احتمل أن يكون ماضياً واحتمل أن يكون مضارعاً(٢). وقرىء: توفّتْهم وتُوفّاهم(٣). والملائكة هنا ظاهره الجمع فيكون المتوفى

---

(١) ق: بعتاب.

(٢) هو ماضٍ لفعل توفّتهم لم تلحقه تاء التأنيث للفصل ولكون تأنيث الملائكة مجازاً. ومضارع أصله: تتوفاهم.

(٣) مضارع وُفّيت. والمعنى أن الله يوفّي الملائكة أنفسهم فيتوفّونها أي يمكّنهم من =

ملك الموت وأعوانه كما قال تعالى ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام]. ولذلك[١] جاء الضمير مجموعاً في قوله «قالوا فيم كنتم». وهذا الاستفهامُ معناه التوبيخ والتقريع والمعنى: في أيِّ شيءٍ كنتم من أمر دينكم، وقيل: من أحوال الدنيا. وجوابهم للملائكة اعتذارٌ عن تَخلُّفهم عن الهجرة وإقامتهم بدار الكفر وهو اعتذار غير صحيح.

والذي يظهر أن قولهم «كنا مستضعفين في الأرض» جوابٌ لقوله «فيم كنتم» على المعنى لا على اللفظ، لأن معنى «فيم كنتم»: في أيِّ حالٍ مانعةٍ عن الهجرة [كنتم]. ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: في حالةِ استضعاف في الأرض بحيث لا نقدرُ على الهجرة، وهو جواب كذب. والأرض هنا أرض مكة.

وظاهر قوله ﴿فَتُهَاجِرُوا۟﴾ أنه منصوبٌ على جواب قوله «ألم تكن»، أو مجزوماً معطوفاً على «تكن».

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ جماعة كعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد بن الوليد، ومن النساء جماعة كأم الفضل لبابة بنت الحارث أم عبد الله بن عباس، ومن الولدان عبد الله بن عباس وغيره.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾[٢]قال الزمخشري[٣]: صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان، قال: وإنما جاز ذلك والجمل نكرات لأن الموصوف وإن

= استيفائها فيستوفونها.

(١) ق: وكذلك.

(٢) بدل هذه الجملة في ق: إلا المستضعفين.

(٣) الكشاف ١ : ٥٥٧.

كان فيه [حرف] التعريف فليس بشيء بعينه كقوله[١]: **[من الكامل]**

ولقد أمرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني

انتهى كلامه. وهو تخريجٌ ذهبَ إلى مثلهِ بعضُ النحويين في قوله ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ۝٣٧﴾ [يس] وهو هَدْمٌ للقاعدة المشهورة أنَّ النكرةَ لا تنعت إلا بالنكرة والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة. والذي يظهر أنها جملة مفسرة لقوله «المستضعفين» لأنه في معنى: إلا الذين استضعفوا فجاءت بياناً وتفسيراً لذلك لأنَّ [١٢٧/ب] الاستضعافَ يكون بوجوهٍ فبيّن [جهة] الاستضعاف النافع في التخلُّفِ عن الهجرةِ وهي عدمُ استطاعةِ الحيلةِ وعدم اهتداءِ السبيل. والثاني مندرج تحت الأول لأنه[٢] يلزم من انتفاء القدرة على الحيلة التي يتخلص بها انتفاء اهتداء السبيل.

وروي أن رسول الله ﷺ بعث إلى مسلمي مكة بهذه الآية فقال جندب بن ضمرة الليثي، ويقال جندع بالعين، أو ضمرة بن جندب لبنيه: احملوني فإنّي لستُ من المستضعفين وإني لأهتدي الطريقَ، والله لا أبيتُ الليلةَ بمكّة، فحملوه متوجهاً إلى المدينة وكان حمله على سرير وهو شيخ كبير فمات بالتنعيمِ رضي الله عنه.

﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ قيل: نزلت في أكثم بن صيفي. ولما رغَّب تعالى في الهجرة ذكرَ ما يترتبُ عليها من وجودِ السَّعَةِ والمذاهبِ الكثيرة ليذهب عنه ما يتوهم وجودُه في الغربةِ ومفارقةِ الوطن من الشدّة. وهذا مقرر ما قالته

(١) من شواهد مغني اللبيب ١ : ١٠٢، وعجزه:

فمضيت ثمّة قلت لا يعنيني

(٢) ق: كأنه.

الملائكة «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها». ومعنى «مراغماً» متحولاً ومذهباً قاله ابن عباس[(١)]. وقرأ الجراح ونبيح والحسن بن عمران: مَرْغَماً على وزن مفعل كمذهب، قال ابن جني: هو على حذف الزوائد من راغم. والسّعة هنا في الرزق قاله ابن عباس.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ روى مجاهد عن ابن عباس قال: كنا مع رسولِ الله ﷺ بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد، وقال المشركون: لقد أصبنا غرةً لو حملنا عليهم وهم في الصلاة فنزلت آيةُ القَصْرِ فيما بين الظهر والعصر. والضربُ في الأرض السفر، والظاهر مطلق القصر في السفر وبه قال أهل الظاهر، واختلف فقهاءُ الأمصارِ في حدِّ المسافة بما هو مذكور في كتبهم. وقرىء: تَقْصُروا من قَصَر، وتُقصِروا من أقصر، وتقصّروا من قصّر.

(١) ق: العباس.

وقوله ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مُجْمَلٌ إذ يحتمل القصر من عدد الركعات والقصر من هيئة الصلاة، ويرجع في ذلك إلى ما صح في الحديث.

وقوله ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ ظاهره اشتراطُ الخوفِ في القصر من الصلاة وإلى ذلك ذهب جماعة، والحديثُ الصحيح يدل على أنَّ هذا الشرطَ لا مفهومَ له فلا فرقَ بين الأمنِ والخوفِ. ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ لغة الحجاز فتن، ولغة تميم وربيعة وقيس أفتن.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، استدل بظاهر الخطابِ للرسول ﷺ مَنْ لا يرى صلاةَ الخوف بعد الرسولِ عليه السلام حيث شرط كونه فيهم وكونه هو المقيم لهم الصلاة وهو مذهب ابن علية وأبي يوسف. والظاهرُ أنَّ صلاةَ الخوف لا تكونُ إلا في السفر ولا تكونُ في الحضر وإنْ كان خوف وذهب إليه قومٌ، وذهب الجمهور إلى أنَّ الحضرَ إذا كان خوفٌ كالسفرِ.

ومعنى ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال الطبري: أقمتَ حدودَها وهيئاتها، والذي يظهر أنَّ المعنى: فأقمت بهم، وعبّر عن ذلك بالإقامة إذ هي فرض على المصلي في قول.

ومعنى ﴿فَلْتَقُمْ﴾ هو من القيام وهو الوقوف وقيل: فلتهتمّ بأمر صلاتها حتى تقع على وفق صلاتك، مِنْ قام بالأمرِ اهتم به وجعله شغله. والظاهر أنَّ الضميرَ في ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ عائد على «طائفة» لقربها من الضمير ولكونه[1] لها فيما بعد في قوله «فإذا سجدوا» معناه صلّوا، وفيه دليلٌ على أنَّ السجودَ قد يُعَبَّرُ به عن الصلاةِ ومنه «إذا جاء أحدكم المسجد فليسجد

(١) ق: ولكونها.

سجدتين[١]» أي: فليصلِّ ركعتين.

﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ﴾ ظاهره [١٢٨/أ] أنَّ الضميرَ في «فليكونوا» عائدٌ على الساجدين، والمعنى أنهم إذا فرغوا من السجود انتقلوا[٢] إلى الحراسة. والسلاحُ هو ما يتحصن به الإنسانُ من سيفٍ ورمح وخنجر ودبوس ونحو ذلك، وهو مفرد مذكر لجمعه على أسلحة كحمار وأحمرة، وقد يؤنث قال الطرمّاح[٣]: **[من الطويل]**

يهزّ سلاحاً لم يَرِثْها كلالةً يَشُكّ بها منها غُموضَ المَغابن

وقال الزمخشري[٤]: «فليكونوا» يعني غير المصلّين، من ورائكم يحرسونكم، وجوّز الوجهين ابن عطية.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ غير المصلّية أولاً. ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ ظاهرهُ وجوبُ أخذِ الأسلحةِ لاطمئنان المصلي، ودلّت هذه الكيفيةُ التي ذكرت في هذه الآيةِ على أنَّ كُلَّ طائفةٍ صلّت مع رسولِ الله ﷺ بعض صلاة، ولا دلالة فيها على مقدار ما صَلَّتْ معه ولا كيفية إتمامهم وإنما جاء ذلك في السنّة وذكر في صلاة الخوف عشر كيفيات بيّناها في «البحر»[٥].

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ تقدم الكلام في نحوها في قوله ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة]. وإنما قال ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: شَدَّةً واحدة لأنها أبلغ

(١) في صحيح الجامع الصغير ١: ١٨٥ «فليصلّ سجدتين من قبل أن يجلس».
(٢) ق: وانتقلوا.
(٣) ديوانه ص٥٠٩. ورواية الديوان: لم يرثه.
(٤) الكشاف ١: ٥٥٩.
(٥) انظر ٣: ٣٤٠.

في الاستئصال من الشّدات.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، لما كانت هاتان الحالان وهما الأذى من المطر والمرض مما يشقّ حمل السلاح فيهما رخّص في ذلك مع الأمر بأخذ الحذر والتحفظ من العدو لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو، ورخص في ذلك للمريض لأن حمله السلاح مما يكربه [ويزيد] في مرضه، ورخص في ذلك إن كان مطر لأن المطر مما يثقل العدو ويمنع من خفة الحركة للقتال.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فإذا أتممتم صلاةَ الخوفِ. وأُمروا بالذكر في سائرِ الأحوالِ من قيامٍ وقعود وعلى جنب.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أي: من جهة العدو ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الصلاة المفروضة، نبّه بذلك على أشرف[1] العبادات. ﴿مَّوْقُوتًا﴾ أي: واجبة في أوقاتٍ معلومة في الشرع.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: الذين يقاتلونكم. وقرأ الحسن: تهنوا بفتح الهاء لكونها حرف حلق. وهذه الآية تشير إلى أنها في الجهاد مطلقاً، وقيل نزلت في انصراف الصحابة من أحد وكان صلى الله عليه وسلم أمرهم باتباع [أبي سفيان] وأصحابه. والمعنى أنهم مشتركون معكم في الآلام وأنتم ترجون من الله المغفرة والجنة وهم لا يرجون ذلك لكفرهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بنيّاتكم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ

(١) ق: شرف.

عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ
ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، اختُلِفَ في سبب نزولها فعن قتادة وغيره أنها نزلت في طعمة بن أبيرق سرق درعاً في جراب فيه دقيق لقتادة بن النعمان، وخبأها عند يهودي فحلف طعمة: ما لي بها علم، فاتبعوا أثر الدقيق إلى دار اليهودي، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة. ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بما أعلمك من الوحي. ﴿وَلَا تَكُن﴾ ظاهره أنه خطابٌ للرسول ﷺ، والمراد به من كان خصيماً للخائنين من أمته.

وكذلك النهي في قوله ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: وقد يجيءُ النهيُ لمن لا يقع منه المنهيّ بحال من الأحوال كالرسول شهد الله له بالعصمة.

وقوله: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ صفتان للمبالغة إذ اسم الفاعل خائن وآثم.

والضمير في ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ الظاهر أنه يعود على «الذين يختانون» وفي ذلك توبيخٌ عظيم وتقريع حيث يرتكبون المعاصي مستترين بها عن الناس مباهين لهم إن اطّلعوا عليها، ودخل معهم في ذلك من فعل [١٢٨/ب] مثل فعلهم.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ جملة حالية. ومعنى «معهم» بالعلم والاطّلاع على أحوالهم.

و﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى، العامل فيه العامل في مع، أي وهو كائن معهم

بالعلم في وقت تبييتهم. ولما كانت أعمالهم منتشرة كثيرة المجادلة عن طعمة[١] وأضرابه وصف نفسه بالمحيط، والإحاطة الاحتفاف بالشيء من جميع جهاته.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ الآية، تقدم الكلام على «ها أنتم هؤلاء» وعلى الجملة بعدها قراءة وإعراباً في سورة آل عمران[٢].

﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ ﴾ معنى هذا الاستفهام النفي أي: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة إذا حلّ بهم عذابه.

والوكيل الحافظ المحامي وهو الذي يكل الإنسان إليه أموره. وهذا الاستفهام معناه النفي أيضاً كأنه قيل: لا أحد يكون وكيلاً عليهم فيدافع عنهم ويحفظهم. وهاتان الجملتان انتفى في الأولى منهما المجادلة وهي المدافعة بالقول، وفي الثانية الوكالة عليهم أي الحفظ وهو المدافعة بالفعل والنصرة بالقوة.

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا
خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ

---

(١) ق: طعنه.

(٢) ٣: ٦٦.

ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ .

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ الظاهر أنهما غيران عمل السوء وظلم النفس وخصوصاً للعطف بأو فإنها تقتضي أحد الشيئين. والسوء القبيح الذي يسوء به غيره، وظلم النفس ما يختص به كالحلف الكاذب.

﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ مبالغة في الغفران كأنَّ المغفرة والرحمة معدّان لطالبهما مهيّآن له متى طلبهما وجدهما. وجاء جواب الشرط مصرّحاً فيه باسم الله ولم يأت بالضمير فكان يكون: يجده، لأنَّ في لفظ الله من الجلالة والتعظيم(١) ما ليس في الضمير. ولما تقدم شيئان عمل السوء وظلم النفس قابلهما بوصفين وهما الغفران لعامل السوء والرحمة لمن ظلم نفسه.

﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمًا﴾ الإثم جامع للسوء وظلم النفس السابقَيْن. والمعنى أن وبال ذلك لاحق له لا يتعدّاه إلى غيره، وهو إشارة إلى الجزاء اللاحق له في الآخرة. وختمها بصفة العلم لعلمهِ بجميعِ ما يكسب لا يغيبُ عنه شيءٌ من ذلك، ثم بصفةِ الحكمة لأنه واضعُ الأشياء مواضعها فيجازي على ذلك الإثم بما تقتضيه حكمته. فالصفتان إشارة(٢) إلى علمه بذلك الإثم وإلى ما يستحقّ عليه فاعله. وفي لفظة «على» دلالة على استعلاء الإثم عليه واستيلائه وقهره له.

﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً﴾ ظاهر العطف بأو المغايرة، فالخطيئةُ ما كان من

---

(١) ق: من التعظيم.

(٢) ق: أشارتا.

غيرِ عمدٍ والإثمُ ما كان عن عمدٍ. وعن ابن عباس أنها نزلت في عبدالله بن أبيّ بن سلول حيث رمى بالإفكِ مَنْ حفظه الله عنه. والبهتان مصدر بهته.

﴿ وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ أي ظاهراً لكسبه الخطيئة أو الإثم. والمعنى أنه يستحق عقابين عقاب الكسب وعقاب البهت. وقدّم البهت لقربه من قوله «ثم يرم به بريئاً» ولأنه ذنب أفظع من كسب الخطيئة أو الإثم. ولفظ ﴿ ٱحۡتَمَلَ ﴾ أبلغ من حمل، لأن افتعل فيه للتسبب كاعتمل.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ ﴾ عن ابن عباس أنها نزلت في وفد ثقيف قدموا على رسولِ الله ﷺ فقالوا: جئناكَ نبايعكَ على أن لا نحشر ولا نعشر وعلى أنْ تمتعنا بالعُزَّى سنةً فلم يجبهم فنزلت. والهَمُّ العزمُ على الشيء والاهتمام به ويتعدّى بالباء كما في قوله ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف].

و﴿ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ محذوف منه الباء أي: بأن يضلوك، وأن مع الفعل بتأويل المصدر.

﴿ مِن شَيۡءٖ ﴾ مِن زائدة دخلت على نكرة عامة في سياق [١٢٩/أ] النفي أي: لا يضرونك لا قليلا ولا كثيراً.

﴿ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴾ قال ابن عباس: هو الشرع.

النجوى مصدر نجوت أنجو وهي المسارّة بين اثنين فصاعداً، وقيل جمع نجى. فإن كان مصدراً فلا بد في الكلام من حذف إما من الأول تقديره: من ذوي نجوى أي أصحاب تناجيهم، أو حذف من الآخر تقديره: إلا نجوى من أمر. وإن كان النجوى جمع نجى فالمعنى: لا خيرَ في كثيرٍ من القوم الذين يتناجون إلا مَنْ أمر، فيكون استثناء متصلاً ولا يحتاج إلى حذف.

﴿ بِصَدَقَةٍ ﴾ يشمل الفرض والتطوع. والمعروف عامٍ في كل بر.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى الأمر بما ذكر من الصدقة أو المعروف أو الإصلاح. وقرىء: فسوف يؤتيه بالياء ففيه ضمير غيبة يعود على الله تعالى. وقرىء: نؤتيه بالنون وهو التفات خرج من الغيبة إلى التكلم. و«ابتغاء» مفعول من أجله. و«مرضاة» مصدر بمعنى الرضى.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ الآية، نزلت في طعمة بن أبيرق لما فضحه الله تعالى بسرقته وبرَّأَ اليهودي [ارتدّ] وذهب إلى مكة. وقيل في أهله قدموا فأسلموا ثم ارتدّوا. «ومن يشاقق» عام فيندرجُ فيه طعمة وغيره من المشاقين. وفي سورة الحشر ﴿يُشَآقِّ ۝٤﴾ بالإدغام وهي لغة تميم، والفكّ[1] لغة الحجاز وقد قرىء بهما في قوله ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ۝٥٤﴾ [المائدة]. والرسولُ هنا محمدٌ ﷺ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اتضح له الحق الذي هو سبب الهداية وهذا تقبيحٌ عظيم لمن اتضح له الحق وسلك غيره.

و﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو الدينُ الحنيفي الذي هم عليه. وهذه الجملة المعطوفة هي على سبيلِ التوكيدِ والتشنيع، وإلا فمن يشاقق الرسول هو متبعٌ غيرَ سبيلِ المؤمنين ضرورةً، ولكنه بدأ بالأعظمِ في الإثم وأتبع بلازمِه توكيداً. واستدل الشافعيُّ وغيره بهذه الآية والزمخشري في تفسيره على أنَّ الإجماعَ حجةٌ لا يجوز مخالفتها كما لا يجوزُ مخالفةُ الكتابِ والسنّة. وما ذكروه ليس بظاهرٍ لأنَّ المرتَّبَ على وصفين اثنين لا يلزمُ منه أنْ يترتبَ على كُلٍّ واحدٍ منهما، فالوعيدُ إنما يترتب على مَن اتصف بمشاقّةِ الرسولِ واتباع غير سبيل المؤمنين، ولذلك كان الفعل معطوفاً على الفعل ولم يُعَد معه اسم الشرط،

(١) ق: والفكر.

فلو أُعيد اسم الشرط فكان يكون: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ومَنْ يتبع غير سبيل المؤمنين، لكان فيه ظهور على ما ادّعوه. وهذا كله على تسليم أن يكون قوله «ويتبع غير سبيل المؤمنين» مغايراً لقوله «ومن يشاقق الرسول»، وليس بمغايرٍ بل هو أمرٌ لازم لمشاقّةِ الرسول وذُكرَ على سبيلِ المبالغة والتوكيد وتفظيع الأمر وتشنيعه.

والآية بعد هذا كله هي في وعيد الكفار فلا دلالةَ فيها على جزئيات فروع مسائل الفقه.

وقرىء: نولِّه ونُصله بالياء والنون فيهما، وفي الهاءين اختلاس الحركة وسكونها وإشباعها[1]. وقرىء: نَصْلِهِ بفتح النون من صَلَى، وبضمها من أصلى. و﴿مَصِيرًا﴾ تمييز والمخصوص بالذم محذوف مضمر يعود على جهنم أي وساءت مصيراً هي.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ
بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ
إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا
مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

---

(١) العبارة غير واضحة في ق، والتصويب من ط.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ تقدم تفسير مثلها إلا أن آخرَ ما تَقدَّمَ ﴿ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء] وآخر هذه ﴿ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وخُتمت كُلُّ آيةٍ بما يناسبها، فتلك كانت في أهلِ الكتاب وهم مطلعون في كتبهم على ما لا [١٢٩/ب] يَشكُّون في صحته من أمرِ الرسولِ ﷺ ووجوبِ اتباع شريعته ونسخها لجميع الشرائع، ومع ذلك فقد أشركوا بالله مع أنَّ عندهم ما يدلُّ على توحيدِ الله تعالى والإيمان بما نزل فصار ذلك افتراءً واختلاقاً مبالغاً في الجرأة على الله تعالى.

وهذه الآية في ناسٍ مشركينَ ليسوا بأهلِ كتبٍ ولا علوم، ومع ذلك فقد جاءهم الهدى من الله وبان [لهم] طريق الرشد فأشركوا بالله فضلّوا بذلك [ضلالاً] يستبعد وقوعه أو يبعد عن الصواب، ولذلك جاء بعده ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ وجاء بعد تلك ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ ﴿٤٩﴾﴾ [النساء] وقوله ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ ﴿٥٠﴾﴾ [النساء]، ولم يختلف أحدٌ من المتأولين في أنَّ المرادَ بهم اليهود وإن كان اللفظ عامًّا.

ولما [كان] الشرك أعظم الكبائر كان الضلال الناشىء عنه بعيداً عن الصواب لأنَّ غيره من المعاصي وإنْ كان ضلالاً لكنه قريب من أن يراجع صاحبه الحق لأن له رأس مال يرجع إليه وهو الإيمان بخلاف المشرك. ولذلك قال تعالى ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [الحج]، وناسب هنا أيضاً ذكر الضلال لتقدُّمِ الهدى قَبْلَهُ.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ المعنى ما يعبدون من دون الله تعالى ويتخذونه إلهاً إلا مُسمّيات تسمية الإناث. وكنّى بالدعاء عن العبادة لأنَّ مَنْ عبد شيئاً دعاه عند حوائجه ومصالحه. وكانوا يُحلّون الأصنام بأنواع الحُليّ ويسمّونها أنثى. [و«إناثاً» جمع أنثى كرباب ورُبّى. و«إن» نافية. و«يدعون»

يحتاج إلى مفعول وهو محذوف تقديره: ما يدعون من دونه أي من دون الله أحداً إلا إناثاً] فإناثاً مفعول بـ«يدعون» وهو استثناء مفرّغ.

ونكّر ﴿شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ تحقيراً لشأنه. و«مريداً» فعيل للمبالغة في اسم الفاعل الذي هو مارد من مَرَد أي: عتا وعلا في الحذاقة وتجرد للشرّ والغواية والمراد به إبليس، يدل عليه ما قاله بعد.

﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ أي: نصيباً واجباً اقتطعه لنفسه، من قولهم: فرض له في العطاء. والمعنى لأستخلصنّهم بغوايتي ولأخصّنّهم بإضلالي وهم الكفرة والعصاة. هذه خمسة أقسم إبليس عليها أحدها اتخاذ نصيب من عباد الله وهو اختياره إياهم، والثاني إضلالهم وهو صرفهم عن الهداية وأسبابها، والثالث تمنيته لهم وهو التسويل ولا ينحصر في نوع واحد لأنه يمنّي كل إنسان بما يناسب حاله من طول عمر وبلوغ وطر وغير ذلك، وهي كلها أمانيّ كواذب باطلة.

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ البتك الشَّقُّ والقَطْعُ، بتك يبتك وبتّك للتكثير والبتك القطع واحدها بتكة قال الشاعر[1]: [من البسيط]

حتى إذا ما هَوَتْ كَفُّ الوليد لها طارَتْ وفي كفّه من ريشها بِتَكُ

ومفعول «لآمرنهم» الثاني محذوف تقديره: ولآمرنّهم بالتّبتيك. وكذلك الثاني أي: ولآمرنّهم بتغيير خلق الله، وحذف لدلالة المعنى عليه. «فليغيّرن» عن ابن عباس وغيره: أراد تغيير دين الله تعالى.

﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ أخبر تعالى بصدور ما وعدهم به إبليس. واحتمل

(١) البيت لزهير في ديوانه ص١٧٥.

النصب في قوله «غروراً» أن يكون مفعولاً ثانياً ليعدهم، أو مفعولاً من أجله أي لأجل الغرور، أو مصدراً على غير المصدر لتضمين «يعدهم» معنى يغرّهم، ويكون ثمّ وصف محذوف أي إلا غروراً واضحاً أو نحوه، أو نعتاً لمصدر محذوف على حذف مضاف أي وعداً ذا غرور. والمحيص مفعل من حاص يحيص إذا راغ بنفور.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ لَمَّا ذكر أنَّ وعدَ الشيطانِ هو غرور باطل ذكر [١٣٠/أ] أنَّ هذا الوعدَ منه هو الحق الذي لا ارتيابَ فيه ولا شك في إنجازه. و«الذين» مبتدأ و«سندخلهم» الخبر، ويجوز أن يكون من باب الاشتغال أي وسندخل الذين آمنوا سندخلهم. وانتصب «وعد الله» على أنه مصدر مؤكد لنفسه، وانتصب «حقاً» على أنه مصدر مؤكد لغيره. فـ«وعد الله» مؤكد لقوله «سندخلهم»، و«حقاً» مؤكد لوعد الله، و«قيلاً» منصوب على التمييز. والقيل والقول بمعنى واحد، والاستفهام معناه النفي أي: لا أحد أصدق قولاً من الله، وهي جملة مؤكدة أيضاً لما قبلها. وفائدة هذه التواكيد المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين بخلاف مواعيد الشيطان وأمانيّه الكاذبة.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ ضمير الخطاب قيل للكفار مطلقاً وقيل لأهل الكتاب وللمشركين. واسمُ ليس فيما نختاره ضمير يعود على المصدر المفهوم من

قوله «سندخلهم»(١) أي: ليس دخول الجنة بأمانيكم. وقيل اسم ليس ضمير يعود على وعد الله المؤمنين بدخول الجنة. وقرىء: بأمانيكم بتخفيف الياء فيهما.

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ قال الجمهور: اللفظ عام والكافر والمؤمن مُجازَيان بالسوء يعملانه فمجازاة الكافر النار ومجازاة المؤمن نكبات الدنيا. وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: لما نزلت قلت: يا رسول الله ما أشدّ هذه الآية جاءت قاصمة الظّهر فقال عليه السلام: إنما هي المصيبات في الدنيا. وقرىء: ولا يجد بالرفع وهو استئناف إخبار ليس داخلاً في جزاء الشرط.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ الآية، «مِن» الأولى للتبعيض، و«مِن» الثانية في قوله «من ذكر» لتبيين العامل(٢) في قوله «ومن يعمل».

و﴿ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ تفصيل للعامل. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ جملة حالية، قيد في عمل الصالحات إذْ لا ينفع عملٌ صالح إلا بالإيمان. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ جوابٌ للشرط وروعيَ معنى «مَن» فلذلك جاء جمعاً. وقرىء: يدخلون مبنياً للفاعل ومبنياً للمفعول، وكذلك في مريم(٣). ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(٤) ﴾ ظاهره أنه يعود إلى أقرب مذكور وهم المؤمنون(٥). ويكون حكم الكفار كذلك إذ ذِكْر أحد الفريقين يدل على الآخر إذ كلاهما مجزيّ بعمله.

---

(١) في الآية السابقة.

(٢) ق: للتبيين الحاصل.

(٣) في قوله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾.

(٤) ق: فتيلا.

(٥) ق: المؤمنين.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ استفهامٌ معناه النفي أي: لا أحد أحسن. و﴿دِينًا﴾ منصوب على التمييز. ﴿وَجْهَهُۥ﴾ كنّى به عن الإنسان إذ كان أشرف الأعضاء. ومعنى أسلمَ لله أي: انقادَ لأمرِ الله وشرعه. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية. وانتصب «حنيفاً» قيلِ على أنه حال من «إبراهيم» وقيل حال من «ملّة» لأنه بمعنى الدين. والذي نختاره أنه حال من الضمير المستكن في «اتّبع» أي: واتبع ملّةَ إبراهيمَ في حال كونه حنيفاً أي مائلاً عن العقائدِ الفاسدةِ والشرائع الباطلة. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هذا مجاز عن اصطفائه واختصاصه بكرامة تشبه كرامة[1] الخليل عند خليله. و«اتخذ» هنا تَعدَّتْ لمفعولين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لما تَقَدَّمَ ذكرُ عاملِ السوء وعامل الصالحات، أخبر تعالى بعظيمِ ملكه وملكه لجميع ما في السماوات وما في الأرض] والعالم مملوك له وعلى المملوك طاعة مالكه.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ الآية، سببُ نزولها أنَّ قوماً من الصحابة سألوا عن أمرِ النساء وأحكامهن في المواريث وغير ذلك. ولما كانت النساء مُطَّرحاً أمرهن عند العربِ في الميراثِ وغيره وكذلك اليتامى، أجدَّ الحديث فيهنَّ مراراً ليرجعوا عن أحكامِ الجاهلية. وتقدم في صدر السورة شيءٌ من أحكام

(١) كتبت في الحاشية.

النساء والمواريث، وعادةُ العرب إذا ذكرت شيئاً انْ تستطردَ إلى شيءٍ آخر[١] ثم ترجع إلى الأول. والاستفتاءُ طلبُ الفتيا وهو ما يتضح به الحكمُ المطلوب، والاستفتاءُ ليس في ذواتِ النساء وإنما هو عن شيءٍ من أحكامهن، ولم يبيّن فهو مجملٌ.

ومعنى ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبيّن لكم حال ما سألتم عنه [١٣٠/ب] وحكمه. وعن عائشة رضي الله عنها قيل: نزلت هذه الآية يعني ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ۝٣﴾ [النساء] أولاً، ثم سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النساء فنزلت «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن».

وفي إعراب «ما» من قوله ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ جوَّزوا وجوهاً منها الرفع عطفاً على لفظ «الله»، وعطفاً على الضمير المستكن في «يفتيكم»، وعلى الابتداء وخبره محذوف تقديره: في يتامى النساء بيّن لكم، وقيل: الخبر «في الكتاب». وجَوَّزوا في «ما» النصب تقديره: ويبين لكم ما يتلى عليكم. وجَوَّزوا في «ما» أيضاً الجر من وجهين أحدهما أن تكون الواو للقسم وقاله الزمخشري[٢]، والثاني أنْ يكون معطوفاً على الضميرِ المجرور في «فيهن» وقاله محمد بن أبي موسى، وهو الذي نختاره وإن كان لا يجيزه البصريون إلا في الشعرِ وقد أجازه الكوفيون في الكلام، وقد استدللنا على صحة مذهبهم عند الكلام على قوله تعالى ﴿وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۝٢١٧﴾ [البقرة].

قال الزمخشري[٣]: وليس بسديدٍ أنْ يعطفَ على المجرور في «فيهن»

(١) عبارة ق: أن تطرد من شيء إلى شيء آخر.
(٢) الكشاف ١ : ٥٦٧.
(٣) الكشاف ١ : ٥٦٧.

لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى انتهى. الذي أختاره هذا الوجه وإنْ كان مذهب جمهور البصريين أنَّ ذلك لا يجوزُ إلا في الشعر، قد ذكرت دلائل جوازه في الكلام وامتنعَتْ في تفسير قوله «وكفر به والمسجد الحرام». وليس مختلاًّ من حيث اللفظ لأنَّا قد استدللنا على جواز ذلك، ولا من حيث المعنى كما زعم الزمخشري بل المعنى عليه، ويكون على تقديرِ حذفٍ أي: يُفتيكم في متلوهنّ وفيما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، وحذف لدلالة قوله «وما يُتْلى عليكم في الكتاب». وإضافة متلوّ إلى ضميرهن سائغة إذِ الأضافةُ تكون بأدنى ملابسة لما كان متلوًّا فيهن صَحَّت الإضافةُ إليهن كما جاء ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ] لمّا كان المكر يقع فيهما صحّت الإضافة إليهما، ومن ذلك قول الشاعر(١):

إذا كوكبُ الخرقاء لاح بسُحْرةٍ

وأما قول الزمخشري: لاختلاله في اللفظ والمعنى، فهو قولُ الزجَّاج بعينه قال الزجّاج: وهذا بعيد بالنسبة إلى اللفظ وإلى المعنى، أما اللفظ فإنه يقتضي عطف المظهر على المضمر، وذلك غير جائز كما لم يجز في قوله ﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴿١﴾ ﴾ [النساء]، وأما المعنى فإنه تعالى أفتى في تلك المسائل، وتقدير العطف على الضمير يقتضي أنه أفتى فيما يتلى عليكم في الكتاب، ومعلوم أنه ليس المراد ذلك وإنما المراد أنه تعالى يفتي فيما سألوه من المسائل انتهى كلامه.

وقد بيّنا صحة المعنى على تقدير ذلك المحذوف، والرفع على العطف

(١) البيت في شرح ديوان المتنبي غير منسوب ٤ : ٤، وعجزه:

سهيل أذاعت غزلها في القرائب

على «الله» أو على ضميره يخرجه عن التأسيس، وعلى الابتداء يخرج الجملة بأسرها عن التأسيس، وكذلك الجر على القسم، والنصب بإضمار فعل، والعطف على الضمير يجعله تأسيساً وإذا دار الأمرُ بين التأسيس والتأكيد كان حملُه على التأسيسِ أوْلى ولا يُذهب إلى التأكيد إلا عند اتضاح عدم التأسيس.

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: بم يتعلق قوله «في يتامى النساء»؟ قلت: في الوجه الأول هو صلة «يُتلى» أي: يتلى عليكم في معناهن، ويجوز أن يكون «في يتامى النساء» بدلاً من «فيهن»، وأما في الوجهين الأخيرين فبدل لا غير انتهى كلامه.

ويعني بقوله: في الوجه الأول أن يكون «وما يتلى» في موضع رفع. فأمّا ما أجازه في هذا الوجه من أنه يكون صلة «يتلى» فلا يُتصور إلا إن كان «في يتامى» بدلاً من «في الكتاب» أو تكون «في» للسبب لئلا يتعلّق حرفا جرٍّ بمعنى واحد بفعلٍ واحد وهو لا يجوزُ إلا إنْ كان على طريقة البدل أو بالعطف. وأمّا ما أجازه [١٣١/أ] في هذا الوجه أيضاً من أن «في يتامى النساء» بدل من «فيهن» فالظاهر أنه لا يجوز للفصلِ بين البدل والمُبْدل منه بالعطف، ونظير هذا التركيب: زيد يقيم في الدار وعمروٌ في كِسْرٍ منها، ففصلت بين «في الدار» وبين «في كسرٍ منها» بالعطف والتركيب المعهود: زيد يقيم في الدار في كسرٍ منها وعمرو.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: الإضافة في «يتامى النساء» ما هي؟ قلت:

---

(١) الكشاف ١: ٥٦٧.

(٢) الكشاف ١: ٥٦٧.

إضافة بمعنى مِن كقولك: عندي سَحْقُ(١) عمامة انتهى.

الذي ذكره النحويون أن الإضافة التي هي بمعنى مِن هي إضافة الشيء إلى جنسه كقولك: خاتم حديد وثوب خزّ وخاتم فضة، ويجوز الفصل وإتباع الجنس لما قبله ونصبه وجرّه. والذي يظهر في «يتامى النساء» [وفي سحق عمامة أنها إضافة على معنى اللام، ومعنى اللام الاختصاص.

وقرىء: في ييامى النساء] بياءين أصله أيامى جمع أيّم فأبدلت الهمزة ياء، والأَيِّم مَنْ لا زوجَ لها.

ومعنى ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو الميراث، وقال آخرون هو الصداق.

والمخاطب بقوله ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ أولياء المرأة كانوا يأخذون صدقات النساء ولا يعطونهنّ شيئاً، وقيل أولياء اليتامى كانوا يتزوجون اليتامى اللواتي في حجورهم ولا يعدلون في صدقاتهن.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى فكان إذا سألَ الوليَّ عن وليّته فقيل هي غنيّة جميلة، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأَعْوَدُ عليها بالنفع. وإذا قيل له هي فقيرة دميمة قال له: أنت أوْلى بها وبالستر عليها من غيرك.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ﴾ معطوف على «يتامى النساء» وذلك أنَّ العربَ كانت لا تورّث الصّبيةَ ولا الصبيَّ وكان الكبيرُ ينفردُ بالمالِ وكانوا يقولون: إنما يرث مَنْ يحمي الحوزةَ ويردّ الغنيمةَ ويقاتل عن الحريمِ،

---

(١) السَّحق: الثوب الخلق البالي.

ففرض اللهُ تعالى لكل أحدٍ حَقَّه.

﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ الظاهر أنه في موضع جر أي: وفي قيامكم «لليتامى بالقسط» وهو العدل. والذي تُلي في هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ (٢)﴾ [النساء]. وجوّز الزمخشري أن يكونَ في موضعِ نصبٍ بمعنى ويأمركم أنْ تقوموا. وفي ريّ الظمآن في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره: وقيامكم لليتامى بالقسط خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ ما شرطية مفعولة بفعل الشرط كأنه قال: وأي شيء تفعلوا. و«من خير» تبيين لما أُبهم في لفظة «ما».

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)﴾.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ نزلت في أبي السنابل بن بعكك وامرأته وقيل غير ذلك. والنشوزُ تَقَدَّمَ شرحُه وشيء من أحكامه في صدر هذه السورة(١)، والإعراض دون النشوز. وقرىء: أن يُصلحا مِنْ أصلح(٢). وقرىء: يصّالحا أصله يتصالحا فأدغم التاء في الصاد. وقرأ ابن مسعود: إن اصّالحا جعل إن شرطية واصّالحا فعلاً ماضياً.

(١) انظر تفسير الآية ٣٤.

(٢) ق: من أصلحا من أصلح.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ هذا من باب المبالغة جعل الشح كأنه شيء معدّ في مكانٍ وأحضرته الأنفس وسيقت إليه. ولم يأت: وأحضر الشحّ للأنفس فيكون مَسُوقاً إلى الأنفسِ بل الأنفسُ سِيقتْ إليه لكون الشحّ مجبولاً عليه الإنسان ومركوزاً في طبيعته وذلك عام لا يخصّ في شيء.

﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ قال الماتريدي: وإن تحسنوا في أن تعطوهن أكثر من حقهن وتتقوا في أن لا تنقصوا من حقّهن شيئاً، أو إنْ تُحسنوا في إيفاء حقهن والتسوية بينهن وتتقوا الجورَ والميلَ وتفضيل بعض على بعض. وختم آخر هذه بصفة الخبير وهو علم ما يلطف إدراكه ويدقّ لأنه قد يكون بين الزوجين من خفايا الأمور ما لا يطّلع عليه إلا الله تعالى ولا يظهران ذلك لأحد. وكان عمران بن حطّان [١٣١/ب] الخارجي من أذمِّ بني آدم وامرأته من أجملهم فأجالت في وجهه نَظَرها يوماً ثم تابعت: الحمد لله، فقال: مالك؟ قالت: حمدتُ الله على أنّي وإياك من أهل الجنة، قال: كيف؟ قالت: لأنك رُزقتَ مِثْلي فشكرتَ ورزقتُ مثلكَ فصبرت وقد وعد الله الجنة عباده الصابرين والشاكرين.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾ الآية، نبّه تعالى على انتفاءِ استطاعةِ العدلِ بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميلٌ البتّة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهنّ. وفي ذلك عذرٌ للرجالِ فيما يقع من التفاوتِ في الميلِ القلبي والتعهد والنظر والتأنيس والمفاكهة فإن التسوية في ذلك محال خارج عن حدّ الاستطاعة أو بالغٌ من الصعوبة حدًّا يكاد يكون كالمحال، هذا إذا[1] كنّ كلّهن محبوبات. وعلّق انتفاء الاستطاعة في التسوية على تقدير وجود الحرص من الإنسان على ذلك. وعن النبي ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذه

(١) كتبت في الحاشية.

قسمتي فيما أملكُ فلا تُؤاخذني فيما تملكُ ولا أملكُ»[١] يعني المحبّة لأنَّ عائشةَ كانت أحب إليه.

﴿ كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ ﴾ المعلقة هي التي ليست مطلقة ولا ذات بعل، قال الراجز[٢]: [من الرجز]

هل هي إلا خطة أو تطليق أو صلف أو بين ذاك تعليق

وفي حديث أم زرع[٣]: زوجي العَشَنَّق إن أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وإن أسكتْ أُعَلَّقْ، شبّهت المرأة بالشيء المعلَّق من شيء لأنه لا على الأرض استقرَّ ولا على ما علق فيه.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا ﴾ الضمير يعود على الزوجين. وقرأ زيد بن أفلح: يتفارقا بألف المفاعلة، والمعنى رضي كل واحد منهما بالفراق من صاحبه، وقيل ذلك هو بالطلاق. قيل: ولا مدخل للنساء في الطلاق وأجيب بأنها [لمّا] كانت سبباً للطلاق بمشاقّتها الزوج وسوء عشرتها نسب التفرق إليهما. ﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا ﴾ حذف المضاف من كلٍّ، والمعنى كل واحد من الزوجين. والظاهر[٤] في الغنى أنه غنى المال. وكان الحسن بن علي فيما رووا طُلَقَة[٥] ذُوَقة فقيل له في ذلك فقال: إني رأيتُ الله تعالى علّق الغِنى بأمرين فقال ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور] وقال «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من

---

(١) فتح الباري ٩: ٣١٣ بألفاظ مقاربة.

(٢) المنصف ٣: ١٢٧.

(٣) صحيح مسلم ٤: ١٨٩٦. والعشنّق: الطويل الممتدّ القامة.

(٤) ق: أن في.

(٥) أي كثير الطلاق كثير النكاح.

سعته».

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ الآية، وصينا: أمرنا أو عهدنا إليهم وإليكم و﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ يحتمل أن يتعلق بـ«أُوتوا» السابقة وهو الأقرب، أو بـ«وصّينا». والمعنى أنَّ الوصية بالتقوى هي سنة [الله تعالى] مع الأمم السابقة.

﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ضمير منفصل منصوب معطوف على «الذين»، وفي الممتحنة ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴿١﴾ ﴾. قدم الموصول على الضمير لتقدمه في الزمان، وقُدّم في الممتحنة لشرف الرسول، ومثل هذا فصيح في الكلام نحو: رأيت زيداً وإياك. ومن خصّ ذلك [بالشعر] كابن عصفور والآمدي[1] فهو واهم.

و﴿ أَنِ اتَّقُوا ﴾ يحتمل أن تكون مصدرية أي بأن اتقوا الله، وأن تكون مفسّرة التقدير: أي اتقوا الله.

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا ﴾ أي: عن خلقه وعن عبادتهم لا تنفعه طاعتهم ولا يضرّه كفرهم. ﴿ حَمِيدًا ﴾ أي: مستحقاً لأن يُحمد لكثرة نعمه وإن كفرتموه أنتم.

---

(١) ق: والآبدي.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الباء زائدة في فاعل «كفى» وكذلك سقطت في قول الشاعر[١]: [من الطويل]

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فإن كانت «كفى» بمعنى وقى فلا تزاد الباء في فاعلها كقوله تعالى ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب] أي وقاهم، فلا يجوز في الكلام: كفى [بالله] المؤمن الشر.

﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عام يدل على قدرة الله تعالى في إذهاب من شاء وإتيان من شاء، وقد خصّه قومٌ بمن كان يعادي رسولَ الله ﷺ من العرب [١٣٢/أ] وغيرهم.

﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ أي: بناسٍ آخرين غيركم. ومدلول «آخر» أن يكون من جنس ما قبله نحو: رأيت زيداً وآخر، فلا يكون «آخر» من غير جنس زيد. ولو قلت: اشتريت فرساً وآخر، لم يكن «آخر» إلا من جنس الفرس. وأجاز الزمخشري وابن عطية في قوله «بآخرين» أنْ يكونوا من غير جنسِ الناس، وهو خطأٌ لأنَّ «غير» تقع على المغايرة في الجنس [أو الوصف، و«آخر» لا تقع إلا على المغايرة في الجنس].

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) هو سحيم عبد بني الحسحاس والبيت في ديوانه ص١٦، وصدره:

عميرة ودّعْ إن تجهّزتَ غازيا

وانظر البيان والتبيين ١ : ٧١.

ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية، قيل نزلت في اختصام [غني] وفقير عند رسول الله ﷺ.

﴿قَوَّٰمِينَ﴾ صفة مبالغة في القيام، ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وهو العدل. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ ظاهره أنه من الشهادة في الحقوق ولذلك أتبعه بما بعده. ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: تشهدون على أنفسكم أي تقرّون بالحق وتقيمون القسط عليها. وانتصب «شهداء» على أنه خبر بعد خبر. ومجيء «لو» هنا لاستقصاء جميع ما يمكن فيه الشهادة. لمّا كانت الشهادة من الإنسان على نفسه بصدد أن لا يقيمها لِمَا جُبل عليه المرء من محاباة نفسه ومراعاتها نبّه على هذا الحال.

وجاء هذا الترتيبُ للاستقصاء في غايةٍ من الحُسْنِ والفصاحةِ فبدأ بقوله ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ لأنه لا شيء أعزّ على الإنسانِ من نفسه، ثم ذكر الوالدين وهما أقرب إلى الإنسان وسبب نشأته وقد أمر ببرّهما وتعظيمهما والحوطة لهما، ثم ذكر الأقربينَ وهم مظنة المحبّةِ والتعصّب، وإذا كان هؤلاء أمر بالقيامِ في حقّهم بالقسطِ والشهادة عليهم فالأجنبيُّ أحرى بذلك. ويتعلق قوله «على أنفسكم» بمحذوفٍ لأن التقدير: وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله، هذا تقدير الكلام. وقال ابن عطية: «ولو على أنفسكم» متعلق بـ«شهداء» انتهى. إنْ عَنَى بـ«شهداء» هذا الملفوظ به فلا يصحُّ ذلك، وإنْ عنى الذي قدّرناه نحن فيصحّ.

وقال الزمخشري[١]: ويجوز أن يكون المعنى: وإن كانت الشهادة وبالاً على أنفسكم أو على آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع[٢] ضرره من سلطان ظالم أو غيره انتهى.

وما قاله لا يجوز لأن ما تعلّق به الظرف كون مقيد، ولا يجوز حذف الكون المقيّد لو قلت: كان زيد فيك، وأنت تريد: محباً فيك لم يجز، لأن «محباً» كون مقيد. وإنما ذلك جائز في الكون المطلق وهو تقدير كائن أو مستقر.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: إنْ يكن المشهود عليه غنياً فلا يمتنع من الشهادة [عليه] لغناه، أو فقيراً فلا يمنعها ترحّماً عليه وإشفاقاً. فعلى هذا الجوابُ محذوف لأنَّ العطف هو بأو ولا يثنى الضمير إذا عطف بها بل يفرد، وتقدير الجواب: فليشهد عليه ولا يراعي الغني لغناه أو لخوفٍ منه ولا الفقير لمسكنته وفقره. ويكون قوله «فالله أولى بهما» ليس هو الجواب بل لما جرى ذكر الغني والفقير عاد الضمير على ما دلّ[٣] عليه ما قبله كأنه قيل: فاللهُ أوْلى بجنسي الغني والفقير أي بالأغنياء والفقراء. وفي قراءة أبي: فالله أولى بهم، ما يشهد بإرادة الجنس. وذهب الأخفش وقوم إلى أن «أو» في معنى الواو، فعلى قولهم يكون الجواب «فالله أولى بهما» حيث شرع الشهادة عليهما وهو أنظر لهما منكم، ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها.

(١) الكشاف ١: ٥٧٠.
(٢) ق: موقع.
(٣) ق: عاد.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ الظاهر أنَّ الخطاب للمأمورين بالقيام بالقسط والشهادة لله والمنهيين عن اتباع الهوى. ومعنى «وإن تلووا» أي: تلووا ألسنتكم عن شهادةِ الحقِّ أو حكومةِ العدلِ أو تُعرضوا عن الشهادةِ بما عندكم وتمنعوها. وقرىء: وإن تَلُوا بضم اللام بواو واحدة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ هذا فيه وعيدٌ لمن لَوَى [١٣٢/ ب] بالشهادةِ أو أعرض عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب للمؤمنين. ومعنى «آمِنوا» دُومُوا على الإيمان. ومناسبتها لما قبلها أنه لما أمر المؤمنينَ بالقيام بالقسط والشهادة لله تعالى بيَّنَ أنه لا يتَّصفُ بذلك إلا مَنْ كان راسخَ القدم في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآية فأمر بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ
لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ
بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ
ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ
ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ

عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ
لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ
ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هي في المنافقين إذ هم المتلاعبون بالدين فحيث لقوا المؤمنين قالوا آمنا وحيث لقوا أصحابهم قالوا إنا مستهزئون، ولذلك جاء بعده «بَشِّر المنافقينَ». «لم يكنِ اللهُ ليغفرَ لَهُمْ» قال الزمخشري[١]: نفي الغفران والهداية وهي اللطف على سبيلِ المبالغة التي تعطيها اللام، والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيهما وهو الإيمان الثابت الخالص انتهى.

ظاهر كلامه أنه يقولُ بقولِ الكوفيين وهو[٢] أنهم يقولون: إذا قلت: لم يكن زيد ليقوم، إن خبر «لم يكن» هو قولك «يقوم» واللام للتأكيد زيدت في المنفي والمنفي هو القيام، وليست أنْ مضمرة بل اللام هي الناصبة، والبصريون يقولون: النصب بإضمار أنْ، ويَنْسَبِكُ من أن المضمرة والفعل بعدها مصدر، وذلك المصدر لا يصحّ أن يكون خبراً لأنه معنى والمُخَبر عنه جثة، ولكن الخبر محذوف واللام مقوّية لتعدية ذلك الخبر إلى المصدر، وأضمرت أنْ بعدها وصارت اللام كالعوض من أن المحذوفة، ولذلك [لا] يجوز حذف هذه اللام ولا الجمع بينها وبين أن ظاهرةً. ومعنى قوله: والمراد بنفيهما نفي ما يقتضيهما أن المعنى لم يكونوا ليؤمنوا[٣] فيغفر لهم ويهديهم.

(١) الكشاف ١: ٥٧١.
(٢) ق: وهم.
(٣) ق: لم يؤمنوا.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ الذين خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب[١] على الذم كأنه [قال:أذمّ الذين، أو صفة لقوله «المنافقين».

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ الظاهر أنه خطاب] للمؤمنين الذين يجالسون المنافقين ولذلك قال «فلا تقعدوا معهم» [نُهُوا عن القعود] ولذلك جاء بعده «إنكم إذاً مثلهم». وأنْ في قوله «أن[٢] إذا» مخففةٌ من الثقيلةِ واسمها ضمير الشأن محذوف تقديره: أنّه، والجملة بعده الشرطية خبر أن، وجوابه «فلا تقعدوا» و«حتى» غاية. نُهوا أنْ يقعدوا معهم إلا في وقت يخوضون في غير الكفر والاستهزاء. و«إذاً» في قوله «إنكم إذاً مثلهم» توسطت بين اسم إنّ وخبرها ومعناها معنى الشرط تقديره: إن قعدتم معهم مثلهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لمّا اتخذوهم في الدنيا أولياء جمع بينهم في الآخرة في النار والمرء مع من أحب، وهذا توعّد منه تعالى تأكد به التحذير من مخالطتهم ومجالستهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ الآية، الاستحواذ الاستيلاء والتغلب، ويقال حاذ يحوذ حوذاً وأحاذ، وكان القياس أن يقال استحاذ كما يقال استطال ولكنها شذّت هذه اللفظة فصحّت العين وهي الواو فلم تقلب ألفاً كما قلبتْ في استقام وأصله استقوم. ومعنى الآية الذين ينتظرونَ بكم ما يتجددُ من الأحوال من ظفرٍ لكم أو بكم.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين. والمعنى فأَسْهِمُوا لنا بِحُكْمِ أنَّا مؤمنون.

---

(١) ق: منصوباً.

(٢) سقطت في ق.

﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: اليهود ﴿ نَصِيبٌ﴾ أي: نيلٌ من المؤمنين ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم وأبقينا عليكم. ﴿ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنْ ثبّطناهم عنكم فأَسْهِمُوا لنا بحكم أنَّا نواليكم فلا نؤذيكم ولا نترك أحداً يؤذيكم.

﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون ثَمّ معطوف محذوف تقديره: وبينهم، ويحتمل أن لا عطف ويكون قوله «بينكم» شاملاً للمؤمنين والكفار [١٣٣/ أ] وغلّب فيه الخطاب.

وقوله ﴿سَبِيلًا ﴾ في الآخرة، وقيل «سبيلا» أي: الاستيلاء على بيضةِ الإسلام في الدنيا.

ومعنى ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ أي: منزل الخدْع بهم وهذه عبارة عن عقوبة سمّاها باسم الذنب فعقوبتهم في الدنيا في ذلّهم وخوفهم وفي الآخرة عذاب جهنم. وقرىء: خادعْهم بسكون العين. و«كسالى» جمع كسلان، وفَعلان هذا يجمع على فُعالى كهذا، وعلى فَعالى كغضبان وغَضابى. والكسل الفتور عن الشيء والتواني فيه وهو ضد النشاط، وقال بعض الشعراء في ذَمِّ مَنْ ينتمي إلى الفلسفة[1]:

وما انتسبوا إلى الإسلامِ إلا لصونِ دمائهم أنْ لا تُسالا
فيأتون المناكرَ في نشاطٍ ويأتون الصلاةَ وهم كُسالى

وانتصب «قليلاً» على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديرهُ: إلا ذِكْراً قليلاً،

(١) لم أجدهما. وفي البحر ٣: ٣٧٧ «وقد أشارِ بعض علمائنا إليهم في شعر قاله وضمن فيه بعض الآية، فقال في أبي الوليد بن رشد الحفيد وأمثاله من متفلسفة الإسلام» وذكر البيتين وقبلهما بيتين آخرين.

قال الزمخشريُّ[١]: يجوز أنْ يراد بالقلّة العدم انتهى. لا يجوز أن يراد به العدم لأن الاستثناء يأباه وقد رددنا هذا القول عليه وعلى ابن عطية في هذه السورة[٢].

(﴿ مُّذَبْذَبِينَ ﴾ أي: مُقَلْقَلينَ. ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بين الإيمان والكفر، و«ذلك» هو اسم إشارة مفرد وقد يشار به إلى اثنين كما قال ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۝٦٨﴾ [البقرة] أي: بين الفارض والبكر. قال لبيد[٣]: **[من الرمل]**

إن للشرّ وللخير مَدىً وكِلاَ ذلك وَجْهٌ وقَبَلْ

أي كلا ذينك أي الشر والخير. وقرىء: مذبذِبين بكسر الذال الثانية اسم فاعل أي مذبذبين أنفسهم. وقرىء: متذبذبين اسم فاعل من تذبذب أي اضطرب)[٤] وقرأ الحسن البصري: مذبذبين بفتح الميم والذالين، قال ابن عطية: وهي قراءة مردودة انتهى.

الحسنُ البصريُّ من أفصح الناس يُحْتَجُّ بكلامِهِ فلا ينبغي أن تُردَّ قراءته، ولها وجهٌ في العربية وهو أنَه أتبع حركة الميم لحركة الذال. وإذا كانوا قد أَتْبَعُوا حركة الميم لحركة عين الكلمة في مثل: مِنْتِن وبينهما حاجز فَلأَن يُتْبِعُوا بغير حاجز أولى. وكذلك أتبعوا حركة عين منفعل لحركة اللام في حالة الرفع فقالوا منحدُرٌ، وهذا أوْلى لأنَّ حركةَ الإعراب ليست بثابتة بخلاف حركة الذال، وهذا كله توجيه شذوذ وعلى تقديرِ صحةِ النقلِ عن الحسنِ

(١) الكشاف ١: ٥٧٤.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٦.
(٣) البيت لابن الزبعرى، انظر ديوان لبيد ص٢٠٠، وشرح المفصل ١: ٣٢٢.
(٤) ما بين قوسين ورد في ق في موضع آخر يخلّ بالسياق.

البصريِّ أنه قرأ ذلك بفتح الميمِ والله أعلم.

وانتصب «مذبذبين» على الحال قيل من فاعل «يراؤون» وقيل من فاعل «يذكرون» فتكون الذبذبة قيداً في المراءاة. وفي الذكر. والذبذبةُ وصفٌ ثابتٌ لهم فالأولى أن يكون انتصابه على الذم كأنه قيل: أذمّ مذبذبين، وقال الشاعر[١]:

ولا الحجاج عيني بنت ماء [من الوافر]

كأنه قال: أذمّ عيني بنت ماء. ويتعلق بمحذوف[٢] تقديره: لا منسوبين إلى هؤلاء ولا منسوبين إلى هؤلاء، وهو في موضع الحال.

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ﴾ عام يشمل المنافقين كبني قريظة إذ كان بينهم وبين الأنصار حلف ورضاع، ويشمل الكافرين من غيرهم.

وقوله ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المهاجرين، ويكون «يا أيها الذين آمنوا» خطاباً للأنصار وغيرهم من المؤمنين ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي: بموالاة الكفار.

﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ قال ابن عباس: الدرك لأهل النار كالدرج [١٣٣/ب] لأهل الجنة، إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض والدركات بعضها أسفل من بعض. وقال أبو عبيدة: الدركات الطبقات وأصلها من الإدراك أي هي متداركة متلاحقة. وقرىء: في الدّرْك بسكون الراء.

﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء من المنافقين ﴿تَابُوا﴾ من النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم وتمسكوا بالله وكتابه. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: لا يبتغون بعمل

(١) هكذا ورد الشعر في ق وفي ط، ولم أجده في مصدر.
(٢) ق: إلى محذوف.

الطاعات إلا وجه الله تعالى. ولما كان المنافقُ مُتَّصفاً بنقائضِ هذه الأوصافِ من الكفر وفسادِ الأعمال والموالاة للكافرين والاعتزاز[١] بهم والمراءاة للمؤمنين - شَرَطَ في توبتهم ما يناقضُ تلك الأوصاف وهو التوبة من النفاق وهي الوصف المحتوي على بقية الأوصاف من حيث المعنى، ثم فصّل ما أجمل فيها وهو الإصلاح للعمل المستأنف المقابل لفساد أعمالهم الماضية، ثم الاعتصام بالله في المستقبل وهو المقابل لموالاة الكافرين والاعتماد [عليهم] في الماضي، ثم الإخلاص للدين لله تعالى وهو المقابل للرياء الذي كان لهم في الماضي. ثم بعد تحصيل هذه الأوصاف جميعها أشار إليهم بأنهم مع المؤمنين، ولم يحكم بأنهم المؤمنون ولا من المؤمنين وإن كانوا قد صاروا مؤمنين، تنفيراً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق وتفظيعاً لحال من كان متلبّساً به.

و﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رفقاؤهم ومصاحبوهم.

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أتى بسوف لأنَّ إيتاءَ الأجرِ هو يوم القيامة وهو زمانٌ مستقبلٌ ليس قريباً من الزمان الحاضر، وقد قالوا إن سوف أبلغ في التنفيس من السين. ولم يعد الضمير عليهم فيقال: وسوف يؤتيهم، بل أخلصَ ذلك الأجرَ للمؤمنين وهم رفقاؤهم يشاركونهم فيه ويساهمونهم.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ ما الاستفهامية في موضع نصب بـ«يفعل» تقديره: أي شيء [يفعل]. ومعناه النفي أي ما يعذبكم. وأجيز أن تكون «ما» نافية والباء في «بعذابكم» زائدة.

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ قدّم الشكر على الإيمان لأن العاقل ينظر ما عليه

(١) ق: والاعتذار.

من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً فكان الشكرُ متقدماً على الإيمان فكأنه[١] أصل التكليف ومداره.

﴿شَاكِرًا﴾ أي: مثيباً موفياً أجوركم، وأتى في صفة الشكر باسم الفاعل بلا مبالغة ليدلّ على أنه يتقبل[٢] ولو أقل شيء من العمل وينمّيه.

﴿عَلِيمًا﴾ بشكركم وإيمانكم فيجازكم. وفي قوله «عليماً» تحذير وندب إلى الإخلاص لله عزّ وجلّ.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾
إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها هي أنه تعالى لما ذكر من أحوال المنافقين وذمّهم وإظهار فضائحهم ما ذكر، وبيّن ظلمهم واهتضامهم جانب المؤمنين - سوّغ هنا للمؤمنين أن يذكروهم بما فيهم من الأوصاف الذميمة. وقال عليه السلام[٣]: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره

(١) ق: فكان.

(٢) ق: مقبل.

(٣) حديث موضوع، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢: ٥٢.

الناس».

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ هذا الاستثناءُ متصل على تقديرِ حذف مضاف أي: إلاّ جهر من ظُلم، وقيل: الاستثناء منقطع فالتقدير: لكن المظلوم له أن ينتصف من ظالمه بما يوازي ظلامته. وقيل «مَن» فاعل بالمصدر وهو «الجهر» تقديره: لا يحب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم أي إلا المظلوم فإنه عزّ وجلّ لا يكره جهره بالسوء، وفيه إعمال المصدر معرّفاً بالألف [واللام] وهي مسألة خلاف. ومذهب [١٣٤/أ] سيبويه جواز ذلك، قال ابن عطية: وإعراب «مَنْ» يحتمل في بعض هذه التأويلات النصب، ويحتمل الرفع على البدل من «أحد» المقدّر انتهى. يعني بأحد المقدّر في المصدر إذ التقدير: أن يجهر أحد.

وما ذكره من جواز البدل لا يصحُّ وذلك لأنَّ الاستثناءَ المنقطع على قسمين: قسم يسوغ فيه البدل وهو ما يمكن توجّه العامل عليه نحو: ما في الدار أحد إلا حمار، فهذا فيه البدل في لغة تميم، والنصب على الاستثناء المنقطع في لغة الحجاز، وإنما جاز فيه البدل لأنك لو قلت: ما في الدار إلا حمار، صحّ المعنى. وقسم يتحتّم فيه النصب على الاستثناء ولا يسوغ فيه البدل وهو ما لا يمكن توجه العامل عليه نحو: المال ما زاد إلا النقص، التقدير: لكن النقص حصل له، فهذا لا يمكن أن يتوجّه «زاد» على النقص، [لأنك لو قلت: ما زاد إلا النقص] لم يصح المعنى. والآية من هذا القسم لأنك لو قلت: لا يحبُّ الله أنْ يجهر بالسوء إلا الظالم، فتفرغ «أن يجهر» لأن يعمل في «الظالم» لم يصح المعنى.

قال الزمخشري[١]: ويجوز أن يكون [«مَنْ»] مرفوعاً كأنه قيل: لا يحب الله أن يجهر بالسوء إلا الظالم على لغة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو بمعنى: ما جاءني إلا عمرو. ومنه ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل] انتهى.

هذا الذي جَوَّزه الزمخشريُّ لا يجوز لأنه لا يمكن أن يكون الفاعل يذكر لغواً زائداً، ولا يمكن أن يكون «الظالم» بدلاً من «الله» ولا عمرو بدلاً[٢] من زيد، لأن البدل في هذا الباب راجع إلى كونه بدل بعض من كل إما على سبيل الحقيقة نحو: ما قام القوم إلا زيد، وإما على سبيل المجاز نحو: ما في الدار أحد إلا حمار، وهذا لا يمكن فيه البدل المذكور لا على سبيل الحقيقة ولا على سبيل المجاز لأن الله علم[٣] وكذلك زيد هو زيد فلا يمكن أن يُتخيل فيه عموم فيكون الظالم بدلاً من الله وعمرو بدلاً[٤] من زيد. وأمّا ما يجوز فيه البدل من الاستثناء المنقطع فإنه يُتخيل فيما قبله عموم ولذلك صحّ البدل منه على طريق المجاز وإن لم يكن بعضاً من المستثنى منه حقيقة.

وأما قول الزمخشري: على لغة من يقول: ما جاءني زيد إلا عمرو فلا نعلمُ هذه اللغة إلا في كتابِ سيبويه بعد أنْ أنشدَ أبياتاً من الاستثناء المنقطع آخرها قول الشاعر[٥]: [من الطويل]

(١) الكشاف ١: ٥٧٦.

(٢) ق: بدل.

(٣) ق: عليم.

(٤) ق: بدل.

(٥) البيت للحصين بن الحُمام المرّي، وهو في المفضليات ص٦٥ بروي مفتوح.

عشيَّةَ لا تُغْني الرماحُ مكانَها ولا النَّبْلُ إلا المَشْرَفِيُّ المُصَمِّمُ

ما نصه: وهذا يقوّي: ما أتاني زيد إلا عمرو وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه، لأنها معارف ليست الأسماء الآخرة بها ولا منها انتهى كلام سيبويه. ولم يصرّح ولا لوّح أن قوله: ما أتاني زيد إلا عمرو، من كلام العرب. وقال من شرح كلام سيبويه: فهذا يقوّي: ما أتاني زيد إلا عمرو، أي: ينبغي أن يثبت هذا من كلامهم لأن «النبل» معرفة ليس بـ«المشرفي» كما أن زيداً ليس بعمروٍ وكما أن إخوة زيد ليسوا إخوتك انتهى. وليس: ما أتاني زيد إلا عمروٌ نظير البيت لأنه يُتخيل عموم في البيت على سبيل المجاز كأنه قيل: لا يغني السلاح مكانها إلا المشرفي بخلاف: ما أتاني زيد إلا عمرو، فإنه لا يُتخيل في: ما أتاني زيد عموم البتّة. على أنه لو سُمعَ هذا من كلامِ العربِ وجبَ تأويلُه حتى يصحَّ البدل فكان يقدّر: ما جاءني زيد ولا غيره إلا عمرو، وكان يدل على حذف هذا المعطوف وجود هذا الاستثناء. أما أن يكون على إلغاء(١) الفاعل وزيادته أو على كون عمرو بدلاً من زيد فإنه لا [١٣٤/ب] يجوز لما ذكرناه.

وأما قول الزمخشري: ومنه «قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله» فليس من بابِ ما ذكر لأنه يحتمل أنْ تكون «مَنْ» مفعولة و«الغيب» بدلاً مِن «مَن» بدل اشتمال أي لا يعلم غيب من في السماوات والأرض إلا الله، أي ما يسرّونه وما يخفونه لا يعلمه إلا الله. وإنْ سلَّمنا أنَّ «مَن» مرفوعة فيجوز أن يكون «الله» بدلاً من «مَن» على سبيل المجاز في «من»، لأنّ «مَن في السماوات» يُتخيل فيه عموم كأنه قيل: قل لا يعلم الموجودون الغيب إلا الله، أو على سبيل المجاز في الظرفية بالنسبة إلى الله

(١) كتبت في الحاشية.

تعالى إذ جاء عنه ذلك في القرآن وفي السنّة كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۝٣ ﴾ [الأنعام] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۝٨٤ ﴾ [الزخرف] وفي [الحديث]: أينَ الله؟ قالت: في السماء. ومن كلام العرب: لا وذي[١] في السماء بيته، يَعْنُونَ اللهَ تعالى. وإذا احتملت الآية هذه الوجوه لم يتعين حملها [على] ما ذكر.

﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ الظاهر أن الهاء في «تخفوه» تعود على الخير، قال ابن عباس: يريد من أعمال البرّ كالصيام والصدقة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴾ قيل نزلت في اليهود والنصارى. وجعل إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض كفراً[٢] بالله ورسوله. وقوله «بين ذلك» [أي بين] الإيمان والكفر.

والجملة من قوله «أولئك هم» وما بعدها خبر لإنّ، والأفعال التي قبل ذلك صلات لـ«الذين». بدأ أولاً بأشنعها وهو الكفر بالله ورسله إذ هم متظاهرون بذلك، ثم الاعتقاد القلبي وهو إرادة التفريق بين الله ورسله، ثم التلاعب بالدين في كونهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وانتصب «حقاً» على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره: كفراً حقًّا. ويجوز في إعراب «هم» أن يكون مبتدأ و«الكافرون» خبره، ويجوز أن يكون «هم»[٣] فصلاً و«الكافرون» خبراً عن «أولئك»، ويجوز أن يكون بدلاً من «أولئك»، والبدل من المبتدأ مبتدأ فيكون «الكافرون» خبراً عن لفظ «هم». ويجوز أن ينتصب «حقاً» على أنه توكيد لمضمون الجملة والعامل محذوف تقديره: أحقّ ذلك حقاً.

---

(١) ق: وذو.

(٢) ق: كفر.

(٣) ق: هو.

لما تقدم ذكر الكافرين ذكر مقابلهم وهم المؤمنون وذكر ما أعدّ لهم كما ذكر ما أعدّ للكافرين. وختم آية المؤمنين بقوله ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: غفوراً لمن يقع منه[1] بعض ذلك، رحيماً لكونه لا يؤاخذهم.

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ
أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى
ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا
قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل
رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ
مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عام في اليهود والنصارى، وقيل خاص باليهود وسؤالهم سؤال تعنت ولذلك قالوا «أن تنزل» والتنزيلُ إنما هو لله تعالى، وقد نزّل عليكم أشرفَ الكتبِ وأعظمها وهو القرآن. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن﴾ قدّروا قبل هذا كلاماً محذوفاً فجعله الزمخشري شرطاً هذا جوابه ان استكبرت ما سألوا منك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فلا تبال يا محمد عن سؤالهم وتشطيطهم فإنها عادتهم فقد

سألوا موسى. وأسند السؤال إليهم وإن كان إنما وقع من آبائهم من نقبائهم السبعين لأنهم[(١)] راضون بفعل آبائهم ومذاهبهم ومشابهون لهم في التعنّت. وقرىء: أكثر بالثاء مكان الباء. وتقدم تفسير باقي الآية في سورة البقرة[(٢)].

والباء في ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ تتعلق بمحذوف فقدّره الزمخشري: فعلنا بهم ما فعلنا، وقدّره ابن عطية: لعنّاهم وأذللناهم، وجوّزوا أن تتعلق بقوله ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء]. على أنَّ قوله «فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا» بدل من قوله «فبما نقضهم ميثاقهم» وقاله الزجاج وأبو بكر والزمخشري. وهذا فيه [١٣٥/أ] بُعْدٌ لكثرةِ الفواصلِ بين البدلِ والمُبْدَلِ منه، ولأنَّ المعطوفَ على السبب سبب فيلزم تأخير بعض أجزاء السبب الذي للتحريم في الوقت عن وقت التحريم، فلا يمكن أن يكون جزء سبب أو سبباً إلا بتأويل بعيد. وبيان ذلك أن قولهم «على مريم بهتاناً عظيماً» وقولهم «إنا قتلنا المسيح» متأخر في الزمانِ عن تحريمِ الطيبات عليهم. فالأوْلى أن يكون التقدير: لَعَنَّاهم، وقد جاء مصرّحاً به في قوله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة] قال ابن عطية: وحذف جواب هذا الكلام بليغ [منهُم] متروك مع ذهن السامع انتهى.

تسميته[(٣)] ما يتعلق به المجرور بأنه جواب، اصطلاح لم يعهد في علم النحو ولا تساعده اللغة لأنه ليس بجواب. والظاهر في قوله «وبكفرهم وقولهم» أنه معطوفٌ على قوله «فبما نقضهم» وما بعده. على أن الزمخشري أجاز أن يكون قوله «وبكفرهم وقولهم» معطوفاً على «بكفرهم».

---

(١) ق: لأنه.

(٢) ٢: ٥٥.

(٣) ق: نسبته.

وتكرر نسبة الكفر إليهم بحسب متعلقاته إذ[١] كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد ﷺ فعطف بعض كفرهم على بعض، قال الزمخشري[٢]: أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم وافتخارهم بقتل عيسى عاقبناهم، أو: بل طبع الله عليها بكفرهم وجَمْعهم بين كفرهم وكذا وكذا.

وقال الزمخشري أيضاً[٣]: فإن قلت: هلاّ زعمت أن المحذوف الذي تعلّقت به الباء ما دل عليه قوله «بل طبع الله عليها بكفرهم» فيكون التقدير: فبما نقضهم ميثاقهم طبعَ اللهُ على قلوبهم بل طبعَ الله عليها بكفرهم؟ قلت: لم يصح هذا التقدير لأن قوله «بل طبع الله عليها بكفرهم» ردٌّ وإنكارٌ لقولِهم «قلوبنا غلف» فكان متعلقاً به انتهى.

وهو جواب حسن ويمتنع من وجهٍ آخر وهو أنَّ العطف ببل يكون للإضرابِ عن الحكمِ الأول وإثباته للثاني على جهة إبطال الأول أو الانتقال[٤]، فأما في كتاب الله تعالى في الإخبار فلا يكون إلا للانتقالِ وليستفاد من الجملة الثانية ما لا يستفاد من الأولى.

والذي قدّره الزمخشري لا يسوغُ فيه هذا الذي قرّرناه لأن قوله «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله - وقولهم[٥] قلوبنا غلف بل طبع الله على

---

(١) ق: إذا.

(٢) الكشاف ١: ٥٧٩.

(٣) الكشاف ١: ٥٧٨.

(٤) ق: والانتقال.

(٥) ق: وقلوبهم.

قلوبهم» هو مدلول الجملة التي صحبتها «بل» وهو قوله «بل طبع الله عليها بكفرهم» فأفادت الجملةُ الثانيةُ ما أفادتِ الجملةُ الأولى، وهو لا يجوز، لو قلت: مرّ زيد بعمرو بل مرّ زيد بعمرو لم يجز، وقد أجاز ذلك أبو البقاء وهو أن يكون التقدير: فبما نقضهم ميثاقهم وكذا وكذا طبع الله على قلوبهم، وقيل التقدير: فبما نقضهم ميثاقهم لا يؤمنون إلا قليلا، فالفاء مقحمة[1]، و«ما» في قوله «فبما نقضهم» كهي في ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران] وتقدم الكلام فيها.

والبهتانُ العظيم هو رَمْيُهَا عليها السلام بالزنى مع رؤيتهم الآيةَ في كلامِ عيسى عليه السلام في المهد. وقولهم ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هو على جهة الاستهزاء منهم كقول فرعون لعنه الله ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]. وفي الكلام حذف تقديره: وصلبناه، ولذلك نفاه في قوله تعالى «وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّه لهم»، هذا إخبارٌ منه تعالى بأنهم ما قتلوا عيسى ولا صلبوه.

واختلف [١٣٥/ب] الرواة في كيفية القتل والصلب وفيمن أُلقي الشّبه عليه اختلافاً كثيراً. ولم يَثْبُتْ عن رسولِ الله ﷺ في ذلك شيءٌ.

و﴿شُبِّهَ﴾ مبني للمفعول و«لهم» في موضع المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله.

والذي نعتقده أن المشبّه هو الملك الممخرق الذي كان في زمان عيسى عليه السلام، لما رفعه الله تعالى إليه وفقدوه أخرج شخصاً وقال لهم: هذا عيسى فقتله وصلبه. قيل: ولا يجوز [أن يُعتقد] أنَّ الله تعالى ألقى شبه عيسى على [واحدٍ منهم] لأنَّ ذلك تطرّف إلى السفسطة كما ادّعى بعض

(١) ق: معجمة.

الجُهَّال في الشيخ القرشي وكان شيخاً مجذوماً أنه كان إذا أراد أنْ يخلو بامرأته للوطء برز لها في صورةِ شاب أمرد حسن الصورة. وحكي لنا عن بعض من كان تولّى مشيخةَ الصوفيةِ بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة أنه تكلم مع بعض العلماء في أنه يكون في الآن الواحد بشكلِه وصورتِه في مكانٍ، ثم يكونُ بشكلِه وصورته في ذلك الآن في مكان آخر. وعند هؤلاء المنتمين للتصوف[١] من المكابرات وتجويز المستحيلات والإيهامات شيء كثير.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ الضمير قيل عائد على اليهود، واختلافهم [فيه هو قولهم] إنه ليس برسول وإنه ليس لِرِشْدةٍ[٢]. والظاهر أنه عائدٌ على النصارى، واختلافهم أنَّ بعضهم يقولُ: قُتلَ وصُلب، وبعضهم يقول: قتل ناسوته لا لاهوته، وبعضهم يقول: لم يُقْتَلْ ولم يصلب. واليقين الذي صحّ فيه نقل الكافّة عن حواسّها هو أنَّ شخصاً صُلب وأما هل هو عيسى أم لا فليس من علم الحواسّ.

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ استثناء منقطع إذ اتباع الظن[٣] ليس مندرجاً تحت قوله «مِنْ عِلْم».

وقال ابن عطية: هو استثناء متصل إذ الظن والعلم يضمّهما جنس أنهما من معتقدات اليقين، وقد يقول الظانّ على طريق التجوز: علمي في هذا الأمر أنه كذا وهو يعني ظنه انتهى.

وليس كما ذكرَ من أنَّ الظن والعلم يضمّهما جنس أنهما من معتقدات

(١) ق: الصوف.
(٢) تقول: هو لِرِشْدةٍ خلاف قولك: لِزِنْيَةٍ.
(٣) «استثناء منقطع إذ اتباع الظن» كتبت في الحاشية.

اليقين، لأنَّ الظنَّ ليس من معتقدات اليقين لأنه ترجيح أحد الجائزين. وعلى تقدير أنَّ الظنَّ والعلم يضمّهما ما ذكر فلا يكونُ أيضاً استثناء متصلاً لأنه لم يستثن الظن من العلم فليست التلاوة: ما لهم به من علم إلا الظن، وإنما التلاوة «إلا اتباع الظن» والاتباع للظن لا يضمّه والعلم جنس ما ذكر. والظاهر أنَّ الضمير في «قتلوه» عائد على عيسى. وانتصب «يقيناً» على أنه مصدر في موضع الحال أو نعت لمصدر محذوف، أو بمعنى حقاً فيكون مصدراً [مؤكداً] لمضمون الجملة. ومَنْ ذهبَ إلى أنه معمول لقوله «رفعه» فيكون فيه تقديم وتأخير فقوله خطأ، لأن ما بعد «بل» لا يعمل فيما قبلها.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنْ هنا نافية والمُخبَر عنه محذوف قامت صفته مقامه، التقدير: وما أحد من أهل الكتاب كما حذف في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿٧١﴾﴾ [مريم].

وقال الزمخشري[(١)]: «ليؤمنن به» جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديره: وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، ونحو ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿٧١﴾﴾ [مريم] والمعنى: ما من اليهود أحدٌ إلا ليؤمنن به انتهى.

وهو غلط فاحش إذ زعم أن «ليؤمننّ به» جملة قسمية واقعة صفة لمحذوف إلخ. وصفة «أحد» المحذوف إنما هو الجار والمجرور وهو [١٣٦/أ] «من أهل الكتاب» والتقدير كما ذكرناه: وإن أحد من أهل الكتاب. وأما قوله «ليؤمنن به» فليست صفة لموصوف ولا هي جملة قسميّة كما زعم، إنما هي جملة جواب القسم، والقسم محذوف، والقسم وجوابه

(١) الكشاف ١: ٥٨٠.

في موضع خبر المبتدأ الذي هو «أحد» المحذوف، إذ لا ينتظم من «أحد» والمجرور إسناد[(١)] لأنه لا يفيد، وإنما ينتظم الإسناد بالجملة القسميّة وجوابها فذلك محطّ الفائدة، وكذلك أيضا الخبر هو «إلا له مقام» وكذلك «إلا واردها» إذ لا ينتظم مما قبل إلا تركيب إسنادي.

والظاهر أن الضميرين في «به» و«موته» عائذان على عيسى وهو سياق الكلام، والمعنى: من أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله، روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملّة واحدة وهي ملّة الإسلام قاله ابن عباس وغيره. وقال ابن عباس أيضاً وجماعة: الضمير في «به» لعيسى، وفي «موته» للكتابي، قالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ويعلم أنه نبي، ولكن عند المعاينة للموت فهو إيمان لا ينفعه.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ ﴾ الطّيبات ما ذكر تعالى في قوله ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام].

و﴿ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ جملة[(٢)] في موضع الصفة لـ«طيبات» والمعنى: كانت

---

(١) ق: إسناده.

(٢) ق: جملة حالية في موضع الصفة.

احِلّتْ لهم. وانتصب «كثيراً» على أنه مفعول به أي: ناساً كثيراً وناصبه المصدر وهو قوله «وبصدّهم»، أو انتصب على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره صداً كثيراً.

﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ جملة حالية تؤذن بتقبيح فعلهم إذا ما نهى تعالى عنه يجب أن يبعد منه، قالوا: والربا محرم في جميع الشرائع. وقوله «بالباطل» هو الرُّشا التي كانوا يأخذونها على تغيير شرائعهم.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الآية، مجيء «لكن» هنا في غاية الحسن لأنها داخلة بين نقيضين وجوابهما وهم الكافرون والعذاب الأليم، والمؤمنون والأجر العظيم. و«الراسخون» الثابتون المتقنون المستبصرون منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني منهم أو المؤمنون من المهاجرين والأنصار. والظاهر أنه عامٌّ فيمن آمن.

وارتفع «الراسخون» على الابتداء والخبر «يؤمنون» لا غير لأن المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة الأولى. ومن جعل الخبر «أولئك سنؤتيهم» فقوله ضعيف. وانتصب «والمقيمين» على المدح. وارتفع «والمؤتون» أيضاً على إضمار «وهم» على سبيل القطع إلى الرفع. ولا يجوز أن يعطف على المرفوع قبله لأن النعت إذا قطع في شيء منه لم يعد ما بعده إلى إعراب المنعوت، وهذا القطع لبيان فضل الصلاة والزكاة، فكثر الوصف بأن جعل في جمل. وقرىء: والمقيمون بالرفع عطفاً على المرفوع قبله، قال ابن عطية: فرق بين الآية والبيت، يعني بيت الخرنق وكان أنشده قبل وهو[١]:

[من الكامل]

(١) ديوان الخرنق ص٢٩.

النــازلــون بكــلِّ مُعْتَـرَكٍ والطَّيِّبــون مَعــاقِـدَ الأُزُرِ

بحرف العطف الذي في الآية، فإنه يمنع عند بعضهم تقدير الفعل وفي هذا نظر انتهى. إنْ مَنَعَ ذلك أحد فهو محجـوج بثبوت ذلك في كـلام العـرب مع حرف العطف ولا نظر في ذلك لما قال ابن عطية، كما قال الشاعر(١): [من المتقارب]

[١٣٦/ب] ويأوي إلى نسوةٍ عُطَّلِ وشُعْثـاً مـراضيـعَ مِثْـلَ السّعـالـي

وذكر الزمخشري وغيره وجوهاً في أنّ «والمقيمين» في موضع جرّ عطفاً على الضمير في «منهم» أي ومن المقيمين، أو عطفاً على «قبلك» أي ومن قَبْل المقيمين، أو عطفاً على الكاف في قوله «إليك»(٢) [أي يؤمنون بما أنزل إلى محمد وإلى المقيمين]. وأجازوا فيمن قرأ: والمقيمونَ بالرفع أن يكون في موضع خبر مبتدأ محذوف، أو عطفاً على الضمير المستكنّ في «الراسخون»، أو عطفاً على الضمير المستكن في «المؤمنون»، أو على الضمير المستكن في «يؤمنون». وهذه أعاريب ينزّه كتاب الله عنها ولا يحلّ اعتقاد شيء منها ولولا(٣) أن الزمخشري وابن عطية ذكراهما وهما يُدّعىٰ فيهما أنهما أجلّ من صنّف في التفسير لما ذكرتُ ذلك.

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ

(١) هو أمية بن أبي عائذ، والبيت من شواهد الكتاب ١ : ٣٩٩.
(٢) ق: ومن قبلك.
(٣) ق: ولو.

وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا.

﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ جمع عام جرّد منه ما ذكره تعالى في قوله «وأوحينا إلى إبراهيم» تعظيماً لهم وتنبيهاً على أنهم أشرف من غيرهم إذ كانوا أصحاب ملل كملّة موسى وعيسى. وقرىء: زُبراً بضم الزاي جمع زَبور كعمود وعُمُد. والزبور الذي آتاه الله داود وأنزله عليه قرأتُ فيه وقد عُرّب وهو يتضمن مواعظ وأمثالاً كثيرة.

وانتصاب «رسلاً» على إضمار فعلٍ أي: قد قصصنا رسلاً عليك، فهو من باب الاشتغال. والجملة من قوله «قد قصصناهم» مفسّرة لذلك الفعل ويدلّ على هذا قراءة أبيّ: ورسلٌ بالرفع في الموضعين على الابتداء، وجاز الابتداء بالنكرة هنا لأنه موضع تفصيل كما أنشدوا(١): [من المتقارب]

فثوبٌ لبستُ وثوبٌ أَجُرّْ

وقوله(٢): [من الطويل]

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص١٥٩، وتمامه:

فلما دنوتُ تسدّيتها ... فثوباً لبست وثوباً أجرّْ

(٢) عجز بيت لامرىء القيس، وصدره في الديوان ص١٢:

بشِقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحَوَّلِ

ومرجّح النصب على الرفع كون العطف على جملة فعلية وهي «وآتينا داود زبورا». ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ هذا إخبار بأن الله شرّف موسى بكلامه، وأكّد بالمصدر دلالة على وقوع الفعل على حقيقته لا على مجازه، هذا هو الغالب. وقد جاء التأكيد بالمصدر في المجاز إلا أنه قليل فمن ذلك قول هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري(١): [من الطويل]

بكى الخزّ من رَوْحٍ وأنكر جِلْدَه وعجّتْ عجيجاً من جُذامَ المَطارفُ

وقال ثعلب: لولا التأكيد بالمصدر لجاز أن يكون كما تقول: قد كلّمت لك فلاناً، بمعنى كتبت إليه رقعة وبعثت إليه رسولاً، فلما قال «تكليما» لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى. ومسألة الكلام مما طال فيه الكلام واختلف فيها علماء الإسلام، وبهذه المسألة سُمِّي علم أصول الدين بعلمِ الكلامِ وهي مسألةٌ يبحث فيها في أصول الدين. وقرىء: وكلّم اللهَ موسى بالنصب في الجلالة.

﴿ رُّسُلٗا﴾ بدل من قوله «ورسلاً». والجملة من قوله «وكلّم الله موسى تكليما» جملة اعتراض بين البدل والمبدل منه أفادت تشريف موسى عليه السلام بتكليمه تعالى، إذ هو مندرج في قوله «ورسلاً قد قصصناهم عليك». ﴿ مُّبَشِّرِينَ﴾ بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب. و﴿ لِئَلَّا﴾ تعليل لإرسالِ الرسل كما قال تعالى(٢) ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ ١٩﴾ [المائدة].

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ

= إذا ما بكى من خلفها انحرفت له

(١) البيت لحميدة بنت النعمان بن بشير كما في معجم الأدباء ١١ : ٢٠.

(٢) ق: أن تقول.

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا
بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ .

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ﴾ الآية، الاستدراك بلكن يقتضي تقدم جملة محذوفة، لأن لكن لا يُبتدأ بها فالتقدير [ما روي] في سبب النزول وهو أنه لمّا نزل «إنا أوحينا إليك» قالوا: ما يشهد لك بهذا؟ فنزل «لكن الله يشهد». وشهادته تعالى بما أنزل إليه [١/١٣٧] إثباته بإظهار المعجزات كما ثبتت الدعاوى بالبيّنات. وقرىء: لكنّ الله، بالتشديد ونصب الجلالة. ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ﴾ الباء للحال أي: متلبّساً بعلمه أي عالماً به.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ استثناء من قوله «طريقاً». و«طريقاً» منفي من حيث المعنى لأن التقدير: لم يكن الله مريداً هدايتهم، وإذا انتفت إرادة الهداية انتفت الهداية للطريق، وإذا انتفت الهداية انتفت الطريق، وهذا على طريقة البصريين. وأما الكوفيون فالنفي منسحب أولاً على الهداية. وتقدم الكلام على لام الجحود في قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ
إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ
سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿لَا تَغْلُواْ﴾ الغلّو التجاوز في الأمر. ومعنى ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ [أي]: الذي أنتم مطلوبون[1] به لا دينكم المضلل. والظاهر أن «أهل الكتاب» المراد بهم النصارى بدليل آخر الآية، وقيل يشمل اليهود والنصارى. وغلوُّ اليهودِ كونهم أنكروا رسالةَ عيسى ونسبوهُ لغير رِشْدَة، وغلوُّ النصارى قولُ بعضِهم إنه الله وقول [بعضهم] إنه ثالث ثلاثة. ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ تقدم تفسيرها في قوله ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران]. و﴿أَلْقَىٰهَآ﴾ جملة حالية أي أوجد فيها عيسى. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي أوجدها. والذي يظهر أن قوله «ثلاثة» خبر مبتدأ محذوف تقديره: الإله أو المعبود ثلاثة، لأنهم يثبتون الله وصاحبته وولده. ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ تقدم قوله «فآمنوا خيراً لكم».

وفي نصب «خيراً» ثلاثة أوجه الأول: مذهب الخليل وسيبويه أنه منصوب على فعل يجب إضماره تقديره وأْتوا خيراً لكم، الثاني: مذهب الكسائي وأبي عبيدة أنه منصوب على خبر «يكن» محذوفة تقديره: يكن هو خيراً لكم، ويكن هو أي الانتهاء خيراً لكم، الثالث: مذهب الفراء أن انتصابه على أنه صفة لمصدر محذوف تقديره: فآمنوا إيماناً خيراً[2] لكم وانتهوا انتهاءً خيراً لكم والترجيح بين هذه الأقوال مذكور في علم النحو.

---

(١) ق: مطلبون.

(٢) كتبت في الحاشية.

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ الاستنكاف الأنفة والترفّع، مِن نكفت الدمع إذا نحيّته بإصبعك من خدّك ومنعته من الجري. وقيل الاستنكاف من النكف يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف[١]، والنكف أن يقال له سوء، واستنكف دفع ذلك السوء.

وقوله ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ظاهره أنْ يكون معطوفاً على قوله «لن يستنكف المسيح» والمعنى: ولا تستنكف الملائكة[٢] المقربون أنْ يكونوا عبيداً لله، وليس معطوفاً على قوله «المسيح» لاختلاف الخبر.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: من أين دلَّ قوله «ولا الملائكة المقربون» على أنَّ المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أنَّ الكلامَ إنما سيقَ لردٍّ مذهب النصارى وغلّوهم في رفعِ المسيحِ عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يترفَّع عيسى عن العبوديةِ ولا من هو أرفع منه درجة كأنه قيل: لن تستنكف الملائكة المقربون من العبوديةِ فكيف بالمسيحِ. ويدل عليه دلالة ظاهرة بيّنة تخصيص المقربين[٤] لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة ومثاله قول القائل[٥]. [من الطويل]

ومـا مثلـه مِمَّـن يجـاوِدُ حـاتـمٌ ولا البحرُ ذو الأمواج يلتج زاخِرُهْ

(١) انظر اللسان «نكف».

(٢) بعده في ق: ظاهره أن يكون معطوفاً على قوله المقربون..

(٣) الكشاف ١: ٥٨٦.

(٤) ق: تخصص المقربون.

(٥) شرح شواهد الكشاف ٤: ٤٠١ غير منسوب.

لا شبهة في أنه قصدَ بالبحرِ ذي الأمواجِ ما[1] هو فوقَ حاتم في الجودِ، ومَنْ كان له ذوقٌ فليذق مع هذه الآية قوله ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة] حتى يعترف بالفرق البيّن انتهى كلامه.

التفضيلُ بين الأنبياء والملائكة إنما يكون بالسمع إذ نحن لا ندركُ جهةَ التفضيل بالعقل. وأما الآية فقد يقال: متى نُفي شيء عن اثنين فلا يدل ذلك على أنَّ الثاني أرفع من الأول ولا أنَّ ذلك من باب الترقّي. فإذا قلت [١٣٧/ب] لن يأنف فلان أن يسجد لله ولا عمرو، فلا دلالة فيه على أن عمراً أفضل من زيد، وإن سلّمنا ذلك فليست الآية من هذا القبيل لأنه قابلَ مُفْرداً بجمعٍ ولم يقابل مفرداً بمفردٍ ولا جمعاً بجمع، فقد يقال: الجمع أفضل من المفرد ولا يلزم من الآيةِ تفضيل الجمع على الجمع ولا المفرد على المفرد، وإنْ سلّمنا أنَّ المعطوف في الآية أرفع من المعطوف عليه فيكون ذلك بحسب ما ألقي في أذهان[2] العرب وغيرهم من تعظيمِ الملكِ وترفيعه حتى أنهم ينفون البشرية عن الممدوح ويثبتون له الملكية، ولا يدل تخيلهم ذلك على أنه في نفسِ الأمر أفضل وأعظم ثواباً. ومما ورد من ذلك على حسب ما ألقي في الأذهان قوله تعالى حكاية عن النسوةِ اللاتي فاجأهن حُسْن يوسف ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف]. وقال الشاعر[3]: [من الطويل]

فلست بإنسيٍّ ولكن لملاكٍ تَنَزّلَ من جوّ السماء يَصوبُ

(١) ق: وما.

(٢) ق: في الأذهان أذهان العرب.

(٣) البيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص١٣٢، وانظر الكتاب ٤: ٣٨٠، واللسان «ملك».

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: علام عطف قوله «ولا الملائكة»؟ قلت: [لا يخلو] إما أن يعطف على «المسيح» أو على اسم «يكون» أو على المستتر في «عبداً» لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة كقولك[٢]: مررت برجلٍ عَبْدٍ أبوه. فالعطف على «المسيح» هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا مَن فوقه موصوفين بالعبودية أو أن يعبد الله هو ومَن فوقه انتهى.

الانحرافُ عن الغرضِ الذي أشار إليه هو كون الاستنكافِ يكون مختصاً بالمسيح، والمعنى القائم[٣] إشراك الملائكة مع المسيح في انتفاء الاستنكاف عن العبودية، لأنه [لا] يلزم من استنكافه وحده أنْ يكون هو والملائكة عبيداً، أو أن يكون هو وهم يعبدونه [مع عدم] استنكافهم، فقد يرضى شخص أن يضرب هو وزيد عمراً، ولا يرضى ذلك زيد.

ويظهر أيضاً مرجوحية الوجهين من جهة دخول «لا»، إذ لو أُريد العطف على الضمير في «يكون» أو على المستتر في «عبداً» لم تدخل «لا» بل كان يكون التركيب بدونها، تقول: ما يريد زيد أن يكون هو وأبوه قائمين، وتقول: ما يريد زيد أن يصطلح هو وعمرو. فهذان ونحوهما ليسا من مظنات دخول «لا»، فإن وجد في لسان العرب دخول «لا» في نحوٍ من هذا فهي زائدة. وقرىء: عُبَيْداً بالتصغير. واستدلَّ مَنْ قال بتفضيل الملائكة على الأنبياء بهذه الآية إذ فيها الترقّي من الأعلى إلى الأعلى كما تقدّم، وهي مسألة خلاف. وأجيب بأنه لما كان الملك في أنفس البشر مما يعظّمونه

(١) الكشاف ١ : ٥٨٨.

(٢) ق: وقولك.

(٣) ق: التام.

ويرفعون من قدره جاءت الآية على ذلك، ألا ترى إلى قولِ صواحبِ امرأةِ العزيز في يوسف عليه السلام ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف] وقوله: [من الطويل]

فلستُ بإنسي(١)

وسيأتي الكلام على ذلك إنْ شاء الله في قوله تعالى ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء]. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية، حمل أولاً على لفظ «مَن» فأفرد الضمير في «يستنكف» و«يستكبر»، ثم على المعنى في قوله «فسيحشرهم» والضمير عائد على معنى «مَن». هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يكون الضمير عاماً عائداً(٢) على الخلق لدلالة المعنى عليه، لأنَّ الحشر ليس مختصاً بالمستنكف، ولأن التفصيل بعده يدلّ عليه، ويكون ربط الجملة الواقعة جواباً لاسم الشرط بالعموم الذي فيها. ويحتمل أن يعود الضمير على معنى «مَن» ويكون قد حذف المعطوف عليه لمقابلته إياه، التقدير: فسيحشرهم ومن لم يستنكف إليه جميعا كقوله تعالى ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴿٨١﴾﴾ [النمل] أي والبرد. وعلى هذا الاحتمال [١٣٨/أ] يكون ما فُصّل بأمّا مطابقاً لما قبله، وعلى الوجه الأول لا تطابق. والإخبار بالحشر إليه وعيد إذ المعنيّ به الجمع يوم القيامة حيث يذل المستنكف والمستكبر.

﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجمهور على أن البرهان هو محمد ﷺ، وأطلق عليه «برهان» لما ظهر على يديه من الحجج والدلائل. والنور المبين هو القرآن.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ

---

(١) تقدم تخريج الشعر قبل قليل.

(٢) ق: عائد عاماً.

﴿أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ تقدم الكلام في الكلالة اشتقاقاً ومدلولاً. وقال جابر: هي آخر آية نزلت. و﴿فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ متعلق بـ«يفتيكم» وهو من إعمال الثاني، لأن «في الكلالة» يطلبها «يستفتونك» و«يفتيكم» فأعمل الثاني. وبعض عوامّ القرّاء يقف على قوله «يستفتونك» ويرى ذلك حسناً وهو لا يجوز، لأن جملتي الإعمال متشبثة[1] إحداهما بالأخرى، فلو قلت: ضربني، وسكتّ ثم قلت: وضربت زيداً، لم يَجُزْ إلاّ لانقطاع النَّفَسِ.

وقوله تعالى ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ تفسير لحكم الكلالة. و«ولد» يشمل الذكر والأنثى. وارتفع «امرؤ» على أنه فاعل بفعل محذوف يفسّره ما بعده. والجملة من قوله «ليس له ولد» في موضع الصفة لامرىءٍ، أي إن هلك امرؤ غير ذي ولد. وفيه دليل على جواز الفصل بين النعت والمنعوت بالجملة المفسّرة في باب الاشتغال فعلى هذا تقول: زيداً ضربته العاقل، على أن العاقل صفة لزيد، أجريت الجملة المفسّرة في هذا الباب مجرى الجملة الخبرية في قولك: زيد ضربته العاقل، فكما جاز الفصل بالخبر جاز بالمفسر.

ومنع الزمخشري أن يكون قوله «ليس له ولد» جملة حالية من الضمير في

(١) ق: منشئة.

«هلك» فقال[١]: ومحلّ «ليس[٢] له ولد» الرفع على الصفة لا النصب على الحال. وأجاز ذلك أبو البقاء فقال[٣]: «ليس له ولد» الجملة في موضع الحال من الضمير في «هلك»، «وله أخت» جملة حالية أيضاً. والذي يقتضيه النظر أن ذلك ممتنع وذلك أن المسند إليه حقيقةً إنما هو الاسم الظاهر المعمول للفعل المحذوف، فهو الذي ينبغي أن يكون التقييد له. أما الضمير فإنه في جملة مفسّرة لا موضع لها من الإعراب فصارت كالمؤكدة لما سبق، وإذا تجاذب الاتباع والتقييد مؤكّد ومؤكَّد فالحكم إنما هو للمؤكد إذ هو معتمد الإسناد الأصلي، فعلى هذا لو قلت: ضربت زيداً [ضربت زيداً] العاقل، انبغى[٤] أن يكون «العاقل» نعتاً لزيد في الجملة الأولى لا لزيد في الجملة الثانية لأنها جملة مؤكدة للجملة الأولى. والمقصود بالإسناد إنما هو الجملة الأولى لا الثانية. قيل: وثمّ محذوف للاختصار ودلالة الكلام عليه والتقدير: [ليس] له ولد ولا والد.

﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ المراد بها الشقيقة أو التي لأب دون التي لأمّ لأن الله فرض لها النصف وجعل أخاها عَصَبة وقال «للذكر مثل حظ الأنثيين»، وأما الأخت للأم فلها السّدس في آية المواريث مسوّى بينها وبين أخيها. والضمير في قوله «وهو» وفي «يرثها» يعود إلى ما تقدم لفظاً دون معنى وهو من باب: عندي درهم ونصفه، لأن الهالك لا يرث والحيّة لا تورث، ونظيره في القرآن ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴿١١﴾﴾ [فاطر]. وهذه الجملة مستقلة

(١) الكشاف ١: ٥٨٩.

(٢) كتبت في الحاشية.

(٣) إملاء ما منّ به الرحمن ١: ٢٠٥.

(٤) ق: انتفى.

لا موضع لها من الإعراب وهي دليل جواب الشرط الذي بعدها المحذوف.

﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ المراد به هنا الابن لأن الابن يسقط الأخ دون البنت.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ قالوا: الضمير في «كانتا» ضمير أختين دلّ على ذلك قوله «وله أخت»، فقد تقرر في علم العربية أن الخبر يفيد ما لا يفيده الاسم. وقد منع أبو علي وغيره: سَيِّدُ الجاريةِ مالكها، لأن الخبر أفاد ما أفاده [١٣٨/ب] المبتدأ. والألف في «كانتا» تفيد التثنية كما أفاده الخبر وهو قوله «اثنتين». وأجاب الأخفش وغيره بأن قوله «اثنتين» يدل على عدم التقييد بالصغر أو الكبر أو غيرهما من الأوصاف، واستحق الثلثان بالاثنينية مجردة عن القيود فلهذا كان مقيداً. وهذا الذي قالوه ليس بشيء لأن الألف الضمير للاثنتين يدل أيضاً على مجرد الاثنينيّة من غير اعتبار قيد، فصار مدلول الألف ومدلول «اثنتين» سواء، وصار المعنى: فإن كانت الأختان اثنتين، ومعلوم أن الأختين اثنتان[١].

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: إلى من يرجع ضمير التثنية والجمع في قوله «فإن كانتا اثنتين، وإن كانوا إخوة»؟ قلت: أصله: فإن كان من يرث بالأخوّة اثنتين، وإن كان من يرث بالأخوّة ذكوراً وإناثاً. وإنما قيل: فإن كانتا وإن كانوا كما قيل: من كانت أمّك، فكما أنّث ضمير «مَنْ» لمكان تأنيث الخبر كذلك ثنّى وجمع ضمير من يرث في «كانتا» و«كانوا» لمكان تثنية[٣] الخبر وجمعه انتهى.

(١) ق: اثنتين.
(٢) الكشاف ١: ٥٨٩.
(٣) ق: تأنيث.

وهو تابع في هذا التخريج غيره وهو تخريجٌ لا يصحُّ وليس نظير: من كانت أمك، لأنّ «مَن» صرّح بها ولها لفظ ومعنى فمن أنّث راعى المعنى لأن التقدير: أية أمّ كانت أمك، ومدلول الخبر في هذا مخالف لمدلول الاسم بخلاف الآية فإن المدلولين واحد، ولم يؤنث في: مَن كانت أمك، لتأنيث الخبر إنما أنّث مراعاة لمعنى مَن إذ أراد بها مؤنثاً، ألا ترى أنك تقول: مَن قامت، فتؤنث مراعاة للمعنى إذا أردت السؤال عن مؤنث، ولا خبر هنا فيؤنث «قامت» لأجله.

والذي يظهر لي في تخريج الآية غير ما ذكروا وذلك وجهان: أحدهما أن الضمير في «كانتا» لا يعود على أختين إنما يعود على الوارثتين[1] ويكون ثَمّ صفة محذوفة لاثنتين، و«اثنتين» بصفته هو الخبر والتقدير: فإن كانت[2] الوارثتان اثنتين من الأخوات فلهما الثلثان مما ترك، فيفيد إذ ذاك الخبر ما لا يفيده الاسم، وحذف الصفة لفهم المعنى جائز.

والوجه الثاني أن يكون الضمير عائداً على الأختين كما ذكروا، ويكون خبر كان محذوفاً لدلالة المعنى عليه وإن كان حذفه قليلاً، ويكون «اثنتين» حالاً مؤكدة والتقدير: فإن كانت أختان له [أي للمرء الهالك، ويدل على حذف الخبر الذي هو «له»] قوله «وله أخت» فكأنه قيل: فإن كان أختان له. ونظيره أن تقول: إن كان لزيد أخ فحكمه كذا، وإن كانوا أخوان فحكمهما كذا، تريد: وإن كان أخوان له.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ﴾ الآية، يعني أنهم يحوزون المال على ما تقرر في إرث

(١) ق: الوارثين.

(٢) ق: كانتا.

الأولاد من أنه للذكر مثل حظ الأنثيين. والضمير في «كانوا» إنْ عاد على الإخوةِ فقد أفاد الخبر بالتفصيل المحتوي على الرجال والنساء ما لا يفيده الاسم، لأن الاسم ظاهر في الذكور. وإنْ عاد [على] الوارث فظهرت إفادة الخبر ما لا يفيد المبتدأ ظهوراً واضحاً. والمراد بقوله «إخوة» الإخوة والأخوات وغلّب حكم المذكر.

﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ مفعول من أجله. ومفعول «يبيّن» محذوف أي يبيّن لكم الحق. فقدّر البصري والمبرد وغيره: كراهة أن تضلّوا، وقدّر الكوفي وغيره: لئلاّ تضلّوا، وحذف [«لا»]، ومثله عندهم قول القطامي[1]: [من الوافر]

رأينا ما رأى البُصَراءُ مِنّا ... فـآلَيْنـا عليهـا أن تُبـاعـا

والظاهر أن المعنى: يبين الله لكم شأن[2] الكلالة كراهة أن تضلّوا فيها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [١٣٩/أ] يعلم مصالح العباد في المبدأ والمعاد وفيما كلّفهم به من الأحكام.

وهذه السورةُ مشتمل أوّلها على كمالِ تنزّه[3] الله تعالى وسعة قدرته، وآخرها مشتملٌ على بيانِ كمالِ العلم. وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والألوهية والجلال والعزة، وبهما يجب أن يكون العبد منقاداً للتكاليف.

[انتهى بعون الله الجزء الأول من تجزيء المحقق، ويليه إن شاء الله الجزء الثاني، وأوله تفسير سورة المائدة].

---

(١) ديوانه ص٤٠ مع بعض اختلاف.
(٢) غير مقروءة في ق.
(٣) ق: كمال بين به.

سورة المائدة

سورة المائدة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢ ﴾.

هذه السورةُ مدنيةٌ، نزلت مُنْصَرَفَ رسولِ الله ﷺ من الحُديبيةِ، ومنها ما نَزَلَ في حَجة الوَداع ومنها ما نزل عامَ الفتح. وكُلُّ ما نزلَ بعد الهجرةِ بالمدينة أو في سفرٍ أو بمكةَ فهو مَدَنيٌّ. ومناسبَةُ افتتاح هذه السُّورة لما قبلها هو أنه تعالى لَمَّا ذَكَرَ استفتاءَهم في الكَلاَلة وأفتاهُم فيها، ذكر أنه يُبيِّنُ لهم كراهةَ الضَّلالِ فبيَّنَ في هذه السورة أحكاماً كثيرة هي تفصيلٌ لذلك المُجْمَل.

﴿أَوْفُواْ﴾ يقال: وَفَى وأَوْفى ووفَّى. والعُقود جمع عَقْد وهو ما التزمَهُ الإنسانُ من مَطْلوبٍ شرعيٍّ. وهو عامٌّ يندرجُ تحته ما رَبَطَ الإنسانُ على نفسه أو مع صاحبٍ له مما يجوزُ شرعاً. وأصلُ العقود في الأجرام ثم تُوُسِّعَ فيه فَأُطْلِقَ في المعاني.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هذا تفصيل بعد عموم. وبهيمةُ الأنعام هي الأنعامُ نفسها أو ما يُشْبِهها من الوحشِ المباح أَكْلُه كالظَّبيِ والمَهَا وبقر

---

(١) مدنية وآياتها مئة وعشرون.

الوحش والأُيَّلِ والأرنبِ مما لا نابَ له.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا استثناءٌ من بهيمة الأنعام. و«ما يتلى عليكم» مُبْهَمٌ مُفَسَّرٌ بقوله «حرمت عليكم»[1]، وبما ثَبتَ في السُّنَّةِ تحريمُه. و«ما» في موضعِ نَصْبٍ لأنه استثناءٌ من موجب وهو قوله «أُحِلَّتْ». وموضع «ما» نصبٌ على الاستثناء ويجوزُ الرفعُ على الصفة لـ«بهيمة». قال ابن عطية: وأجاز بعضُ الكوفيين أنْ يكون في موضع رفعٍ على البدل وعلى أن تكون «إلا» عاطفة، وذلك لا يجوز عند البصريين إلا من نكرةٍ أو ما قاربها من أسماءِ الأجناس نحو قولك: جاء الرجالُ إلا زيد، كأنك قلت: غير زيدٍ انتهى.

وهذا الذي حكاه عن بعض الكوفيين من أنه في موضعِ رفعٍ على البدل لا يصحُّ البتَّةَ لأنَّ الذي قبله موجب، فكما [لا] يجوز: قام القومُ إلا زيد، على البدل، كذلك لا يجوز البدلُ في «إلا ما يتلى». وأما كون «إلا» عاطفة فهو شيءٌ ذهب إليه بعض الكوفيين كما ذكر ابن عطية. وقوله: وذلك لا يجوز عند البصريين، ظاهِرهُ الإشارةُ إلى وجهي الرفع البدل والعطف. وقوله: إلا من نكرة، هذا الاستثناءُ مُبْهم لا يدرى من أيِّ شيءٍ هو، وكلا وجهي الرفع لا يصلحُ أنْ يكونَ استثناءً منه، لأنَّ البدل من الموجب لا يجيزه أحدٌ علمناه لا بصريٌّ ولا كوفيٌّ. وأما العطفُ فلا يجيزه بصريٌّ البتّة وإنما الذي يجيزه البصريون أنْ يكون نعتاً لما قبله في مثل هذا التركيب، وشرط فيه بعضهم ما ذكر من أنه يكون المنعوت نكرة أو ما قاربها من أسماء الأجناس، [فلعل ابنَ عطية اختلطَ عليه البدلُ والنعتُ فلم يُفَرِّقْ بينهما في الحكم. ولو فرضنا تبعيةَ ما بعدَ إلَّا لما قبلها من الإعرابِ على طريقةِ البدل حيث يسوغ ذلك لم

(١) الآية ٣ التالية.

يشترط تنكير ما قبل إلاَّ ولا كونه مقارباً للنكرة من أسماء الاجناس] لأنَّ البدلَ والمُبْدَلَ منه يجوز اختلافهما بالتنكير والتعريف.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ اتفق الجمهور على نصب «غير» واتفق مَنْ وقفنا على كلامه من المعربين والمُفَسِّرين على أنه منصوبٌ على الحال، واختُلف في صاحب الحال فقال الأخفشُ: هو ضميرُ الفاعلِ في «أوفوا»، وقال الجمهور الزمخشري وابن عطية وغيرهما: هو الضميرُ المجرور [في «أحلت لكم»، وقال بعضهم: هو الفاعل المحذوف من «أُحِلَّت» المقام مقامه المفعول به وهو الله، وقال بعضهم: هو الضمير المجرور] [١٣٩/ب] في «عليكم». ونقل القرطبي[1] عن البصريين أن قوله «إلا ما يتلى عليكم» هو «استثناء من «بهيمة الأنعام» وهي المستثنى منها والتقدير: إلا ما يُتْلَى عليكم إلا الصيدَ وأنتم مُحْرِمُون، بخلاف قوله تعالى ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات] على ما يأتي بيانه، وهو قول مستثنى مما يليه من الاستثناء، قال: ولو كان كذلك لَوَجَبَ إباحة الصيد في الإحرام لأنه مُستثنىً من المحظور إذ كان «إلا ما يتلى عليكم» مستثنى من الإباحة. وهذا وجهٌ ساقطٌ فإذاً معناه: أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حرم إلا ما يتلى سوى الصيد». وقال ابن عطية: وقد خلط الناسُ في هذا الموضع في نصب «غير» وقَدَّروا تقديماتٍ[2] وتأخيرات وذلك كله غير مَرْضيٍّ لأنَّ الكلامَ على اطِّرادِه متمكن استثناء بعد استثناء انتهى كلامه. وهو أيضاً ممن[3] خلط على ما بيَّنْتُه. فأما قولُ الأخفشِ ففيه الفصلُ بين ذي الحال والحال بجملةٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٣٥-٣٦.

(٢) ق: تقديرات.

(٣) ق: مما.

اعتراضيةٍ بل هي منشئة أحكاماً وذلك لا يجوز. وفيه تقييدُ الأيفاءِ بالعقودِ بانتفاء إحلالِ الموفين الصيد وهم حُرم، وهم مأمورون بإيفاء العقود بغير قيدٍ، ويصير التقدير: أوفوا بالعقود في حالِ انتفاءِ[1] كونكم [مُحلِّينَ الصيد وأنتم حرم، فإذا لم توجد هذه الحال فلا توفوا بالعقود.

وأما قول الجمهور فهو مردودٌ من هذا الوجهِ الأخيرِ إذْ يصيرُ المعنى: أُحلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام في حالِ انتفاء كونكم تُحِلُّونَ الصيدَ وأنتم حُرم، وهم قد أُحلَّتْ لهم بهيمةُ الأنعام في هذه الحال وفي غيرها من الأحوال إذا أريد ببهيمة الأنعامِ الأنعام نفسها، وإنْ أُريدَ بها الظباء وبقر الوحش وحمره فيكون المعنى: وأُحِلَّ لكم هذه في حال انتفاء كونكم] تُحِلُّون الصيدَ وأنتم حُرم، وهذا تركيبٌ قلقٌ مُعقَّدٌ تَنَزَّه القرآنُ أنْ يأتي فيه مثل هذا، ولو أُريدَ بالآية هذا المعنى لجاء على أفصحِ تركيبٍ وأحسنِه.

وأما قولُ مَنْ جَعَله حالاً من الفاعل وقدّره: وأَحلَّ اللهُ لكم بهيمةَ الأنعام غير مُحلٍّ لكم الصيدَ وأنتم حُرم، قال كما تقول: أحللتُ لك[2] كذا غير مُبيحه لكَ يومَ الجمعة، فهو فاسدٌ لأنهم نَصُّوا على أنَّ الفاعلَ المحذوفَ في مثل هذا التركيب يصيرُ نَسْياً مَنْسِياً فلا يجوزُ وقوع الحال منه، لو قلت: أنزل المطر للناس مُجيباً لدعائهم، إذ الأصل: أنزلَ اللهُ المطرَ مُجيباً لدعائهم، لم يَجُزْ وخصوصاً على مذهب الكوفيين ومَنْ وافقهم من البصريين لأنَّ صيغةَ الفعل المبني للمفعول صيغةٌ وُضِعتْ أصلاً كما وضعت صيغته مبنياً للفاعل وليس مغيّرة [من صيغة] بنيت للفاعل، ولأنه يتقيَّدُ[3] إحلاله تعالى بهيمة

---

(١) ق: إيفاء.

(٢) ق: لكم.

(٣) ق: بتقييد.

الأنعام إذا أريد بها ثمانية الأزواج بحالِ انتفاءِ إحلالهِ الصيد وهم حُرم، وهو تعالى قد أَحلَّها في هذه الحال وفي غيرها.

وأما قول من جعله حالاً[1] من الضمير في «عليكم»، فالذي يُتْلى لا يتقيد بحال انتفاء إحلالهم الصيد وهم حُرم، بل هو يتلى عليهم في هذه الحال وفي غيرها. وأما ما نقله القرطبي عن البصريين فإنْ كان النقلُ صحيحاً فهو يَتَخَرَّجُ على ما سنوضحه إنْ شاء الله تعالى فنقول: إنما عرض الإشكال في الآية مِنْ جَعْلهم «غير محلّي الصيد» حالاً من المأمورين بإيفاء العقود أو من المحلَّل لهم أو من المُحَلِّلِ وهو الله أو من المَتْلُوِّ عليهم. وغَرَّهم في ذلك كونه كتب «محلّي» بالياء وقَدَّروه هم أنه اسم فاعل من أحلَّ وأنه مضاف إلى «الصيد» إضافة اسم الفاعل المتعدي إلى المفعول، وأنه جَمْعٌ حُذف منه النونُ للإضافةِ وأصله: غير مُحلِّين الصيد وأنتم حرم إلا في قول مَنْ جَعَله حالاً من الفاعل المحذوف فلا يُقدّر فيه حذف النون بل حذف التنوين. وإنما يزول الإشكالُ ويتضحُ المعنى بأنْ يكون قوله «محلِّي الصيد» من باب قولهم: حِسَان النساء، والمعنى: النساء الحسان، فكذلك[2] هذا أصله: غير الصَّيد المُحَلِّ، والمُحَلُّ [١٤٠/أ] صفةٌ للصيدِ لا للناسِ ولا للفاعلِ المحذوف. ووصفُ [الصيد] بأنه مُحَلٌّ على وجهين: أحدهما أنْ يكون معناهُ: دخلَ في الحِلِّ[3] كما تقول: أَحلَّ الرجلُ أي دخل في الحِلِّ، وأحرم: دخل في الحرم. والوجه الثاني أن يكون معناه: صار ذا حِلٍّ[4] أي

(١) ق: بدلاً.

(٢) ق: فلذلك.

(٣) ق: المحلّ.

(٤) ق: صار داخل.

حلالاً بتحليلِ الله، وذلك أنَّ الصيدَ على قسمين: حلالٌ وحرامٌ، ولا يختصُ الصيدُ في لغة العرب بالحلال؛ ألا ترَى إلى قول بعضهم: إنه ليصيدُ الأرانبَ حتى الثعالبَ؟ لكنه يختص به شرعاً. وقد تَجوَّزَت العربُ فأطلقتْ الصيدَ على ما لا يُوصَفُ بحلٍّ ولا حرمة نحو قول الشاعر[1]: [من البسيط]

ليثٌ بِعَثَّر يصطادُ الرجالَ إذا ... ما كذَّب الليث عن أقرانه صَدَقا

وعثّر: اسم موضع. وقال آخر[2]: [من الطويل]

وقد ذهبت سلمى بعقلكَ كُلّه ... فهل غير صيدٍ أحرزته حبائله

وقال آخر[3]: [من المتقارب]

وهِرٌّ تصيدُ قلوبَ الرجال ... وأفلتَ منها ابنُ عمروٍ حُجُرْ

ومجيء «أفْعَل» على الوجهين المذكورين كثير في لسان العرب؛ فمن مجيء أفعل لبلوغ المكان ودخوله قولهم: أَحْرَمَ الرجلُ وأَعْرَقَ وأَشْأَمَ وأَيْمَنَ وأَتْهَمَ وأنجدَ إذا بلغ هذه المواضعَ وحَلَّ بها. ومن مجيء أفعل بمعنى صار ذا كذا، قولهم: أعشبت الأرضُ وأَبْقلت وأغدَّ البعير وأَلْبَنَت الشاةُ وغيرها وأَجْرَت الكلبة[4] وأَصْرمَ النخلُ وأَتَلت[5] الناقةُ وأَحْصد[6] الزرع وأجرب

(١) البيت لزهير في ديوانه ص٥٤.

(٢) ق: لعقلك. و«أحرزته حبائله» غير مقروءتين. والبيت لطرفة بن العبد في ديوانه ص٧٦.

(٣) هو امرؤ القيس والبيت في ديوانه ص١٥٥. وهرّ: هي ابنة سلامة بن عَبْد.

(٤) ق: وأجريت المكلية.

(٥) أَتَلت الناقة: أي امتلأ بطنها.

(٦) ق: واخضر.

الرجل وأنجبت المرأة.

وإذا تقرر أنَّ الصيد يُوصف بكونه [مُحَلاًّ] باعتبار أحد الوجهين المذكورين من كونه بلغ الحِلَّ أو صار ذا حل[١]، اتضح كونه استثناء ثانياً ولا يكون استثناء من استثناء إذ لا يمكن ذلك لتناقض الحكم؛ لأنَّ المُسْتَثْنَى من المُحَلَّل محرمٌ والمستثنَى من المُحرَّم محلّلٌ، بل إذا كان المعنيُّ بقوله «بهيمة الأنعام» الأنعام أنفسها فيكون استثناء منقطعاً، وإنْ كان المراد الظباء وبقر الوحش وحُمره ونحوها فيكون استثناءً متصلاً على أحدِ تفسيري المحلّ استثنَى الصيد الذي بلغ الحِلَّ في حال كونهم مُحْرِمين.

فإن قلت: ما فائدة هذا الاستثناء بقيد بلوغ الحِلِّ والصيد الذي في الحَرَم لا يَحِلّ أيضاً؟ قلت: الصيدُ الذي في الحرم لا يحلُّ للمُحْرِم ولا لغيرِ المحرم، وإنما يحلُّ لغير المُحْرِم الصيدُ الذي في الحلّ، فنبَّه بأنه إذا كان الصيد الذي في الحلّ يحرم على المُحْرِم وإنْ كان حلالاً لغيره فأحرى أن حَرُمَ عليه الصيد الذي هو بالحَرَم. وعلى هذا[٢] التفسير يكون قوله «إلا ما يُتلى عليكم» - إنْ كان المُراد به ما جاء بعده من قوله «حُرِّمت عليكم» الآية - استثناء منقطعاً؛ إذ لا تختص المَيْتَةُ وما ذُكِرَ معها[٣] بالظباء وحُمُر الوحش وبقرِه ونحوه، فيصير: لكن ما يُتلى عليكم أي تحريمه فهو محرّم. وإنْ كان المراد ببهيمة الأنعامِ الأنعامَ والوحوش فيكون الاستثناءان راجعين إلى المجموع على التفصيل؛ فيرجع «إلا[٤] ما يتلى عليكم» إلى ثمانية الأزواج،

(١) ق: بلغ الحسل أو صار داخل.

(٢) ق: وهذا.

(٣) ق: معهما.

(٤) ق: إلى.

ويرجع «غير محلي[١] الصيد» إلى الوحوش إذ لا يمكن أن يكون الثاني استثناءً من الاستثناءِ الأول، وإذا لم يمكن ذلك وأمكن رجوعه إلى الأول بوجهٍ ما جازَ.

وقد نصّ النحويون على أنه إذا لم يمكن استثناء بعض المستثنيات من بعض، كانت كلها مستثنيات من الاسم الأول نحو قولك: قام القومُ إلا زيداً إلا عَمْراً[٢] إلا بكراً. فإن قلتَ: ما ذكرته من هذا التخريج الغريب، وهو أن يكون المُحلّ من صفة الصيد لا من صفةِ الناسِ ولا من صفةِ الفاعلِ المحذوف، يُعَكِّرُ عليه كونه كُتِبَ في رسم [١٤٠/ب] المصحف بالياء فَدَلَّ ذلك على أنه من صفات الناس، إذْ لو كان من صفة الصيد لم يُكتب بالياء، وكون القُرّاء وقفوا عليه بالياء يأبى ذلك أيضاً - قلتُ: لا يعكّر على هذا التخريج لأنهم كتبوا كثيراً رسم المصحف على ما يخالفُ النُّطْقَ نحو كَتْبهم «لا أذبحنه» و«لا أوضعوا» بألف بعد لام ألف، وكَتْبهم «بأييد» بياءين بعد الألف، وكتبهم «أولئك» بواو بعد الألف وتَنَقُّصهم منه ألفاً، وكَتْبهم «الصلحت» ونحوه بإسقاطِ ألفين، وهذا كثيرٌ في الرسم.

وأما وقفهم عليه بالياء فلا يجوز لأنه لا يوقف على المضاف دون المضاف إليه، وإنما قصدوا بذلك الاختبار[٣] أو ينقطع النَّفَس فوقفوا على الرسم كما وقفوا على «سندعُ» من قوله ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق] من غير واوٍ إتباعاً للرسم. على أنه يمكنُ توجيه كَتْبه بالياء والوقف عليه بها بأنه جاء ذلك على لغة الأَزْد يقفون على بزيد: بزيدي، بإبدال التنوين ياءً، فكتب «محلّي» بالياء على الوقف على هذه اللغة وهذا توجيه شذوذٍ رسميّ، ورسم

(١) ق: محلّ.
(٢) ق: عمرواً.
(٣) غير مقروءة في ق.

المصحف مما لا يُقاسُ عليه.

وقرأ ابن أبي عبلة «غيرُ» بالرفع، وأحسن ما يخرج عليه أنْ يكونَ صفةً لقوله «بهيمة الأنعام». ولا يلزم من الوصف بغير أنْ يكون ما بعدها مماثلاً للموصوف في الجنسية، ولا يضر الفصلُ بين النعتِ والمنعوتِ بالاستثناء. وخرَّج أيضاً على الصفة للضمير في «يتلى»، قال ابن عطية: لأن[1] «غير محلِّي الصيد» هو في المعنى بمنزلة: غير مستحلّ إذا كان صيداً انتهى. ولا يُحتاجُ إلى هذا التَّكَلُّفِ على تخريجنا «محلي الصيد».

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جملة حالية، و«حُرم» جمع حرام، ويقال: أحرمَ الرجلُ أي دخلَ في الإحرامِ بحجٍ أو عمرةٍ أو بهما فهو مُحْرِمٌ وحرام[2]. وأحرم الرجل دخل الحَرَمَ، قال الشاعر[3]: [من الطويل]

فقلتُ لها فِيئي إليكِ فإنني ... حرامٌ وإني بعد ذاكِ لبيب

أي مُلَبٍّ. ويحتمل الوجهين قوله «وأنتم حرم» إذ الصيدُ يحرم على مَنْ كان [في الحرم وعلى مَنْ كان] أحرمَ بحجٍ أو عمرةٍ وهو قول الفقهاء. وقال الزمخشري[4]: «وأنتم حرم» حال عن «محلّي الصيد» كأنه قيل: أَحْللنا لكم بعضَ الأنعام في حالِ امتناعكم عن الصيد وأنتم مُحْرِمُون لئلا نُحَرِّجَ عليكم انتهى.

وقد قَدَّمنا فسادَ هذا القول بأنَّ الأنعامَ مُباحةٌ مطلقاً لا بالتقييد بهذه الحال.

(١) ق: لأنه.

(٢) ق: فهو محرّم وأحرام.

(٣) نسب البيت في شروح السقط ٢: ١١٤٣ إلى المخبّل السعدي، وفي اللسان «لبب» إلى المضرّب بن كعب، وكذا في الاقتضاب ٣: ٤٣٤.

(٤) الكشاف ١: ٥٩١. وفي ق: لئلا يتحرج.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذه الجملةُ جاءت مُقَوِّيَةً لهذه الأحكامِ الشرعيةِ المخالفةِ لمعهودِ[1] أحكام العرب من الأمرِ بإيفاءِ العُقودِ وتحليلِ بهيمةِ الأنعام والاستثناء منها ما يُتلى تحريمه في الحلّ مطلقاً، والحرم إلا في الاضطرار، واستثناء الصيد في حالة الإحرام وتَضمَّنَ ذلك حِلَّهُ لغير المحرم، فهذه خمسةُ أحكامٍ ختمها بقوله «إن الله يحكم ما يريد» فموجبُ الحكمِ والتكليفِ هو إرادتُه لا اعتراضَ عليه ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه لا [ما] يقوله المعتزلةُ من مراعاةِ المصالح.

﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تقدم تفسيرها في البقرة[2]. والشعائرُ هي ما حَرَّمَ اللهُ مطلقاً سواء أكان في الإحرامِ أو غيره. و﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ مفرد حُلِّيَ بأل الجنسية فالمرادُ به عمومُ الأشهرِ الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. والمعنى: لا تُحِلُّوا بقتالٍ ولا غارةٍ ولا نهب. ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ لا خلاف أن الهدي ما أُهديَ من النَّعَمِ إلى بيتِ الله وقُصدت به القُربةُ، فأمرَ اللهُ أن لا يُستحلَّ ولا يُغار عليه. ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ قال الجمهور: هي ما كانوا في الجاهلية يَتقلَّدُون به من شجر الحرم ليأمنوا، فَنُهِيَ المؤمنون عن فِعْلِ الجاهلية وعن أخذِ القلائد من شجر الحرم. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ قرىء: آمِّي البيتِ الحرام بحذف النون بالإضافة. ويقال: أَممتُ الشيءَ أي [١٤١/أ] قَصَدْتُه، «ولا آمِّين» أي لا تُحِلُّوا مَنْع مَن قَصَد البيت الحرام لحجٍّ أو عمرة باستيفاء مناسكهما. وهذه المعاطيفُ الأربعة مُندرجةٌ في عموم قوله «لا تحلوا شعائر الله» فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم. و﴿يَبۡتَغُونَ﴾ جملة حالية. و﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ بكسرِ الراء وضَمِّها، وهو مصدر رَضِيَ رضىً ورضواناً.

---

(١) ق: لعهود.

(٢) انظر تفسير الآية ١٥٨.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ تقدم[١] شيئان: أحدهما تحريم الصيد للحُرم لقوله تعالى «غير محلي الصيد وأنتم حرم»، والثاني قوله في الجملة التي تأتي بعدها وهو قوله «ولا آمين البيت الحرام». فيرجع قوله تعالى «وإذا حللتم» للأول، وقوله «ولا يجرمنكم» للثاني، وهذا من أجلّ الفصاحة. ومعنى «وإذا حللتم» أي: من مناسك الحج.

﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ هو أمرُ إباحةٍ لا أمرُ وجوبٍ، لأنَّ الصيدَ كان قبل الحجِّ حلالاً فمُنع منه الحاج، فلما زال المانعُ رجع لأصله من الحِلّ. قرأ أبو واقد والجراح[٢] ونبيح والحسن بن عمران: فاصطادوا بكسر الفاء، قال الزمخشري[٣]: قيل هو بدل من كَسْرِ الهمزة عند الابتداء. وقال ابن عطية: هي قراءة مشكلة، ومن توجيهها أن يكون راعى كسر ألف الوصل إذا بدأتَ فقلتَ: اِصطادوا، فكسر الفاء مراعاة وتذكرة لكسرة[٤] ألف الوصل انتهى. وليس عندي كَسْراً مَحْضاً بل هو من باب الإمالة المحضة لتوهّم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في: فإذا، لوجود كسرة إذا.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يَحْملنّكُم، يقال: جرمني كذا على بُغْضِك أي حَمَلني. وقرىء: شنآن بفتح النون وسكونها وهو البُغْض، وفِعْله شَنِىء بكسر النون، وذكر له في البحر[٥] ثلاثة عشر مصدراً. وقال سيبويه: كل بناء كان من المصادر على فَعَلان بفتح العين لم يتعدَّ فِعْلُه إلا أن يشذ شيء كالشنآن[٦].

(١) ق: تقديره شيئان.

(٢) ق: والحرم.

(٣) الكشاف ١: ٥٩٢.

(٤) ق: وبدلوا الكسرة.

(٥) انظر ٣: ٤٢٢.

(٦) «يشذ شيء كالشنآن» غير مقروءة في ق. والعبارة في الكتاب ٤: ١٥، وهي منقولة =

وقرىء: أن [صدّوكم] بكسر الهمزة حرف شرط، وبفتحها على التعليل أي لأنْ صَدُّوكم.

وقوله ﴿أَن تَعۡتَدُواْ﴾ أي على الاعتداء أي لا يحملنّكم بغضهم على الاعتداء. ومن فَسَّر «لا يجرمنّكم» بمعنى لا يكسبنّكم[1] فهو يتعدى إلى اثنين: أحدهما ضمير الخطاب، والثاني قوله «أن تعتدوا» فالمعنى: لا يكسبنّكم البُغْضُ الاعتداءَ عليهم.

﴿عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ قال ابن عباس: البرّ ما أُمرتَ به والتقوى ما نُهيتَ عنه. ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ﴾ المعاصي. ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ التعدي في حدود الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تَقَدَّمَ الأمرُ بإيفاء العقود وتحليلٍ وتحريمٍ ونهيٍ عن أشياء فناسب أن يختتم بالأمر بالتقوى والإخبار بأنه تعالى شديد العقاب لمن أمره ولمن نهاه عن شيءٍ فما انتهى.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾﴾.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ﴾ تقدم الكلام على هذه الأربعة في سورة البقرة[2].

= بتصرف.

(١) ق: يلبسنكم. وكذا هي بعدُ.

(٢) انظر تفسير الآية ١٧٣.

﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي يُحبس نَفَسُهَا حتى تموتَ سواء أكان حبسه بحبلٍ أو بيدٍ أو غير ذلك.

الوقذ: ضَرْبُ الشيء حتى يَسْترخي ويشرف على الموت، وقيل: الموقوذةُ المضروبةُ بعصا أو حجرٍ لا حدَّ له فتموت بلا ذَكَاة، ويقال: وقَذَهُ النُّعاسُ: غَلَبه، ووقذه الحِلْم(١): سكَّنه.

التردّي(٢): السقوط في بئر والتهوّر من جبل، ويقال رَدِيَ وتردَّى أي هلك، ويقال: ما أدري أين ردي أي ذهب.

«النطيحة» هي التي ينطحها غيرها فتموت بالنطح، وهي فعيلة بمعنى مفعولة صفة جَرَتْ مجرى الأسماء فوليت العوامل ولذلك ثبتت فيها الهاء. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ استثناء راجع للأنواع الخمسة، فما وُجد منها به رَمَقٌ وذكِّيَ حَلَّ أَكْلُه، والتذكيةُ الذبح.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ النُّصب: جمع نصاب وهي حجارة منصوبة حول الكعبة، وكان أهلُ الجاهلية يذبحون عليها لآلهتهم ولها أيضاً، وتُلَطَّخُ بالدماء ويُوضع عليها اللحمُ قطعاً قطعاً ليأكل منه الناس.

﴿وَأَن [١٤١/ب] تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ الأزلام القداح واحدها زُلم وزَلم بضم الزاي وفتحها، وهي السِّهامُ، كان أحدهم إذا أراد سَفَراً أو غزواً أو تجارةً أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقِداحِ وهي مكتوبٌ على بعضها: نَهَاني ربي، وعلى بعضها: أمرني ربي، وبعضها غُفْلٌ. فإنْ خرج الآمرُ مضى لطَلِبته، وإن خرج الناهي أمسكَ، وإنْ خرج الغفل أعادَ الضرب.

---

(١) ق: الحكم.

(٢) ق: المتردي.

وذِكْر هذه المحرمات هو تفصيلٌ لما أجمل في عموم قوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ①﴾ [المائدة] وبهذا صار المستثنى منه والمستثنى معلومَيْن.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟﴾ هذا معطوف على ما قبله أي: وحَرَّمَ عليكم الاستقسامَ بالأزلامِ وهو طَلَبُ معرفة القِسْم وهو النصيب[1]، أو القَسْم وهو المصدر. وذُكِرَ مع المطاعم لأنهم كانوا يُوقِعُونَ الاستقسامَ عند البيت. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الظاهر أنه إشارةٌ إلى الاستقسام بالأزلام إذ[2] كان فيه استخراج شيء من المغيبات التي انفرد الله بعلمها.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ﴾ اليأسُ قَطْعُ الرجاء، يقال: يئس يَيأَسُ ويَيئِسُ، ويقال أيس وهو مقلوب من يئس، ودليلُ القلب تَخَلُّف الحكم عَمَّا ظاهِرُه أنه موجِبٌ له، ألا ترى أنهم لم يقلبوا ياءه ألفاً لتحركها وانفتاحِ ما قبلها، فلم يقولوا آسَ كما قالوا هاب. و«اليوم» الألف واللام فيه للعهدية وهو يوم عرفة، قاله مجاهد وابن زيد، وقيل: هو يومُ نزولها بعد العصر في حجة الوداع يوم الجمعة ورسول الله ﷺ في الموقفِ على ناقته وليس في الموقفِ مشركٌ، وقيل اليوم الذي دخل فيه الرسولُ مكةَ لثمانٍ بَقِينَ من شهرِ رمضان سنة تسعٍ، وقيل سنةَ ثمانٍ، ونادى مُنادِيه بالأمانِ لمن يلفظُ بشهادةِ الإسلامِ ولمن وضع السلاحَ ولمن أغلقَ بابه.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أعم من مشركي العرب وغيرهم. ومعنى ﴿مِن دِينِكُمْ﴾ من تغييره وتبديله إذ[3] كان في حجته تلك صلى الله عليه وسلم كملت شرائع

---

(١) ق: النصب.

(٢) ق: إذا.

(٣) ق: إذا.

الإسلام ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، أي في ظهورِ الإسلام وكمالِ الدين وسَعَةِ الأحوالِ وغير ذلك ممّا انتظمت هذه الملة الحنيفية إلى دخول الجنة والخلود فيها، وقيل بفتحِ مكة ودخولها آمنينَ ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأن لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان. وانتصب «ديناً» على الحال.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾ المَخْمصةُ المَجَاعة التي تخمص فيها البطون أي تضمر، وقال الأعشى[1]: [من الطويل]

تَبِيْتُون في المَشْتى مِلاءً بطونُكم   وجاراتكم غرثى يَبِتْنَ خمائصا

أي: فمن اضطر لأكلِ شيءٍ مما ذكر تحريمه في مجاعة فَأَكَلَ «غير متجانفٍ» أي مُتَلَبِّسٍ بمعصيةٍ ولا مائلٍ إليها فأكلَ فلا إثمَ عليه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ سببُ نزولها ما ثبت في صحيح أبي عبد الله الحاكم[2] بسنده إلى أبي رافع قال: أمرني رسولُ الله ﷺ بقتل الكلاب فقال الناسُ: يا رسولَ الله ما أُحِلَّ لنا من هذه الأمةِ التي أمرت بقتلها؟ فنزلت «يسألونك» الآية. ويحتمل أن تكون «ماذا» كلها استفهاماً والجملة خبر، ويحتمل أن تكون «ما» استفهاماً و«ذا» خبراً أي ما الذي أحلّ لهم والجملة من قوله «ماذا أحلّ لهم» في موضع نصب بيسألونكَ على إسقاط حرف

---

(١) ديوانه ص١٨٥.

(٢) المستدرك ٢: ٣١١.

الجر. والسؤال هنا معلّقٌ وليس فِعلاً قلبياً لكن لَمّا كان طريقاً إلى العلم أُجْرِيَ مجرى العلم فعلّق. ولمّا[1] كان «يسألونك» الفاعل فيه ضمير غائب قال «لهم» بضمير الغائب. ويجوز في الكلام: ماذا أُحِلَّ لنا، كما تقول: أقسم زيد لَيضربنَّ ولأضربنَّ. وضمير المتكلم يقتضي حكاية ما قالوا: كما أن «لأضربن» يقتضي حكاية [١٤٢/أ] الجملة المقسم عليها.

قال الزمخشري[2]: في السؤال معنى القول فلذلك وقع بعده «ماذا أحل لهم» كأنه قيل: يقولون [لك] ماذا أُحِلَّ لهم انتهى. لا يحتاج إلى ما ذكر لأنه من باب التعليق كقوله: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القلم] فالجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني ليسألونك. ونَصُّوا على أنَّ فعل السؤال يعلّق وإنْ لم يكن من أفعال القلوب لأنه سبب للعلم، فكما تعلّق العلم فكذلك[3] سببه.

و﴿ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ هنا المُسْتَلَذَّات. ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم ﴾ معطوف على «الطيبات» وهو على حذف مضاف تقديره: وأَكْل ما عَلَّمتم من مَصِيدَ الجوارح. و«الجوارح» الكواسر من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين، وسُمِّيت بذلك لأنها تجرحُ ما تَصيدُ غالباً أو لأنها تكسب؛ يقال: امرأة لا جارحَ لها أي لا كاسبَ، ومنه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام] أي ما كسبتم، ويقال: جرح واجترح بمعنى كسب.

﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ المُكَلِّبُ بالتشديد مُعَلِّمُ الكلاب ومُضْرِيها على الصيد،

---

(١) ق: لمّا.

(٢) الكشاف ١: ٥٩٤.

(٣) ق: فلذلك.

وبالتخفيف صاحب الكِلاب: اشتقاق هذه الحال من الكلب وإن كانت عامة في الجوارح على سبيل التغليب، لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلب فاشْتُقَّتْ من لفظِه لكثرةِ ذلك في جنسه، وقيل لأنَّ الغالبَ من صيدهم أنْ يكونَ بالكلاب، أو اشتقت من الكَلَب وهو الضراوة، ويقال: هو كَلِبٌ بكذا إذا كان ضارياً به، قال الزمخشري[١]: أو لأن السبع يُسمَّى كلباً، ومنه قوله عليه السلام[٢]: «اللهمّ سَلِّطْ عليه كلباً من كلابكَ» فأكله الأَسَدُ انتهى. لا يصح هذا الاشتقاق لأنَّ كونَ الأسد كلباً هو وصف[٣] فيه، والتكليبُ من صفة المعلم والجوارح هي سِباعٌ بنفسها وكلابٌ بنفسها لا بِجَعْلِ المعلم.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أنَّ تعليمكم إياهُنَّ ليس من قِبَلِ أنفُسِكم إنما هو من العلم الذي عَلَّمكم اللهُ وهو أنْ جعلَ لكم رَوِيَّةً وفكرة بحيث قبلتم العِلْمَ فكذلك الجوارحُ يصير لهم إدراكٌ ما وشعورٌ بحيث يقبلن الائتمارَ والانزجارَ. وفي قوله: «مما علمكم الله» إشعارٌ ودلالةٌ على فضلِ العلم وشرفه إذ ذكر ذلك في معرض الامتنان. ومفعول علّم و«تعلّمونهن» الثاني، محذوف تقديره: وما عَلَّمتموهُ طَلَبَ الصيدِ لكم لا لأنفسهنّ تعلمونهن ذلك. وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ صيدَ ما لم يعلّم حرامٌ أَكْلُهُ[٤] لأنَّ الله تعالى إنما أباح ذلك بشرطِ التعليم، والدليل على ذلك الخطاب في «عليكم» في قوله «فكلوا مما أمسكن عليكم» وغير المُعَلَّمِ إنما يمسكُ لنفسه. ومعنى «مما علمكم

(١) الكشاف ١: ٥٩٤.

(٢) المقصود بالقول عتبة بن أبي لهب بن عبد المطّلب وكنيته أبو واسع. ولحسّان بن ثابت في ديوانه ص٣١٨ أبيات يعيّر بها قوم عتبة بذلك، وانظر دلائل الأصبهاني ٢: ٤٥٤.

(٣) ق: وصفاً.

(٤) ق: وأكله.

الله» من الأدب الذي أدَّبكم به تعالى وهو اتباعُ أوامرِه واجتنابُ نواهيه، فإذا أُمِرَ وائتمرَ وزُجِرَ وانزجر فقد تعلّم مما علّمنا الله.

﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ظاهره أنه إذا أمسكَ على مرسله جاز الأكلُ سواءً أكَلَ الجارحُ أم لم يأكل. ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ أي على ما علّمتم من الجوارح، أي سَمُّوا عليه عند إرساله لقوله[1]: «إذا أرسلتَ كلبكَ وذكرتَ اسمَ اللهِ فَكُلْ»، والتسميةُ عند الإرسال هي[2] على الوجوبِ أو على الندب.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ الآية، لما تقدّم ذكر ما أحلَّ وحرّم من المطاعم أمر بالتقوى، فإنَّ التقوى بها يُمسكُ الإنسانُ عن الحرام. وعَلَّلَ الأمرَ بالتقوى بأنه تعالى سريعُ الحساب لِمَنْ خالفَ ما أمر به من تقواه، فهو وعيدٌ بيوم القيامة وأنَّ حسابه تعالى إياكم سريعٌ إتيانُه إذْ يومُ القيامة قريبٌ.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ كَرَّر إحلالَ الطيبات تأكيداً للجملة قبلها ولما يعطف عليها من قوله تعالى ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ[١٤٢/ب] ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو عام مخصوص خَصَّه الجمهورُ بذبائحهم سواء أَسَمُّوا اسمَ الله على الذبيحةِ أمْ لم يُسَمُّوا. وما كان حراماً على المسلم أكلُه وإنْ كان أهلُ الكتاب يأكلونه كالميتة والدم والخنزير فلا يجوزُ لنا أكلُه وإنْ كان ذلك من طعامهم. وذهبت

(١) صحيح مسلم ٣: ١٥٣٠، رواية عن عدي بن حاتم.

(٢) ق: أي هي.

الزيديةُ والإماميةُ إلى أنه لا يجوزُ أكلُ ذبائحهم، وأمّا ما كان ممّا هو طعامٌ لهم وليس من الذبائحِ كالخبزِ والفواكِه فلا خلافَ بين المسلمين في جوازِ أكله. وأهلُ الكتاب هم اليهود والنصارى المتأصِّلون في ذلك لا من تَهَوَّدَ وتَنَصَّرَ من العرب وغيرهم لأنهم لم يؤتوا الكتاب، ومن العلماء مَنْ أجرى هؤلاء مَجْرى الكتابيِّ الأصلي.

ومعنى ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي يحلُّ لكم أنْ تُطعموهم من طعامِكم. والظاهر أنَّ المجوسيَّ والصابىء لا يحلُّ لنا[١] أكل ذبيحتهم لأنهم ليسوا من أهلِ الكتاب. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وأحلَّ لكم نكاح المحصنات أي العفائف اللاتي لَسْنَ بزوانٍ.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي العفائف منهن. وظاهر هذه الآية جوازُ نِكاحِ الكتابيةِ ذمِّيةً كانت أو حربيّةً، وقد تزوّج عثمانُ رضي الله عنه نائلة بنت الفرافصة وكانت نصرانيةً، وتزوج طلحةُ يهوديةً من الشام. ومن العلماء مَنْ منع نكاح الكتابيّات واستدلَّ بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة] قال: وأيّ إشراكٍ أعظمُ ممن يقول: المسيحُ ابن الله وعزيرٌ ابن الله، تعالى الله عما يقولون، وتقدم الكلامُ على هذه المسألة مسبوقاً في البقرة[٢]. ومذهبُ الإماميةِ تحريم نكاح الكتابيات، والمسلمُ يجدُ بينه وبين الكافرةِ نُفرةً دينيّة وقد تَقْوى فتصير نفرةً طبيعية. وإنَّ شخصاً لا يؤمنُ بالله ويكذّب الرُّسُلَ وخصوصاً نبيّنا محمداً ﷺ لجديرٌ أنْ يُهْجَر ولا يُعاشَرَ ولا يُتَّخذَ فراشاً، بل لو كان مسلماً فاسقاً أو مبتدعاً وجَبَ هَجْرُه وترك معاشرته.

---

(١) ق: لها.

(٢) انظر تفسير آية البقرة السابقة.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مُهورهن. وانتزع العلماءُ من هذا أنه لا ينبغي أنْ يدخل بزوجته إلا بعد أنْ يبذلَ لها من المهر ما يَسْتحلُّها به، ومن جوَّزَ أنْ يدخل دون بذل ذلك رأى أنه بحكم الالتزام في حكم المؤتي. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ تقدم الكلام على شبهها في سورة النساء[1]. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بشرائع الإيمان. ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي إذا وافى على الكفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية، نزلت في قصة عائشة حين فقدت العقد بسببِ فَقْدِ الماء ومشروعيةِ التَّيَمُّم، وذلك في غزوةِ المُرَيْسيع. ومناسبةُ هذه الآية لما قَبْلَها أنه لما افتتح بالأمر بإيفاء العقود وذكر تحليلاً وتحريماً في المطعم والمنكح فاستقصى ذلك وكان المطعم آكد من المنكح فَقدَّمَهُ عليه، وكان النوعان من لَذَّاتِ الدنيا الجسمية ومهماتها للإنسان وهي معاملات دنيوية بين الناس بعضهم مع بعض - استطرد منها إلى المعاملات الأخروية التي هي بين العبد وربِّه تعالى. ومعنى «قمتم» أردتم القيامَ إلى الصلاة. وثَمّ محذوفٌ تقديره: مُحْدِثين لأنَّ مَنْ [كان على] طهارة الوضوء لا يجبُ عليه أن يتوضأ.

(١) انظر تفسير الآية ٢٤.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن، وهو ما واجه الناظر. والظاهر دخول البياض الذي بين الأذنين والخد في الوجه[١]، وأنَّ الأُذنين واللحية ليست داخلة في الوجه. والغسل إمرارُ الماءِ على العضو. ومذهبُ مالك أنَّ الدَّلْكَ داخلٌ في الغسل.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ[١٤٣/أ] إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ اليدُ في اللغة من أطرافِ الأصابعِ إلى المنكب، وقد غيّا الغسل إليها. واختلفوا في دخولها في الغسل فذهب الجمهور إلى وجوب دخولها، وذهب زُفَر وداود إلى أنَّه لا يجب، قال الزمخشري[٢]: «إلى» تُفيدُ معنى الغاية مطلقاً، ودخولها في الحكم وخروجها أمرٌ يدورُ مع الدليل، وقوله: «إلى المرافق» و«إلى الكعبين» لا دليلَ فيه على أحد الأمرين انتهى.

ذكر أصحابنا أنه إذا لم يقترن بما بعد «إلى» قرينةُ دخولٍ أو خروج فإنَّ في ذلك خلافاً، منهم من ذهب إلى أنه داخلٌ ومنهم مَنْ ذهب إلى أنه غيرُ داخلٍ وهو الصحيحُ وعليه أكثر المُحَقِّقين؛ وذلك أنه إذا اقترنت به قرينة فإنَّ الأكثرَ في كلامهم أن يكون غير داخلٍ، فإذا عَرِيَ من القرينةِ فيجب حَمْلُه على الأكثر، وأيضاً فإذا قلت: اشتريت المكان إلى الشجرة، فما بعد «إلى» هو الموضع الذي انتهى إليه المكان المُشْتَرى، فلا يمكن أن تكونَ الشجرةُ من المكانِ المشترى لأنَّ الشيء لا ينتهي ما بقيَ منه شيءٌ، إلا أن يُتجوز فيُجعل ما قرب من الانتهاء انتهاء. وإذا لم يتصور أن يكون داخلاً إلا بمجاز وجب أنْ يُحملَ على أنه غير داخل لأنه لا يُحمل على المجاز ما أمكنت الحقيقة إلا أنْ يكونَ ثَمَّ قرينة مُرَجِّحةٌ للمجاز على الحقيقة. وقول الزمخشري عند

---

(١) ق: داخل في الوجه.

(٢) الكشاف ١: ٥٩٦.

انتفاءِ قرينةِ الدخولِ أو الخروج لا دليلَ فيه على أحدِ الأمرين فمخالفٌ لنقلِ أصحابنا إذْ ذكروا أنَّ النحويين على مذهبين أحدهما الدخول والآخر الخروج وهو الذي صَحَّحوه. وعلى ما ذكره الزمخشري يتوقف ويكون من المجمل حتى يَتَّضح ما يحمل عليه من خارج عن الكلام. وعلى ما ذكر أصحابنا يكون من المُبيَّن فلا يتوقف على شيء من خارج في بيانه.

قال ابن عطية: تحريرُ العبارة في هذا المعنى أن يقال: إذا كان ما بعد «إلى» ليس مما قبلها فالحدُّ أوَّلُ المذكورِ بعدها، وإذا كان ما بعدها من جملة ما قَبْلَها فالاحتياطُ أنَّ الحدَّ آخر المذكور بعدها، ولذلك يترجَّحُ دخولُ المرفقين في الغسل، والروايتان محفوظتان عن مالك، وروى أشهب عنه أنهما غير داخلين، وروى غيره أنهما داخلان انتهى. هذا التقسيم ذكره عبد الدائم القيرواني فقال: إنْ لم يكن ما بعدها من جنس ما قبلها لم يدخل، وإنْ كان فيحتمل أن يدخل ويحتمل ألاَّ يدخل والأظهر ألاّ يدخل انتهى. ومذهب أبي العباس أنه[1] إذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها دخل في الحكم.

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ هذا أمْرٌ بالمسح بالرأس، واختلفوا في مدلولِ باءِ الجَرِّ هنا فقيل إنها للإلْصاقِ وهو مذهبُ سيبويه وهذا الذي نختاره، قال الزمخشريُّ[2]: المـرادُ إلصاقُ المسحِ بالرأسِ ومَاسِحُ بَعْضِه ومستوعبه بالمسح كِلاَهُما ملصقٌ للمسح برأسه انتهى. وليس كما ذكر: ليس ماسِحُ بعضه يُطلق عليه أنه ملصق المسح برأسه حقيقة وإنما يُطلق عليه ذلك على سبيلِ المجاز وتسمية لبعضٍ بكلٍّ. وقيل: الباء للتبعيض، وكونها للتبعيض يُنْكِرهُ أكثرُ النحاة. وقيل: الباء زائدة مؤكدة مثلها في قوله

(١) ق: إلى أنه.

(٢) الكشاف ١: ٥٩٧.

تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج] أي إلحاداً. وحكى سيبويه في كتابه[1]: خشنت صدره وبصدره ومسحت رأسه وبرأسه في معنى واحد. وهذا نصٌّ في المسألة.

وعلى هذه المفهومات ظهر الاختلافُ بين العلماء في مسح الرأس: فمشهورُ مذهبِ مالك وجوبُ التعميم، والمشهور من مذهب الشافعي وجوبُ أدنى ما ينطلقُ عليه اسمُ المسح، ومشهور مذهب أبي حنيفة ربعُ الرأس، وقال الثوري: إذا مَسحَ شعرةً واحدة أَجْزأهُ.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قرىء بالجر [١٤٣/ب] عطفاً على «برؤوسكم» وقرىء بالنصب عطفاً على موضع «برؤوسكم» فاقتضى ظاهر ذلك مسح الرجلين. ومذهب الجمهور إلى أنَّ فَرْضَ الرجلين الغسل لا المسح وذلك هو الثابتُ عن رسول الله ﷺ في الأحاديث التي قاربت التواترَ من أنه كان يغسلُ رجليه في الوضوء. وذهبت الإماميةُ إلى أنَّ فَرْضهما المسح لا الغسل، وذهب الحسن ومحمد بن جرير الطبري إلى [أن] المتوضِّىءَ مُخَيَّرٌ بين غسل رجليه وبين مسحهما إذ قد ثبت غسلهما بالسُّنَّةِ ومسحهما بالقرآن، فأي شيء فعل منهما جاز. وذهب داود إلى أنه يجب الجمعُ بين غسل الرجلين ومسحهما.

ومَنْ ذهب إلى أن قراءة النصب في قوله «وأرجلكم» هو عطف على قوله «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم» وفصل بينهما بهذه[2] الجملة التي هي قوله: «وامسحوا برؤوسكم» فقوله بعيد، لأن فيه الفصل بين المتعاطفين بجملة إنشائية، وقراءة «وأرجلكم» بالجر تأبى ذلك. وغيّا مسح الرجلين بالانتهاء

(١) لم أجده بنصّه، وانظر في معناه الكتاب ١: ٩٢ و٢: ١٧٥.

(٢) ق: هذه.

إلى الكعبين؛ فَعَنْ مالكٍ أنَّ الكعبين[١] العظمانِ الملتصقانِ للساق المحاذيان للعقب. وقالت الإماميةُ وكُلُّ مَنْ ذهب إلى وجوب المسح: الكعب الذي هو وجه القدم فيكون المسح مُغَيًّا به.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾ لمّا ذكر تعالى الطهارة الصغرى ذكر الطهارة الكبرى. وتقدم مدلولُ الجُنب في قوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ﴿٤٣﴾﴾ [النساء]. والظاهر أنَّ الجُنب مأمورٌ بالاغتسال، وقال عمر وابنُ مسعود: لا يتيممُ الجُنبُ البتةَ بل يَدَعُ الصلاةَ حتى يجدَ الماء، والجمهورُ على خلاف ذلك وأنه يتيمّم، وقد رجعا إلى ما عليه الجمهور. والظاهر أنَّ الغُسلَ والمسحَ والتطهيرَ إنما يكونُ بالماء لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ أي للوضوء والغسل «فتيمموا صعيداً طيباً» فَدَلَّ [على] أنه لا واسطةَ بين الماء والصعيد وهو قولُ الجمهور. وذهب الأوزاعيُّ والأصَمُّ إلى أنه يجوز الوضوء والغسل بجميع المائعات الطاهرة.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة الشرطية وجوابها في النساء[٢]، إلا أنَّ في هذه الجملة زيادة «منه» وهي مرادةٌ في تلك التي في النساء. وفي لفظة «منه» دلالةٌ على إيصالِ شيءٍ من الصعيد إلى الوجه واليدين، فلا يجوزُ التيمم بما لا يعلق[٣] باليدين كالحجر والخشب والرمل العاري عن أنْ يعلقَ شيءٌ منه باليد فيصل إلى الوجه، وهذا مذهبُ الشافعي. وقال أبو حنيفة ومالك: إذا ضربَ الأرضَ[٤] ولم يعلق بيده شيءٌ من الغبار

---

(١) ق: أنهما الكعبان.

(٢) انظر تفسير الآية السابقة.

(٣) ق: يليق.

(٤) ق: ضرب اليد.

ومَسَحَ به أجزأه. وظاهرُ الأمر بالتيمم للصعيد والأمر بالمسح أنه لو يمّمه غيره أو وقف[١] في مَهبِّ ريح فَسَفَتْ على وجهه ويديه التراب وأَمَرَّ يده عليه أو لم يُمِرَّ، أو ضرب ثوباً وارتفع منهُ غبار إلى [وجهه] ويديه - إن ذلك لا يُجزئه، وفي كُلٍّ من المسائلِ الثلاثِ خلافٌ.

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي من تَضْييقٍ، بل رَخَّصَ لكم في تيمُّمِ الصعيد عند فَقْدِ الماء. وتقدم الكلامُ على مثل اللام في «ليجعل» في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء] فأغنى عن إعادته[٢]. والذي يقتضيه النَّظَرُ أنه كثر في لسان العرب تعدّي لفظ الإرادة والأمر إلى معمول باللام كهذا المكان [و]كقوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام][٣] وفي قول الشاعر[٤]: [من الطويل]

أُريدُ لأنسى ذِكْرَهَا فكأنما … تَمَثَّلُ لي ليلى بكلِّ طريقِ

فهذه اللام يجوز أن تأتي «أن» بعدها، وأنْ يُكتفى بها دون «أن»، وأن يؤتى بأن وحدها كقوله [١٤٤/أ] تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [غافر]. وتأويل من جعل: يريد وأُمرتُ لِأُسْلِمَ، على تأويلِ المصدر بغير حرف شامل[٥] فيقدّر: إرادتي ليجعل وأمري لأسلم، فيكون مبتدأ في التقدير والخبر في «ليجعل» وفي «لأسلم» تقديره: إرادتي كائنة للجعل، وأمري كائن

(١) ق: ووقف.
(٢) ق: عيادته.
(٣) وفي ق: «وأمرت أن أسلم» ولا مكان للاستشهاد بها هنا.
(٤) البيت لكثيّر عزّة في ديوانه ص١٠٨. وقافيته: بكل سبيل. وفي ق: ذكر فكأنها يمثل.
(٥) ط: سابك.

للإسلام - فهو تأويل متكلف.

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا
وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ
قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ
ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ
أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١ ﴾.

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الآية، والخطابُ للمؤمنين والنعمة هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة. والميثاقُ هو ما أخذه الرسولُ ﷺ عليهم في بيعةِ العقبة وبيعة الرضوان وكل موطن، قاله ابن عباس.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ تَقَدَّمَ تفسيرُ مثل الجملة الأولى في النساء[1]، إلا أن هناك بُدِىء «بالقسط» وهنا أُخِّرَ. وهذا من التوسُّعِ في الكلام والتَّفَنُّنِ في الفصاحة. ويلزم مَنْ كان قائماً لله أن يكون شاهداً بالقسط، ومَنْ كان قائماً بالقسط أن يكون قائماً لله. إلا أن التي في النساء جاءت في معرضِ الاعترافِ على نفسه وعلى الوالدين والأقربين فبدأ بالقسطِ الذي هو العدلُ والسواء من غير مُحاباةِ نفسٍ ولا والدٍ ولا قرابةٍ، وهنا جاءت في معرض تَرْكِ العداواتِ والإحَنِ فَبُدىء فيها بالقيامِ لله إذْ كان الأمرُ بالقيام

(١) الآية ١٣٥.

لله أولاً أردع للمؤمنين، ثم أردف بالشهادة بالعدل. فالتي[١] في معرض المحبة والمحاباة بُدئ فيها بما هو آكدُ وهو القسطُ، والتي في معرضِ العداوةِ والشنآنِ بُدئ فيها بالقيام لله، فناسب [كل] معرض ماجِيءَ به إليه.

وايضاً فتقدم هناك[٢] حديثُ النُّشُوز والإعراض وقوله: ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء] وقوله: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء][٣] فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخَّرَ ذِكْرُ العداوة فناسب أنْ يجاورها ذِكْرُ القسط. وتعديةُ «يَجْرِمنَّكم» بعلى هنا يدلُّ على أن معناه: يَحْملنَّكم، لأنَّ: يكسبنكم[٤] لا يتعدى بعلى إلا إنْ ضُمِّنَ معنى ما يتعدى بها وهو خلاف الأصل.

﴿ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ هو: ضميرٌ يعود على المصدر المفهوم من قوله «اعدلوا» كقولهم: مَنْ كذب كان شرًا له، ففي «كان» ضمير يفهم من قوله «كذب»، وكذلك هذا أي: العدلُ أقربُ للتقوى. نهاهم أولاً أنْ تَحملهم الضغائنُ على تركِ العدلِ ثم أمرهم ثانياً[٥] به تأكيداً ثم استأنفَ فذكر لهم وجهَ الأمرِ بالعدلِ وهو قوله: «هو أقرب للتقوى» أي أَدخلُ في مناسبتها أو أقرب لكونه لطفاً فيها. وفي الآية تنبيهٌ على مراعاةِ حَقِّ المؤمنين بالعدلِ، إذ كان تعالى قد أمر بالعدل مع الكافرين.

---

(١) ق: فأتى.

(٢) ق: هنا.

(٣) وفي ق: يصالحا.

(٤) ق: يلبسكم.

(٥) ق: بإتيانه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لما كان الشنآنُ محلُّه[1] القلبُ وهو الحاملُ على تركِ العدل أمر بالتقوى وأتى بصفة «خبير» ومعناها عليم ولكنها تختص بما لطفَ إدراكُه فناسب هذه الصفة أن ينبّه بها على الصفة القلبية.

لما نادى المؤمنينَ وأمرهم بالقيامِ لله والشهادةِ بالقسطِ ذكر موعدهم بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية. و«وعد» تَعدَّى لاثنين والثاني محذوف تقديره: الجنة، وقد صَرَّحَ بها في غير هذا الموضع[2]. والجملة من قوله ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ مفسرةٌ لذلك المحذوف تفسيرَ السببِ للمسبب؛ لأنَّ الجنةَ مترتِّبةٌ على الغفران وحُصولِ الأجر. وإذا كانت الجملةُ مفسِّرة فلا موضعَ لها من الإعراب والكلام قبلها تام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، لَمَّا ذَكَرَ ما لِمَنْ آمنَ ذَكَرَ ما لمن كفر. وفي المؤمنين جاءت الجملةُ فعليةً متضمنةً الوعدَ بالماضي الذي هو دليلٌ على الوقوع، فأنفُسهم متشوقةٌ لما وُعِدُوا به، متشوّفةٌ إليه مبتهجةٌ طول الحياة [١٤٤/ب] بهذا الوعد الصادق. وفي الكافرين جاءت الجملةُ اسميةً دالَّةً على ثبوتِ هذا الحكم لهم وأنهم أصحابُ النار فهم دائمونَ في عذاب إذ حتم لهم أنهم أصحاب الجحيم، ولم يأتِ بصورةِ الوعيدِ فكان يكون الرجاء لهم في ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ﴾ الآية، عن ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت من أجلِ كفارِ قريش، وقد تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ

---

(١) ق: محلّ.

(٢) في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [التوبة].

شَنَئَانُ قَوْمٍ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ
نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ
وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ
سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا
مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ
نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ
ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها أنه [لمّا] أمَرَ بذكر الميثاقِ الذي أخذه تعالى على المؤمنينَ في قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴿٧﴾﴾ [المائدة] ثم ذكر وَعْدَهُ إياهم، ثم أمرهم بذكرِ نِعْمتهِ عليهم إذ كَفَّ أيدي الكفَّارِ عنهم - ذَكَّرهم بقصة بني إسرائيل في أخذِ الميثاقِ عليهم ووعده لهم بتكفيرِ السيئات وإدخالهم الجنة فَنقضُوا الميثاقَ.

و﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قيل هُم الملوكُ وقيل: ما وفى منهم بالميثاق إلا

خمسة: داودُ وابنُه سليمان وطالوتُ وحرصا[١] وابنه، وكَفَر السبعةُ وبَدَّلُوا وقتلوا الأنبياء. وخرج خلال الإثني عشر اثنان وثلاثون جباراً كلهم يأخذ الملك بالسيف ويعبث فيهم. ورتَّبَ تعالى على إقامةِ الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وتعظيمهم وإقراض الله تعالى قرضاً حسناً - تكفيرَ سَيِّئاتهم وإدخالهم جنَّات. وقدّم قبل هذا أنه تعالى معهم بالكلاءةِ والحِفْظِ، قال الزمخشري[٢]: وهذا الجواب - يعني «لَأُكَفِّرَنَّ» - سادٌّ مَسَدَّ القَسَم والشرطِ جميعاً انتهى. [ليس] كما ذكر، لا يسدُّ «لأكفرنّ» مَسَدَّهما بل هو جوابُ القَسَم فقط، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ. ولما علم تعالى أنه لا يَفِي بالميثاقِ بعضُهم قال تعالى «فمن كفر بعد ذلك منكم».

ورتَّبَ على نَقْضِهم[٣] الميثاقَ لَعْنَهم وجَعْلَ قلوبهم قاسية، ثم ذكر تحريفَهم لكلامِ الله ونِسْيانَهم حَظّاً مما ذُكِّرُوا به. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ الخطابُ لرسولِ الله ﷺ [أي هذه عادتهم] ودَيْدَنُهم معكَ وهو ما كان أسلافُهم [عليه] من خيانةِ الرُّسُلِ وقتلهم الأنبياء، فهم لا يزالون يُخَوِّفُونكَ وينكثونَ عُهودكَ ويُظاهرون عليكَ أعداءكَ ويهمُّون بالقتلِ وأنْ يَسمُّوكَ[٤]. و﴿خَآئِنَةٍ﴾ صفةٌ لمحذوفٍ تقديره: على نفوس خائنة. وقد يُرادُ بالخائنة المصدر جاء على فاعلة كأنه قال: تَطَّلعُ على خيانةٍ [منهم]، ثم استثنى بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كَمَنْ أسلمَ مثل عبد الله بن سلام وغيره. ثم أمر نبيَّهُ عليه السلام بالعفو عنهم

(١) ط: وحزقيل. وفي ضبط أسماء النقباء اختلافٌ كبير، انظر البحر ٣: ٤٤٤ والقرطبي ٦: ١١٣.

(٢) الكشاف ١: ٦٠٠.

(٣) ق: بعضهم.

(٤) «ينكثون» و«يسمّوك» غير مقروءتين في ق.

والصفح وأنَّ ذلك من الإحسانِ إليهم فقال: «إن الله يحب المحسنين».

ثم ذكر تعالى أَخْذَ الميثاقِ على النصارى، والميثاق المأخوذ عليهم هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ، إذْ كان ذِكْرُه[1] عليه السلام موجوداً في كتبهم كما قال تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]. قال الزمخشري[2]: [فإن قلت:] فَهَلَّا قيل: ومن النصارى؟ قلت: لأنهم إنما سَمُّوا أنفُسَهم بذلك ادعاءً لنُصرةِ الله وهم الذين قالوا [لعيسى]: نحن أنصارُ الله، ثم اختلفوا بَعْدُ نسطوريةً ويَعقوبيةً وملكيةً انتهى. قد تقدم في أول البقرة[3] أنه قيل: سُمُّوا نصارى لأنهم من قريةٍ بالشام تُسمَّى ناصرة. وقوله: وهم الذين قالوا لعيسى نحن أنصارُ الله، القائل لذلك هم الحواريون وهم عند الزمخشري كفارٌ وقد أوضح ذلك على زعمه في آخر هذه السورة[4]، وهم عندَ غيرِه مؤمنون، ولم يَخْتلفُوا هم إنما اختلف مَنْ جاء بعدهم ممن يَدَّعي تَبعيَّتهم.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ ظاهره أنه يعودُ على النصارى، وقيل: النصارى هم النسطورية واليعقوبية والملكية كُلُّ فرقةٍ تُعادي الأخرى. وقيل: الضمير عائدٌ على اليهود والنصارى، أي[5] بين اليهود والنصارى فإنهم أعداء يلعنُ بعضُهم بعضاً ويُكَفِّرُ بعضُهم بعضاً. ﴿وَسَوْفَ[١٤٥/أ] يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ بعذابِ الآخرة إذ مُوجِبُ ما صَنَعُوا إنما هو الخلودُ

---

(١) ق: ذكر.

(٢) الكشاف ١: ٦٠١.

(٣) لم يتقدم مثل ذلك.

(٤) انظر الكشاف ١: ٦٥٤.

(٥) ق: أن.

في النار.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الخطابُ لليهود والنصارى. و«رسولنا» هو محمد ﷺ. ﴿مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من صفة محمد ﷺ ومن رَجْمِ الزُّناةِ وغير ذلك. ﴿نُورٌ﴾ هو القرآن إذ هو مُزِيلٌ لظلماتِ الشرك والشك. ﴿مُبِينٌ﴾ واضحُ الدلالةِ موضح طرق الإسلام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ الآية، ذَكَرَ تعالى [أنَّ] من النصارى مَنْ قال إن المسيحَ هو اللهُ، ومنهم من قال هو ابنُ الله، ومنهم من قال هو ثالثُ ثلاثة. وتقدم أنهم ثلاثُ طوائف: ملكانية ويعقوبية ونسطورية، وكُلٌّ منهم يُكَفِّرُ بعضُهم بعضاً. ومِنْ بعضِ اعتقاداتِ النصارى استنبطَ مَنْ تَستَّرَ بالإسلام ظاهراً أو انتمى إلى الصوفيةِ حُلولَ الله تعالى في الصور الجميلة، ومَنْ ذهب من ملاحدتهم إلى القولِ بالاتحادِ والوحدة كالحلَّاج والسودي[1] وابن أحلى وابن عربي المقيم بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سَبْعِين

(١) في البحر ٣: ٤٤٩: الشوذي.

والتُّسْتَري[١] تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسية والصفَّار المقتول بغرناطة وابن لباج وابن الحسن المقيم - كان - بلورقة. ومِمَّنْ[٢] رأيناه يُرمى بهذا المذهبِ الملعونِ العفيف التلمساني وله في ذلك أشعارٌ كثيرة، وابن عياش[٣] المالقي الأسود الأقطع - المقيم - كان بدمشق، وعبدالواحد بن المؤخر المقيم كان بصعيد مصر، والأيْكي[٤] العجمي الذي كان يُولَّى المسجدَ بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر، وأبو[٥] يعقوب ابن مُبشّر تلميذ التستري المقيم كان بحارة زويلة بالقاهرة، والشريف عبد العزيز المَنُوفي وتلميذه عبد الغفار القوصي. وإنما سردتُ أسماءَ هؤلاء نُصْحاً لدين الله يعلم الله ذلك، وشَفقةً على ضُعفاء المسلمين، وليحذروا منهم [فهم] أشَرُّ من الفلاسفةِ الذين يُكَذِّبون الله ورسله ويقولون بِقِدَمِ العالم ويُنكرون البعثَ. وقد أُولع جَهَلَةُ مَنْ ينتمي للتصوف بتعظيمِ هؤلاء وادعائهم أنهم صفوةُ الله وأولياؤه. والرَّدُّ على النصارى والحُلولية والقائلين بالوحدة هو من عِلْمِ أصول الدين.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ﴾ الآية، هذا ردٌّ عليهم، والفاء في «فَمَنْ» للعطفِ على جملةٍ محذوفة تضمنت كَذِبَهم في مقالتهم، التقدير: قل كذبوا، أو قل: ليس كما قالوا فمن يملك. والمعنى مَنْ يمنع من قدرة الله وإرادته شيئاً أي لا أحد يمنعُ مما أراد اللهُ شيئاً، وهذا الاستفهامُ معناه النفي. و﴿إِنْ أَرَادَ﴾ شرطٌ جوابهُ محذوفٌ تقديره: فَعَلَ ذلك. ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عام معطوف

(١) ق: الششتري.

(٢) ق: ومن.

(٣) ق: عباس.

(٤) ق: والاملي.

(٥) ق: وأبي.

على ما قبله، وما قبله نَصٌّ على المسيحِ وأمِّه وقد اندرجا في العموم فصارا مذكورَيْن مرةً في النص ومرة في العموم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۚ﴾ والمسيحُ وأمه من جملة ما في الأرض فهما مَقهورانِ لله مملوكان له. وهذه الجملةُ مُؤكِّدةٌ لقوله «إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه» ودلالةٌ على أنه إنْ أرادَ فَعَلَ، لأنَّ مَنْ له ذلك المَلك يفعلُ في مُلْكِه ما يشاء. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي أن خَلْقه ليس مقصوراً على نوعٍ واحد بل ما تعلقت مشيئته بإيجاده أَوْجَدَهُ واخترعه، فقد يُوجِدُ شيئاً لا من ذَكَرٍ ولا أنثى كآدمَ عليه السلام وأوائل الأجناس المتولِّد بعضها من بعض، وقد يخلقُ من ذكرٍ وأنثى، وقد يخلق من أنثى لا من ذكر معها كالمسيح. وفي قوله «يخلق ما يشاء» إشارةٌ إلى أنَّ المسيح وأمه مخلوقان. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كثيراً ما يذكرُ القُدرةَ عقيبَ الاختراع وذكر الأشياء الغريبة.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية، ظاهر اللفظ أنَّ جميع اليهود والنصارى قالوا عن جميعهم ذلك [١٤٥/ب] وليس كذلك بل في الكلام لَفٌّ وإيجاز، والمعنى: وقالت كُلُّ فرقةٍ من اليهود والنصارى عن نفسها خاصة ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾، يدل على ذلك: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة] والبُنوَّةُ هنا بُنُوَّةُ الحنانِ والرأفة. و«أحباؤه» جَمْعُ حبيب فعيل بمعنى مفعول أي مَحْبُوبوه[1]، أُجريَ مَجرى فعيل من المضاعف الذي هو اسم الفاعل نحو لبيب وأَلِبَّاء. وقال ابن عباس: هم طائفةٌ من اليهود خَوَّفهم الرسولُ عِقابَ الله فقالوا: أَتُخَوِّفنَا بالله

---

(١) ق: محبوبه.

ونحن أبناءُ الله وأحباؤه. وبعد «قل» محذوفٌ تقديره: كَذَبتم في دَعْواكم فَلِمَ يعَذِّبكم بذنوبكم. ومَنْ كان محبوباً لله وابناً له بمعنى الرأفة لا يُعَذِّبه.

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أَضْرَبَ عن الاستدلالِ الأول من غير إبطالٍ له وانتقلَ إلى استدلالٍ ثانٍ من ثبوتِ كَوْنِهم بَشَراً من بعضِ مَنْ خَلَقَ فهم مُسَاوونَ لغيرهم في البشريةِ والحدوثِ، وهما يمنعان البنوّةَ فإنَّ القديمَ لا يلد بشراً والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوصفين البنوّة وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحبَّاءَ الله فبطل الوصفان اللذان ادَّعَوْهما.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شاملٌ لليهود والنصارى. ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ هو محمد ﷺ. ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ مفعولُه محذوفٌ تقديره: يُبينُ لكم شريعةَ الإسلام والدين. ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي على انقطاعٍ من الرُّسُلِ، إذْ لم يكن بين محمدٍ وعيسى عليهما السلام رسول على فترة. قال ابن عباس إنه كان بين ميلادِ عيسى والنبي عليهما السلام خمس مئةِ سنةٍ وتسع وستون سنة بُعث في أولها ثلاثة أنبياء وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٤﴾﴾ [يس] وهو شمعون وكان من الحواريين. وقال ابن الكَلْبيُّ مِثْلَ قول ابن عباس إلا أنه قال: بينهما أربعة أنبياء واحدٌ من العرب من بني عَبْس وهو خالد بن سنان الذي [قال] فيه النبيُّ ﷺ «ضَيَّعَهُ قومُه»(١). و﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ مفعول من أجله فقدَّره البصريون: كراهةَ أنْ تقولوا أو حذارَ أن تقولوا، وقَدَّره الفَرَّاء: لئلا تقولوا، وهو متعلقٌ بقوله ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾. و﴿مِن بَشِيرٍ﴾ مِنْ زائدةٌ وهو فاعل بقوله «ما جاءنا». ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ تكذيبٌ لهم وخصوصاً اليهود(٢).

(١) لا يصح، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١: ٢٩٨.

(٢) ق: وخصوص من اليهود.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ
أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟
مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟
عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ
وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ
فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ الآية، مناسبةُ هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بَيَّنَ تَمَرُّدَ أسلافِ اليهود على موسى وعصيانهم إياه مع تذكيرِهِ إياهم بنعمِ الله وتعداد ما هو العظيم منها، وأنَّ هؤلاء الذين هم بحضرة الرسولِ ﷺ هم جارون معكَ مَجْرى أسلافِهم مع موسى عليه السلام. وعَدَّدَ عليهم من نِعَمه[1] ثلاثاً: الأولى: جعل أنبياء فيهم وذلك أعظم الشرفِ إذْ هُم الوسائطُ بين الله وبين خَلْقِه والمُبلِّغونَ عن اللهِ شرائِعَهُ. الثانية: جعلهم ملوكاً، ظاهرهُ الامتنانُ عليهم بأنْ جعلهم ملوكاً أي جعل منهم ملوكاً، إذ الملكُ شرفٌ في الدنيا واستيلاء، فذكَّرهم بأنَّ منهم قادة الآخرة وقادة الدنيا. الثالثة: إيتاؤهم[2] ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمين، فَسَّرهُ ابنُ عباس بالمَنِّ والسلوى والحجر والغمام.

---

(١) ق: من بعد.

(٢) ق: إيتاؤه.

و﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ المُطَهَّرة وهي إيلياء المشتملة على بيت المقدس الآن، وقيل غير ذلك، وقال الفرزدق[1]: [من الطويل]

وبَيْتانِ بيتُ الله نحنُ نزورهُ وبيتٌ بأعلى إيلياء مُشرَّف

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ[2] «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا [١٤٦/أ] والمسجد الحرام والمسجد الأقصى». ومعنى ﴿كَتَبَ[3] ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قَسَمها لكم وسَمَّاها، وفي ذلك تنشيطٌ لهم وتقويةٌ إذْ أخبرهم بأنَّ الله كتبها لهم. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ أي لا تَنكصُوا على أعقابكم من خوفِ الجبابرةِ جُبناً وهلعاً.

﴿قَالُوا۟ [يَٰمُوسَىٰٓ] إِنَّ فِيهَا﴾ الظاهرُ أنَّ قومَهُ قالوا ذلك، وقيل النقباء، وقيل الأشراف المطّلعون على الأسرار. ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ قيل إنهم من الرومِ استولوا على الأرض المقدسة وكانوا شجعاناً وذوي قُوةٍ، وقيل من ولد العيص بن إسحاق. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ [هذا تصريحٌ بالامتناعِ التام من أن يقاتلوا الجبابرة ولذلك كان النفي بـ«لن». ومعنى «حتى يخرجوا منها»] بقتالِ غَيْرِنَا أو بسببٍ يُخرجهمُ اللهُ به فيخرجون.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ الآية، الأشهرُ عند المفسرين أنَّ الرجلين هما يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف وهو ابن أخت موسى، وكالب بن يوقنا خَتَنُ موسى على أخته مريم بنت عمران، وهما اللذان وفيا من النقباء الذين بعثهم موسى عليه السلام في كَشْفِ أحوالِ الجبابرة، فكتما ما اطَّلعا عليه من

(١) الديوان ٢: ٣٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٢: ١٠١٤ عن أبي هريرة. وفي ق: ثلاث.

(٣) ق: كتبها.

أحوالِ الجبابرة إلا عن موسى عليه السلام، وأفشى ذلك بقية النقباء في أسباطهم[(١)] فآلَ بهم ذلك إلى الخَورِ والجُبن بحيث امتنعوا من القتال.

ومعنى ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي من قتالِ الجبابرة. ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أي بالوُثوقِ بأنَّ الله كتب لهم الأرضَ المقدسة. ﴿ ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ والبابُ بابُ مدينة الجبَّارين، والمعنى أَقْدِمُوا على الجهادِ وكافحوا حتى تَدْخُلوا عليهم الباب، وهذا يدلُّ على أنَّ موسى كان قد أنزل محلّته قريباً من المدينة. ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ قالا ذلك ثِقةً بوعدِ الله في قوله ﴿ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة]، وقيل رجاءً لنصرِ الله رسله وغلب ذلك على ظنهم وما غُزيَ قومٌ في عقر دارهم إلا ذلُّوا. وإذا لم يكونوا حافظِي باب مدينتهم حتى دُخِلَ وهو الملزم فَلأَنَ لا يَحفظُوا ما وراءَ البابِ أولى.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ ﴾ لما رأيا بني إسرائيل قد عصوا الرسول ﷺ في الإقدام على الجهادِ مع وَعْدِ الله السابقِ لهم استرابا في إيمانهم وأَمَراهم بالتوكُّلِ على الله إذ هو الملجأُ والمَفْزعُ عند الشدائد، وعُلِّقَ ذلك بشرط الإيمان الذي استرابا في حصوله لبني إسرائيل. والفاء في قوله «فتوكلوا» جوابُ أمرٍ محذوف تقديرهُ: تَنَبَّهُوا فتوكَّلوا. و﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ متعلق بـ«توكلوا» كما قالت العرب: زيداً فاضربْ، تقديره: [تنبَّه] فاضربْ زيداً، وكثيراً يأتي معمول ما بعد الفاء متقدماً عليها.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ ﴾ لما كَرَّرَ عليهم أمْرَ القتالِ كَرَّرُوا الامتناعَ على سبيل التوكيد الموئس، وقَيَّدوا أولاً نفيَ الدخول بالظرف المختص بالاستقبال وحقيقته التأبيد، وقد يُطلَقُ على الزمانِ المتطاولِ وكأنهم أولاً نفوا الدخولَ

(١) ق: أنشاطهم.

طولَ الأبدِ، ثم رجعوا إلى تعليقِ ذلك بديمومةِ الجبارين فيها. و«ما» في قوله: ﴿مَّا دَامُوا۟﴾ مصدرية ظرفية تقديره: مُدَّةَ دوامِهم فيها، وأبدلوا زماناً مُقَيَّداً من زمانٍ هو ظاهرٌ في العموم في الزمان المستقبل فهو بدلُ بعضٍ من كُلٍّ. ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ ظاهرُ الذهابِ الانتقالُ، وهذا يدل على أنهم كانوا مُشَبِّهة ولذلك قال الحسن: هو كفرٌ منهم بالله تعالى ويدلُّ على ذلك عبادتُهم العجلَ واتخاذه إلهاً وكونهم حين مَرُّوا بقومٍ يعبدون البقرَ قالوا لموسى عليه السلام ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف]. ﴿وَرَبُّكَ﴾ معطوفٌ على الضمير المُسْتَكِنِّ في «اذهب» المُؤَكَّدِ بـ«أنتَ»، وتقدم الكلام على نظير هذا في قوله ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]. ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ هذا دليلٌ على أنهم خارت طِباعهم فلم يقدروا على النهوضِ معه للقتال، ولا على الرجوع من حيث جاؤوا، بل أقاموا حيثُ كانت المحاورةُ بين موسى وبينهم. وها من قوله «ها هنا» للتنبيه، وهنا ظرف [١٤٦/ب] مكان للقريب والعامل فيه «قاعدون».

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ﴾ لمَّا عصوا أمرَ الله وتَمَرَّدُوا على موسى وسمعَ منهم ما سمعَ من كلمةِ الكُفرِ وسوء الأدب مع الله ولم يَبْقَ معه مَنْ يثقُ به إلا هارون قال ذلك. وهذا من الكلام المنطوي صاحبه على الالتجاءِ إلى الله وشِدَّةِ اللِّياذِ به والشكوى إليه ورِقَّة القلبِ التي تستجلبُ الرحمةَ وتستنزلُ النُّصرة. ﴿وَأَخِى﴾ منصوب معطوف على «نفسي» ويعني به هارون عليهما السلام، وكأنه ما اعْتَدَّ بذينك الرَّجُلين المُؤْمِنَيْن، كما رُوي عن عليٍّ كَرَّمَ الله وجهه أنه خطب في مسجدِ الكوفة مُستنجداً على قتالِ أعدائه فلم يُجِبْهُ إلا رجلان، فقال: أين تَقعانِ مما أُريدُ؟. وأجاز الزمخشري وابن عطية أن يكون «وأخي» مرفوعاً معطوفاً على الضمير المُسْتكنِّ في «أملك»، وجازَ ذلك للفصلِ بينهما بالمفعول المحصور، ويَلْزَمُ من ذلك أنَّ موسى وهارون لا يملكان إلا نفس

موسى فقط، وليس المعنى على ذلك بل الظاهر أنَّ موسى عليه السلام يملكُ أمرَ نفسِه وأمرَ أخيه فقط. ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾ ظاهره أنه دعا بأن الله يفرق بينهما.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾: «قال» فيه ضمير يعود على الله تعالى. «فإنها» أي الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ أي محرّم دخولها وتمليكهم إياها. وانتصب ﴿أَرۡبَعِينَ﴾ على أنه ظرف زمان والعامل فيه «محرّمة». قيل: وحكمة هذا العدد أنهم عبدوا العجلَ أربعينَ يوماً فجعلَ لكل يومٍ سنةً، قيل إنَّ مَنْ كان جاوز عشرين سنة لم يعش إلى الخروج من التيه، وإنَّ مَنْ كان دون العشرين عاش وكأنه لم يعش المكلفون[1] العصاة.

﴿يَتِيهُونَ﴾ التِّيهُ في اللغة الحيرة، يقال منه: تَاه يَتِيهُ ويَتُوه وتَيَّهْتُه وتَوَّهته والياء أكثر[2]. والأرضُ التَّيهاء التي لا يُهْتدى فيها، وأرض تيه. والعامل في قوله «أربعينَ»: «يَتيهون»، قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون العامل في «أربعين» مُضْمَراً يدلُّ عليه «يتيهون» المتأخر انتهى. لا أدري ما الحاملُ له على قوله إنَّ العامل مُضمر كما ذكر، بل الذي جَوَّزَ الناس في ذلك هو أن يكون العامل فيه «يتيهون» نفسه لا مضمر يُفَسِّرُه.

قوله ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قال ابن عباس: تسعة فراسخ، وقال مقاتل: هذا عَرْضُها وطولها ثلاثون فرسخاً[3]. ورُوِيَ في كيفية تِيههم في هذه المدة أنهم كانوا يَرحلونَ بالليلِ ويسيرون ليلهم أجمع حتى إذا أصبحوا وجدوا جملتهم في الموضع الذي ابتدؤُوا منه، ويسيرون النهار جادِّينَ حتى إذا

(١) غير مقروءة في ق.
(٢) «تاه يتيه ويتوه وتيّهته وتوّهته والياء أكثر» غير مقروءة في ق.
(٣) عبارة ق: هذا طولها وعرضها ثلاث فرسخاً.

امْسَوْا إذا هم بحيث ارتحلوا عنه فيكون سَيْرُهُم تَحْليقاً. وقيل إنهم كانوا ست مئة ألف مقاتلين. قيل: والحكمةُ [في التيه] هو أنهم لما قالوا «إنا ها هنا قاعدون» عُوقِبُوا بالقُعودِ فصاروا في صورةِ القاعدينَ وهم سائرونَ كلما ساروا يوماً أمسوا في المكانِ الذي أصبحوا فيه. وكان هذا التِّيهُ خَرْقَ عادةٍ وعجباً من قُدرةِ الله تعالى حيث كانوا عقلاء ولم يهتدوا للخروجِ من التيه، ومات موسى وهارون عليهما السلام في التيه، فكان التيه لبني إسرائيل عقاباً ولهما رحمةً وراحةً وروحاً. ونَبَّأَ اللهُ تعالى بعد موتهما يوشعَ بن نون بعد كمالِ الأربعينَ سنة فَصدَّقَهُ بنو إسرئيل وأخبرهم بأنَّ الله أمره بقتالِ(١) الجبابرة فبايعوه وسار بهم إلى أريحا وقتل الجبَّارين وأخرجهم وصار(٢) الشامُ كله لبني إسرائيل. وفي تلك الحرب وقفت له الشمسُ ساعةً حتى استمر هَزْم الجبارين. ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أي فلا تحزن، يقال: أَسِيَ الرجلُ يَأْسَى أسىً إذا حزن، والظاهر أنه خطابٌ لموسى عليه السلام. ومعنى ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ على عذابهم وإهلاكهم.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ

(١) ق: بقاتل.

(٢) ق: وسار.

مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، هو خطابٌ للنبيِّ ﷺ، و«عليهم» أي على بقيةِ بني إسرائيلَ [١٤٧/أ] الذين عاصروه عليه السلام وهَمُّوا ببسطِ أيديهم وقالوا إنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وذَكَّرهُمْ موسى عليه السلام بنعم الله تعالى. ومناسبةُ هذه الآية لِمَا قَبْلَها أنه كان من آخرِ كلامِهم لموسى عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] وذلك لِجُبْنِهم وخور طباعِهم عن قتالِ الجبَّارين. وفي قصة ابْنَيْ آدمَ جسارةُ قابيلَ على قتلِ النفس التي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها، فتشابها من هذا الوجه فكان قابيلُ أولَ عاصٍ في هذه المعصية العظيمة وبنو إسرائيل أول مَنْ خاطب رسولهم بقوله ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]. والنبأ: الخبر، وابنا آدم هما قابيل وهابيل ابناه لِصُلْبِه. ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ إذْ: منصوب بقوله «نبأ» قال الزمخشري(١): ويجوزُ أنْ يكون بدلاً من النبأ أي: اتلُ عليهم النبأَ نبأَ ذلك الوقت على تقدير حذف المضاف انتهى. لا يجوز ما ذكر لأن «إذ» لا يُضافُ إليها إلا الزمانُ و«نبأ» ليس بزمان. والقربانُ الذي قَرَّباهُ هو زَرْعٌ لقابيلَ وكبشٌ لهابيل، وكانت علامة التَّقَبُّلِ أكلَ النار النازلةِ من السماء القربانَ وتَرْكَ غير المُتَقَبَّلِ.

قال الزمخشري(٢): يقال قَرَّبَ صدقةً وتَقرَّبَ بها، لأنَّ تَقرَّب مطاوع قَرَّب انتهى. ليس: تقرّب بصدقة مطاوع: قرّب صدقة، لاتحاد فاعل الفعلين،

(١) الكشاف ١: ٦٠٦.

(٢) الكشاف ١: ٦٠٦.

والمطاوعة مختلفٌ فيها الفاعل فيكون من أَحَدِهما فعلٌ ومن الآخرِ انفعالٌ نحو: كسرتُه فانكسرَ وفَلَقْتُه فانفلق، وليس قَرَّبتُ صدقةً وتقرَّبتُ بها من هذا الباب فهو غلطٌ فاحش.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ هو هابيل. ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل. ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد بالقتل لأخيه وأكَّدَهُ بالقَسَم المحذوفِ وتقديرُه: واللهِ لأَقْتُلَنَّكَ. ولَمَّا هَدَّده بالقتلِ عُلم أنه لم يكن مُتَّقياً لله تعالى لتهديده[1] بهذه المعصيةِ العظيمة، وكان ذلك حَسَداً له فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومَنْ لم يَرْضَ بفعلِ الله تعالى لم يكن مُتَّقياً له تعالى.

ثم قال له: ﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ الآية، فَبَيَّنَ التفاوت بينهما بأنك إنْ أردتَ قَتْلي فلم أُرِدْ قتلك. واللام في «لئن» هي الموطئةُ المُؤْذنةُ بقَسَمٍ محذوف وإنْ شرطية، وجوابُ القَسَم قوله ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ وجوابُ إنْ محذوفٌ لدلالةِ جوابِ القَسَمِ عليه. وذُكِرَ أنَّ الحاملَ له على أنه لا يريد قَتْلَهُ خَوْفُه من الله تعالى. قال الزمخشري[2]: فإنْ قلت: لِمَ جاء الشرطُ بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله: لئن بسطت ما أنا بباسط؟ قلت: لِيُفيدَ أنه لا يفعلُ ما يكتسبُ به هذا الوصفَ الشنيعَ ولذلك أكَّدَهُ بالباء المؤكِّدة للنفي انتهى.

وأوردَ أبو عبد الله الرازيُّ هذا السؤالَ والجوابَ ولم ينسبه[3] للزمخشري. وهو كلام فيه انتقادٌ وذلك أن قوله «ما أنا بباسط» ليس جزاءً للشرطِ بل هو جوابٌ للقسم المحذوف، ولو كان جواباً للشرط لكان بالفاء، فإنه إذا كان

(١) ق: لتهديه.
(٢) الكشاف ١: ٦٠٧.
(٣) ق: يتشبه.

جواب الشرط منفيًّا بما، فلا بُدَّ من الفاء إلا إنْ كانت الأداةُ ليست من الجَوازمِ في الكلام فلا يحتاج إذ ذاك [إلى] الفاء كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية]، والقاعدةُ النحويةُ أنه إذا اجتمع قَسَمٌ وشَرْطٌ كان الجوابُ للسابق منهما إذا لم يَتقدمهما ذو خبر.

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ الآية، المعنى: إنْ قَتَلْتَني وسبق بذلك قَدَرٌ فاختياري أنْ أكون مظلوماً ينتصرُ اللهُ لي في الآخرة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ وهو فَعَّل من الطوع وهو الانقيادُ، كأنَّ القتلَ كان ممتنعاً عليه متعاصياً، وأصله: طاعَ له قتلُ أخيه أي انقادَ له وسهل، ثم عُدِّيَ بالتضعيفِ فصار الفاعل مفعولاً. والمعنى [١٤٧/ب] أنَّ القتل في نفسه مُسْتَصْعَبٌ عظيمٌ على النفوس، فَرَدَّتْهُ هذه النفسُ اللَّحُوحُ الأَمَّارةُ بالسوء طائعاً مُنقاداً حتى أوقعه صاحب هذه النفس. وقُرِىءَ: فطاوعت، يكون «فاعَلَ» فيه للاشتراك نحو: ضَاربتُ زيداً.

قال الزمخشري[١]: فيه وجهان: أن يكون مِمَّا جاء على فاعَلَ بمعنى فعَّلَ، وأنْ يراد أنّ قتل أخيه كأنَّهُ دعا نفسه إلى الإقدامِ عليه فطاوعته ولم تَمتنعْ، و«له» لزيادة الربط كقولك: حفظتُ لزيدٍ مالَهُ انتهى. أما الوجهُ الثاني فهو موافقٌ لما ذكرناه، وأما الوجهُ الأول فقد ذكر سيبويه[٢]: ضاعفتُ وضَعَّفتُ مثل ناعمتُ ونَعَّمت وقال: فجاؤوا[٣] به على مثال عاقبته. قال: وقد تجيء فاعلت لا يُراد بها عمل اثنين ولكنهم بَنَوا عليه الفعلَ كما بنوه

(١) الكشاف ١: ٦٠٨. وفي ق: فطاوعه ولم يمتنع.
(٢) الكتاب ٤: ٦٨.
(٣) ق: في آدابه.

على أفعلت، وذكر أمثلةً منها: عافاه الله.

وهذا المعنى وهو أن فاعَلَ بمعنى فَعَّل أغفله بعضُ المُصَنِّفين من أصحابنا في التصريف كابنِ عصفور وابن مالك وناهيك بهما جمعاً واطِّلاعاً، فلم يذكرا أنَّ فاعَلَ يجيءُ بمعنى فعَّل ولا فعَّل يجيء بمعنى فاعَلَ. وقوله: و«له» لزيادة الربط، [يعني] في قوله: «فطوعت له»، يعني أنه لو جاء: فطوَّعت نفسه قتل أخيه، لكان كلاماً تامًّا جارياً على كلامِ العرب وإنما جِيءَ به على سبيلِ زيادةِ الربط للكلام إذِ الربطُ يحصلُ بدونه كما أنك لو قلت: حفظتُ مالَ زيدٍ كان كلاماً تاماً. ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ بمعنى صار.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ الآية، رُويَ أنه أول قتيلٍ قُتلَ على وجه الأرض، ولمّا قتله تركه[1] بالعَرَاءِ لا يدري ما يصنع به فخاف عليه السِّباعَ. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ الغرابُ معروفٌ ويُجْمَعُ في القِلَّة على أَغْرِبة وفي الكثرةِ على غربان، قيل: وهو مشتقٌّ من الاغترابِ، والعربُ تتشاءم به، قال الشاعر[2]:

[من الطويل]

جـرى بفـراقِ العـامـريّـةِ غـدوةً شواحِجُ[3] سودٌ ما تُعيد وما تُبدي

يعني الغربان. ظاهرُ الآية أن الله تعالى بعثَ غراباً يبحثُ في الأرض، فَرُويَ أنهما غرابان قَتَلَ أحدهما الآخرَ فحفرَ له بمنقارِه ورجليه حفرةً وألقاه فيها. والبحثُ في الأرض نَبْشُ التراب وإثارته. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ متعلقٌ بقوله «بعث». والمواراةُ السترُ، والضمير الفاعل في «ليريه» عائدٌ على الغراب، ويجوز أنْ يكون عائداً على المصدر المفهوم من قوله «يبحث» أي ليريه

(١) ق: ترك.

(٢) البيت في ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١: ٣٠٥، للعديل بن الفرخ العجلي.

(٣) ق: سواجح.

البحثَ. و﴿ كَيْفَ ﴾ منصوب بقوله «يواري» والجملة استفهامية في موضع مفعول ثانٍ لقوله «ليريه» بمعنى لِيُعَلِّمه. والسوأةُ العَوْرة.

﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ ﴾ الآية، استقصر إدراكَهُ وعقله في جهلِه ما يصنع بأخيه حتى تَعلَّم - وهو ذو العقلِ المركب فيه الفكر والرويَّة والتدبير - من طائرٍ لا يعقلُ. ومعنى هذا الاستفهام الإنكار على نفسِه والنفي، أي لا أعجزُ عن كوني مثلَ هذا الغرابِ، وفي ذلك هَضْمٌ لنفسه واستصغارٌ لها بقوله «مثل هذا الغراب».

وأصلُ النداء أنْ يكونَ لمن يعقل، ثم قد يُنادى ما لا يَعقل على سبيلِ المجاز كقولهم: يا عجبا ويا حسرتا، والمراد بذلك التعجب كأنه قال: انظروا لهذا العجب ولهذه الحسرة. والمعنى: تَنَبَّهُوا لهذه الهلكة وتأويله: هذا أوانك فاحضري. وقرأ الجمهور: يا ويلتا، بألفٍ هي منقلبة عن الياء كما [قالوا] في يا غلامي: يا غلاما. وقُرِىء: يا ويلتي، على أصل ياء المتكلم. وقرىء: أعجزت، بفتح الجيم وهي اللغة الفصيحة، وبكسرها وهي قراءة شاذة. والعجزُ عن الشيء انتفاءُ [١٤٨/ أ] القُدرةِ عليه.

و﴿ أَنْ أَكُونَ ﴾ تقديره: عن أنْ أكونَ، فحذف عن. و«أن أكون» هل هو في موضعِ نَصْبٍ أو في موضعِ جَرٍّ فيه خلافٌ. ﴿ فَأُوَارِيَ ﴾ معطوف على قوله «أن أكون»، فالعجز مُتسلِّطٌ على الكونِ وعلى المواراةِ. قرأ طلحة بن مصرف والعياض بن عروان: فأواريْ بسكون الياء، فالأولى أن يكون على القطع أي فأنا أواري [سوأة أخي، فيكون «أواري» مرفوعاً. وقال الزمخشري[١]: وقُرِىء بالسكون على: فأنا أواري]، أو على التسكينِ في

(١) الكشاف ١ : ٦٠٨.

موضعِ النصبِ للتخفيفِ انتهى. يعني أنه حذف الحركة وهي الفتحة تخفيفاً استثقلها على حرف العِلّة. قال ابن عطية: «هي لغةٌ لتوالي الحركات».

لا ينبغي أن يُخرج على النصب لأن نصب مثل هذا هو بظهور الفتحة، ولا تُستثقلُ الفتحةُ فتحذف تخفيفاً كما أشار إليه الزمخشري، ولا ذلك لغةٌ كما زعم ابنُ عطية، ولا يصلحُ التعليلُ بتوالي الحركات فيه. وهذا عند النحويين - أعني النصب بحذف الفتحة - لا يجوزُ إلا في الضرورة فلا تُحملُ القراءةُ عليها إذا وُجد حَمْلُها على معنى صحيح وقد وُجد وهو الاستئنافُ أي: فأنا أواري. وقال الزمخشري[1]: «فأواري» بالنصب على جواب الاستفهام انتهى. وهذا خطأٌ فاحشٌ لأنَّ الفاء الواقعة جواباً [للاستفهام] تنعقد من الجملة الاستفهامية والجواب شرط وجزاء، وهنا لا تنعقد تقول: أتزرني فأكرمك، فالمعنى: إنْ تَزُرْني أُكرمْك[2]. ولو قلت هنا: إن أعجز أن أكون مثل هذا الغراب أُوارِ سوأةَ أخي - لم يصحَّ، لأنَّ المواراةَ لا تترتب على عجزه عن كونه مثل الغراب.

﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ قبل هذا[3] جملة محذوفة تقديرها: فوارى سوأةَ أخيه. والظاهر أنَّ نَدَمَهُ كان على قتلِ أخيه لما لَحِقَهُ من عصيانِ رَبِّه وإسخاطِ أبويه وتبشيرِه أنه من أصحابِ النار. وهذا يدل على أنه كان عاصياً لا كافراً.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ متعلق بقوله «كتبنا». ويقال أُجل وإِجل ومعناه: من

(١) الكشاف ١ : ٦٠٨.

(٢) ق: أتزورني أكرمك.

(٣) ق: قيل هنا.

سببِ ذلك القتل كتبنا على بني إسرائيل، يقال: فعلتُ هذا من أجلك أي بسببك، وقيل: يتعلق «من أجل» بقوله «من النادمين» أي صار من النادمينَ بسببِ القتلِ، ويكون «كتبنا على بني إسرائيل» استئناف كلام.

وقوله ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغيرِ قتلِ نفس. ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ هو معطوفٌ على «نفس» أي وبغير فساد. والفسادُ قَطْعُ الطريق وقلعُ الأشجار وقتلُ الدوابِ لا لضرورةٍ وحرقُ الزَّرْعِ وما يجري مجراه، وهو الفسادُ المُشارُ إليه بعد هذه الآية. والضمير في «أنه» ضمير الأمر والشأن، و«مَنْ» شرطية وجوابه «فكأنه» والجملة في موضع خبر «أنه». وتَشْبِيهُه[1] قتلَ النفسِ الواحدةِ بقتلِ الناسِ جميعاً وإحياءَهَا بإحيائِهم قال ابن عباس: هو من حيث انتهاك حُرْمَتها بالقتلِ أو صون حرمتها بالامتناع وباستحيائها.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ ﴾ الضمير في «جاءتهم» عائد على بني إسرائيل. ومعنى ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات والكُتبِ الإلهيةِ الواضحةِ فكان المناسبُ اتباعَ الرُّسُلَ فيما جاؤُوا به من امتثالِ أمرِ الله والانقيادِ لأحكامه. ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد مَجيءِ الرسل. ﴿ لَمُسْرِفُونَ ﴾ أي مجاوزون الحَدَّ في المعاصي وعدم اتِّباعِ الرُّسُلِ. و﴿ مِّنْهُم ﴾ في موضع الصفةِ لقوله «كثيراً» و﴿ بَعْدَ ﴾ منصوبٌ على الظرف والعاملُ فيه قولُه ﴿ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

---

(١) ق: ويشبهه.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾ الآية، نزلت في قومٍ من عُكْل وعرينة وحديثهم مشهور[1]. ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر في الآية قبلها تغليظ الإثم [١٤٨/ب] في قتل النفس بغير نفس ولا فساد في الأرض، أتبعه ببيان الفساد في الأرض الذي يوجب القتل ما هو، فإن بعض ما يكون فساداً في الأرض لا يوجب القتل.

﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ هو [على] حذف مضاف تقديره: يحاربون أولياء الله. والمحاربة مطلقة وفسّرها مالك رحمه الله بأنَّ المحارب هو مَنْ حملَ السلاحَ على الناس في مصرٍ أو في بريّة فكادهم عن أنفسهم وأموالهم دون ثائرة ولا دَخَل ولا عداوة. ومذهب أبي حنيفة وجماعة أنَّ المحاربين هم القُطَّاع للطريقِ خارج المصر، وأما في المصر فيلزمه حدّ ما اجترح من قتلٍ أو سرقة أو غصب أو نحو ذلك.

وقوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظاهره العموم فيشمل المصر وغيره كما قال مالك. والسعي في الأرض فساداً يحتمل أن يكون المعنى: بمحاربتهم، أو يضيفون فساداً إلى المحاربة. وانتصب «فساداً» على أنه مفعول له، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى «يسعون»، على معنى أن «يسعون في الأرض» معناه يفسدون لمّا كان السعي للفساد جُعل فساداً أي إفساداً.

والظاهر في هذه العقوبات الأربع أنَّ الإمامَ مخيَّرٌ بين إيقاعِ ما شاء منها بالمحارب في أيِّ رتبة كان المحارب من الرتب[2] التي قدّمناها، وبه قال جماعة من الصحابة وهو مذهب مالك وجماعة. وقال مالك: وأستحسن أن

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦ : ١٤٨.

(٢) ق: الرتبة.

يأخذ في الذي لم يَقتل بأيسر العقاب ولا سيما إن لم يكن ذا شرور معروفة، وأما إن قَتل فلا بدّ من قتله.

وقال ابن عباس وجماعة من التابعين: لكلِّ رتبةٍ من الحَرَابةِ رتبةٌ من العقاب؛ فمن قَتل قُتل، ومن أخذ المال ولم يقتل فالقطع من خلاف، ومن أخاف فقط فالنفي، ومن جمعها قُتل وصُلب.

والقائلون بهذا الترتيب اختلفوا فقال أبو حنيفة ومحمد وغيرهما: يُصلب حيًّا ويُطعن حتى يموت، وقال الشافعي وجماعة: يُقتل ثم يُصلب نكالاً لغيره، وأما القطع فاليد اليمنى من الرسغ والرجل الشمال من المفصل. واختلفوا في النفي فقال أبو حنيفة، النفي أن يُسجن وهو إخراجه من الأرض قال الشاعر وهو مسجون[1]: [من الطويل]

خرَجْنا من الدنيا ونحن من أهلها فلَسْنا من الأمواتِ فيها ولا الأَحْيا

وقال السدّي: هو أن يُطلب بالخيل والرّجل فيقام عليه حدّ الله ويخرج من دار الإسلام. قال مالك: لا يضطر مسلم إلى دخول دار الشرك. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي ذلك الجزاء من القتل والصلب والقطع والنفي. والخزي الهوان والذل والافتضاح. ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ظاهره الجمع للمحارب بين عقاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ الآية، ظاهره أنه استثناءٌ من المعاقبين عقاب قاطع الطريق، فإذا تابوا قبل القدرة على أخذهم سقط عنهم ما ترتّب على الحرابة، وهذا ظاهر فعل عليّ رضي الله عنه بحارثة بن بدر

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس في الوفيات ٤: ٣٥.

الغداني فإنه كان محارباً ثم تابَ قبلَ القدرةِ عليه فكتب له بسقوطِ الأموال والدم عنه كتاباً منشوراً. وقالوا: لا نظر للإمام فيه إلا كما ينظر في سائر المسلمين، فإنْ طُولب بدمٍ نُظر فيه وأُقيدَ[١] منه بطلب الولي. وإنْ طولب بمالٍ فمذهب مالك والشافعي وأصحاب الرأي: يؤخذ ما وجد عنده من مال [١٤٩/أ] وغيره ويُطالبَ بقيمة ما استهلك، وقال قوم من الصحابة والتابعين: لا يطالب بما استهلك ويؤخذ ما وجد[٢] عنده بعينه. وظاهر قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عدم المطالبة بشيء من الجزاء السابق لمن تاب من المحاربين قبل القدرةِ عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر جزاء المحاربين أمر المؤمنين بتقوى الله تعالى وابتغاء القربات إليه، فإنّ ذلك هو المُنجي من المحاربةِ والعقاب المُعَدِّ للمحاربين، و«الوسيلة»: القُربة. أمر المؤمنين بأوصاف خالف فيها المحارب إذ لم يتّق[٣] الله تعالى ولا ابتغى قربة إليه. وجعل الحرابة عوض الجهاد في سبيل الله فاستحق بذلك العقاب العظيم في الدنيا والعذاب في الآخرة. ورتّب هنا

(١) وأقيد: غير مقروءة في ق.
(٢) ق: وجده.
(٣) ق: ينو.

رجاء الفلاح على الاتِّصاف بهذه الأوصاف التي في هذه الآية من التقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية، لما ذكر حال المؤمن ورجاء الفلاح له ذكر حال الكافر وما يؤول إليه. وخبر «إنّ» هو «لو» وجوابها. و«مثله» معطوف على «ما» من قوله «ما في الأرض» أي الذي في الأرض. وجواب «لو» جاء منفياً وهو قوله «ما تُقبّل منهم» وجاء على الفصيح من ترك اللام، إذ يجوز في الكلام: لو جاء زيد لما جاء عمرو، فتدخل اللام على ما النافية. وقال «به» فأفرد الضمير وإن كان تقدّمه شيئان: «ما» الموصولة و«مثله» لتلازمهما[(١)] كما قالت العرب: رب يوم وليلة مرّ بي، تريد: مرّا بي، فأفرد الضمير لتلازم اليوم والليلة، قال الزمخشري[(٢)]: ويجوز أن تكون الواو في[(٣)] «ومثله معه» بمعنى مع فيتوحّد المرجوع إليه. فإن قلت: فبم ينتصب المفعول معه؟ قلت: بما تستدعيه «لو» من الفعل، لأن التقدير: لو ثبت أن لهم ما في الأرض جميعاً انتهى. إنما توحّد الضمير لأن حكمَ ما قبل المفعول معه في الخبر والحال وعَوْد الضمير متأخراً حكمُه متقدما؛ تقول: الماء والخشبة استوى كما تقول: الماء استوى والخشبة، وقد أجاز الأخفش في ذلك أن يُعطى حكم المعطوف فتقول: الماء مع الخشبة استويا، ومنع ذلك ابن كيسان.

وقول الزمخشري: ويجوز أن تكون الواو في «ومثله» بمعنى مع - ليس بشيء لأنه يصير التقدير: مع مثله معه، أي مع مثل ما في الأرض مع ما في الأرض، إن جعلت الضمير في «معه» عائداً على «ما» فيكون «معه» حالاً من

---

(١) ق: لتلازمها.

(٢) الكشاف ١ : ٦١٠.

(٣) ق: الواو عاطفة في.

مثله. وإذا [كان] ما في الأرض مع مثله، كان مثله معه ضرورةً فلا فائدة في ذكره «معه» لملازمة معيّة كلٍّ منهما للآخر. وإن جعلت الضمير عائداً على «مثله» أي مع مِثْله مع ذلك المِثْل، فيكون المعنى: مع مِثْلين - فالتعبيرُ عن هذا المعنى بتلك العبارة عيٌّ، إذ الكلام المنتظم أن يكون التركيب إذا أريد ذلك المعنى: مع مِثْلَيْه.

وقول الزمخشري: [فإن قلت] إلى آخر الجواب - هذا السؤال لا يَرِدُ لأنَّا قد بَيَّنا فسادَ أنْ تكونَ الواو واو مع. وعلى تقدير وروده فهذا بناءٌ منه على أنّ «أنّ» إذا جاءت بعد «لو» كانت في موضعِ رفعٍ على الفاعلية فيكون التقدير على هذا: لو ثبت كينونة ما في الأرض مع مثله لهم ليفتدوا به، فيكون الضمير عائداً على «ما» فقط. وهذا الذي ذكره هو تفريعٌ على مذهب المبرّد في أنّ «أنّ» بعدَ لو في موضعِ[1] [رفعٍ] على الفاعلية [وهو مذهبٌ مرجوح، ومذهب سيبويه أنّ «أنّ» بعد لو في موضع رفع على الابتداء]، والزمخشري لا يظهر من كلامه في هذا الكتاب [١٤٩/ب] وفي تصانيفه أنه وقفَ على مذهبِ سيبويه في هذه المسألة.

وعلى التفريع على مذهب المبرّد لا يصحّ أن يكون «ومثله» مفعولاً معه ويكون العامل فيه ما ذكر من الفعل، وهو «ثبت» بواسطة الواو لما تقدم من وجود لفظ «معه» وعلى تقدير سقوطها لا يصح لأن «ثبت» ليست رافعةً «ما» العائد عليها الضمير، وإنما هي رافعة مصدراً منسبكاً من أنّ وما بعدها وهو كون، إذ التقدير: لو ثبت كون ما في الأرض جميعا لهم ومثله معه ليفتدوا به. والضمير عائد على ما دون الكون، فالرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه، إذ لو كان إياه للزم من ذلك وجود الثبوت مصاحباً للمِثْل، والمعنى على

---

(١) عبارة ق: في أن تعدلوا في موضع.

كينونة ما في الأرض مصاحباً للمثل، لا على ثبوت ذلك مصاحباً للمثل.

وهذا فيه غموض وبيانه أنك إذا قلت: يعجبني قيام زيد وعَمْراً، وجعلت عَمْراً مفعولاً معه والعامل فيه: يعجبني - لزم من ذلك أن عمراً لم يقم، وأنه أعجبك القيام وعمرو.

وإنْ جعلتَ العاملَ فيه القيام كان عمرو قائماً وكان الإعجاب قد تعلّق بالقيام مصاحباً لقيام عمرو. فإن قلت: هلّا كان «ومثله معه» مفعولاً معه والعامل فيه هو العامل في «لهم» إذ المعنى عليه؟ قلت: لا يصح ذلك لما ذكرناه من وجود «معه» في الجملة، وعلى تقدير سقوطها لا يصح، لأنهم نصّوا على أن قولك: هذا لك وأباك، ممنوع في الاختيار.

وقال سيبويه[1]: فأما: هذا لك وأباك، فقبيح لأنه لم يذكر فعلاً ولا حرفاً فيه معنى فِعْل حتى يصير كأنه[2] قد تكلّم بالفعل انتهى. وأفصح سيبويه بأن اسم الإشارة وحرف الجر المتضمن معنى الاستقرار لا يعملان في المفعول معه، ولو كان أحدهما يجوز أن ينصب المفعول معه لخيّر أن ينسب العمل لاسم الإشارة أو لحرف الجر.

وقد أجاز بعض النحويين أن[3] يعمل في المفعول معه الظرف وحرف الجر، فعلى هذا المذهب يجوز لو كانت الجملة خالية[4] من قوله «معه» أن يكون «ومثله» مفعولاً على أن العامل [فيه هو العامل] في لهم.

---

(١) الكتاب ١: ٣١٠.

(٢) ق: كأنك.

(٣) ق: أنه.

(٤) ق: حالية.

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ الآية، قال السائب: نزلت في طعمة بن أبيرق ومضت قصته في سورة النساء[١]. ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر جزاء المحاربين بالعقوبات التي منها قطع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم أمر بالتقوى لئلاّ يقعَ الإنسانُ في شيءٍ من الحرابة، ثم لما ذكر حالَ الكفارِ - ذكر حُكْمَ السرقةِ لأن فيها قطع الأيدي بالقرآنِ والأرجلِ بالسُّنَّةِ على ما يأتي ذكره. وهي أيضاً حرابةٌ من حيث المعنى لأن فيها سعياً[٢] بالفساد إلا أنَّ تلك على سبيل الشوكة والظهور، والسرقة على سبيل الاختفاء والتستّر. والظاهر عموم السارق والسارقة فيمن سرق قليلاً أو كثيراً، واختلفوا فيما يُقطعُ به السارقُ فقيل: يقطع في القليلِ والكثيرِ كما دلَّ عليه ظاهر العموم، وهو مذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو مذهب داود والخوارج. وقال داود ومَنْ وافقه: لا يقطع في سرقة حبة واحدة ولا تمرة واحدة بل في أقلّ شيءٍ يسمّى مالاً وفي أقل شيء يخرج الشحّ والضنّة[٣].

وقيل: النصاب الذي تقطع فيه اليد عشرة دراهم فصاعداً أو قيمتها من غيرها وهو قول بعض الصحابة وبعض التابعين وبه قال أبو حنيفة والثوري.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٠٥ من النساء.

(٢) ق: سبباً.

(٣) ق: والظن.

وقيل: ربع دينار فصاعداً أو قيمتها من غيرها وهو قول الصحابة وبعض التابعين وهو قول الأوزاعي والليث والشافعي وأبي ثور.

وقيل خمسة دراهم وهو قول أنس وعروة وسليمان بن يسار والزهري.

وقيل أربعة دراهم وهو مرويّ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.

وقيل ثلاثة دراهم [وهو] قول ابن عمر وبه قال [١٥٠/أ] مالك وإسحاق وأحمد، إلا إنْ كان ذهباً فلا يقطع إلا في ربع دينار.

وقيل درهم فما فوقه وبه قال عثمان البتّي، وقطع عبدالله بن الزبير في درهم.

وللسرقةِ التي تُقطع فيها اليدُ شروطٌ ذكرت في الفقه.

وقرأ الجمهور: والسارق والسارقة بالرفع، والرفع في «والسارق والسارقة» على الابتداء والخبر محذوف والتقدير: فيما يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم. «السارق والسارقة» أي حكمهما. ولا يجيز سيبويه أن يكون الخبر قوله «فاقطعوا» لأن الفاء لا تدخل إلا في خبر مبتدأ موصول بظرف أو مجرور أو جملة صالحة لأداة الشرط، والموصول هنا «أل» وصلتها اسم فاعل أو اسم مفعول، وما كان هكذا لا تدخل الفاء في خبره عند سيبويه، وقد أجاز ذلك جماعة من البصريين أعني أن يكون «السارق والسارقة» مبتدأ والخبر جملة الأمر، أَجْرَوا «أل» وصلتها مجرى الموصول المذكور لأن المعنى فيه على العموم إذ معناه: الذي سرق والتي سرقت، وقد تجاسرَ الفخرُ الرازيُّ وأساء الأدبَ على سيبويه وتكلّمنا معه بما يوقف عليه في كتابنا المسمّى بالبحر المحيط الملخص منه هذا الكتاب(١).

---

(١) انظر البحر ٣: ٤٧٦ وما بعدها.

وقرىء: والسارق والسارقة بالنصب على الاشتغال أي اقطعوا السارق والسارقة كما تقول: زيداً فاضربه أي: اضرب زيداً فاضربه. وللزمخشري في هذه القراءة كلام غرب فهمه عن تحرير كلام سيبويه ورددناه عليه في «البحر»[١].

والمخاطب بقوله «فاقطعوا» هو من تولى أمور المسلمين ممن يكون له إقامة الحدود عليهم. والظاهر من قوله «أيديهما» أنه تُقطع من السارقِ يداهُ الثِّنْتان، لكن الإجماع على خلاف هذا الظاهر وإنما تقطع من السارق[٢] يُمْنَاهُ ومن السارقة يمناها، قال الزمخشري[٣]: «أيديهما» يديهما، ونَحْوُه ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿٤﴾﴾ [التحريم] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبد الله: والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم انتهى.

وسوّى الزمخشري بين «أيديهما» و«قلوبكما» وليسا بسيَّيْن[٤] لأن باب «صغت قلوبكما» يطّرد فيه وضع الجمع موضع التثنية وهو ما كان اثنين[٥] من شيئين كالقلب والأنف والوجه والظهر، وأما إنْ كان في كلٍّ شيء منهما اثنان كالأذنين[٦] واليدين والفخذين فإنّ وضعَ الجمعِ موضعَ التثنية لا يطّردُ وإنما يحفظ ولا يقاس عليه، ولم تتعرض الآية في قطع الرجل في السرقة وفي ذلك خلاف ذكر في مسائل الخلاف.

---

(١) انظر ٣: ٤٧٨.
(٢) ق: من اليسار ويمناه.
(٣) الكشاف ١: ٦١٢.
(٤) ق: بشيئين.
(٥) ق: اثنتين.
(٦) ق: كأذنين.

وظاهر قطع اليد أنه يكون من المنكب وهو مذهب الخوارج، ومذهب الجمهور أنه من الرسغ وفي الرجل من المفصل. وروي عن علي أنه في اليد من الأصابع وفي الرجل من نصف القدم وهو معقد الشراك[1].

والظاهر أن المترتب على السرقة هو قطع اليد فقط فإن كان المال قائماً بعينه أخذه صاحبه، وإن كان السارق استهلكه فلا ضمانَ عليه، وبه قال مكحول وجماعة من التابعين. وقال الشافعي وأحمد وإسحاق: يضمن ويغرم. وقال مالك: إن كان موسراً ضمّن، أو معسراً فلا ضمان عليه.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ الآية، قال الكسائي: انتصب «جزاءً» على الحال، وقال قطرب: على المصدر أي جزاهما جزاء، وقال الجمهور: على المفعول من أجله. و«بما» تعلق بـ«جزاء» وما موصولة أي بالذي كسباه، ويحتمل أن تكون ما مصدرية أي جزاءً بكسبهما، وانتصاب «نكالاً» على المصدر أو على أنه مفعول من أجله. والنكال العذاب، والنكل القيد وتقدم الكلامُ عليه في قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة]. وقال الزمخشري[2]: «جزاء» و«نكالاً» مفعول لهما انتهى. وتبع في ذلك الزّجاج، قال الزجاج: هو مفعول من أجله، يعني «جزاء» قال: وكذلك «نكالاً من الله» انتهى.

وهذا ليس بجيد إلا إذا كان [١٥٠/ب] الجزاء هو النكال فيكون ذلك على طريق البدل، وأما إذا كانا مبتاينين فلا يجوز أن يكونا مفعولين لهما إلا بواسطة حرف العطف.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [عزيزٌ] في انتقامِهِ من السارق وغيره من أهل المعصية،

---

(١) ق: الشرك.

(٢) الكشاف ١: ٦١٢.

حكيم في فرائضه وحدوده. روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ: والسارق إلى آخره، وختمها بقوله: والله غفور رحيم، فقال: ما هذا كلام فصيح. فقيل له: ليس التلاوة كذلك وإنما هي «والله عزيز حكيم» فقال: بخٍ بخٍ عَزَّ فحكمَ فقطع.

﴿فَمَن تَابَ﴾ هذا عام في كل تائب من حرابة وسرقة وغيرهما. وقوله «ظلمه» هو مصدر مضاف للفاعل [أي] من بعد أنْ ظلمَ غيره أو نفسه بالمعصية. وقوله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عطفُ على «تاب» فلم يقتصر على توبته. وإصلاحه هو تَنَصُّله من التبعات[1]. ومعنى ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يتجاوز عنه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ خطاب للسامع وهو تقرير ومعناه الإثبات أي قد علمت. وقدّم «يعذّب» هنا على «يغفر» لأنه تقدم ما يصنع بالمحارب من العذاب وبالسارق من القطع فَذِكرُ التعذيب أولاً أَرْدَعُ له. وأطلق التعذيب فجاز أن يراد به التعذيب في الدنيا أو التعذيب في الآخرة أو كليهما. ومفعول «يشاء» محذوف تقديره: من يشاء تعذيبه، وكذلك قوله «يغفر لمن يشاء» أي يشاء غفران ذنبه.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(١) «تنصّله من التبعات» غير مقروءة في ق.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟
ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الآية، سبب نزولها أنَّ يهودياً زنى بيهودية فرُفع أمرهما إلى رسولِ الله ﷺ فحكم عليهما بالرجم، فأنكرَ اليهودُ ذلك وزعموا أنَّ التوراةَ ليس فيها الرجم، فأُتي بها فوجد فيها الرجم فافْتُضِحُوا.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ هم المنافقون.

و﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يراد به اليهود، والمعنى على هذا: لا تهتمّ بمسارعة المنافقين في الكفر واليهود، أي بإظهار ما يلوح لهم من آثار الكفر وهو كيدهم للإسلام وأهله فإن الله ناصرك عليهم.

ومسارعتهم في الكفر وقوعهم وتهافتهم فيه أسرع شيء إذا وجدوا فرصةً لم يخطئوها، ويكون «مِن» الأولى والثانية على هذا تبييناً وتقسيماً للذين يسارعون في الكفر، فيكون قوله «ومن الذين هادوا» معطوفاً على قوله «من الذين قالوا». ويجوز أن يكون «ومن الذين هادوا» استئناف كلام فلا يكون معطوفاً على قوله «من الذين قالوا»، و«سماعون» مبتدأ أي قوم سمّاعون «ومن الذين هادوا» خبره.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ قيل إنهم أهل فدك كان اليهودُ تستمعُ منهم وقيل غيرهم.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ أي: يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التي وضعها الله فيها. قال ابن عباس والجمهور: هي حدودُ الله في التوراة، وذلك أنهم غَيَّروا الرجمَ أي: وضعوا الجَلْدَ مكان الرجم. ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما حرّفوه من تبديل الرجم بالتحميم والجلد، أي: [إن] حُكم عليكم بهذا «فخذوه» أي فاقبلوه وإن لم تُعطعوا ما تحكمون به من التحميم والجلد «فاحذروا» أي فلا تقبلوا.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ تأكيد لما قبله. ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ أي: للرُّشا وهو المالُ الذي يأخذونه على تبديلِ أحكامِ الله وتحريفها. ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ الآية، يعني للحكم بينهم، فخيّر تعالى نبيَّهُ بين الحكمِ بينهم أو الإعراض عن الحكم.

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ الآية، هذا تعجيبٌ من تحكيمهم إياه مع أنهم لا يؤمنون به ولا بكتابه(١)، وفي كتابهم الذي يَدَّعونَ الإيمانَ به حكم الله نصّ جليّ، فليسوا قاصدين حكم الله حقيقةً، وإنما قصدوا بذلك أن يكون عنده صلى الله عليه وسلم رخصة فيما تحاكموا إليه فيه اتباعاً لأهوائهم وانهماكاً في شهواتهم. ومَنْ عَدَلَ عن حكمِ الله في كتابه [١٥١/أ] الذي يدَّعي أنه مؤمنٌ به إلى تحكيم من لم يؤمن به ولا بكتابه فهو لا يحكّم إلا رغبة فيما يقصده من مخالفة كتابه. وإذا خالفوا كتابَهم لكونه ليس على وفقِ شهواتهم فَلأنْ يخالفوكَ(٢) إذا لم توافقهم أوْلى وأحرى.

(١) ق: بكتابهم.

(٢) ق: يخالفونك.

والواو في ﴿وَعِندَهُمُ﴾ للحال، «وعندهم التوراة» مبتدأ وخبر. وقوله «فيها» حال من التوراة. وارتفع «حكم» على الفاعلية بالجار والمجرور أي كائناً فيها حكم الله.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ [قال ابن عطية] أي: من بعد كونِ حكمِ الله في التوراة في الرجم وما أشبهه، من الأمورِ التي خالفوا فيها أمرَ الله انتهى. وهذه الجملة مستأنفة أي: ثم هم يتولّون بعد ذلك، وهي إخبارٌ من الله بتولِّيهم على عادتهم في أنهم إذا وضح لهم الحق أعرضوا عنه.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: من تَرَكَ حُكم كتابه وحكم رسول الله ﷺ، فهو مُنْتَفٍ عنه الإيمان حقيقة. وانتصاب «كيف» على الحال، وهو استفهام لا يراد به حقيقته بل التعجب من حالهم كيف علموا حكم الله في كتابهم وحكم الرسول عليه السلام.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود: نزلت في الجاحدين حكمَ الله، وهي عامةٌ في كُلِّ مَنْ جَحدَ حكم الله تعالى. و﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ وصفُ مَدْحٍ للأنبياء كالصفات التي تجري على الله تعالى، وأريد بإجرائها التعريض باليهود والنصارى حيث قالت اليهود إنَّ الأنبياء كانوا يهوداً وقالت النصارى كانوا نصارى، فبيّن أنهم كانوا مسلمين كما كان إبراهيم ولذلك جاء ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج] ونبّه بهذا الوصفِ أنَّ اليهودَ والنصارى بُعَداءُ من هذا الوصف الذي هو الإسلام، وأنه كان دين الأنبياء كلهم قديماً وحديثاً.

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ تقدم مدلوله في قوله تعالى في آل عمران ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

﴿ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ العلماء واحدهم حبر بفتح الحاء وكسرها. وقال أبو الهيثم: هو بفتح الحاء، وقال الفراء: هو بالكسر، فأما الذي يُكْتَبُ به فبكسر الحاء.

﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الباء في «بما» للسبب وتتعلق بقوله «يحكم». واستفعل هنا للطلب، والمعنى بسبب ما استحفظوا. والضمير في «استحفظوا» عائد على النبيين والربانيين والأحبار أي بسبب ما طلب الله منهم حفظهم لكتاب الله وهو التوراة وكلّفهم حفظها وأخذ عهده عليهم في العمل بها والقول بها. و«استُحفظوا» مبني للمفعول حذف الفاعل وهو الله والمعنى: استحفظهم الله أي طلب حفظهم له.

﴿ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ الظاهر أنَّ الضميرَ عائدٌ على كتاب الله تعالى أي: كانوا عليه رقباء كيلا يبدّل، والمعنى: يحكمُ بأحكام التوراة النبيُّونَ بين موسى وعيسى كان بينهما ألفُ نبيٍّ للذين هادوا يحملونهم على أحكامِ التوراة لا يتركونهم أنْ يعدلوا عنها كما فعل رسول الله ﷺ مِنْ حَمْلِهم على حكمِ الرجم وإرغامِ أنوفهم وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد.

﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، الظاهر أن هذا الخطاب لليهود على سبيل الحكاية، والقول لعلماء بني إسرائيل ويشمل من كان بحضرة رسول الله ﷺ من علماء اليهود. وفي الكلام التفات خرج من ضمير الغيبة وهو ضمير الرفع في «يحكّمونك» إلى ضمير الخطاب في قوله «فلا تخشوا الناس».

﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ هذا نهيٌ للحكام عن أخذِ الرُّشا وتبديل أحكام الله تعالى.

﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم﴾ الآية، ظاهر هذا العموم، فيشمل هذه الأمةَ وغيرهم ممن كان قبلَهم.

﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ

وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى بيّن في التوراة أن حكم الزاني المحصن الرجم وغيّره اليهود [وبيّن هنا أنَّ في التوراةِ أنَّ النفسَ بالنفس وغيَّره اليهود] أيضاً ففضّلوا بني النضير على بني قريظة وخصّوا إيجاب القَوَدِ على بني قريظة [١٥١/ب] دونَ بني النضير. ومعنى «وكتبنا» فرضنا، وقيل: قلنا والكتابة بمعنى القول، ويجوز أنْ يراد الكتاب حقيقة وهي الكتابة في الألواح، لأنَّ التوراةَ نزلت مكتوبة في الألواح. والضمير في «فيها» عائد على التوراة، وفي «عليهم» على الذين هادوا. وقوله «بالنفس» جار ومجرور في موضع خبر «أنّ» فيتعلق بمحذوف، والأصل فيه أن يكون العامل لفظ: كائن أو مستقر. والباء في «بالنفس» للمقابلة فيقدر[١] ما هو قريب من الاستقرار وهو تقديرهم: مأخوذة بالنفس. والمعنى أنه[٢] إذا قَتلتْ نفسٌ نَفْساً قُتلتْ بها، والمعاطيفُ على هذا التقدير أي: والعينُ مأخوذةٌ بالعينِ أي: مَنْ فقأ عيناً فُقئتْ عينُه، ومَنْ جَدع أنفاً جُدع أنفه، ومن صَلم أذناً صُلمت أذنه، ومن كسر سنًّا كسرت سنه. وقرىء بنصب «والعين» إلى قوله «والجروح» مراعاه لاسم أنّ. وقرىء بالرفع قطعاً

(١) ق: فقدر.

(٢) ق: أن.

عن اسم أنّ وارتفعت الأسماء بالابتداء وخبرها في الجار والمجرور كما قدّمناه. وخبر «والجروح» قوله «قصاص».

والظاهر في قوله «النفس بالنفس» العموم، فيخرج منه ما يخرج منه بالدليل ويبقى الباقي على عمومه. والظاهر في قوله «والعين بالعين» العموم، فتُفقأ عين الأعور بعين مَنْ كان ذا عينين وبه قال علي وأبو حنيفة والشافعي، ولهذه الجناياتِ أحكامٌ ذُكرت في كتبِ الفقه.

«والجروح قصاص» أي: ذات[1] قصاص. ولفظ «الجروح» عام والمراد به الخصوص وهو ما يمكن فيه القصاص وتُعرف المماثلة فلا يُخاف منها على النفس، فإنْ خيف كالمأمومة[2] وكسر الفخذ وغير ذلك فلا قصاص فيها. ومدلول «والجروح قصاص» يقتضي أن يكون الجرح بمثله، فإن لم يكن بمثله فلا قصاص.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ المتصدق صاحب الحق ومستوفي القصاص من مجروح أو ولي قتيل. و«به» عائد على القصاص الشامل للنفس وللأعضاء وللجروح التي فيها القصاص. و«فهو» ضمير يعود على التصدق أي فالتصدق كفارة للمتصدق. والمعنى أنَّ مَنْ تصدّقَ بجرحه أو دم وليِّه فعفا عن حقِّه في ذلك فإنَّ العفوَ كفّارةٌ له عن ذنوبِهِ يعظم الله أجره بذلك ويكفّر عنه.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الآية، ناسب فيما تقدم ذكر الكافرين لأنه جاء عقب قوله «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور»[3]، ففي ذلك إشارة إلى أنه

(١) ق: ذا.

(٢) أمّ فلانا فهو مأموم: أصاب أم رأسه.

(٣) الآية ٤٤ السابقة.

لا يحكم بجميعها بل يخالف رأساً ولذلك جاء «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» وهذا كفرٌ فناسب ذكر الكافرين. وهنا جاء عقب أشياء مخصوصة من أمر القتال والجروح، فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص وعدم التسوية فيه، والإشارة إلى ما كانوا قرروه من عدم التساوي بين بني النضير وبني قريظة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ الآية، ومناسبة هذه لما قبلها أنه تعالى ذكر أنّ التوراة يحكم بها النبيّون، ثم ذكر أنه قَفَّاهم بعيسى عليه السلام تنبيهاً على أنه من جملةِ الأنبياء،وتنويهاً باسمه وتنزيهاً عما يَدَّعيه فيه اليهودُ وأنه من جملة مصدّقي التوراة. ومعنى «قفَّينا» أتينا به يقفو آثارَهُم أي: يتبعها. والضمير في «آثارهم» يعود على «النبيين» من قوله «يحكم بها النبيون»[1]. وليس التضعيف في «قفّينا» للتعدية بل ضمّن معنى «قفّينا» معنى: جئنا ولذلك عدّاه بعلى وبالباء.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ هذه الجملةُ معطوفةٌ على قوله «وقفّينا» وفيها تعظيم عيسى بأنَّ الله آتاه كتاباً إلٰهيّاً.

وقوله ﴿فِيهِ هُدًى﴾ في موضع الحال. وارتفع «هدى» على الفاعلية بالجار والمجرور إذ قد اعتمد بأن وقع حالاً لذي حال أي كائناً فيه هدى، ولذلك عطف عليه «ومصدقاً لما بين يديه». والضمير في «يديه» [١٥٢/أ] عائد على الإنجيل. والمعنى أن عيسى وكتابه الذي أنزل عليه هما مصدّقان لما تقدّمهما من التوراة فتظافر[2] على تصديقه الكتابُ الإلهيّ المنزل.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية، أمر تعالى أهلَ الإنجيل أن يحكموا بما أنزل

---

(١) في الآية ٤٤ أيضاً.

(٢) أي تعاون.

الله فيه من الأحكام ويكون هذا الأمر على سبيلِ الحكاية أي: وقلنا لهم احكموا، أي حين إيتائه عيسى أمرناهم بالحكمِ بما فيه، إذْ لا يمكن أن يكون [ذلك] بعد بعثةِ رسولِ الله ﷺ إذْ شريعتهُ ناسخةٌ لجميع الشرائع. وقرأ الجمهور: ليحكم بلام الأمر. وقرأ حمزة: ولِيَحْكُمَ بكسر اللام وفتح الميم جعلها لام كي. والظاهر أنّ نصب «هدى وموعظة» على المفعول له، وعطف عليه قوله «وليحكم». ولما كان فاعل «هدى وموعظة» عائداً على الإنجيل عطف عليه قوله «وليحكم» وأتى باللام لاختلاف الفاعل، لأن فاعل «وليحكم»: «أهل الإنجيل»، والفاعل في «هدى وموعظة» هو الإنجيل، فلما اختلفا عدّي المفعول من أجله باللام كما تقول: ضربت ابني تأديباً ولخوف[١] زيد منه، ففاعل التأديب هو الضمير وفاعل الخوف هو زيد. ويجوز أن يكون «وهدى وموعظة» معطوفاً على «ومصدقاً» كأنه قال: وهادياً وواعظاً[٢]، ويكون قوله «وليحكم» على قراءة حمزة متعلقاً بمحذوف تقديره: وآتيناه الإنجيل ليحكم.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآية، ناسب هنا ذكر الفسق لأنه خروجٌ عن أمرِ الله تعالى إذ تقدم قوله «ولِيَحْكُمَ» وهو أمرٌ كما قال تعالى ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] أي: خرج عن طاعة أمره تعالى.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى

(١) ق: لخوف.

(٢) ق: واعظاً.

مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن
يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ
ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ
حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، لما ذكر تعالى أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور، ولم يذكر من أنزلها عليه لاشتراكهم كلهم[١] في أنها أنزلت على موسى عليه السلام وترك ذكره للمعرفة بذلك، ثم ذكر عيسى وأنه آتاه الإنجيل فذكره مفيداً أنه من جملة الأنبياء إذ اليهود تنكر نبوّته، وإذا أنكرته أنكرت كتابه فنصّ عليه وعلى كتابه، ثم ذكر إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فذكر الكتاب ومن أنزله عليه مقرراً لنبوّته وكتابه، لأن الطائفتين ينكرون نبوته وكتابه. وجاء هنا ذكر المنزَل إليه بكاف الخطاب لأنه أنصّ على المقصود.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ معناه متلبّساً بالحق ومصاحباً له لا يفارقه. وانتصب «مصدقاً» على الحال. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما تَقَدَّمه. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الألف واللام فيه للجنس لأنه عَنَى به جنس الكتب المنزلة. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ﴾ قال ابن عباس: أميناً، وعنه أيضاً: شاهداً. وقال الخليل: رقيباً، وبه فسّر الزمخشري قال[٢]: «ومهيمناً» رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات انتهى. وقال الشاعر[٣]: [من الطويل]

---

(١) ط: لاشتراك علم الجميع.

(٢) الكشاف ١ : ٦١٨.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص٣٦٨.

مليكٌ على عَرْشِ السماء مُهَيْمِنٌ لعـزّتـه تَعْنُـو الـوجـوهُ وتسجـدُ

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ أمر بالوجوب، والضمير في «بينهم» عائد على المتحاكمين يهوداً[١] كانوا أو غيرهم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا توافقهم على أغراضِهم الفاسدة من التفريقِ في القصاص بين[٢] الشريفِ والوضيع وغير ذلك من أهوائهم التي [هي] راجعة لغيرِ الدين والشرع. ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو القرآن. وضمّن «تتّبع» معنى تنحرف أو تنصرف فلذلك عُدِّيَ بعن، أي: لا تنحرف أو تتزحزح عمّا جاءك متبعاً أهواءهم أو بسبب أهوائهم. قال أبو البقاء[٣]: «عما جاءك» في موضع الحال أي: عادلاً عَمَّا جاءك. ولم يضمّن «تتّبع» معنى [١٥٢/ب] ما يتعدى بعن. وهذا ليس بجيد لأن «عن» حرف جر[٤] ناقص لا يصلح أن يكون حالاً من الجثّة كما لا يصلح أن يكون خبراً. وإذا كان ناقصاً فإنه يتعدى بكون مقيّد لا بكون مطلق، والكون المقيّد لا يجوز حذفه.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا﴾ الآية، الظاهر أنَّ المضاف إليه «كلّ» المحذوف هو أمة أي: لكلِّ أمةٍ. والخطاب في «منكم» للناس، أي: أيها الناس: لليهودِ[٥] شرعةٌ ومنهاجٌ وللنصارى كذلك [وللمسلمين كذلك] قاله علي وغيره. ويعنون في الأحكام، وأما المُعْتَقَدُ فواحدٌ لجميعِ العالم: توحيد وإيمان بالرسل وكتبها. والشِّرعةُ والمنهاج لفظان بمعنى واحد فالثاني تأكيدٌ للأول.

---

(١) ق: يهود.

(٢) ق: في الشريف.

(٣) إملاء ١: ٢١٧.

(٤) ق: لأن عرف جر.

(٥) ق: أي لليهود.

﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ مفعول «شاء» محذوف تقديره: ولو شاء جَعْلكم أمة واحدة، وحذف لدلالة الجواب عليه وهو قوله «لَجَعلكم أمة واحدة» في اتباع الحق أو اتباع الباطل.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ولكن لم يشأ ذلك ليختبركم فيما آتاكم من الكتب.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: استبقوا الأعمالَ الصالحة وهي التي عاقبتها أحسن الأشياء.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ هو استئناف في معنى التعليل لأمره تعالى باستباق الخيرات كأنه يقول: تظهر ثمرة استباق الخيرات والمبادرة إليها في وقت الرجوع إلى الله تعالى ومجازاته.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم وهي كناية عن المجازاة بالثواب والعقاب، وهو إخبار إيقاع. وبهذه التنبئة[١] يظهر الفصل بين المحقّ والمبطل والمستبق والمقصر في العمل. ونبّأ هنا جاءت على وضعها الأصلي من تعديتها إلى واحد بنفسها[٢] وإلى آخر بحرف الجر، ولم يضمّنها معنى أعْلَمَ فيعدّيها إلى ثلاثة.

﴿وَأَنِ احْكُم [بَيْنَهُم] بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ سبب نزولها قال ابن عباس: قال بعض يهود لبعض منهم ابن صوريا وشأس بن قيس وكعب بن أسيد: اذهبوا بنا إلى محمّد لعلّنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفتَ أنّا أحبار يهود وأشرافهم، وإن اتّبعناكَ اتّبعكَ كُلُّ اليهود، وبيننا وبين قومٍ خصومةٌ

---

(١) ق: السنة.

(٢) ق: بنفسه.

فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك، فأبى ذلك رسولُ الله ﷺ فنزلت. «وأن احكم» ذكروا في إعرابه وجوهاً، والذي نختاره أن يكون في موضع رفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر مؤخراً[١]، والتقدير: وحُكْمُك بما أنزل الله أَمْرُنا وقولنا، أو مقدّماً والتقدير: ومن الواجب حُكْمُك بما أنزل الله. وأبْعَدَ مَنْ ذهبَ إلى أنه في موضع نصب عطفاً على «الكتاب» أي: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو في موضع جرّ عطفاً على «بالحق» أي [بالحق] وبالحكم.

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أي: يستزلّوك وحذّره عن ذلك وإنْ كان مأيوساً من فتنتهم إياه. وموضع «أن يفتنوك» نصب على البدل تقديره: واحذرهم فِتْنَتَهم إياك، أو يكون مفعولاً من أجله تقديره: من أن يفتنوك، وحذف مِن.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ الآية، أي: فإن تولّوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره.

ومعنى ﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: يعذبهم ببعض آثامهم، وأبهم بعضاً هنا، ويعني به - والله أعلم - التولّي عن حكم الله وإرادة خلافه فوضع «ببعض ذنوبهم» موضع ذلك. وأراد أنهم ذوو ذنوب جمّة كثيرة العدد، وهذا الذنب مع عِظَمِهِ بعضها.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ هذا استفهامٌ معناه الإنكار على اليهود حيث هم أهل كتاب[٢] وتحليل وتحريم من الله تعالى، ومع ذلك يُعْرِضُونَ عن حكم الله تعالى ويختارون عليه حكمَ الجاهلية. وقرىء: أفحكم بالنصب وهو مفعول «يبغون»، وبالرفع على الابتداء [١٥٣/أ] والخبر «يبغون»، وحذف

(١) ق: والخبر مؤخر.

(٢) ق: الكتاب.

الضمير العائد على المبتدأ من الجملة تقديره: يبغونه، كقول الشاعر(١):

وخالد يَحْمَد ساداتنا(٢) بالحق لا يَحمَدُ بالباطلِ
[من السريع]

تقديره: يحمده.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ أي: لا أحد أحسن من الله حكماً. وتقدّم ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة] فجاءت هذه الجملة مشيرة لهذا المعنى. والمعنى أن حكم الله هو الغاية في الحُسْنِ وفي العدل، وهو استفهامٌ معناه التقريرُ ويتضمّن شيئاً من النكير عليهم. واللام في «لقوم يوقنون» للبيان متعلق بمحذوف تقديره: أي هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ الآية، سبب نزولها قصة عبد الله بن أبيّ واستمساكه بحلفِ [يهود] وتبرّؤ عبادةَ بن الصامتِ من حلفهم عند انقضاءِ بدر وانتجاز أمر بني قينقاع، وكانوا حلفاء عبد الله(٣) وعبادة في قصّة فيها طولٌ

(١) البيت للأسود بن يعفر، وهو من شواهد مغني اللبيب ٢: ٦١١، وهو فيه غير منسوب. وانظر شرح أبيات المغني ٧: ٢٨٠.

(٢) ق: نبيا دانيا.

(٣) ق: خلفاء عند الله.

وهذا مُلَخَّصُهَا والله تعالى أعلم. نهى تعالى المؤمنين عن موالاةِ اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين. والظاهر أنَّ الضمير في «بعضهم» عائدٌ على اليهود والنصارى، وقيل: المعنى على أن ثَمَّ محذوفاً والتقدير: بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض، لأنَّ اليهود ليسوا أولياء النصارى ولا النصارى أولياء اليهود. ويمكن أن يقال: جمعهم في الضميرِ على سبيلِ الإجمالِ ودلَّ ما بينهم من المعاداةِ على التفصيل وأنَّ بعض اليهود لا يتولَّى إلا جنسه وبعض النصارى كذلك. قال الحوفي: هي جملة من مبتدأ وخبر في موضع النعت لأولياء. والظاهر أنها جملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال ابن عباس: فإنه منهم في حُكْمِ الكفر، أي: ومَنْ يتولَّهم في الدين. وهذا تشديدٌ عظيم في الانتفاء من أهلِ الكفر وترك موالاتهم وإنحاء على ابن أبيّ ومن اتَّصفَ بصفته. ولا يدخل في الموالاة معاملة[1] اليهود والنصارى من غير مصافاة.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الخطابُ لرسولِ الله ﷺ. وقال ابن عطية: وقرأ ابن وثاب: فيرى الذين، بالياء، فيحتمل أن يكون «الذين» فاعل «يرى» والمعنى أن يسارعوا فحذفت أن إيجازاً انتهى. هذا ضعيف لأنّ حذف أنْ من هذا لا ينقاس، والفاعل ضمير يعود على «الله» أو [على] الرأي. «والذين في قلوبهم مرض» عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين.

﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في مودّتهم وموالاتهم.

﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ هذا محفوظٌ من قولِ عبد الله بن أبيّ وقاله معه

---

(١) ق: مقابلة.

منافقون كثير، قال ابن عباس: معناه نخشى أنْ لا يتمّ أمرُ محمد فيدور الأمر علينا.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ هذه بشارةٌ للرسولِ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصر. قال قتادة: عنى به القضاء في هذه النوازل، والفتّاح القاضي. قال ابن عطية: وظاهرُ الفتحِ في هذه الآية ظهور رسول الله ﷺ وعلو كلمته فيستغني عن اليهود.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ هو إجلاء بني النضير وأخذ أموالهم، لم يكن للناس فيه فِعْلٌ بل طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب، وقَتْلُ [قريظة] وسَبْيُ ذراريهم.

﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟﴾ أي: يصيرون نادمين على ما حدَّثَتْهم به [١٥٣/ب] أنفسهم أنّ أمر النبي عليه السلام لا يتمّ ولا تكون الدولة لهم. و«نادمين» خبر فيصبحوا[١]، و«على ما أسرّوا» متعلق بنادمين.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ الآية، [لمّا] رأى المؤمنون ما قد ظهر من المنافقين قالوا «أهؤلاء» أي: المنافقون «الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم». والمعنى: يقول بعضُهم لبعض تعجّباً من حالهم إذ أغلظوا للمؤمنين بالأيْمان أنهم معهم وأنهم معاضدوهم وعلى اليهود، فلمّا حلّ باليهود ما حلّ ظهر من المنافقين ما كانو يُسِرُّونه من موالاةِ اليهود والتمالؤ على المؤمنين.

[وقرىء: يقول بغير واو كأنه جوابُ قائلٍ يقول: فماذا يقولُ المؤمنون حينئذٍ؟ فقيل: يقول الذين آمنوا]. وقرىء: ويقول بالواو ورفع

(١) ق: فأصبحوا.

اللام. وقرىء: ويقول بالواو ونصب اللام. وأما قراءة: ويقول بالنصب فَوُجِّهَتْ على أن هذا القول لم يكن إلا عند الفتح وأنه محمول على المعنى فهو معطوف على «أن يأتي»، إذ معنى «فعسى الله أن يأتي» معنى: فعسى[(١)] أن يأتي الله، وهذا الذي يسمّيه النحويون العطف على التوهّم: يكون الكلام في قالب تقدّره في قالب آخر إذ لا يصح أن يعطف على لفظ «أن يأتي» لأنه لا يصحّ أن يقال: فعسى الله أن يقول المؤمنون، إذْ ليس في المعطوف ضمير اسم الله ولا شيء [منه]. وأجاز ذلك أبو البقاء على تقدير ضمير محذوف، أي: ويقول الذين آمنوا به، أي بالله، فهذا الضمير يصحّ به الربط. «أهؤلاء» استفهام تحقير واستصغار للمنافقين. والجملة من قوله «إنهم لمعكم» مؤكّدةً بإنّ واللام، مبالغةٌ من المنافقين في أيمانهم إذ جمعوا بين حرفي توكيد وهما[(٢)] إنّ واللام.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ استئناف إخبار من الله بحبوطِ أعمالهم، والظاهر أنه من كلامِ المؤمنين. والحبوطُ البطلانُ و«أعمالهم» هي التي كانوا يظهرونها من موافقة المؤمنين في الصلاة وغيرها وهم لا يعتقدون ثواباً في ذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

---

(١) ق: فعسى الله.

(٢) ق: وهي.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ قال الحسن وغيره: نزلت خطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، وقيل هي خاصة في قبائل بأعيانهم فذكر المفسرون أنه ارتدَّ في زمنِ رسول الله ﷺ مذحج[١] ورئيسهم عبهلة بن كعب ذو الخمار وهو الأسود العنسي قتله فيروز[٢] على فراشه وأخبر رسول الله ﷺ بقتله وسمّى قاتله ليلة قتل، ومات رسول الله ﷺ من الغد وأتى مَقْتلُه في آخرِ ربيع الأول. وبنو حنيفة ورئيسهم مسيلمة الكذاب قتله وحشي. وبنو أسد ورئيسهم طليحة[٣] بن خويلد، هزمه خالد وأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه.

وهذه ثلاث فرق ارتدّت في حياة رسول الله ﷺ وتنبّأ رؤساؤها.

وارتدّ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه سبع فرق: فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري، وسليم قوم الفجاءة [بن] عبد يا ليل، ويربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر وقد تنبأت وتزوّجها مسيلمة الكذاب، وقال شاعرهم[٤]: **[من البسيط]**

أضحَتْ نَبِيَّتُنَا أنثى نطيف بها   وأصبحَتْ أنبياء الناسِ ذُكْرانا

وقال أبو العلاء المعري[٥]:

---

(١) كذا في ق، ط. وفي تفسير الرازي ١٢ : ٢١: بنو مدلج.

(٢) ق: خيرون. والتصويب من البحر ٣: ٥١١، والرازي في الموضع نفسه.

(٣) ق: طلحة. وانظر الرازي في الموضع السابق.

(٤) البيت لقيس بن عاصم في شرح شواهد الكشاف ص٣٣٤. وهو في تاريخ الطبري ٣: ٢٧٤ لعطارد بن حاجب.

(٥) البيت من كتابه «استغفروا واستغفري»، كما في شرح شواهد الكشاف ص٣٣٣. وانظر بشأن كتاب المعري: تعريف القدماء ص١١١.

أَمَّتْ سجاحُ ووالاها مُسَيْلِمَةٌ كذّابةٌ في بني الدّنيا وكذّابُ

وكندة قوم الأشعث، وبكر بن وائل بالبحرين قوم الحُطَم بن يزيد، وكفى الله أمرهم على [١٥٤/أ] يد أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة في عهد عمر بن الخطاب: غسّان قوم جبلة بن الأيهم نصّرَتْه اللطمة وسيّرته إلى بلد الروم بعد إسلامه[١].

وقرىء: من[٢] يرتدد، بالفكّ والإدغام. وهي جملة شرطية والجواب قوله «فسوف يأتي الله بقوم»، والقاعدة النحوية أنه إذا كان جواب الشرط جملة واسم الشرط غير ظرف فلا بدّ من ضميرٍ في جملةِ الجواب عائد على اسم الشرط. والجملةُ ها هنا ليس فيها ضميرٌ ظاهر فلا بدّ من تقديره، وتقديره: بقوم غيرهم، أي غير من يرتدّ، و«بقوم» فيه أقوال. وفي المستدرك[٣] لأبي عبد الله الحاكم بإسناده أنه لما نزلت أشار رسول الله ﷺ إلى أبي موسى الأشعري فقال: هم قوم هذا. وهذا أصح الأقوال وكان لهم بلاءٌ في الإسلام زمان رسول الله ﷺ وعامة فتوح عمر على أيديهم. ووصف تعالى هؤلاء القوم بأنه يحبهم ويحبونه ومحبة الله لهم هي توفيقهم للإيمان كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ۝٧﴾ [الحجرات] وإثابته على ذلك وعلى سائر الطاعات وتعظيمه إياهم وثناؤه عليهم. ومحبّتهم له طاعته تعالى واجتناب مناهيه وامتثال مأموراته. وقدم محبته على محبتهم إذ هي أسبق وأشرف.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هو جمع ذليل لا جمع ذلول الذي هو

(١) تفصيله في تفسير الرازي ١٢: ٢١.

(٢) ق: ومن.

(٣) أخرجه الحاكم ٢: ٣١٣ من حديث عياض الأشعري، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

نقيض الضعف، لأن ذَلولاً لا يجمع على أذلّة بل على ذُلُل. وعَدّى «أذلّة» بعلى وإن كان الأصل باللام لأنه ضمّنه معنى الحنوّ والعطف كأنه قيل: عاطفين على المؤمنين على وجه التذلل والتواضع، قيل: أو لأنه على حذف مضاف، التقدير: على فضلهم على المؤمنين. والمعنى أنهم يذلّون ويخضعون لمن فُضّلوا عليه مع شرفهم وعلوّ مكانتهم، وهو نظير قوله ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۝٢٩﴾ [الفتح]. وجاءت هذه الصفة بالاسم الذي فيه المبالغة لأن «أذلّة» جمع ذليل و«أعزّة» جمع عزيز وهما صفتا مبالغة، وجاءت الصفة قبل هذا بالفعل في قوله «يحبهم ويحبونه» لأن الاسم يدل على الثبوت، فلما كانت صفة مبالغة وكانت لا تتجدد بل هي كالغريزة جاء الوصف بالاسم. ولما كانت الصفة قبلُ تَجَدَّدُ لأنها عبارةٌ عن أفعالِ الطاعات والثواب المترتّب عليها جاء الوصفُ بالفعلِ الذي يقتضي التجدد. ولما كان الوصف الذي يتعلق بالمؤمن آكد ولموصوفه ألزم، قُدّم على الوصف المتعلق بالكافر، ولشرف المؤمن أيضاً. ولما كان الوصف الذي بين المؤمن وربه أشرف من الوصف الذي بين المؤمن والمؤمن، قدّم قوله «يحبّهم ويحبّونه» على قوله «أذلّة على المؤمنين».

وفي هذه الآية دليل على بطلان قول من ذهب إلى أن الوصف إذا كان بالاسم وبالفعل، لا يتقدم الوصف بالفعل على الوصف بالاسم إلا في ضرورة الشعر نحو قول الشاعر[1]: [من الطويل]

وفرعٍ يغشّي المتن أسودَ فاحمٍ [أثيثٍ كقِنْو النخلةِ المتعثكلِ]

إذ جاء ما ادّعى أنه يكون في الضرورة في هذه الآية فقدّم «يحبهم

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص١٦.

ويحبونه» وهو فعل، على قوله «أذلة» وهو اسم. وكذلك قوله تعالى ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام]. وقرئ شاذاً: أذلةً بالنصب، وكذا: أعزةً نصباً على الحال من النكرة إذ قربت من المعرفة لوصفها. ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾سبيل الله» أي في نصرة دينه. وظاهر هذه الجملة أنها صفة ويجوز أن تكون استئناف إخبار.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي هم صلاب في [١٥٤/ب] دينه لا يبالون بمن لام فيه، فمتى شرعوا في أمر بمعروفٍ ونهي عن منكر أمضوه[١] لا يمنعهم اعتراض معترض ولا قول قائل. وهذان الوصفان أعني الجهاد والصلابة في الدين هما نتيجة الأوصاف السابقة، لأنّ مَنْ أحبّ الله لا يخشى إلا إياه، ومن كان عزيزاً على الكافر جاهد في إخماده واستئصاله. وناسب تقديم الجهاد على انتفاء الخوف من اللائمين لمجاورته «أعزة على الكافرين» ولأن الخوف أعظم من الجهاد فكان ذلك ترقياً[٢] من الأدنى إلى الأعلى. ويحتمل أن تكون الواو في «ولا يخافون» واو الحال أي يجاهدون وحالهم في المجاهدة غير حال المنافقين فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود وتخاذلوا حتى لا يلحق بهم لوم من جهتهم. وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله تعالى لا يخافون لومة لائم. ولَوْمة للمرة الواحدة وهي نكرة في سياق النفي فتعمّ أي لا يخافون شيئاً قطّ من اللوم.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الظاهر أنّ «ذلك» إشارة إلى ما تقدّم من الأوصاف التي تحلّى بها المؤمن. ذكر أن ذلك هو من فضل الله يؤتيه من أراده، ليس ذلك

---

(١) ق: مضوه.

(٢) ق: ترقيباً.

بسابقة ممن أعطاه إياه بل ذلك على سبيل الإحسان منه تعالى لمن أراد الإحسان إليه. وقيل: «ذلك» إشارة إلى حب الله لهم وحبّهم له.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [أي: واسعُ] الإحسانِ والإفضال، عليم[١] بمن يصنع ذلك فيه.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية، لما نهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء بيَّنَ هنا من هو وليّهم وهو الله ورسوله، والوليّ هنا الناصر، والمعنى: لا وليَّ لكم إلا الله. وقال «وليّكم» بالإفراد ولم يقل أولياؤكم وإن كان المُخْبَر به متعدداً، لأن وليّاً اسم جنس، أو لأن الولاية حقيقةً هي لله تعالى على سبيل التأصّل ثم نظم في سلكه من ذكر على سبيل التّبع، ولو جاء جمعاً لم يتبيّن هذا المعنى من الأصالة والتبعيّة.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، هذه أوصاف ميَّز بها المؤمنَ الخالصَ الإيمانِ من المنافق، لأنَّ المنافقَ لا يدومُ [على] الصلاة ولا على الزكاة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب]. ولما كانت الصحابةُ وقتَ نزولِ هذه الآية بين[٢] مُقيم صلاة ومؤتي زكاة - وفي كلتا الحالتين كانوا مُتَّصفين بالخضوعِ لله والتذلّل له - نزلت الآية متضمّنةً هذه الأوصافَ الجليلة.

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت «الذين يقيمون» ما محله؟ قلت: الرفع على البدل من «الذين آمنوا» أو على: هم الذين يقيمون انتهى.

---

(١) ق: عليهم.

(٢) ق: من.

(٣) الكشاف ١: ٦٢٣.

ولا أدري ما الذي منعه من الصفة إذ هو المتبادر إلى الذهن، ولأن المبدل منه في نيّة الطرح ولا يصحّ هنا طرح «الذين آمنوا» لأنه هو الوصف المترتب عليه صحّة ما بعده من الأوصاف.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يحتمل أن يكون جواب «من» محذوفاً لدلالة ما بعده عليه أي يكن من حزب الله تعالى، ويغلب ويحتمل أن يكون الجواب «فإن حزب الله» ويكون من وضع الظاهر موضع المضمر أي فأنتم هم الغالبون. وفائدة وضع الظاهر هنا موضع المضمر الإضافة إلى «الله» فيَشْرفون بذلك وصاروا بذلك أعلاماً. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حَزَبَهم. و«هم» يجوز أن يكون فصلاً و«الغالبون» خبر إنّ، ويجوز أن يكون مبتدأ و«الغالبون» خبره والجملة في موضع خبر إنّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابن [١٥٥/أ] عباس: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجالٌ من المسلمين يوادُّونهما[١] فنزلت.

ولمّا نهى تعالى المؤمنينَ عن اتخاذِ اليهودِ والنصارى أولياء نهى هنا عن اتخاذِ الكفارِ أولياء يهوداً كانوا أو نصارى أو غيرهما. وكرّر ذكر اليهود والنصارى بقوله تعالى «من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» وإنْ كانوا مندرجينَ في عمومِ الكفار، على سبيل النصِّ على بعضِ أفراد العام لسبقهم في

(١) ق: يوادّوهما.

الذكْرِ في الآياتِ قَبْلُ، ولأنهم أوغل في الاستهزاء وأبعد انقياداً للإسلام إذْ يزعمون أنهم على شريعةٍ إلهيّة، ولذلك كان المؤمنون من المشركين في غايةِ الكَثْرةِ والمؤمنون من اليهودِ والنصارى في غايةِ القِلَّة.

وقرىء: والكفار بالنصب عطفاً على «الذين اتخذوا» وبالجر عطفاً على «من الذين».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في موالاة الكفار. ثم نبّه على الوصف الحامل على التقوى وهو الإيمان أي من كان مؤمناً حقاً يأبى موالاة أعداء الدين.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾ قال الكلبي: كان إذا نودي بالصلاة قام المسلمون إليها فتقول اليهود: قاموا لا قاموا، صلَّوا لا صلَّوا، ركعوا لا ركعوا! على طريق الاستهزاء والضحك فنزلت. «وإذا ناديتم» أي: نادى بعضكم إلى الصلاة لأن الجميع لا ينادون.

وقال بعض العلماء: فيها دليل على مشروعيّة الأذان بنصِّ الكتاب لا بالمنام وحده انتهى.

ولا دليل في ذلك على مشروعيته لأنه قال «وإذا ناديتم» ولم يقل: ونادوا، على سبيلِ الأمر، وإنما هذه جملةٌ شرطية دلّت على سَبْقِ المشروعيّةِ لا على إنشائها.

ولما قدّم أنهم اتخذوا الدينَ هزواً ولعباً اندرج في ذلك جميع ما انطوى عليه الدين، فجرّد من ذلك أعظم أركان الدين ونصّ عليه وهو الصلاة التي هي صلةٌ بين العبدِ وربّه، فنبّه على أنَّ مَن استهزأ بالصلاةِ ينبغي أنْ لا يُتَّخذَ وليّاً وأنْ يُطردَ ويُتخذ عدوًّا. فهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية التي قبلها. «ذلك» أي الفعل منهم كائن بسبب انتفاء عقلهم، ونفاه عنهم لكونهم لم

ينتفعوا به في الدين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ
وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ
وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن
سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ
لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية، «قل» أمرٌ لرسول الله ﷺ. و«هل» استفهام معناه النفي. و«تنقِمون» بكسر القاف ماضيه نَقَم وهي أفصح من نقِمَ ينقَم.

و﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا ﴾ استثناء مفرغ أي: لا تعيبون منا شيئاً إلا الإيمان بالله. وهذه محاورةٌ لطيفة وجيزة تنبّهُ الناقمَ على أنه ما نقمَ عليهم إلا ما [لا] يُنقم ولا يُعدُّ عيباً ونظيره(١): [من الطويل]

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم   بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب

«وما أنزل» معطوف على «بالله» وهو القرآن. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ هي الكتب الإلهيّة كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

وقرأ نعيم بن ميسرة: وإنّ أكثركم فاسقون، بكسر الهمزة وهو واضح المعنى: أمره تعالى أن يقول لهم هاتين الجملتين. وقرأ الجمهور: وأنّ بفتح الهمزة وخُرّج ذلك [على] وجوه منها الرفع على الابتداء، وقدّر

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٦٠.

الزمخشري[١] الخبر مؤخراً محذوفاً أي: وفِسْقُ أكثركم معلومٌ عندكم لأنكم علمتم أنَّا[٢] على الحقِّ وأنكم على الباطل انتهى. ولا ينبغي أنْ يقدَّر الخبرُ إلا مقدّماً أي: ومعلومٌ فِسْقُ أكثركم، لأنّ الأصح أن لا يُبتدأ بها متقدمةً إلا بعد أما فقط. ومنها [١٥٥/ب] النصب عطفاً على «أن آمنّا» إلا أنه على حذفِ مضافٍ تقديرهُ: واعتقادنا فيكم أنَّ أكثركم فاسقون، وهذا معنى واضح ويكون ذلك داخلاً فيما ينقمون[٣] حقيقة. ومنها [الجر] عطفاً على قوله «وما أنزل إلينا وما أنْزل من قبل» أي وبأن أكثركم فاسقون.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ الخطابُ بالأمرِ لرسولِ الله ﷺ، وبضمير الخطاب لأهل الكتاب الذين أُمر أن يناديهم ويخاطبهم. أو يكون خطاباً للمؤمنين بقوله «قل يا أهل الكتاب هل تنقمون». «ذلك» اسم إشارة، فعلى تقديرِ أنَّ الخطاب للكفار يكون ذلك إشارة إلى حال من نَقَم، ويكون «مَنْ لعنه الله» على حذفِ مضافٍ أي: حال من لعنه. وللعربِ لغةٌ منقولة أنَّ اسمَ الإشارة يكون على كل حال من تأنيث وتثنية وجمع كما يكون للواحد المذكر، فيحتمل أن يكون «ذلكم» من هذه اللغة، ويحتمل أن يكون «ذلكم» أيضاً إشارة إلى متشخص[٤] وأفرد على معنى الجنس كأنه قال: قل هل أنبئكم بشرٍّ من جنس الكتابي ومن جنس المؤمن على اختلاف التقديرين اللذين سبقا، ويكون أيضاً «من لعنه» تفسير شخص لشخص.

وانتصب «مثوبة» على التمييز وجاء على التركيب الأكثر الأفصح من تقديم

(١) الكشاف ١: ٦٢٥. وعبارته: أي وفسقكم ثابت معلوم.

(٢) ق: أن الله.

(٣) ق: يتقون.

(٤) أي إلى متعيّن.

المفضّل عليه على التمييز كقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء] وتقديم التمييز على المفضل أيضاً فصيح كقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]. و«مَنْ» في موضع رفع كأنه قيل: مَنْ هو؟ فقيلَ: هو مَنْ لعنه الله، أو في موضع جرّ على البدل من قوله «بشرٍّ». و«من» موصولة عاد الضمير عليه على لفظه في قوله «لعنه الله» وفي قوله «عليه»، وأعاده على معنى «من» في قوله تعالى «وجعل منهم القردة والخنازير» ثم عاد إلى لفظة «مَن» في قوله «وعَبَد» فأفرد الضمير.

قال ابن عباس: هم أصحابُ السبتِ مُسخ شبابُهم قردةً وشيوخهم خنازير. وقرأ جمهور السبعة: وعَبَد الطاغوت. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة: وعَبُد بضم الباء، الطاغوتِ بكسر التاء.

قال الزمخشري[١]: ومعناه الغلوُّ في العبودية كقولهم رجل حَذُر وفَطُن للبليغ في الحذر والفطنة.

وقال ابن عطية: عَبُد لفظ مبالغة كيَقُظ ونَدُس[٢]، فهو لفظ مفرد يُرادُ به الجنس ويُبنى بناء الصفات لأن «عَبُد» في الأصل صفة وإن كان يستعمل استعمال الأسماء وذلك لا يخرجه عن حكم الصفة ولذلك لم يمتنع أن يُبنى منه بناء مبالغة، وأنشد هو والزمخشري[٣]: [من الكامل]

أَبنـي لُبينـى إنّ أُمّكـمُ ... أَمَـةٌ وإنّ أبـاكـمُ عَبـد

وعـدّ ابـن مـالـك فـي أبنيـة أسمـاء الجمـع فَعُـلاً فقـال: ومنهـا فَعُـل

(١) الكشاف ١: ٦٢٥.
(٢) النَّدُس: من يخالط الناس دون أن يثقل عليهم.
(٣) الكشاف ١: ٦٢٥. والبيت لأوس بن حجر في ديوانه ص٢١.

كسَمُر[١] وعَبُد. وعلى هذه القراءة يكون «وعَبُد» معطوفاًعلى قوله «القردة والخنازير»، وعلى قراءة الجمهور يكون معطوفاً على صلة[٢] «مَنْ». وفي «البحر»[٣] أنَّ في قوله تعالى «وعبد الطاغوت» اثنتين[٤] وعشرين قراءة وتكلّم على توجيهها فيه، منها قراءة الحسن: وعبْد الطاغوتَ بإسكان الباء ونصب التاء، قال ابن عطبة: أراد وعبداً، منوناً فحذف التنوين كما في قوله[٥]:

[من المتقارب]

[فـألفيتـه غيـر مُسْتَعْتِـبٍ] ولا ذاكـرَ الله إلا قليـلا

[انتهى]. ولا وجه لهذا التخريج لأن «عبداً» لا يمكن أن ينصب «الطاغوت» بوجه، إذ ليس بمصدر ولا اسم فاعل. والتخريج الصحيح أن يكون تخفيفاً من عَبَد بفتح الباء. «أولئك» [١٥٦/أ] إشارة إلى الموصوفين باللعنة وما بعدها.

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ الآية، ضمير الغيبة في «جاؤوكم» لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وخاصة للمنافقين منهم، قاله ابن عباس وغيره. وضمير الخطاب في «جاؤوكم» يقوّي أن الخطاب في قوله «هل أنبّئكم» للمؤمنين. ونقول إن الجملة الاسمية الواقعة حالاً المصدّرة بضمير ذي الحال [المخبر عنه بفعل أو اسم يتحمل ضمير ذي الحال] آكد من الجملة الفعلية من جهة أنه يتكرر فيها المسند إليه فيصير نظير قوله: قام زيد [زيد]. ولما

---

(١) ق: كسمرة.

(٢) ق: صلات.

(٣) انظر ٣: ٥١٩.

(٤) ق: اثنين.

(٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص١٢٣.

كانوا[١] حين جاؤوا الرسولَ والمؤمنين قالوا آمنا متلبِّسينَ بالكفر كان ينبغي لهم أن [لا] يخرجوا بالكفر لأن رؤيةَ رسولِ الله ﷺ كافية في الإيمان؛ ألا ترى إلى قولِ بعضهم حين رأى رسولَ الله ﷺ قال: علمت أنَّ وجهه ليس بوجهِ كذَّاب، مع ما يظهر لهم منه من خوارقِ الآياتِ وباهرِ الدلالاتِ، فكان المناسب أنهم وإن كانوا دخلوا بالكفر أن لا يخرجوا به بل يخرجون بالرسولِ مؤمنينَ ظاهراً وباطناً، فأكَّدَ وصفهم بالكفرِ بأنْ كرر المسند إليه تنبيهاً على تحقُّقهم بالكفرِ وتماديهم عليه[٢] وأن رؤيته عليه السلام لم تُجْدِ عندهم ولم يتأثّروا لها.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ الآية، عامّ: من كفرهم ونفاقهم وتغيير صفة محمد ﷺ ونعته. وفي هذا مبالغةٌ في إفشاء ما كانوا يكتمونه من المكرِ بالمسلمينَ والعداوة، وأن قولهم «آمنا» خالَف ظاهرُ قولِهم باطنَهم.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ الآية، تحتمل «ترى» أن تكون بصريّة فيكون «يسارعون» صفة، وأن تكون علميّة فيكون مفعولاً ثانياً. والمسارعة الشروع بسرعة. و«الإثم» قيل الكذب، و«العدوان» الظلم. وليس حقيقة الإثم الكذب، إذ الإثم هو الحكم المتعلق بصاحب المعصية أو الإثم[٣] ما يختصّ بهم، والعدوان ما يتعدّاهم إلى غيرهم. و«السحت» تقدم الكلام عليه[٤].

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ الآية، «لولا» تخصيصٌ يتضمن توبيخَ العلماء والعُبّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله تعالى والأمر بالمعروف.

---

(١) ق: كان.

(٢) ق: وتماديه عليهم.

(٣) ق: والإثم.

(٤) انظر تفسير الآية ٤٢ من هذه السورة.

وقال العلماء: ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً منها للعلماء، وأنشد ابن المبارك في شعره[١]: [من المتقارب]

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبـارُ سـوءٍ ورهبـانُهـا

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ الآية، نزلت في فنحاص وفي ابن صوريا وعازر بن أبي عازر قالوا ذلك. ونُسب ذلك إلى اليهود لأن هؤلاء علماؤهم وهم أتباعهم في ذلك.

واليدُ في الجارحة حقيقة وفي غيرها مجازٌ فيراد بها النعمة والقوة والملك والقدرة. وظاهر قول اليهود أنَّ لله تعالى يداً؛ فإنْ كانوا أرادوا الجارحةَ فهو يناسبُ مذهبهم إذ هو التجسّم. وظاهر مساق الآية يدلّ على أنهم أرادوا بغلِّ اليد وبسطها المجاز عن البخل والجود ومنه قوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ خبرٌ وإيعادٌ واقع بهم في جهنم لا محالة، قال الحسن: أو

(١) البيت في القرطبي ٨: ١٢٠.

خبر عنهم في الدنيا جعلهم الله أبخل قوم قاله الزّجاج. ويظهر أنّ قولهم «يد الله مغلولة» استعارة[1] عن الإمساكِ من الإحسانِ الصادرِ عن المقهورِ على[2] الإمساك، ولذلك جاؤوا بلفظ «مغلولة» ولا يُغلّ إلا المقهور، فجاء قوله «غُلّت [١٥٦/ ب] أيديهم» دعاءً عليهم بغلِّ الأيدي، فهم في كل بلدٍ مع كلِّ أمةٍ مقهورون مغلوبون لا يستطيع أحدٌ منهم أنْ يستطيلَ ولا يستعلي، فهو استعارةٌ عن ذُلِّهم وقهرهم وأنَّ أيديهم لا تنبسط لدفع ضرٍّ نزلَ بهم، وذلك مقابلة عمّا تضمّنه قولهم «يد الله مغلولة». وليست هذه المقالة بدعاً منهم فقد قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۝١٨١﴾ [آل عمران].

﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ يحتمل أن يكون خبراً وأن يكون دعاءً. و«بما قالوا» يحتمل أن يكون يراد به مقالتهم هذه ويحتمل أن يكون عاماً فيما نسبوه إلى الله تعالى مما لا يجوزُ نِسْبتُه إليه، فتندرج هذه المقالةُ في عموم ما قالوا.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ معتقد أهل الحق أن الله تعالى ليس بجسم ولا جارحة له ولا يشبهه شيء من خلقه ولا يكيّف ولا يتحيّز ولا تحلّه الحوادث وكل هذا مقرر في علم أصول الدين. والجمهور على أن هذا استعارة عن جوده وإنعامه السابغ، وأضاف ذلك إلى اليدين جرياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتا يديه ومنه قول الشاعر[3]: [من الطويل]

يـداك يـدا مجـدٍ فكـفٌّ مفيـدةٌ ... وكفٌّ إذا ما ضُنَّ بالمالِ تنفق

ويؤيّد أنَّ اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق، ومَنْ نظر في كلام

---

(١) ق: أنه استعارة.

(٢) ق: عن.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ص٢٦١.

العرب أدنى نظرٍ عرفَ يقيناً أنّ بسطَ اليد وقبضها استعارة للجود والبخل.

﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء وأنه لا ينفق إلا على ما تقتضيه مشيئته. ولا موضع لقوله «ينفق» من الإعراب إذ هي جملة مستأنفة. قال الحوفي: «كيف» سؤال عن حال وهي نصب بيشاء انتهى. ولا يُعقل هنا كونها سؤالاً عن حالٍ بل هي في معنى الشرط كما تقول: كيف تكون أكون. ومفعول «يشاء» محذوف، وجواب «كيف» محذوف يدل عليه «ينفق» المتقدم كما يدلّ في قولك: أقوم إن قام زيد، على جواب الشرط، والتقدير: [ينفق] كيف يشاء أن ينفق [ينفق]، كما تقول: كيف تشاء أن أضربك [أضربك]. ولا يجوز أن يعمل في «كيف» «ينفق»، لأن اسم الشرط لا يعمل فيه ما قبله إلا إن كان جاراً فقد يعمل في بعض أسماء الشرط، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا﴾ [ذَكَرَ «كثيراً»] لأنَّ منهم مَنْ آمن كعبد الله بن سلام.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ قيل: الضمير في «بينهم» عائد على اليهود والنصارى لأنه جرى ذكرهم في قوله ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة] ولشمول قوله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة] للفريقين وهذا قول الحسن وغيره. وقيل هو عائد على اليهود إذ فيهم جبرية وقدريّة ومشبّهة وموحّدة، وكذلك فرق النصارى كالملكانية واليعقوبية والنسطورية.

والذي يظهر أن المعنى: لا يزالون متباغضينَ متعادينَ[1] فلا يمكن اجتماعُ كلمتهم على قتالك ولا يقدرون على حربك ولا يصلون إليك ولا إلى أتباعك. وفي ذلك إخبارٌ بالغيب وهو أنه لم يجتمع لحربِ المسلمين جيشًا

(١) ق: متساعدين.

يهودٍ ونصارى منذ كان الإسلامُ إلى هذا الوقت.

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا﴾ قال الجمهور: هو استعارة، وإيقاد النار عبارة عن إظهارِ الحقدِ والكيد والمكر بالمؤمنين والاغتيالِ والقتال، وإطفاؤها صَرْفُ الله عنهم ذلك وتفريق آرائهم وحلّ عزائمهم وتفريق كلمتهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، لا يرون محاربة أحد إلا غُلبوا وقُهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [١٥٧/أ] الظاهر أنه يراد به العمل والفعل، أي: يجتهدون في الكيدِ للإسلامِ ومحو[1] ذِكْرِ الرسولِ من كتبهم. و«الأرض» يجوز أن يراد بها الجنس أو أرض الحجاز فتكون أل فيه للعهد.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ[2] وَٱتَّقَوْاْ﴾ الآية، قيل: المراد أسلافهم ودخل فيها المعاصرون بالمعنى. والغرض الإخبار عن أولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلّهم بمعاصيهم، والذي يظهر أنهم معاصرو رسولِ الله ﷺ، وفي ذلك ترغيبٌ لهم في الدخول في الإسلام. وذكر شيئين هما الإيمان والتقوى ورتَّبَ عليهما شيئين وهما: قابل الإيمانَ بتكفيرِ السيئاتِ إذِ الإسلامُ يجبُّ ما قبله، ورتَّب على التقوى - وهي امتثال الأوامر واجتناب المناهي - دخول جنة النعيم. وأضاف الجنةَ إلى النعيمِ تنبيهاً على ما كانوا يستحقّونه من العذاب لو لم يؤمنوا ويتقوا. و«أنّ» في قوله «ولو أن أهل الكتاب» حرف مصدري ينسبك منه مع ما بعده مصدر، فقيل يرتفع على الفاعلية،

(١) ق: ونحو.
(٢) ق: أنهم آمنوا.

التقدير: لو ثبت إيمانهم وتقواهم لكفّرنا عنهم. وقيل هو مبتدأ والخبر محذوف [التقدير]: لو إيمانهم وتقواهم موجودان لكفّرنا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ الآية، هذا استدعاءٌ لإيمانهم وتنبيه لهم على اتباعِ ما في كتبهم وترغيب في عاجلِ الدنيا وبسط الرزق عليهم فيها، إذْ أكثر ما في التوراة من الموعودِ به على الطاعاتِ هو الإحسان إليهم في الدنيا. ولمّا رغّبهم في الآية قَبْلُ في موعودِ الآخرة من تكفيرِ السيئات وإدخالهم الجنة - رغَّبهم في هذه الآية في موعودِ الدنيا ليجمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة. وكان تقديم موعود الآخرة أهمّ لأنه هو الدائم الباقي والذي به النجاة السرمدية والنعيم الذي لا ينقضي.

ومعنى إقامة التوراة والإنجيل هو إظهارُ ما انطوتْ عليه من الأحكامِ والتبشير برسولِ الله ﷺ والأمر باتّباعه، فهو كقولهم: أقاموا السوق أي: حرَّكوها وأظهروها وذلك تشبيهٌ بالقائم من الناس إذ هي أَظهرُ هيئته. وفي قوله «والإنجيل» دليلٌ على دخول النصارى في لفظ «أهل الكتاب».

وظاهر قوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ العموم في الكتب الإلهية مثل كتاب أشعيا وكتاب دانيال فإنها مملوءةٌ من البشارةِ بمبعثِ رسولِ الله ﷺ، وقيل «ما أنزل إليهم من ربهم» هو القرآن.

وظاهرُ قوله ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أنه استعارة عن سبوغ النعم عليهم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال: قد عَمَّهُ الرزقُ من فَرْقِهِ إلى قدميه ولا فوق ولا تحت. وقال ابن عباس وغيره: لأعطتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها كقوله تعالى ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ الضمير في «منهم» يعود على أهل الكتاب. والأمّةُ هنا يُرادُ بها الجماعةُ القليلة للمقابلة لها بقوله «وكثير». والاقتصاد من القصدِ وهو الاعتدالُ وهو افتعل بمعنى اعتمل واكتسب، أي كانت أولاً جائرة ثم اقتصدت. وقيل هم مؤمنو الفريقين كعبد الله بن سلاّم وأصحابه وثمانية وأربعين[1] من النصارى، واقتصادهم هو الإيمان بالله تعالى.

﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ هذا تنوّع في التفصيل؛ والجملة الأولى جاءت «منهم أمة مقتصدة» جاء الخبر الجار والمجرور و«مقتصدة» وصف، والجملة الثانية جاء فيها الوصف الجار والمجرور والخبر الجملة من قوله «ساء ما يعملون».

وبين التركيبين تفاوتٌ غريب من حيث المعنى وذلك أن الاقتصادَ جُعل وصفاً والوصفُ ألزمُ للموصوفِ من الخبر، فأتى في الطائفة الممدوحة بالوصف اللازم وأخبر عنها بقوله «منهم»، والخبر ليس من شأنه اللزوم ولا سيّما هنا [١٥٧/ب] فأخبر عنهم بأنهم من أهل الكتاب في الأصل ثم قد تزول هذه النسبة بالإسلام فيكون التعبير عنهم والإخبار بأنهم منهم باعتبار الحالة الماضية.

وأما في الجملة الثانية فإنهم منهم حقيقةً لأنهم كفّار فجاء[2] الوصف بالألزم ولم يجعل خبراً، أو جُعل خبراً للجملة التي هي «ساء ما يعملون» لأن الخبر ليس من شأنه اللزوم، فهم بصدد أن يسلم ناس منهم فيزول عنهم الإخبار بمضمون هذه الجملة.

(١) ق: وأربعون.

(٢) ق: في.

واختار الزمخشري في «ساء» أن تكون التي لا تتصرف قال[١]: فيه معنى التعجب كأنه قيل: [وكثير منهم] ما أسوأ عملهم. ولم يذكر غير هذا الوجه. واختار ابن عطية أن تكون المتصرّفة، تقول: ساء الأمر يسوء. وأجاز أن تكون غير المتصرفة فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله تعالى ﴿سَآءَ مَثَلًا ۝١٧٧﴾ [الأعراف] فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول أي: ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين[٢]، وغير المتصرفة تحتاج إلى تقدير تمييز أي ساء عملاً ما كانوا يعملون انتهى.

فإذا كانت «ساء» للتعجب كان وزنها فَعُل كما نقول: قَضُوَ الرجل أي ما أقضاهُ، وكذلك يكون وزنها فَعِل إذا كانت من باب نعم وبئس[٣]، وإذا كانت متصرفة ومتعدّية كان وزنها فعَل بفتح العين. ويجوز في «ما» أيضاً أن تكون مصدرية أي ساء عملهم، وأن تكون موصولة بمعنى الذي ويكون التقدير: ما يعملونه، وحذف الضمير العائد على الموصول.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ
وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩ لَقَدْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ

(١) الكشاف ١: ٦٣٠.

(٢) ق: المؤمنين.

(٣) انظر الكتاب ٢: ١٧٩.

أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ هذا نداءٌ بالصفة الشريفة التي هي أشرف أوصاف الجنس الإنساني، وأَمْرٌ بتبليغ ما أُنزل إليه، وهو عليه السلام قد بلّغ ما أُنزل إليه فهو أَمْرٌ بالديمومة.

﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ بتبليغِ ما أنزلَ إليك. وظاهر هذا الجواب لا ينافي الشرط إذ صار المعنى: وإن لم تفعل لم تفعل. والجواب لا بدّ أن يغاير الشرط حتى يترتّب عليه فقال الزمخشري(١): المراد: وإن لم تفعل نالك ما يوجبه كتمان الوحي كله من العقاب، فوضع السبب موضع المسبّب، ويعضده قوله عليه السلام: «فأوحى الله إليّ إن لم تبلّغ رسالتي عذّبتك» انتهى. وقال ابن عطية: أي إن تركتَ شيئاً فكأنك قد تركت الكلّ وصار ما بلّغت غير معتدٍّ به. فمعنى «وإن لم تفعل» وإن لم تستوف.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ قال محمد بن كعب: نزلت بسببِ الأعرابيِّ الذي اخترطَ سيفَ النبيِّ ﷺ ليقتله انتهى، وهو غورث بن الحارث وذلك في غزوة ذات الرقاع(٢). وهذه الآيةُ نزلت بالمدينة والرسولُ ﷺ بها مقيم سهر ليلة وحرسه سعد وحذيفة فنام حتى غطّ فنزلت، فأخرج إليهما رأسه من قبّة أدم وقال: انصرفوا أيها الناسُ فقد عصمني اللهُ لا أبالي مَنْ نصرني ومَنْ

(١) الكشاف ١: ٦٣٠. وفيه: فلك ما يوجبه.

(٢) انظر حديث جابر في صحيح مسلم ١: ٥٧٦.

خذلني. أصل هذا الحديث في صحيح مسلم[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي: من قضى عليه بالكفر والموافاة عليه، أي لا يهديه الله أبداً. فليس لفظ «الكافرين» على عمومه لأنه قد وُجد كفّار وقد هداهم الله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال رافع بن حارثة وغيره: يا محمد ألستَ تزعمُ أنك على ملّة إبراهيم وأنك تؤمنُ بالتوراةِ وبنبوّة موسى وأن ذلك حق؟ قال: بلى ولكن أحدثتم وغيّرتم وكتمتم. فقالوا: إنّا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق ولا نصدقك ولا نتبعك فنزلت[٢]. وتقدم الكلام على إقامة التوراة والإنجيل و«ما أنزل»[٣] فأغنى عن إعادته. ونَفْي أنْ يكونوا[٤] على شيءٍ جعل ما هم عليه عَدَماً صِرْفاً لفساده وبطلانه فنفاه من أصله، أو لاحظ [فيه] صفة محذوفة أي على شيء يُعتدّ به، فيتوجّه النفي إلى الصفة دون الموصوف. والضمير في «تقيموا» عائد على أهل الكتاب [١٥٨/أ] من اليهود والنصارى، وقيل جمع الضمير والمقصود التفصيل أي: حتى يقيم أهلُ التوراةِ التوراةَ ويقيم أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ. ولا يحتاج إلى ذلك إنْ أُريدَ ما في الكتابين من التوحيدِ فإنَّ الشرائع فيه متساوية.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أي: لا تحزن عليهم فأقام الظاهر مقام المضمر تنبيهاً على العلّة الموجبة لعدم التأسّف وهي الفسق، أو هو عام فيندرجون فيه.

(١) انظر ٤ : ١٨٧٥، وأخرجه الترمذي ٥ : ٢٥١ من حديث عائشة وقال: حديث غريب.

(٢) انظر جامع البيان ٦ : ٢٠٠.

(٣) في تفسير الآية ٦٦.

(٤) ق: يكون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآية، تقدم الكلام على نظيرها[1]. وقرأ أبيّ وعثمان وغيرهما: والصابئين منصوباً عطفاً على اسم إنّ وما بعدها، قال الزمخشري[2]: وبه قرأ ابن كثير انتهى، وليس ذلك مشهوراً عن ابن كثير. وقرأ القراء السبعة: والصابئون بالرفع، ووُجّه ذلك على وجوه منها مذهب سيبويه والخليل ونحاة البصرة أنه مرفوع بالابتداء وهو منويّ به التأخير ونظيره: إن زيداً وعمرو قائم، التقدير: إنّ زيداً قائم وعمرو قائم، فحذف خبر عمرو لدلالة خبر إنّ عليه، والنية بقوله: وعمرو التأخير، ويكون «وعمرو قائم» بخبره هذا المقدّر معطوفاً على الجملة من: إنّ زيداً قائم، وكلاهما لا موضع له من الإعراب. الوجه الثاني أنه معطوف على موضع اسم إنّ، لأنه قبل دخول إنّ كان في موضع رفع فَروعِيَ هذا الموضع، وهذا مذهب الكسائي والفراء. ودلائل هذه المسألة مقررة في علم النحو.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا ﴾ الآية، هذا إخبارٌ بما صدر من أسلافِ اليهود من نقضِ الميثاقِ الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوهُ من الجرائمِ العِظام من تكذيبِ الأنبياء وقتل بعضهم. والذين بحضرةِ رسولِ الله ﷺ أخلافُ أولئك، فغير بِدْعٍ ما يصدرُ منهم للرسولِ عليه السلام من الأذى والعصيان إذ ذلك شنشنة من أسلافهم.

﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ الآية، تقدم تفسير نظيرها في البقرة[3]، وقال الزمخشري هنا[4]: فإن قلت: أين جواب الشرط؟ فإن قوله «فريقا كذبوا

(١) انظر تفسير الآية ٦٢ من البقرة.

(٢) الكشاف ١ : ٦٣٣ .

(٣) الآية ٨٧.

(٤) الكشاف ١ : ٦٣٣ .

وفريقا يقتلون» نابَ عن الجوابِ، لأنَّ الرسولَ الواحد لا يكون فريقين، ولأنه لا يحسن أنْ تقول: إن أكرمتَ أخي أخاك أكرمتُ؟ قلت: هو محذوف ودلّ عليه قوله «فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون» كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه.

وقوله ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ جواب مستأنف لقائل يقول: كيف فعلوا برسلهم؟ انتهى.

وقوله «فإن قلت: أين جواب الشرط» سمّى قوله «كلما جاءهم رسول» شرطاً وليس بشرط، بل «كلّ» منصوبة[1] على الظرف لإضافتها إلى المصدر المنسبك من ما المصدرية الظرفية، والعامل فيها هو ما يأتي بعد ما المذكورة وصلتها من الفعل، كقوله تعالى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] وقوله تعالى ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾ [الملك][2]. واجتمعت العرب على أنه لا يجزم بكلما.

وعلى تسليم تسميته شرطاً فذِكْر أنّ قوله «فريقاً كذبـوا» ينبو عن الجواب لوجهين: أحدهما: قوله «لأن الرسول الواحد لا يكون فريقين» وليس كما ذكر لأن الرسول في هذا التركيب لا يراد به الواحد بل المراد الجنس، ألا ترى أنك إذا قلت: لا أصحبك ما طلع نجم، لا يراد به واحد بل يراد به الجنس وأي نجم طلع. وإن كان المراد به الجنس انقسم إلى الفريقين: فريق كذّب وفريق قتل.

والوجه الثاني قوله «ولأنه لا يحسن أن تقول: إن أكرمت أخي أخاك

---

(١) ق: منصوب.

(٢) وفي ق: فوج سمعوا.

أكرمت» يعني أنه لا يجوز تقديم منصوب فعل الجواب عليه، وليس كما ذكر بل مذهب البصريين والكسائي أن ذلك جائز حسن ولم يمنعه إلا الفرّاء وحده. وهذا كله على تقدير تسليمْ أنّ «كلما» شرط، وإلا فلا يلزم أن يعتذر بهذا بل يجوز تقديم [١٥٨/ب] منصوب الفعل العامل في «كلما» عليه فتقول: كلما جئتني أخاك أكرمت، وعموم نصوص النحويين على ذلك لأنهم حين حصروا ما يجب تقديم المفعول به على العامل وحصروا ما يجب تأخيره عنه [قالوا: وما سوى ذلك يجوز فيه التقديم على العامل والتأخير عنه] ولم يستثنوا هذه الصورة ولا ذكروا فيها خلافاً.

فعلى هذا الذي قررناه يكون العامل في «كلما» قوله «كذّبوا» وما عطف عليه، ولا يكون محذوفاً. وقال الحوفي وابن عطية: «كلما» ظرف والعامل فيه «كذّبوا». وقال أبو البقاء: «كذبوا» جوابُ «كلما» انتهى.

وجاء بلفظ «يقتلون» على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها، قاله الزمخشري[١]. ويحسن مجيئه كونه رأس آية، والمعنى أنهم كذبوا فريقاً فقط وقتلوا فريقاً ولاْ يقتلونه إلا مع التكذيب فاكتفى بذكر القتل عن ذكر التكذيب، أي اقتصر ناس على تكذيب فريق وزاد ناس على التكذيب القتلَ.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ قال ابن الأنباري: نزلت في قوم كانوا على الكفر قبل البعثة، فلما بعث رسول الله ﷺ كذبوه بغياً وحسداً، ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بمجانبة الحق، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: عرضوا للتوبة بإرسال الرسل وإن لم يتوبوا، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ لأنهم كلهم لم يجمعوا

(١) الكشاف ١: ٦٣٣.

على خلافه انتهى. وقرىء: أن لا تكون بنصب النون بأن، وقرىء برفعها على أنّ «أن» مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الأمر محذوف تقديره: أنه لا تكون، «ولا تكون» جملة في موضع خبر أنْ. وفي كلتا[1] القراءتين نابت مناب مفعولي حسب. «فعموا» عن النظر في دلائل الحق. «وصمّوا» عن سماع الآيات الإلهية. «ثم تاب الله عليهم» ببعثة عيسى عليه السلام ثم بمحمد ﷺ فاتّبع ناس منهم عيسى عليه السلام ومحمداً عليه السلام. و«كثير» بدل من الضمير في «صمّوا» أو «عموا» لأن فيهم من آمن بالنّبيّيْن المذكورين.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ﴾ تقدم شرح هذه الجملة مستوفى في أول

(١) ق: كلا.

السورة[1].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ الآية، ردّ تعالى عليهم مقالتهم بقول من يدعون الألوهيّة فيه وهو عيسى أنه لا فرقَ بينه وبينهم في أنهم كلّهم مربوبون، وأمرهم بإخلاصِ العبادةِ له، ونبّه على الوصفِ الموجبِ للعبادةِ وهو الربوبية، وفي ذلك أعظمُ دليلٍ عليهم في فسادِ دَعواهم وهو أنَّ الذي يُعظِّمونه ويرفعون قَدْره عمّا ليس له يردّ عليهم مقالتهم. وهذا الذي ذكره تعالى منه هو مذكورٌ في إنجيلهم يقرؤونه ولا يعملون به وهو قول المسيح: يا معشر بني المعمودية، وفي رواية: يا معشر الشعوب، قوموا بنا إلى أبي وأبيكم وإلٰهي وإلٰهكم ومُخلِّصي ومخلّصكم.

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ الظاهرُ أنه من كلامِ المسيح فهو داخل تحت القول وفيه أعظم ردعٍ منه عن عبادته إذ أخبر بأنه مَنْ عبدَ غيرَ الله تعالى منعهُ الله دار من أفرده بالعبادة وجعل مأواه النار، إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به. وقيل هو من كلام الله تعالى مستأنف، أخبر بذلك على سبيل الوعيد والتهديد.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ ظاهره أنه من كلام عيسى عليه السلام، أخبرهم أنه مَنْ تجاوزَ ووضع الشيء غير موضعه فلا ناصرَ له ولا مساعد فيما افترى وتقوّل، وفي ذلك ردعٌ لهم عمّا انتحلوه في حقه من دعوى أنه إلٰه وأن ذلك ظلم إذْ جعلوا ما هو مستحيل في [١٥٩/أ] العقل واجباً وقوعه، أو فلا ناصر له ولا مُنجي من عذاب الله في الآخرة. ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى أخبر أنهم ظلموا وعدلوا عن الحق في أمر عيسى

(١) انظر شرح الآية ١٧.

وتقوّلهم عليه فلا ناصرَ لهم[١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ هؤلاء هم المَلَكية من النصارى القائلون بالتثليث. وظاهر قوله «ثالث ثلاثة» أحد آلهة ثلاثة، قال المفسرون: أرادوا بذلك أنَّ الله تعالى وعيسى وأمّه [آلهة] ثلاثة، ويؤكده ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة] ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن] ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون][٢].

وحكى المتكلمون عن النصارى أنهم يقولون: جوهرٌ واحد ثلاثة أقانيم أب وأم وروح قدس وهذه الثلاثة إلهٌ واحد كما أنَّ الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وعَنَوا بالأب الذات وبالابن الكلمة وبالروح الحياة، وأثبتوا الذاتَ والكلمةَ والحياة، وقالوا إنَّ الكلمةَ التي هي كلام الله اختلطتْ بجسدِ عيسى اختلاطَ الماءِ بالخمر أو اختلاط اللبن بالماء، وزعموا أنَّ الأبَ إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد. وهذا معلومُ البطلان ببديهةِ العقلِ أنَّ الثلاثة لا تكون واحداً وأنَّ الواحد لا يكون ثلاثة. ولا يجوز في العربية في «ثالث ثلاثة» إلا الإضافة لأنك لا تقول: ثلّثت الثلاثة[٣]، وأجاز النصب[٤] أحمد بن يحيى ثعلب وردّوه عليه.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ومعناه لا يكون إله في الوجود إلا متّصفاً بالوحدانية، وأكّد ذلك بزيادة «مِن» الاستغراقية وحصر إلهيّته في صفة

(١) ق: له.

(٢) وفي ق: ما اتخذ الله صاحبة.

(٣) بل تقول: ربّعت الثلاثة، أي صيّرتهم بك أربعة.

(٤) أي في الذي يلي اسم الفاعل الموافق له في اللفظ.

الوحدانية. و«إلهٌ» رفع على البدل من «إلهٍ» على الموضع، وأجاز الكسائي إتباعه على اللفظ فيجرّ، لأنه يجيز زيادة مِن في الواجب. والتقدير: وما إلهٌ في الوجود إلا إلهٌ واحد [أي] موصوف بالوحدانية لا ثاني له وهو الله تعالى.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا﴾ قبل «إنْ» قسم محذوف، والأكثر مجيء اللام الموطئة لجواب القسم المحذوف كقوله تعالى ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ۝٨﴾ [المنافقون]، وقد تُحذف اللام فيكون التقدير: لئن لم ينتهوا، كما حُذفتْ في قوله ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ ۝٢٣﴾ [الأعراف]. و«ما» في قوله «عما يقولون» [مصدرية] أي عن قولهم، أو موصولة تقديره: عن الذي يقولونه، وحذف الضمير العائد على ما.

و﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ﴾ اللام فيه جواب قسم محذوف قبل أداة الشرط، وأكثر ما يجيءُ هذا التركيب وقد صحبتْ «إنْ» اللام المؤذنة بالقسم المحذوف كقوله تعالى ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ۝٦٠﴾ [الأحزاب]. ومعنى «الذين[1] كفروا» الذين ثَبَتُوا على هذا الاعتقادِ فأقام الظاهر مقام المضمر إذ كان الربط يحصل بقوله: ليمسنهم[2]، لتكرير الشهادة عليهم بالكفر في قوله «لقد كفر الذين»، والإعلام بأنهم كانوا بمكان من الكفر إذ جعل الفعل في صلة «الذين» وهي تقتضي كونها معلومة للسامع مفروغاً من ثبوتها واستقرارها لهم. ومِنْ في «منهم» للتبعيض أي كائناً منهم، والربط حاصل بالضمير وكأنه قيل: كافرهم وليسوا كلهم بقوا على الكفر بل قد تاب كثير منهم عن[3] النصرانية. ومن أثبت أن تكون مِنْ

(١) ق: والذين.
(٢) ق: وليمسنّهم.
(٣) ق: من.

لبيان الجنس أجاز ذلك.

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا لطفٌ بهم [١٥٩/ب] واستدعاء إلى التنصّل من تلك المقالة الشنعاء بعد أن كرّر عليهم الشهادة بالكفر. والفاء في «أفلا» للعطف، حجزت بين همزة الاستفهام ولا النافية والتقدير: فألا. وقال ابن عطية: رفق تعالى بهم بتحضيضه إياهم على التوبة وطلب المغفرة انتهى. وما ذكره[١] من الحثّ والتحضيض على التوبة هو من حيث المعنى لا من [حيث] مدلول اللفظ، لأن [مدلول] «أفلا» غير مدلول ألا التي للحضّ والحثّ.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ﴾ الآية، لما ردّ على النصارى قولهم الأول بقول المسيح «اعبدوا الله ربي وربكم»[٢] والثاني بقوله «وما من إله إلا إله واحد»[٣] [المائدة] أثبت له الرسالة بصورة الحصر، أي: ما المسيحُ بن مريم شيءٌ مما تدّعيه النصارى من كونهِ إلهاً وكونه أحد آلهةٍ ثلاثة، بل هو رسول من جنس الرسل الذين خلوا وتقدموا، جاء بآياتٍ من عند الله تعالى.

﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ هذا البناء من أبنية المبالغة، والأظهر أنه من الثلاثي المجرّد نحو: سِكّير من سَكِرَ. ويجوز أن يكون بناءً من صدَّق لقوله تعالى ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴿١٢﴾﴾ [التحريم] كما قيل في أبي بكر رضي الله عنه الصدّيق.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ هذا تنبيهٌ على سمة الحدوثِ وتبعيد عن

(١) ق: ذكروه.

(٢) الآية ٧٢ السابقة.

(٣) الآية ٧٣.

اعتقاد ما اعتقدته النصارى فيهما[١] من الإلهيّة؛ لأنَّ مَن احتاجَ إلى الطعام وما يتبعه من العوارض لم يكن إلا جسماً مركّباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وغير ذلك، وهو ممّا يدلّ على أنه مصنوع مؤلّف مدبّر كغيره من الأجسام.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي الإعلام من الأدلّة الظاهرة على بطلان ما اعتقدوه. وهذا أمرٌ للنبيِّ ﷺ وفي ضمن ذلك الأمر لأمّته [بالنظر] في ضلال هؤلاء وبُعدهم عن قبول ما نُبّهوا عليه.

﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كرّر الأمر بالنظر لاختلاف المتعلق؛ لأن الأول أمرٌ [بالنظر] في كونه تعالى أوضح لهم الآيات وبيّنها بحيث لا يقع معها لبس، والأمر الثاني هو بالنظر في كونهم يصرفون عن استماع الحق وتأمّله، أو في كونهم يقلبون ما بيّن لهم إلى الضدّ منه، وهذان أمرا تعجيبٍ. ودخلت «ثم» لتراخي ما بين العجبين وكأنه يقضي العجب من توضيح الآيات وتبيينها، ثم تنظر في حال من بيّنت له فترى إعراضهم عن الآيات أعجب من توضيحها، لأنه يلزم من تبيينها تبيُّنها لهم والرجوع إليها[٢] فكونهم أفكوا عنها أعجب.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، لما كان إشراكهم بالله تضمن القول والاعتقاد جاء الختم بقوله «وهو السميع» أي: لأقوالكم العليم باعتقادكم وما انطوتْ عليه نِيّاتُكم. وفي الإخبار عنه تعالى بهاتين الصفتين تهديد ووعيد على ما يقولونه ويعتقدونه. وتضمَّنت الآيةُ الإنكار عليهم حيث عبدوا مِن

(١) ق: فيما.

(٢) ق: إليهم.

دونه مَن هو مُتَّصفٌ بالعجزِ عن دفع ضرٍّ أو جلب نفع. قيل: ومن مرّت عليه مدد لا يسمع فيها ولا يعلم [الجدير أن لا يُعبد، كيف وقد تركوا عبادة] القادر على الإطلاق السميع للأصوات العليم بالنّيات.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟﴾ ظاهره نداء أهل الكتاب الحاضرين زمان رسول الله ﷺ، ويتناول من جاء بعدهم. ولما سبق القول في أباطيل اليهود وتُلي بأباطيلِ النصارى جُمع الفريقان في النهي عن الغُلوِّ في الدين [١٦٠/أ]. وانتصب «غير الحق» [على معنى: غُلُوًّ غير الحق] وهو الغلوّ الباطل. وليس المراد هنا بالدين ما هُمْ عليه، بل المراد الدين الحق الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

ومن غلوِّ اليهود إنكارُ نبوّةِ عيسى وادّعاؤهم فيه لِغِيَّةٍ[1]، ومن غلوِّ النصارى ما تقدّم من اعتقادِ بعضهم فيه أنه الله، وبعضهم أنه أحد آلهة ثلاثة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ الآية، هؤلاء القوم هم أسلاف اليهود والنصارى ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم كثيراً. ثم عيّن ما ضلّوا عنه وهو السبيل السويّ المتوسّط في الدين. وتخصيص ابن عطية والزمخشري عموم أهل الكتاب بالنصارى خروج عن الظاهر وهو العموم، من غير داعية إلى ذلك. ويؤيد العموم قوله بعد ذلك «على لسان داود وعيسى ابن مريم» داود بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلى النصارى.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ

(١) يقال: هو ولد غيّة: أي ولد زِنْية.

يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، قال ابن عباس: لُعِنُوا بكل لسان: لعنوا على عهد موسى في التوراة وعلى عهد داود في الزبور وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد رسول الله ﷺ في القرآن. و«لُعن» مبني للمفعول حُذف فاعله فيجوز أن يكون الله تعالى ويجوز أنْ يكون الفاعل غيره تعالى كالأنبياء. والأفصح أنه إذا فرّق متضمّن الجزأين[1] اختير لفظ الإفراد على لفظ التثنية وعلى لفظ الجمع فلذلك جاء «على لسان» مفرداً[2] ولم يأت: على لسانَيْ داود وعيسى، ولا: على ألْسن داود وعيسى. فلو كان المتضمنان غير مفرّقين اختير لفظ الجمع على التثنية وعلى الإفراد نحو قوله تعالى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴿٤﴾﴾ [التحريم]. والمرادُ باللسانِ هنا الجارحةُ لا اللغة أي: أن الناطق بلعنهم هو لسان داود وعيسى.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ أي: ذلك اللعن كائن بسبب عصيانهم، وذكر على سبيل التوكيد وإلاّ فقد فُهم سبب اللعنة بإسنادها إلى من تعلّق بهذا الوصف الدالّ على العِلّية وهو «الذين كفروا» كما تقول: رُجم الزاني، فيُعلم أنَّ الرجم سببه الزنى، كذلك اللعن سببه الكفر ولكن أُكّد بذكره ثانية في قوله تعالى «ذلك بما عَصَوْا». و«ما» مصدرية في قوله «بما عصوا» أي: بعصيانهم. «وكانوا» يجوز أن يكون معطوفاً على «عصوا» فيكون داخلاً في صلة «ما» أي: بعصيانهم [وكونهم]، ويجوز أن يكون إخباراً من الله تعالى

(١) ق: الحرفين.

(٢) ق: مفرد.

أن شأنهم الاعتداء.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ ظاهره التفاعل بمعنى الاشتراك أي لا ينهى بعضهم بعضاً وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به وعدم النهي عنه. والمعصية [إذا فُعلت] وقُدّرت على العبد ينبغي أن يستتر بها. «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر»[1]. فإذا فُعلت جهاراً وتواطؤاً على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فِعْلها وسبباً مثيراً لإفشائها.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ عود الضمير في «منهم» على بني إسرائيل. فقال مقاتل: «كثيراً منهم» هم مَنْ كان بحضرةِ رسولِ الله ﷺ يتولون الكفار وعَبَدَةَ الأصنامِ، والمراد كعب بن الأشرف وأصحابه الذين استجاشوا المشركين على رسول الله ﷺ، وعلى هذا تكون رأى بصرية، ويحتمل أن تكون من رؤية القلب.

﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزمخشري[2] [في قوله] «أن سخط» إنّه المخصوص بالذم ومحلّه الرفع كأنه قيل: لبئس زادهم إلى الآخرة سخط [الله] عليهم، والمعنى موجب سخط الله عليهم انتهى.

ولا يصحّ هذا الإعراب إلّا على مذهب الفرّاء والفارسي في أن «ما» [١٦٠/ب] موصولة، أو على مذهب مَنْ جعل في «بئس» ضميراً وجعل «ما» تمييزاً بمعنى شيئاً و«قَدّمتْ» صفة للتمييز.

وأما على مذهب سيبويه فلا يستوي ذلك لأن «ما» عنده اسم تام معرفة بمعنى الشيء، والجملة بعده صفة للمخصوص المحذوف، والتقدير: لبئس

(١) رواه مالك في المؤطأ ٢: ٨٢٥ من حديث زيد بن أسلم.
(٢) الكشاف ١: ٦٣٧.

الشيء شيء قدّمت لهم أنفسهم، فيكون على هذا «أن سخط» في موضع رفع على البدل من المخصوص المحذوف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو أن سخط.

وقال ابن عطية: و«أن سخط» في موضع رفع بدل من «ما» انتهى. ولا يصحّ هذا سواء كانت «ما» موصولة أم تامة لأن البدل يحلّ محلّ المبدل منه، و«أن سخط» لا يجوز أن يكون فاعلاً لبئس، لأن فاعل بئس ونعم لا يكون أن والفعل. وقيل «أن سخط» في موضع نصب بدلاً من الضمير المحذوف في «قدّمتْ» أي قدّمتْه كما تقول: الذي ضربتُ زيداً أخوك، تريد: ضربتُه زيداً. وقيل على إسقاط اللام أي لأن سخط.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ الآية، إن كان المراد بقوله «ترى كثيراً منهم» أسلافهم، فالنبي داود وعيسى، أو معاصري رسول الله ﷺ فهو[1] النبي عليه السلام و«الذين كفروا» عبدة الأوثان. والمعنى: لو كانوا مؤمنين إيماناً خالصاً غير نفاق إذ موالاة الكفار دليل على النفاق. والظاهر في ضمير «كانوا» وضمير الفاعل في «ما اتخذوهم» أنه يعود على «كثيراً منهم»، وفي ضمير المفعول أنه يعود على «الذين كفروا». وقال القفال وجهاً آخر وهو أن يكون المعنى: ولو كان هؤلاء المتولّون من المشركين يؤمنون بالله وبمحمد ﷺ ما اتخذهم[2] هؤلاء اليهود أولياء. والوجه الأول أولى لأن الحديث إنما هو عن قوله «كثيراً منهم»، فَعَوْد الضمائر على نسق واحد أولى من اختلافها. وجاء جواب «لو» منفياً بغير لام وهو الأفصح، ودخول اللام عليه

---

(١) ق: وهو.

(٢) ق: اتخذوهم.

قليل نحو قول الشاعر[١]: [من البسيط]

لو أنّ بالعلم تُعطَى ما تعيش به   لما ظفرت من الدنيا بنقرون

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ خصّ الكثير بالفسق إذ منهم قليل قد آمن، والمخبر عنهم أولاً هو الكثير، والضمائر بعده له. وليس المعنى: ولكن كثيراً من ذلك الكثير، ولكنّه لمّا طال أعيد بلفظه، وكان من وضع الظاهر موضع الضمير إذ[٢] كان السياق يكون: ما اتخذوهم أولياء ولكنهم فاسقون، فوضع الظاهر موضع الضمير.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة ممّا جاء به عيسى عليه السلام آمنوا برسول الله ﷺ فأثنى الله عليهم، قيل هو النجاشي وأصحابه تلا عليهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين هاجر إلى الحبشة سورة مريم فآمنوا وفاضت أعينهم من الدمع. وظاهر «اليهود»

---

(١) لم أجده، وانظر البحر ٣: ٥٤٢.

(٢) عبارة ق: الظاهر بلفظه موضع الضمير إذا.

العموم وذلك أنهم مرنوا على تكذيبِ الأنبياء وقتلهم، وعلى العُتُوِّ والمعاصي واستشعارِ اللعنة وضرب الذلّة والمسكنة، فتحررت عداوتهم وكيدهم وحسدهم وخبثهم. وفي الحديث[1]: «ما خلا يهوديان بمسلمٍ إلا همّا بقتله».

وفي وصف الله إياهم بأنهم أشد عداوة إشعار بصعوبة إجابتهم إلى الحق ولذلك قَلَّ إسلامُ اليهود. وعطف «الذين أشركوا» على «اليهود» وجعلهم تبعاً لهم في ذلك، إذ كان اليهود أشدّ في العداوة إذ تباينوا هم والمسلمون في الشريعة وفي الجنس، وتباين المسلمون والمشركون في الشريعة لا في الجنس إذْ بينهم وشائجُ متصلةٌ [١٦١/أ] من القراباتِ والأنسابِ القريبة فتَعْطفهم على كل حالٍ الرحمُ على المسلمين، ولأنهم ليسوا على شريعةٍ من عند الله فهم أسرعُ للإيمان من كل أحدٍ من اليهودِ والنصارى. واللام في «لتجدنّ» جواب قسم محذوف، ومفعول «تجدنّ» الأول «أشد الناس» والمراد بالناس الكفار، و«الذين آمنوا» متعلق بـ«أشدّ»، والمفعول الثاني «اليهود» وما عطف عليه، و«عداوة» تمييز.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: هم ألينُ عريكة وأقرب ودًّا. ولم يصفهم بالودِّ إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين، وهم أمةٌ لهم وفاء، واليهودُ ليسوا على شيءٍ من أخلاقِ النصارى بل شأنهم الخبث.

و[في] قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى أنهم ليسوا متمسِّكين بحقيقةِ النصرانية بل ذلك قول منهم وزعم. «ذلك» إشارة إلى

(١) حديث ضعيف من رواية أبي هريرة، انظر ضعيف الجامع الصغير ٥: ٩٣ وروايته فيه: ما خلا يهودي قطّ بمسلم إلا حدّث نفسه بقتله.

قريب المودة، وهو مبتدأ والخبر قوله «بأن منهم» أي كائن بأنّ منهم. واسم أنّ «قسّيسين». القَسّ بفتح القاف[١] تَتَبُّعُ الشيء، وبكسرها رئيس النصارى، وقِسّيس بناء للمبالغة كشِرّيب، وجُمع بالواو والنون جمع سلامة وجمع أيضاً جمع تكسير قالوا: قساوسة، قال أمية بن أبي الصلت[٢]: [من البسيط]

لو كان منفَلَتٌ كانت قساوسةٌ   يحييهم الله في أيديهم الزّبرُ

قال الفراء: هو مثل مهالبة كثرت السينات فأبدلوا إحداهن واواً، يعني أن قياسه قساسِسَة. وفي هذا التعليلِ دليلٌ على جلالةِ العلم بقوله تعالى «قسّيسين» وأنه سبيلٌ إلى الهداية، وعلى [حُسْنِ عاقبةِ] الانقطاعِ والانفراد بقوله تعالى «ورهبانا» وأنه طريق إلى النظر في العاقبة، وعلى التواضعِ بقوله «لا يستكبرون»، وأنه سببٌ لتعظيمِ الموجد إذ يشهد من نفسه ومن كل مُحْدَث أنه مفتقر للموجد فيلزم[٣] عنده مخترع الأشياء الباري عز وجل.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ﴾ الآية، تقدم قصة الحبشة ومَنْ أسلم على يدي جعفر بن أبي طالب[٤]. والظاهر أنَّ الضمير يعود على «قسّيسين ورهباناً» فيكون عامًّا ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم كما جرى للنجاشي حين تلا عليه جعفر سورة مريم إلى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴿٣٤﴾﴾ وسورة طه إلى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ فبكى. وكذلك

(١) ق: السين.

(٢) البيت في ديوانه ص٣٨٧ منقول عن اللسان «قسس».

(٣) ق: فيعظم.

(٤) انظر تفسير الآية السابقة.

قومه الذين[١] وفدوا على رسولِ الله ﷺ حين قرأ عليهم ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس] فبكوا. والجملة من قوله «وإذا سمعوا» تحتمل الاستئناف وتحتمل أن تكون معطوفة على خبر «أنهم».

﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ هي من رؤية العين. وأسند[٢] الفيضَ إلى الأعين وإنْ كانت حقيقة [للدموع] كما قال[٣]: [من الطويل]

ففاضت دموعُ العينِ مني صبابةً [على النّحر حتى بلّ دمعيَ مِحْملي]

إقامة للمسبّب مقام السبب، لأنَّ الفيض مسبّب عن الامتلاء فالأصل: ترى أعينهم تمتلىء من الدموع حتى تفيض، لأن الفيض على جوانب الإناء ناشىء عن امتلائه، قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

قوارضُ تأتيني وتَحْتَقِرونها وقد يَمْلأُ الماءُ الإناءَ فَيفعمُ[٥]

ويحتمل أنه[٦] أسند الفيضَ إلى الأعينِ على سبيلِ المبالغة في البكاء لما كانت يفاض فيها جعلت الفائضة نفسها على سبيل المجاز والمبالغة.

و«مِن» [في] قوله ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: مملوءةً من الدمع. و«مِن» في قوله ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟﴾ للسبب بمعنى الباء متعلقة بـ«تفيض». و«ما» [١٦١/ب] مصدرية في قوله «مما عرفوا»، و«من الحق» بدل من قوله

---

(١) ق: قوله للذين.

(٢) ق: وسند.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩.

(٤) البيت للفرزدق في ديوانه ٢: ١٩٥ مع اختلاف في الرواية.

(٥) ق: فينعم.

(٦) ق: أن.

«ممّا». ويجوز أن تكون «ما» موصولة تقديره: من الذي عرفوه، وحذف الضمير العائد عليها، و«من الحق» في موضع الحال أي مستقرًا من الحق.

﴿يَقُولُونَ﴾ جملة مستأنفة، قال ابن عطية: «يقولون» في موضع نصب على الحال انتهى، وقال مثله أبو البقاء. ولم يبيّنا ذا الحال ولا العامل فيها. ولا جائز أن يكون حالاً من الضمير في «أعينهم» لأنه مجرور بالإضافة لا موضع له من رفع ولا نصب إلا على مذهب من يجوّز تنزّل الخبر المضاف منزلة المضاف إليه، وقد بيّنّا وجه خطأ ذلك في كتابنا «منهج السالك»[1] من تأليفنا. ولا جائز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في «عرفوا» لأنها تكون قيداً في العرفان وهم قد عرفوا الحق في هذه الحال وفي غيرها. فالأولى أن تكون مستأنفة أخبر تعالى عنهم بأنهم التبسوا بهذا القول، والمعنى أنهم عَرَفُوا الحقَّ بقلوبهم ونَطقتْ به وأقرَّتْ ألسنتهم.

﴿ءَامَنَّا﴾ معناه أنشأنا الإيمان بالرسول، والمعنى أنهم عرفوا الحق [فآمنوا]. و«مع الشاهدين» قال ابن عباس: هم أمة محمد ﷺ، وقالوا ذلك إذ هم شهداء على سائر الأمم كما قال تعالى ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ هذا إنكارٌ واستبعاد لانتفاءِ الإيمانِ منهم مع قيام مُوجبِهِ وهو عرفانُ الحق. والظاهر أنَّ قولهم ذلك هو لأنفسهم على سبيل المكالمة معها لدفعِ الوساوس والهواجس، إذ فراق طريق وسلوك أخرى لم

(١) ق: أوضح المسالك. و«منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك» هو أحد كتبه التي لم يكمل تصنيفها. انظر فوات الوفيات ٤: ٧٩.

يُنشأ عليْها[١] ممّا يصعب ويشقّ. و«ما» استفهامية مبتدأ. و«لنا» في موضع الخبر التقدير: أي شيء كائن لنا. و«لا نؤمن» جملة حالية التقدير: غير مؤمنين، والعامل فيها هو العامل في الجار والمجرور.

و﴿وَنَطْمَعُ﴾ الظاهر أنه استئنافُ إخبارٍ منهم، ويجوز أن يكون في موضع الحال عطفاً على قوله «لا نؤمن» فيكون في حيز النفي.

قال الزمخشري[٢]: والواو في «ونطمع» واو الحال والعامل في الحال معنى الفعل العامل في «لا نؤمن» ولكن مقيداً بالحال الأولى، لأنك لو أزلتها [وقلت]: وما لنا ونطمع، لم يكن كلاماً انتهى. ما ذكره من أن الحالين العامل فيهما واحد - وهو ما في اللام[٣] من معنى الفعل كأنه قيل: أي شيء حصل لنا غير مؤمنين طامعين[٤] - ليس بجيد، لأن الأصح أنه لا يجوز أن يقتضي العامل حالين لذي حال واحدة إلا بحرف عطف إلا أفعل التفضيل فالأصح أنه يجوز فيه ذلك، وذو الحال هَنا واحد وهو الضمير المجرور بلام «لنا»، ولأنه أيضاً تكون الواو دخلت على المضارع، ولا تدخل واو الحال على المضارع إلا بتأويل فيحتاج أن يقدر: ونحن نطمع.

قال الزمخشري[٥]: ويجوز أن يكون «ونطمع» حالاً من «لا نؤمن» على أنهم أنكروا على أنفسهم أنهم لا يوحّدون الله تعالى ويطمعون مع ذلك أن

(١) ق: عنها.
(٢) الكشاف ١ : ٦٣٩. والعبارة منقولة بتصرف.
(٣) ق: الكلام.
(٤) ق: طائعين.
(٥) الكشاف ١ : ٦٣٩.

يصحبوا[1] الصالحين انتهى. وهذا أيضاً ليس بجيد لأن فيه دخول واو الحال على المضارع ويحتاج إلى تأويل.

وقال الزمخشري[2]: وأن يكون معطوفاً على «لا نؤمن» على معنى: وما لنا نجمع بين التثليث وبين الطمع في صحبة الصالحين، أو على معنى: وما لنا لا نجمع بينهما [بالدخول] في الإسلام لأن الكافر ما ينبغي له أن يطمع في صحبة الصالحين. ويظهر لي وجه غير ما ذكروه وهو أن يكون معطوفاً على «نؤمن» على أنه [١٦٢/أ] منفي كنفي «نؤمن»، التقدير: وما لنا لا نؤمن ولا نطمع، فيكون في ذلك إنكار لانتفاء إيمانهم وانتفاء طمعهم مع قدرتهم على تحصيل الشيئين الإيمان والطمع في الدخول مع الصالحين انتهى.

﴿بِمَا قَالُوا[3]﴾ إشارة إلى قوله تعالى «يقولون [ربنا] آمنّا» إلى آخر كلامهم. وتقدَّمَ «مما عرفوا من الحق» فاجتمع القول والمعرفة فكان ذلك إيماناً محضاً. و«المحسنين» يجوز أن يكون ذلك من وضع الظاهر موضع المضمر كأنه قال: جزاؤهم. ونبّه على الصفة الجليلة التي هي أعظم مراتب العبادة التي سئل رسول الله ﷺ: ما الإحسان؟ فقال: أن تعبد الله كأنك تراه[4]. ويجوز أن يكون «المحسنين» عامًّا واندرج هؤلاء فيهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾ اندرج في «الذين كفروا وكذبوا» اليهود

---

(١) ق: يصبحوا.

(٢) الكشاف ١: ٦٣٩.

(٣) ق: قالوه.

(٤) رواه مسلم في صحيحه ١: ٣٧، ٣٩ من حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة.

والنصارى وغيرهم. لمّا ذكر ما للمؤمنين ذكر ما أعدّ للكافرين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية، ذكروا سبب نزولها [في] قصة طويلة ملخّصها أنَّ جماعةً من الصحابة عَزَموا على التقشفِ المفرط والعبادةِ الدائمة من الصيام الدائم وترك إتيان النساء واللحم والوَدَك[1] والطيب ولبس المسوح والسياحة في الأرض وجَبِّ المذاكير، فنهاهم رسولُ الله ﷺ عن ذلك فنزلت. ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه تعالى لمّا مدح النصارى بأنَّ منهم قسّيسين ورهباناً وعادتهم الاحتراز عن الطيبات ومستلذات الدنيا - أوهمَ ذلك المدحُ ترغيبَ المسلمين في مثل ذلك التقشّف والتبتّل، فبيَّنَ تعالى أنَّ الإسلامَ لا رهبانيةَ فيه، وقال رسولُ الله ﷺ[2] «أما أنا فأقومُ وأنامُ وأصومُ وأفطرِ وأتزوج النساء وأنال الطِّيبَ فمن رغبَ عن سُنَّتي فليس منّي». وأكل رسولُ الله ﷺ الدجاج والفالوذج، وكان يعجبه الحلوى والعسل. والطيّباتُ هنا المستلذَّات من الحلال. ومعنى لا تحرّموها[3]: لا تمنعوها أنفسَكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا حَرَّمناها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهّداً منكم وتقشّفاً.

[﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية، تقدم تفسير مثلها في قوله] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

(١) أي الدسم والدهن.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢ : ١٠٢٠ من حديث أنس.

(٣) ق: لا تحرمونها.

كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴿١٦٨﴾ الآية [البقرة].

[﴿حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾] تأكيد للتوصية بما أمر به وزاده تأكيداً بقوله «الذين أنتم به مؤمنون» لأنَّ الإيمان به يحمل على التقوى في امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ تقدم الكلام في تفسير نظير هذه الجملة[١]. ومعنى «عقّدتم» وثَّقتم بالقصدِ والنيّة. وقرىء: عاقدتم وعَقَدْتم، وقال أبو علي الفارسي: يحتمل أن يكون كطارقت النعل وعاقبت اللصَّ انتهى. ليس مثله لأنك لا تقول: طرقت النعل وعقبت اللص بغير ألف، وهذا تقول فيه: عاقدت اليمين وعقدت اليمين، قال الحطيئة[٢]: [من البسيط]

قـومٌ إذا عقـدوا عَقْـداً لِجـارِهـمُ ... [شدّوا العِنَاج وشدّوا فوقه الكَرَبا]

فجعله بمعنى المجرد وهو الظاهر كما ذكرناه. و«الأيمان» جمع يمين، واليمين المنعقدة بالله أو بأسمائه أو بصفاته. وقال الإمام أحمد: إذا حلف بالنبيِّ ﷺ انعقدت يمينه لأنه حلف بما لا يتمُّ الإيمانُ إلا به. وفي بعض الصفات تفصيل وخلاف ذكر في كتب الفقه.

(١) انظر تفسير الآية ٢٢٥ من سورة البقرة.

(٢) ديوانه ص١٢٨.

﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ﴾ الضمير عائد على «ما» إن كانت «ما» موصولة اسمية، وهو على حذف مضاف التقدير: بحنث [١٦٢/ب] الذي عقدتم عليه الأيمان. وإن كانت مصدرية عاد الضمير على ما يُفهم من المعنى وهو إثم الحنث وإن لم يَجْرِ له ذكر صريح لكن يقتضيه المعنى.

و«مساكين» أعمّ من أنْ يكونوا ذكوراً أو إناثاً أو من الصنفين. والظاهر تعداد الأشخاص، فلو أطعم مسكيناً واحداً الكفارة عشرةَ أيامٍ لم يَجُزْ[(١)] وبه قال مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: يجزىء.

وتعرّضت الآية لجنس ما يُطعم منه وهو ﴿مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ﴾ ولم تتعرض لمقدار ما يطعم كل واحد، هذا الظاهر. وقد رأى مالك وجماعة أن هذا التوسط هو في القدر ورأى جماعة أنه في الصنف وبه قال ابن عمر وغيره. قال ابن عطية: الوجه أن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف انتهى. وقال مالك والشافعي: مدٌّ لكلِّ مسكينٍ بمدِّ رسولِ الله ﷺ. وقال أبو حنيفة: نصف صاع من بُرٍّ أو صاع من تمر. والظاهر أنه لا يجزىء [إلا] الإطعام بما فيه كفاية وقتاً واحداً، فإن غَدَّاهم وعشَّاهم أجزأه، وبه قال أبو حنيفة ومالك، وقال الشافعي: من شرط صحة الكفارة تمليك الطعام للفقراء، فإن غدّاهم وعشّاهم لم يُجْزه، وبه قال ابن جبير والحكم.

والظاهر أنه لا يشترط الأدام، وقال ابن عمر: أوسط [ما يطعم] الخبز والتمر، والخبر والزبيب، وخير ما نطعم أهلينا الخبز واللحم، وعن غيره: الخبز والسمن. وقال ابن سيرين: أفضله اللحم وأوسطه السمن وأحسنه الخبز مع التمر، وروي عن ابن مسعود مثله. وقال ابن حبيب: لا يجزىء

(١) وتقرأ كذلك: لم يُجْزِ.

الخبز قَفاراً[1] ولكن بأدام زيت أو لحم أو لبن ونحوه. والظاهر أن المراعى ما يطعم أهله الذين يختصُّون [به] أي: من أوسطِ ما يطعم كل شخص أهله. وقيل: المراعى عيش البلد والمعنى: من أوسطِ ما تطعمونَ أيها الناسُ أهليكم في الجملة من مدينة أو صقع. و«من أوسط» في موضع مفعول ثانٍ لإطعام، والأول هو «عشرة مساكين» أي طعاماً من أوسط. والعائد على «ما» من «ما تطعمون» محذوف تقديره: تطعمونه. وجُمع «أهل» جمع تكسير قالوا أهالٍ وجمع [جمع] سلامة بالواو والنون رفعاً وبالياء والنون نصباً وجرًّا وهو شاذ في القياس.

و﴿أَهْلِيكُمْ﴾ هو المفعول الأول وعلامة النصب فيه الياء، والمفعول الثاني هو الضمير المقدر في: تطعمونه.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ هذا معطوف على قوله تعالى «إطعام». والظاهر أن الكسوة هي مصدر وإن كان يستعمل للثوب الذي يستر. ولمّا لم يذكر مقدار ما يطعم لم يذكر مقدار الكسوة، فظاهره مطلق الكسوة. وأجمعوا على أن القلنسوة بانفرادها لا تجزىء، وللعلماء اختلاف كثير فيما يُكسى به الفقير في الكفارة مذكور في كتب الفقه. والظاهر إطلاق الإطعام والكسوة والرقبة، ويجزىء ما دلّ عليه الاسم مما جرت به العادة.

والظاهر حصول الكفارة بتحرير ما يصدق عليه «رقبة» من غير اعتبار شيء آخر، فيجزىء عتق الكافر وذي العاهة وبه قال داود وجماعة من أهل الظاهر، وقال مالك: لا يجزىء كافر ولا أعمى ولا أبرص ولا مجنون. فمن

(١) أي غير مأدوم.

لم يجد أحد هذه الثلاثة التي وقع فيها التخيير من الإطعام والكسوة والتحرير، فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام. و[«من»] في «من لم يجد» شرطية وما بعده جملة الجزاء وقد قدّرناه: فالواجب عليه، فالهاء في عليه عائدة على «من» و«صيام» خبر.

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: ذلك المذكور. واستدلَّ بها الشافعي على جواز التكفير بعد اليمين وقبل الحنث، وفيها تنبيه على أن الكفارة قبل اليمين لا تجوز. وذهب الجمهور إلى أن التكثير [١٦٣/أ] لا يكون إلا بعد الحنث، فهم يقدّرون محذوفاً أي: إذا حلفتم وحنثتم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نزلت بسبب قصةِ سعدِ بن أبي وقاص حين شربَ طائفةٌ من الأنصار والمهاجرين فتفاخروا فقال سعد: المهاجرون خير، فرماه أنصاريٌّ بلَحْي جمل ففزر أنفه. وتقدم ذِكْرُ الخمرِ والميسر في سورة البقرة[1]، وذِكْر واحد الأنصاب في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴿٣﴾﴾ [المائدة] والأزلام في قوله ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴿٣﴾﴾ [المائدة] وذلك في

(١) الآية ٢١٩.

أوائل هذه السورة.

﴿ رِجْسٌ ﴾ قال الزجاج: [الرجس] اسمٌ لكلِّ ما استقذر من عمل، يقال: رجس الرجل رجساً إذا عمل عملاً قبيحاً. وقال ابن دريد: الرجس الشر. ولما كان الشيطانُ هو الداعي إلى التلبُّس بهذه المعصية والمغري بها جُعلت من عمله وفعله ونُسبت إليه على جهة المجاز والمبالغة في كمال تقبيحه كما جاء ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص].

والضمير في «فاجتنبوه» عائد على الرجس المُخْبَر به عن الأربعة فكان الأمر باجتنابه متناولاً لها. وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله «فاجتنبوه»؟ قلت: إلى المضاف المحذوف كأنه قيل: إنما شأن الخمر والميسر أو تعاطيهما أو ما أشبه ذلك، ولذلك [قال]: رجس من عمل الشيطان انتهى. ولا حاجة إلى تقدير هذا المضاف بل الحكم على هذه الأربعة أنفسها أنها رجس أبلغ من تقدير ذلك المضاف كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ الآية، ذكر تعالى في الخمرِ والميسر مفسدتين إحداهما دُنيويةٌ والأخرى دينية.

فأما الدنيويةُ فإنَّ الخمر تُثيرُ الشرورَ والحقود وتؤول بِشُرَّابها إلى التقاطعِ، وأما الميسر فإنَّ الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً وينتهي من سوءِ الصنيع في ذلك [إلى] أنْ يقامر حتى على أهله وولده، فيؤدي به ذلك إلى أنْ يصير أعدى عدوٍ لمن قهره وغلبه، لأنَّ ذلك يُؤخذ منه على سبيلِ القهر والغلبة.

(١) الكشاف ١: ٦٤٢.

وأما الدينيةُ فالخمر لغلَبَةِ السرورِ بها والطرب على النفوس والاستغراق في الملاذِّ الجسمانية تُلْهي عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، والميسر إنْ كان غالباً به انشرحت نفسُه ومنعه حُبُّ الغَلَبِ والقهر والكسب عن ذِكْرِ الله، وإنْ كان مغلوباً فما حصل له من الانقباض والندم والاحتيال إلى أن يصير غالباً لا يُخطر بقلبه ذكر الله تعالى.

وأفرد الخمر والميسر هنا وإن كانا قد جُمعا مع الأنصاب[١] والأزلام، قيل: لأن الخطاب كان للمؤمنين، وإنما ذكر معهما الأنصاب والأزلام تأكيداً لقبحِ الخمرِ والميسر وتبعيداً عن تعاطيهما فنُزِّلا في التَّرْكِ منزلةَ ما قد تركه المؤمنون من الأنصاب والأزلام.

و﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾ تتعلق بالأمور الظاهرة، وعطف عليها ما هو أشدّ منها وهو البغضاء لأن متعلّقها القلب، كذلك «ذكر الله» عطف عليه ما هو ألزم وأوجب وآكد وهو الصلاة. وفيما ينتجه الخمر والميسر من العداوة والبغضاء والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة أقوى دليل على تحريمهما وعلى أن ينتهي المسلم عنهما[٢] ولذلك جاء بَعْدُ «فهل أنتم منتهون» وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنه قيل: قد تُلي عليكم ما فيها من المفاسد الدنيوية والدينية التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم مع علمكم بتلك المفاسد. وجَعْل الجملة اسمية والمواجهة لهم بـ«أنتم» أبلغ من جعلها فعلية، وقيل هو استفهام تضمّن معنى الأمر أي فانتهوا، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب.

(١) ق: أنصاب.

(٢) ق: عنها.

[١٦٣/ب] ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر، والأحسن أن لا يُقيّد الأمر هنا بل أمروا أن يكونوا مطيعين دائماً حذرين لأن الحذر مدعاة إلى عمل الحسنات واتقاء السيئات.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: فإن أعرضتم فليس على الرسول إلا أن يبلّغ أحكام الله، وليس عليه خلق الطاعة فيكم ولا يلحقه من تولّيكم شيء بل ذلك لاحق بكم. وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمن أن عقابكم إنما يتولاه المرسِل لا الرسول. ووصف البلاغ بالمبين [إما] لأنه بيّن في نفسه واضح، وإما لأنه مبيّن لكم أحكام الله تعالى.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، قال ابن عباس والبراء بن عازب وأنس: لما نزل تحريم الخمر قال قوم: كيف بمن ماتَ مِنَّا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت. فأعلم تعالى أنَّ الذمَّ والجُناح إنما يتعلقُ بفعل المعاصي، والذين ماتوا قبلَ التحريمِ ليسوا بعاصين. والظاهر من سبب النزول انَّ اللفظ عام ومعناه الخصوص.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ثبتوا وداموا على الحالة المذكورة. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ انتهوا في التقوى إلى امتثالِ ما ليس بفرضٍ من النوافلِ في الصدقاتِ والصلاةِ وغير ذلك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، نزلت عام الحديبية وأقام رسولُ الله ﷺ بالتنعيم فكان الوحشُ والطير يغشاهم في رِحَالِهم وهم مُحْرِمُون، وقيل: كان بعضهم أحرمَ وبعضُهم لم يحرم فإذا عَرَضَ صيدٌ اختلفت أحوالهم واشتبهت الأحكام. وقيل: قتل أبو اليَسَر حمارَ وحشٍ برمحه فقيل: قتلتَ الصيد وأنت محرم فنزلت. ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها هو أنهم لما أمرهم أنْ لا يحرِّمُوا الطيّبات وأخرج من ذلك الخمر والميسر وهما حرامان - إنما[1] أخرج بعده ما حرّم من الطيّبات في حال دون حال وهو الصيد، وكان الصيدُ مما يعيشُ به العرب ويتلذّذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة. والظاهر أن الخطاب بقوله «يا أيها الذين آمنوا» للمحلِّ والمحرم، ولكن لا يتحقق الابتلاءُ إلا مع الإحرام أو الحرم.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ هذا تعليل لقوله «ليبلونكم». ومعنى «ليعلم» ليتميّز من يخاف عقاب الله وهو غائب منتظَر [في] الآخرة فيتّقي الصيد، ممن لا يخافه فيقدم عليه.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بالمخالفةِ فصادَ، و«ذلك» إشارة إلى النهي الذي تضمّنه معنى الكلام السابق وتقديره: فلا يصيدوا، يدل عليه قوله تعالى ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل في الآخرةِ وقيل في الدنيا، قال ابن عباس: يوسع ظهره وبطنه جلداً ويسلب ثيابه.

---

(١) ق: وإنما.

﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جملة حالية. و«حُرُم» جمع حرام، والحرام ينطلق على من كان محرماً وعلى من حلّ الحرم.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾ الآية، الظاهر تقييد القتل بالعمد، فمن لم يتعمد فقتل خطأً بأن كان ناسياً لإحرامه، أو رماه ظانًّا أنه ليس بصيد فإذا هو صيد، أو عدل سهمه الذي رماه لغير صيد فأصاب صيداً فلا جزاء عليه. وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير وطاووس وعطاء وسالم، وبه قال أبو ثور وداود والطبري. وهو أحد قولي الحسن البصري ومجاهد وأحمد بن حنبل وغيره. ومذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأصحابهم أن الخطأ بنسيانٍ أو غيره كالعمد، والعمد أن يكون ذاكراً لإحرامه قاصداً للقتل، وروي ذلك عن عمر وابن عباس.

وقرأ الكوفيون: فجزاءٌ بالتنوين، مِثْلُ بالرفع. فارتفاع «جزاء» على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فالواجب عليه أو اللازم له جزاء. ويجوز أن يكون مبتدأ محذوف [١٦٤/أ] الخبر تقديره: فعليه جزاء، و«مثلُ» صفة أي: فجزاء يماثل ما قتل. وقرأ باقي السبعة: فجزاءُ مثلِ، برفع «جزاء» وإضافته إلى «مثل»، فقيل «مثل» كأنها مقحمة [كما تقول: مثلك يفعل كذا، أي أنت تفعل كذا، فالتقدير: فجزاءُ ما قتل]. وقيل ذلك من إضافة المصدر إلى المفعول وكان الأصل: فعليه جزاءُ مثلِ ما قتل، أي: يغرم مثل ما قتل، ثم أضيف إلى المفعول، ويدل على هذا التقدير قراءة السلمي: فجزاءٌ بالرفع والتنوين، مثلَ ما قتل بالنصب.

و﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ صفة لجزاء سواء أَرُفع «جزاء» و«مثل» أو أضيف «جزاء» إلى «مثل» أي كائن من النعم. ويجوز في وجه الإضافة أن يتعلق «من النعم» بجزاء، إلا في الوجه الأول لأن «جزاء» مصدر موصوف فلا يعمل. ووهم

أبو البقاء في تجويزه أن يكون «من النعم» حالاً من الضمير في «قتل»، يعني من الضمير المنصوب المحذوف في «قتل» العائد على ما قال، لأن المقتول يكون من النعم. وليس المعنى على ذلك لأن الذي هو من النّعم هو ما يكون جزاء لا الذي يقتله المحرم، ولأن النّعم لا تدخل في اسم الصيد. والظاهر في المِثْليّة أنها مثليّة في الصورة والخلقة والعِظَم والصِّغَر وهو قول الجمهور.

وظاهر قوله «من النعم» أنه لا يُشترط بسنّ فتجزىء الجَفَرة والعَناق[1] على قدر الصيد، وبه قال أبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: لا يجوز أن يهدي إلا ما يجزىء في الأضحية.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٍ﴾ الآية، أي: يحكم بمثل ما قتل. قال ابن وهب: من السنّة أن يخيّر الحَكَمان مَنْ قَتَل الصيد كما خيّره الله تعالى في أن يُخرج هدياً بالغ الكعبة - وانتصب «هدياً» على الحال من الضمير في قوله «به»، ومعنى ﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ واصلاً إليها - أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً. فإن اختار الهَدْي حكما عليه بما يريانه نظيراً[2] لما أصاب. وأدنى الهدي شاة، وما لم يبلغ شاة حكما فيه بالطعام. ثم خُيّر بين أن يطعم أو يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً، وكذلك قال مالك. والظاهر أنه يحكم به عدلان وكذلك فعل عمر في حديث قبيصة بن جابر، استدعى عبد الرحمن بن عوف وحكما في ظبيٍ بشاةٍ. وفعل ذلك جرير وابن عمر. والظاهر أنَّ العَدْلين ذَكَران فلا يحكم فيه امرأتان.

---

(١) الجَفَرة جمع جَفْر وهو من أولاد الشاة ما بلغ أربعة أشهر. والعَناق أنثى الماعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول.

(٢) ق: نظر.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ قرأ الصاحبان بالإضافة، وزعم الزمخشري[1] أن هذه الإضافة مبيّنة كأنه قيل: أو كفارة من طعام مساكين، كقوله: خاتم فضة بمعنى خاتم من فضة. وليست من هذا الباب لأن خاتم فضةٍ، من إضافة الشيء إلى جنسه والطعام ليس جنساً للكفّارة إلا بتجوّز بعيد جدّاً. وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع «طعام»، وقرأ كذلك الأعرج وعيسى بن عمر إلا أنهما أفردا مسكين على أنه اسم جنس. قال أبو علي: [«طعام» عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة انتهى. وهذا لا يجوز على] مذهب البصريين، لأنهم شرطوا في عطف البيان أن يكون في المعارف لا في النكرات، فالأَولى أن يُعرب بدلاً. وقد أجمل في مقدار الطعام وفي عدد المساكين، والظاهر أنه يكفي ما يُسمّى طعاماً وأنه يكفي أقل ما ينطلق عليه جمع مساكين.

وجوّزوا أن يكون «ذلك» إشارة إلى الصيد المقتول؛ ففي الظبي ثلاثة أيام وفي الإبل عشرون يوماً وفي النعامة وحمار الوحش ثلاثون يوماً قاله ابن عباس. وقال ابن جبير: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة أيام. والظاهر عدم تقييد الطعام والصوم بمكان وبه قال جماعة من العلماء فحيثما شاء كفّر بهما. وقال عطاء وغيره: الهدي والإطعام بمكة، والصوم حيث شاء.

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [١٦٤/ب] الذوق معروف واستعير هنا لما يؤثر من غرامة أو إتعاب نفس بالصوم. والوبالُ سوء عاقبة ما فعل وهو هتكه حرمة الإحرام بقتل الصيد. قال الزمخشري[2]: «ليذوق» متعلق بقوله «فجزاء» أي فعليه أن يجازى أو يكفّر ليذوق انتهى. وهذا لا يجوز إلا على قراءة من أضاف «فجزاء»، أو نوّن ونصب «مثل». وأما على قراءة من نوّن ورفع «مثل»

---

(١) الكشاف ١: ٦٤٥.

(٢) الكشاف ١: ٦٤٥.

فلا يجوز أن تتعلق اللام به، لأن «مثل» صفة لجزاء، وإذا وصف المصدر لم يَجُزْ لمعموله أن يتأخر عن الصفة، لو قلت: أعجبني ضَرْبُ زيدٍ الشديدُ عَمْراً، لم يَجُز، فإن تقدّم المعمول على الوصف جاز ذلك. والصواب أن يتعلق على هذه القراءة بفعل محذوف، التقدير: جوزي بذلك ليذوق.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي في جاهليتكم من قتلكم الصيد في الحرم، قال الزمخشري[1]: لأنهم كانوا متعبّدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرّماً انتهى. وقال ابن زيد: عفا الله عما سلف لكم أيها المؤمنون من قتل الصيد قبل هذا النهي والتحريم.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ قال ابن عباس: إن عاد متعمّداً عالماً بإحرامه فلا كفّارة عليه وينتقم الله منه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية، قال الكلبي: نزلت في بني مدلج وكانوا ينزلون في أسياف البحر، سألوا عمّا نضب عنه الماء من السمك فنزلت. قال الزمخشري[2]: «صيد البحر» مَصِيْداتُ البحر مما يُؤْكَلُ [ومما لا يؤكل]، و«طعامه» ما يطعم من صيده، والمعنى أحلّ لكم الانتفاع بجميعِ ما يُصادُ من البحر وأُحلّ لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده عند أبي حنيفة، وعند ابن أبي ليلى جميع ما يُصاد منه، على أن تفسير الآية عنده: أحلّ لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه انتهى.

وتفسير «وطعامه» بقوله: وأن تطعموه خلاف الظاهر، ويكون على قول ابن أبي ليلى - الضمير في «وطعامه» عائداً على صيد البحر [والظاهر عَوْده

(١) الكشاف ١: ٦٤٥.

(٢) الكشاف ١: ٦٤٦.

على البحر] وأن يُراد به المطعوم لا الطعام، ويدل على ذلك ظاهر لفظ «وطعامه». وقراءة ابن عباس: وطُعْمه بضم الطاء وسكون العين تدل على أنه لا يُراد به المصدر، وقد فصّل قوله «وطعامه» بما يرمي به البحر ولم يُصَدْ. وفي الأثر: كلوا السمكة الطافية، وهي الميتةُ التي طفت على وجه الماء. وقد أكل جماعة من الصحابة في سفرٍ لهم من دابةٍ عظيمة تُسمَّى العنبر حسر عنها البحر والحديث في ذلك مشهور[١].

وانتصب «متاعاً» - قال ابن عطية - على المصدر، والمعنى متّعكم به متاعاً تنتفعون به وتأتدمون. وقال الزمخشري[٢]: «متاعاً لكم» مفعول له أي [أحلّ لكم] تمتيعاً لكم، وهو في المفعول له بمنزلة قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۝٧٢﴾ [الأنبياء] في باب الحال، لأن قوله «متاعاً لكم» مفعول له مختص بالطعام، كما أنّ «نافلة» [حال] مختصة بيعقوب. يعني أحلّ لكم طعامه تمتيعاً [لتُنّائكم][٣] يأكلونه طريًّا ولسيّارتكم يتزوّدونه قديداً كما تزوّد موسى عليه السلام الحوت في مسيره إلى الخضر انتهى. وتخصيصه المفعول له بقوله «وطعامه» جارٍ على مذهبه مذهب أبي حنيفة بأنَّ صيد البحر منه ما يؤكل وما لا يؤكل، وأن قوله «وطعامه» هو المأكول منه، وأنه لا يقع التمتيع إلا بالمأكول منه طريًّا وقديداً. وعلى مذهب غيره يجوز أن يكون مفعولاً له باعتبار صيد البحر وطعامه. والخطاب في «لكم» لحاضري البحر ومدنه. والسيارة المسافرون.

---

(١) انظر مثلاً: البخاري ٤: ١٥٨٦ من حديث جابر، ومسلم ٣: ١٥٣٥ من حديث جابر أيضاً.

(٢) الكشاف ١: ٦٤٦.

(٣) التُّناء كرمّان: المقيمون، من: تنأ بالمكان: أقام فيه.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ الآية، كرر تحريم الصيد على المحرم تغليظاً لحكمه. والظاهر تحريم صيد البر على المُحْرِمِ من جميع الجهات: صيد وأَكْل صيد، ذلك من أجله [١٦٥/أ] أو من أجل غيره[١]، وروي ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين. وعن أبي هريرة وبعض التابعين أنهم أجازوا للمُحرم أكل ما صاده الحلاّل وإن صاده من أجله إذا لم يدلّ [عليه] ولم يشتره[٢]. وروي عن عمر وعثمان والزبير أنه يأكل المحرم ما صاده الحلاّل لنفسه أو لحلاّلٍ مثله. وقال آخرون: يحرم على المحرم أن يصيد، وأما إن اشتراه من مالكٍ له فذبحه وأكله فلا يحرم، وفعل ذلك أبو سلمة بن عبد الرحمن. وقال أبو حنيفة وأصحابه: أَكْل المُحْرِمِ الصَيدَ جائزٌ إذا اصطاده الحلاّل ولم يأمر المحرم بصيده ولا دلّ عليه. وقال مالك والشافعي وأحمد: يأكل ما صاده الحلاّل إن لم يَصِدْه لأجله، فإن صيد من أجله فلا يأكل، فإن أكل فقال مالك والأوزاعي والحسن بن صالح: عليه الجزاء، وقال الشافعي: لا جزاء عليه.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: ما يصنع أبو حنيفة بعموم قوله «صيد البرّ»؟ [قلت: قد أخذ أبو حنيفة بالمفهوم من قوله «وحرّم عليكم صيد البرّ] ما دمتم حُرماً» لأن ظاهره أنه صيد المحرمين دون صيد غيرهم [لأنهم هم المخاطبون، فكأنه قيل: وحرّم عليكم ما صدتم في البرّ، فيخرج منه مصيد غيرهم] ومصيدهم حين كانوا غير محرمين ويدلّ عليه قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ (٩٥)﴾ [المائدة] انتهى.

(١) ق: من غير أجله.

(٢) ق: ولم يشر.

(٣) الكشاف ١: ٦٤٦.

وهذه مكابرة من الزمخشري في الظاهر، بل الظاهر من قوله تعالى «صيد البرّ» العموم سواء صاده محرم أم حلاّل. وقرىء: وحَرّم مبنياً للفاعل، صَيْدَ بالنصب، وحَرَماً بفتح الحاء والراء.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا فيه تنبيه وتهديد جاء عقيب تحليل وتحريم، وذكر الحشر إذ فيه يظهر جزاء من أطاع وعصى.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ
وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ
وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن
تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ
سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أنه تعالى ذكر تعظيم الإحرام بالنهي عن قتل الوحش فيه بحيث شرع بقتله ما شرع، وذكر تعظيم الكعبة بقوله «هَدْياً بالغ الكعبة»(١) فذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس أي: ركّز في قلوبهم تعظيمها. و«جعل» هنا بمعنى صيّر، وقيل «جعل» هنا بمعنى بيّن وحكم، وينبغي أن يحمل هذا على تفسير المعنى، إذ لم ينقل «جعل» مرادفة لهذا المعنى لكنه من حيث التصيير يلزم منه التبيين والحكم. ولما كان لفظ الكعبة قد أطلقه بعض العرب على غير البيت

(١) الآية ٩٥ السابقة.

الحرام كالبيت الذي كان في خثعم يسمّى كعبة اليمانية - بيّن تعالى أن المراد هنا بالكعبة البيت الحرام. وهو بدل من الكعبة أو عطف بيان.

وقال الزمخشري[١]: «البيت الحرام» عطف بيان على جهة المدح لا على جهة التوضيح كما تجيء الصفة كذلك انتهى.

وليس كما ذكر لأنهم ذكروا في شرط عطف البيان الجمود، وإذا كان شرطه أن يكون جامداً لم يكن فيه إشعار بمدحٍ إذ ليس مشتقّاً، وإنما يُشعر بالمدح المشتقّ إلا أن يقال إنه لما وصف عطف البيان بقوله «الحرام» اقتضى المجموع المدح فيمكن ذلك. والقيام مصدر، يقال: قيام الأمر وقوام الأمر. وكونه قياماً للناس باتّساع الرزق عليهم وبامتناع الإغارة في الحرم وبسبب صيرورتهم أهل الله فكل أحد يتقرب إليهم، [وبما] يقام فيها من المناسك وفضل العبادات، وبأمن من توجّه إليها، وبعدم أذى من جرّ جريرة ولجأ إليه، وببقاء الدين ما حُجّت واستُقبلت.

و﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ ظاهره الإفراد وهو ذو الحجة لإقامة موسم الحج فيه، وقيل: المراد به الجنس فيشمل الأشهر الحرم [١٦٥/ ب] الأربعة: الثلاثة بإجماع من العرب، وشهر مُضَرَ وهو رجب[٢] كان كثير من العرب لا يراه ولذلك يُسمّى شهر الله إذ كان تعالى قد ألحقه في الحرمة بالثلاثة فنسبه وسدده. وكانوا لا يهيجون أحداً في الشهر الحرام، ولا من ساق الهدي لأنه يُعلم أنه لم يجيء لحرب، ولا من خرج يريد البيت لحجّ وعمرة فتقلّد من لحاء السمر، ولا من قضى نسكه فتقلّد من شجر الحرم.

---

(١) الكشاف ١ : ٦٤٦.

(٢) إنما قيل: رجب مضر لأنهم كانوا أشدّ تعظيماً له.

﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ ﴾ الظاهر أن الإشارة هي للمصدر المفهوم أي ذلك الجعل لهذه الأشياء قياماً للناس وأمناً لهم[١] لتعلموا أنه تعالى يعلمُ تفاصيلَ الأمورِ الكائنة في السماوات والأرض ومصالحكم في دنياكم ودينكم. وقيل: الإشارة إلى صرف قلوب الناس إلى مكة في الأشهر المعلومة فيعيش أهلها معهم ولولا ذلك لماتوا جوعاً لعلمه بما في ذلك من مصالحهم، وليستدلوا على أنه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض.

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ الآية، هذا تهديدٌ، إذْ أخبر أنَّ عقابه شديد لمن انتهك حرمته. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا ترجيةٌ بالغفرانِ والرحمة لمن حافظَ على طاعةِ الله أو تاب عن معاصيه.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ روى جابر أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن الخمر كانت تجارتي فهل ينفعني ذلك المال إن عملته في طاعة الله؟ فقال رسول الله ﷺ[٢]: إن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب، فنزلت هذه الآية. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما حَذَّرَ عن المعصيةِ ورغَّبَ في الطاعة بقوله تعالى «اعلموا أن الله شديد العقاب» وأتبعها التكليف بقوله تعالى «ما على الرسول إلا البلاغ» ثم بالترغيب في الطاعة والتنفير من المعصية [بقوله «والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» - أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة والتنفير من المعصية] فقال «قل لا يستوي» الآية.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ ﴾ الآية، روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري[٣]

(١) ق: وأمثالهم.

(٢) رواه مسلم ٢ : ٧٠٣ من حديث أبي هريرة بلفظ مقارب.

(٣) ٤ : ١٦٨٩.

عن أنس قال: قال رجل: يا رسول الله، من أبي؟ قال: أبوك فلان، ونزلت الآية، والسائل هو عبد الله بن حذافة. و«أشياء» اسم جمع كطرفاء. وعلى مذهب سيبويه أصلها شيئاء من لفظ شيء ثم قلب فجعلت لامه وهي الهمزة أولاً مكان فاء الكلمة، فوزنها: لَفْعاء، وجعلت فاء الكلمة وهي الشين تلي اللام، وجعلت الياء مكان لام الكلمة وهي كانت عيناً لأن المادة هي الشين والياء والهمزة. وفي وزنها أقوال أُخر ذكرت في النحو.

والجملة من قوله تعالى ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وما عطف عليها من الشرط والجزاء في موضع الصفة لـ «أشياء».

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ أي: من الأشياء التي نُهيتم عن السؤال عنها.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ ظاهره أنه يعود على الأشياء. ولا يمكن، لأن الأشياء التي نُهوا عن السؤال عنها ليست الأشياء التي سألها القوم الذين في هذه الآية، فيكون ذلك على حذف مضاف تقديره: قد سأل أمثالها. وكان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم عن أشياء هي تعنّتات وسؤالات لا تجوز كقولهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بتلك السؤالات كافرين.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما نهى عن

سؤال ما لم يؤذن فيه ولا كلّفهم إياه منع التزام أمور ليست مشروعة من الله تعالى.

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة بمعنى المنطوحة وهي الناقة إذا [١٦٦/أ] أنتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر، شقّوا أذنها وخلّوا سبيلها لا تُركب ولا تُحلب ولا تُطرد عن ماء ولا مرعى.

السائبة: فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض، يقال ساب الماء وسابت الحية، وقال ابن عباس: السائبة هي التي تسيّب للأصنام أي[١] تعتق. وكان الرجل يسيّب من ماله شيئاً فيجيء به إلى السدنة وهم خدم آلهتهم فيطعمون من لبنها للسبيل.

الوصيلة: قال ابن عباس إنها الشاة تنتج سبعة أبطن، فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشيء إلا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء، وإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه جميعاً، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فتترك مع أخيها فلا تذبح، ومنافعها للرجال دون النساء، فإذا ماتت اشترك الرجال والنساء فيها.

الحامي: اسم فاعل من حمى وهو الفحل من الإبل، قال ابن مسعود وابن عباس: هو الفحل ينتج من صلبه[٢] عشرة أبطن فيقولون قد حمى ظهره فيسيّبونه لأصنامهم فلا يحمل عليه شيء.

و«مِن» في قوله «من بحيرة» زائدة، [و«بحيرة»] مفعولة بـ«جعل».

---

(١) ق: تسيّبت للأصنام أن.

(٢) ق: من بطنه.

قال الزمخشري[١]: معنى «ما جعل» ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسييب وغير ذلك. وقال ابن عطية: و«جعل» في هذه الآية لا يتّجه أن تكون بمعنى خلق، لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها، ولا هي بمعنى صيّر لعدم المفعول الثاني، وإنما هي بمعنى: ما سنّ وما شرع انتهى.

لم يذكر النحويون في معنى جعل: شرع، بل ذكروا أنها تأتي بمعنى خلق وبمعنى ألقى وبمعنى صيّر وبمعنى الأخذ في الفعل فتكون من أفعال المقاربة، وذكر بعضهم أنها تجيء بمعنى سمّى. وقد جاء حذف أحد مفعولي ظنّ وأخواتها لكنه قليل، والحمل على ما سُمع أولى من إثبات معنى لم يثبت في لسان العرب، فيحتمل أن يكون المفعول الثاني محذوفاً أي: ما صيّر الله بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاميا مشروعة، بل هي من شرعِ غيرِ الله. والأنعام خلقها الله رفقاً بعباده ونعمة عدّدها عليهم ومنفعة بالغة، وأهل الجاهلية قطعوا طريق الانتفاع وإذهاب نعمة الله تعالى بها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ هذا استدراكٌ بعد نفي أي: يجعلون البحيرةَ وما بعدها من جعل الله تعالى. وعبّر بقوله «الكذب» عن نسبة ذلك الجَعْل إلى الله تعالى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾ الآية، تقدم تفسير مثلها في البقرة[٢]. وهنا: «تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا». وهناك: «اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا» وهنا: «لا يعلمون شيئاً» وهناك: «لا يعقلون شيئاً»، والمعنى في هذا التغاير لا يكاد يختلف.

---

(١) الكشاف ١: ٦٤٩.

(٢) الآية ١٧٠.

قال ابن عطية في «أَوَلَوْ»: ألف التوقيف دخلت على واو العطف كأنهم عطفوا هذه الجملةَ على الأولى والتزموا شنيعَ القول، فإنما التوقيف توبيخ لهم كأنهم يقولون بعده: نعم ولو كانوا كذلك انتهى.

قوله في الهمزة ألف التوقيف، عبارة لم أقف عليها من كلام النحاة، يقولون: همزة الإنكار، همزة التوبيخ، وأصلها همزة الاستفهام. وقوله: كأنهم[1] عطفوا هذه الجملة على الأولى، يعني فكان التقدير: وَأَلَوْ، فاعتنى بالهمزة فقدمت كقوله ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ۝٩﴾ [الروم]. وليس كما ذكر من أنهم عطفوا [١٦٦/ب] هذه الجملة على الأولى على ما نبيّنه إن شاء الله تعالى.

قال الزمخشري[2]: والواو في قوله «أَوَ لو كان آباؤهم» واو الحال وقد دخلت عليها همزة الإنكار [وتقديره]: أَحَسْبُهم[3] ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون؟، والمعنى أنَّ الاقتداء إنما يصحُّ بالعالم المهتدي، وإنما يُعرف اهتداؤه بالحجة[4].

جعل الزمخشري الواو في «أَوَلو» واو الحال وهو مغاير لقول ابن عطية إنها واو العطف [كأنهم] عطفوا هذه الجملة على الجملة الأولى. ونقول إنه[5] يصحّ أن يقال هي واو العطف لا من الجهة التي ذكرها ابن عطية، وواو الحال. لكن يحتاج ذلك إلى تبيين؛ وذلك أنه قد تقدم من كلامنا أن

(١) ق: وقولهم لأنهم.
(٢) الكشاف ١: ٦٤٩.
(٣) غير مقروءة في ق.
(٤) ق: فالحجة.
(٥) ق: إنها.

«لو» التي تجيء هذا المجيء هي شرطية وتأتي لاستقصاء ما قبلها والتنبيه على حالة داخلة فيما قبلها وإن كان مما ينبغي أن لا يدخل كقوله: أعطوا السائل ولو جاء على فرس، وردّوا السائل ولو بظلف[(١)]: «واتقوا النار ولو بشق تمرة»[(٢)] وقول الشاعر[(٣)]: [من البسيط]

قَوْمٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ دونَ النساءِ ولو باتَتْ بأَطهارِ

والمعنى: أعطوا السائل على كل حال ولو بالحالة التي تشعر بالغنى وهو مجيئه على فرس، وكذلك تقرّر ما ذكرنا من المثل على ما يناسب، فالواو عاطفة «على كل حال» [مقدّرة، فمن حيث هذا العطف صحّ أن يقال هي عاطفة، ومن حيث إن العطف على الحال حال] صحّ أن يقال إنها واو الحال. وقد تقدّم الكلام على ذلك في «البحر» بأشبع من هذا[(٤)]، فالتقدير في الآية[(٥)]: أَحَسْبُهم اتّباع ما وجدوا عليه آباءهم على كل حال ولو في الحالة التي ينتفي عن آبائهم العلم والهداية، فإنها حالة ينبغي أن لا تُتّبع فيها الآباء، لأن ذلك حال من غلب عليه الجهل المفرط.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ قال أبو أمية الشعباني[(٦)]: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً؛ سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مُؤْثَرة وشُحّاً

(١) ق: بظلاف.

(٢) خرّجه مسلم في صحيحه ٢: ٧٠٤ من حديث عديّ بن حاتم.

(٣) البيت للأخطل في ديوانه ص١٢٠.

(٤) انظر ٤: ٣٥.

(٥) ق: في هذا.

(٦) انظر تفسير الطبري ٧: ٦٣.

مطاعاً وإعجاب كُلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ فعليكَ بِخُويصةِ نفسكَ.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا بيّن أنواع التكاليف ثم قيل «ما على الرسول إلا البلاغ» إلى قوله تعالى «وإذا قيل لهم تعالوا»[١]، كان المعنى أن هؤلاء الجهّال بما تقدّم من المبالغة في الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب لم ينتفعوا بشيء منه بل بقوا مصرّين على جهلهم، فلا تبالغوا أيها المؤمنون بجهالتهم وضلالتهم فإنّ ذلك لا يضرّكم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله مطيعين لأوامره.

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ من كلم الإغراء وله باب معقود في النحو وهو معدود في أسماء الأفعال، فإن كان الفعل متعدّياً كان اسمه متعدّياً، وإن كان لازماً كان لازماً. و«عليكم» اسم لقولك: الزم، فهو متعدٍّ فلذلك نصب المفعول به والتقدير هنا: عليكم إصلاح أنفسكم. «إلى الله مرجعكم» أي مرجع المهتدين والضالين[٢]. وغلّب الخطاب على الغيبة كما تقول: أنت وزيد تقومان. وهذا فيه تذكير بالحشر وتهديد بالمجازاة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ
ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ
ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا
ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ
فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ

---

(١) الآيات ٩٩-١٠٤.

(٢) ق: والظالمين.

﴿الظَّالِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ
أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ١٠٨ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ
فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١٠٩﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، روى البخاري وغيره[1] عن ابن عباس قال: كان تميم الداري وعديّ يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سَهمٍ فتوفّي بأرضٍ ليس فيها مسلمٌ فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوصاً[2] بالذهب، فاستحلفهما - وفي رواية: فحلفهما - [١٦٧/ أ] بعد العصر النبي ﷺ ما كتمتما ولا اطلعتما، ثم وجد الجام بمكة فقالوا اشتريناه من عدي وتميم، فجاء الرجلان من ورثة السهميّ فحلفا أن هذا الجام للسهمي و«لشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا»، قال[3]: فأخذ الجام، وفيهم نزلت هذه الآية.

ومناسبتها لما قبلها هو أنه لما ذكر «يا أيها الذين آمنوا» الآية، كان في ذلك تنفير عن الضلال واستبعاد عن أن ينتفع بهم في شيء من أمور المؤمنين من شهادة أو غيرها، فأخبر تعالى بمشروعية شهادتهم أو الإيصاء إليهم في السفر على ما سيأتي بيانه. وقرأ الجمهور: شهادةُ بالرفع، بينِكم بالجر.

و«شهادة» مبتدأ و«اثنان» خبره على أحد تقديرين: أحدهما أن يكون التقدير: ذوا شهادة بينكم اثنان، والتقدير الثاني أن لا يُحذف من الأول

---

(١) أخرجه الترمذي ٥ : ٢٥٨ من الطريق نفسه وقال: حديث غريب وليس إسناده بصحيح.

(٢) الجام: إناء للشراب والطعام، ومخوصاً بالذهب: مزيّناً به.

(٣) ق: قالوا.

ويُحذف من الثاني فتقدّر: شهادة اثنين فيطابق المتبدأ الخبر في التقديرين، إذ لو حُمل على غير حذف لم يصحّ لأن الشهادة ليست تفسيراً لـ«اثنين». وقرأ السّلمي: شهادةً بالنصب والتنوين فقدّره الزمخشري[١]: لِيُقِمْ شهادةً اثنان، فجعل «شهادة» مفعولاً بإضمار هذا الأمر و«اثنان» مرتفع بـ«ليقم» على الفاعلية. وهذا الذي قدّره الزمخشري هو تقدير ابن جنّي بعينه. قال ابن جني: التقدير: ليُقم شهادةً بينكم اثنان انتهى.

وهذا الذي ذكره ابن جنّي مخالفٌ لما قاله أصحابنا، قالوا: لا يجوز حذف فعلٍ وأيضاً فاعله إلا إن أشعر[٢] بالفعل ما قبله كقوله تعالى «يُسَبَّحُ له فيها بالغدو والآصال رجال» [النور: ٣٦، ٣٧] على قراءة من فتح الباء فقرأه مبنيّاً للمفعول. وذكروا في اقتياس هذا خلافاً[٣] أي: يسبّحه رجال، فدل «يسبح» على: يسبّحه. أو أجيب به نفي كأن يقال لك: ما قام أحد عندك، فتقول: بلى زيد، أي قام زيد. أو أجيب به استفهام كقول الشاعر[٤]:

[من الطويل]

ألا هل أتى أمَّ الحويرث مرسَلٌ　　بلى، خالدٌ إن لم تَعُقْه العوائقُ

التقدير: أتى خالد أو يأتيها خالد. وليس حذف الفعل الذي قدّره ابن جنّي وتبعه الزمخشري واحداً من هذه الأقسام الثلاثة.

والذي عندي أن هذه القراءة الشاذة تتخرج على وجهين: أحدهما: أن يكون «شهادةً» منصوباً على المصدر الذي ناب مناب الفعل بمعنى الأمر،

(١) الكشاف ١ : ٦٥٠.

(٢) ق: وإبقاء فاعله إلا إن أشعره.

(٣) ق: خلاف.

(٤) البيت لأبي ذؤيب في ديوان الهذليين ١ : ١٥١.

و«اثنان» مرتفع به والتقدير: ليشهد بينكم اثنان. والوجه الثاني: أن يكون أيضاً مصدراً ليس بمعنى الأمر بل يكون خبراً ناب مناب الفعل في الخبر وإن كان ذلك قليلاً كقولهم: أفعلُ وكرامةً ومسرّةً أي أكرمك وأسرّك، أي يشهد اثنان.

﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لقوله «اثنان» و«منكم» صفة أخرى، و«من غيركم» صفة «لآخران». قال ابن عباس وغيره: أمر الله تعالى بإشهاد عدلين من القرابة إذ هم أحقّ بحال الوصية وأدرى بصورة العدل فيها. فإن كان الأمر في سفر ولم تحضر قرابة أسندها إلى غيرهما من المسلمين الأجانب. وهذا القول مخالف لما ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين حتى إن ابن عطية قال: لا نعلم خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميما الداري وعديًّا[1] كانا نصرانيين، وساق الحديث المذكور أولاً. وقال أبو جعفر النحّاس ناصراً لقول ابن عباس إن هذا [١٦٧/ب] القول يبنى على معنى غامض في العربية، وذلك أن معنى «آخر» في العربية من جنس الأول، تقول: مررت بكريم وكريم آخر، فقوله: آخر، يدل على أنه من جنس الأول، ولا يجوز عند أهل العربية: مررت بكريم وخسيس آخر، ولا: مررت برجلٍ وحمارٍ آخر، فوجب من هذا أن يكون معنى قوله «أو آخران من غيركم» أي عدلان، والكفار لا يكونون عدولاً انتهى.

وما ذكره في المثل صحيح، إلّا أن الذي في الآية مخالف للمُثل التي ذكرها النحاس في التركيب، لأنه مثّل بتأخير «آخر» وجعله صفة لغير الجنس الأول. وأما الآية فمن قبيل ما تقدّم فيه «آخر» على الوصف واندرج «آخر» في الجنس الذي قبله، ولا يعتبر وصف جنس الأول تقول: جاءني رجل

(١) ق: تميم.. وعدي.

مسلم وآخر كافر، ومررت برجل قائم وآخر قاعد، واشتريت فرساً سابقاً وآخر مبطئاً. فلو أخّرت «آخر» في هذه المُثل لم تجز المسألة، لو قلت: جاءني رجل مسلم وكافر آخر، ومررت برجل قائم وقاعد آخر، واشتريت فرساً سابقاً ومبطئاً آخر، لم يجز.

وليست الآية من هذا القبيل لأن التركيب فيها جاء «اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم» فآخران من جنس قوله «اثنان» ولا سيّما إذا قدّرته: رجلان اثنان. فآخران هما من جنس قولك: رجلان، ولا يعتبر وصف قوله «ذوا عدل منكم» وإنْ كان مغايراً لقوله «من غيركم» كما لا يعتبر وصف الجنس في قولك: عندي رجلان اثنان مسلمان وآخران كافران، إذ ليس من شرط «آخر» إذا تقدم أنْ يكون من جنس الأول بقيد وصفه، وعلى ما ذكرته هو لسان العرب، قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران] [وأخرى] تأنيث آخر، قال زهير بن أبي سلمى(١): [من البسيط]

كانوا فريقين يُصغون الزِّجاج على ... قُعْسِ الكواهل في أكتافها شَمَمُ
وآخرين تَرى الماذيَّ عُدَّتهم ... من نَسْجِ داودَ أو ما أَورثَتْ إِرَمُ

[قوله: يصغون] أي: يميلون، والزجاج عنى به الأسِنَّة، وقُعْس: جمع أقعس وهو الأحدب، والشمم الارتفاع، والماذيّ الدرع اللّين الصافي، وإرم أمة قديمة. التقدير: كانوا(٢) فريقين فريقاً أو ناساً يصغون الزجاج، ثم قال: وآخرين ترى الماذي. فـ«آخرين» من جنس قولك: فريقاً، ولم يعتبره بوصفه.

(١) ديوانه ص١٥٨. وفي ق: يصغون الثياب.
(٢) ق: كان.

وهو قوله «يصغون الزجاج» لأن الشاعر قَسَم من ذَكَر إلى قسمين متباينين بالوصف متّحدين في الجنس، وهذا الفرق قَلَّ مَنْ يفهمه فضلاً عمّن يعرفه.

والظاهر أن «أو» للتخيير وقال به ابن عباس. فمن جعل قوله «من غيركم» أي: من غير عشيرتكم، كان مخيّراً بين أنْ يستشهد أقاربه أو الأجانب من المسلمين.

ومن زعم أن قوله «من غيركم» أي من الكفار فاختلفوا: فقيل «غير» يعني به أهل الكتاب وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل: أهل الكتاب والمشركين وهو ظاهر قوله «من غيركم». [وقيل: «أو» للترتيب إذا كان قوله «من غيركم»] يعني به: من غير أهل ملّتكم، فالتقدير: إن لم يوجد من ملّتكم.

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، ولو جرى على لفظ «إذا حضر أحدكم الموت» لكان التركيب: إن هو ضرب في الأرض فأصابته مصيبة الموت، وإنما جاء الالتفات جمعاً لأن قوله «أحدكم» معناه [١٦٨/أ] إذا حضر كل واحد منكم الموت. والمعنى إذا سافرتم في الأرض لمصالحكم ومعاشكم. وظاهر الآية يقتضي أنَّ استشهادَ آخرين من غير المسلمين مشروطٌ بالسفر في الأرض وحضور علامات الموت.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ قال الفارسي والحوفي وأبو البقاء: صفة لـ«آخران»، واعترض بين الموصوف والصفة بالشرط وما عطف عليه. وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرين من غير الملّة أو القرابة حسب اختلاف العلماء في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه. واستغنى عن جواب «إن» لما تقدّم من قوله «أو آخران من غيركم» انتهى.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: ما موضع «تحبسونهما»؟ قلت: هو استئناف كلام كأنه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما: فكيف [نعمل إن] ارْتَبْنا فيهما؟ فقيل: تحبسونهما انتهى.

وما قاله الزمخشري من الاستئناف أظهر من الوصف لطول الفصل بالشرط والمعطوف عليه بين الموصوف وصفته. وإنما قال الزمخشري: بعد اشتراط العدالة فيهما، لأنه اختار أنْ يكون قوله «أو آخران من غيركم» معناه: أو عدلانِ آخرانِ من غيرِ القرابة، والخطابُ في ذلك لمن يلي ذلك من ولاةِ الإسلام. وضمير المفعول عائد في قولٍ على آخَرْين من غير المؤمنين، والظاهر عَوْدُه على اثنين منّا أو من غيرنا سواء كانا وصيّين أو شاهدين.

وظاهر قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أنَّ الألف واللام للجنس أي من بعد صلاة. وقد قيل بهذا الظاهر، وقيل هي صلاة العصر ورجح بأنَّ رسول الله ﷺ استحلف عديًّا وتميماً بعدها عند المنبر.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ الآية، ظاهره تقييده حلفهما بوجود الارتياب فمتى لم توجد الريبة فلا تحليف.

﴿لَا نَشۡتَرِي﴾ جواب القسم والضمير في «به» عائد على القسم بالله. و﴿ثَمَنًا﴾ على حذف مضاف تقديره: مالاً ذا ثمن.

وفي ﴿كَانَ﴾ ضمير يعود على من يُقْسَم لأجله قريباً منه من حيث المعنى.

﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ معطوفة على قوله «لا نشتري به ثمناً» فيكون من جملة المقسم عليه. وأضاف الشهادة إلى الله لأنه تعالى هو الآمر بإقامتها النّاهي

---

(١) الكشاف ١: ٦٥١.

عن كتمانها. وقرأ الأعمش وابن محيصن: لَملاّثمين، بإدغام نون «مِن» في لام «الآثمين» بعد حذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام. و«إذا» ها هنا تؤدي معنى الشرط والمعنى: وإنّا[1] إن اشترينا أو كتمنا لمن الآثمين.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ أي: فإن اطلع بعد حلفهما. ﴿ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ أي: ذنباً بحنثهما في اليمين بأنها ليست مطابقة للواقع. ﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أي: رجلان آخران. ﴿ يَقُومَانِ[مَقَامَهُمَا ﴾ أي:] مقام ذينك اللذين استحقّا إثماً بما ظهر عليهما من خيانتهما في الجام يقومان مقامهما في الإيمان أنهما يستحقّان ذلك الجام ويكونان من الورثة لمالِ الميتِ الذي كان سافر.

وقرىء: استُحقّ عليهم، مبنيًا[2] للمفعول أي المستحقّ[3] عليهم، أي أخذ الجام الذي كان الأوّلان خانا فيه وكتماه عن الورثة. وقرىء: استَحقّ مبنياً للفاعل أي استحقّ الأوّلان أخذه بخيانتهما. وقرىء: الأوّلَيْن، صفة لـ«الذين» ويريد به الوارث لأنهم أوّلون باعتبار استحقاق المال، والآخران المعثور على خيانتهما آخران. وقرىء: الأوليان، على إضمار مبتدأ محذوف أي الآخران [١٦٨/ ب] القائمان مقام الأوّلين اللذين كتما الجام تقديره: هما الأوليان.

﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ ﴾ أي: لأَيماننا أن الجام ممّا نستحقّه أحقّ من شهادة ذَيْنِك الأوّلين. ويريد بالشهادة الأيمان لأن الأيمان تثبت بها الحقوق كما تثبت بالشهادة. «لشهادتنا» جواب القسم «وما اعتدينا» معطوف عليه،

---

(١) ق: وإذا.

(٢) ق: مبني.

(٣) ق: استحق.

كما جاء قسم الآخرَيْن له جوابان: لا نشتري ولا نكتم، كذلك جاء ها هنا جوابان: لشهادتنا وما اعتدينا.

﴿إِنَّآ إِذًا﴾ [أي: إنْ] زللنا في الشهادة واعتدينا، لمن الظالمين.

وهذه الآية نزلت في قضية معيّنة على ما دلّ عليه سبب النزول في صحيح البخاري، ولم يقيّد شهادة العدلين بالسّفر وقيّدت به شهادة آخرين من غير المسلمين بقوله تعالى «إن أنتم ضربتم في الأرض». وثَمّ محذوف تقديره: ووضعتما أيديكما على جميع ما خلّفه الميت ثم أدّيا ذلك للورثة فإن ارتيب فيهما حلفا اليمين المذكورة بعد الصلاة. فإن اطُّلع على خيانة منهما في شيء معيّن حلف الآخران على استحقاق ذلك وأخذاه. وذكر في البحر تقادير من الإعراب تطالع فيه[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة[٢] بـ«ذلك» إلى الحكم السابق. ولمّا كان الشاهدان لهما حالتان: حالة مرتاب فيها إذا شهدا، فإذ ذاك يحبسان بعد الصلاة ويحلفان اليمين المشروعة في الآية. وحالة يُطّلع[٣] فيها إذا شهدا، على إثمهما بالشهادة وكذبهما في الحلف، فإذ ذاك لا يلتفت إلى أيمانهم وتردّ إلى شهود آخرين فيُعمل بأيمانهم، فقوبلت كل حالة بما يناسبها، وكان العطف بـ«أو» لأنها لأحد الشيئين. والإشارة بـ«الفاسقين» إلى من حرّف الشهادة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لما أخبر تعالى بالحكم في شاهدَي الوصية ذكّر بهذا اليوم المَخُوفِ وهو يوم القيامة، فجمع

(١) انظر ٤: ٤٥ وما بعدها.

(٢) ق: إشارة.

(٣) ق: لا يطلع.

بذلك بين فضيحةِ الدنيا وعقوبةِ الآخرة لمنِ حرَّفَ الشهادة ومَنْ لم يتَّقِ الله تعالى.

﴿ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ ﴾ سؤال توبيخ لأممهم لتقوم الحجة عليهم. وانتصاب «ماذا» بـ«أجبتم» انتصاب لمصدره على معنى: أي إجابة أجبتم، كما تقول: ماذا يقوم زيد، تريد: أي قيام يقوم. قالوا: هو الناصب لقوله «يوم يجمع». والسؤال عن الإجابة متضمن المجاب به ونفيهم العلم عنهم بقولهم[١] «لا علم لنا»، قال ابن عباس: معناه لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا. وقرىء: علامَ، بالنصب وهو على حذف الخبر لفهم المعنى، فيتم الكلام بالمقدر في قوله «إنك أنت» أي: إنك الموصوف بأوصافك المعروفة من العلم وغيره.

قال الزمخشري[٢]: ثم نصب «علام الغيوب» على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم إنّ انتهى. وهذا الوجه الأخير لا يجوز لأنهم أجمعوا على أن ضمير المتكلم وضمير المخاطب لا يجوز أن يوصف، وأما ضمير الغائب ففيه خلاف شاذ للكسائي.

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(١) ق: بقوله.

(٢) الكشاف ١: ٦٥٢.

﴿مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى
وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ «إذ» بدل من قوله «يوم يجمع». «يا عيسى» وصف عيسى بقوله «ابن مريم». واحتمل «عيسى» أن يكون مضموماً ومفتوحاً في التقدير كما كانتا ظاهرتين في قولك: يا زيدُ بنَ عمرو [ويا زيدَ بنَ عمرو]. والنعمة هنا جنس ويدلُّ على ذلك ما عدّده بعد هذا التوحيد اللفظي من النعم، وأضافها [١٦٩/أ] إليه تنبيهاً على عظمها. ونعمتُه عليه قد عَدَّدها هنا وفي البقرةِ وآل عمران ومريم[١] وفي مواضع من القرآن. ونعمته على أُمِّهِ براءتها ممّا نُسبَ إليها وتكفيلها لزكريا وتقبّلها بقبولٍ حَسَنٍ وما ذكر في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم] إلخ وغير ذلك. وأمر بذكر نعمة أمه لأنها نعمة صائرة إليه.

و﴿أَيَّدتُّكَ﴾ معناه قوّيتك مشتقًّا من الأيد، وأيّد وزنه فَعَّل مضارعه يؤيّد، قال الزمخشري[٢]: يكون على أفْعَلْتُك قال ابن عطية: على وزن فاعلتك، ويظهر أن الأصل في القراءتين: أأْيَدْتُكَ، على وزن أَفْعَلْتكَ ثم اختلف الإعلال، والمعنى فيهما قوّيتك من الأيد انتهى. لو كان أفعل لكان المضارع يؤيّد كمضارع آمن يؤمن. وأما من قرأ: آيد[٣] فيحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب؛ فإن كان يؤايد فهو فاعَلَ، وإن كان يؤيّد فهو أَفْعَلَ. وأما قول ابن عطية في القراءتين: يظهر أن وزنه أفعلتك ثم اختلف الإعلال فلا أفهم ما أراد.

---

(١) انظر ٢: ٨٧، ٢٥٣، و٣: ٤٥-٥٠ و١٩: ١٦-٣٤.

(٢) الكشاف ١: ٦٥٣ وعبارته «وقرىء: آيدتك، على أفْعَلْتُك».

(٣) ق: آأيد.

﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تقدّم تفسير [نظير] هذه الجمل والقراءات التي فيها في آل عمران[١]. وما لم يتقدم ذكره نذكره فنقول: جاء هنا: كهيئة الطير فتنفخ فيها فيكون طائراً. قال مكّي: هو في آل عمران عائد على الطائر، وفي المائدة عائد على الهيئة، قال: ويصحّ عكس هذا. وقال غيره: الضمير المذكور عائد على الطين.

قال ابن عطية: ولا يصحُّ عَوْد هذا الضميرِ لا على [الطير ولا على] الطين ولا على الهيئة، لأنَّ الطيرَ أو الطائر الذي يجيء الطين على هيئته لا نفخ فيه البتّة وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة به، وكذلك الطين إنما هو الطين العام ولا نفخ في ذلك انتهى.

قال الزمخشري[٢]: ولا يرجع - يعني الضمير - إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء، وكذلك الضمير في «فتكون»[٣] انتهى.

والذي ينبغي أن يحمل عليه كلام مكي أنه لا يريد به ما فهم عنه بل يكون قوله «عائد على الطائر» لا يريد به الطائر المضاف إليه الهيئة، بل الطائر الذي صوّره عيسى ويكون التقدير وإذ تخلق من الطين طائراً صورته[٤] مثل صورة الطائر الحقيقي فتنفخ فيه فيكون طائراً حقيقة بإذن الله. ويكون قوله «عائد على الهيئة» لا يراد به الهيئة المضافة إلى الطائر بل الهيئة التي تكون الكاف صفة لها ويكون التقدير: وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطير فتنفخ فيها

(١) ٣: ٤٩.

(٢) الكشاف ١: ٦٥٣.

(٣) ق: يكون.

(٤) ق: صورة.

أي في الهيئة الموصوفة بالكاف المنسوب خَلْقُها إلى عيسى. «وإذ تخرج الموتى» أي تحيي الموتى، فعبّر بالإخراج عن الإحياء كقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ بعد قوله ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ [ق][1]، أو يكون التقدير: وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياءً.

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ أي: منعتُهم من قتلك حين همّوا بك وأحاطوا بالبيت الذي أنت فيه. والبيّنات هنا هي المعجزات التي تقدّم ذكرها وظهرت على يديه.

ولمّا فصَّلَ تعالى نعمته ذكر ذلك منسوباً لعيسى عليه السلام دونَ أمه لأنَّ من هذه النعمة نعمة النبوة وظهور هذه الخوارق، فنعمته عليه أعظم منها على أمّه فخصّ بالذكر أعظم النعمتين، ولأن[2] جميع ما وُصف [به] عيسى عليه السلام هو فَخْرٌ لأمهِ إذ وَلَدتْ مثلَ هذا النبيِّ الكريم، وقال [١٦٩/ب] الشاعر[3]: [من الكامل]

شهِدَ العوالمُ أنها لنجيبة بدليلِ ما ولَدتْ من النُّجباءِ

﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قرىء: ساحر بالألف هنا وفي هود والصف[4]. فهذا إشارة إلى عيسى. وقرىء: سِحْر، فهذا إشارة إلى ما جاء به عيسى من البيّنات، ويجوز أن يكون قوله هذا إشارة إلى عيسى

(١) وفي ق: فأحيينا.

(٢) ق: وكان.

(٣) لم أجده، وانظر البحر ٤ : ٥٢.

(٤) انظر ١١ : ٧، ٦١ : ٦.

ويكون قوله «سحر» أي [ذو] سحر(١) فيكون على حذف مضاف، أو جعلوا عيسى سحراً على سبيل المبالغة.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ ﴾ الظاهر أن الوحي على ألسنة الرسل. والرسول هنا هو عيسى عليه السلام. وهذا الإيحاء إلى الحواريين هو من نعم الله تعالى على عيسى بأن جعل له أتباعاً يصدّقونه ويعملون بما جاء به.

﴿ أَنْ ءَامِنُوا ﴾ أن تفسيرية بمعنى أي، ويجوز آن تكون مصدرية أي بالإيمان. ﴿ قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ أي: بكَ وبرسولك. ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ أي: منقادون لأمرك.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ ظاهر اللفظ أن قوله تعالى «إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك»(٢) إلى آخر قصة المائدة كان ذلك في الدنيا، ذكّر عيسى بنعمه وبما أجراه على يديه من المعجزات، وباختلاف بني إسرائيل عليه وانقسامهم إلى كافر ومؤمن وهم الحواريون. ثم استطرد إلى قصة المائدة إعلاماً لرسول الله ﷺ بما صدر من الحواريين في قصة المائدة بعد إقرارهم بالإيمان بالله تعالى وبعيسى عليه السلام، إذ في سؤال المائدة

---

(١) ق: وسحر.

(٢) الآية ١١٠ السابقة.

بعض تعنّت من الحواريين، وفي قولهم «يا عيسى بن مريم» سوء أدب إذ لم يقولوا: يا روح الله [أو] يا رسول الله. وفي قولهم «هل يستطيع ربك» سوء أدب.

وقرأ الجمهور: هل يستطيع ربُّك، بالياء و«ربك» بالرفع. وقرأ الكسائي: هل تستطيع، بالتاء و«ربك» بالنصب وهو على حذف مضاف تقديره: سؤال ربك، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزّل. وهذه القراءة أحسن(١) في المحاورة من قراءة الجمهور.

﴿عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ المائدةُ الخوانُ الذي عليه طعامٌ، فإذا لم يكن عليه طعامٌ فليس بمائدة.

﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيه إنكار عليهم اقتراح هذه الآية وبشاعة اللفظ في قولهم «هل يستطيع ربك» بعد قولهم: آمنا بك وبرسولك، ويدل على اضطرابهم الآية التي بعدها. روي أن عيسى عليه السلام لبس جبّة شعر ورداء شعر وقام يصلّي ويبكي ويدعو. والآية قولهم: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي: مما على المائدة. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ و«أنْ» هذه هي المخففة من الثقيلة تقديره [أنّك] قد صدقتنا. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال الزمخشري(٢): عاكفين عليها، على أنّ «عليها» في موضع الحال انتهى. وهذا التقدير ليس بجيد لأن حرف الجر لا يحذف عامله وجوباً إلا إذا كان كوناً مطلقاً لا كوناً مقيداً، والعكوف كون مقيّد. ولأن المجرور إذا كان في موضع الحال كان العامل فيها: عاكفين المقدّر، وقد ذكرنا أنه ليس بجيد.

---

(١) ق: حسنة.

(٢) الكشاف ١: ٦٥٤. وفي ق: أي على أن.

ثم إن قول الزمخشري مضطرب لأن «عليها» إذا كان ما[1] يتعلق به هو «عاكفين» كانت في موضع نصب على المفعول الذي تعدّى إليه العامل بحرف الجر، وإذا كانت في موضع الحال كان العامل فيها كوناً مطلقاً واجب الحذف فظهر التنافي بينهما والله أعلم.

ثم إن عيسى عليه السلام دعا الله تعالى باسمه العَلَم الذي لا شركة فيه وهو «اللهم». و«ربنا»: أي: مصلحنا ومالك أمرنا.

﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ المعنى: [١٧٠/أ] يكون يوم نزولها عيداً، قيل: وهو يوم الأحد ومن أجل ذلك اتخذه النصارى عيداً. والعيد السرور والفرح ولذلك يقال: يوم عيد. والمعنى أن يكون لنا سروراً وفرحاً. والعيد المجتمع لليوم المشهود، وَعُرْفُه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر أو بالجمعة ونحوه.

﴿لِأَوَّلِنَا﴾ [لأهلِ زماننا. ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ من يجيء بعدنا. و«لأوّلنا» بدل من ضمير المتكلم في قوله «لنا» وأعيد فيه حرف الجر وجاز ذلك لأن معنى قوله «لأوّلنا] وآخرنا» كلّنا، كقولك: مررت بكم كبيرِكم وصغيركم أي كلكم. وضمير المتكلم والمخاطب لا يبدل منهما إلا بتوكيد نحو: قمت أنا نفسي وقمت أنت نفسك، إلا إن كان البدل يفيد معنى التوكيد فيجوز كهذه الآية.

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ علامة شاهدة على صدق عبدك. ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ عام في طلب الرزق من المائدة وغيرها.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية، اختلفوا في كيفية نزولها وفيما كان عليها

---

(١) ق: مما.

ومن أكل منها وفيما آل إليه حال من أكل منها اختلافاً[1] مضطرباً متعارضاً ذكره المفسرون أَضْرَبْتُ عنه صفحاً إذ ليس فيه شيء يدل على لفظ الآية. وأحسن ما يقال فيه ما خرجه الترمذي[2] في أبواب التفسير عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأُمروا أن لا يدّخروا لغدٍ ولا يخونوا فخانوا وادّخروا ورفعوا لغدٍ فَمُسِخوا قردة وخنازير».

﴿فَمَن يَكْفُرْ﴾ جملة شرطية جوابها ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ الآية. قال الحسن ومجاهد: لما سمعوا هذا الشرط أشفقوا فلم تنزّل.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ الآية، قال ابن عباس وقتادة والجمهور: هذا القول إنما هو من الله تعالى يوم القيامة يقوله على رؤوس الأشهاد فيعلم الكفار أنّ

(١) ق: فاً.

(٢) ٥: ٢٦٠.

ما كانوا فيه باطل فيكون هذا من تمام قوله تعالى ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة] المقول في الآخرة، وفصل بينهما بآية المائدة تنبيهاً على ما صدر من بني إسرائيل وإن كانوا أظهروا الإيمان بالله تعالى وبعيسى عليه السلام لينبّه المؤمنين على أن سؤال الاقتراح ينبغي أن يتحرّز عنه، وكثيراً اقترح بنو إسرائيل ما لا يجوز كقولهم ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف] وقولهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

وفي إيلاء الاستفهام الاسم [ومجيء الفعل بعده دلالة على صدور الفعل في الوجود، لكن وقع الاستفهام] عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب أو ليس بصادرٍ عنه. بيان ذلك أنك تقول: أضربت زيداً، فهذا استفهام هل صدر منك ضربٌ لزيد أم لا، ولا إشعار فيه بأن ضرب زيد قد وقع. فإذا قلت: أأنت ضربت زيداً كان الضرب قد وقع بزيد لكنك استفهمت عن إسناده إلى المخاطب، وهذه مسألة بيانية نحوية نَصَّ على ذلك أبو الحسن الأخفش.

وذكر المفسرون أنه لم يقلْ أحدٌ من النصارى بإلٰهيّة مريم فكيف قيل «إلٰهين»؟. وأجابوا بأنهم لما قالوا لم [تلد] بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أنْ يقولوا من حيث البعضيّة بإلٰهية مَنْ ولده فصاروا بمثابة من قاله انتهى.

والظاهر صدور القول في الوجود لا من عيسى عليه السلام، ولا يلزم من صدور القول وجود الاتخاذ(١).

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن أن يقال هذا وينطق به أو أن يكون له شريك. بدأ أولاً بتنزيه الله تعالى ثم ثانياً بإنكار ذلك القول بقوله «ما يكونُ

(١) ق: الاتحاد.

لي أن أقول ما ليسَ لي بحق» ثم ثالثاً بقوله« إنْ كنتُ قُلتُه فقد علمته» عَلّقَ مستحيلاً على مستحيلٍ وهو نفيه علمه تعالى بذلك القولِ فانتفى ذلك القول، ثم رابعاً بإحاطةِ علمه تعالى بما في نفس عيسى عليه السلام بقوله «تعلم ما في نفسي».

[وقوله] ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِى نَفۡسِكَۚ﴾ من باب المقابلة، ولا يقال إن لله [١٧٠/ب] نفساً وإن كان قد جاء قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ [ٱللَّهُ] نَفۡسَهُۥ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران] قالوا: معناه عقابه، ونظيره في المقابلة قوله تعالى ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران].

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ أخبر أنه لم يتعدَّ أمرَ الله تعالى في أنْ أمر بعبادته وأقرَّ بربوبيّته.

وفي قوله ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمۡۚ﴾ براءته مما ادّعوه فيه. قال الحوفي وابن عطية: و«أنْ» في «أن اعبدوا» مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون بدلاً من «ما»، ويصحّ أن تكون بدلاً من الضمير في «به». وزاد ابن عطية [أنه يصحّ] أن تكون في موضع خفض على تقدير: بأن اعبدوا. وأجاز أبو البقاء الجرّ على البدل من الهاء، والرفع على إضمار هو، والنصب على إضمار أعني، أو بدلاً من موضع «به». وقال أبو عبد الله الرازي[1]: كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب. قال الحسن: إنما عدل لئلّا يجعل نفسه وربه آمرَيْن معاً، ودلّ على أن الأصل ما ذكر «أن» المفسّرة انتهى.

(١) تفسيره ١٢: ١٤٤.

وقال الزمخشري[١]: «أنْ» في قوله «أن اعبدوا الله» إن جعلتها مفسّرة لم يكن لها بدّ من مفسّر، والمفسّر إما فعل القول وإما فعل الأمر، وكلاهما لا وجه له؛ أما فعل القول فيُحكى بعده الكلام من غير أن يتوسّط[٢] بينهما حرف التفسير، لا تقول: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله، ولكن: ما قلت لهم إلا اعبدوا الله.

[وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله عزّ وجلّ، فلو فسّرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم لأنَّ الله تعالى لا يقول: اعبدوا الله ربي وربكم. وإن جعلتها موصولة بالفعل لم يَخْلُ من أن تكون بدلاً من «ما أمرتني به» أو من الهاء في «به». وكلاهما[٣] غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه، ولا يقال: ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى: ما قلت لهم إلا عبادته، لأن العبادة لا تقال.

وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء، لأنك لو أقمت «أن اعبدوا الله» مقام الهاء، فقلت: إلا ما أمرتني بأن اعبدوا الله، لم يصحّ لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته.

فإن قلت: فكيف تصنع؟ قلت: يُحمل فعل القول على معناه، لأن معنى «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به»: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، حتى يستقيم تفسيره بـ«أن اعبدوا الله ربي وربكم». ويجوز أن تكون «أن» موصولة عطفَ بيان للهاء[٤] لا بدلاً انتهى.

---

(١) الكشاف ١: ٦٥٦.

(٢) ق: توسط.

(٣) ق: وكليهما.

(٤) ق: عطفاً على بيان الهاء.

وفيه بعض تعقّب: أمّا قوله: وأمّا فعل الأمر إلى آخر المنع، وقوله: لأن الله تعالى لا يقول: اعبدوا الله ربي وربكم - فإنما لم يستقم لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومة إلى فعل الأمر. ويستقيم أن يكون فعل الأمر مفسّراً بقوله «اعبدوا الله»، ويكون «ربي وربكم» من كلام عيسى عليه السلام على إضمار: أعني، أي: أعني وربكم، لا على الصفة التي فهمها الزمخشري فلم يستقم ذلك عنده.

وأما قوله: لأن العبادة لا تقال - فصحيح لكن ذلك يصحّ على حذف مضاف، أي: ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به: قول عبادة الله، أي: القول المتضمن عبادة الله.

وأما قوله: لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته - فلا يلزم في [كل] بدل أن يحلّ محلّ المبدل منه؛ ألا ترى إلى تجويز النحويين: زيد مررت به أبي عبد الله؟ ولو قلت: زيد مررت بأبي عبد الله لم يَجُزْ ذلك عندهم إلا على رأي الأخفش.

وأما قوله: عطف بيان للهاء - فهذا فيه بُعد لأن عطف البيان أكثره بالجوامد الأعلام، وما اختاره الزمخشري وجوزه غيره من كون «أنْ» مفسّرة لا يصحّ لأنها جاءت بعد إلاّ، وكل ما كان بعد إلاّ المستثنى بها فلا بد أن يكون [١٧١/أ] له موضع من الإعراب، وأنْ التفسيرية لا موضع لها من الإعراب. ويظهر [لي] أن تكون «أن» مفسّرة لفعل محذوف يدل على معنى القول والتقدير: أمرتهم أن اعبدوا الله، ويدل على هذا الفعل قوله «ما أمرتني به»، وإذا أمره الله بشيء فلا بدّ أن يأمر به عباده.

والذي[١] صدر من عيسى عليه السلام في غير موضع أمره بعبادة الله ومنه ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران].

ولو ذهب ذاهبٌ إلى أنّ «أنْ» زائدة لمجرد التوكيد وأن قوله «اعبدوا الله ربي وربكم» من قوله «ما أمرتني به» - لكان وجهاً سائغاً وصار التقدير: إلا ما أمرتني به اعبدوا الله ربي وربكم.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من قول ذلك وأن يتديّنوا به. وأتى بصيغة فعيل للمبالغة: كثير الحفظ عليهم والملازمة لهم. و«ما» ظرفية ودام تامة أي: ما بقيت فيهم أي: شهيداً في الدنيا.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ هي وفاةُ رَفْعِه عليه السلام إلى السماء لا وفاةُ الموتِ، ألا ترى إلى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء]. وتضافرت الأخبارُ الصحيحةُ عن رسول الله ﷺ أنه في السماء حيّ وأنه ينزل ويقتل الدّجال[٢]. وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء][٣] أي: بعيسى قبل موته أي: الموتة الحقيقية.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية، قال أهل السنّة: مقصود عيسى عليه السلام تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك الاعتراض بالكليّة ولذلك ختم الكلام بقوله «فإنك أنت العزيز الحكيم» أي: قادرٌ على كُلِّ ما تريد حكيمٌ في

---

(١) ق: الذي.

(٢) انظر مثلاً صحيح مسلم ٤: ٢٢٥٨، رواية عبد الله بن عمرو.

(٣) وبعدها في ق: به أي.

كل ما تفعل لا اعتراض عليك.

﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور: هذا يومُ، بالرفع على أن «هذا» مبتدأ و«يوم» خبره والجملة محكيّة بقال وهي في موضع المفعول به لقال. وقرأ نافع: هذا يومَ، بفتح الميم فخرّجه الكوفيون على أنه مبني خبر لهذا، وبُني لأضافته إلى الجملة الفعلية المصدّرة بالمضارع فتتّحد القراءتان. والبصريون لا يجيزون بناء الظرف إلا إذا كانت الجملة مصدّرة بالفعل الماضي نحو: عجبت من يومَ قدم زيد، وهذه المسألة ذكرت [في علم النحو].

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذا كأنه جواب سائل سأل: ما لهم جزاءً على الصدق؟ فقيل: لهم جنات. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ إشارة إلى تأبيد الديمومة في الجنة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ ذلك: إشارة إلى ما تقدم من كينونة الجنة لهم على التأبيد، وإلى رضوان الله عنهم لأن الجنة بما فيها كالعدم بالنسبة إلى رضوان الله تعالى.

وثبت في الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال[1]: «يطلع اللهُ على أهلِ الجنة فيقول: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا وكيف لا نرضى وقد بعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك. فيقول الله عزّ وجلّ: ولكم عندي أفضل من ذلك. فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول الله عزّ وجلّ: أُحِلُّ عليكم رضائي فلا أسخطُ عليكم بعدها أبداً».

(١) صحيح مسلم ٤ : ٢١٧٦، عن أبي سعيد الخدري بألفاظ مقاربة.

وقال أبو عبد الله الفخر الرازي(١): مفتتحُ السورة كان بذكرِ العهدِ المنعقدِ بين الربوبية والعبودية، فيشرع العبد في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه [بالكلية]. فالأول هو الشريعة وهو البداية، والآخر هو الحقيقة وهو النهاية. فمفتتحُ السورةِ من الشريعة [١٧١/ب] ومختتمها بذكرِ كبرياءِ الله وجلالِه وقهره وعزّته وعلوّه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة. فما أحسنَ المناسبةَ بين ذلك المُفْتَتَحِ وهذا المختتم انتهى. وليست الحقيقةُ والشريعةُ والتمييز بينهما من ألفاظِ الصحابةِ والتابعين، وإنما ذلك من كلامِ الصوفية، ولهم في ذلك كلام طويل.

(١) تفسيره ١٢: ١٤٧.

سورة الأنعام

سورة الانعام[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ هذه السورة مكية إلا آيات قيل نزلت بالمدينة. ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلٰهين من دون الله، وجرت تلك المحاورة، وذكر ثواب الصادقين، وأعقب ذلك بأنّ له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وأنه قادر على كل شيء - ذكر بأن الحمد لله المستغرق جميع المحامد، فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلٰهيّة فيُحمد. ثم نبّه على العلّة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية كون ملك السماوات والأرض وما فيهن له، بوصف خلق السماوات والأرض؛ لأن الموجد للشيء، المنفرد باختراعه، له الاستيلاء والسلطنة عليه. ولمّا تقدّم قولهم في عيسى عليه السلام وكفرهم بذلك وذَكَر الصادقين وجزاءهم - أعقب خلق السماوات والأرض بجعل

(١) مكية وآياتها مئة وخمس وستون.

الظلمات والنور فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق.

وقال الزمخشري[١]: «جعل» تتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى «وجعل الظلمات والنور»، [وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صيّر كقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ ۝١٩﴾ [الزخرف]]. والفرق بين الخَلْق والجَعْل أن الخلق فيه [معنى] التقدير وفي الجعل معنى التصيير، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان [ومنه]: «وجعل الظلمات والنور» لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، انتهى.

وما ذكره من أنّ «جعل» بمعنى صيّر في قوله تعالى «وجعلوا الملائكة» لا يصحّ، لأنهم لم يصيّروهم إناثاً، وإنما قال بعض النحويين إنها ها هنا بمعنى سمّى. وتقدّم الكلام في سورة البقرة[٢] على جمع السماوات وإفراد الأرض وجمع الظلمات وإفراد النور.

و﴿ثُمَّ﴾ كما تقرّر في اللسان العربي، أصلها للمهلة في الزمان، قال ابن عطية: «ثم» دالّة على قبح فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السماوات والأرض وغيرها قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبيّن، ثم بعد هذا كله عدلوا بربّهم. فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمني، أي بعد وضوح هذا كله. ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو، لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم، انتهى.

(١) الكشاف ٢ : ٣، ونقلها المصنّف بتصرف.
(٢) لم يتقدم مثل هذا الكلام هناك.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: فما معنى «ثم»؟ قلت: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك «ثم أنتم تمترون» استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم، انتهى.

وهذا الذي ذهب إليه ابن عطية من أن «ثمّ» للتوبيخ، والزمخشري من أنّ «ثمّ» للاستبعاد ليس بصحيح، لأن «ثمّ» لم توضع لذلك وإنما التوبيخ والاستبعاد مفهوم من سياق الكلام لا من مدلول «ثم»، ولا أعلم أحداً من النحويين [١٧٢/أ] ذكر ذلك، بل «ثم» هنا للمهلة في الزمان، وهي عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية. أخبر تعالى بأن الحمد له ونبّه على العلّة المقتضية للحمد من جميع الناس، وهي خلق السماوات والأرض والظلمات والنور، ثم أخبر أن الكافرين به يعدلون، فلا يحمدونه.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: علام عطف قوله «ثم الذين كفروا»؟ قلت: إما على قوله «الحمد لله» على معنى أن الله حقيق [بالحمد] على ما خلق، لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فيكفرون نعمته[3]، وإما على قوله «خلق السموات والأرض» على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه انتهى.

وهذا الوجه الثاني الذي جوّزه لا يجوز، لأنه إذ ذاك يكون معطوفاً على الصلة، والمعطوف على الصلة صلة. فلو جعلت الجملة من قوله «ثم الذين كفروا» صلة لم يصحّ هذا التركيب، لأنه ليس فيها رابط يربط الصلة

(١) الكشاف ٢: ٤.

(٢) الكشاف ٢: ٣.

(٣) ق: يكفرون نعمه.

بالموصول إلا إن خرّج على قولهم: أبو سعيد الذي رويت عن الخدري، يريد: رويت عنه، فيكون الظاهر قد وقع موقع المضمر فكأنه قيل: ثم الذين كفروا به يعدلون، وهذا من الندور بحيث لا يقاس عليه ولا يُحمل كتاب الله عليه مع ترجيح حمله على التركيب الصحيح الفصيح.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ﴾ الظاهر فيه العموم، فيندرج فيه عبدة الأصنام وأهل الكتاب، فعبدت النصارى المسيح، واليهود عزيراً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله[1]، والمجوس عبدوا النار، والمانوية عبدوا النور. والباء في «بربهم» يحتمل أن تتعلق بـ«كفروا»، وفيه إشارة إلى أن مالكهم لا ينبغي أن يكفروا به، ويعدلوا عن طاعته. ويحتمل أن تتعلق بـ«يعدلون» وتكون الباء بمعنى عن، أي: يعدلون عنه إلى غيره مما لا يخلق ولا يقدر، ويكون المعنى: يعدلون به غيره أي: يسوّون به غيره في اتخاذه ربًّا وإلهاً وفي الخلق والإيجاد، وعَدْل الشيء بالشيء التسوية به. وفي الآية ردّ على القدرية في قولهم: الخير من الله والشرّ من الإنسان، فعدلوا به غيره في الخلق والإيجاد.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ ظاهره أنّا مخلوقون من الطين وذكر ذلك المهدوي ومكي والزهراوي عن فرقة. والنطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها من طين ثم يقلبها الله نطفة. قال ابن عطية: وهذا يترتب على قول من يقول: يرجع بعد التولّد والاستحالات الكثيرة نطْفة، وذلك مردود عند الأصوليين [انتهى. والمشهور عند] المفسّرين أن المخلوق من الطين هنا هو آدم عليه السلام، قال مجاهد وقتادة والسدّي وغيرهم: المعنى خلق آدم من

(١) عبارة ق: عبدة الأصنام وعبدة النصارى المسيح واليهود عزير من أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله.

طين، والبشر من آدم فلذلك قال «خلقكم من طين». وذكر ابن سعد في الطبقات[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الناس من ولد آدم وآدم من تراب»، وقال بعض شعراء الجاهلية[٢]: [من الوافر]

إلى عِرْق الثرى وشَجَتْ عروقي وهـذا المـوت يَسْلُبنـي شبـابـي

وفسّره الشُّراح بأن عرق الثرى هو آدم. وعلى هذا يكون التأويل على حذف مضاف إما في «خلقكم» أي خلق أصلكم، وإما «من طين» أي من عِرْقِ طينٍ وفرعه.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ و«قضى» إن كانت هنا بمعنى قدّر وكتب، كانت «ثم» هنا للترتيب [١٧٢/ب] في الذكر لا في الزمان لأن ذلك سابق على خلقنا إذ هي صفة ذات، وإن كانت بمعنى أظهر، كانت للترتيب الزماني على أصل وضعها، لأن ذلك متأخر عن خلقنا، فهي صفةُ فِعْلٍ. والظاهر من تنكير الأجلين أنه تعالى أبهم أمرهما، وقيل: الأول أجل الدنيا من وقت الخلق إلى الموت، والثاني أجل الآخرة، لأن الحياة في الآخرة لا انقضاء لها. ولا يعلم كيفية الحال في هذا الأجل إلا الله تعالى.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيره [فلِمَ جاز تقديمه] في قوله «وأجلٌ مسمّى عنده»؟ قلت: لأنه تخصّص[٤]

---

(١) لم أجده فيه، وأخرجه الترمذي في سننه ٥: ٣٨٩ من حديث ابن عمر بألفاظ مقاربة وقال: حديث غريب.

(٢) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٩٨.

(٣) الكشاف ٢: ٤.

(٤) ق: تخصيص.

بالصفة، فقارب المعرفة كقوله تعالى ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة] انتهى.

وهذا الذي ذكره من مسوّغ الابتداء بالنكرة لكونها وصفت، لا يتعيّن هنا أن يكون هو المسوّغ، لأنه يجوز أن يكون المسوّغ هو التفصيل، لأن [من] مسوّغات الابتداء بالنكرة أن يكون الموضع موضع تفصيل نحو قوله[1]:

[من الطويل]

إذا ما بكى مِنْ خَلْفِها انحرفَتْ له ... بشِـقٍّ وشِـقٌّ عنـدنـا لـم يُحـوَّلِ

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيّد، ولي عبد كيّس وما أشبه ذلك [فما أوجب التقديم؟]. قلت: أوجبه أن المعنى: وأي أجل مسمّى عنده، تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم انتهى.

وهذا لا يجوز لأنه إذا كان التقدير: وأي أجل مسمّى عنده، كانت «أي» صفة لموصوف محذوف تقديره: وأجلٌ أيُّ أجلٍ مسمّى. ولا يجوز حذف الصفة إذا كانت أيًّا، ولا حذف موصوفها وإبقاؤها، فإذا قلت: مررت بأي رجل، تريد برجلٍ أيّ رجل، لم يجز[3].

والكلام في «ثم» هنا كالكلام فيها في قوله «ثم الذين كفروا». والذي يظهر أن قوله تعالى «هو الذي خلقكم» على جهة الخطاب، هو التفات من

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص١٢.

(٢) الكشاف ٢: ٥.

(٣) بعده في ق: وقوله: أيّ منافق، ضعيف إذا حذف موصوف أيّ. ولا محلّ لهذه العبارة هنا، وهي متعلّقة بشاهد آخر مشروح في الدرّ اللقيط في حاشية البحر ٤: ٧٢.

الغائب الذي هو قوله «ثم الذين كفروا»، فإن كمال الخلق وقضاء الأجل ليس مختصًّا بالكفار، إذ اشترك فيه المؤمن والكافر، لكنه قصد به الكافر تنبيهاً له على أصل خلقه وقضاء الله تعالى عليه وقدرته. وإنما قلت إنه من باب الالتفات لأن قوله «ثم أنتم تمترون» لا يمكن أن يندرج في هذا الخطاب من اصطفاه الله تعالى بالإيمان والنبوّة.

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لما تقدم ما يدلّ على القدرة التّامة والاختيار ذكر ما يدلّ على العلم التام، فكان في التنبيه على هذه الأوصاف دلالة على كونه تعالى قادراً مختاراً عالماً بالكليات والجزئيات، وإبطالاً لشبهة منكر المعاد. قيل: «هو» ضمير الشأن وما بعده مبتدأ خبره قوله «يعلم» و«في السماوات وفي الأرض» متعلق بـ«يعلم». وقيل: «هو» ضمير عائد على الله تعالى، وما بعده خبره وهو عَلَم تضمّن معنى المعبود و«في السماوات وفي الأرض» متعلق به. والاسم العلم قد يُضمن[1] معنى المشتق فيعمل فيما بعده كما قال الشاعر[2]: [من الرجز]

أنا أبو المنهال بعضَ الأحيان [ليس عليّ حَسَبي بضُؤلان]

فضمّن «أبو المنهال» معنى المشهور فلذلك نصب «بعضَ الأحيان»، وبعض: ظرف زمان لإضافته لظرف الزمان. وقال نحواً من هذا الزمخشري[3] وابن عطية.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ عامّ لجميع الاعتقادات والأقوال والأفعال [١٧٣/أ]

(١) ق: تضمن.

(٢) البيت غير منسوب في الخصائص ٣: ٢٧٠، وهو لأبي المنهال في اللسان (أين).

(٣) الكشاف ٢: ٥.

وكسبُ كل إنسان عملُه المفضي به إلى اجتلاب نفع أو دفع ضرّ، ولهذا لا يوصف به الله تعالى.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ ﴾.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ «مِن» الأولى زائدة، تدل على الاستغراق، و«آية» فاعل بتأتيهم، و«مِن» الثانية في موضع الصفة للتبعيض، تقديره: من آية كائنة من آيات ربهم، أي تلك الآية بعض آيات الله تعالى. والمراد بالآية[1] علامة تدل على الوحدانية، وانفراده بالألوهية والرسالةُ والمعجز الخارق والقرآن. وفي «تأتيهم» التفات وخروج من خطاب في قوله «يعلم سركم»[2] إلى غيبة في قوله «تأتيهم».

و﴿ مِّنْ [ءَايَٰتِ] رَبِّهِمْ ﴾ الرّب هو المالك المصلح الناظر في مصالح عباده، فكان المناسب أن لا يعرضوا عن آيات مالكهم ومصلحهم. و«كانوا» بعد «إلا» في موضع نصب على الحال، ولم تجيء في القرآن هذه الحال بعد «إلاّ» إلاّ بلفظ الماضي، وقد جاءت في كلام العرب مصحوبة [بقد]، قال الشاعر[3]:

متى يَأْتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً ... لنفسيَ إلا قد قَضَيْتُ قضاءها

[من الطويل]

(١) عبارة ق: والمراد بآية والآية.

(٢) الآية ٣ السابقة.

(٣) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص٤٩.

قال الزمخشري[١]: يعني وما يظهر لهم قط دليل من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار إلا كانوا عنه معرضين انتهى.

واستعمال الزمخشري «قطّ» مع المضارع في قوله: وما يظهر لهم قطّ دليل، ليس بجيّد، لأن قطّ ظرف مختصّ بالماضي إلاّ إن كان أراد به بقوله «وما يظهر»: وما ظهر، ولا حاجة إلى استعمال ذلك. ومعنى «عنها» عن قبولها وسماعها. والإعراض ضد الإقبال وهو مجاز إذ حقيقته في الأجسام.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ[٢] لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ كذّب فعل متعدٍّ إلى مفعول بنفسه كقوله تعالى ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحج] وجاء هنا متعدياً بالباء، كما جاء في قوله ﴿ يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ﴾ [الماعون] وقوله ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنعام] ضمّن معنى الاستهزاء فتعدّى بالباء. والحق عام في القرآن والإسلام ومحمد ﷺ وانشقاق القمر والوعد والوعيد. والفاء في قوله «فقد كذبوا» للتعقيب وأن إعراضهم عن الآية أعقبه التكذيب.

وقال الزمخشري[٣]: «فقد كذبوا» مردود على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق، «لما جاءهم» يعني القرآن الذي تُحدّوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه انتهى. ولا ضرورة تدعو إلى تقدير شرط محذوف إذ الكلام منتظم دون هذا التقدير.

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ ﴾ هذه رتب ثلاث، صدرت من هؤلاء الكفار. الأولى الإعراض عن تأمل الدلائل، ثم التكذيب، ثم الاستهزاء. والنبأ: الخبر الذي

---

(١) الكشاف ٢: ٥.

(٢) ق: للحق.

(٣) الكشاف ٢: ٥.

يعظم وقعه، وكنّى بالأنباء عمّا يحلّ بهم في الدنيا من القتل والسبي والجلاء، وما يحلّ بهم في الآخرة من عذاب النار. و«به» متعلق بـ«يستهزئون». ودلّ قوله «يستهزئون» على أن المراد بقوله «كذبوا بالحق» أي: استهزؤوا ولذلك عدّاه بالباء.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ الآية، لمّا هدّدهم وأوعدهم على إعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم، أتبع ذلك بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة، وحضّ على الاعتبار بالقرون الماضية. و«يروا» هنا بمعنى يعلموا. و«كم» في موضع المفعول بـ«أهلكنا» و«يروا» معلّقة، والجملة في موضع مفعوليها. و«مِن» الأولى لابتداء الغاية و«من» الثانية للتبعيض والمفرد بعدها واقع موقع [الجمع] كأنه قال: من القرون، ويعني به قوم نوح وعاد وثمود وأشباههم.

ومكّن في «مكناهم» متعدٍّ لمفعول كقوله [١٧٣/ب] ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف] ويتعدى باللام في قوله «لكم» وكقوله ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف].

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المراد بالإرسال الإنزال. و«السماء» قيل: عبّر بها عن المطر كقول الشاعر(١): [من الوافر]

إذا نَـزَلَ السمـاءُ بـأرضِ قـومٍ ... [رَعَيْنـاه وإنْ كـانـوا غِضـابـا]

يعني المطر، وقيل: هو على حذف مضاف أي: وأرسلنا مطر السماء.

و﴿مِّدْرَارًا﴾ منصوب على الحال من «السماء» أو من المضاف إليه وهو المطر. ومدرار: مفعال يستوي فيه المذكر والمؤنث.

---

(١) البيت لمعاوية بن مالك في الاقتضاب ٣: ٨٣، والمفضليات ص٣٥٩.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ تقدم تفسيره في البقرة[1]. والظاهر أن الذنوب هنا هي كفرهم وتكذيبهم برسل الله وآياته.

﴿وَأَنشَأْنَا﴾ فائدة إنشاء[2] قرن بعد قرن إظهار القدرة على إهلاك ناس وإنشاء ناس. وقَرْن مفرد وُصف بالجمع مراعاة لمعناه، إذ كان تحته أفراد كثيرون، ولو وُصف في غير القرآن لقيل: قرناً آخر على اللفظ، ولكن روعي المعنى فجمع مراعاة للفواصل.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا﴾ الآية، سبب نزولها اقتراح عبد الله بن أبي أمية وتعنّته إذ قال للنبي ﷺ: لا أومن بك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه: من رب العزة إلى عبد الله بن أبي أمية، يأمرني بتصديقك، وما أراني بعد هذا كنت أصدّقك. ثم أسلم بعد ذلك وقتل شهيداً بالطائف. ولما ذكر تعالى تكذيبهم بالحق لما جاءهم ثم وعظهم وذكّرهم بإهلاك القرون الماضية بذنوبهم - ذكر مبالغتهم في التكذيب بأنهم لو رأوا كلاماً مكتوباً في قرطاس، ومع رؤيتهم جسّوه بأيديهم، لم تزدهم الرؤية واللمس إلا تكذيباً،

---

(١) في الكلام على الآية ٢٥.

(٢) ق: أنشأنا.

وادّعوا أن ذلك من باب السحر لا من باب المعجز[١] عناداً وتعنّتاً.

والفاء في «فلمسوه» للتعقيب أي: بنفس ما رأوا الكتاب، لم يكتفوا برؤية البصر بل أعقبوا ذلك بحاسّة اللمس وهي اليد، إذ كانت أقوى في الإحساس من غيرها. وجاء «لقال الذين كفروا» لأن مثل هذا الغرض يقتضي انقسام الناس إلى مؤمن وكافر؛ فالمؤمن يراه من أعظم المعجزات، والكافر يجعله من باب السحر. ووصف السحر بـ«مبين» إمّا لكونه بيّناً في نفسه وإما لكونه أظهر غيره.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ ﴾ قال ابن عباس: قال النضر بن الحارث وعبدالله بن أبي أمية ونوفل بن خالد: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة، يشهدون أنه من عند الله، وأنك رسوله انتهى.

والظاهر أن قوله «وقالوا» استئناف إخبار من الله تعالى، حكى عنهم أنهم قالوا ذلك. ويحتمل أن يكون معطوفاً على جواب «لو» أي: لقال الذين كفروا ولقالوا لولا أنزل عليه ملك. و«لولا» بمعنى هلاّ للتحضيض.

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا ﴾ الآية، قال ابن عباس وغيره: في الكلام حذف تقديره: ولو أنزلنا ملكاً فكذّبوه لقضي الأمر بعذابهم ولم يؤخّروا حسب ما سلف في كل أمة اقترحت آية وكذّبت بها بعد ظهورها.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ أي: ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا، لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون

(١) ق: العجز.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون] و﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴿١٤﴾﴾ [فصّلت].

ومعنى «لجعلناه رجلا» لصيّرناه في صورة رجل كما كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ في غالب الأحوال في صورة دِحْيَةَ، وكما تمثّل لمريم في صورة بشر، وكما في حديث سؤال جبريل عليه الصلاة والسلام [١٧٤/أ] بحيث رآه الصحابة في صورة رجل يسأل عن الإيمان وعن الإحسان[١]. ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذٍ بأنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: [هذا إنسان] وليس بملك.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقى من قومه وتأسٍّ بمن سبق من الرسل، وقالت الخنساء[٢]: [من الوافر]

ولولا كَثْرَةُ الباكين حولي على إخوانهم لَقَتَلْتُ نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسّي

﴿فَحَاقَ﴾ يقال: حاق يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقاناً أي أحاط.

ومعنى ﴿سَخِرُوا۟﴾ أي: استهزؤوا، إلا أن استهزأ تُعدّى بالباء وسخر بـ«مِن» كما قال ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ [مِنَّا] فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود]، وبالباء تقول: سخرت به. وكان اللفظ «سخروا» وإن كان معناه استهزؤوا، لئلا يكثر في الجملة الواحدة لفظ الاستهزاء إذ أوله «ولقد استهزئ» وآخره «يستهزئون» فكان «سخروا» أفصح.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١ : ٣٧ من حديث عمر بن الخطاب.
(٢) الديوان ص٨٤.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، لما ذكر تعالى ما حلّ بالمكذبين المستهزئين، وكان المخاطبون بذلك أُمَّةً أُمِّيَّةً، لم تدرس الكتب، ولم تجالس العلماء، فلما أن تكابر في الإخبار بهلاك من أهلك بذنوبهم - أُمروا بالسير في الأرض والنظر فيما حلّ بالمكذبين ليعتبروا بذلك، ويتظافر مع الإخبار الصادق الحسّ، فللرؤية من مزيد الاعتبار ما لا يكون في الإخبار [كما] قال بعض العصريين[1]: [من الطويل]

لطائفُ مَعْنًى في العَيانِ ولم تكن لتُـدْرَكَ إلا بـالتَّـزاوُرِ واللِّقَـا

والظاهر أن السير المأمور به هو الانتقال من مكان إلى مكان، وأن النظر المأمور به هو نظر العين، وأن «الأرض» هو ما قرب من بلادهم من ديار المُهلَكين بذنوبهم كأرض عاد ومدين ومدائن قوم لوط [وثمود]، وقال قوم: «الأرض» هنا عام لأنّ في كل قطر منها آثاراً لهالكين وعبراً للناظرين. وجاء هنا خاصة «ثم انظروا» بحرف المهلة، وفيما سوى ذلك بالفاء التي هي للتعقيب.

(١) انظر البحر ٤: ٨٠.

وقال الزمخشري[١] في الفرق: جعل النظر مسبّباً عن السير في قوله تعالى «فانظروا» فكأنه قال: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين. [و«سيروا»] هنا معناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آيات الهالكين وآثارهم، ونبّه على ذلك بثمّ لتباعد ما بين الواجب والمباح انتهى.

وما ذكر أولاً متناقض لأنه جعل النظر متسبباً عن السير، فكان السير سبباً للنظر، ثم قال: فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، فجعل السير معلولاً بالنظر، فالنظر سبب له، فتناقضا. ودعوى أن الفاء تكون سببيّة، لا دليل عليها، وإنما معناها التعقيب فقط، وأما مِثْلُ: ضربتُ زيداً فبكى، وزنى ماعز فَرُجم، فالتسبب فُهم من مضمون الجملة، لا أن الفاء موضوعة له، وإنما تفيد تعقيب الضرب بالبكاء وتعقيب الزنى بالرجم فقط. وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبّب فلِمَ كان السير هنا سير إباحة وفي غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع وتلك المواضع. وعاقبة الشيء منتهاه وما آل إليه، والمراد به هنا العذاب على العصيان، قال النابغة[٢]: [من البسيط]

ومَـنْ عصَـاكَ فَعَـاقِبْـهُ مُعـاقَبَـةً تنْهى الجَسُورَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ

[١٧٤/ب] والضمد الحقد.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ لما ذكر تعالى تصريفه فيمن أهلكهم بذنوبهم، أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ذلك، فإنه[٣] لا يمكنهم أن

(١) الكشاف ٢: ٧، والعبارة منقولة بتصرف.
(٢) ديوانه ص١٤.
(٣) ق: فإنهم.

يقولوا إلا أن ذلك لله تعالى، فيلزمهم بذلك أنه تعالى هو المالك المهلك لهم، وهذا السؤال سؤال تبكيت وتقرير. و«ما» موصولة بمعنى الذي، أريد بها العموم، وهي مبتدأة. و«لمن» في موضع الخبر. أمره تعالى بنسبة ذلك إلى الله تعالى، ليكون أول من بادر إلى الاعتراف بذلك.

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ظاهر «كتب» أنه بمعنى سطّر وخطّ، وقيل أوجب إيجاب فضل وكرم لا إيجاب لزوم. و«الرحمة» هنا الظاهر أنها عامة، فتعمّ المحسن والمسيء في الدنيا، وهي عبارة عن الإفضال عليهم والإحسان إليهم.

﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ جواب قسم وهو أن «كتب» أُجري مجرى القسم، فأجيب بجوابه وهو «ليجمعنكم» كما في قوله تعالى ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]. والظاهر أنّ «إلى» للغاية، والمعنى: ليحشرنكم منتهين إلى يوم القيامة.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الظاهر أن «الذين» مرفوع على الابتداء والخبر قوله [«فهم] لا يؤمنون»، ودخلت الفاء لما تضمّن المبتدأ من معنى الشرط كأنه قيل: من يخسر نفسه فهو لا يؤمن. و«خسروا» في معنى: قضى الله عليهم بالخسران، وترتّب على ذلك عدم إيمانهم.

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ لما ذكر تعالى أنّ له ملك ما حوى المكان من السماوات والأرض، ذكر ما حواه الزمان من الليل والنّهار، وإن كان كل واحد من المكان والزمان يستلزم الآخر، لكن النصّ عليهما أبلغ في الملكية، وقدم المكان لأنه أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان. والظاهر أنه استئناف إخبار، وليس مندرجاً تحت قوله. والظاهر أن السكون ضد الحركة، واقتصر عليه لأنه ما [من] متحرك إلا سكن ولا ينعكس. وقيل: هو

على تقدير معطوف حذف تقديره: وما تحرك.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآية، لما تقدم أنه تعالى اخترع السماوات والأرض، وأنه مالك لما تضمّنه المكان والزمان - أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ذلك، على سبيل التوبيخ لهم، أي مَن هذه صفاته هو الذي يُتّخذ وليًّا وناصراً ومعيناً، لا إله إلا هو، لا الآلهة التي لكم، إذ هي لا تنفع ولا تضرّ، لأنها بين جماد أو حيوان مقهور. ودخلت همزة الاستفهام على الاسم دون الفعل، لأن الإنكار في اتخاذ غير الله وليًّا، لا في اتخاذ الولي، كقولك لمن ضرب زيداً، وهو ممّن لا يستحق الضرب، بل يستحق الإكرام: أزيداً ضربتَ؟! تنكر عليه أن يكون مثل هذا يُضرب، ونحوه قوله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ [اللَّهِ] تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر] و﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس].

وقرأ الجمهور: فاطرِ، بالجر، فوجّهه ابن عطية والزمخشري وقبلهما الحوفي على أنه نعت لله، وخرّجه أبو البقاء على أنه بدل، وكأنه رأى أن الفصل بين المبدل منه والبدل أسهل من الفصل بين المنعوت والنعت، إذ البدل على المشهور [هو] على نيّة تكرار العامل. وقرأ ابن أبي عبلة برفع الراء، على إضمار هو، قال ابن عطية: أو على الابتداء انتهى. ويحتاج إلى إضمار خبر، ولا دليل على حذفه. وقرىء بالنصب على المدح أي أمدح فاطر السماوات، يقال: فطر، أي خلق واخترع من غير مثال.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي يَرزق ولا يُرزق كقوله تعالى ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات] والمعنى أن المنافع كلّها من عند الله، وخصّ الإطعام من أنواع الانتفاعات، لمسّ الحاجة إليه، كما خص الرّبا بالأكل[1]، وإن كان

(١) في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

المقصود الانتفاع بالرّبا.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ قال الزمخشري[١]: لأن النبي [١٧٥/أ] ﷺ سابقٌ أمّته في الإسلام كقوله تعالى ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام] وكقول موسى عليه السلام ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف]. وقال ابن عطية: المعنى: أول من أسلم من هذه الأمة بهذه الشريعة. وفي هذا القول نظر، لأنه عليه السلام لم يصدر منه امتناع عن الحق وعدم انقياد إليه، وإنما هذا على طريق التحريض على الإسلام، كما يأمر الملك رعيّته بأَمْرٍ، ثم يتبعه بقوله: أنا أول من يفعل ذلك، ليحملهم على فعله[٢].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الظاهر أن الخوف هنا على بابه، والخوف ليس بحاصلٍ لعصمته، بل هو متعلق بشرط، هو ممتنع في حقّه صلى الله عليه وسلم.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ قرىء مبنياً للمفعول و«مَن» مبتدأة، والضمير في «يُصرف» عائد على «مَن»، والضمير في «عنه» عائد على العذاب، والفاعل في «رحمه» عائد على الله تعالى. وقرىء: من يَصرف، مبنياً للفاعل، والفاعل بيصرف ضمير يعود على الله تعالى و«مَن» مفعول مقدم تقديره: أي شخص يصرف الله عنه[٣] العذاب فقد رحمه.

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الإشارة بـ«ذلك» إلى المصدر المفهوم من «يصرف» أي وذلك الصّرف هو الظفر والنجاة من الهلكة، و«المبين» هو البيّن في نفسه

(١) الكشاف ٢: ٨.
(٢) ق: فعل ذلك.
(٣) ق: عن.

أو المبين غيره.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ أي يصبْك وينَلْك بضرّ، وحقيقة المسّ تلاقي جسمين. وكشفَ الضرَّ، أزاله، وكشفتْ عن ساقيها: أزالت ما يسترهما. والضرّ أخصّ من الشر، فناسب ذكر[1] المسيس الذي هو أخصّ من الاستيلاء. وفي قوله «فلا كاشف له» محذوفٌ تقديره: عنك.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ[2] بِخَيْرٍ﴾: «أراد» يتعدى لمفعولين، أحدهما بنفسه والآخر بالباء. والباء قد تدخل على الذات، وينتصب الثاني كقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة]، وتارة تدخل الباء على المعنى كقول الشاعر[3]:

[من الطويل]

أرادَتْ عـراراً بـالهـوان وَمَـن يُـرِدْ عراراً لَعَمْري بالهَوانِ فقد ظَلَمْ

وعرار اسم رجل: وكقوله ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر] وجاء جواب الأول بالحصر في قوله تعالى «فلا كاشف له إلا هو» مبالغة في الاستقلال بكشفه، وجاء جواب الثاني بقوله تعالى «فهو على كل شيء قدير» دلالة على

(١) ق: ذلك.

(٢) ق: يردك. وهو سهو ساق أبا حيان إلى الكلام على «أراد».

(٣) البيت لعمرو بن شأس في شرح ديوان الحماسة ١: ٢٨٠.

قدرته على كل شيء فيندرج فيه المسّ بخير[١] وغيره. ولو قيل إن الجواب محذوف لدلالة الأول عليه، لكان وجهاً حسناً وتقديره: فلا موصل له إليك إلا هو، والأحسن تقديره: فلا رادّ له، للتصريح بما يشبهه في قوله تعالى ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس] ثم أتى بعدُ بما هو شامل للخير والشر وهو قدرته على كل شيء.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ القهر: الغلبة والحمل على الشيء، من غير اختيار المحمول. لما ذكر انفراده تعالى بتصرّفه بما يريده من خير وضرّ وقدرته على الأشياء، ذكر قهره وغلبته، وأن العالم مقهورون ممنوعون من بلوغ مرادهم.

و«فوق» حقيقة في المكان ولا يراد به الحقيقة إذ الباريء منزّه عن أن يحلّ في جهة، والعرب تستعمل «فوق» إشارة إلى علوّ المنزلة وشفوفها [على غيرها من الرتب، ومنه قوله تعالى ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] وقوله تعالى] ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف] وقال النابغة[٢]: [من الطويل]

بَلَغْنا السّماءَ مَجْدُنا وجدودُنا   وإنّا لَنَرْجو فوقَ ذلك مَظْهَرا

يريد علو الرتبة والمنزلة. و«فوق» العامل فيه «القاهر» أي المستعلي بقهره فوق عباده، أو في موضع رفع على أنه خبر ثانٍ لـ«هو» أخبر عنه بشيئين أحدهما أنه القاهر والثاني أنه فوق [١٧٥/ب] عباده بالرتبة والمنزلة.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: المحكم أفعاله متقنة آمنة من وجوه الخلل والفساد.

---

(١) ق: بخيره.

(٢) هو الجعدي، والبيت في اللسان (ظهر).

و﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ هو العالم بخفيّات الأمور كجليّاتها[١].

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ﴾ الآية، قال الكلبي: قال رؤساء مكة: يا محمد، ما نرى أحداً يصدقك فيما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا اليهود والنصارى عنك، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذِكْرٌ ولا صفة، فَأَرِنا مَن يشهد لك أنك رسول الله كما تزعم، فأنزل الله هذه الآية.

وقال الزمخشري[٢]: هنا الشيء لأعمّ العامّ لوقوعه على كل ما يصحّ أن يعلم ويُخبرَ عنه، فيقع على القديم والجوهر والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صحّ أن يقال في الله تعالى: إنه شيء لا كالأشياء كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح: جسم لا كالأجسام، وأراد: أي شهيد أكبر شهادة، فوضع «شيئاً» مكان شهيد ليبالغ في التعميم انتهى.

وقال جهم بن صفوان: لا يطلق على الله لفظة شيء. وخالفه الجمهور [في ذلك.

«شهادة» منتصب على التميز. وقال ابن عطية: ويصحّ على المفعول]، بأن يحمل «أكبر» على التشبيه بالصفة المشبّهة باسم الفاعل انتهى.

هذا كلام عجيب لأنه لا يصحّ نصبه على المفعول، ولأن «أفعل من» لا يشبّه بالصفة المشبّهة باسم الفاعل، ولا يجوز في «أفعل من» أن يكون من باب الصفة المشبّهة باسم الفاعل، لأن شرط الصفة المشبّهة باسم الفاعل أن تؤنث وتثنّى وتجمع و«أفعل من» لا يكون فيها ذلك، وهذا منصوص عليه من النحاة، فجعل ابن عطية المنصوب في هذا مفعولاً وجعل «أكبر» مشبّهاً

---

(١) ق: لجليّاتها.

(٢) الكشاف ٢: ٩.

بالصفة المشبّهة وجعل منصوبه مفعولاً، وهذا تخليط فاحش، ولعله يكون من الناسخ لا من المصنّف.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ مبتدأ، وخبر، فهي جملة مستقلّة بنفسها لا تعلّق لها بما قبلها من جهة الصناعة الإعرابية، بل قوله «أي شيء أكبر شهادة» هو استفهام على جهة التقرير والتوقيف، ثم أخبر بأن خالق الأشياء والشهود هو الشهيد بيني وبينكم. وانتظم الكلام من حيث المعنى، والجملة ليست جواباً صناعياً، وإنما يتمّ ما قالوه لو اقتصر على «قل الله». وقد ذهب إلى ذلك بعضهم، فأعربه مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما تقدّم عليه، والتقدير: قل الله أكبر شهادة، ثم أضمر مبتدأ يكون «شهيد» خبراً له تقديره: هو شهيد بيني وبينكم لأنذركم ولأبشركم، فحذف المعطوف لدلالة المعنى عليه، وقد صرّح به في قوله تعالى ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف]. واقتصر على الإنذار لأنه في مقام تخويف لهؤلاء المكذبين بالرسالة المتّخذين غير الله إلهاً. والظاهر أنّ «مَن» في موضع نصب عطفاً على مفعول «لأنذركم»، والعائد على «من» ضمير منصوب محذوف، وفاعل «بلغ» ضمير يعود على «القرآن» أي: ومن بلغه هو أي: القرآن.

و﴿ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ عام في العرب والعجم، ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الضمير المستكنّ في «لأنذركم» وجاز ذلك للفصل بينه وبين الضمير بضمير المفعول وبالجار والمجرور أي: ولينذر به من بلغه القرآن.

﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ ﴾ قرىء: إنكم لتشهدون، بصورة الإيجاب فاحتمل أن يكون خبراً محضاً، واحتمل الاستفهام على تقدير حذف أداته، ويبيّن ذلك قراءة الاستفهام، وهذا الاستفهام معناه التقريع لهم والتوبيخ والإنكار [١٧٦/أ] عليهم؛ فإن كان الخطاب لأهل مكّة، فالآلهة الأصنام، فإنهم

أصحاب أوثان، وإن كان لجميع المشركين، فالآلهة كلّ ما عُبد غير الله تعالى من وثن أو كوكب أو خشب أو نار أو آدمي.

و﴿أُخْرَىٰ﴾ صفة لـ«آلهة»، وصفة جمع ما لا يعقل كصفة الواحدة المؤنثة كقوله تعالى ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]. ولما كانت الآلهة حجارة، أُجريت مجرى المفردة تحقيراً لها، فوُصفت بما توصف به المفردة وهو لفظ «أخرى».

﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ إلى آخره، وما أبدع هذا التركيب! أمر أولاً بأنْ يخبرهم بأنه لا يوافقهم في الشهادة، ولا يلزم من ذلك إفراد الله تعالى بالألوهيّة فأمر به ثانياً ليجتمع مع انتفاء موافقتهم إثبات الوحدانية لله تعالى، ثم أخبر ثالثاً بالتبرّؤ من إشراكهم وهو كالتوكيد لما قبله.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، تقدم شرح الجملة الأولى في البقرة[1]، وشرح الثانية في هذه السورة قريباً[2].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تقدّم الكلام عليها[3]. والافتراء الاختلاق والمعنى: لا أحد أظلم ممّن كذب على الله أو كذّب بآيات الله، جمعوا بين

(١) الآية ١٤٦.

(٢) الآية ١٢.

(٣) انظر تفسير الآية ٩٤ من آل عمران.

أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجّة عليه، وكذّبوا بما ثبت بالحجّة البيّنة والبرهان الصحيح حيث قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام] وقالوا أُمرنا بها، وقالوا: الملائكة بنات الله تعالى، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وكذبوا القرآن والمعجزات، وسمّوها سحراً، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

ومعنى ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: لا يظفرون في الدنيا والآخرة بمطالبهم بل يبقون في الحرمان والخذلان. ونفى الفلاح عن الظالم، فدخل فيه الأظلم، والظالم غير الأظلم، وإذا كان هذا لا يفلح، فكيف يفلح الأظلم؟.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الناصب لـ «يوم» فيه أقوال ذكرت في البحر[1]: أحدها: أنه مفعول لاذكر محذوفةً، على أنه مفعول به، وهو خطاب للسامع، والثاني لمحذوف متأخر تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك، ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف. والضمير المنصوب في «نحشرهم» عام في العالم كلّهم. وعطف بثمّ للتراخي الحاصل بين مقامات يوم القيامة في المواقف، فإن فيه مواقف، بين كل موقف وموقف تراخٍ على حسب طول ذلك اليوم.

و﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ عام في المشركين. و﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ عام، سؤال توبيخ وتقريع[2]. وظاهر مدلول «أين شركاؤكم» غيبة الشركاء عنهم، أي تلك الأصنام قد اضمحلّت، فلا وجود لها. وأضيف الشركاء إليهم، لأنه لا شركة في الحقيقة بين الأصنام وبين شيء، وإنما أوقع عليها اسم الشريك بمجرد تسمية الكفرة لها شركاء، فأضيفت إليهم بهذه النسبة. والزعم: القول الأميل

(١) انظر ٤: ٩٤.

(٢) ق: وتقرير.

إلى الباطل [والكذب] في أكثر الكلام، وقد يطلق على مجرد القول، ومن ذلك قول سيبويه [في كتابه]: وزعم الخليل، أي: قال. و«الذين» موصولٌ صلتُه «كنتم تزعمون» والعائد عليه محذوف تقديره: كنتم تزعمونهم شركاء.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ تقدّم مدلول الفتنة[1]، وشرحت هنا بحبّ الشيء والإعجاب به كما تقول: فتنت بزيد. فعلى هذا يكون المعنى: ثم لم يكن حبّهم للأصنام وإعجابهم بها واتباعهم لها لما سئلوا[2] عنها، ووقفوا على عجزها إلا التبرؤ منها والإنكار لها، وفي هذا توبيخ لهم. و«ثم لم[3] تكن فتنتهم» فيه قراءات، الجاري منها [١٧٦/ ب] على الأشهر قراءة: فتنتَهم بالنصب.

﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ﴾ أنْ مع ما بعدها أجريت في التعريف مجرى المضمر، وإذا اجتمع الأعرف وما دونه في التعريف فذكروا أن الأشهر جَعْل الأعرف هو الاسم وما دونه الخبر، ولذلك أجمعت السبعة على ذلك في قوله تعالى ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] ﴿ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الجاثية][4]. ومن قرأ بالياء، ورفع الفتنة، فذكّر الفعل لكون تأنيث الفتنة مجازيًا، والفتنة اسم يكن والخبر «إلا أن قالوا»، جعل غير الأعرف الاسم والأعرف الخبر. ومن قرأ: ثم لم تكن فتنتُهم، بالتاء ورفع الفتنة، فأنّث لتأنيث الفتنة، والإعراب كإعراب ما قبله. ومن قرأ: ثم لم تكن بالتاء، فتنتَهم بالنصب، فالأحسن أن يقدّر «إلا أن قالوا» مؤنثاً أي: ثم لم تكن فتنتَهم إلا مقالتُهم. وقرىء: ربّنا بالجر صفة لله تعالى، وبالنصب على

---

(١) انظر تفسير الآية ٢١٧ من البقرة.

(٢) ق: سألوا.

(٣) ق: لن.

(٤) وفي ق: وما.

النداء، أي: يا ربّنا.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والنظر قلبي، و«كيف» منصوب بكذبوا، والجملة في موضع [نصب] بانظر، لأن «انظر» متعلّقه. و«كذبوا» ماضٍ وهو في أمر لم يقع، لكنه حكاية عن يوم القيامة، ولا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل تحقيقاً لوقوعه ولا بدّ.

﴿ وَضَلَّ ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً[1] على «كذبوا» فيدخل في حيّز «انظر»، ويحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً فلا يدخل في حيّزه، ولا يتسلّط النظر عليه.

﴿ مَّا كَانُوا۟ ﴾ قال ابن عطية: ما مصدرية، قال: معناه ذهب افتراؤهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله الشركاء. وقال الزمخشري[2]: ما موصولة بمعنى الذي، قال: وغاب عنهم «ما كانوا [يفترون» أي:] يفترون إلهيّته وشفاعته.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

(١) ق: عطف.

(٢) الكشاف ٢: ١١.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية، عن ابن عباس أن أبا سفيان وجماعة من كفار قريش استمعوا لرسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا فتيلة[1] ما يقول محمد؟ فقال: [ما يقول] إلا أساطير الأولين، مثل ما أحدّثكم عن القرون الماضية. وكان صاحب أشعار، سمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار. قال أبو عبيدة: أساطير جمع أسطارة وهي التّرهات، وقيل غير ذلك. قال ابن عطية: وقيل هو اسم جمع، لا واحد له من لفظه كعباديد وشماطيط[2] انتهى.

هذا لا تُسمِّيه النحاةُ اسم جمع، لأنه على وزن الجموع، بل يسمّونه جمعاً، وإن لم يُلفظ له بواحد. والضمير في «منهم» عائد على «الذين أشركوا»[3]. ووحّد الضمير في «يستمع» حملاً على لفظ «مَن» وجَمَعه في «على قلوبهم» حملاً على معناها. و«يستمع» متعدٍّ إلى مفعول به إذا كان من جنس الأصوات كقوله تعالى ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف]، عدّي هنا بإلى لتضمّنه معنى يصغون بأسماعهم إليك. والجملة من قوله «وجعلنا» معطوفة على الجملة قبلها عطف فعلية على اسميّة، فيكون إخباراً من الله تعالى أنه جعل كذا. وقيل: الواو واو الحال أي وقد جعلنا من ينصت إلى سماعك وهم من الغباوة في حدّ مَن قَلْبُه في كنان وأذنه صمّاء. وجعل هنا

---

(١) غير مقروءة في ق.

(٢) يقال: تفرق القوم عبايد وشماطيط: أي فرقاً.

(٣) في الآية ٢٢ السابقة.

يحتمل أن تكون [بمعنى] ألقى فتتعلق «على» بها، أو بمعنى[1] صيّر فتتعلق بمحذوف إذ هي في موضع المفعول الثاني. ويجوز أن تكون بمعنى خلق، فتكون في موضع الحال، لأنها في موضع نعت لو تأخّرت، فلما تقدمت صارت حالاً. والأكنّة جمع كنان كعنان وأعنّة، والكنان [١٧٧/أ] الغطاء الجامع، قال الشاعر[2]: [من الطويل]

إذا ما انتَضَوها في الوغى من أكنّةٍ حَسِبْتَ بروقَ الغيثِ هاجَتْ عيونُها

و﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ في موضع المفعول من أجله تقديره عندهم: كراهة أن يفقهوه، وقيل: المعنى أن لا يفقهوه، وتقدم نظير هذين التقديرين في قوله تعالى ﴿أَن تَضِلُّواْ ۝١٧٦﴾ [النساء]. والضمير المنصوب في «يفقهوه» عائد على القرآن الدالّ عليه من حيث المعنى قوله «ومنهم من يستمع إليك». الوقر الثقل في الأذن، ويقال بفتح الواو وبكسرها، وفعله وقر بفتح القاف وكسرها. وهذه عبارة عمّا جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير كأنهم لم يكونوا سامعين لأقواله.

﴿وَإِن يَرَوْاْ﴾ الآية، لما ذكر عدم انتفاعهم بعقولهم، انتقل من حاسّة الأكنّة والوقر إلى الحاسّة[3] التي هي أبلغ من حاسّة السّماع وهي الرؤية، فنفى ما يترتب على إدراكها وهو الإيمان. وقال ابن عباس: «كل آية» كل دليل وحجّة، «لا يؤمنوا بها» لأجل ما جعل على قلوبهم أكنّة انتهى.

ومقصود هذه الجملة الشرطية الإخبار عن المبالغة التامة والعناد المفرط.

---

(١) ق: بما وبمعنى.

(٢) لم أجده، وانظر البحر ٤: ٩٧.

(٣) ق: الخامسة.

في عدم إيمانهم، حتى أن الشيء المرئي الدالّ على صدق رسول الله ﷺ حقيقةً لا يرتّبون عليه مقتضاه، بل يرتّبون عليه ضدّ مقتضاه. و«حتى» أصلها أن تكون حرف غاية، وقد تأتي بمعنى الفاء؛ فإذا كانت بمعنى الغاية، كانت حرف ابتداء تعلّقت بقوله «ومنهم من يستمع إليك» أي: يمتد استماعهم وتكررهم إلى أن يقولوا في القرآن «إن هذا إلا أساطير الأولين»، فيكون المبتدأ محذوفاً بعدها تقديره: حتى هم، والجملة الشرطية خبر المبتدأ. وإذا كانت بمعنى [الفاء] كان التقدير: فإذا جاؤوك.

و﴿ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾ جملة حالية أي: مجادليك، وبلغ تكذيبهم بالآيات إلى المجادلة. و﴿ يَقُولُ﴾ جواب إذا.

و﴿ أَسَٰطِيرُ ﴾ جمع أسطارة وأسطورة وأسطور. و﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ قام مقام الضمير إذ لو جرى على الغيبة لكان اللفظ: لقالوا.

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ النأي البعد، يقال: نأى ينأى نأياً. والضمير في قوله «وهم» عائد على الكفار. وتقدم ذكر الرسول في قوله «يجادلونك»، وتقدم ذكر القرآن في قوله «إن هذا» أي: القرآن فاحتمل أن يكون الضمير في «عنه» في الموضعين عائداً على الرسول، فيكون من الالتفات، إذ هو خروج من خطاب إلى غيبة، ومعناه: ينهون الناس عن رسول الله ﷺ واتّباعه «وينأون» أي: يبعدون عنه عليه السلام وما جاء [به]. ويحتمل أن يكون الضمير في «عنه» عائداً على القرآن المشار إليه بقولهم «إن هذا» فلا يكون من باب الالتفات. وفي قوله: ينهون وينأون تجنيس التصريف وقيل تجنيس التحريف وهو أن تنفرد كل كلمة عن الأخرى بحرف، فينهون: انفردت بالهاء، وينأون انفردت بالهمزة.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ الآية، جواب لو محذوف، لدلالة المعنى عليه وتقديره:

لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً عظيماً. و«ترى» في معنى رأيت، ومفعوله محذوف تقديره: ولو تراهم. و«إذ» ظرف لما مضى.

﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية، قرىء بنصب «نكذّب» و«نكون»، وهذا النصب عند جمهور البصريين هو بإضمار أنْ بعد [١٧٧/ب] الواو، فهو يَنْسَبِكُ من أن المضمرة والفعل بعدها مصدر مرفوع معطوف على مصدر متوهم مقدر من الجملة السابقة، والتقدير: يا ليتنا يكون لنا ردٌّ وانتفاءُ تكذيبٍ وَكونٌ من المؤمنين. وكثيراً ما يوجد في كتب النحو أن هذه الواو المنصوب بعدها هو على جواب التمنّي كما قال الزمخشري[١]: وقرىء: ولا نكذبَ ونكونَ، بالنصب بإضمار أنْ على جواب التّمني ومعناه: إن رُددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين انتهى.

وليس كما ذكر فإن نصب الفعل بعد الواو ليس على جهة الجواب، لأن الواو لا تقع في جواب الشرط، فلا ينعقد مما قبلها ولا مما بعدها شرط وجواب، وإنما هي واو [الجمع تعطف ما بعدها على المصدر المتوهم قبلها وهي] واو العطف يتعيّن مع النصب أحد محاملها الثلاثة وهي: المعيّة، ويميزها من الفاء تقدير «مع» موضعَها، كما أن فاء الجواب إذا كان بعدها فعل منصوب يميزها تقدير شرط قبلها أو حالٍ مكانها. وشبهة من قال إنها جواب، أنّها تنصب في المواضع التي تنصب فيها الفاء، فتوهم أنها جواب. ويوضّح لك أنها ليست بجوابٍ انفراد الفاء دونها، بأنها إذا حذفت، انجزم الفعل بعدها بما قبلها لما فيه من معنى الشرط، إلا إذا نصبت بعد النفي، وسقطت الفاء فلا ينجزم. وإذا تقرر هذا فالأفعال الثلاثة من حيث المعنى متمنّاة على سبيل الجمع بينها لا أنِ كلّ واحد متمنّى وحده إذ التقدير كما

قلنا: يا ليتنا يكون لنا ردٌّ مع انتفاء التكذيب وكوننا من المؤمنين. وقرىء: ولا نكذبُ ونكونُ، برفعهما [عطفاً] على «نُردّ» فيكونان داخلين[١] في التمني، أو رفعاً على الاستئناف والقطع أي: ونحن لا نكذّب ونكون. وقرىء برفع: ولا نكذّبُ، عطفاً على «نُردّ» وعلى الاستئناف، ونكونَ بالنصب عطفاً على مصدر متوهّم، وتكون أنْ مضمرة بعد الواو أي: وأن تكون فالتقدير: يكون منا ردٌّ [وانتفاءُ تكذيبٍ] وكونٌ من المؤمنين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ بل هنا للإضراب والانتقال من شيء إلى شيء من غير إبطال لما سبق. و«لهم» أي: لليهود والنصارى، سئلوا في الدنيا: هل تعاقبون على ما أنتم عليه؟ [قالوا: لا]، وقيل كفار مكّة، ظهر لهم ما أخفوه من أمر البعث بقولهم ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية][٢]، أو المنافقون، كانوا يخفون الكفر، فظهر لهم وباله يوم القيامة.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ أي: إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار وتمنّيهم الردّ. ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ من الكفر. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة[٣]، وهل التكذيب راجع إلى ما تضمّنتْه جملة التمنّي من الوعد بالإيمان، أو ذلك إخبار من الله تعالى عن عادتكم وديدنكم[٤] وما أنتم عليه من الكذب في مخاطبة رسول الله ﷺ، فيكون ذلك منقطعاً مما قبله من الكلام.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ﴾ الآية، لما أخبر النبي ﷺ كفار مكّة بالبعث قالوا هذا. و«إن» نافية و«هي» ضمير الحياة. قالوا: «إنِ» الحياة إلا حياتنا الدنيا، فنفوا أن

---

(١) ق: داخلان.

(٢) أو قصد المصنف الآية التالية وسها عن أوّلها.

(٣) في تفسير الآية السابقة.

(٤) ودنيكم.

يكون ثَمّ حياة أخرى في الآخرة، ولذلك قالوا «وما نحن بمبعوثين» يعني إلى الحشر والجزاء. لمّا دلّ الكلام على نفي البعث لما تضمّنه من الحصر، صرّحوا بالنفي المحض الدالّ على عدم البعث بالمنطوق، وأكّدوا ذلك بالباء الداخلة عبر الخبر على سبيل المبالغة في الإنكار. وهذا [١٧٨/أ] يدل على أن هذه الآية في مشركي العرب ومن وافقهم في إنكار البعث.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ جواب لو محذوف كما حذف في «ولو ترى»[١] أولاً، وذلك مجاز عن الحبس والتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيّده ليعاقبه.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ الظاهر أن الفاعل بـ«قال» هو الله، فيكون السؤال منه تعالى لهم سؤال تقرير وتوبيخ. والإشارة بـ«هذا» إلى البعث ومتعلّقاته، وقال أبو الفرج بن الجوزي: أليس هذا العذاب بالحق؟. وكأنه لاحظ قوله «قال فذوقوا العذاب».

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ بلى جواب للتقرير، وأكّدوا جوابهم باليمين في قولهم «وربّنا» وهو الإقرار بالإيمان حيث لا ينفع. وناسب التوكيد بقولهم «وربّنا» صدر الآية في «وقفوا على ربّهم». والباء في قوله «بما» للسبب. وكفرهم كان بالبعث وغيره.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ خسرانهم أنهم استعاضوا الكفر عن الإيمان، فصار ذلك شبيهاً بحالة البائع الذي أخذ وأعطى، وكان ما أخذ سبباً لهلاكه، وما أعطاه من الإيمان سبباً لنجاته.

(١) الآية ٢٧ السابقة.

ومعنى ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ بلوغ الآخرة وما يكون فيها من الجزاء ورجوعهم إلى أحكام الله تعالى فيها. و«حتى» غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم.

«بغتة» البغت والبغتة الفجأة، يقال: بَغَتَهُ يَبْغَتُه أي: فَجَأَهُ وهو مجيء الشيء بسرعة من غير جعل بالك إليه وغير علمك بوقت مجيئه. فرّط: قصّر مع القدرة على ترك التقصير، وقال أبو عبيدة: فرّط ضيّع. والتكذيب مُغَيًّا بالحسرة، لأنه لا يزال بهم التكذيب إلى قولهم «يا حسرتنا» وقت مجيء الساعة. والضمير في «فيها» عائد على الحياة الدنيا إذ تقدم ذكرها[1].

و«ما» في قوله «ما فرّطنا» مصدرية أي: على تفريطنا. والجملة من «وهم يحملون» جملة حالية وذو الحال الضمير في «قالوا». والأوزار الخطايا والآثام، وأصله من الحمل يقال: وزرته أي: حملته، وأوزار الحَرب أثقالها من السلاح، وهو مجاز [عبّر] بحمل الوزر عمّا يجده من المشقة والآلام بسبب ذنوبه، والمعنى أنهم يقاسون عقاب ذنوبهم مقاساة تثقل عليهم.

﴿أَلَا سَآءَ﴾ ساء على وزن فعَل متعدية لمفعول محذوف تقديره ساءهم. و«ما» مصدرية أي: ساءهم وزرهم، أو موصولة بمعنى الذي، وحذف الضمير العائد عليه، والتقدير: ساءهم الذي يزرونه، أي: يحملونه[2]. ويجوز في «ساء» أن يكون وزنها فعُل التي تكون في التعجّب كقوله: قَضُوَ الرجل، أي: ما أقضاه فيكون تقديره: ما أسوأ الذي يزرونه. وافتتح بألا تنبيهاً وإشارة بسوء مرتكبهم.

---

(١) الآية ٢٩ المتقدمة.

(٢) ق: يحملون.

﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ الآية، لما ذكر قولهم «وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا»[1] ذكر قصاراها، وأن منتهى أمرها أنها فانية منقضية عن قريب، فصارت شبيهة باللهو واللعب، إذ هما لا يدومان، ولا طائل لهما. وقرىء: ولدار الآخرة، على الإضافة فقيل: هو من الموصوف إضافة إلى صفته، إذ أصله: وللدارُ[2] الآخرةُ، وقيل على حذف موصوف تقديره: ولدار الحياة الآخرة.

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ﴾ الآية، قيل: نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فإنه كان [١٧٨/ب] يكذب في العلانية ويصدق في السرّ ويقول: نخاف أن تتخطّفنا العرب ونحن أكلة رأس. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق، قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا. فقال: والله إنّ محمداً لصادق، وما كذب قطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت.

(١) الآية ٢٩ السابقة.

(٢) ق: ولا الدار.

﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ عبّر هنا بالمضارع عن الماضي لأن علم الله لا يتجدد، وهي هنا معلّقة، و«إنه» والجملة بعدها في موضع مفعولي «نعلم». و﴿يَقُولُونَ﴾ أي: بألسنتهم.

و﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: ببواطنهم بل يعتقدون صدقك. وقرىء: لا يُكْذبونك، أي: لا يجدونك تكذب، تقول: أكذبته أي: وجدته يكذب، لأن أفعل تأتي للوجدان، كقولهم: أحمدته أي: وجدته محموداً. وقرىء: لا يكذّبونك بالتشديد، أي: لا يعتقدون كذبك.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نبّه على الوصف المؤدّي بهم إلى جحود الآيات وهو الظلم.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ولمّا سلّاه تعالى بأنهم بتكذيبك إنما كذبوا الله، سلّاه ثانياً بأن عادة أتباع الرسل قبلك تكذيب رسلهم، وأن الرسل صبروا فتأَسَّ بهم [في] الصبر.

﴿وَأُوذُواْ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على قوله «كُذّبتْ»، ويحتمل أن يكون معطوفاً على قوله «فصبروا».

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لمواعيد الله في نصر رسله نحو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات] الآية.

﴿مِن نَّبَإِيْ﴾ قال الفارسي: «مِن» زائدة، وفاعل جاء ما بعد[1] «مِن» وهو «نبأ المرسلين». والذي[2] يظهر أن الفاعل مضمر تقديره هو ويعود على ما دلّ عليه المعنى من الجملة السابقة، أي: ولقد جاءك هذا الخبر من تكذيب

(١) ق: جاء نبأ بعد.

(٢) ق: وهو الذي.

أتباع الرسل للرسل والصبر والإيذاء إلى أن نُصروا، وأن هذا الإخبار هو بعض نبأ المرسلين الذين تتأسّى بهم. و«من نبأ» في موضع الحال، وذو الحال ذلك المضمر.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ الآية، «كبر» أي: شقّ وصعب إعراضهم عن الإيمان وعن اتّباع ما جئت به. «فإن» شرط ثانٍ و«إن» تُخلّص الماضي للاستقبال، وكبر إعراضهم: واقع ماض لكن يُتأول على معنى الاستقبال أي: وإن يتبيّن كبر إعراضهم، والتبيّن مستقبل والاستطاعة مستقبلة، فصار عطف مستقبل على مستقبل، وهو التبيّن. والنفق: السَّرب في داخل الأرض الذي يُتوارى فيه. وقرأ نبيح الغنوي: أن تبتغي نافقاً، وهو في اللغة أحد جِحَرة[(١)] اليربوع، قال الشاعر[(٢)]: **[من الطويل]**

وَيَستخرجُ اليَرْبوعَ مِن نافِقائِهِ ومِن جُحْرِهِ بالشِّيحَةِ ٱليَتَقَصَّعُ

والسلّم: الذي يُصعد عليه ويُرتقى. ومعنى الآية أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيانُ حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم.

والظاهر من قوله ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ أن الآية هي غير ابتغاء النّفق في الأرض والسلّم في السماء، وأن المعنى: أن تبتغي نفقاً في الأرض، فتدخل فيه، أو سلّماً في السماء، فتصعد عليه إليها، فتأتيهم بآية غير الدخول في السّرب والصعود إلى السماء، مما[(٣)] يرجى إيمانهم بسببها، أو مما اقترحوه رجاء.

(١) جمع جُحْر.
(٢) البيت لذي الخِرَق الطهوي في نوادر أبي زيد ص٦٧.
(٣) ق: بما.

إيمانهم، وتلك الآية [١٧٩/أ] من إحدى الجهتين. قال ابن عطية: «فتأتيهم بآية» بعلامة ويريد إما في فعلك ذلك أي: تكون الآية نفس دخولك في الأرض وارتقائك في السماء، وإما في أن تأتيهم بالآية من إحدى الجهتين انتهى.

وقال نحواً من ذلك الزمخشري[١]. وما جوّزاه من ذلك لا يظهر من دلالة اللفظ؛ إذ لو كان ذلك كما جوّزاه لكان التركيب: فتأتيهم بذلك آيةً، وأيضاً فأي آية في دخول سربٍ في الأرض؟ أما الرقيّ إلى السماء فيكون آية. واسم كان في قوله «وإن كان» هو ضمير الأمر والشأن، وكبر إعراضهم: فعل وفاعل جملة في موضع خبر كان. وأجاز قوم أن يكون «إعراضهم» اسم كان و«كبر» في موضع نصب على الخبر، وجواب الشرط في قوله «فإن استطعت» محذوفٌ تقديره: فافعل أحد الأمرين ابتغاء النفق وابتغاء السلّم.

﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إما أن يخلق ذلك في قلوبهم أوّلاً فلا يضلّ أحد، وإما أن يخلقه فيهم بعد ضلالهم. ودلّ هذا التعليق على أنّه تعالى ما شاء منهم جميعهم الهدى بل أراد إبقاء الكافر على كفره. ومفعول «شاء» محذوف لدلالة جواب «لو» عليه، تقديره: ولو شاء جَمْعَهم على الهدى. ويحذف مفعول شاء كثيراً في القرآن لدلالة [جواب] «لو» عليه.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ذكروا في هذه الآية أقوالاً مدخولة ذُكرت في البحر[٢]. والذي أختاره أن هذا الخطاب ليس لرسول الله ﷺ، وذلك أنه تعالى قال «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى» فهذا إخبار وعقد كلّي أنه لا يقع في الوجود إلا ما شاء الله وقوعه، ولا يختص هذا الإخبار بهذا الخطاب

---

(١) الكشاف ٢: ١٥.

(٢) انظر ٤: ١١٦.

بالرسول، بل الرسول ﷺ عالم بمضمون هذا[١] الإخبار، فإنما ذلك للسامع، فالخطاب والنهي في «فلا تكوننّ» للسامع دون الرسول فكأنه قيل: ولو شاء الله أيها السامع - الذي لا يعلم أنّ ما وقع في الوجود هو بمشيئة الله تعالى - جَمْعَهم على الهدى لَجَمعهم عليه، فلا تكوننّ أيها السامع من الجاهلين، بأن ما شاء الله إيقاعه وقع، وأن الكائنات معذوقة[٢] بإرادته.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي: للإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول وإصغاء كما قال تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر]. و«يستجيب» بمعنى يجيب، وفرّق الرّماني بين أجاب واستجاب بأنّ استجاب فيه قبول لما دُعي، ويستجيب جاء مُعدّى باللام كقوله تعالى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة] و﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران]، وجاء معدّى بنفسه، قال الشاعر[٣]:

[من الطويل]

وداعٍ دعا يا من يُجيبُ إلى النِّدا فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجيبُ

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الظاهر أن هذه [جملة] مستقلّة من مبتدأ وخبر، والظاهر أن الموت هنا والبعث حقيقة، وذلك إخبار من الله تعالى أن[٤] الموتى على العموم من مستجيب وغير مستجيب يبعثهم الله، فيجازيهم على أعمالهم. وقيل: الموت والبعث مجازان، استعير الموت للكفر والبعث للإيمان[٥]. وقيل: الجملة من قوله [«والموتى] يبعثهم الله» مبتدأ وخبر،

---

(١) ق: هذه.

(٢) أي: معلّقة وموسومة.

(٣) البيت لكعب بن سعد بن مالك الغنوي، وهو في النوادر ص٣٧، والاقتضاب ٣:٣٩٩، وجمهرة أشعار العرب ٥٥٨.

(٤) ق: وأن.

(٥) عبارة ق: استعير للموت للكفر والإيمان للبعث.

أي: والموتى بالكفر يحييهم الله بالإيمان.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء قريش، سألوا الرسول ﷺ آيةً تعنّتاً منهم، وإلاّ فقد جاءهم بآيات كثيرة، فيها مقنع انتهى.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾ أي: ما سألتموه من إنزال آية، الله قادر على ذلك كما أنزل [١٧٩/ ب] الآيات السابقة، [فلا فرق في تعلق القدرة بالآيات المقترحة على سبيل التعنّت والآيات] التي لم تقترح، وقد اقترحتم آيات كانشقاق القمر، فلم تُجْدِ عندكم(١)، ولا أثَّرَتْ فيكم، وقلتم هذا سحر مستمر.

﴿لَا يَعْلَمُونَ(٢)﴾ قدرته على إنزال الآيات.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تقدم شرح الدابّة(٣)، وهي هنا في سياق النفي مصحوبة بمن التي تفيد استغراق الجنس، فهي عامة تشمل كلّ ما يدبّ، فيندرج فيها الطائر، [فذِكْرُ الطائر] بعد ذكر «دابّة» تخصيص بعد تعميم، وذِكْرُ بعضٍ من كلّ وصار من باب التجريد كقوله تعالى ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة] بعد ذكر الملائكة. وإنما جرّد الطائر، لأن تصرّفه في الجو دون تصرّف غيره من الحيوان أبلغ في القدرة وأدلّ على عظمها من تصرّف غيره من الحيوان في الأرض، إذ الأرض جسم كثيف يمكن تصرّف الأجرام عليها، والهواء جسم

(١) ق: عنكم.
(٢) ق: ألا تعلمون.
(٣) انظر البقرة ٢: ١٦٤.

لطيف لا يمكن عادة تصرّف الأجرام الكثيفة فيه إلا بباهر القدرة الإلهيّة، ولذلك قال تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ ﴿٧٩﴾﴾ الآية [النحل][1].

وجاء قوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى تعميم جميع الأماكن، لما كان لفظ «من دابّة» وهو المتصرف أتى بالمتصرّف[2] فيه عامًّا وهو الأرض، وتشمل الأرض البر والبحر.

و﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد لقوله «ولا طائر» لأنه لا طائر إلا يطير بجناحيه، ولرفع المجاز الذي كان يحتمله قوله «ولا طائر» لو اقتصر عليه، ألا ترى إلى استعارة الطائر للعمل في قوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء] وقولهم: طار لفلان طائر كذا في القسمة أي: سهمه، وطائر السّعد والنحس. ففيه تنبيه على تصوّر هيئته على حال الطيران واستحضار لمشاهدة هذا الفعل الغريب. وجاء الوصف بلفظة «يطير» لأنه مشعر بالديمومة والغلبة لأن أكثر أحوال الطائر كونه يطير، فقلّما يسكن حتى أن المحبوس منها يكثر ولوعه بالطيران في المكان الذي حُبس فيه من قفص وغيره. و«من دابّة» في موضع رفع بالابتداء إذ «مِن» زائدة في النفي، وخبره «أمم أمثالكم».

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الآية، وكثيراً ما يستدلّ بعض الظاهرية بهذه الآية. وقوله «من شيء» يشير إلى أن الكتاب تضمّن الأحكام التكليفيّة كلها. والتفريط التقصير وأصل فِعْله أن يتعدى بفي كقوله ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر] وإذا كان كذلك فيكون قد ضُمّن معنى: ما أغفلنا وما تركنا، ويكون «من شيء» في موضع المفعول به، و«من» زائدة. والمعنى:

(١) وفي ق: أولم.
(٢) ق: أي التصرف.

ما تركنا ولا أغفلنا في الكتاب شيئاً يحتاج إلى دلائل[١] النبوّة والإلهيّة والتكاليف.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الظاهر أنه يُراد به البعث يوم القيامة وهو قول الجمهور، فتحشر البهائم والدوابّ والطير. وفي ذلك حديث يرويه يزيد بن الأصمّ عن أبي هريرة قال[٢] «يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله عزّ وجلّ أن يأخذ للجمّاء[٣] من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً فذلك قوله ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال النقّاش: نزلت في بني عبد الدار، ثم انسحبت على من سواهم. والآيات هنا القرآن وما ظهر على يدي الرسول ﷺ من المعجزات والدلائل والحجج. والإخبار عنهم بقوله ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [١٨٠/أ] الظاهر أنه استعارة عن عدم الانتفاع الديني بهذه الحواسّ، لا أنهم صمّ وبكم في الظلمات حقيقة. وجاء قوله «في الظلمات» كناية عن عمى البصيرة فهو ينظر لقوله ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] لأن قوله «في الظلمات» أبلغ من قوله: عمي، إذ جُعلت[٤] الظلمات ظرفاً لهم. وجُمعت لاختلاف جهات الكفر.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ الآية، «من» مبتدأ شرطية، و«يشأ» مجزوم بمَن، ومفعول «يشأ» محذوف تقديره: من يشأ الله إضلاله يضلله، وكذلك مفعول «يشأ» الثاني محذوف تقديره: أي ومن يشأ جَعْلَه. وظاهر الآية يدلّ على

---

(١) ط: يُحتاج إليه من دلائل.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢: ٢٣٥ بالفاظ مقاربة.

(٣) شاة جمّاء: إذا لم تكن ذات قرن.

(٤) ق: إذا جاءت.

مذهب[1] أهل السنّة في أن الله تعالى هو الهادي وهو المضلّ، وأن ذلك معذوق بمشيئته لا يُسأل عما يفعل.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الآية، قال الفراء[2]: للعرب في «أرأيت» لغتان ومعنيان، أحدهما أن تسأل الرجل: أرأيت زيداً؟ أي: بعينك، فهذه مهموزة. وثانيهما[3] أن تقول: أرأيت؟ وأنت تريد: أخبرني، فها هنا تترك الهمزة إن شئت وهو أكثر كلام العرب، يومىء إلى ترك الهمزة للفرق بين المعنيين انتهى[4]. وإذا كانت بمعنى أخبرني جاز أن تختلف التاء [باختلاف المخاطب، وجاز أن تتصل بها الكاف مشعرة باختلاف المخاطب وتبقى التاء] مفتوحة كحالها للواحد المذكر. ومذهب البصريين أن التاء هي الفاعل وما لحقها حرف خطاب يدل على اختلاف المخاطب. ومذهب الكسائي أن الفاعل هو التاء وأن أداة الخطاب اللاحقة في موضع المفعول الأول.

---

(١) ق: لمذهب.

(٢) معاني القرآن ١: ٣٣٣، والنص منقول بتصرف.

(٣) ق: أي وثانيهما.

(٤) وقعت الكلمة ها هنا، وحقّها أن تقع بعد قوله: وهو أكثر كلام العرب.

ومذهب الفرّاء أن التاء هي حرف خطاب كهي في: أنت، وأنّ أداة الخطاب بعده هي [في] موضع الفاعل، استعيرت ضمائر النصب للرفع. والكلام على هذه المذاهب إبطالاً وتصحيحاً مذكور في علم النحو.

وكون أرأيت وأرأيتك بمعنى أخبرني نصّ عليه سيبويه وغيره من أئمة العربية. وكون أرأيت بمعنى أخبرني هو تفسير معنى لا تفسير إعراب، لأن أخبرني تتعدّى بعن فتقول: أخبرني عن زيد، وأرأيت تتعدى لمفعول به صريح وإلى جملة استفهامية هي في موضع المفعول الثاني كقولك: أرأيت زيداً ما صنع؟ فما: بمعنى أي شيء وهو مبتدأ وضع في موضع الخبر. وأما في هذه الآية فنقول هو من باب الإعمال فـ«أرأيتكم» يطلب مفعولاً به و«أتاكم» يطلب مرفوعاً وهو قوله «عذاب الله» فلما اجتمع العاملان «أرأيتكم» وفعل الشرط الذي هو «أتاكم» [أُعمل الثاني وهو «أتاكم»]، فاختيار مذهب البصريين أن الثاني هو أولى بالإعمال. ولو كان على إعمال «أرأيتكم» لكان التركيب بنصب «عذاب» و«الساعة»، فكان يكون في غير القرآن: أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله[1] أو الساعة. لكنه لما أعمل الثاني حذف مفعول «أرأيتكم» الأول والثاني هو جملة الاستفهام وهو قوله «أغير الله». ورابط هذه الجملة الاستفهامية بالمفعول المحذوف في «أرأيتكم» مقدر تقديره: أغير الله تدعون لكشفه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة فأخبِروني.

و﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: أتاكم خوفه وأماراته وأوائله مثل الجَدْبِ والبأساء والأمراضِ التي يُخاف منها الهلاك. ولا يحتاج إلى تأويل العذاب بمقدّماته بل إذا حلّ بالإنسان العذاب، واستمرّ عليه، لا يدعو إلاّ الله تعالى.

---

(١) ق: الدنيا.

وقوله ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ تقديره: إلهاً غير الله تدعون، وهو استفهام توبيخ وتقرير. ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: لكشف ما حلّ بكم.

و«إياه» مفعول مقدم، انتقل من استفهام التوبيخ إلى حصر من يدعونه بقوله ﴿بَلْ إِيَّاهُ﴾ أي: بل الله [١٨٠/ب] تدعون. [و«ما» من قوله ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ الأظهر أنها موصولة] قال ابن عطية: ويصح أن تكون ظرفية انتهى. فيكون مفعول «يكشف» محذوفاً أي: فيكشف العذاب مدة دعائكم، أي: ما دمتم داعية. وهذا فيه حذف المفعول وخروج عن الظاهر لغير حاجة، ويُضْعفه وَصْلُ ما الظرفية بالمضارع وهو قليل جداً، إنما بابها أن توصل بالماضي، تقول: لا أكلّمك ما طلعت الشمس، ويضعف: ما تطلع الشمس، ولذلك [علّة] ذكرت في علم النحو.

وقوله ﴿إِن شَآءَ﴾ مفعول «شاء» محذوف تقديره: إن شاء كَشْفَه. ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ أي تتركون[١] الالتجاء إلى آلهتكم التي تشركون بها ربكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، هذه تسلية لرسول الله ﷺ، وإن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلب، حتى هم إذا أُخذوا بالبلايا، لا يتذلّلون لله تعالى، ولا يسألونه كشفها. وهؤلاء الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل أبلغ انحرافاً وأشد شكيمة وأجلد من الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ، إذ خاطبهم بقوله «قل أرأيتكم» الآية، وأخبر أنهم عند الأمارات لا يدعون لكشفها إلا الله تعالى. وفي الكلام حذف، التقدير: ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فكذّبوا فأخذناهم. وتقدم تفسير البأساء والضراء في البقرة[٢].

---

(١) ق: وينسون أي يتركون.

(٢) انظر تفسير الآية ١٧٧. وفي ق: تفسير الباء والضراء.

والترجّي هنا بالنسبة إلى البشر، أي: لو رأى أحدٌ ما حلّ بهم، لرجا تضرّعهم وابتهالهم إلى الله في كشفه. والأخذ: الإمساك بقوة وبطش وقهر، وهو هنا مجاز عن متابعة العقوبة والملازمة، والمعنى: فعاقبناهم في الدنيا.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ ولولا حرف تحضيض يليها الفعل ظاهراً أو مضمراً أو فصل بينهما بالظرف: فصل بين «لولا» و«تضرّعوا» بإذ، وهي معمولة لـ«تضرّعوا». والتحضيض يدلّ على أنهم لم يقع تضرعهم حين جاء البأس، فمعناه إظهار معاتبة مذنب غائب وإظهار سوء فعله. وإسناد المجيء إلى البأس مجاز عن وصوله إليهم، والمراد أوائل البأس وعلاماته.

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: صَلُبَتْ وصبرت على ملاقاة العذاب لما أراد الله تعالى من كفرهم. ووقوع «لكن» هنا حسن، لأن المعنى انتفاء التذلّل عند مجيء البأس ووجود القسوة الدالّة على العتوّ والتعزّز، فوقعت «لكن» بين ضدّين، وهما اللين والقسوة. وكذا إن كانت القسوة عبارة عن الكفر، فعبّر بالسبب عن المسبّب. والضراعة عبارة عن الإيمان، فعبّر بالمسبّب عن السبب كانت أيضاً واقعة بين ضدّين، تقول: قسا قلبُه، فكفر، وآمن، فتضرّع.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يحتمل أن تكون الجملة داخلة تحت الاستدراك، ويحتمل أن تكون استئناف إخبار. والظاهر الأول، فيكون الحامل على ترك التضرّع قسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي كان الشيطان سبباً في تحسينها لهم.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ أي: فلما تركوا الاتعاظ والازدجار بما ذُكّروا به من البأس، استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدنيوية، وعبّر عن ذلك بقوله تعالى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إذ يقتضي شمول الخيرات وبلوغ الطلبات. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ ومعنى هذه الجملة معنى قوله تعالى

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ ﴿١٧٨﴾﴾[آل عمران]. وفي الحديث الصحيح عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال[1] «إذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم، فإنما ذلك استدراج منه لهم، ثم تلا «فلما نسوا» الآية».

والأبواب: عبارة عن الأسباب[2] التي هيّأها الله لهم، المقتضية لبسط الرزق عليهم، والإبهام[3] في هذا العموم لتهويل ما فتح عليهم وتعظيمه. وغيّا[4] [١٨١/أ] الفتح بفرحهم بما أوتوا، وترتّب على فرحهم أخذهم بغتة، أي: إهلاكهم فجأة وهو أشد الإهلاك، إذ لم يتقدم شعور به، فتتوطّن النفس على لقائه. ابتلاهم أولاً بالبأساء والضراء، فلم يتّعظوا، ثم نقلهم إلى ما أوجب سرورهم من إسباغ النعم عليهم، فلم يُجْدِ ذلك عندهم، ولا تصدّوا لشكرٍ، ولا اصغوا إلى إنابة، بل لم يحصلوا إلاّ على فرح بما أسبغ عليهم. قال محمد بن النضر الحارثي: أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: باهتون بائسون، لا يحيرون جواباً.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ عبارة عن استئصالهم بالهلاك. ونبّه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم، وهو هنا الكفر. والدابر التابع للشيء من خلفه يقال: دَبَرَ الولد الوالد يَدْبُرُه: وقال أمية بن أبي الصلت[5]:

[من البسيط]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤: ١٤٥ بألفاظ مقاربة.

(٢) ق: أسباب.

(٣) ق: والا بهما.

(٤) ق: وعنى.

(٥) الديوان ص٣٨٩.

فاستُؤصِلوا بعذابٍ خَصَّ دابِرَهُم   فما استطاعوا له صَرْفاً ولا انْتَصَروا

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الظاهر أنه تعالى لما أرسل الرسل إلى هؤلاء الأمم، كذبوهم[1] وآذوهم، فابتلاهم الله تارة بالبلاء وتارة بالرخاء، فلم يؤمنوا، فأهلكهم، واستراح الرسل من شرهم وتكذيبهم، وصار ذلك نعمة في حق الرسل، إذ أنجز الله وعده على لسانهم بهلاك مكذّبيهم، فناسب هذا الفعل كله الختم بالحمد لله رب العالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ الآية، لمّا ذكر أولاً تهديدهم بإتيان العذاب أو الساعة كان ذلك أعظم من هذا التهديد، فأكّد خطاب الضمير بحرف الخطاب فقيل «أرأيتكم»[2]. ولما كان هذا التهديد أخف من ذلك لم يؤكّد به، بل اكتفى بخطاب الضمير فقيل «أرأيتم». وفي تلك وهذه الاستدلال

(١) ق: كذبوا.

(٢) الآية ٤٠ السابقة.

على توحيد الله تعالى، وأنه المتصرّف في العالم الكاشف للعذاب والرادّ لما شاء بعد الذهاب، وأنّ آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً. والظاهر من قوله: أخذ سمعكم وأبصاركم، أنه إذهاب للحاسّة السمعية والبصريّة فيكون أخذاً حقيقياً، وقيل هو أخذٌ معنوي. والمراد إذهاب نور البصر بحيث يحصل العمى وإذهاب سمع الأذن بحيث يحصل الصمم.

وتقدم الكلام على إفراد السمع وجمع الأبصار وعلى الختم على القلوب في أوائل البقرة[١] فأغنى عن إعادته. ومفعول «أرأيتم» الأول محذوف والتقدير: قل أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله تعالى، والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهامية كما تقول: أرأيتك زيداً ما صنع؟. وقد قرّرنا أن ذلك من باب الإعمال أعمل الثاني وحذف من الأول، وأوضحنا كيفية[٢] ذلك في الآية قبل هذه[٣]. والضمير في «به» أفرده إجراءً له مجرى اسم الإشارة كأنه قيل: يأتيكم بذلك، أو يكون التقدير: بما أخذ وختم عليه. ﴿انظُرْ﴾ خطاب للسامع. وتصريفها مرة تأتي بالنعمة، ومرة تأتي بالنقمة، ومرة بالترغيب ومرة بالترهيب. والصدف والصدوف الإعراض والنفور و﴿يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعرضون، ولا يعتبرون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ هذا تهديد ثالث؛ فالأول بأحد أمرين: العذاب أو الساعة، والثاني بالأخذ والختم، والثالث بالعذاب فقط. و«بغتة» فجأة لا يتقدم لكم به علم. و«جهرة» تبدو لكم مخايله، ثم ينزل[٤].

(١) انظر شرح الآية ٧.
(٢) ق: لينبّه.
(٣) الآية ٤٠.
(٤) ق: يقول.

ولمّا كانت البغتة تضمّنت معنى الخفية[١]، صحّ مقابلتها للجهرة، وبدىء بها لأنها أردع من الجهرة. والجملة من قوله ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ معناها النفي، أي: ما يهلك إلا القوم الظالمون، ولذلك دخلت «إلاّ» وهي في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتكم» [١٨١/ب] والرابط محذوف أي: هل يهلك به، والأول من مفعولي «أرأيتكم» محذوف من باب الإعمال، لما قرّرناه. ولمّا كان التهديد شديداً جمع فيه بين أداتي الخطاب، والخطاب لكفار قريش والعرب. وفي ذكر الظلم تنبيه على علّة الإهلاك، والمعنى: هل يهلك إلا أنتم لظلمكم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية، أي: مبشرين بالثواب ومنذرين بالعقاب. وانتصب ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ على الحال، وفيهما معنى العلّية أي: أرسلناهم للتبشير والإنذار، لا لأن تُقترح عليهم الآيات بعد وضوح ما جاؤوا به وتبيّن صحته. ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أي: من صدّق بقلبه، وأصلح في عمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومعنى ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[٢] جعل العذاب ماسًّا، كأنّه ذو حياة، يفعل بهم ما يشاء من الآلام.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ الآية، قال الطبري: المعنى أني لا أقول لكم إني إلٰه، فأتّصف بصفاته من كينونة خزائنه عندي وعلم الغيب. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ قال الزمخشري[٣] في الملائكة: هم أشرف جنس خلقه الله وأفضله وأقربه منزلة منه. وهو جارٍ على مذهب المعتزلة، وقد تكلّمنا على ذلك في قوله

(١) ق: الحقيقة.

(٢) جامع البيان ٧: ١٢٦، والعبارة منقولة بتصرف.

(٣) الكشاف ٢: ٢٠.

تعالى ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء][1]. وهذه الثلاثة أجوبةٌ لما سأله المشركون: فالأول [جواب] لقولهم: إن كنت رسولاً، فاسأل الله حتى يوسّع علينا خيرات الدنيا، والثاني جواب: إن كنت رسولاً، فَأَخْبِرْنا بما يقع في المستقبل من المصالح والمضارّ، فنستعدّ لتحصيل تلك ودفع هذه، والثالث جواب قولهم ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان] انتهى.

وقال الزمخشري[2]: فإن [قلت]: «أعلم الغيب» ما محلّه من الإعراب؟ قلت: النصب عطفاً على محلّ قوله «عندي خزائن الله» لأنه من جملة القول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول [ولا هذا القول] انتهى. ولا يتعيّن ما قاله بل الظاهر أنه معطوف على «لا أقول» لا معمولٌ له، فهو أُمر أن يخبر عن نفسه بهذه الجمل الثلاث فهي معمولة للأمرِ الذي هو «قل»، وغاير [في] متعلّق النفي، فنفى، قوله «عندي خزائن الله» وقوله «إني ملك»، ونفى علم الغيب، ولم يأت التركيب: ولا أقول إني أعلم الغيب؛ لأن كونه ليس عنده خزائن الله من أرزاق العباد وقسمهم معلومٌ ذلك للناس كلهم فنفى ادّعاه ذلك، وكونه بصورة البشر معلوم أيضاً لمعرفتهم بولادته ونشأته بين أظهرهم، فنفى أيضاً ادّعاءه ذلك، ولم يَنْفِهما من أصلهما لأن انتفاء ذلك من أصله معلوم عندهم، فنفى أن يكابرهم في ادّعاء شيء يعلمون خلافه قطعاً.

ولمّا كان علم الغيب يمكن أن يظهر على لسان البشر، بل قد يدّعيه كثير من الناس كالكهّان وضُرّاب الرمل والمنجّمين، وكان صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأشياء من المغيّبات وطابقت ما أخبر به - نفى علم الغيب من أصله

---

(١) وفي ق: المقربين.

(٢) الكشاف ٢: ٢١.

فقال «ولا أعلم الغيب» تنصيصاً على محض العبودية والافتقار، وأن ما صدر عنه من أخبار الغيب إنما هو من الوحي الوارد عليه لا من ذات نفسه فقال «إن أتبع إلا ما يوحى إلي»، كما قال فيما حكى الله عنه ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف] وكما أُثِرَ عنه صلى الله عليه وسلم «لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلاّ أن يعلمني ربي»(١).

وجاء هذا النفي على سبيل الترقّي، فنفى أوّلاً ما تتعلّق به رغبات الناس أجمعين من الأرزاق التي هي قوام الحياة الجسمانية، ثم نفى ثانياً ما تتعلق به وتتشوّف إليه النفوس الفاضلة من معرفة ما يجهلون وتعرف ما يقع من الكوائن، ثم نفى ثالثاً ما هو مختص بذاته من صفة المَلَكية التي هي مباينة لصفة البشرية، فترقّى [١٨٢/أ] في النفي من عام إلى خاص إلى أخصّ، ثم حصر ما هو عليه في أحواله كلها بقوله «إن أتّبع إلاّ ما يوحىٰ إلي» أي: أنا متّبع ما أوحى الله غير شارع شيئاً من جهتي، وظاهره حجّة لنُفَاة القياس.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: لا يستوي الناظر المفكر في الآيات والمعرض الكافر الذي يهمل النظر. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ هذا عرض وتحضيض معناه الأمر، أي: فكّروا، ولا تكونوا ضالّين أشباه العُمْي.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الآية، [لمّا] أخبر أنه لا يتّبع إلا ما يوحى إليه، أمره تعالى أن ينذر به، فقال «وأنذر به» أي بما يوحى إليك. وظاهر قوله «الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم» عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى جزاء ربهم. ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ هذه الجملة في موضع الحال

(١) ذلك في غزوة تبوك حين ضلّت ناقته، انظر السيرة النبوية ٤ : ١٦٦، ومختصر المقاصد الحسنة ص١٧٤.

أي: في حال من لا وليّ له ولا شفيع، وذو الحال الضمير في قوله «يحشروا»[١] والعامل فيها «يحشروا». ويجوز أن يكون إخباراً من الله تعالى عن صفة الحال يومئذ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ متعلق بقوله «وأنذر» أي: رجاء أن يحصل لهم التقوى.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، قال سعد بن أبي وقّاص: نزلت فينا ستّة: فيّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال؛ قالت قريش: إنّا لا نرضى أن نكون لهؤلاء أتباعاً فاطردهم عنك فنزلت. ولما أمر تعالى بإنذار غير المتّقين، لعلهم يتّقون، أردف ذلك بتقريب المتّقين وإكرامهم، ونهاه عن طردهم، ووَصَفهم بموافقة ظاهرهم لباطنهم من دعاء ربّهم وخلوص نيّاتهم.

والظاهر في قوله «يدعون ربهم» يسألونه ويلجؤون إليه، ويقصدونه بالدعاء والرغبة. و﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ كناية عن الزمان الدائم، ولا يُراد بهما خصوص زمانهما، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلا، تريد: في كل حال. فكنّى بالغداة عن النهار وبالعشيّ عن الليل، وخصّهما بالذكر، لأن الشغل

(١) ق: يحشرون.

فيهما غالب على الناس، ومن كان في هذين الوقتين يغلب عليه ذكر الله ودعاؤه، كان في وقت الفراغ أغلب عليه. وقرأ ابن عامر وجماعة: بالغدوة. ﴿يُرِيدُونَ﴾ جملة حالية، وذو الحال الواو في «يدعون» وهي الفاعل، و«يدعون» هو العامل في الحال. و﴿وَجْهَهُۥ﴾ هو كناية عن الله تعالى، إذ الجسمانية تستحيل بالنسبة إلى الله تعالى.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ الآية، قال الزمخشري[(١)]: كقوله «إن حسابهم إلا على ربي»[(٢)] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال «ما عليك من حسابهم من شيء» بعد شهادته لهم[(٣)] بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم، [على معنى] وإن كان الأمر كما يقولون عند الله، فما يلزمك إلاّ اعتبار الظاهر والاتّسام بسيرة المتّقين، وإن كان لهم باطن غير مرضيّ، فحسابهم عليهم، أي: لازم لهم لا يتعدّاهم[(٤)] إليك، كما أن حسابك عليك، لا يتعدّاك إليهم كقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام] انتهى.

لا يمكن ما ذكره من الترديد في قوله: وإن كان الأمر إلى آخره، لأنه تعالى قد أخبر أنهم «يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» وإخبار الله تعالى هو الصدق الذي لا شكّ فيه، فلا يقال فيهم: وإن كان الأمر كما يقولون، وإن كان لهم باطن غير مرضيّ - لأنه فرض مخالف لما أخبر تعالى من خلوص بواطنهم ونيّاتهم لله عزّ وجلّ. «من شيء» في موضع المبتدأ و«من» زائدة، و«من حسابهم» في موضع الحال، لأنه لو تأخّر كان في

(١) الكشاف ٢: ٢٢.
(٢) ق: كقولهم.
(٣) ق: من شيء ذمّ لهم.
(٤) ق: لا يتعدى.

موضع الصفة، و«عليك» في موضع خبر المبتدأ، كأنه قيل: ما شيء من حسابهم كائن عليك. والمعنى نفي حسابهم عليه، وجوابه قوله «فتطردهم» فينتفي الحساب والطرد كأنه قيل: لا حساب عليك فكيف يكون طرد؟. ولمّا نفى حسابهم عليه نفى حسابه عليهم في قوله «وما [١٨٢/ب] من حسابك عليهم من شيء». قال الزمخشري[١] «فإن قلت: أما كفى قوله: «ما عليك من حسابهم من شيء» حتى ضمّ «وما من حسابك عليهم من شيء»؟ قلت: قد جُعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدّى واحد، وهو المعنى في قوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام]، ولا يستقلّ بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل: لا تؤاخَذُ أنت ولا هم بحساب صاحبه» [انتهى].

تركيب غير عربي، لا يجوز عود الضمير هنا غائباً ولا مخاطباً؛ لأنه إن أعيد غائباً، فلم يتقدم له اسم مفرد غائب يعود عليه، إنما تقدم قوله «ولا هم» ولا يمكن[٢] العود إليه على اعتقاد الاستغناء بالمفرد عن الجمع، لأنه يصير التركيب «بحساب صاحبهم»، وإن أعيد مخاطباً، فلم يتقدم له مخاطب[٣] يعود عليه، إنما تقدم قوله «لا تؤاخذ أنت» ولا يمكن العود عليه، لأنه ضمير مخاطب فلا يعود عليه غائباً. ولو أبرزته مخاطباً، لم يصحّ التركيب أيضاً، فإصلاح هذا التركيب أن يقال: لا يؤاخذ كل واحد منّا ولا منهم بحساب صاحبه، أو لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك، أو لا تؤاخذ أنت ولاهم بحسابكم، فتُغلّب الخطاب على الغيبة كما تقول: أنت

(١) الكشاف ٢: ٢٢.

(٢) ق: يتقدم.

(٣) ق: مخاطباً.

وزيد تضربان. وفسّر الحساب[١] هنا بالأعمال وقيل بالأرزاق، أي: كلّ منهما له حسابه. وقوله ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو جواب النهي في قوله «ولا تطرد الذين» كقوله تعالى ﴿لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴿٦١﴾﴾ [طه] فصار جواب كلّ من النهي ومن النفي على ما يناسبه.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية، الكاف للتشبيه في موضع نصب، والإشارة بذلك إلى فتون سابق، وهو افتتان الكفار الذين أشاروا بطرد من كان أسلم من ضعفاء المؤمنين، وهم الذين نهاهم الله عن طردهم. وكنى [بقوله] «بعضهم» عن أولئك الكفار. وقوله «ببعض» كناية عن أولئك المؤمنين. وقوله ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ علّة للفتون. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أولئك المؤمنين، واستحقار لهم كقول الكفار ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان] وكقولهم ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴿٢٥﴾﴾ [القمر][٢]. وقوله ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: بالدين، علينا. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا استفهام معناه التقرير والردّ على أولئك القائلين، أي: الله أعلم بمن يشكر، فيضع فيه هدايته دون من يكفر، فلا يهديه. وجاء لفظ الشكر هنا في غاية من الحسن إذ تقدم من قولهم «أهؤلاء منّ الله عليهم» أي: أنعم، فناسب ذكر الإنعام لفظ الشكر. والمعنى أنه تعالى عالم بهؤلاء المنعم عليهم الشاكرين لنعمائه. وتضمّن العلم معنى الثواب والجزاء لهم على شكرهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية، الجمهور أنها نزلت في الذين نهى الله عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: الحمد لله الذي جعل

---

(١) ق: الخطاب.

(٢) ق: وكقوله: أو ألقي عليه الذكر.

في أمّتي من أبدؤهم بالسلام[١]. ولفظة «الذين يؤمنون» عامّة في هؤلاء وفي كل مؤمن يجيء إلى رسول الله ﷺ، أمره بإفشاء التحية لهم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ في صحيح البخاري[٢] أن الله تعالى «[كتب] كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي». والكَتْب هنا كناية عن إيصال رحمته تعالى لعباده.

﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا﴾ الآية، السوء: الشرك[٣]. وتقدم تفسير عمل السوء في النساء[٤] فأغنى عن إعادته. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد عمل السوء ﴿وَأَصْلَحَ﴾ شرط استدامة الإصلاح في السّيء الذي تاب منه. وقرىء: أنّه، فأنّه بفتح الهمزتين [١٨٣/أ] والضمير في «أنه» ضمير الأمر والشأن، و«أنّه» بدل من «الرحمة» و«الرحمة» منصوب بكتب، و«مَن» في قوله «مَن عَمِلَ» يجوز أن تكون شرطية، والفاء في «فأنّه» جواب الشرط وما بعده مقدَّر بالمصدر، وقبله مبتدأ يكون المصدر خبره، فالتقدير: فالأمر غفران الله له. ويجوز أن يكون «مَن» مبتدأ، والفاء دخلت في خبره، وهذه الجملة المقدّرة في موضع خبر المبتدأ الذي هو «مَن». وقرىء بكسر الهمزتين فيهما: الأولى على جهة التفسير للرحمة، والثانية في موضع الخبر أو الجواب على التقديرين في «مَن عمل» أهي شرط أو موصول. وقرىء بفتح الأولى على البدل من «الرحمة» كما تقدم، وبكسر الثانية على التقديرين اللذين سبقا.

وما أحسن مساق هذا المقول: أمره أوّلاً أن يقول للمؤمنين «سلام عليكم»

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٤٧.

(٢) ٦: ٢٧٤٥ من حديث أبي هريرة.

(٣) ق: الشرط.

(٤) انظر تفسير الآيتين ١١٠، ١٢٣ من النساء.

فبدأ أوّلاً بالسلامة والأمن لمن آمن، ثم خاطبهم ثانياً بوجوب الرحمة. وأسند الكتابة إلى ربّهم أي: كتب الناظر لكم في مصالحكم والذي يربيكم[1] ويملككم الرحمة. فهذا تبشير بعموم[2] الرحمة، ثم أبدل منها شيئاً خاصًّا وهو غفرانه ورحمته[3] لمن تاب وأصلح.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الآية، الكاف للتشبيه و«ذلك» إشارة إلى التفصيل السابق الواقع في هذه السورة، أي: ومثل ذلك التفصيل البيّن نفصّل آيات القرآن، ونلخّصها في صفة أحوال المجرمين؛ مَن هو مطبوع على قلبه لا يُرجى إسلامه، ومَن نرى فيه أمارة القبول، وهو الذي يخاف إذا سمع ذِكْر القيامة، ومَن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده. واستبان: يكون لازماً ومتعدّيا. وتميم وأهل نجد يذكّرون السبيل، وأهل الحجاز يؤنّثونها. وقرىء: وليستبين بالياء، سبيلُ: بالرفع، أي: وليظهر سبيل المجرمين. وقرىء: ولتستبين بتاء الخطاب، سبيل بالنصب، فاستبان هنا متعدّية، فقيل هو خطاب لرسول الله ﷺ، وقيل: له ظاهراً والمراد أمّته. وخصّ سبيل المجرمين لأنه يلزم من استبانتها استبانة سبيل المؤمنين، أو يكون على حذف معطوف لدلالة المعنى عليه، التقدير: سبيل المجرمين والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

(١) ق: يريكم.

(٢) ق: لعموم.

(٣) ق: ورحمة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨﴾.

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ الآية، أمره تعالى أن يجاهرهم[1] بالتبرّؤ من عبادتهم غير الله. ولما ذكر تعالى تفصيل الآيات، ليستبين سبيل المبطل من المحقّ، نهاه عن سلوك سبيلهم. ومعنى «نُهيت» زجرت، و﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ هم الأصنام، عبّر عنها بالذين على زعم الكفّار حين أنزلوها منزلة من يعقل. و«تدعون» قال ابن عباس: معناه تعبدون، وقيل: تسمّونهم آلهة، مِن: دعوت ولدي زيداً: سمّيتُه، وقيل: تدعون في أموركم وحوائجكم. وفي قوله «تدعون من دون الله» استجهال [لهم] ووصفٌ بالاقتحام فيما كانوا منه على غير بصيرة. ولفظة «نُهيت» أبلغ من النفي بلا أعبد، إذ فيه ورود تكليف.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ الآية، ولمّا كانت أصنامهم مختلفة، كان لكلّ عابد صنم هوى يخصّه، فلذلك جمع. و﴿إِذٗا﴾ معناها الجزاء أي: قد ضللت إن أتبّع أهواءكم. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ جملة مؤكّدة لما قبلها، وأتى بالأولى بقوله «ضللتُ»، والفعل يدلّ على التجدّد، وفي الثانية باسم الفاعل وهو «المهتدين»، ويدلّ على الثبوت، فنفى تجدد الضّلال وثبوت الهداية.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على شريعة واضحة. والبيّنة هي المعجزة التي تبيّن صدقي. ﴿وَكَذَّبۡتُم بِهِۦ﴾ إخبار [١٨٣/ب] عنهم أنهم كذّبوا به. والظاهر عَوْد الضمير على «ربي» أي: وكذّبتم بربي. ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ الذي استعجلوا به هو العذاب، والاستعجال لم يأت في القرآن إلاّ للعذاب. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: الحكم على الإطلاق، وهو الفصل بين الخصمين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب. وقرىء: يقضي، من القضاء،

(١) ق: أن لا يجاهدهم.

و﴿ٱلْحَقَّ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: يقضي القضاء الحق. وقيل: «الحق» مفعول بيقضي، ومعنى يقضي: يصنع. قال الشاعر[1]: [من الكامل]

وعليهما مَسْرُوَدتان قضاهما داودُ [أو صَنَعُ السّوابغِ تُبَّعُ]

أي: صنعهما. وقرىء: يقصّ الحق، من قصّ الحديث، كقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ۝٣﴾ [يوسف] أو مِن قصَّ الأثر: أي اتّبعه.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ الآية، أي: لو كان في قدرتي الوصول إلى ما تستعجلون به من حلول العذاب، لبادرتُ إليه، ووقع الانفصال بيني وبينكم. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظاهر أن المعنى: والله أعلم بكم، فوضع الظاهر المشعر بوصفهم [بالظلم] موضع المضمر. ومعنى: أعلم بهم أي: بمجازاتهم، ففيه وعيد وتهديد.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾.

لمّا قال تعالى «إنِ الحكم إلاّ لله» وقال «وهو أعلم بالظالمين» بعد قوله «ما تستعجلون به» انتقل من خاص إلى عام، وهو علم الله تعالى بجميع

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في ديوان الهذليين ١: ١٩.

الأمور الغيبيّة، واستعار للقدرة عليها المفاتح لما كانت سبباً للوصول إلى الشيء، فاندرج في هذا العام ما استعجلوا وقوعه وغيره. والمفاتح جمع مِفْتح بكسر الميم، وهي الآلة التي يُفتح بها ما أُغلق. قال الزهراوي: ومفتح أفصح من مفتاح. وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال[1] «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا الله: إنّ الله عنده علم الساعة، إلخ».

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ حصر أنه لا يعلم تلك المفاتح ولا يطّلع عليها إلا هو. ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى التصوف أشياء من ادّعاء علم المغيّبات والاطّلاع على علم عواقب أتباعهم وأنهم معهم في الجنة، مقطوع لهم ولأتباعهم بها، يخبرون بذلك على رؤوس المنابر ولا ينكر ذلك أحد، هذا مع خلوّهم عن العلوم يوهمون أنهم يعلمون الغيب. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها[2] «ومن زعم أنّ محمداً يخبر بما [يكون] في غد، فقد أعظم على الله الفرية[3]» والله تعالى يقول ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل]. ولقد كثرت هذه الدعاوى في ديار مصر وقام بها ناس صبيان العقول يُسمّون بالشيوخ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ﴾ لما كان ذكره تعالى مفاتح الغيب أمراً معقولاً، وأخبر[4] تعالى باستئثاره بعلمه واختصاصه به، ذكر تعلق علمه بهذا المحسوس على سبيل العموم، ثم ذكر علمه بالورقة والحبّة والرطب واليابس على سبيل الخصوص، فتحصّل إخباره تعالى بأنه عالم بالكلّيات والجزئيات،

---

(١) أخرجه البخاري ٤ : ١٦٩٣ من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه.

(٢) ١ : ١٥٩.

(٣) ق: الفدية.

(٤) ق: أخبر.

مستأثر بعلمه وبما نعلمه نحن. وقدم البرّ لكثرة مشاهدتنا لما اشتمل عليه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والحيوان والنبات والمعادن، أو على سبيل الترقّي إلى ما هو أعظم في الجملة، لأن ما فيه من أجناس الحيوانات أعجب، وطوله وعرضه أعظم، وما في البحر من حيوان وجواهر وغير ذلك. وعبّر بلفظ «ما» التي هي لآحاد ما لا يعقل لكثرة[1] أجناسه وأنواعه [١٨٤/أ] وأشكاله، فشمل النوعين العاقل وغيره[2]، تغليباً لما لا يعقل. وقال سيبويه: «ما» مبهمة تقع على كل شيء. وظاهر كلامه أنها لا تختص بما لا يعقل.

و«مِن» في ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ زائدة، و«ورقة» فاعل بتسقط. و﴿يَعْلَمُهَا﴾ مطلقاً قبل السقوط ومعه وبعده. و«يعلمها» في موضع الحال من «ورقة» وهي حال من النكرة كما تقول: ما جاء أحدٌ إلاّ راكباً. ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ أتى بجزأين لطيفين، أحدهما علوي، وهو سقوط ورقة من علوّ إلى أسفل، والثاني سفليّ وهو اختفاء حبّة[3] في بطن الأرض. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا استثناء جارٍ[4] مجرى التوكيد؛ لأن قوله «ولا حبة» «ولا رطب» «ولا يابس» معطوف على قوله «ورقة»، والاستثناء الأول منسحب عليها كما تقول: ما جاءني من رجلٍ إلاّ أكرمته ولا امرأةٍ، فالمعنى: إلا أكرمتها. ولكنه لما طال الكلام أعيد[5] الاستثناء على سبيل التوكيد، وحَسَّنه كونه فاصلة رأس آية.

---

(١) ق: الكثرة.

(٢) ق: وغيرهما.

(٣) ق: اختفاضه.

(٤) ق: جاري.

(٥) ق: عيد.

والرطب واليابس وصفان معروفان والمراد العموم في المتّصف بهما. والكتاب المبين كناية عن علم الله تعالى المحيط بجميع الأشياء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر استبداده بالعلم التام للكليّات والجزئيات، ذكر استئثاره بالقدرة التامة تنبيهاً على ما تختصّ به الإلهية. وذكر شيئاً محسوساً قاهراً[1] للأنام وهو التوفّي بالليل والبعث بالنّهار، وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة، بل أمرٌ يوقعه الله تعالى بالإنسان. والتوفّي عبارة، في العرف، عن الموت، وهنا المعنيّ به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت، وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره. و﴿جَرَحْتُم﴾ كسبتم، ومنه جوارح الطير: كواسبها، واجترحوا السيئات: اكتسبوها، والمراد منها أعمال الجوارح، ومنه قيل للأعضاء جوارح. والضمير في «فيه» عائد على النهار. وقضاء الأجل: فصل مدة العمر من غيرها. و«مسمّى»: في علم الله تعالى. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وهو المرجع إلى موقف الحساب.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تقدم الكلام عليه[2]. وظاهر ﴿وَيُرْسِلُ﴾ أن يكون معطوفاً على «وهو القاهر» عطف جملة فعلية على جملة اسمية وهي من آثار القهر. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ ظاهره أنه متعلق بيرسل كقوله تعالى ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ الآية [الرحمن]. ولفظة «على» مشعرة بالعلوّ والاستيلاء لتمكّنهم[3] منّا جُعلوا كأنّ ذلك علينا. وجوّزوا أن يكون متعلّقاً بحَفَظَة أي: حافظين عليكم. و﴿حَفَظَةً﴾ جمع حافظ وهو قياس مطّرد في فاعل كقولهم: بارّ

(١) ق: قاهر.
(٢) الأنعام ٦: ١٨.
(٣) ق: لتمنكم.

وبررة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسباب الموت. ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ قبضت روحه. ﴿رُسُلُنَا﴾ جاء[1] جمعاً، فعنى به ملك الموت وأعوانه. والظاهر أن الرسل هنا غير الحفظة، ولا تعارض بين قول الله ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر] وبين قوله ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴿١١﴾﴾ [السجدة] وبين قوله «توفّته رسلنا» لأن نسبة ذلك إلى الله تعالى بالحقيقة ولغيره بالمباشرة. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ جملة حالية والعامل فيها «توفّته»، أو استئنافية أخبر عنهم بأنهم لا يفرطون في شيء مما أُمروا به من الحفظ والتوفّي.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ الظاهر عود الضمير على العباد. وانتقل من ضمير الخطاب في «عليكم» إلى ضمير الغيبة في «رُدّوا»، وفاعل الردّ المحذوف هو الله تعالى [١٨٤/ب] كأنّ الأصل: ثم ردّهم الله. وقرىء: رِدّوا بكسر الراء أصله رُدِدوا، أُتبعت حركة الراء لحركة الدال، ثم سكنت الدال للإدغام فقيل: رِدُّوا، كما قرىء «رِدّت إلينا»[2]. وظاهر الإخبار [بالرد] إلى الله تعالى أنه يُراد به البعث والرجوع إلى حكم الله تعالى وجزائه يوم القيامة، ويدل عليه آخر الآية. و﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ فيه إشعار بإحسانه تعالى إليهم؛ إذ مولاهم هو سيّدهم وهم عبيده. وَوَصْفُه تعالى بالحق معناه العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ تنبيه منه تعالى عباده بأن جميع أنواع التصرفات له. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ تقدّم الكلام في سرعة حسابه تعالى في قوله ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ

(١) في ق زيادة: لأن نسبة ذلك إلى.

(٢) يوسف ٦٥.

بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم﴾ الآية، لما تقدّم ذكره تعالى دلائل على ألوهيّته من العلم التّام والقدرة الكاملة، ذكر نوعاً من أثرهما[١] وهو الإنجاء من الشدائد. وهو استفهام يراد به التقرير والإنكار والتوبيخ والتوقيف على[٢] سوء معتقد من عبد الأصنام، وترك الذي ينجي من الشدائد، ويُلجأ إليه في كشفها. والظّلمات: أريد [بها] حقيقة الظلمة، وجُمعت باعتبار مواردها؛ ففي البر والبحر ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الصواعق، وفي البرّ أيضاً ظلمة الغبار وظلمة الغيم وظلمة الرّيح، وفي البحر أيضاً ظلمة الأمواج. ويكون ذلك على حذف مضاف، التقدير: من مهالك ظلمة البرّ والبحر ومخاوفها. وأكثر المفسّرين على أن الظلمات مجاز عن شدائد البرّ والبحر ومخاوفهما وأهوالهما، والعرب تقول: يوم أسود، ويوم مظلم، ويوم ذو كواكب.

و﴿تَدۡعُونَهُۥ﴾ جملة حالية، وذو الحال ضمير الخطاب أي تنادونه مظهرين الحاجة وَمُخْفيها. والتضرع وصف بادٍ على الإنسان، والخُفية[٣] الإخفاء. وقال الحسن: تضرعاً: علانية، وخفية أي نيّة، وانتصبا على المصدر أي: يتضرعون تضرّعاً ويُخفون خُفية. ﴿لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا[٤]﴾ قبله قسم محذوف، واللام هي الموطئة لجواب القسم وهو «لنكونن». والإشارة بهذه، إلى الظلمات و«إنْ» شرطية بعد اللام وجوابها محذوف لدلالة جواب القسم عليه.

(١) ق: أمرهما.

(٢) ق: عن.

(٣) ق: والحقيقة.

(٤) ق: أنجيتنا.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ الضمير في «منها» عائد إلى ما أشير إليه بقوله «من هذه». ﴿وَمِن كُلِّ﴾ معطوف على الضمير المجرور أعيد معه الخافض. وأمْره تعالى بالمسابقة[(١)] إلى الجواب ليكون هو صلى الله عليه وسلم أسبق إلى الخير وإلى الاعتراف بالحق، ثم ذكر أنه تعالى ينجي من هذه الشدائد التي حضرتهم ومن كل كرب، فعمّ بعد التخصيص، ثم ذكر قبيح ما يأتون بعد ذلك وبعد إفراده بالدعاء والتضرّع ووعدهم إياه بالشكر من إشراكهم معه في العبادة غيره. قال ابن عطية. وعطف بثمّ للمهلة التي تبيّن قبح فعلهم أي: ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه أنتم تشركون انتهى.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ لما نزلت استعاذ رسول الله ﷺ وقال في الثالثة «هذه أهون أو أيسر»[(٢)]. والظاهر أن الخطاب لأمّة رسول الله ﷺ، والآية متضمّنة للوعيد. ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم لوط وكما فعل بأصحاب الفيل أرسل عليهما حجارة. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما فعل بقارون وبداره [قال تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص]. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أي: يخلطكم. ﴿شِيَعًا﴾ [١٨٥/أ] جمع شيعة، وانتصب على الحال أي: يخلطكم متشايعين فرقاً مختلفة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم[(٣)]﴾ كما جرى في حرب صفين بين علي وأصحابه، ومعاوية وأصحابه، وكما جرى بين علي والخوارج، وكل هؤلاء مسلمون مؤمنون. والبأس الشدّة. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ هذا استرجاع لهم ولفظة تعجّب للنبي ﷺ. والمعنى أنّا نسلك[(٤)] في مجيء

---

(١) ق: بالسّابقة.

(٢) أخرجه البخاري ٤: ١٦٩٤ من حديث جابر. وانظر الفتح الرباني ١٨: ١٣٩.

(٣) قدّم في ق شرح «ويذيق بعضكم» على شرح «أو يلبسكم».

(٤) ق: نسألك.

الآيات أنواعاً، رجاء أن يفقهوا، ويفهموا عن الله تعالى لأن [في] اختلاف الآيات ما يقتضي الفهم، إن عَزَبت آية لم تعزُب أخرى.

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٦٩ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠ ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ الضمير عائد على القرآن، ويدل عليه ذكر الآيات قبله. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ جملة استئناف، أخبر بأن القرآن هو الحق. ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «به» وهو أشنع عليهم في التكذيب بشيء هو الحق. ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: لست بقائم عليكم لأكرهكم على التوحيد.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ أي: لكل شيء يُنبَأ به وقت استقرار وحصول لا بدّ منه. ﴿وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ مبالغة في التهديد والوعيد.

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، ويدخل فيه المؤمنون، لأن علّة النّهي، وهو سماع الخوض في آيات الله، يشمله وإياهم، و«رأيت» هنا بَصَريّة ولذلك تعدّت إلى واحد. ولا بدّ من تقدير حال محذوفة أي: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا وهم خائضون فيها. والخوض أصله في الماء؛ شبّه تنقّلهم في آيات الله بالخوض في الماء، وتنقّلُهم في الآيات قولُهم هذا سحر، هذا افتراء، هذه أساطير الأوّلين.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أمرٌ له عليه السلام بالإعراض عنهم، وهو تركهم بالنّية والجلوس معهم، يبيّنه قوله تعالى ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية، وفيها ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ ١٤٠﴾ [النساء]. «وإمّا ينسينّك الشيطان» أي: بشغله لك عن النهي عن مجالستهم، فلا تقعد معهم. ﴿بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أي: ذِكْرك النهي.

وما أحسن مجيء الشرط[1] الأول بإذا التي هي للتحقّق، لأن كونهم يخوضون في الآيات محقّق، ومجيء الشرط الثاني بإنْ، لأنّ، إنْ لغير المحقق، وجاء ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيهاً على علّة الخوض في الآيات والطعن فيها، وأنّ سبب ذلك ظلمهم وهو مجاوزة الحدّ. و«ما» زائدة بعد «إنْ» الشرطية[2]، والفعل قد لحقته النون الشديدة، وكثر ذلك في القرآن، قال تعالى ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ ٤١﴾ [الزخرف]، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ٢٠٠﴾ [الأعراف]. ويجوز حذف ما، في غير القرآن، وحذف نون التوكيد، وحذف أيّهما شئت، فتقول: إمّا تقم أقم، وإن تقومنّ أقم، نصّ على ذلك سيبويه[3].

قال الزمخشري[4]: ويجوز أن يُراد: وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين، لأنها[5] مما تنكره العقول، فلا تقعد بعد الذكرى: أي بعد أن ذكّرناك[6] قبحها، ونبّهناك عليه معهم انتهى.

هذا خلاف ظاهر الشرط، لأنه قد نُهي عن القعود معهم قبل، ثم عطف

---

(١) ق: الشرك.

(٢) ق: شرطية.

(٣) انظر الكتاب ١: ٢٦٧.

(٤) الكشاف ٢: ٢٦.

(٥) ق: أنها.

(٦) ق: ذكّرناكها.

على الشرط السابق هذا الشرط، وكله مستقبل.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ هم المؤمنون، والضمير في «حسابهم» عائد على المستهزئين الخائضين في الآيات. رُوي أن المؤمنين قالوا لما نزلت ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء] قالوا: لا يمكننا طواف ولا عبادة في الحرم، فنزلت. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ مِن: زائدة، وشيء: مبتدأ خبره «على الذين». و﴿ذِكْرَىٰ﴾ يحتمل أن تكون في موضع نصب، أي: ولكن تذكرونه ذكرى، أو ذكِّروهم، أو في موضع رفع، أي: ولكن عليهم ذكرى، لعلهم يتقون الوعيد بتذكيركم إياهم. قال الزمخشري[1]: ولا يجوز أن يكون عطفاً على محلّ «من شيء» كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد [١٨٥/ب] لأن قوله «من حسابهم» يأبى ذلك انتهى.

كأنه تخيّل أن في العطف يلزم القيد الذي في المعطوف عليه وهو «من حسابهم» لأنه قيد في «شيء» فلا يجوز عنده أن يكون من عطف المفردات عطفاً على «من شيء» على الموضع، لأنه يصير التقدير عنده: ولكن ذكرى من حسابهم، وليس المعنى على هذا. وهذا الذي تخيّله ليس بشيء لأنه لا يلزم في العطف بـ«ولكن» ما ذكر، تقول: ما عندنا رجل سوء ولكن رجل صدق، وما عندنا رجل من تميم، ولكن رجل من قريش، وما قام من رجل عالم ولكن رجل جاهل. فعلى هذا الذي قررناه، يجوز أن يكون من قبيل عطفَ الجمل كما تقدم، ويجوز أن يكون من عطف المفردات. والعطف إنما هو للواو ودخلت لكن للاستدراك.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ هذا أمر بتركهم، وكان ذلك لقلّة أتباع

---

(١) الكشاف ٢: ٢٧.

الإسلام حينئذٍ، ودينهم ما كانوا عليه من البحائر والسوائب والحوامي والوصائل وعبادة الأصنام والطواف حول البيت عراة يصفرون ويصفقون.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ الضمير في «به» عائد على القرآن. و﴿تُبْسَلَ﴾ قال ابن عباس: تفضح، وقال قتادة: تحبس وترتهن. و﴿أَن تُبْسَلَ﴾ اتفقوا على أنه في موضع المفعول من أجله وقدّروا: كراهة أن تبسل ومخافة أن تبسل ولئلاّ تبسل. ويجوز عندي أن يكون في موضع جر على البدل من الضمير، والضمير مفسَّر بالبدل. وأضمر الإبسال لما في الإضمار من التفخيم كما أضمروا ضمير الأمر والشأن، وفسّر بالبدل وهو الإبسال، فالتقدير: وذكّر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت، وقد روي[1]: [من الطويل]

إذا هي لم تستَك بعود أراكةٍ تُنُخِّلَ فاستاكَتْ به عُود إِسْحِلِ

بجرّ «عود» على أنه بدل من الضمير.

﴿لَيْسَ لَهَا﴾ هذه جملة استئناف إخبار. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من دون عذاب الله وليّ فينصرها، ولا شفيع فيدفع عنها بمسألته. ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ أي: تَفْدِ كلّ فداء، والعدل الفدية لأن الفادي يعدل الفداء بمثله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ الظاهر أنه يعود على «الذين اتخذوا دينهم». وقال ابن عطية: «أولئك» إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله «أن تُبسل نفس». ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الحميم الماء الحار. والأظهر أنها جملة استئناف إخبار، ويحتمل أن تكون حالاً. و«شراب» فَعال بمعنى مفعول كطعام بمعنى مطعوم. ولا ينقاس فَعال بمعنى مفعول؛ لا يقال قَتال ولا ضَراب بمعنى

---

(١) البيت للطفيل الغنوي في ديوانه ص٦٥، وينسب لعمر بن أبي ربيعة، انظر ديوانه ص٤٩٨.

مقتول ومضروب.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، هذا استفهام بمعنى الإنكار، أي: لا يقع شيء من هذا من دون الله النافع الضارّ المبدع للأشياء القادر. ﴿ مَا لَا يَنفَعُنَا ﴾ إذ هي أصنام خشب وحجارة وغير ذلك. ﴿ وَنُرَدُّ ﴾ معطوف على «أندعو»[١] وهو داخل في استفهام التقرير. ﴿ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا ﴾ أي: إلى الشرك أي: ردّ القهقرى إلى وراء وهي المشية الدنيّة، واستعمل المَثَل بها فيمن رجع من خير إلى شر. قال الطبري[٢] وغيره: الردّ على العقب يستعمل فيمن أمل[٣] أمراً فخاب أمله. ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ﴾ موضع «كالذي» نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي: ردًّا مثل ردّ الذي، والأحسن أن يكون حالاً أي: كائنين كالذي. والذي: ظاهره أنه مفرد ويجوز أن يراد به معنى الجمع أي: كالفريق الذي استهوته الشياطين، حمله الزمخشري[٤] على أنه من الهوى

(١) ق: أن ندعو.

(٢) انظر تفسيره ٧: ١٥٢.

(٣) ق: أمن.

(٤) انظر الكشاف ٢: ٢٨.

الذي [١٨٦/أ] هو المودّة[١] والميل، كأنه قيل: كالذي أمالته الشياطين عن الطريق الواضح إلى المهمه القفر. وحمله غيره على أنه من الهُوِيّ أي: ألقَتْه في هوّة، ويكون استفعل بمعنى أفعل نحو استزلّ وأزلّ. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باستهوته.

﴿حَيْرَانَ﴾ حال من ضمير النصب في «استهوته» وهو لا ينصرف ومؤنثه حيرى. ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ قال الزمخشري[٢]: أي لهذا المستهوي أصحاب: رفقة. «يدعونه إلى الهدى» أي: إلى أن يهدوه إلى الطريق المستوي. قال ابن عباس في معنى الآية: مَثَل عابد الصنم مَثَل من دعاه الغول[٣] فيتبعه فيصبح وقد ألقته في مهمه ومهلكة، فهو حائر في تلك المهامه. ﴿ٱئْتِنَا﴾ معمول لقول محذوف تقديره: قائلين ائتنا، وهو من الإتيان بمعنى جِيءْ إلينا. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ من قال إن قوله «له أصحاب» يعني به من الشياطين، وإن قوله ﴿إِلَى ٱلْهُدَى﴾ بزعمهم، كانت هذه الجملة ردًّا عليهم، أي: ليس ما زعمتم هدى بل هو كفر، وإنما الهدى هدى الله وهو الإيمان. ومن قال إن قوله «له أصحاب» مثل للمؤمنين الدّاعين إلى الهدى الذي هو الإيمان، كانت إخباراً بأن الهدي هُدى الله مَن شاء، لا أنه يلزم من دعائهم إلى الهدى وقوع الهداية، بل ذلك بيد الله تعالى من هداه اهتدى. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الظاهر أن اللام لام كي، ومفعول «أمرنا» الثاني محذوف وقدّروه: وأُمرنا بالإخلاص لكي ننقاد ونستسلم.

قال ابن عطية: ومذهب سيبويه أن «لنسلم» هو في موضع المفعول، وأن

(١) ق: المدّة.

(٢) الكشاف ٢: ٢٨.

(٣) ق: إلى الغول.

قولك: أُمرت لأقوم، وأُمرت أن أقوم، يجريان سواء [انتهى].

وما ذكروه عن سيبويه ليس كما ذكر، بل ذلك مذهب الكسائي والفرّاء، زَعَما أنّ لام كي تقع في موضع «أن» في: أردتُ وأُمرتُ، قال تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ۝٢٦﴾ [النساء].

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ أن مصدرية، دخلت على الأمر، فَيَنْسَبِكُ منه مصدر، ولا يلحظ فيه معنى الأمر، ويكون معطوفاً على قوله «لنسلم» أي: للإسلام، ولإقامة الصلاة. والضمير في ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عائد على رب العالمين. «واتقوه» معطوف على «أقيموا» فيكون مأموراً بالإخلاص للإسلام ولإقامة الصلاة ولتقوى الله. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جملة خبرية تتضمن التنبيه والتخويف لمن ترك امتثال ما أمر به من الإسلام والصلاة واتّقاء الله تعالى. وإنما تظهر ثمرة فعل هذه الأعمال وحسرات تركها يوم الحشر والقيامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لما ذكر أنه تعالى إلى جزائه يحشر العالم، وهو منتهى ما يؤول إليه أمرهم، ذكر مبتدأ وجود العالم واختراعه له بالحق، أي: بما هو حق، لا عبث فيه، ولا هو باطل، أي: لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، بل صدرا عن حكمة وصواب، وليستدلّ بهما على وجود الصانع، إذ هذه[1] المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث، لا بدّ لها من صانع واحد عالم قادر مريد، جلّ وتعالى. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ يوم: خبر مبتدأ وهو «قوله» و«الحق» صفة، والتقدير: قوله الحق كائن يوم يقول، كما تقول: اليوم القتال. و﴿كُن﴾ معمول ليقول، و﴿فَيَكُونُ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: فهو يكون. وهذا تمثيل لإخراج الشيء من العدم إلى

(١) ق: هي.

الوجود وسرعته، لا أن ثَمّ شيئاً يؤمرَ.

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الملك مبتدأ، وخبره المجرور قبله. و«يوم» منصوب بما تعلّق به الجار والمجرور، أي: الملك كائن له يوم يُنفخ في الصور، كقوله تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]. ﴿عَٰلِمُ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو عالم. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لمّا ذكر خَلْق الخَلْق وسرعة [إيجاده] لما يشاء وتضمّن البعث إفناءهم قبل ذلك [ناسب ذكر] الوصف بالحكيم. ولمّا ذكر أنه عالم الغيب والشهادة ناسب [١٨٦/ب] ذكر الوصف بالخبير، إذ هي صفة تدلّ على علم ما لَطُفَ إدراكه من الأشياء.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ الآية، لمّا ذكر قوله «قل أندعو من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرّنا»، ناسب ذكر هذه الآية هنا، وكان التذكار بقصة إبراهيم مع أبيه وقومه أنسب، لرجوع العرب إليه، إذ هو جدّهم الأعلى، فَذُكّروا بأن إنكار هذا النبي محمد ﷺ عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدّكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها. ففي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحي الآباء والأجداد، وهم وسائر الطوائف يعظمون إبراهيم عليه السلام. والظاهر أن آزر اسم أبيه، قاله ابن عباس وغيره. وفي كتب التواريخ

أن اسمه بالسريانية تارَخ، فعلى هذا يكون له اسمان كيعقوب وإسرائيل. وهو عطف بيان أو بدل، وامتنع من الصرف للعلمية والعجمة. وقرىء: آزرُ بالضمّ على النداء أي يا آزر. «أتتخذ أصناماً» معمول لقال. وهو استفهام معناه الإنكار والتوبيخ. «أصناماً آلهة» مفعولان لتتّخذ. وبدأ بقوله «أصناماً» تقبيحاً وتبعيداً لأن يتّخذ ما كان من حجر أو خشب معبودات آلهة. لمّا أنكر على أبيه أخبر أنه وقومه في ضلال، وجَعْلُهم مظروفين للضلال أبلغُ من وَصْفهم بالضلال، كأن الضلال صار ظرفاً لهم. و﴿ مُّبِينٍ﴾ ظاهر.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذه جملة اعتراض بين قوله «وإذ قال إبراهيم» منكراً على أبيه عبادة الأصنام، وبين جملة الاستدلال عليهم بإفراد المعبود [الحق] وكونه لا يشبه المخلوقين وهي قوله «فلما جن عليه الليل». والكاف في «كذلك» للتشبيه، و«ذلك» إشارة إلى الرؤية [المفهومة] من قوله «إني أراك» أي: مثل تلك الرؤية نُري، و«نُري» بمعنى أرينا. ويجوز أن تكون الكاف للتعليل بمعنى اللام كأنه قيل: ولذلك[1]. «ملكوت» بمعنى الملك كالرحموت بمعنى الرحمة والرغبوت بمعنى الرغبة، وفي هذا البناء على فَعَلُوت إشعار بالتكثير.

والإراءة هنا بمعنى الإبصار، لأنها تعدّت إلى اثنين: الأول «إبراهيم» والثاني «ملكوت» والهمزة فيها للنقل. أَرْأَيْتُه: جَعَلْتُه يرى، فأصل الفعل رأى بمعنى أبصر يتعدى إلى واحد، فلما أدخل همزة النقل تعدّى إلى اثنين. وعن [علي] كرّم الله وجهه عن النبي ﷺ قال «كشف الله له عن السماوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين»[2]. فليس المعنى مجرّد الإبصار ولكن وقع له

---

(١) ق: وكذلك.

(٢) لم أجده فيما رجعت إليه وانظر البحر ٤: ١٦٥.

معها من الاعتبار والعلم ما لم يقع لأحد من أهل زمانه الذين[1] بُعث إليهم، قاله ابن عباس. وقال الشاعر[2]: [من الوافر]

ولكــن للعيــان لطيــف معنــى ... [لــه ســأل المعــاينــةَ الخليــلُ]

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي: أريناه الملكوت.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ الآية، هذه الجملة معطوفة [على قوله] «وإذ قال إبراهيم» على قول من جعل «كذلك نُري» اعتراضاً، وهو قول الزمخشري. قال ابن عطية: الفاء في قوله «فلما» رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهي ترجّح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية. جنّ عليه الليل وأجنّ: أظلم، هذا تفسير المعنى، وهو بمعنى ستر متعدّياً. قال الشاعر[3]: [من المتقارب]

ومــاءٍ وردتُ قُبَيْــلَ الكَــرى ... وقد جَنَّه السَّدَفُ[4] الأدهمُ

﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ هو الزّهرة، قاله ابن عباس. ووزنه فَوْعل عند البصريين، الواو زائدة، وأصوله الكافان والباء. وقال الصاغاني: حقُّ لفظا كوكب أن يذكر في تركيب و ك ب عند حُذّاق النحويين، فإنّها صُدّرت بكاف زائدة عندهم، إلا [١٨٧/أ] أن الجوهري أوردها في تركيب ك وك ب، ولعلّه سمع فيه الليث، فإنه ذكره في الرباعي ذاهباً إلى أن الواو أصلية انتهى. ليت شعري من حذّاق النحويين الذين تكون الكاف عندهم من حروف الزيادة

---

(١) ق: الذي.

(٢) لم أجده وانظر البحر ٤: ١٦٥.

(٣) البيت للبُرَيق الهذلي في ديوان الهذليين ٣: ٥٦.

(٤) ق: السّدر.

فضلاً عن زيادتها في أول الكلمة، والكاف ليست من حروف الزيادة!.

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ استئناف كلام من إبراهيم حين رأى الكوكب[١]، ولا يريد بذلك الاعتقاد، وإنما ذلك مِثْلُ أن ترى رجلاً ضعيف التركيب ضعيف القوة لا يكاد ينهض، فيقول إنسان: هذا ناصري! بمعنى أنه لا يقدر على نصرتي مثل هذا. وقال الزمخشري[٢]: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد[٣] أن ينبّههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئاً منها[٤] لا يصحّ أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً، أحدثها وصانعاً صنعها، ومدبّراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها وسيرها ومسيرها وسائر أحوالها انتهى. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أفل يأفِل أفولاً أي: غاب، قال ذو الرّمة[٥]:

[من الطويل]

مصابيحُ ليست باللواتي[٦] يقودها نجـومٌ ولا بـالآفـلاتِ الـدّوالـكِ

﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ أي: عبادة الآفلين المتغيّرين من حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، فإن ذلك من صفات الأجرام والله تعالى منزّه عن ذلك.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ لم يأت في الكواكب: رأى كوكباً بازِغاً، لأنه أوّلاً ما ارتقب حتى يبزغ الكوكب لأنه بإظلام الليل تظهر الكواكب،

---

(١) وردت هذه العبارة في ق قبل قول الصاغاني المتقدم.

(٢) الكشاف ٢: ٣١.

(٣) ق: فإذا أراد.

(٤) ق: يود إلى شيء منها.

(٥) ديوانه ص٤٢٥.

(٦) ق: بالتي.

بخلاف حاله مع القمر والشمس؛ فإنه لما أوضح لهم أنّ هذا النيّر وهو الكوكب الذي رآه لا يصحّ أن يكون ربّاً، ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ على سبيل إلحاقه بالكوكب، والاستدلال على أنه لا يصلح للعبادة، فرآه أول طلوعه وهو البزوغ. ثم عمل كذلك في الشمس؛ ارتقبها إذ كانت أنور من القمر وأضوأ وأكبر جرماً وأعمّ نفعاً، ومنها يستمدّ القمر على ما قيل، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم، وبيّن أنها مساوية للقمر وللكوكب في صفة الحدوث. ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلهاً، وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضالّ، فإن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ المشهور في الشمس أنها مؤنثة، وقيل: تذكّر وتؤنّث. فأنّث أولاً على المشهور، وذكّر في الإشارة، على اللغة القليلة مراعاة ومناسبة للخبر، فرجحت لغة التذكير التي هي أقلُّ على لغة التأنيث. ويمكن أن يقال إن أكثر لغة الأعاجم لا يفرقون في الضمائر ولا في الإشارة بين المذكر والمؤنث [ولا علامة عندهم للتأنيث بل المذكر والمؤنث] سواء في ذلك عندهم. فلذلك أشار إلى المؤنث عندنا حين حكى كلام إبراهيم لما يشار به إلى المذكّر. بل لو كان المؤنث بفَرْجٍ لم يكن لهم علامة تدلّ عليه في كلامهم. وحين أخبر تعالى عنها بقوله «بازغة» و«أفلت» أنّث على مقتضى العربية إذ ليس ذلك بحكاية. ولمّا أفلت الشمس ولم يبق شيء يمثّل لهم به وظهرت حجّته وقوي بذلك على منابذتهم، تبرّأ من شِرْكهم وناداهم بقوله «يا قوم» لينبّههم على تحقيق براءته من الشرك.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ الآية، وهذا من التجنيس المغاير؛ الأول فعل والثاني اسم. والمعنى قصدي وعبادتي. و﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السماوات ظرف للكواكب والقمر والشمس معبوداتهم من دون الله تعالى. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ ذكر الظرف الذي فيه أصنامهم المتّخذة منها أو من الخشب والحجارة. وانتصب

﴿حَنِيفًا﴾ على الحال، وذو الحال التاء في «وجّهتُ»، والعامل [فيها] الفعل. وتقدّم تفسير الحنيف[1]، وهو المائل عن الأديان كلّها إلى دين الحقّ. وختم ذلك بانتفاء كونه من المشركين. [١٨٧/ب] وما أحسن خَتْم هذه الجمل: [ختم] أولاً في رؤية الكوكب بقوله «لا أحبّ الآفلين»، وثانياً في تعليق الضلالة على انتفاء الهداية، وثالثاً في البراءة من الشّرك، ورابعاً على سبيل التوكيد في انتفائه أن يكون من المشركين.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ المحاجّة مفاعلة من اثنين مختلفين في حُكْمين، يدلي كلّ منهما بحجّةٍ على صحة دعواه. والمعنى: وحاجّه قومه في توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك. ومحاجّة مثل هؤلاء إنما هي بالتمسّك باقتفاء آبائهم تقليداً، وبالتخويف ممّا يعبدونه من الأصنام، كقول قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ﴿٥٤﴾﴾ [هود]، فأجابهم بأن الله تعالى قد هداه[2] بالبرهان القاطع على توحيده ورفض ما سواه وأنه لا يخاف من آلهتهم. ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ جملة حالية. ﴿وَلَآ أَخَافُ﴾ استئناف إخبار. و﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ استثناء منقطع. ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضرًّا، استثنى مشيئة ربّه تعالى.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٣٥ من البقرة.

(٢) ق: هداهم.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ذكر عقب الاستثناء سعة علم الله تعالى في تعلّقه بجميع الكوائن. وانتصب «علماً» على التمييز المحوّل من الفاعل، أصله: وسع علمُ ربي كلَّ شيء. وأكثر ما يجيء التمييز المحوّل من الفاعل مع الفعل اللازم نحو: تصبّب زيد عَرَقاً. وهنا جاء مع الفعل المتعدي، لأن «كلّ شيء» مفعول بِوَسِع، و«وسع» متعدٍّ، قال تعالى ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة].

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تنبيه على غفلتهم حيث عبدوا ما لا يضرّ ولا ينفع، وأشركوا بالله، وعلى ما جاءهم به من إظهار الدلائل التي أقامها على عدم صلاحية هذه الأصناف(١) للربوبية.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ هذا استفهام معناه التعجب والإنكار، كأنه تعجب من فساد عقولهم حيث خوّفوه خشباً وحجارة، لا تَضرّ ولا تنفع، وهم لا يخافون عقبى شركهم بالله تعالى، وهو الذي بيده النفع والضرّ والأمر كله.

﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ معطوف على «أخاف» فهو داخل في التعجب والإنكار. واختلف متعلّق الخوف؛ فبالنسبة إلى إبراهيم علّق الخوف بالأصنام، وبالنسبة إليهم علّقه بإشراكهم بالله، تركاً للمقابلة، ولئلا يكون الله عديل أصنامهم، لو كان التركيب ولا تخافون الله. وأتى بلفظ «ما» الموضوعة لما لا يعقل، لأن الأصنام لا تعقل إذ هي خشب وحجارة وكواكب. والسلطان: الحجّة. والإشراك لا يصحّ أن يكون عليه الحجّة. وكان لمّا أقام الدليل العقلي على بطلان الشركاء وربوبيّتهم، نفى أيضاً أن يكون على ذلك دليل سمعي. فالمعنى أن ذلك ممتنع عقلاً وسمعاً فوجب اطّراحه.

---

(١) ق: الأصنام.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ لمّا خوّفوه في مكان الأمن، ولم يخافوا في مكان الخوف، أبرز[1] الاستفهام في صورة الاحتمال، وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم. قال الشاعر[2]: [من الكامل]

فَلَئِنْ لَقِيْتُكَ خالياً فَلَتَعْلَمَنْ[3] أيِّي وأيُّكَ فارسَ الأحزاب

أي: أيّنا، ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطَب. وأضاف أيًّا إلى الفريقين، ويعني فريق المشركين وفريق الموحّدين. وعدل عن: أيّنا أحقّ بالأمن أنا أم أنتم، احترازاً من تجريد نفسه، فيكون ذلك تزكية لها. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار، فأخبروني أيّ هذين الفريقين أحق بالأمن.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، الظاهر أنه من كلام إبراهيم، لمّا استفهم استفهام عالمٍ بمن هو الآمِن، نصّ على من له الأَمْن فقال «الذين آمنوا» الآية. «الذين» خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين، أو مبتدأ و«أولئك» مبتدأ ثانٍ، و«لهم الأمن» خبر «أولئك» والجملة من «أولئك» وما [١٨٨/ أ] بعده خبر عن الأول.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الصلة، فلا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن تكون الجملة المنفية حالاً، والعامل فيها «آمنوا» أي: آمنوا غير لابسي إيمانهم بظلم. وما ذهب إليه ابن عصفور من أنّ وقوع الجملة المنفيّة بلم قليل جداً ليس كذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى

(١) ق: اتّزن.

(٢) البيت في المحتسب ١ : ٢٥٤ غير منسوب، وروايته:

فلئن لقيتك خاليين لتعلما أيِّي وأيّك فارسا الأحزاب

(٣) ق: لتعلمن.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]؟ وكذلك ما ذهب إليه ابن خروف، من وجوب الواو فيها، إذا كان فيها ضمير يعود على ذي الحال [خطأ. ألا ترى إلى قوله «لم يمسسهم» فيه ضمير يعود على ذي الحال]، وهو ضمير النصب في «يمسسهم» ولم تدخل الواو على «لم»؟.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، الإشارة بتلك إلى ما وقع به الاحتجاج من قوله «فلما جنّ عليه الليل» إلى قوله «وهم مهتدون»[1]، هذا هو الظاهر. وأضافها إليه تعالى على سبيل التشريف، وكان المضاف إليه بنون العظمة، لا بياء المتكلم. و«آتيناها» أحضرناها بباله، وخلقناها في نفسه، إذ هي من الحجج العقلية. أو آتيناها بوحيٍ منّا، ولقّنّاه إياها، و«تلك» مبتدأ و«حجّتنا» خبره. «آتيناها» خبر ثانٍ. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في موضع الحال من الهاء في «آتيناها» أي: آتيناها مستعلية على قومه، هو على حذف

(١) الآيات ٧٦ - ٨٢ المتقدمة.

مضاف تقديره: على حجج قومه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: مراتب ومنزلة من نشاء. وأصل الدرجات في المكان، ورفعها بالحجة والبيان. وقرىء: درجاتٍ بالتنوين، فَمَنْ: مفعول بنرفع، و«درجات» منصوب على الظرف أي: في درجات. وقرىء مضافاً لِمَن، فدرجات: مفعول بنرفع. ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الظاهر أنه خطاب للنبي ﷺ أخبره بقوله «وتلك حجتنا» إلى آخره.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ الآية، هذه الجملة معطوفة على قوله «وتلك حجّتنا» عطف جملة فعلية على جملة اسميّة. قال ابن عطية: «ووهبنا» عطف على «آتيناها» انتهى. لا يصح هذا، لأن «آتيناها» لها موضع من الإعراب إمّا خبر وإمّا حال ولا يصح في «ووهبنا» شيء منهما. وذَكَر ما منّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرّعت منه أنبياء بني إسرائيل.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي: كل واحد من إسحاق ويعقوب هدينا. وفي قوله «من قبل» تنبيه على قدمه. وفي ذكره لطيفة، وهو أن نوحاً عليه السلام عبدت الأصنام في زمانه، وقومه أول قوم عبدت الأصنام، ووحّد هو الله تعالى. وكذلك إبراهيم؛ عُبدت الأصنام في زمانه، ووحّد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير عائد على نوح عليه السلام لأنه أقرب مذكور، ولأن في المذكورين لوطاً عليه السلام، وليس هو من ذرية إبراهيم، لأنه ابن أخيه، فهو من ذرية نوح عليه السلام.

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ قدّم داود لتقدّمه في الزمان، ولكونه صاحب كتاب، ولكونه أصلاً لسليمان، وهو فرعه.

﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ قرنهما[1]، لاشتراكهما في الامتحان؛ أيوب بالبلاء في جسده ونبذ قومه له، ويوسف بالسجن وتغريبه عن أهله، وفي مآلهما إلى السلامة والعافية. وقدّم أيوب، لأنه أعظم في الامتحان. ﴿وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الأخوّة[2]، وقدم موسى عليه السلام، لأنه كليم الله وصاحب كتاب، وهو التوراة، والمعجزاتِ التي ذكرها الله تعالى في كتابه. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء من إيتاء الحجّة وهبة الأولاد الخيّرين نجزي من كان محسناً في عبادتنا مراقباً في أعماله لنا.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا، وبدأ بزكريا ويحيى لسبقهما عيسى في الزمان، وقدّم زكريا لأنه والد يحيى، فهو أصل، ويحيى فرع [١٨٨/ب] وقدّم عيسى، لأنه صاحب كتاب ودائرة متّسعة. وتقدّم ذكر [أنساب] هؤلاء الأنبياء عليهم السلام[3] إلا إلياس، وهو إلياس بن يسي[4] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وقيل: إلياس هو الخضر عليه السلام. وفي ذكر عيسى عليه السلام هنا دليل على أن ابنِ البنت داخل في الذّرية. وبهذه الآية استدلّ على دخوله في الوقف على الذرية. وسواء أكان الضمير في «ومن ذريته» عائداً على نوح أو على إبراهيم، فتقول: الحسن والحسين ابنا فاطمة عليهما السلام هما من ذرّية رسول الله ﷺ. وبهذه الآية استدلّ أبو جعفر الباقر ويحيى بن يعمر على ذلك. وكان الحجاج بن يوسف طلب منهما الدليل على

(١) ق: قربهما.

(٢) ق: الآخرة.

(٣) في مواضع متفرقة.

(٤) ق: بشير، وما أثبته في الطبري ٧: ١٧٢.

ذلك، إذ كان هو ينكر ذلك، فسكت في قصتين جَرَتا لهما معه. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لا يختص ﴿كُلٌّ﴾ بهؤلاء الأربعة بل يعم جميع من سبق ذكره.

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم مِن هاجر، وهو أكبر ولده، وقيل هو نبي من بني إسرائيل، كان زمان طالوت، وهو المعنيّ بقوله ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ﴿٢٤٦﴾﴾ الآية [البقرة]. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قرأ الجمهور: والْيسع، كأنّ أل دخلت على مضارع وسع يسع، فقيل هو عربي، دخلت أل عليه. وقرىء: واللَّيْسَع، على وزن فَيْعَل كَضَيْغَم. والصحيح أنه في القراءتين أعجمي لزمَتْه أل في القراءتين. وقال ابن مالك: ما قارنت أل نَقْله[1] كالمسمّى بالنضر أو بالنعمان، أو ارتجاله كاليسع والسموأل، فإن الأغلب ثبوت أل فيه. وهذه الأسماء[2] لا تنصرف للعلمية والعجمة إلا اليسع فإنه منصرف يجر بالكسرة ولا ينوّن، وإلا لوطاً ونوحاً فإنهما مصروفان لخفة البناء وسكون وسطهما، وإن كانت العلّتان موجودتين فيهما وهما العَلَمية والعُجْمة الشخصية.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الأولياء، خلافاً لمن ينتمي إلى التصوف، في زعمهم أن الولي أفضل من النبي، كمحمد بن العربي الحاتمي، صاحب الفصوص، وكتاب الفتوح المكّية وعنقاء مغرب، وغير ذلك من كتب الضلال. وفيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الملائكة لعموم «العالمين» وهم الموجودون سوى الله تعالى، فيندرج في العموم الملائكة.

(١) ق: بقله.

(٢) كتبت في ق سهواً: الا.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ المجرور في موضع نصب. قال الزمخشري[1]: عطفاً على «كُلًّا» بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم [انتهى]. فمِنْ للتبعيض، والمراد من آمن منهم نبيًّا كان أو غير نبيّ. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطف على «فضّلنا» أي: اصطفيناهم. وكرّر الهداية على سبيل التوضيح والتوكيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الهدى السابق، وفيه دليل على أن الهدى بمشيئة الله تعالى. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ فرض تقديري، لا يقع من الأنبياء، عليهم السلام كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]. والحبوط مترتب على مستحيل، إذ الأنبياء معصومون، فلا يمكن أن يقع منهم إشراك ألبتّة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من سبق ذكره، فذكر ما فُضّلوا به. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنس للكتب الإلهية كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة، أو الحكم بين الخصوم. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ الضمير في «بها» عائد على النبوة أو على الكتاب والحكم والنبوة. والإشارة بهؤلاء، إلى كفار قريش وكل كافر في ذلك العصر، قاله ابن عباس. ومعنى ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: أرصدنا للإيمان بها. والتوكيل هنا استعارة للتوفيق للإيمان بها والقيام بحقوقها، والقوم الموكّلون بها هم مؤمنو [أهل الكتاب من] أهل المدينة، قاله ابن عباس.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الإشارة بأولئك إلى المشار إليهم بأولئك الأولى وهم الأنبياء السابق [١٨٩/أ] ذكرهم - وأَمَره تعالى أن يقتدي بهداهم، والهداية السابقة هي توحيد الله تعالى وتقديسه عن الشريك، والمعنى: فبطريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة، فلا يمكن أن يؤمر بالاقتداء بالمختلفة، وهي هدى ما لم تُنسخ،

---

(١) الكشاف ٢: ٣٣.

فإذا نُسخت لم [تبق] هدى، بخلاف أصول الدين فإنها كلها هدى أبداً.

﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ متعلق باقتده. وقرىء: اقتده، بالهاء الساكنة وصلاً ووقفاً، وهي هاء السكت، أجروها وصلاً مجراها وقفاً. وقرىء بحذفها وصلاً وإثباتها وقفاً، وهذا هو القياس. وقرىء: اقتده، باختلاس الكسرة في الهاء وصلاً وسكونها وقفاً. وقرىء بكسرها ووصلها بياء وصلاً وسكونها وقفاً، وتؤوّل على أنها ضمير المصدر لا هاء السكت. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: على الدعاء إلى القرآن وهو الهدى والصراط المستقيم. ﴿أَجْرًا﴾ أي: أجرة أتكثّر بها وأُخَصّ بها. إنِ القرآن إلّا ذكرى: أي موعظة لجميع العالمين.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: نزلت في مالك بن الصيف اليهودي إذ قال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام، أتجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين؟ قال: نعم.

[قال]: فأنت الحبر السمين. فغضب ثم قال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»[١]. وأصل القَدْر معرفة الكميّة، يقال: قَدَر الشيء إذا حَزَره وسبره قال ابن عباس[٢]: معناه ما عظموا الله حق تعظيمه. وانتصب «حق قدره» على المصدر وهو في الأصل وصف، أي: قَدْرَه الحقّ، ووصف المصدر إذا أضيف إليه انتصب نَصْبَ المصدر. والعامل في «إذ» «قدروا». ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مفعول بأنزَلَ و«مِن» زائدة تدل على الاستغراق.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية، فيها دليل على أن النقض يقدح في صحة الكلام، وذلك أنه نقض قولهم «ما أنزل الله» بقوله: «قل من أنزل الكتاب»، فلو لم يكن النقض دليلاً على فساد الكلام لما كانت حجة الله مفيدة لهذا المطلوب. و«الكتاب» هنا التوراة. وانتصب ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ على الحال والعامل «أنزل» أو «جاء». ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ المعنى: تجعلونه ذا قراطيس أي: أوراقاً وبطائق. ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ كإخفائهم الآيات الدالّة على بعثة رسول الله ﷺ وغير ذلك من الأحكام التي أخفوها. وأدرج تعالى تحت الإلزام توبيخهم وذمّهم بسوء حملهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ ظاهره أنه خطاب لبني إسرائيل مقصود به الامتنان عليهم وعلى آبائهم، بأن علموا من دين الله تعالى وهدايته ما لم يكونوا به عالمين. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمره تعالى بالمبادرة إلى الجواب، أي: قل الله أنزله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك، لأن الكتاب الموصوف بالنور والهدى الآتي به من أُيّد بالمعجزات [إنما أنزله الله تعالى]. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في باطلهم الذي يخوضون فيه. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه:

---

(١) انظر لباب النقول ص١٠٢.

(٢) ق: ابن عطية.

إنما أنت لاعب. و«يلعبون» حال من مفعول «ذرهم» أو من ضمير «خوضهم». و«في خوضهم» متعلق بذرهم أو «يلعبون» أو حالاً من «يلعبون».

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى القرآن. لما قرّر إنكار[1] من أنكر أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على رسول الله ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة. ولمّا [١٨٩/ب] كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا «ما أنزل الله» وقيل «قل من أنزل الكتاب» كان تقديم وصفه بالإنزال آكَدَ مِن وَصْفه بكونه مباركاً، ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مبارك قطعاً، فصارت[2] الصفة بكونه مباركاً كأنها صفة مؤكدة إذ تضمّنها ما قبلها.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ قرىء بالتاء، والخطاب لرسول الله ﷺ. وقرىء بالياء، والضمير فيه عائد على الكتاب. و﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: أهل أم القرى. وأم القرى مكة، سمّيت بذلك لأنها منشأ الدين، ولِدَحْوِ الأرض منها، ولأنها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضع الحج ومكان أول بيت وضع للناس. و«مَنْ» معطوف على «أهل» المحذوف، ولا يجوز حذف «مَن» والعطف على «أم القرى» لأنه يكون معطوفاً على المفعول به و«حول» ملتزم فيه الظرفية فلا يصحّ عطفه على «أم القرى» فكان يكون مفعولاً به، وهو لا يجوز لالتزامه الظرفية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الظاهر أن الضمير في «به» عائد على الكتاب، أي: الذين يصدّقون بأن لهم حشراً وجزاءً يؤمنون بهذا الكتاب لِمَا انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد. ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ خصّ

---

(١) ق: أن إنكار.

(٢) ق: فسارت.

الصلاة لأنها عماد الدين، ومن كان محافظاً عليها كان محافظاً على أخواتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ الآية، نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين، لأنه عارض القرآن بكلام سخيف، لا يُذكر لسخفه. ويندرج في عموم من افترى مسيلمة والأسود العنسي وكل من افترى على الله كذباً. وتقدّم الكلام على ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة] وفسّروه بأنه استفهام معناه النفي، أي: لا أحد أظلم. ﴿أَوْ قَالَ﴾ معطوف على صلة «مَن». وبدأ أولاً بالعام وهو افتراء الكذب على الله تعالى، وهو أعمّ من أن يكون ذلك الافتراء بادّعاء وحي أو غيره. ثم ثانياً بخاصّ وهو افتراء منسوب إلى وحي من الله تعالى. ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ جملة حالية، أي: غير موحى إليه، لأن من قال: أوحي إلي، وهو مُوحىً إليه صادق. ثم [ثالثاً] بأخصّ مما قبله، لأن الوحي قد يكون بإنزال قرآن وبغيره. وقصّة ابن أبي سرح هي دعواه أنه سينزل قرآناً مثل ما أنزل الله.

وقوله ﴿مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ليس معتقده أن الله أنزل شيئاً، وإنما المعنى: مثل ما أنزل الله على زعمكم. وإعادة «مَن» تدل على تغاير مدلوله لمدلول «مَن» المتقدمة؛ فالذي قال «سأنزل» غير «من افترى» أو «قال أوحي» وإن كان ينطلق عليه ما قبله انطلاق العام على الخاص. وقوله «سأنزل» وعد كاذب، وتسميته إنزالاً مجاز، وإنما المعنى: سأنظم كلاماً يماثل ما ادّعيتم أن الله أنزله. وهذه الآية وإن كان سبب نزولها في مخصوصين، فهي شاملة لكل من ادّعى مثل دعواهم كطليحة الأسدي والمختار بن أبي عبيد وسجاح وغيرهم. وقد ادّعى النبوّة عالم كثير، كان ممّن عاصرناه إبراهيم الغازازي الفقير؛ ادّعى ذلك بمدينة مالقة، وقتله السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي ملك الأندلس بغرناطة، وصلبه.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الآية، «ترى» بمعنى رأيت، و«إذ» ظرف معمول له. وجواب «لو» محذوف أي: لرأيت أمراً عظيماً. و«الظالمون» عام اندرج فيه اليهود والمتنبئة وغيرهم. و«الظالمون» مبتد أخبره «في غمرات». و﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جملة حالية. ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بالضرب، بدليل ﴿يَضۡرِبُونَ [١٩٠/أ] وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ۝٥٠﴾ [الأنفال]. ﴿أَخۡرِجُوٓاْ﴾ معمول لمحذوف تقديره: قائلين أخرجوا أنفسكم. وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح والتشديد من غير تنفيس وإمهال، وقيل من باب التجريد. ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ منصوب بتجزون. ﴿ٱلۡهُونِ﴾ الهوان. والعذاب: ما عُذّبوا به من شدة النّزاع. ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ متعلق بتجزون. ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: قولاً غير الحق. وعلّل جزاء العذاب بالكذب على الله تعالى وباستكبارهم عن آياته أي: عن الاعتبار وعن الإيمان بها.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لي اللات والعزّى فنزلت[١]. «جئتمونا» ماضٍ معناه المضارع. والظاهر أنه من كلام الله تعالى والخطاب للكفّار. «فرادى» واحداً واحداً من غير الأهل والمال والولد. «كما» الكاف للتشبيه تقديره: مجيئاً مثل خَلْقنا إياكم. وانتصب «أول مرة» على الظرف أي: أول زمان. ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: أبرزناكم للوجود. ﴿وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ﴾ أي: تفضّلنا به عليكم من الخول والأهل والمال. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ﴾ منصوب بقوله «وتركتم»، وكنّى به عن الدنيا. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾ وقفهم على الخطأ في عبادتهم الأصنام وتعظيمها، وكانوا[٢] يعتقدون شفاعة الملائكة. ﴿أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ﴾ سدّت «أنّ» مسدّ مفعولَيْ[٣]

---

(١) انظر لباب النقول ص١٠٣.

(٢) ق: وكان.

(٣) ق: مفعول.

«زعمتم». و«فيكم» متعلق بشركاء. والمعنى في استعبادكم، لأنّهم حين دعوهم آلهة، وعبدوها، فقد جعلوا لله شركاء فيهم وفي استعبادهم. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرىء: بينكم، بالرفع على أنه فاعل «تقطع» اتُّسع فيه، وأُسند إليه الفعل، فصار اسماً، كما استعملوه اسماً في قوله تعالى ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ۝٥﴾ [فصلت]. وقرىء: بينكم، بالنصب فقيل: الحركة حركة بناء، وبُني لإضافته إلى المبني، وهو ضمير الخطاب، فيكون فاعلاً بتقطّع، فتستوي القراءتان. ويظهر أن الفاعل ضمير يعود على المصدر المفهوم مما قبله تقديره هو، أي: التواصل الذي كان بينكم وبين شفعائكم. ويظهر أيضاً أن يكون من باب الإعمال: تقدّم «تقطّع» وعطف عليه «وضَلَّ» فتنازعا على «ما» فأعمل الثاني، فما: فاعل بضَلَّ[1]، وأضمر في «تقطّع» الفاعل وهو ضمير «ما». ومفعولا «تزعمون» محذوفان اختصاراً لدلالة ما قبله عليه، تقديره: تزعمونهم شركاء فيكم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن
نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) ق: يضلّ.

سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الظاهر أنه تعالى فالق الحب: شاقُّه فمخرجٌ منه النبات والنوى، فمخرج منه الشجر. والحب والنوى عامّان أي: كل حبة وكل نواة. وهذه إشارة إلى فعل الله تعالى في أن يشق جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة [عنه]. ولمّا كان قد تقدّم ذكر البعث، نبّه على قدرته الباهرة في شقّ النواة مع صلابتها، وإخراجه منها نبتاً أخضر ليّناً، إلى ما بعد ذلك مما فيه [الإشارة إلى] القدرة التامة، والإشارة إلى البعث والنشر بعد الموت. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ تقدم في أوائل آل عمران[1]. وعطف قوله ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ على قوله [«فالق] الحب» اسم فاعل [على اسم فاعل]، ولم يعطفه على «يخرج» لأن قوله «فالق الحب والنوى» من جنس إخراج الحي من الميت، لأن النامي في حكم الحيوان، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم]؟. فوقع قوله «يخرج الحي من الميت» من قوله «فالق الحب والنوى»[2] موقع الجملة المبيّنة، فلذلك عطف على اسم فاعل لا على الفعل. ولما كان هذا مفقوداً في آل عمران وتقدّم قبل[3] ذلك جملتان

(١) الآية ٢٧.

(٢) ق: فالق الإصباح.

(٣) ق: في ذلك.

فعليتان وهما ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ﴾ [آل عمران](1) كان العطف بالفعل. على أنه يجوز أن يكون معطوفاً، وهو اسم فاعل، على المضارع لأنه في معناه كما قال الشاعر(2): [من الرجز]

[١٩٠/ب] بات يُغَشِّيها بِعَضْبٍ باتِرِ   يقصد في أَسْوُقِها وجائرِ

﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾(3) فكيف تُصرفون عن عبادة من له هذه القدرة الباهرة.

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ ﴾ الإصباح مصدر سمّي به الصبح، قال الشاعر(4): [من الطويل]

[ألا أيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلِ   بِصُبْحٍ] وما الإصباحُ فيْكَ بِأَمْثَلِ

وفَلْقُه: إخراج هذا النور المنتشر من ظلمة الليل وغبشها، إذ هو أعظم من فلق الحب والنوى إذ هو من الآثار العلوية، والأحوال الفلكية أعظم(5) وقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية. ﴿ سَكَنًا ﴾ فَعَل بمعنى مفعول كالقَنَص بمعنى المقنوص. وانتصب على أنه مفعول ثانٍ لجاعل، وأضيف «جاعل» إلى المفعول الأول(6) وهو «الليل». وقرىء: وجعل، فعلاً ماضياً ونُصب «الليل». والحُسْبان: جمع حساب كشِهاب وشُهْبان، قال ابن عباس:

---

(١) ق: يولج الليل في النهار.

(٢) البيت في الخزانة ٢: ٣٤٥ غير منسوب.

(٣) ق: تصرفون.

(٤) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص١٨.

(٥) ق: أعظم من فلق الحب والنوى إذ هو من الآثار ووقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية.

(٦) ق: الثاني. وانصرف المصنف عن معالجة قراءة الكوفيين ابتداءً «وجعلَ الليلَ» إلى معالجة قراءة باقي السبعة «وجاعل الليلِ»، ثم عاد إلى ذكرها بعد.

يعني بها عدد الأيام والشهور والسنين. ومن قرأ: وجَعَل: عَطَف «والشمس» وما بعده على مفعولَيْ «جعل». ومن قرأ بالإضافة فقيل: هو عطف على موضع «الليل» لأن موضعه نصب. وهذا لا يجوز على مذهب سيبويه، بل لا يعطف على اسم الفاعل عنده، بل يُضمِر فعلاً تقديره: وجعل الشمس والقمر.

قال الزمخشري[١]: أو يعطفان على محل «الليل». فإن قلت: كيف يكون للّيل محلّ والإضافة حقيقية، لأن اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضيّ، ولا تقول: زيدٌ ضاربٌ عَمْراً أمسِ؟ - قلت: ما هو في معنى الماضي وإنما هو دالّ على جَعْلٍ[٢] مستمر في الأزمنة انتهى.

ملخّصه أنه ليس اسم فاعل ماضياً، فلا يلزم أن يكون عاملاً، فيكون للمضاف إليه موضع [من] الإعراب، وهذا على مذهب البصريين، أن اسم الفاعل الماضي لا يعمل. وأما قوله «إنما هو دالّ على جعل مستمر في الأزمنة» فيكون إذ ذاك عاملاً، ويكون للمجرور بعده موضع، فيعطف عليه «والشمس والقمر». وهذا ليس بصحيح، إذا كان لا يتقيّد[٣] بزمان خاص، وإنما هو للاستمرار، فلا يجوز له أن يعمل ولا لمجروره محلّ. وقد نصّوا على ذلك وأنشدوا[٤]: **[من البسيط]**

أَلْقَيْتَ كاسِبَهُم في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ [فاغفِرْ عليكَ سلامُ الله يا عُمَرُ]

فليس الكاسب ها هنا مقيّداً بزمان. «ذلك» إشارة إلى جميع الأخبار من

(١) الكشاف ٢ : ٣٨.

(٢) ق : على معنى.

(٣) ق : يتقدّر.

(٤) البيت للحطيئة في ديوانه ص٢٠٨.

قوله «فالق الحب» إلى آخره.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ نبّه تعالى على أعظم فوائد خَلْقها، وهي الهداية للطرق والمسالك والجهات التي تُقصد، والقبلة، إذ حركات الكواكب في الليل يُستدلّ بها على القبلة، كما يُستدلّ بحركة الشمس في النهار عليها. والخطاب عام لكل الناس. و﴿لِتَهْتَدُواْ﴾ متعلق بجعل مضمرة، لأنها بدل من «لكم» أي: جعل ذلك لاهتدائكم. و«جعل» معناها [خلق] فهي تتعدى إلى واحد. قال ابن عطية: ويمكن أن تكون بمعنى صيّر، ويقدّر المفعول الثاني من «لتهتدوا» أي: جعل لكم النجوم هداية انتهى. هذا ضعيف لِنُدور حَذْف أحد مفعولَيْ باب ظن وأخواتها[1]. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي: بيّنّا وقسمنا[2]. وخصّ من يعلم، لأنهم الذين ينتفعون بتفصيلها.

﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: موضع استقرار وموضع استيداع، أو مصدر، أي: فاستقرار واستيداع. وقرىء: فمستقِرٌّ، بكسر القاف، اسم فاعل، وعلى هذه القراءة يكون «ومستودَع» بفتح الدال، اسم مفعول. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ لمّا كان الاهتداء بالنجوم واضحاً، ختمه بقوله تعالى [١٩١/أ] «يعلمون» أي: مَن له أدنى إدراك ينتفع بالنظر في النجوم وفائدتها. ولمّا كان الإنشاء من نفس واحدة، والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر[3] وتدقيق، ختمه بقوله تعالى «يفقهون» إذ الفقه هو استعمال فطنة ودقّة نظر وفكر، فناسب خَتْم كل جملة بما يناسب ما

---

(١) ق: وأختها.

(٢) ق: وقصينا.

(٣) ق: فكّ.

صدّر به[١] الكلام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لمّا ذكر إنعامه تعالى بخَلْقنا، ذكر إنعامه علينا بما نقوّم به أَوَدَنا ومصالحنا. و«السماء» هنا السحاب. والظاهر أن معنى[٢] ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يسمّى نباتاً في اللغة، وهو ما يُنمى من الحبوب والفواكه والبقول والحشائش والشجر، ومعنى «كل شيء» مما ينبت. وأشار إلى أن السبب واحد والمسببات كثيرة. وقال الطبري[٣]: «نبات كل شيء» جميع ما ينمو من الحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك، لأن ذلك كلّه يتغذّى وينمو بنزول الماء من السماء. وفي قوله «فأخرجنا» التفات من غيبة إلى تكلّم بنون العظمة. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من النبات. ﴿خَضِرًا﴾ غضّاً ناضراً طريّاً. ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ جملة في موضع الصفة لِخَضِراً[٤]، ويجوز أن يكون استئناف إخبار. ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: من الخَضِر كالقمح والشعير وسائر القطاني، ومن الثمار كالرّمان والصنوبر وغيرهما ممّا يتراكب حبّه، ويركب بعضه بعضاً.

﴿مِن طَلْعِهَا﴾ بدل من قوله «ومن النخل» أعيد فيه حرف الجر. والطَّلْع أول ما يخرج من النّخلة في أكمامه[٥]، أطلعت النخلة: أخرجت طَلْعها. ﴿قِنْوَانٌ﴾ القِنُو بكسر القاف وضمّها: العِذق بكسر العين وهو الكباسة وهو عنقود النخلة، وجَمْعه في القلّة أقناء، وفي الكثرة قنوان، بكسر القاف في لغة الحجاز وضمّها في لغة قيس، وبالياء بدل الواو في لغة ربيعة، وتميم

---

(١) ق: منه.

(٢) ق: المعنى.

(٣) العبارة بمعناها في تفسيره ٧: ١٩٤.

(٤) ق: مخضراً.

(٥) ق: إكماله.

بكسر القاف وضمّها. ويجتمعون في المفرد على قنو، وقنو بالواو، ولا يقولون فيه قُنى ولا قِنى. ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول. وهذه الجملة مبتدأ وخبر، قُطعت ممّا قبلها في الإعراب، لِمَا في تجريدها من عِظَم المنّة والنعمة، إذ كانت من أعظم قوت العرب، ليدلّ على الثبوت والاستقرار، وأن ذلك مفروغ منه، فلها شبه[1] بالحبّ المتراكب في القوت، ولها شبه بالتفكّه كالعنب المذكور، فناسب الاعتراض بهذه الجملة بينهما.

قال ابن عطية: «ومن النخل» تقديره: ويُخرج من النخل، و«من طلعها قنوان» ابتداء، خبره مقدّم، والجملة في موضع المفعول بنخرج انتهى.

هذا خطأ لأنّ ما يتعدّى إلى مفعول واحد، لا تقع الجملة في موضع مفعوله إلا إذا كان الفعل ممّا يعلّق، وكانت الجملة فيها مانع من أن يعمل، في شيء من مفرداتها، الفعل من الموانع المشروحة في علم النحو. و«نخرج» ليست مما يعلّق، وليس في الجملة ما يمنع من عمل الفعل في شيء من مفرداتها؛ إذ لو كان الفعل هنا مقدّراً لتسلّط على ما بعده ولكان التركيب والتقدير: ونخرج من النخل من طلعها قنواناً دانية، بالنصب.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة «أخرجنا» عليه، تقديره: ومُخرجة من طلع النخل قنوان [انتهى]. لا حاجة إلى هذا التقدير، إذ الجملة مستقلّة في الإخبار بدونه. ومن قرأ: قنواناً دانيةً، بالنصب أشرك بين ذلك وبين المنصوب قبله والمنصوب بعده.

﴿وَجَنَّتٍ﴾ معطوف على «نبات». ولمّا جرّد النخل جرّد جنّات الأعناب

---

(١) ق: فلما شبّه.

(٢) الكشاف ٢: ٣٩.

لشرفها. ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ﴾ شجر معروف وزنه فيعول كقيصوم، لقولهم: أرض زتنة، ولعدم فعلون، أو قلّته فمادته مغايرة لمادة الزيت. و«الرمان» فُعّال كالحمّاض والعنّاب، وليس بفعلان لقولهم: أرض رمنة. قال الزّجاج: قرن الزيتون بالرمان لأنهما شجرتان [١٩١/ب] تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره. ﴿مُشۡتَبِهًا﴾[١] أي: بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم. وانتصب «مشتبهاً» على أنه حال من «الرمان» لقربه منه، وحذفت الحال من الأول. أو حال من الأول لسبقه، [فالتقدير]: والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ النظر نظر رؤية، ولذلك عدّاه بإلى، لكن يترتّب عليه الفكر والاعتبار والاستبصار والاستدلال على قدرة باهرة، تنقله من حال إلى حال. ونبّه على حالين: الابتداء وهو وقت ابتداء الإثمار، والانتهاء وهو وقت نضجه. ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ اليَنْع مصدر يَنع بفتح الياء في لغة الحجاز، وبضمّها في لغة بعض نجد، وكذا اليُنْع بضم الياء والنون، واليَنوع بواوٍ بعد الضمّتين. يقال: ينعت الثمرة، إذا أدركت ونضجت، وأينعت أيضاً. قال الفراء: ينع الثمر وأينع أي: احمرّ. والعامل في «إذا» «انظروا»، و«ينعه» معطوف على «ثمره».

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ الإشارة بذلكم إلى جميع ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى إلى آخر ما خلق تعالى وما امتنّ به. والآيات: العلامات الدالّة على كمال قدرته وإحكام صنعته وتفرّده بالخلق دون غيره. وظهور الآيات لا ينفع إلاّ لمن قدّر الله تعالى له الإيمان، وأما من سبق قَدَرُ الله تعالى بالكفر له، فإنه لا ينتفع بهذه الآيات، فنبّه بتخصيص الإيمان على هذا المعنى.

---

(١) ق: متشابهاً.

وانظر إلى حسن مساق هذا الترتيب: لمّا تقدّم أن الله تعالى فالق الحب والنّوى، جاء الترتيب بعد ذلك تابعاً لهذا الترتيب؛ فحين ذكر أنه أخرج نبات كل شيء، ذكر الزرع وهو المراد بقوله «خَضِرًا نخرج منه حبًّا متراكباً»، وابتدأ به كما ابتدأ به في قوله «فالق[1] الحب» ثم ثنّى بما له نوى فقال «ومن النخل من طلعها قنوان» إلى آخره، كما ثنّى به في قوله «والنوى». وقدّم الزرع على الشجر لأنه غذاء، والثمر فاكهة، والغذاء مقدم على الفاكهة، وقدّم النخل على سائر الفواكه، لأنه يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب، وقدّم العنب لأنه أشرف الفواكه وهو في جميع أطواره منتفع به: حنوط، ثم حصرم، ثم عنب، ثم إن عُصر كان منه خلّ، وإن جفّف كان منه زبيب. وقدّم الزيتون لأنه كثير المنفعة في الأكل، وفيما يُعصر منه من الدّهن العظيم النفع في الأكل والاستصباح وغيرهما. وذكر الرّمان، لعجب حاله وغرابته في أنه مركب من قشر وشحم وعَجَم[2] وماء، والثلاثة باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عَفِصة[3] قوية في هذه الصفات، وماؤه بالضدّ ألذّ الأشربة وألطفها وأقربها إلى حيّز الاعتدال، وفيه تقوية للمزاج الضعيف غذاء من وجه ودواء من وجه، فجمع تعالى فيه بين المتضادّين المتعاقدين، فما أبهر قدرته وأعجب ما خلق.

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما اختصّ به من باهر قدرته ومتقن صنعته وامتنانه على عالم الإنسان بما أوجد له ممّا يحتاج إليه في قوام حياته، وبيّن أن ذلك آيات لقوم يعلمون ولقوم يفقهون ولقوم يؤمنون - ذكر

(١) ق: فالحق.

(٢) العَجَم بالتحريك: النواة والواحدة عَجَمة، ويقال: ليس لهذا الرّمان عَجَم.

(٣) طعام عَفِص: فيه مرارة وتقبّض.

ما عاملوا به مُنشئهم من العدم وموجد أرزاقهم، من إشراك غيره له في عبادته، ونسبة ما هو مستحيل عليه، من وصفه بسمات الحدوث من البنين والبنات. والضمير في «وجعلوا» عائد على الكفار، لأنهم مشركون وأهل كتاب[1]. «شركاء» مفعول أول و«لله» متعلق به و«الجن» مفعول ثان. وأعرب أستاذنا العلاّمة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي قال: انتصب «الجنّ» على إضمار فعلٍ جوابَ سؤالٍ مقدَّر [١٩٢/أ] كأنه قيل: من جعلوا لله شركاء؟ قيل: الجنّ، أي: جعلوا الجن. ويؤيد هذا المعنى قراءة أبي حيوة ويزيد بن قطيب: الجنُّ بالرفع، على تقدير: هم «الجنُّ» جواباً لمن قال: من الذين[2] جعلوهم شركاء؟ فقيل له: هم الجن، ويكون ذلك على سبيل الاستعظام لما فعلوه والانتقاص لمن جعلوه شريكاً لله تعالى. فعلى قراءة الرفع في «الجن» يكون «شركاء» مفعولاً أوّلاً و«لله» جار ومجرور في موضع المفعول الثاني أي صيّروا شركاء كائنين لله.

قال الزمخشري[3] وابن عطية: «الجن» مفعول أول لجعلوا، وهو بمعنى صيّروا، «شركاء» مفعول ثانٍ، و«لله» متعلق بشركاء. قال الزّمخشري[4]: فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يُتّخذ لله شريك من كان ملكاً أو جنّيا أو إنسياً، ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء انتهى. وأجاز الحوفي وأبو البقاء[5] أن يكون «الجن» بدلاً من «شركاء» و«لله» في موضع

(١) ق: الكتاب.

(٢) ق: الذي.

(٣) الكشاف ٢: ٤٠.

(٤) الكشاف ٢: ٤٠.

(٥) ق: أجازاهما والحوفي وأبو البقاء.

المفعول الثاني و«شركاء» هو المفعول الأول.

وما أجازاه[١] لا يجوز، لأنه يصحّ[٢] للبدل أن يحلّ محلّ المبدل منه، فيكون الكلام منتظماً، لو قلت: وجعلوا للهِ[٣] الجنّ، لم يصحّ. وشرط البدل أن يكون على نيّة تكرار العامل على أشهر القولين، أو معمولاً للعامل في المُبْدَل منه على قول، وهذا لا يصحّ هنا ألبتّة كما ذكرنا. والضمير في «وخلقهم» عائد على الجاعلين إذ هم المحدَّث عنهم، وهي جملة حالية أي: وقد خلقهم وانفرد بإيجادهم دون مَن اتّخذوه شريكاً له وهم الجنّ، فجعلوا من يخلقهم شريكاً لخالقهم، وهذه غاية الجهالة. ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ قرىء بتخفيف الراء وتشديدها، أي: اختلقوا وافتروا[٤]. ويقال: خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه وافتعله وافتراه وخرصه إذا كذب فيه، قال الفرّاء. وأشار بقوله «بنين» إلى [قول] أهل الكتابين في المسيح وعزير، وبقوله «وبنات» إلى [قول] قريش في الملائكة.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو بديع، وتقدم تفسيره في البقرة[٥]. ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ [لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي: كيف يكون له] ولد، وهذه حاله، أي: أن الولد إنما يكون من الزوجة، وهو لا زوجة [له] فلا ولد له. وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه: أحدها أن مبتدع السماوات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة، لأن الولادة من صفات

---

(١) ق: أجازوه.

(٢) ق: لا يصحّ.

(٣) ق: الله.

(٤) ق: وافترقوا.

(٥) الآية ١١٧.

الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً. والثاني أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو تعالى متعالٍ عن مجانس فلم يصحّ أن يكون له صاحبة، فلم تصحّ الولادة. والثالث أنّه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيّاً عن كلّ شيء، والولد إنّما يطلبه المحتاج إليه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ذلكم الموصوف بتلك الصفات السابقة من كونه بديعاً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً خالقَ الموجودات عالماً بكل شيء - هو الله. بدأ بالاسم العلم، ثم قال «ربكم» أي: مالككم والناظر في مصالحكم، ثم حصر الألوهية فيه، ثم كرر وَصْفَ خَلْقِه كلَّ شيء، ثم أمر بعبادته. لأن من استجمعت فيه هذه الصفات، كان جديراً بالعبادة، وأن يُفرد بها، فلا يُتّخذ معه شريك. ثم أخبر أنه[1] مع تلك الصفات السابقة التي منها خَلْق كل شيء، هو المالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ اختلف المفسرون في الإدراك في هذه الآية ما هو. قيل: الإدراك هنا الرؤية، وبه قال جماعة من الصحابة، وقيل: الإدراك هنا هو الإحاطة بالشيء، وليس بمعنى الرؤية، وهو قول جماعة من الصحابة أيضاً. وسيأتي الكلام على الرؤية في سورة الأعراف في قوله تعالى حكاية عن موسى [١٩٢/ب] عليه السلام في قوله ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠

(١) ق: أن.

عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا وارد على لسان رسول الله ﷺ إلى قوله «وما أنا عليكم بحفيظ». والبصيرة نور القلب الذي يستبصر به، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر. أي: جاءكم من الوحي والتنبيه بما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز، ما هو للقلوب كالبصائر. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فالإبصار لنفسه، أي: نفعه وثمرته. ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: فالعمى عليها، أي: فجدوى العمى عائد على نفسه. والإبصار والعمى كنايتان عن الهدى والضّلال. والمعنى أن ثمرة الهدى والضّلال إنما هي للمهتدي والضالّ، لأن الله تعالى غنيّ عن خلقه، وهذه من الكنايات الحسنة. لما ذكر البصائر أعقبها بالإبصار والعمى، وهذه مطابقة لطيفة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: وَمِثْلَ ما بيّنّا تلك الآيات التي هي بصائر، وصرّفناها، نصرّف الآيات، ونردّدها على وجوه كثيرة. ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ يعني أهل مكة حين تقرأ عليهم القرآن: «دَرَسْتَ». وقرىء: دارست، [أي: دارست] يا محمد غيرك في هذه الأشياء، أي: قارأته وناظرته، إشارة منهم إلى سلمان(١) وغيره من الأعاجم واليهود. وقرىء: دَرستْ، مبنيًّا للفاعل مضمراً فيه، أي: درست الآيات أي: ترددت على أسماعهم حتّى بليت وقدمت في نفوسهم وامّحت. وقرىء: درستَ، أي: يا محمد في الكتب القديمة ما تجيئنا به.

(١) ق: سليمان.

واللام في «وليقولوا، ولنبيّنه» هي لام كي، وقيل لام الصيرورة. والمعنى: وليقول من كفر، ولنبيّن لمن علم وآمن. وتتعلق اللامان بمحذوف تقديره: ليكون كذا، ويكون كذا، صرّفنا الآيات. ولا يتعين ما ذكر المعربون والمفسرون من أنّ اللام في «وليقولوا» لام كي أو لام الصيرورة، بل الظاهر أنها لام الأمر، والفعل مجزوم بها، لا منصوب بإضمار أن، ويؤيده قراءة من سكّن اللام، والمعنى عليه متمكن، كأنه قيل: ومثل ذلك نصرّف الآيات وليقولوا هم ما يقولون من كونك[١] درستها وتعلّمتها، أو درسَتْ هي، أي: بليَتْ، وقَدُمَتْ، فإنه لا يحفل بهم ولا يلتفت إلى قولهم. وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بهم وبما يقولون في الآيات، أي: لنصرّفها وليدّعوا فيها ما شاؤوا فلا اكتراث بدعواهم. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: كأنه قال: وكذلك نصرّف القرآن[٢]، وأعاد الضمير مفرداً، قالوا: على معنى الآيات لأنها القرآن.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ أمره تعالى بأن يتبع ما أوحي إليه وبأن يعرض عمّن أشرك. والأمر بالإعراض عنهم كان قبل نسخه بالقتال والسّوق إلى الدين طوعاً أو كرهاً. والجملة بين الأمْرَين اعتراض أكّد به وجوب اتّباع الوحي، أو في موضع الحال المؤكدة.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ أي: أن إشراكهم ليس في الحقيقة بمشيئتهم وإنما هو[٣] بمشيئة الله تعالى. وظاهر الآية يردّ على المعتزلة، ويتأوّلونها على مشيئة القسر والإلجاء. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ أي: رقيباً تحفظهم من

(١) ق: من كونها.

(٢) ق: نصرّف القرآن نصرف الآيات.

(٣) ق: هي.

الإشراك. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أي: بمسلّط عليهم. والجملتان متقاربتان في المعنى، إلا أن الأولى فيها نفي جعل الحفظ منه تعالى عليهم، والثانية فيها نفي الوكالة عليهم. والمعنى أنّا لم نسلّطك عليهم ولا أنت في ذاتك [بمسلّط] فناسب أن تعرض عنهم، إذ لست مأموراً منّا بأن تكون حفيظاً عليهم، ولا أنت وكيل عليهم من تلقائك.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠ ۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: سببها أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن تنهى محمداً وأصحابه عن سبّ [١٩٣/أ] آلهتنا والغضّ منها، وإما أن نسبّ إلٰهه ونهجوه فنزلت[1]. وحكم هذه الآية باقٍ في هذه الأمة؛ فإذا كان الكافر في منعة، وخيف أن يسبّ الإسلام أو الرسول أو الله عزّ وجلّ، فلا يحلّ لمسلم ذمّ دين الكافر ولا صنمه ولا صليبه، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك. ولما أمر تعالى باتّباع

(١) انظر لباب النقول ص١٠٣.

ما أوحي إليه وبموادعة المشركين، عدل عن خطابه إلى خطاب المؤمنين فنُهوا عن سبّ أصنام المشركين. ولم يُواجَه هو صلى الله عليه وسلم بالخطاب وإن كان هو الذي سَبُّ الأصنام، جاء على لسانه، وأصحابه تابعون له في ذلك لما في مواجهته وحده بالنهي من خلاف ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الكريمة، إذ لم يكن صلى الله عليه وسلم فحّاشاً ولا صخّاباً ولا سبّاباً فلذلك [جاء] الخطاب للمؤمنين فقيل «ولا تسبّوا» ولم يكن التركيب: ولا تسبّ، كما جاء في ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام]. وإذا كانت الطاعة تؤدي إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة، فيجب النهي عنها كما يُنهى عن المعصية.

و﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ هم الأصنام[1]، أي: يدعوهم المشركون. وعبّر عن الأصنام وهي لا تعقل، بالذين، كما يعبّر عن العاقل، على معاملة من لا يعقل معاملة من يعقل، إذ كانوا أنزلوهم منزلة من يعقل في عبادتهم واعتقادهم فيهم أنهم شفعاء لهم عند الله تعالى. وقيل: يُحتمل أن يراد بالذين يدعون، الكفار.

وظاهر قوله ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ أنهم يقدمون على سبّ الله تعالى، إذا سُبّت آلهتهم، وإن كانوا معترفين بالله تعالى، لكن يحملهم على ذلك انتصارهم لآلهتهم وشدة غيظهم لأجلها، فيخرجون عن الاعتدال إلى ما ينافي العقل، كما يقع من بعض المسلمين إذا اشتد غضبه وانحرف فإنه قد يلفظ بما يؤدي إلى الكفر، نعوذ بالله من ذلك. «فيسبوا» جواب للنهي في قوله «ولا تسبّوا»، وانتصب بإضمار أن بعد الفاء كقوله تعالى ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ ٦١﴾ [طه].

---

(١) ق: والذين يدعونهم الأصنام.

و﴿عَدۡوَۢا﴾ مصدر عدا وكذا عُدُوٌّ وعُدْوان بمعنى اعتدى أي[١] ظلم، وانتصب على المصدر أو في موضع الحال المؤكدة، أو على المصدر من غير لفظ الفعل [لأن معنى] «فيسبّوا»: يعتدوا على الله. ومعنى ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: على جهالة بما يجب لله أن يُذكر به، وهو بيان لمعنى الاعتداء.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ أي: مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين زيّنا لكل أمّة. وظاهر «لكل أمة عملهم» العموم في الأمم وفي العمل، فيدخل فيه المؤمنون والكافرون. وتزيينه هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبّة للخير أو الشر والاتّباع لطرقه، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السّوء.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ أي: مقترحة نحو قولهم: تجعل الصفا ذهباً. فقام رسول الله ﷺ ليدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يؤمنوا، هلكوا عن آخرهم معاجلة كما فعل بالأمم الماضية، إذ لم يؤمنوا بالآيات المقترحة، وإن [شئت] تركتهم حتى يتوب تائبهم. فقال: بل حتى يتوب تائبهم[٢]. وإنما اقترحوا آية معيّنة، لأنهم شكّوا في القرآن، ولهذا قالوا: دارست أي: العلماء، وباحثت أهل التوراة والإنجيل، وكابر أكثرهم وعاند. والمعنى أنهم حلفوا غاية حلفهم، وسُمّي الحلف قسماً، لأنه يكون عند انقسام الناس إلى التصديق والتكذيب. وكان إقسامهم بالله غاية في الحلف، وكانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمر عظيماً أقسموا بالله. والجَهد بفتح [١٩٣/ب] [الجيم]: المشقّة، وبضمّها: الطاقة، ومنهم من يجعلها بمعنى واحد. وانتصب «جهد» على

(١) ق: إلى.

(٢) انظر لباب النقول ص١٠٣.

المصدر المنصوب بـ«أقسموا»، أي: أقسموا جهد إقساماتهم، والأيمان بمعنى الإقسامات.

و﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ﴾ إخبار عنهم لا حكاية لقولهم، إذ لو حكى قولهم لكان: لئن جاءتنا آية. ويعامل الإخبار عن القسم معاملة حكاية القسم بلفظ ما نطق المقسِم به. و﴿ءَايَةٞ﴾ لا يُراد به مطلق آية، إذ قد جاءتهم آيات كثيرة، ولكنهم أرادوا آية مقترحة كما ذكرناه. ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ هذا أمر بالردّ عليهم، وأنّ مجيء الآيات ليس لي، إنما ذلك لله تعالى، وهو القادر عليها ينزلها على وجه المصلحة كيف شاء بحكمته، وليست عندي فتُقترح عليّ. «ليؤمنن بها» جواب القسم.

﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قرىء بفتح الهمزة و«ما» استفهامية ويعود عليها ضمير الفاعل في «يشعركم». وأما الخطاب فقيل هو للكفار، وقيل: المخاطب بها المؤمنون. وقرىء: لا تؤمنون، بتاء الخطاب، وقرىء بياء الغيبة. أخبر تعالى عنهم أنهم لا يؤمنون ألبتّة على تقدير مجيء الآية، وتمّ الكلام عند قوله «وما يشعركم». [ومتعلق «يشعركم» محذوف أي: وما يشعركم] ما يكون. فإن كان الخطاب للكفار كان التقدير: ما يكون منكم، ثم أخبر على جهة الالتفات بما علمه من حالهم لو جاءتهم الآيات. وإن كان الخطاب للمؤمنين كان التقدير: وما يشعركم أيها المؤمنون ما يكون منهم، ثم أخبر المؤمنين [بعلمه] فيهم أنهم لا يؤمنون. وقرىء بكسر الهمزة، والمناسب أن يكون الخطاب للكفّار في هذه القراءة، كأنه قيل: وما يدريكم أيها الكفار ما يكون منكم؟ ثم أخبرهم على جهة الجزم أنهم لا يؤمنون على تقدير مجيئها.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ الآية، الظاهر أنها جملة استئنافية أخبر تعالى أنه يفعل بهم ذلك، وهي إشارة إلى الحيرة والتردد وصرف الشيء عن

وجهه. والمعنى أنه تعالى يحوّلهم عن الهدى، ويتركهم في الضلال والكفر. و«كما» للتعليل، أي: نفعل بهم ذلك، لكونهم لم يؤمنوا به أوّل وقت جاءهم هدى الله تعالى كما قال تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة]. ويؤكد هذا المعنى آخر الآية قوله «ونذرهم في طغيانهم» أي: ونتركهم في تغمّطهم[1] في الشر والإفراط فيه يتحيرون. وهذا كلّه إخبار من الله تعالى بفعله بهم في الدنيا. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الكاف للتعليل لا للتشبيه و«ما» مصدرية. والمعنى أنه تعالى يقلّب ما ذكر لكونهم لم يؤمنوا به، أي: بالقرآن أول وقت جاءهم، إذ كان ينبغي المبادرة إلى الإيمان. ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم في طغيانهم يتحيرون.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية، أي: لو آتيناهم الآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة في قولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام] وتكليم الموتى إياهم في قولهم ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ ﴿٣٦﴾﴾ [الدخان] وفي قولهم: أَحْيِ قصيّ بن كلاب وجدعان بن عمرو، وهما أمينا العرب والوسطان فيهم، وحَشْرِ كل شيء عليهم من السباع والدوابّ والطيور وشهادتهم بصدق رسول الله ﷺ.

وجواب «لو»: «ما كانوا ليؤمنوا» وقدّره الحوفي: لما كانوا، قال: وحذفت اللام وهي مرادة، انتهى. وليس قوله بجيّد لأن المنفيّ «بما» إذا وقع جواباً لِلَوْ، فالأكثر في لسان العرب أن لا تدخل اللام[2] على ما، وقلّ دخولها على ما، فلا نقول إن اللام حذفت منه، بل إنما أدخلوها على ما تشبيهاً للمنفي بما بالموجب. ألا ترى أنه إذا كان النفي بلم، لم تدخل اللام على لم، فدلّ على أن أصل المنفيّ أن لا تدخل عليه اللام. واللام في

(١) ق: تغطمهم. وتغمّطهم في الشرّ: إسرافهم فيه حتى غطّى عليهم.

(٢) ق: الكلام.

«ليؤمنوا» لام الجحود أتت بعد كون ماضٍ منفي، وخبر كان محذوف تقديره: ما كانوا أهلاً للإيمان، لأنّ «أنْ» مقدّرة [١٩٤/أ] بعد اللام، فَيَنْسَبِكُ منها مع ما بعدها مصدر، والكثير حذف خبر كان في هذا التركيب، وقد جاء مصرّحاً به في قول الشاعر[١]: [من الوافر]

سموتَ ولم تكن أهلاً لتسمو [ولكـنّ المضيّـع قـد يُصـاب]

و﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء متصل من محذوف، هو علّة وسبب، التقدير: ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله تعالى. والظاهر أن الضمير في «أكثرهم» عائد إلى ما عادت عليه الضمائر قبلُ من الكفار. وإنما قال «أكثرهم» لأن من هؤلاء الكفار من شاء الله تعالى إيمانه فآمن وصدّق. ومعنى «يجهلون» أي: الحق الذي جئت به من عند الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ الآية، المعنى: مِثْل جَعْل هؤلاء الكفار المقترحين الآيات وغيرهم أعداءً لك، جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداءً ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ أي: متمرّدي[٢] الصنفين. ﴿ يُوحِي ﴾ يلقي في خفية. ﴿ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي: بعض الصنف الجنّي إلى بعض الصنف الإنسي، أو يوحي شياطين الجن إلى شياطين الإنس. ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي: مُحسَّنه ومُزيَّنه بالأباطيل ليغروهم ويخدعوهم ويوهموهم أنهم على شيء. وثمرة هذا الجَعْل الامتحان، فيظهر الصبر على ما مُنوا به ممّن يعاديهم فيعظم الثواب والأجر. وفي هذه تسلية لرسول الله ﷺ وتأسٍّ بمن تقدّمه من الأنبياء، وأنك لست منفرداً بعداوة من عاصرك، بل هذه سنّة مَن قبلك من الأنبياء: وانتصب

(١) البيت في شرح التصريح ٢: ٢٣٥ غير منسوب.

(٢) ق: متمردين.

«غرورا» على أنه مفعول من أجله [أي]: للغرور، أو مصدراً في موضع الحال أي: غارّين، والناصب لهما «يوحي».

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الضمير المنصوب جوّزوا أن يكون عائداً على العداوة المفهومة من «عدوّاً» والإيحاء المفهوم من «يوحي» أو على الزخرف أو على القول أو على الغرور أوجهاً خمسة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [أي: اتركهم وما يفترون] من تكذيبك، ويتضمن الوعد والوعيد. وقال قتادة: كل «ذر» في كتاب الله تعالى فهو منسوخ بالقتال. و«ما» بمعنى الذي والعائد محذوف تقديره يفترونه، أو مصدريّة تقديره وافتراءهم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ﴾ أي: ولتميل إليه، الضمير يعود على ما عاد عليه في «فعلوه». ﴿وَلِيَرْضَوْهُ [وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾] وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام. واللام لام كي، وهي معطوفة على قوله «غروراً» لما كان معناه: للغرور، فهي متعلقة بيوحي، ونصب «غروراً» لاجتماع شروط النصب فيه، وعدّي «يوحي» إلى هذا باللام لفوت شرط صريح المصدرية واختلاف الفاعل، لأن فاعل «يوحي» هو «بعضهم» وفاعل «تصغى» هو «أفئدة». وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة؛ لأنه أوّلاً يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضى فيكون فعل الاقتراف، فكان كل واحد سبباً عمّا قبله.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ قال مشركو قريش لرسول الله ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود، وإن شئت من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت. والفاء في «أفغير» للعطف فترتيبها قبل الهمزة، وقُدّمت الهمزة لأن الاستفهام له صدر الكلام، كما قُدّمت على الواو في قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ﴿٤١﴾﴾ [الرعد] وعلى ثمّ في قوله ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس]. وهذا استفهام، معناه النفي، أي: لا أبتغي حكماً غير الله. قالوا: والحَكَم أبلغ من الحاكم لأنه من عُرف منه الحُكْم مرة بعد أخرى، والحاكم اسم فاعل يصدق على المرّة الواحدة. وجوّزوا في إعراب «غير» أن يكون مفعولاً بأبتغي و«حكماً» حال، وعكسه. وأجاز الحوفي وابن عطية أن ينتصب على التمييز عن [١٩٤/ب] «غير» كقولهم: إنّ لنا غيرها إبلاً. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ﴾ وهذه الجملة في موضع الحال، مفصّلاً موضّحاً فيه الأحكام من الأمر والنهي والحلال والحرام والواجب والمندوب والضلال والهدى. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ علم التوراة والإنجيل والزّبور والصحف، والمراد علماء أهل الكتاب. وهذه الجملة [تكون] استئنافاً وتتضمّن الاستشهاد بمؤمني أهل الكتاب والطعن على مشركيهم وحَسَدتهم. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطاب للسامع الذي يمكن أن يجوز منه[1] الامتراء، لا للنبي ﷺ.

﴿كَلِمَتُ[2] رَبِّكَ﴾ هو القرآن وكل ما أخبر به من أمرٍ ونهي ووعدٍ ووعيد. وانتصب «صدقاً وعدلاً» على أنهما مصدران في موضع الحال. ومعنى «وتمت» استمرت، لا أنه كان بها نقص فكملت، كما قال: وتمّ حمزة على إسلامه أي: استمرّ.

---

(١) ق: فيه.

(٢) ق: كلمات. وقراءة أهل الكوفة بالتوحيد، والباقين بالجمع.

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وإن توافق فيما هم عليه من عبادة غير الله تعالى وشرع ما شرعوه بغير إذن الله، لأن الأكثر كانوا إذ ذاك كفاراً. و«الأرض» هنا الدنيا قاله ابن عباس. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ليسوا راجعين في عقائدهم إلى علم ولا فيما شرعوه إلى حكم الله تعالى. ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ أي: يقدّرون ويحزرون، وهذا تأكيد لما قبله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ لمّا ذكر تعالى «يضلوك عن سبيل الله» أخبر بأنه أعلم العالمين بالضلال والضالّ والمهتدي. والمعنى أنه أعلم بهم وبك فإنهم الضالّون وأنت المهتدي[1]. و«من» قيل في موضع جرٍّ على إسقاط حرف الجر وإبقاء عمله. وهذا ليس بجيّد، لأن مثل هذا لا يجوز إلاّ في الشعر. وقال أبو الفتح: في موضع نصب بأعلم بعد حذف حرف الجر. وهذا ليس بجيد، لأن أفعل التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به. وقال أبو علي: في موضع نصب بفعل محذوف أي: يَعلم مَن يضلّ، ودلّ على حذفه «أعلمُ»، ومثله ما أنشده أبو زيد[2]: [من الطويل]

[أَكَـرَّ وأَحْمَـى للحقيقـةِ منهـمُ]　　　وأَضْرَبَ منّا بالسّيوفِ القَوانِسا

أي: يضرب القوانس، وهي إذ ذاك موصولة وصلتها «يضلّ».

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا
تَأۡكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ
إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُوا۟

(١) ق: المنتهي.

(٢) البيت للعباس بن مرداس في ديوانه ص٦٩، وانظر نوادر أبي زيد ص٥٩.

يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ذكر أن السبب في نزولها أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: من قتل الشاة التي ماتت؟ قال: الله تعالى. قالوا: فتزعم أنّ ما قتلت أنت وأصحابك وما قتله الصقر والكلب حلال وما قتله الله حرام؟ فنزلت[١]. ولمّا تضمّنت الآية التي قبلها الإنكار على اتباع المضلّين الذين يحلّون الحرام ويحرّمون الحلال، وكانوا يسمّون في كثير مما يذبحونه اسم آلهتهم - أمر المؤمنين بأكل ما سمّي على[٢] ذكاته اسم الله تعالى لا غيره من آلهتهم. ﴿إِن كُنتُم [بِـَٔايَـٰتِهِۦ] مُؤْمِنِينَ﴾ علّق أكل[٣] ما سمّي الله على ذكاته بالإيمان كما تقول: أطعني إن كنت ابني، أي: إن كنتم مؤمنين، فلا تخالفوا أمر الله تعالى. وهو حثٌّ على أكل ما أحلّ وترك ما حرّم.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: وأيُّ غرض لكم في الامتناع من أكل ما ذكر اسم الله [عليه]؟. وهو استفهام يتضمن الإنكار على من امتنع من ذلك، أي: لا شيء، يمنع من ذلك. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ في هذه السورة لأنها على ما نُقل مكيّة ونزلت في مرة واحدة، فلا يناسب أن يكون «وقد فصّل» راجعاً إلى تفصيل البقرة والمائدة[٤]، لتأخّرهما في النزول عن هذه السورة. والجملة من قوله «وقد فصل» في موضع الحال. وقرىء: فُصّل وحُرّم، مبنيًّا للفاعل ومبنيًّا للمفعول. ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ﴾ استثناء من

(١) انظر لباب النقول ص١٠٣.
(٢) ق: عليه.
(٣) ق: كلّ.
(٤) انظر ٢: ١٧٣، ٥: ٣.

قوله[١] «ما حرم عليكم». ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا[١٩٥/ أ] لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم﴾ أي: وإن كثيراً من الكفار المجادلين في المطاعم وغيرها ليُضلّون بالتحريم والتحليل بأهوائهم وشهواتهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير شرع من الله تعالى بل بمجرد أهوائهم كعمرو بن لحي ومَن دونه من المشركين كأبي الأحوص بن مالك الجشمي وبديل[٢] بن ورقاء الخزاعي وحليس بن يزيد القرشي الذين اتخذوا البحائر [والسوائب].

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الإثم عامّ في جميع المعاصي. لمّا عتب عليهم في ترك أكل ما سمّي الله عليه، أُمروا بترك الإثم ما فُعل ظَاهراً وما فُعل في خفية، فكأنه قال: اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها، قاله أبو العالية وغيره. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ في الدنيا ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة، وهذا وعيد وتهديد للعصاة.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية، لما أمر بأكل ما سُمّي الله عليه وكان مفهومه أنه لا يؤكل مما لم يُذكر اسم الله عليه، أكّد هذا المفهوم بالنصّ عليه. والظاهر تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه عمداً، كأن ترك التسمية، أو نسياناً، وبه قال ابن عباس وجماعة. وروي عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وجماعة من التابعين أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۝٥﴾ [المائدة] وأجازوا ذبائح أهل الكتاب وإن لم يُذكر اسم الله عليها. ولا يُسمّى ذلك نسخاً بل هو تخصيص. وروي عن علي وعائشة وابن عمر أنّ الآية محكمة ولا يجوز لنا أن نأكل من ذبائحهم إلّا ما ذُكر اسم الله تعالى عليه. والضمير في «وإنه» عائد إلى المصدر الدالّ

---

(١) ق: قولكم.

(٢) ق: بدايل.

عليه «تأكلوا» أي: وإنّ الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه «لفسق» لمعصية. وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب وتضمّنت معنى التعليل فكأنه قيل: لفسقه.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عام في شياطين الإنس والجن كما في أول الحزب ﴿عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام]. ﴿لَيُوحُونَ﴾ ليلقون في خفاء ووسوسة بالتمويه والتلبيس. ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يعني من الإنس ككفّار قريش وغيرهم. ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ علّة للإيحاء. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ هذا إخبار أنّ ما صدر من جدال الكفار للمؤمنين ومنازعتهم فإنما هو من الشياطين، يوسوسون لهم به، ولذلك ختم بقوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [أي: وإن أطعتم أولياء الشياطين إنكم لمشركون] لأن طاعتهم طاعة للشياطين، وذلك إشراك. وجواب الشرط زعم الحوفي أنه «إنكم لمشركون» على حذف الفاء أي: فإنكم لمشركون[1]. وهذا الحذف من الضرائر فلا يكون في القرآن وإنما الجواب محذوف، و«إنكم لمشركون» جواب قسم محذوف، التقدير: والله إن أطعتموهم، وكقوله تعالى ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة]. وأكثر ما يستعمل في هذا التركيب بتقديم اللام المؤذنة بالقسم المحذوف على إن الشرطية كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر]. وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ

(١) عبارة ق: وزعم الحوفي أنه على حذف أي: فإنكم لمشركون.

نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن
يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا
كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت في حمزة وأبي جهل؛ رمى [أبو جهل] رسول الله ﷺ بفرث، فأُخبر بذلك حمزة حين رجع من قَنَصه[1] وبيده قوس، وكان لم يسلم، فغضب، فعلا بها أبا جهل وهو يتضرّع إليه ويقول: سفّه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا، فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله تعالى، وأسلم[2]. ولما تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين مثّل تعالى فيهما بأن شبّه المؤمن بعد أن كان كافراً بالحي المجعول له نور يتصرف به كيف سلك، والكافر بالمختبط في الظلمات المستقرّ فيها دائماً ليظهر الفَرْق بين الفريقين. والموت والحياة والنور والظلمة مجاز، فالظلمة مجاز عن الكفر، والحياة مجاز عن [١٩٥/ب] الإيمان، والموت مجاز عن الكفر. والجملة من قوله «أومن» معطوفة على ما قبلها، والأصل تقديم واو العطف وإنما قُدّمت الهمزة لأن الاستفهام له صدر الكلام، وكان الأصل: وَأَمَنْ. و«من» مبتدأ موصول بمعنى الذي، و«كان ميتا» صلته.

ولما ذكر صفة الإحسان إلى العبد المؤمن، نسب ذلك إليه فقال «فأحييناه وجعلنا» وفي صفة الكافر لم ينسبها إلى نفسه بل [قال]: «كمن مثله في

(١) القَنَص محرّكة: الصيد.

(٢) انظر السيرة النبوية ١: ٣١١.

الظلمات». و«كمن» في موضع خبر «من» المتقدمة الذكر. ومَن في «كمن» موصولة، و«مثله في الظلمات» من مبتدأ وخبر صلة لمَن. و«مثله» معناه صفته وعبّر بها عن الذات كأنه قيل: كمن هو في الظلمات. و«في الناس» إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس، فذكر أن منفعة المؤمن ليست مقتصرة على نفسه، وقابل تصرّفه بالنّور وملازمة النّور له باستقرار الكافر في الظلمات وكونه لا يفارقها، وأكّد ذلك بدخول الباء في خبر ليس. ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ الإشارة بذلك إلى إحياء المؤمن، أي: كما أحيينا المؤمنين زُيّن للكافرين، فقابل الشيء بضدّه.. أو إشارة إلى كينونة الكافر في الظلمات زُيّن للكافرين، فقابل الشيء بمثله.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾ أي: مثل ذلك الجعل: جَعْلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها جَعَلنا في كل قرية. وتضمّن ذلك فساد حال الكفرة المعاصرين لرسول الله ﷺ؛ إذ حالهم حال من تقدّمهم من نظرائهم الكفّار. و«جعلنا» بمعنى صيّرنا، ومفعولها [الأول] «أكابر مجرميها» و«في كل قرية» المفعول الثاني. و«أكابر» على هذا مضاف إلى «مجرميها». وأجاز أبو البقاء أن يكون «مجرميها» بدلاً من «أكابر». وأجاز ابن عطية أن يكون «مجرميها» المفعول الأول و«أكابر» المفعول الثاني والتقدير: مجرميها أكابر. وما أجازاه خطأ وذهول عن قاعدة نحوية وهو أنّ أفعل التفضيل إذا كان بمِن ملفوظاً بها أو مقدّرة أو مضافة[1] إلى نكرة، كان مفرداً مذكّراً دائماً سواء أكان لمذكر أم لمؤنث، مفرد أو مثنى أو مجموع. فإذا أُنّث أو ثُنّي أو جُمع طابق[2] ما هُوَ له في ذلك ولزمه أحد أمرين: إما الألف واللام، أو الإضافة إلى معرفة.

---

(١) ق: أو مقدّراً أو مضافاً.

(٢) ق: فيما.

وإذا تقرر هذا فالقول بأنّ «مجرميها» بدل من «أكابر»، أو أن «مجرميها» مفعول أول، خطأ لالتزامه أن يبقى «أكابر»[١] مجموعاً وليس فيه ألف ولام، ولا هو مضاف إلى معرفة، وذلك لا يجوز. والهاء في «مجرميها» عائدة على «قرية» فلا يجوز تقديم «أكابر مجرميها» على قوله «في كل قرية». ولام «ليمكروا» لام «كي»، وهي متعلقة بجعلنا. وحذف الممكور به للعلم به. «وما يشعرون» أن وباله يحيق بهم. ولا يعني نفي شعوره على الإطلاق، وهو مبالغة في نفي العلم إذ نفى عنهم الشعور الذي هو يكون للبهائم.

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ قال مقاتل: روي أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقًّا لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً. وروي أن أبا جهل [قال]: تُزاحمنا بنو[٢] عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كَفَرَسَيْ رِهانٍ قالوا: منّا نبيّ يوحىٰ إليه. والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت. والضمير في «جاءتهم» عائد على الأكابر، وتغيية[٣] إيمانهم بقولهم «حتى نؤتى» دليل على تمحّلهم في دعواهم واستبعاد منهم أنّ الإيمان لا يقع منهم البتة، إذ علّقوه بمستحيل عندهم. وقولهم ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ليس فيه إقرار بالرسل من الله تعالى، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكّم والاستهزاء، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتّبعوا رسل الله. والمِثْليّة كونهم تجري على يدهم المعجزات فيحيي لهم [١٩٦/أ] الأموات ويفلق لهم البحر ونحو ذلك كما جرت على أيدي الرسل.

---

(١) ق: الكافر.

(٢) ق: بني.

(٣) غيّا الشيء: جعل له نهاية.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ[1]﴾ هذا استئناف إنكار عليهم، وأنه تعالى لا يصطفي للرسالة إلاّ من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالجهة التي يضعها فيها، وقد وضعها فيمن اختاره لها، وهو محمد رسول الله ﷺ دون أكابر مكّة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ونحوهما. وقالوا: «حيث» لا يمكن إقرارها على الظرفية فتكون مفعولاً على السّعة ولا يعمل فيه «أعلم» إذ أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، فاحتاجوا إلى إضمار فعل يفسّره «أعلم» تقديره: يعلم حيث. هكذا قال الحوفي والتبريزي وابن عطية وأبو البقاء. وما أجازوه من أنه مفعول به على السعة أو مفعول به على غير السّعة تأباه قواعد النحو؛ لأن النحاة نصّوا على أن «حيث» من الظروف التي لا تتصرّف، وشذّ إضافة لدى إليها وجرّها بالباء وبفي، ونصّوا على أن الظرف[2] الذي يُتوسّع فيه لا يكون إلا متصرّفاً. وإذا كان الأمر كذلك امتنع نصب «حيث» على المفعول به لا على السعة ولا على غيرها.

والذي يظهر لي إقرار «حيث» على الظرفية المجازية على أن يضمّن «أعلم» معنى ما يتعدى إلى الظرف، فيكون التقدير: الله أنفذ علماً حيث يجعل رسالاته، أي: هو نافذ العلم في الموضع الذي يجعل فيه رسالته، والظرفية هنا مجاز كما قلنا. ﴿سَيُصِيبُ﴾ وعيد شديد. و﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ عام في الأكابر وغيرهم والصَّغار مقابل الأكابر وهو الهوان والذلّ[3]، يقال منه: صغُر يصغُر وصغِر يصغَر واسم الفاعل صاغر وصغير. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في عَرَصة القيامة. وقدّم الصغار على العذاب لأنهم تمرّدوا عن اتّباع رسول

(١) ق: رسالاته، وقرأ ابن كثير وحفص بالتوحيد وباقي السبعة على الجمع.

(٢) ق: الظروف.

(٣) ق: والذي.

الله ﷺ وتكبّروا طلباً للعزّ والكرامة، فقوبلوا أوّلاً بالهوان والذلّ. ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾ الباء للسبب. وختمها بقوله ﴿يَمْكُرُونَ﴾ مراعاة لقوله «ليمكروا فيها».

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ الآية، [قال] مقاتل: نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. والهداية هنا مقابلة الضلال، والشرح كناية عن كونه قابلاً للإسلام متوسعاً لقبول تكاليفه. والضمير في «يجعل» عائد على الله تعالى. ومعنى «يجعل» يصيّر لأن الإنسان يُخلق أوّلاً على الفطرة وهي كونه مهيَّأً لما يُلقىٰ إليه ولما يُجعل فيه؛ فإذا أراد الله تعالى إضلاله [أضلّه] وجعله لا يقبل الإيمان. وقرىء: ضَيْقاً، بحذف الياء التي هي عين الكلمة؛ إذ وزنه قبل الحذف فَيْعِل، وبعد الحذف فَيْل[١] كقولهم: لَيِّن ولَيْن. ﴿حَرَجًا﴾ اسم فاعل من حرِج يَحْرَج فهو حَرِج. ومن قرأ: حَرَجاً فهو وصف بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ هذه الجملة التشبيهية معناها أنه كما يزاول أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد ويمتنع[٢] من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة. وقرىء: يَصّاعد ويُصَعِّد ويَصْعد. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ الإشارة بذلك إلى المصدر المفهوم من قوله «يجعل». و﴿ٱلرِّجْسَ﴾ بمعنى العذاب، قاله أهل اللغة. وتعدية «يجعل» بعلى يحتمل أن يكون معناها يُلقي كما تقول: جعلتُ متاعك بعضه فوق بعض، وأن يكون بمعنى يصيّر. و«على» في موضع المفعول الثاني.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا

(١) ق: فيع.

(٢) ق: يقصد ويمنع.

بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى
وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ
مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى
عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة بقوله «وهذا» إلى القرآن والشرع الذي جاء به رسول الله ﷺ، قاله ابن عباس. وانتصب «مستقيماً» على أنه حال مؤكدة، لأن صراطه تعالى لا يكون إلا مستقيماً. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: بيّنّاها، ولم نترك فيها إجمالاً ولا التباساً. ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتدبّرون بعقولهم.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: الجنة. والسلام من أسماء الله تعالى كما قيل في الكعبة بيت الله [١٩٦/ب] وأضيفت إليه تشريفاً، قاله ابن عباس. ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في نزله وضيافته كما تقول: نحن اليوم عند فلان، أي: في كرامته وضيافته. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أي: مواليهم أو ناصرهم على أعدائهم أو متولّيهم بالجزاء على أعمالهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[1] جَمِيعًا﴾ أعرب بعضهم «يوم» مفعولاً باذكر محذوفة. والأولى أن يكون الظرف معمولاً لفعل القول المحكيّ به النّداء: أي ويوم نحشرهم نقول يا معشر الجن، وهو أولى مما أجاز بعضهم من نصبه باذكر مفعولاً به لخروجه عن الظرفية. قال الزمخشري[2]: «ويوم نحشرهم» منصوب بمحذوف، أي: واذكر يوم نحشرهم، أو: ويوم نحشرهم وقلنا: يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاعته انتهى. وما ذكره يستلزم حذف جملتين: جملة وقلنا وجملة العامل. ويجوز أن يكون «يا معشر» في موضع الحال لقول[3] محذوف تقديره: قائلين، على سبيل التوبيخ لهم، ويكون قوله ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ مقولَهم «ربنا» على سبيل الاستعذار، والعامل في «يوم»: «قال النار مثواكم». والضمير في «يحشرهم» عائد على الثقلين، و«جميعاً» توكيد. ومعنى الاستكثار هنا إضلالهم منهم كثيراً وجَعْلهم أتباعهم كما تقول: استكثر فلان من الأشياع. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: وقال أولياء الجن من الإنس أي: الكفار من الإنس.

﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ﴾ أي: انتفع بعضنا ببعض. وانتفاع الإنس بالشياطين حيث دلّوهم على الشهوات وعلى التوصّلات إليها، وانتفاع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم، روي هذا المعنى عن ابن عباس. والأجل الذي بلغوه هو الموت. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ أي: مكان

(١) ق: نحشرهم، وهي قراءة نافع.

(٢) الكشاف ٢: ٤٩. وعبارته مضطربة في ق ونصّها: ويوم نحشرهم منصوباً بفعل مضمر غير الفعل القول واذكر تقدير عندهم ويوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاً عنه.

(٣) ق: بفعل.

ثوائكم أي: إقامتكم. قال أبو علي: هو عندي مصدر لا موضع، وذلك لعمله في الحال التي هي «خالدين»، والموضع ليس فيه[١] معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوائكم. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ اضطربت أقوال المفسرين في هذا الاستثناء ولا أراه يصحّ منها شيء، ونظيره الاستثناء الذي في سورة هود وسيأتي الكلام في ذلك[٢]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ هذه صفتان مناسبتان لهذه الآية، لان تخليد هؤلاء الكفرة في النار صادر عن حكمته.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضًۢا﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين بمعنى أنه يحفظهم وينصرهم، بيّن أن الكافرين بعضهم أولياء بعض في الظلم والخزي. قال قتادة: يجعل بعضهم وليّ بعض في الكفر والظلم، يريد ما تقدّم من ذكر الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع حيث أعذر الله إليهم بإرسال الرسل، فلم يقبلوا منهم. والظاهر أنّ من الجن رسلاً إليهم، وقيل: رسل الجن هم رسل الإنس فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله[٣]، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف] قاله ابن عباس. ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ الظاهر أن هذه حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله «ألم يأتكم» لأن الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً [لهم]. والمعنى: قالوا شهدنا على أنفسنا بإتيان

(١) ق: فيها.

(٢) انظر تفسير الآيتين ١٠٧ و١٠٨ من سورة هود.

(٣) يريد ما روي من أن قوماً من الجن استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم فأخبروهم كما جرى لهم مع الرسول، فيقال لهم رسل الله وإن لم يكونوا رسله حقيقة. انظر البحر ٤: ٢٢٢.

الرسل إلينا وإنذارهم إيّانا هذا اليوم. وهذه الجملة نابت مناب بلى هنا، وقد صرّح بها في قوله ﴿قَالُواْ بَلَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام]. أقروا بأن حجّة الله تعالى لازمة لهم وأنهم محجوجون بها. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا إخبار عنهم من الله تعالى وتنبيه على السبب الموجب لكفرهم وإفصاح لهم [١٩٧/أ] بأذمّ الوجوه الذي هو الخداع.

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: لِمَ كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون، والثانية ذمٌّ لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلّة نظرهم، وأنهم قوم غرّتهم الحياة الدنيا واللّذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربّهم واستيجاب عذابه، وإنما قال [ذلك] تحذيراً للسامعين [من] مثل حالهم، انتهى. لم تتكرر الشهادة لاختلاف المُخبِر ومتعلَّقها؛ فالأولى إخبارهم عن أنفسهم، والثانية إخباره تعالى عنهم. والأولى متعلّقها الإقرار بإتيان الرسل إليهم قاصّين[٢] ومنذرين، والثانية إخباره تعالى أنهم شهدوا على أنفسهم بالكفر، فهذه الشهادة غير الأولى.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ الآية، الإشارة بـ«ذلك» إلى أقرب مذكور دلّ عليه الكلام وهو إتيان الرسل قاصّين الآيات ومنذرين بالحشر والحساب والجزاء، بسبب انتفاء إهلاك القرى بظلمٍ وأهلُها لم يُنبَّهوا ببعثة الرسل إليهم والإعذار إليهم والتقدم بالإخبار بما يحلّ بهم إذا لم يتّبعوا الرسل. وفي الحديث[٣] «ليس أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى، فمن أجل

(١) الكشاف ٢ : ٥١.

(٢) ق: قاصدين.

(٣) أخرجه مسلم ٤ : ٢١١٤ من حديث عبد الله بن مسعود.

ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل».

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكلٍّ من المكّلفين مؤمنهم وكافرهم درجات متفاوتة من جزاء أعمالهم وتفاوتها بنسبة بعضهم إلى بعض، وبنسبة عمل كل عامل، فيكون هو في درجة، فيترقّى إلى أخرى كاملة ثم إلى أكمل. والظاهر اندراج الجن في العموم في الجزاء كما اندرجوا في التكليف وفي إرسال الرسل إليهم. قال ابن عباس: جزاء مؤمني الجن إجارتهم من النار. وقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب لأن الثواب فضل من الله فلا يقال به لهم إلاّ ببيان من الله، ولم يذكر الله تعالى في حقّهم إلاّ عقوبة عاصيهم لا ثواب طائعهم. وخالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد فقالا: لهم ثواب على الطاعات وعقاب على المعاصي، ودليلهما عمومات الكتاب والسنّة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ أي: ليس بساهٍ، تخفى عليه مقادير الأعمال وما يترتب عليها من الأجور، وفي ذلك تهديد ووعيد.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ لمّا ذكر تعالى من أطاع ومن عصى، والثواب والعقاب، ذكر أنه هو الغني من جميع الجهات، لا تنفعه الطاعة، ولا تضرّه المعصية. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ هذا فيه إظهار القدرة التامة والغنى المطلق. والخطاب عام للخلق كلهم كما قال تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء] فالمعنى: إن يشأ إفناء هذا العالم واستخلاف ما يشاء من الخلق غيرهم فعل. و﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾ في موضع مصدر على غير المصدر لقوله «ويستخلف»، لأن معناه: وينشىء. والمعنى: إن يشأ الإذهاب والاستخلاف يذهبكم ويستخلف، فكلٌّ من الإذهاب والاستخلاف معذوق[1] بمشيئته تعالى. و«من» لابتداء الغاية.

(١) أي: متصل بها ومتعلق.

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ ظاهر «ما» العموم في كلّ ما يوعدونه. والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وإما أن تكون للعموم مطلقاً. ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي: فائتين، [يقال]: أعجزني الشيء، أي: فاتني. أي: لا تفوتوننا عمّا أردنا بكم.

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ قرىء: على مكاناتكم، على الجمع حيث وقع. فمَن جَمعَ قابل جمع المخاطبين [بالجمع] ومن أفرد فعلى الجنس. والمكانة مصدر مكن، فالميم أصلية وبمعنى المكان. ويقال: المكانة مفعل ومفعلة من الكون، فالميم زائدة. فيحتمل أن [١٩٧/ ب] يكون المعنى: على تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. والظاهر أن «من» مفعول بتعلمون، وأجازوا أن تكون مبتدأً اسم استفهام وخبره «تكون» والفعل معلّق والجملة في موضع المفعولين معدّى إلى مفعولين. و﴿ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ مآلها وما تنتهي إليه. و«الدار» يظهر منه أنها دار الآخرة.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ

ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ روى ابن عباس وغيره أن العرب كانت تجعل من غلّاتها وزروعها وأثمارها وأنعامها جزءاً تسمّيه لله تعالى وجزءاً تسمّيه لأصنامها، وكانت عادتها أن تبالغ وتجتهد في إخراج نصيب الأصنام أكثر منها في نصيب الله، إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله تعالى. فكانوا إذا جمعوا الزّرع فهبّت الرّيح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم تركوه ولم يردّوه إلى نصيب الله تعالى، ويفعلون عكس هذا. وإذا تفجّر من سقيٍ ماءٌ جعلوه لله، في نصيب شركائهم تركوه، وبالعكس سدّوه. وإذا لم ينجح شيء من نصيب آلهتهم، جعلوا نصيب الله تعالى لها، وكذا في الأنعام. وإذا أجدبوا أكلوا نصيب الله، وتركوا نصيبها. لمّا ذكر الله تعالى قُبْح طريقة مشركي العرب في إنكارهم البعث، ذكر أنواعاً من جهالاتهم تنبيهاً على ضعف عقولهم.

وفي قوله تعالى «مما ذرأ» أنه تعالى كان أولى أن يُجعل له الأجود والأحسن وأن يكون جانبه تعالى هو الأرجح؛ إذ كان تعالى هو الموجِد لما جعلوا له منه نصيباً والقادر على تنميته دون أصنامهم العاجزة عمّا يحلّ بها، فضلاً عن أن تخلق شيئاً أو تنمّيه. ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذا ذمّ بالغ عامّ لأحكامهم، فيندرج فيه حكمهم هذا السابق وغيره، أو في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يُشرع لهم. و«ما» مصدرية و«ساء» متعدّية حذف مفعولها لدلالة المعنى تقديره: ساءهم حكمُهم، أي: جلب لهم السوء.

وقد ذكروا في «ما» إعراباً غير ما ذكرناه منبّهاً عليه في البحر[(١)]. وقال ابن عطية: و«ما» في موضع رفع كأنه قال: ساء الذي يحكمون. ولا يتّجه عندي أن يُجرى هنا «ساء» مجرى بئس ونعم لأن المفسَّر هنا مضمر، ولا بدّ من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن يُجرى مجرى بئس في قوله ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف] لأن المفسَّر ظاهر في الكلام [انتهى].

هذا قول من شدا يسيراً من العربية، ولم ترسخ قدمه فيها؛ بل إذا جرت «ساء» مجرى نعم وبئس كان حكمها حكمها[(٢)] سواء، لا تختلف في شيء البتّة من فاعل مضمر أو ظاهر وتمييز. ولا خلاف في جواز حذف المخصوص بالمدح والذم والتمييز فيها لدلالة الكلام عليه. فقوله «لأن المفسَّر هنا مضمر ولا بدّ من إظهاره باتفاق النحاة» إلى آخره كلام ساقط، ودعواه الاتفاق - [مع أن الاتفاق] على خلاف ما ذكر - عجبٌ عُجاب!.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، الإشارة بـ«ذلك» إلى المصدر المفهوم من قوله «وجعلوا لله» تقديره: ومِثْلُ ذلك الجَعْل في التزيين زيّن لكثير ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾ بالوأد، وبنحرهم للآلهة. وكان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد لي كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم، كما حلف عبد المطّلب. وقرىء: زَيَّن مبنيًّا [للفاعل، والفاعل «شركاؤهم» و«قَتْلَ» مصدر مضاف للمفعول. وقرىء: زُيّن مبنيًّا] للمفعول، و«قَتْلُ» مفعول ما لم يُسَمَّ فاعله، و«شركاؤهم» مرفوع بفعل محذوف يدل عليه ما قبله تقديره: زَيّنه شركاؤهم. ونظيره قراءة «يُسَبَّح له»[(٣)] مبنيًّا للمفعول،

---

(١) انظر ٤: ٢٢٨.

(٢) ق: حكمها.

(٣) ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴿٣٧﴾﴾ [النور].

و«رجال» فاعل بفعل محذوف يدلّ عليه ما قبله تقديره: يسبّحه رجال. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه [١٩٨/أ] نصب «أولادهم» وجرّ «شركائِهم»، فصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل والمفعول. وهي مسألة مختلف في جوازها؛ فجمهور البصريين يمنعونها، متقدموهم ومتأخّروهم، ولا يجيزون ذلك إلاّ في ضرورة الشعر، وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح، لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصّريح المحض ابن عامر الآخذِ القرآنَ عن عثمان بن عفّان رضي الله عنه قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب، ولوجودها أيضاً في لسان العرب في عدة أبيات، من ذلك قول الشاعر[1]: [من م. الكامل]

فَـزَجَجْتُهَـا بِمِـزَجَّـةٍ زَجَّ القلوصَ أبي مَزادَه

قال الزمخشري[2]: والفصل بينهما - يعني المضاف والمضاف إليه - [بغير الظرف فشيء] لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً كما سَمُج ورُدَّ [في]:

زجّ القلوص أبي مزادة

فكيف به في الكلام المنثور؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟. والذي حمله على ذلك أنه [رأى] في بعض المصاحف «شركائهم» مكتوباً بالياء. ولو قرئ بجرّ الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب، انتهى.

---

(١) البيت غير منسوب في الخصائص ٢: ٤٠٦ ومعاني القرآن ١: ٣٥٨، وانظر تعليق الفراء ٢: ٨١، والكتاب ١: ١٧٦.

(٢) الكشاف ٢: ٥٤.

أعجب من عجمي ضعيف في النحو يردّ على عربي صريحٍ محضٍ قراءةً متواترة موجوداً نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظنّ هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيّرتهم هذه الأمّة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم [ومعرفتهم] وديانتهم.

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ [ليهلكوهم] من الردى وهو الهلاك. ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ ﴾ ليخلطوا. و﴿ دِينَهُمْ ﴾ ما كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشّرك. ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ الظاهر عَوْد الضمير إلى القتل، لأنه المصرّح به والمحدَّث عنه. والواو في «فعلوه» عائدة على الكثير. ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: يختلقون من الإفك على الله تعالى والأحكام التي يشرعونها[١]، وهو أمر تهديد ووعيد. و«ما» مصدرية أي: وافتراءهم، أو موصولة بمعنى الذي، والعائد من الصلة محذوف تقديره: يفترونه.

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أعلَمَ تعالى بأشياء مما شرعوها وتقسيمات ابتدعوها والتزموها على جهة الفرية والكذب منهم على الله تعالى: أفردوا من أنعامهم وزروعهم وأثمارهم أشياء، وقالوا: هذا حِجْر أي: حرام ممنوع. والحِجْر بمعنى المحجور كالذِّبْح والطِّحْن. والضمير في «يطعمها» عائد على الأنعام والحرث. ومفعول «نشاء» محذوف تقديره: من نشاء طعمه، قيل هم الرجال دون النساء، وقيل هم سدنة الأصنام وخَدَمَتُها. ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ هي البحائر والسوائب والحوامي، وتقدم تفسيرها في المائدة[٢]. ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي: عند الذبح. وقال أبو وائل وجماعة: لا يحجّون عليها ولا يُلَبّون، كانت تُركب في كل وجه إلا الحج.

---

(١) ق: والأحكام الذي يشرعوها.

(٢) انظر تفسير الآية ١٠٣ من المائدة.

﴿ ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ ﴾ أي: اختلاقاً وكذباً على الله تعالى حيث قسموا هذه الأنعام هذا التقسيم، ونسبوا ذلك إلى الله تعالى. وانتصب «افتراءً» على أنه مفعول من أجله، أو مصدر على إضمار فعل، أي: يفترون.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ وهي الأجنّة، يقولون في أجنّة البحائر والسوائب ما ولد منها حيًّا، فهو خالص للذكور، ولا تأكل منه الإناث، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث. وقيل: ما في [١٩٨/ب] بطونها: اللبن. وقال الطبري[١]: اللفظ يعمّ الأجنّة واللبن انتهى. والظاهر الأجنّة لأنها التي في البطن حقيقة، وأما اللبن ففي الضرع لا في البطن إلا بمجاز بعيد. «ما» مبتدأ خبره «خالصة» أُنِّث على المعنى، ثم ذُكِّر في قوله «ومحرّم» حملاً على لفظ ما. وقرىء: خالصةً، بالنصب على الحال، وخالصاً، بالنصب على الحال أيضاً، وقرىء: خالصٌ، بالرفع بغير تاء خبر لِمَا. «لذكورنا» متعلق بخالص أو بخالصة.

﴿ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةً فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ ﴾ كانوا إذا خرج الجنين ميتاً اشترك في أكله الرجال والنساء، وكذلك ما مات من الأنعام الموقوفة نفسها. وقرىء: وإن تكن، بتاء التأنيث، ميتةً بالنصب، أي: وإن تكن الأجنّة التي تخرج ميتةً. وقرىء: وإن يكن، بالتذكير، ميتةٌ بالرفع على أنّ كان تامّة، وأجاز الأخفش أن تكون الناقصة، وجعل الخبر محذوفاً، التقدير: إن يكن في بطونها ميتةٌ. قال الزمخشري[٢]: وقرأ أهل مكّة: وإن تكن ميتةٌ، بالتأنيث والرفع، انتهى. إن عنى بقوله «أهل مكة» ابن كثير فهو وهم، وإن عنى غيره من أهل مكة فيمكن أن يكون نقلاً صحيحاً. وهذه القراءة التي عزاها

(١) تفسيره ٨: ٣٦.
(٢) الكشاف ٢: ٥٥.

الزمخشري لأهل مكة هي قراءة ابن عامر. ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أي: جزاء وصفهم.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ كان جمهور العرب لا يئدون بناتهم وكان بعض ربيعة ومضر يئدونهنّ وهو دفنهنّ أحياء، فبعضهم يئد خوف العَيْلة والإقتار، وبعضهم خوف السّبي، فنزلت هذه الآية في ذلك إخباراً بخسران فاعل ذلك. ولما تقدّم تزيين قتل الأولاد وتحريم ما حرّموه في قولهم «هذه أنعام وحرثٌ حِجْر» جاء هنا تقديم قَتْل الأولاد وتلاه التحريم. وفي قوله ﴿سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ إشارة إلى خفة عقولهم وجهلهم بأن الله تعالى هو الرازق والمقدّر السبي وغيره.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ
مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ
إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١
وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ
نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ
ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ
شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا
لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ
أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ
خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ
ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ

أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها [أن الله تعالى] لما أخبر عنهم أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله، أخذ يذكر ما امتنّ به عليهم من الرزق الذي تصرّفوا فيه بغير إذنه تعالى، افتراءً منهم عليه واختلاقاً؛ فذكر نوعي الرزق النباتي والحيواني [فبدأ بالنباتي كما بدأ به في الآية المشبهة لهذا[١]، واستطرد منه إلى الحيواني] إذ كانوا قد حرّموا أشياء من النوعين. ويقال: عرشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسَمْكاً، تنعطف عليه القضبان. ﴿وَالنَّخْلَ﴾ قدّمه على الزّرع، لأن العرب كانت أحوج إليه، إذ كانت غالب أقواتهم. واختلاف أُكُله وهو المأكول، هو بأنّ لكل نوع من أنواع النخل والزرع طعماً ولوناً وحجماً ورائحة يخالف به النوع الآخر، والمعنى: مختلفاً أكل ثمره. وانتصب «مختلفاً» على أنه حال مقدّرة، لأنه لم يكن وقت الإنشاء مختلفاً.

قال الزمخشري[٢]: والضمير في «أُكُله» عائد على النخل والزرع، وأُفرد لدخوله في حكمه بالعطف انتهى. هذا ليس بجيد، لأن العطف بالواو لا يجوّز إفراد ضمير المتعاطفين.

وقال الحوفي: والهاء في «أكله» عائدة على ما تقدم من ذكر هذه الأشياء المنشآت انتهى. وعلى هذا لا يكون ذو الحال النخل والزرع فقط بل جميع ما أنشأ، لاشتراكها كلّها في اختلاف المأكول. ولو كان كما زعم لكان

(١) الآية ١٣٦ السابقة.

(٢) الكشاف ٢ : ٥٦، والعبارة فيه بالمعنى.

التركيب: مختلفاً أُكُلها، إلاّ إن أُخذ على حذف مضاف أي: ثمر جنّات، وروعي هذا المحذوف فقيل: أُكُله بالإفراد على مراعاته، فيكون ذلك نحو قوله ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴿٤٠﴾﴾ [النور] أي: أو كذي ظلمات. والظاهر عَوْده على أقرب مذكور وهو الزرع، فتكون قد [١٩٩/أ] حذفت حال النخل لدلالة هذه الحال عليها، التقدير: النخل مختلفاً أُكُله والزرع مختلفاً أُكله، كما في: زيد وعمرو قائم. وتقدّم الكلام على قوله ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ لمّا كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته، والحشر وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد العدم، وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم، وهو عجب الذَّنَب - قال ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام] إشارة إلى الإيجاد أوّلاً وإلى غايته. وهنا لمّا كان معرض الغاية الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال «كلوا من ثمره إذا أثمر» فحصل بمجموعهما الحياة الأبديّة والحياة الدنيوية السريعة الانقضاء، وتقدّم النظر، وهو الفكر، على الأكل لهذا السبب. وهذا أمر بإباحة الأكل، واستُدلّ به على أن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق، وقيّده بقوله «إذا أثمر» وإن كان من المعلوم أنه إذا لم يثمر فلا أكل، تنبيهاً على أنه لا ينتظر به محلّ إدراكه واستوائه، بل متى أمكن الأكل منه فعل.

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ والذي يظهر عَوْد الضمير على ما عاد عليه «من ثمره» وهو جميع ما تقدّم ذكره مما يمكن أن يؤكل إذا أثمر. والحقّ هنا مجمل، واختُلف فيه، أهو الزكاة أم غيرها. وقرىء: حصاده، بفتح الحاء وكسرها. ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ روى ابن عباس أن ثابت بن قيس بن شماس جذّ(١)

---

(١) أي: قطع.

خمس مئة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً فنزلت[١]. ولمّا أمر تعالى بالأكل من ثمره وبإيتاء حقّه نهى عن مجاوزة الحدّ فقال «ولا تسرفوا»، وهذا النهي يتضمن أفراد الإسراف فيدخل فيه الإسراف في أكل الثمرة حتى لا يبقى منها شيء للزكاة، والإسراف في الصدقة بها حتى لا يُبقي لنفسه ولا لعياله شيئاً.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ هذا معطوف على «جنّات» [أي]: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً. والحمولة ما يُحمل عليه من الإبل والبقر، والحمولة الأحمال، ويقال الحَمول بفتح الحاء بمعنى الحمولة، قال الشاعر[٢]:

[من الكامل]

حَـيِّ الحَمـولَ بجـانـب العَـزْلِ   [إذ لا يـلائـم شَكْلُهـا شَكْلـي]

والفرش: الغنم. وقدّم الحمولة على الفرش، لأنها أعظم في الانتفاع، إذ ينتفع بها في الأكل والحمل.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تقدم تفسير ما أحلّ المشركون وما حرّموا ونسبتهم ذلك إلى الله تعالى[٣]. فلمّا قام الإسلام، وثبتت الأحكام، جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف بن أبي الأحوص الجشمي فقال: يا محمد، بَلَغنا أنك تُحلّ أشياء. فقال له: إنكم قد حرّمتم أشياء على غير أصل وإنما خلق الله تعالى هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم، أَمِن قِبَل الذكر أم من قبل الأنثى؟ فتحيّر مالك بن عوف وسكت. [وقوله] «ثمانية أزواج» بدل من قوله «حمولة وفرشاً». ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ هو

(١) انظر لباب النقول ص١٠٤.
(٢) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٢٣٦.
(٣) انظر تفسر الآيتين ١٣٨، ١٣٩ من السورة.

معروف بسكون الهمزة وفتحها، ويقال: ضئين، وكلاهما اسم جمع لضائنة وضائن. ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ هو معروف بسكون العين وفتحها، ويقال: مِعيز ومِعزى وهي أسماء جموع لماعزة وماعز وأمعوز.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وهذا الاستفهام هو استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع[1] حيث نسبوا ما حرّموه إلى الله تعالى. وكانوا يحرّمون الذكور[2] مرّة والإناث مرّة، ومرّة أولادها ذكوراً وإناثاً ومختلطة، فبيّن تعالى أن هذا التقسيم هو من قبل أنفسهم لا من قبله تعالى. ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾ أي: إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله، فأخبروني عن الله تعالى بعلم، لا بافتراء [١٩٩/ب] ولا بتخرّص، وأنتم لا علم لكم بذلك، إذ لم يأتكم بذلك وحي من الله تعالى، فلا يمكن منكم تنبئة بذلك. وفصل بهذه الجملة المعترضة بين المتعاطفين على سبيل التقريع لهم والتوبيخ، حيث لم يستندوا في تحريمهم إلا إلى الكذب البحت والافتراء.

[﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ﴾] الإبل: الجمال للواحد والجمع، ويجمع على آبال، وتأبّل الرجل: اتخذ إبلاً. وقولهم: ما أبلّ الرجل، في التعجب، شاذ. وقدّم الإبل على البقر لأنها أغلى ثمناً وأغنى نفعاً في الرحلة وحمل الأثقال عليها، وأصبر على الجوع والعطش، وأطوع وأكثر انقياداً في الإناخة والإثارة. ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ انتقل من توبيخهم في نفي علمهم بذلك إلى توبيخهم في نفي شهادتهم، وذلك وقت توصية الله إياهم بذلك، لأن مُدْرَك الأشياء المعقول والمحسوس، فإذا انتفيا فكيف يحكم بتحليل أو تحريم؟.

(١) ق: وتقرير.

(٢) ق: الذكر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرّمه، فلم يقتصر على افتراء الكذب في حقّ نفسه وضلالها حتى قصد بذلك ضلال غيره، فسنّ هذه السنّة الشنعاء، وغايته بها إضلال الناس، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نفى هداية من وجد منه الظلم، فكان مَن فيه الأظلمية أولى بأن لا يهديه. وهذا عموم في الظـاهر، وقد تبيّن تخصيصه مما يقتضيه الشرع.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية، لمّا ذكر أنهم حرّموا ما حرّموا افتراءً على الله، أمره تعالى أن يخبرهم بأن مُدْرَك التحريم إنما هو بالوحي من الله تعالى وبشرعه لا بما تهوى الأنفس وما تختلقه على الله تعالى. وجاء الترتيب هنا كالترتيب الذي في البقرة والمائدة[1]، وجاء هنا هذه المحرّمات منكّرة والدم موصوفاً بقوله «مسفوحاً» والفسق موصوفاً بقوله «أهلّ لغير الله به»، وفي تينك السّورتين معرّفاً؛ لأن هذه السورة مكّية فعلق بالمنكّر، وتانك السورتان مدنيتان فجاءت تلك الأسماء معارف بالعهد وحوالة على ما سبق تنزيله في هذه السورة. و﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ استثناء منقطع لأنه كون والمحرّم عين من الأعيان. ويجوز أن يكون بدلاً على لغة بني تميم، ونصباً على لغة الحجاز كقوله تعالى ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء] لأن اتّباع الظن ليس بعلم، فهو استثناء منقطع. واسم كان ضمير مذكر، يعود على محرّم تقديره: إلاّ أن يكون المحرّم ميتةً.

ومعنى ﴿مَّسْفُوحًا﴾ أي: مصبوباً سائلاً كالدم في العروق لا كالطحال والكبد، وقد رُخّص في دم العروق بعد الذبح. وقيل لأبي مجلز: القِدْر تعلوها الحمرة من الدم. فقال: إنما حرّم الله تعالى المسفوح. وفي قوله «أو

(١) انظر ٢: ١٧٣، ٥: ٣.

دماً مسفوحاً» دلالة على أن دم البقّ والبراغيث والذباب ليس بنجس لأنه ليس بمسفوح. والظاهر أن الضمير في «فإنه» عائد على «لحم خنزير» وزعم أبو محمد بن حزم أنه عائد على «خنزير» فإنه أقرب مذكور، وإذا احتمل الضمير العَوْد على شيئين، كان عَوْده على الأقرب أرجح. وعورض بأن المحدَّث عنه إنما هو اللحم، وجاء ذكر الخنزير على سبيل الإضافة إليه، لا أنه هو المحدَّث عنه المعطوف. ويمكن أن يقال: ذكر اللحم تنبيهاً على أنه أعظم ما ينتفعُ به من الخنزير، وإن كان سائره مشاركاً له في التحريم بالتّنصيص على العلّة من كونه رجساً، أو لإطلاق الأكثر على كلّه، أو الأصل على التابع، لأن الشّحم أو غيره تابع للّحم.

﴿أَوْ فِسْقًا﴾ معطوف على ما قبله. قال الزمخشري[1]: فـ«فسقاً» منصوب على أنه مفعول من أجله مقدّم على العامل فيه وهو «أُهلّ» كقوله[2]:

[من الطويل]

طَرِبْتُ وما [شوقاً] إلى البِيْضِ أَطْرَبُ [ولا لَعِباً منّي وذو الشّوق يَلْعَبُ]؟

[٢٠٠/أ] وفصل بين «أو» و«أهلّ» بالمفعول له انتهى.

هذا إعراب متكلَّف جدًّا، وتركيب هذا[3] الإعراب خارج عن الفصاحة وغير جائز على قراءة من قرأ: إلا أن يكون ميتةٌ، بالرفع فيبقى الضمير في «به» ليس له ما يعود عليه، ولا يجوز أن يُتكلّف محذوف حتى يعود الضمير عليه، فيكون التقدير: أو شيء أُهلّ لغير الله به، لأن مثل هذا لا يجوز إلاّ في ضرورة الشعر. وسمّي ما «أهل لغير الله به» فسقاً لتوغّله في باب الفسق،

---

(١) لم أجده في الكشاف.

(٢) البيت للكميت في الهاشميات ص٣٦، وانظر الأغاني ١٦: ٣٤٩.

(٣) ق: وتركيب على هذا.

ومنه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ [ٱسْمُ] ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام] و﴿ أُهِلَّ ﴾ في موضع الصفة له.

واختلفوا في هذه الآية أهي محكمة، وهو قول الشعبي وابن جبير، فعلى هذا لا شيء محرّم من الحيوان إلا فيها، وليس هذا مذهب الجمهور، وقيل هي منسوخة بآية المائدة[١]. وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط. وقيل: جميع ما حُرّم داخل في الاستثناء سواء كان بنصّ قرآن أم حديث عن رسول الله ﷺ بالاشتراك في العلّة التي هي الرجسيّة. والذي نقوله إن الآية مكيّة وجاءت عقب قوله «ثمانية أزواج»، وكان الجاهلية يحرّمون ما يحرّمون من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي من هذه الثمانية، فالآية محكمة وأخبر فيها أنه لم يجد فيما[٢] أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر، ولذلك أتت صلة «ما» جملةً مصدَّرة بالفعل الماضي، فجميع ما حُرّم بالمدينة لم يكن إذ ذاك سبق منه وحيٌ فيه بمكّة، فلا تعارض بين ما حُرّم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه بمكّة تحريمه. وذكر الخنزير وإن لم يكن من ثمانية الأزواج لأنّ من الناس من كان يأكله إذ ذاك، ولأنه أشبه شيء بثمانية الأزواج في كونه ليس سبعاً مفترساً، يأكل اللحوم، ويتغذى بها، وإنما هو من نمط الثمانية في كونه يعيش بالنبات، ويرعى كما ترعى الثمانية. وذكر المفسّرون أشياء مما اختلف أهل العلم فيه ذكرناه في البحر المحيط[٣].

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ تقدّم تفسير مثل هذا[٤]. ولما كان صدر الآية مفتتحاً

---

(١) الآية ٣ من المائدة.

(٢) ق: فيها.

(٣) انظر ٤: ٢٤٢.

(٤) انظر البقرة ٢: ١٧٣.

بخطابه تعالى بقوله «قل لا أجد» اختتم الآية بالخطاب فقال «فإنّ ربك» وذلك [يدلّ] على اعتنائه به بتشريف خطابه افتتاحاً واختتاماً.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا بيّن أنّ التحريم إنما يستند للوحي الإلهي، أخبر أنه حرّم على بعض الأمم السابقة أشياء، كما حرّم على أهل هذه الملّة أشياء، مما ذكرها في الآية قبل. فالتحريم إنما هو راجع إلى الله تعالى في الأمم جميعها. وفي قوله «حرّمنا» تكذيب لليهود في قولهم إن الله لم يحرّم علينا شيئاً، وإنما حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه. قال ابن عباس وجماعة: هي ذوات الظلف كالإبل والنّعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالوزّ والبطّ ونحوهما، واختاره الزّجاج.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ﴾ «من» متعلّقة بحرّمنا، والضمير المثنّى في شحومهما عائد على البقر والغنم. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي: إلا الشحم الذي حملته ظهور البقر والغنم، قال ابن عباس: هو ما علق بالظهر من الشحم، وبالجنب من داخل بطونهما. و«ما» موصولة والضمير العائد على «ما» محذوف تقديره: حملته الحوايا، إن قُدّر وزنها فواعل فجمع حاوية كراوية وروايا، أو جمع حاوياء كقاصعاء وقواصع[1]. وإن قُدّر وزنها فعائل فجمع حويّة كمطيّة ومطايا، وتقرير صيرورة ذلك إلى حوايا مذكور في علم التصريف. وهي الدوارة التي تكون في بطن الشياه. قال علي بن عيسى الرّماني: هو كل ما يحويه البطن فاجتمع واستدار. وقال ابن عباس وجماعة: هي المباعر.

---

(١) القاصعاء: حجر اليربوع والجمع قواصع.

قال الزمخشري[(١)]: و«أو» في «أو الحوايا» بمنزلتها في قولهم: جالس [٢٠٠/ب] [الحسن[(٢)] أو ابن سيرين انتهى. الذي قاله النحويون إنّ «أو» في هذا المثال للإباحة، فيجوز له أن يجالسهما معاً وأن يجالس أحدهما. والأحسن في الآية إذا قلنا إن ذلك معطوف على «شحومهما» أن تكون «أو» فيه للتفصيل، فصّل بها ما حرّم عليهم من البقر والغنم. ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ﴾ معطوف على «ما حملت ظهورهما». ﴿بِعَظْمٍۚ﴾ هو شحم الإلية لأنه على العصعص، قاله السدّي وابن جريج. ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ «ذلك» إشارة إلى المصدر الدالّ عليه التحريم كأنه قال: ذلك التحريم جزيناهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ إخبار عمّا حرّم الله تعالى عليهم لا أن ذلك من تحريم إسرائيل.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الظاهر عَوْد الضمير على أقرب مذكور وهم اليهود، أي: فإن كذّبوك فيما أَخبرتَ به أنه تعالى حرّمه عليهم، وقالوا لم يحرّمه الله تعالى، وإنما حرّمه إسرائيل. ﴿فَقُل﴾ متعجباً من حالهم ومعظماً لافترائهم مع علمهم بما قلت. ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة هذا الجرم، كما تقول عند رؤية معصية عظيمة: ما أحلم الله تعالى، وأنت تريد: لإمهاله العاصي. و﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عام فيندرج فيه مكذّبو الرسول وغيرهم من المجرمين، ويحتمل أن يكون من وقوع الظاهر موقع المضمر أي: ولا يُردّ بأسه عنكم. وجاء معمول «قل» الأول جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الجملة الفعلية، فناسبت الأبلغيّة في وصفه تعالى بالرحمة الواسعة. وجاءت الجملة الثانية فعلية ولم تأت اسمية فيكون التركيب: وذو بأس؛ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين، وباب الرحمة

---

(١) الكشاف ٢: ٥٨.

(٢) بداية سقط ورقة من الأصل استدركت من المطبوع.

أوسع، فلا تعادل.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الآية، هذا إخبار بمستقبلٍ وقد وقع، وفيه إخبار بمغيّبٍ معجزةً لرسول الله ﷺ، فكان كما أخبر به تعالى. وهذا القول ورد منهم حين بطل احتجاجهم، وثبت الرّد عليهم فعدلوا إلى أمر حقّ، وهو أنه لو أراد الله تعالى أن لا يقع شيء من ذلك، لم يقع. وأورد ذلك على سبيل الحوالة على المشيئة والمقادير، مغالطةً وَحَيْدةً عن الحقّ وإلحاداً لا اعتقاداً صحيحاً. و«الذين أشركوا» عام في مشركي قريش وغيرهم. ومفعول «شاء» محذوف تقديره: لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا. «ولا آباؤنا» معطوف على الضمير في «أشركنا» ولم يُحْتَجْ إلى توكيد إذ فَصل بين الضمير والمعطوف عليه لفظة «لا» ولو كان في [غير] القرآن لاحتيج إلى فصل بالضمير كما تقول: ما قمنا نحن وزيد، وهذا على مذهب أهل البصرة، والكوفيون لا يشترطون الفصل بالضمير في العطف.

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: مِثْلُ ذلك التكذيب المشار إليه في قوله «فإن كذّبوك» كذّبَتِ الأمم السالفة. فمتعلّق التكذيب هو غير قولهم «لو شاء الله ما أشركنا» أي: بنحو هذه الشبهة من ظنّهم أنّ تَرْكَ الله لهم دليل على رضاه بحالهم. ﴿ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ غاية لامتداد التكذيب إلى وقت

العذاب، لأنه إذا حلّ العذاب لم يبق تكذيب ألبتّة. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ هذا استفهام على معنى التهكم بهم، وهو إنكار أي: ليس عندكم من علم تحتجّون به فتظهرونه لنا، ما تتبعون في دعاواكم إلا الظن الكاذب الفاسد، وما أنتم إلا تكذبون أو تقدّرون وتحزرون. و«من علم» مبتدأ زيدت فيه «مِن» و«عندكم» الخبر. فتخرجوه جواب الاستفهام، وهو منصوب بحذف النون كقوله تعالى ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف]. و﴿إن﴾ في الموضعين نافية تقديره: ما تتبعون، وما أنتم.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: البالغة في الاحتجاج الغالبة كل حجّة، حيث خلق عقولاً يُفكَّر بها وأسماعاً يُسمعَ بها وأبصاراً يُبصَر بها، وكلّ هذه مدارك للتوحيد ولاتّباع ما جاءت به الرسل عن الله تعالى.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ الآية، بيّن تعالى كذبهم على الله تعالى وافتراءهم في تحريم ما حرّموا منسوباً إلى الله تعالى فقال ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام] وقال ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]. ولما انتفى هذان الوجهان انتقل إلى وجه ثالث ليس بهذين الوجهين، وهو أن يستدعي منهم من يشهد لهم بتحريم الله تعالى ما حرّموا. و«هلم» هنا على لغة الحجاز اسم فعل، وهي متعدية ولذلك انتصب المفعول به بعدها، وتأتي لازمة كقوله تعالى ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب] أي: أقبلوا إلينا. وإضافة الشهداء إليهم تدلّ على أنهم غيرهم. وهذا أمر على سبيل التعجيز أي: لا يوجد من يشهد لهم بذلك شهادة حقّ، لأنها دعوى كاذبة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الظاهر أنه يدلّ على مغايرة الذوات، و«الذين كذبوا بآياتنا» يعمّ جميع من كذّب الرسول وإن كان مُقِرّاً بالآخرة كأهل الكتاب. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قِسْمٌ من المكذّبين بالآيات وهم عبدة الأوثان والجاعلون لربّهم عديلاً وهو المِثْل، عدلوا به الأصنام في العبادة والألوهية. ويحتمل أن يكون العطف من

تغاير الصفات والموصوف واحد، وهو قول الأكثرين. ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بيعدلون ومفعول ﴿يَعْدِلُونَ﴾ محذوف والتقدير: وهم يعدلون بربّهم غيره من الآلهة التي عبدوها.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ لمّا ذكر ما حرّموا افتراء عليه ثم ذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر ما حرّمه تعالى عليهم من أشياء نهاهم عنها وما أوجب عليهم من أشياء أمرهم بها. وتقدم شرح «تعالوا» عند قوله ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. والخطاب في «قل» لرسول الله ﷺ، وفي «تعالوا» قيل للمشركين وقيل لمن بحضرة رسول الله ﷺ من مؤمن وكتابي ومشرك. وسياق الآيات يدلّ على أنه للمشركين، وإن كان حكم غيرهم في ذلك حكمهم. أمره تعالى أن يدعو جميع الخلق إلى سماع ما حرّم الله تعالى بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر.

و﴿أَتْلُ﴾ أسرد وأنصّ من التلاوة وهي إتباع بعض الحروف بعضاً. وقال كعب الأحبار: هذه الآية مفتتح التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم إلى آخر الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات هي

المحكمات التي ذكرها الله تعالى في سورة آل عمران[١] أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تُنسخ قطّ في ملّة، وقد قيل: إنها العشر الكلمات، أنزلت على موسى عليه السلام. و﴿مَا﴾ بمعنى الذي وهي مفعولة بأَتْلُ، أي: أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم. و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلّق بحرَّمَ، لا بأَتْلُ. ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ الظاهر أنّ «أنْ» تفسيرية و«لا» ناهية لأن «أَتْلُ» فعلٌ بمعنى القول وما بعد «أن» جملة فاجتمع في «أن» شرطا التفسيرية، وهي أن يتقدّمها معنى القول، وأن يكون ما بعدها جملة.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: إذا جعلت «أن» مفسّرة لفعل التلاوة وهو معلّق بـ«ما حرّم عليكم» وجب أن يكون ما بعدها منهيّاً عنه محرّماً كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي، فما تصنع بالأوامر[٣]؟ قلت: لمّا وردت هذه الأوامر مع النواهي][٤]، [٢٠١/ب] وتقدّمهن جميعاً فعل التحريم، واشتركن في الدخول تحت حكمه، على أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهي الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله انتهى.

وكون هذه الأشياء اشتركت في الدخول تحت حكم التحريم، وكون التحريم راجعاً إلى أضداد الأوامر بعيد جدّاً وإلغازٌ في المعاني، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. وأما عطف هذه الأوامر فيحتمل وجهين: أحدهما أنها معطوفة لا على المناهي قبلها، فيلزم انسحاب التحريم عليها حيث كانت في

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران].

(٢) الكشاف ٢: ٦١.

(٣) ق: بالأول.

(٤) نهاية السقط في الأصل.

حيّز «أن» التفسيرية، بل هي معطوفة على قوله تعالى «أتل ما حرّم» أمرهم أولاً بأمر يترتب عليه ذِكْر مَنَاهٍ ثم أمرهم ثانياً بأوامر، وهذا معنى واضح. والثاني أن تكون الأوامر معطوفة على النواهي وداخلة تحت «أن» التفسيرية، ويصحّ ذلك على تقدير محذوف، تكون «أن» مفسّرة له وللمنطوق قبله الذي دلّ على حذفه، والتقدير: وما أمركم به، لدلالة «ما حرّم» عليه، لأن معنى «ما حرّم ربكم عليكم»: ما نهاكم ربكم عنه [فالمعنى: قل تعالوا أتل ما نهاكم ربكم عنه] وما أمركم به. وإذا كان التقدير هكذا، صحّ أن تكون «أن» تفسيرية لفعل النهي الدالّ عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف. الأ ترى أنه يجوز أن تقول: أمرتك أن لا تكرم جاهلاً، وأكرِمْ عالماً؟ إذ يجوز عطف الأمر على النهي والنهي على الأمر كما قال امرؤ القيس[1]: [من الطويل]

[وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم] يقولون لا تهلِكْ أسىً وتجمّلِ

وهذا لا نعلم فيه خلافاً، بخلاف الجمل المتباينة بالخبر والاستفهام والإنشاء، فإنّ في جواز العطف فيها خلافاً.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: هلاّ قلت: هي التي تنصب الفعل وجعلت «ألاّ تشركوا» بدلاً من «ما حرّم»؟ قلت: وجب أن يكون: لا تشركوا، ولا تقربوا، ولا تقتلوا، ولا تتبعوا السبل، نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله «وبالوالدين إحسانا» [لأنّ] التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً وأوفوا وإذا قلتم فاعدلوا، وبعهد الله أوفوا انتهى. ولا يتعين أن تكون جميع الأوامر معطوفة على جميع ما دخل عليه، لأنّا بيّنّا جواز عطف «وبالوالدين إحساناً»

(١) ديوانه ص٩.

(٢) الكشاف ٢: ٦١.

على «تعالوا» وما بعده معطوف عليه، ولا يكون قوله «وبالوالدين إحساناً» معطوفاً على «ألاّ تشركوا». وتقدّم في البقرة[١] تفسير «وبالوالدين إحساناً».

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ مِنْ هنا سببيّة أي: من فقر، يقال: أملق الرجل إذا افتقر. ولمّا أمر تعالى بالإحسان إلى الوالدين، نهى عن الإساءة إلى الأولاد، ونبّه على أعظم الإساءة إلى الأولاد وهو إعدام حياتهم بالقتل خوف الفقر، كما قال في الحديث[٢] وقد سئل عن أكبر الكبائر فذكر الشرك بالله تعالى وهو قوله «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك» ثم قال «وأن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك» وقال «وأن تزاني حليلة جارك»، وجاء هذا الحديث منتزعاً من هذه الآية.

وجاء التركيب هنا «من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» وفي الإسراء ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] فيمكن أن يكون ذلك من التفنّن في الكلام، ويمكن أن يقال في هذه الآية: جاء «من إملاق» وظاهره حصول الإملاق للوالد لا توقّعه وخشيته وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله «نحن نرزقكم» خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق [٢٠٢/أ] على الخالق الرازق، ثم عطف عليهم الأولاد. وأما في سورة الإسراء، فظاهر التركيب أنهم موسرون وأنّ قتلهم إياهم إنما هو لتوقّع حصول الإملاق والخشية منه، فبدىء فيه بقوله «نحن نرزقهم» إخباراً بتكفّله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء. وصارت الآيتان مفيدتين[٣] معنيين: أحدهما أن الآباء نُهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم، والآخر

(١) الآية ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري ٤ : ١٦٢٦ من حديث عبد الله، ومسلم ١ : ٩٠.

(٣) ق: مفيدتان.

أنهم نُهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين، لتوقّع الإملاق وخشيته، وحَمْلُ الآيتين على ما يفيد معنيين أولى من التأكيد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كالمنقول في ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠] [وتقدم فأغنى عن إعادته]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ هذا مندرج تحت عموم الفواحش، إذ أن الأجود أن لا يخصّ الفواحش بنوع ما، وإنما جرّد منها قتل النفس تعظيماً لهذه الفاحشة واستهوالاً لوقوعها، ولأنه لا يتأتّى الاستثناء بقوله «إلا بالحق» إلّا من القتل لا من عموم الفواحش. وقوله «التي حرّم الله» حوالة على سبق العهد في تحريمها فلذلك وصفت بالتي. والنفس المحرّمة هي المؤمنة والذمّية والمعاهدة. و«بالحق» بالسبب الموجب لقتلها كالردّة والقصاص والزنى بعد الإحصان والمحاربة. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدّم وفي لفظ «وصّاكم» من اللطف والرأفة وجَعْلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان. ولمّا كان العقل هو مناط التكليف قال تعالى «لعلكم تعقلون» أي: فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا. والوصاة: الأمر المؤكد المقرر، قال الأعشى[1]: [من الطويل]

أجِدَّكَ لم تسمع وصاةَ محمد ... نبيِّ الإله حين أوصى وأشهدا

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ هذا نهيٌ عن القرب الذي يعمُّ جميع وجوه التصرّف وفيه سدّ الذريعة.

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن في حق اليتيم. ولم يأت: إلا بالتي هي حسنة، بل جاء بأفعل التفضيل مراعاة لمال اليتيم وأنه لا

(١) ديوانه ص١٧٣.

يكفي فيه[1] الحالة الحسنة بل الخصلة الحسنى. وأموال الناس ممنوع من قربانها، ونصّ على اليتيم لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلّة مراعاته. ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هذه غاية من حيث المعنى لا من حيث هذا التركيب اللفظي، ومعناه: احفظوا على اليتيم ماله إلى بلوغ أشدّه، فادفعوه إليه. وبلوغ الأشدّ هنا لليتيم هو بلوغ الحُلم مع أنه[2] لا يثبت معه سفه. ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي: بالعدل والسويّة. وقيل: القسط هنا أدنى زيادة ليُخرج بها عن العُهدة بيقين، لِمَا روي «إذا وزنتم فأرجحوا»[3]. و﴿وَأَوۡفُواْ﴾ فعل أمر وبعده أوامر أيضاً وقبله[4] مَنَاهٍ، فيحتمل ذلك الوجهين المتقدمين إلى قوله:

يقولون لا تهلك أسىً وتجمّل[5] [من الطويل]

﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ الآية، تقدّم الكلام على مثلها في البقرة[6]. ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ أي: لو كان المقول له أو عليه ذا قرابة [للقائل] فلا ينبغي أن يزيد ولا ينقص. ويدخل في ذي القربى نفس القائل ووالده وأقربوه، فهو ينظر إلى قوله تعالى ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ ١٣٥﴾ [النساء] وعنى بالقول هنا ما لا يُطّلع عليه إلاّ بالقول من أمرٍ وحكمٍ وشهادة وخبر ووساطة بين الناس [٢٠٢/ب] وغير ذلك. ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ يحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل أي: بما عهدكم الله عليه أوفوا، وأن يكون مضافاً إلى المفعول

(١) ق: في.
(٢) ق: أن.
(٣) أخرجه ابن ماجه ٢: ٧٤٨ من حديث جابر بن عبد الله.
(٤) ق: وبعده.
(٥) انظر تفسير الآية السابقة ١٥١.
(٦) الآية ٢٨٦.

أي: بما عهدتم الله عليه أوفوا. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولمّا كانت الخمسة المذكورة قبل هذا من الأمور الظاهرة الجليّة وجب تعقّلها وتفهّمها فختمت بقوله «لعلكم تعقلون»، وهذه الأربعة خفيّة غامضة لا بدّ فيها من الاجتهاد والذكر الكثير حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله «لعلكم تذكّرون».

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ قرىء: وإنّ، بكسر الهمزة وتشديد [النون] على الاستئناف، و«فاتبعوه» جملة معطوفة على الجملة المستأنفة. وقرىء بفتح الهمزة وتشديد النون، وهو على إضمار اللام تقديره: ولأنّ، كقوله ﴿لِإِيلَٰفِ ۝١﴾ وقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ ۝٣﴾ [قريش]. وقرىء: وأَنْ، وهو على إضمار اللام وأنْ مخفّفة من الثقيلة وفيها ضمير الشأن، و﴿هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ مبتدأ وخبر مفسّر ذلك بضمير الشأن. والإشارة «بهذا» إلى الآيات التي أعقبَتْها هذه الآية من الأوامر والنواهي لأنها هي المحكمات التي لم تُنسخ في ملّة من الملل. و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال مؤكدة لأن صراطه تعالى لا يكون إلا مستقيماً.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ في مسند الدارمي[1] عن ابن مسعود قال «خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه ويساره، ثم قال: هذه سبلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ هذه الآية». وانتصب ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ لأجل النهي جواباً له أي: فتتفرّق فحذف التاء. وقرىء: فتّفرق بتشديد التاء. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كرّر التوصية على سبيل التوكيد. ولمّا كان الصراط المسقيم هو الجامع للتكاليف، وأمر تعالى باتّباعه، ونهى عن بُنيّات الطريق[2]، ختم ذلك

(١) لم أجده هناك، ووجدته في مسند أحمد ١٨: ١٤١ من حديث عبد الله بن مسعود، وانظر سنن الدارمي ٢: ٢٤١.

(٢) أي الطرق الضغيرة المتفرعة من الجادة.

بالتقوى التي هي اتّقاء النار، إذ من اتّبع صراطه، نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا ﴾: «ثم» تقتضي المهلة في الزمان، هذا أصل وضعها، ثم تأتي للمهلة في الإخبار. قال الزمخشري[1]: عطف على «وصّاكم به» قال: فإن قلت: كيف صحّ عطفه عليه بثمّ والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة لم تزل تُوصّاها[2] كل أمّة على لسان نبيّها كما قال ابن عباس محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب، فكأنه قيل: ذلكم وصّاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك أنّا آتينا موسى الكتاب وأنزلنا هذا الكتاب المبارك انتهى.

---

(١) الكشاف ٢: ٦٢.

(٢) ق: تواصاها.

والذي قاله الزمخشري هو أنه رام إبقاء «ثم» على المهلة الزمانية فصار التقدير أن وصاته تعالى تقدّمت قبل زمان موسى عليه السلام «ثم آتينا» ففيه خروج عن ضمير الغائب في «به» إلى ضمير المتكلم في قوله «ثم آتينا». والكتاب هنا التوراة و﴿ تَمَامًا﴾ منصوب على الحال وهو مصدر في الأصل، و﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ جنس أي: على من كان محسناً، ويؤيده قراءة ابن مسعود: على الذين أحسنوا، وقراءة أبيّ: تماماً للمحسنين، وهاتان القراءتان تفسير لا قرآن. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: البعث للحساب.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: «هذا» إشارة إلى القرآن، و«أنزلناه» و«مبارك» صفتان لـ«كتاب». وكان الوصف الأول جملة فعلية مسندة لضمير الله تعالى بنون العظمة [٢٠٣/أ] وكان الوصف بالإنزال آكد من الوصف بالبركة فقُدّم، لأنّ الكلام هو مع من ينكر رسالة محمد ﷺ، وينكر إنزال الكتب الإلهية. وكونه مباركاً عليهم، هو وصف حاصل لهم منه متراخٍ عن الإنزال، فلذلك تأخر الوصف بالبركة، وتقدّم الوصف بالإنزال. وبركته بما يترتّب عليه من النفع والنّماء بجمع كلمة العرب به والمواعظ والحكم والإعلام بأخبار الأمم السالفة والأجور الثابتة لتاليه والشفاء من الأدواء والشفاعة لقارئه وعدّه من أهل الله تعالى.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: «أن تقولوا» مفعول من أجله فقدّره الكوفيون: لئلاّ تقولوا ولأجل ألاّ تقولوا، وقدّره البصريون: كراهة أن تقولوا. والعامل في كلا المذهبين «أنزلناه» محذوفة[١] يدل عليها «أنزلناه» المتقدمة. و«الكتاب» هنا جنس، والطائفتان هم أهل التوراة والإنجيل اليهود والنصارى بلا خلاف، والخطاب متوجّه إلى كفار قريش بإثبات الحجة عليهم

(١) ق: محذوف.

بإنزال هذا الكتاب لئلاّ يحتجّوا هم وكفّار العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قيل: وهذا القرآن يا معشر العرب أُنزل حجّة عليكم، لئلاّ تقولوا إنما أنزل التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم مع رجل منكم.

﴿وَإِن كُنَّا﴾ قال الزمخشري[1]: «وإن كنّا» هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية والأصل: وأنه كنّا عن دراستهم غافلين، على أن الهاء ضمير [الشأن] انتهى.

وما ذهب إليه من أنّ أصله: وأنه كنّا، والهاء ضمير الشأن يلزم منه أنّ «أنْ» المخففة من الثقيلة عاملة في مضمر محذوف حال التخفيف، كما قال النحويون في أنْ المخفّفة من الثقيلة. والذي نصّ الناس عليه أنّ «أنْ» المخففة من الثقيلة إذا لزمت اللام في أحد الجزأين بعدها أو في أحد معمولي الفعل الناسخ الذي يليها، أنها مهملة، لا تعمل في ظاهر، ولا مضمر، لا مثبت، ولا محذوف. فهذا الذي ذهب إليه مخالف للنصوص، وليست إذا وليها الناسخ داخلة في الأصل على ضمير الشأن ألبتّة.

﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ انتقال من الإخبار بحصر إنزال الكتب على غيرهم وأنه لم ينزل عليهم، [إلى] الإخبار بحكم على تقدير: والكتاب هو الكتاب السابق ذكره. ومعنى ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: أرشد وأسرع اهتداءً لكونه نزل علينا بلساننا فنحن نتفهمه ونتدبّره وندرك ما تضمّنه من غير إكداد فكر ولا تعلّم لسان، بخلاف الكتاب الذي أُنزل على الطائفتين فإنه بغير لساننا، فنحن لا نعرفه ونغفل عن دراسته. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا قطعٌ

(١) الكشاف ٢: ٦٢.

لاعتذارهم بانحصار إنزال الكتاب على الطائفتين، وبكونهم لم ينزل عليهم كتاب، ولو نزل لكانوا أهدى من الطائفتين. والظاهر أن البيّنة هي القرآن، وهو الحجة الواضحة [الدالّة] الدلالة النيّرة حيث نزل عليهم بلسانهم وألزم [العالم] أحكامه وشريعته، وأن الهدى والنور من صفات القرآن. ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض عنها. وتأخّر الإعراض لأنه ناشىء عن التكذيب، والإعراض عن الشيء هو بعد رؤيته وظهوره. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ﴾ وعيد شديد. وعلّق الجزاء على الصدوف لأنه ناشىء عن التكذيب.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ الضمير في «ينظرون» عائد على الذين قيل لهم: «فقد جاءكم[1] بيّنة من ربكم» أي: ما ينتظرون. ﴿إِلَّآ أَن [٢٠٣/ب] تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى قبض أرواحهم وتعذيبها. ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ بعلمه وقدرته تعالى بلا أين ولا كيف، لفصل القضاء بين خلقه في الموقف يوم القيامة. ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلّي، و«بعض آيات ربّك» أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك. ﴿يَوْمَ يَأْتِى﴾: «يوم» منصوب بـ«لا ينفع» و«إيمانها» فاعل «ينفع» واجبٌ تأخيره لعود [الضمير] على المفعول، فصار نحو: ضرب زيداً[2] غلامُه، وتقدم نظيره في البقرة ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. قال الزمخشري[3]: [وقرأ ابن سيرين]: لا تنفع، بالتاء لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه، كقولهم: ذهبت بعض أصابعه انتهى. هذا غلط لأن الإيمان ليس بعضاً للنفس، ويحتمل أن يكون أنّث على معنى الإيمان وهو المعرفة والعقيدة،

---

(١) ق: جاءتكم.

(٢) ق: زيد.

(٣) الكشاف ٢: ٦٤.

فيكون مثل: جاءته[١] كتابي فاحتقرها، على معنى الصحيفة. ووصف «نفساً» بالجملة المنفية وهي «لم تكن آمنت من قبل» فدلّ على أن أيمانها وحده[٢] نافع قبل ذلك اليوم.

وقوله ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾ عطف على قوله «آمنت» التقدير: أو تكن كسبت في إيمانها خيراً، فدلّ ذلك على أنها إذا كانت مؤمنة، وكسبت خيراً قبل ذلك اليوم، نفعها ذلك. وملخّص هذا أنه قبل ذلك اليوم ينفع الإيمان وحده أو ينفع مع كسب الخير. ﴿قُلِ انتَظِرُوٓاْ﴾ هذا أمر تهديد ووعيد. ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما يحلّ بكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ قرىء: فارقوا وفرّقوا دينهم. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ كاليهود افترقوا على فِرّيسيين[٣] وربّانيين وسمرة، وكالنصارى افترقوا على ملكية ويعقوبية ونسطورية، وأهل الضلال من هذه الأمة وأصحاب البدع والأهواء منهم كالخوارج وهم طوائف. ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ هو إخبار عن المباينة التّامة والمباعدة كقول النابغة[٤]: [من الوافر]

إذا حاولتَ في أسدٍ فجوراً فإني لستُ منك ولستَ منّي

﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾

(١) ق: ما جاءته.
(٢) ق: وحدها.
(٣) ق: قرابين.
(٤) ديوانه ص١٩٩.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ روى أبو سعيد الخدري وابن عمر[1] أنها نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة، ضوعفت لهم الحسنة بعشر، وضوعفت للمهاجرين بسبع مئة انتهى. لمّا ذكر حال من فارق دينه ورتّب عليه أن الله تعالى ينبئه بما فعل، ذكر المجازاة. والظاهر عموم «من جاء» وعموم الحسنة. وحصر العدد فيما ذكر، وأيّ شخصٍ ما جاء بحسنةٍ ما جوزي عليها بعشر أمثالها، ومن جاء بسيّئة جوزي بمثلها. وقرىء: عشرُ أمثالِها، على الإضافة. وقرىء: عشرٌ أمثالُها، فأمثالها صفة لعشر. والضمير في «أمثالها» عائد على الحسنة.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أمره تعالى بالإعلان بالشريعة ونبذ ما سواها، ووصفها بأنها طريق مستقيم لا عوج فيها. وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]. [﴿دِينًا قِيَمًا﴾] انتصب «ديناً قيماً» على إضمار فعل، تقديره: هداني ديناً قيماً، ودلّ على ذلك قوله قبلُ «هداني ربي». وتعدى «هَدى» تارةً بإلى كقوله «إلى صراط» وتارةً بنفسه إلى مفعول ثانٍ كقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات]. وقرىء: قِيَماً، وتقدّم توجيهه في أوائل سورة النساء[2]. وقرىء: قيّماً

(١) انظر تفسير الطبري ٨: ٨١.
(٢) انظر تفسير الآية ٥ من السورة.

كسيّد. وفي كلتا القراءتين هو وصف لقوله «ديناً». و﴿مِّلَّةَ﴾ بدل من قوله «ديناً»، و﴿حَنِيفًاۚ﴾ حال، وتقدم نظيره في سورة البقرة[1]. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نعى عليهم في اتخاذهم آلهة وإشراكهم مع الله تعالى [٢٠٤/أ]، وإبراهيم عليه السلام بريء من ذلك كله، فكان يجب عليهم اتباع أبيهم إبراهيم إذ هو النبي المجمَع عليه وعلى تعظيمه من سائر الطوائف.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ ظاهره العموم من الصلاة المفروضة وغيرها. ﴿وَنُسُكِي﴾ قال ابن عباس: هي الذبائح التي تذبح لله تعالى، وجمع بينهما كما جمع بينهما في قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]. ومعنى ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ أنه[2] لا يملكهما إلا الله تعالى.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ عام، والإشارة بـ«بذلك» الظاهر أنه إلى «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم». والألف واللام في «المسلمين» للعهد ويعني به هذه الأمة، لأن إسلام كل نبيّ سابقٌ على إسلام أمّته لأنهم منه يأخذون شريعته.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه ونحن نتكفّل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية. والهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ وهو ردٌّ عليهم إذ دَعَوه إلى آلهتهم. والمعنى أنه [كيف تجتمع لي] دعوة غير الله ربّاً، وغيره مربوب له ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تقدم الكلام عليه في البقرة[3]. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾

---

(١) الآية ١٣٥ من السورة.

(٢) ق: ومماتي بذاته لا.

(٣) انظر تفسير الآيتين ٢٨١، ٢٨٦ من البقرة.

والتنبئة عبارة عن الجزاء، والذي اختلفوا فيه هو من الأديان والمذاهب، يجازيكم بما ترتّب عليه من الثواب والعقاب. وسياق هذه الجمل سياق الخبر والمعنى على الوعيد والتهديد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أذكرهم تعالى بنعمته عليهم إذ كان النبي المبعوث وهو محمد خاتم النبيّين ﷺ، فأمّته خلفت سائر الأمم، ولا تجيء بعدها[١] أمة تخلفها، إذ عليهم تقوم الساعة. ورفع الدرجات هو بالشرف في المراتب الدنيوية والعلم وسعة الرزق. و﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بقوله «ورفع». ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من ذلك جاهاً ومالاً وعلماً وكيف يكونون في ذلك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ[٢] ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمّا كان الابتلاء به يظهر المسيء والمحسن والطائع والعاصي، ذكر هذين الوصفين وختم بهما. ولمّا كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد، [بدأ] بقوله «سريع العقاب» يعني لمن كفر ما أعطاه الله تعالى. وسرعة عقابه إن كان في الدنيا فالسرعة ظاهرة، وإن كان في الآخرة فوُصف بالسرعة لتحقّقه، إذ كل[٣] ما هو آتٍ آتٍ. ولمّا كانت جهة الرحمة أرجى، أكّد ذلك بدخول اللام في الخبر، وبكون الوصفين بُنيا بناء المبالغة، ولم يأت في جهة العقاب بوصفه بذلك، فلم يأت: إن ربك معاقب، و﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ من باب الصفة المشبّهة.

---

(١) ق: بعده.

(٢) ق: لسريع.

(٣) ق: إذ هو كل.

سورة الأعراف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿ المص ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية، هذه السورة مكية كلها، قاله ابن عباس. وقال مقاتل: إلا قوله «واسألهم عن القرية» إلى قوله «من ظهورهم ذريتهم»[2] فإن ذلك مدني، وروي هذا أيضاً عن ابن عباس، وقيل: إلى قوله «وإذ نتقنا»[3].

واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ۝١٥٥ ﴾ [الأنعام] واستطرد منه لما بعده، وإلى قوله آخر السورة ﴿ وَهُوَ [٢٠٤/ب] ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ۝١٦٥ ﴾ [الأنعام] وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلّا بالتكاليف الشرعية - ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي، وذكر الأمر باتّباعه كما أمر في قوله «وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتّبعوه».

---

(١) مكية وآياتها ست ومئتان.

(٢) الآيات ١٦٣ - ١٧٢.

(٣) الآية ١٧١.

وتقدم الكلام على هذه الحروف المقطّعة أوائل السّور في أول البقرة[١]، وذِكْرُ ما حدسه الناس فيها ولم يقم دليل واضح على شيء من تفسيرهم يتعيّن به ما قالوا، وزادوا هنا لأجل الصاد أقوالاً، لا يقوم الدليل على صحة شيء منها.

ونهيُه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أي من سببه، لما تضمّنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحّة رسالة وتكليف الناس أحكامها، وهذه أمور صعبة ومعانيها تشق عليه[٢]. وأسند النهي إلى الحرج، ومعناه نهي المخاطب عن التعرّض للحرج، وكان أبلغ من نهي المخاطب، لما فيه من أن الحرج لو كان مما يُنهى، لنهيناه عنك، فانتهِ أنت عنه بعدم التعرض له، ولأنّ فيه تنزيه نبيّه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب: فلا تحرج منه، لأنّ ما أنزله تعالى إليه، يناسب أن يُسرَّ به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهّله لإنزال كتابه عليه، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونَهىٰ الحرج.

«كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب. و«أنزل» جملة في موضع الصفة لكتاب. والظاهر أن الضمير في «منه» عائد على الكتاب. وذهب الفرّاء وتبعه الحوفي والزمخشري وابن عطية أن «لتنذر» متعلق بقوله «أنزل إليك». وقوله «أنزل» ماضي الزمان و«لتنذر» مستقبل الزمان، فلذلك احتيج في جعله مفعولاً من أجله للام الجرّ لمّا اختلف زمانهما. والجملة من قوله «فلا يكن» اعتراض بين «أنزل» وبين «لتنذر». «وذكرى» مصدر وهو مجرور عطفاً على المصدر المنسبك من أنْ والفعل المنصوب بإضمارها في قوله «لتنذر» أي: لإنذارك ولذكرى. ومعنى «ذكرى» هنا المراد به: ولتذكير

(١) انظر تفسير الآية الأولى.

(٢) ق: يشق عليه ذلك.

المؤمنين كقوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ [المدثر][١]. وحذف مفعول «لتنذر» أي: لتنذر الكافرين، ويدلّ على حذفه نظيره في قوله «وذكرى للمؤمنين».

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يشمل القرآن والسنّة لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]. والضمير في ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ عائد على «ربكم». ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من دون الله تعالى كالأصنام والرهبان والكهّان والأحبار والنّار والكواكب وغير ذلك. وانتصب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف. و﴿مَّا﴾ زائدة، أي: يتذكرون تذكّراً قليلاً.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾: «كم» هنا خبرية، التقدير: وكثير من القرى أهلكناها. وأعاد الضمير في «أهلكناها» على معنى كم، وهي في موضع رفع بالابتداء و«أهلكناها» جملة في موضع الخبر، وأجازوا أن يكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسّره «أهلكناها» تقديره: وكم من قرية أهلكنا، أهلكناها. ولا بدّ في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله «أوهم قائلون»؛ فمنهم من قدّره: وكم من أهل قرية، ومنهم من قدّره: أهلكنا أهلها. وينبغي أن يُقدَّر عند قوله «فجاءها» أي: فجاء أهلها، لمجيء[٢] الحال من «أهلها»

(١) ق: وما هو.

(٢) ق: ويجيء.

بقوله «بياتاً» بدليل: «أوهم قائلون» لأنه يمكن إهلاك [٢٠٥/أ] القرى بالخسف والهدم وغير ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله «فجاءها». والضمير في «أهلكناها» المرفوع ضمير المتكلم المعظّم، وفيه التفات، إذ فيه خروج من ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم. و﴿قَآئِلُونَ﴾ من القيلولة، نوّع مجيء البأس إلى نوعي[١] الاستراحة وهو «بياتاً» أي: ليلاً، إذ هو وقت سكون وراحة، وإلى زمان القيلولة وهو وقت الراحة أيضاً. و«أو» هنا للتفصيل.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: لا يقال: جاء زيد هو فارس، بغير واو فما بال قوله تعالى «هم[٣] قائلون»؟ قلت: قدّر بعض النحويين الواو محذوفة وردّه الزجّاج وقال: لو قلت: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو: جاءني زيد هو فارس، لم يُحْتَجْ فيه إلى واو، لأن الذكر قد عاد إلى الأول. والصحيح أنها إذا عطفت على حالٍ قبلها، حذفت الواو استثقالاً، لاجتماع حرفي عطف، لأن واو الحال هي واو العطف، استعيرت للوصل. فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، كلام فصيح، وارد على حدّه، وأما: جاءني زيد هو فارس، فخبيث انتهى.

فأما بعض النحويين الذي أبهمه الزمخشري فهو الفرّاء، وأما قول الزجّاج في التمثيلين لم يُحْتج فيه إلى الواو، لأنّ الذكر قد عاد إلى الأول، ففيه إبهام. وتعيينه لم يُجز دخولها في المثال الأول، ويجوّز دخولها في المثال الثاني، فانتفاء الاحتياج ليس على حدّ سواء، لأنه في الأول لامتناع

---

(١) ق: نوعين.

(٢) الكشاف ٢: ٦٧.

(٣) ق: أو هم.

الدخول، وفي الثاني لكثرة الدخول، لا لامتناعه فأما قول الزمخشري: والصحيح إلى آخره، فتعليله ليس بصحيح، لأو واو الحال ليست حرف عطف، فيلزم من ذكرها اجتماع حرفي عطف، لأنها لو كانت للعطف، للزم أن يكون ما قبل الواو حالاً حتى تعطف حالاً على حال. فمجيئها فيما لا يمكن أن يكون حالاً دليل على أنها ليست واو عطف، ولا لُحِظَ فيها معنى واو العطف، تقول: جاءني زيد والشمس طالعة. فجاء زيد ليس بحالٍ فتعطف عليه جملة حال، وإنما هذه الواو مغايرة لواو العطف بكل حال، وهي قسم من أقسام الواو، كما تأتي للقسم، وليست فيه للعطف، إذا قلت: والله لتخرجنّ. وأما قوله: فخبيث، فليس بخبيث، وذلك أنه بناه على أن الجملة الاسمية، إذا كان فيها ضميرُ ذي حال فإنّ حذف الواو منها شاذ، وتبع في ذلك الفرّاء وليس بشاذّ، بل هو كثيرٌ وقوعه في القرآن وفي كلام العرب نثرها ونظمها، وهو أكثر من رمل يبرين ومها فلسطين[1]!. وقد رجع الزمخشري عن هذا المذهب إلى مذهب الجماعة.

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ قال ابن عباس: «دعواهم» تضرّعهم إلا إقرارهم بالشرك انتهى. و«دعواهم» اسم كان و«إذ» ظرف معمول لدعواهم، وخبر كان «أن قالوا» أي: إلا قولَهم، و«إنا» وما بعدها معمول للقول.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: نسأل الأمم المرسل إليهم عن أعمالهم وعمّا بلّغه إليهم الرسل كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص]، ونسأل الرسل عمّا أجاب به من أُرسلوا إليه كقوله تعالى ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة]. وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يُعقب الكفار والعصاة عذاباً، وسؤال الرسل تأنيس، يُعقب

(١) ق: ونهر فلسطين.

الأنبياء ثواباً وكرامة.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: نسرد عليهم أعمالهم قصة قصة بعلم منّا لذلك واطّلاع عليه. ﴿وَمَا[٢٠٥/ب] كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن شيء منه، وهذا من أعظم التوبيخ والتقريع حيث يقرّون بالظلم، وتشهد عليهم أنبياؤهم، ويقصّ الله عليهم أعمالهم.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ مذهب الجمهور أن في القيامة موازين توزن بها أعمال العباد اتّباعاً لظواهر النصوص في ذلك. وذهب مجاهد والضحاك والأعمش وجماعة - وهو قول المعتزلة - إلى أن ما ورد من الوزن والموازين إنما هو كناية عن العدل ومحاسبة أهل الموقف بحساب أعمالهم. «والوزن» مبتدأ، و«يومئذ» [ظرف] منصوب بالوزن، والتنوين في «إذ» تنوين العوض من جملة محذوفة تقديره: يوم إذ نسأل ونقصّ، فحذف ذلك وعوّض منه التنوين ولذلك لا يجتمعان، وكذا في كل موضع يلحق التنوين فيه لإذ. و«الحق» خبر عن المبتدأ الذي هو الوزن.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ من أثبت الميزان، ذكر[1] أنه ذو كفّتين ولسان، ولم يثبت مثل هذا نصّاً لا في القرآن ولا في السنّة. والثقل والخفة إنما هما من صفات الأجسام، والحسنات والسيئات من صفات الأعراض. فقال هؤلاء إن الموزون هي الصحف التي كتبت فيها الحسنات والسيّئات. وقوله ﴿مَوَازِينُهُ﴾ أفرد الضمير مراعاة للفظ «من» ثم جمع في قوله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مراعاة لمعنى «من». ويتعلق ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لتضمّنه معنى: يكذبون، أو لأنها بمعنى يجحدون.

(١) عبارة ق: أثبت الميزان وذكر.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن
نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقدم معنى «مكنّاكم» في قوله في أول الأنعام ﴿ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٦﴾ ﴾. والخطاب راجع للذين خوطبوا: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف] وما بينهما، أُورد مورد الاعتبار والاتعاظ بذكر ما آل إليه أمرهم في الدنيا، وما يؤول إليه في الآخرة. ﴿ مَعَـٰيِشَ ﴾ جمع معيشة. وقرأ خارجة عن نافع: معائش بالهمز، شبّهها بصحائف من حيث عدد الحروف والحركات والسكون. والمعيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها مما يُتوصّل به إلى ذلك. وهي في الأصل مصدر ينزّل منزلة الآلات. وإعراب ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ كإعراب ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: خلقنا أباكم ثم صوّرناكم[1]. وتبقى «ثم» دالّة على وضعها من المهلة في الزمان، فبدأ

---

(١) على أن الخطاب في الأولى لآدم وفي الثانية لذرّيته. وفي المطبوع: ثم صوّرنا أباكم، على أن الخطاب في الجملتين لآدم، لأن العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع. انظر البحر ٤: ٢٧٢.

بالخلق وهو إخراج من العدم الصرف إلى مادة وهي التراب[١] ولقوله تعالى ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران] ثم ثنّى بالتصوير وهو تشكيله بالصورة الآدمية. وتقدم تفسير ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، فأغنى عن إعادته. وقوله ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جملة لا موضع لها من الإعراب، مؤكدة لمعنى ما أخرجه الاستثناء من نفي سجود إبليس كقوله «أبى واستكبر» بعد قوله «إلاّ إبليس» في البقرة.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ انتقل من ضمير المتكلم المعظم إلى ضمير الغيبة في «قال». و«ما» استفهامية مبتدأة والجملة بعده خبره. و«لا» في ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ زائدة للتوكيد يدل على زيادتها سقوطها في قوله ﴿أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص]. و«إذ» معمولة لقوله «منعك». والمعنى أنه وبّخه وقرّعه على امتناعه من السجود وإن كان تعالى عالماً بما منعه من السجود. و«ما» استفهامية تدل على التوبيخ كما قلنا قبل. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هذا ليس بجواب مطابق[٢] للسؤال، لكنه يتضمن الجواب إذ معناه: منعني فضلي عليه [٢٠٦/ أ] لشرف عنصري على عنصره. ولم ينظر الأبلم[٣] لأمرِ مَن أمره بالسجود وهو الله تعالى، فامتثال الأمر طاعة لله تعالى. وقد تكلم الناس في تفضيل النار على الطين وفي تفضيل الطين على النار بما هو مذكور في البحر[٤].

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ لما كان امتناعه من السجود لظهور شرفه على آدم عند نفسه، قابله الله تعالى بالهبوط المشعر بالنزول من علوّ إلى سفل. والضمير

---

(١) ق: التركيب.

(٢) ق: مطلق.

(٣) أي: الغليظ الشفتين.

(٤) انظر ٤: ٢٧٣.

في «منها» عائد على الجنة وإن لم يَجْرِ لها ذكر. قال ابن عطية: أُهْبِطَ أولاً وأُخرج من الجنة، وصار في السماء، لأن الأخبار تضافرت أنه أغوى آدم وحوّاء من خارج الجنة، ثم [أُمر] آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحوّاء. ومعنى ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي:[١] لا يصح لك، أو لا يتمّ، أو لا ينبغي. والضمير في ﴿فِيهَا﴾ عائد على ما عاد عليه «منها»، ولا مفهوم لهذا الظرف، بل التكبر منهيّ عنه في كل موضع. وكرر معنى الهبوط بقوله «فاخرج» لأن الهبوط منها خروج، ولكنه أخبر بصغاره وذلّته وهو أنه جزاء على تكبّره، قوبل بالضد مما اتّصف به وهو الصّغار الذي هو ضد التكبّر. والتكبّر تفعُّل منه، لا أنه خُلق كبيراً عظيماً ولكنه هو الذي تعاطى الكِبْر.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا يدل على إقراره بالبعث وعلمه بأن آدم سيكون له ذرية ونسل يعمّرون في الأرض ثم يموتون. والضمير في «يبعثون» عائد على ما دلّ عليه المعنى إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه. ومعنى «أنظرني» أي: أخّرني.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الظاهر أن الباء للقسم و«ما» مصدرية ولذلك تلقّيت الحلف بقوله «لأقعدن». و«أغويتني» بمعنى أضللتني، قاله ابن عباس. والإغواء نَسَبه إلى الله تعالى إبليس، وهو فعل من أفعال الله تعالى جارٍ على الحكمة الإلهية فجاز أن يُقسم به. قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: بم تعلّقت الباء فإن تعليقها بلأقعدنّ يصدّ عنه[٣] لام القسم، لا تقول: والله بزيدٍ لأمرّنّ؟ قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فبما أغويتني أقسم بالله

(١) ق: أو.

(٢) الكشاف ٢: ٦٩.

(٣) ق: عن.

لأقعدنّ، أي: بسبب إغوائك أقسم انتهى.

ما ذكره من أن اللام تصدّ عن تعلّق الباء بلأقعدنّ ليس مجمعاً عليه بل في ذلك خلاف. وعبّر بالقعود عن الثبوت في المكان والتلبّث فيه. قالوا: وانتصب «صراطك» على إسقاط «على»، قاله الزّجاج وشبّهه بقول العرب: ضرب زيد الظهر والبطن، أي: على الظهر والبطن. وإسقاط حرف الجر لا ينقاس في مثل هذا، لا يقال: قعدت الخشبة، تريد: قعدت على الخشبة، والأولى أن يُضمّن «لأقعدن» معنى ما يتعدى بنفسه فينتصب الصراط على أنه مفعول به والتقدير: لألزمنّ بقعودي صراطك المستقيم. وهذا الصراط هو دين الإسلام وهو الموصل إلى الجنّة.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ الظاهر أن إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كلّ وجه ممكن. ولمّا كانت هذه الجهات يأتي منها العدوّ غالباً، ذكرها، لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة. وغاير في حرف الجر الذي هو مِن وعن، لأنه لو كان الكلّ بمِن أو بعن لكان في تكرار ذلك قلق في التركيب.

﴿ مَذۡءُومٗا ﴾ يقال ذأمه يذأمه ذَأْماً: عابه، بسكون الهمزة ويجوز إبدالها ألفاً. ﴿ مَّدۡحُورٗاۖ ﴾ يقال دحره: أبعده وأقصاه دحوراً، قال الشاعر[1]:

[من الوافر]

دَحَرْتُ بني الحصيب إلى قديدٍ   وقد كانوا ذوي أَشَرٍ وَفَخْرِ

وهذه ثلاثة[2] أوامر: أمرٌ بالهبوط مطلقاً، وأمر بالخروج مخبراً أنه ذو

(١) لم أجده وانظر البحر ٤ : ٢٧٧.

(٢) ق: ثلاث.

صغار، وأمر بالخروج مقيّداً[١] بالـذم [٢٠٦/ب] والطرد. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ قرأ الجمهور: لَمَن بفتح اللام، والظاهر أنها اللام الموطّئة للقسم، و«مَن» شرطية في موضع رفع على الابتداء، وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم المحذوف قبل اللام الموطئة. ويجوز أن تكون اللام لام الابتداء و«مَن» موصولة، و﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف بعد «من تبعك»، وذلك القسم المحذوف وجوابه في موضع خبر «مَن» الموصولة. وقرأ الجحدري وعصمة عن أبي بكر عن عاصم: لِمَن تبعك بكسر اللام، واختلفوا في تخريجها. قال ابن عطية: المعنى: لأجل من تبعك لأملأنّ انتهى.

ظاهر هذا التقدير أن اللام تتعلق بلأملأنّ، ويمتنع ذلك على قول الجمهور، وأن ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبلها.

قال الزمخشري[٢]: يعني لمن تبعك منهم [هذا] الوعيد وهو قوله «لأملأنّ جهنم منكم أجمعين»، على أن «لأملأنّ» في محلّ الابتداء، و«لمن تبعك» خبره انتهى.

إن أراد ظاهر كلامه فهو خطأ على مذهب البصريين، لأن قوله «لأملأنّ» جملة هي جواب قسم محذوف. فمن حيث كونها جملة فقط، لا يجوز أن تكون مبتدأة، ومن حيث كونها جواباً للقسم المحذوف يمتنع أيضاً، لأنها إذ ذاك من هذه الحيثيّة لا موضع لها من الإعراب، ومن حيث كونها مبتدأة لها موضع من الإعراب. ولا يجوز أن تكون الجملة لها موضع ولا موضع لها بحال؛ لأنه يلزم أن تكون في موضع رفع، لا في موضع رفع داخلاً

---

(١) ق: مقيّد.

(٢) الكشاف ٢: ٧١.

عليها عامل غير داخل عليها عامل، وذلك لا يُتصوّر.

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي: وقلنا يا آدم، وتقدم تفسير هذه الآية في البقرة[١]، إلا أن هنا «فكلا من حيث شئتما» وفي البقرة «وكلا منها رغدا»، قالوا: وجاءت على أحد محاملها، وهو أن يكون الثاني بعد الأول. وحذف «رغداً» هنا على سبيل الاختصار، وأثبت هناك[٢] لأن تلك مدنية وهذه مكيّة فوفّى المعنى هناك باللفظ.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ أي: فعل الوسوسة لأجلهما. وأما قوله ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] فمعناه ألقى الوسوسة إليه. ﴿ لِيُبْدِىَ لَهُمَا ﴾ اللام لام كي وهو علّة الوسوسة. ﴿ مَا وُۥرِىَ ﴾ ما سُتر. وقرأ عبد الله بن مسعود: أُوري، بإبدال الواو همزة وهو بدل جائز. وقرىء: ما وُرِيَ، بواو مضمومة من غير واو بعدها على وزن كُسِيَ. وقرأ مجاهد والحسن: من سَوّتهما،

(١) الآية ٣٥.

(٢) ق: هنا.

بالإفراد وتسهيل الهمزة وبإبدالها واواً وإدغام الواو فيها. و﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ استثناء مفرّغ من المفعول من أجله، أي: ما نهاكما ربكما لشيء إلا أن تكونا ملكين أو من[1] الخالدين الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لم يكتف إبليس بالوسوسة وهي الإلقاء في خفيةٍ سرًّا ولا بالقول، حتى أقسم على أنه ناصح لهما. والمقاسمة مفاعلة تقتضي المشاركة في الفعل، وأما هنا فمعنى «وقاسمهما» أي: أقسم لهما لأن اليمين لم يشاركا فيها، وهو كقول الشاعر[2]: **[من الطويل]**

وقاسَمَها[3] بالله جَهداً لأنتمُ ألذُّ من السلوى إذا ما نَشُورها

وفاعَلَ قد يأتي بمعنى أفعَلَ نحو: باعدت الشيء وأبعدته. و«لكما» متعلق بمحذوف تقديره: ناصح لكما أو أعني أو بالناصحين، على أن أل موصولة وتُسومح في الظرف والمجرور ما لا يتُسامح في غيرهما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: استزلّهما إلى الأكل من الشجرة بغُروره أي: بخداعه إياهما وإظهار النصح لهما وإبطان الغش وإطماعهما أن يكونا ملكين أو خالدين. وبأقسامه أنه ناصح لهما جعل من يغترّ بالكلام حتى يصدّق فيقع في مصيبة، كالذي تدلّى من علوّ إلى سفل بحبل ضعيف، فينقطع به فيهلك [٢٠٧/أ] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: وجدا طعمها آكلَيْن منها كما قال تعالى ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿١٢١﴾﴾ [طه] وتطايرت عنهما ملابس الجنة وظهرت لهما

---

(١) ق: ومن.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي في ديوان الهذليين ١: ١٥٨.

(٣) ق: وقاسمهما.

عوراتهما، وتقدّم أنهما [كانا] قبل ذلك لا يريانها[١] من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر.

﴿وَطَفِقَا﴾ طفق من أفعال المقاربة بفتح الفاء وكسرها، وبالباء مكان الفاء مكسورة، و«يخصفان» خبر «طفقا». ومعنى ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: جعلا يلصقان ورقة على ورقة ويلصقانها. والأولى أن يعود الضمير في «عليهما» على عورتيهما كأنه قيل: يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة، وعاد بضمير الاثنين لأن الجمع يراد به اثنان. و«على» هنا ظرف مجازي بمعنى فوق لا حرف جر، ونظير هذا التركيب قوله تعالى ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب] وقول الشاعر[٢]: [من المتقارب]

هوّن عليك فإنّ الأمور   بكفّ الإله مقاديرُها

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ لما كان وقت الهناء شرّف بالتصريح باسمه في النداء فقيل ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وحين كان وقت العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرّح باسمه. والظاهر أنه تعالى كلّمهما بلا واسطة. والجملة معمولة لقول محذوف أي: قائلاً «ألم أنهكما»، وهو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما، والنهي[٣] قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وثَمَّ مضاف محذوف تقديره: عن قربان تلك. و«تي» اسم الإشارة واللام للبعد، حذفت ياءُ «تي» لالتقاء الساكنين و«كُما» خطاب للاثنين. ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴿١١٧﴾﴾ [طه].

---

(١) ق: يرانهما.

(٢) البيت مع ثانٍ له في العقد ٣: ١٤١، وهو منسوب لابن أبي حازم، وفيه خرم.

(٣) ق: والمعنى.

و﴿لَنَكُونَنَّ﴾ جواب قسم محذوف قبل «إنْ» كقوله تعالى ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ [عَمَّا يَقُولُونَ] لَيَمَسَّنَّ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة]. التقدير: والله إن لم تغفر لنا. وأكثر ما تأتي «إن» هذه ولام التوطئة قبلها [كقوله] ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ [ٱلْمُنَٰفِقُونَ]﴾ ثم قال ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب].

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ تقدم تفسيره في البقرة[1].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وهذا كالتفسير لقوله «ولكم في الأرض مستقر ومتاع» أي: بالحياة «إلى حين» أي: حين الموت. ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي: إلى المجازاة بالثواب والعقاب.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لمّا ذكر قصة آدم وفيها ستر السوءات وجعل في الأرض مستقرّاً ومتاعاً، ذكر تعالى ما امتنّ به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يواري

(١) انظر تفسير الآية ٣٦ من البقرة.

السوءات والرياش الذي يمكن به[١] استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما خوّلهم. «قد أنزلنا» الإنزال مجاز من [باب] إطلاق السبب على مسبّبه، فأنزل المطر وهو سبب يتهيّأ به اللباس. واللّباس يعمّ جميع ما يُلبس ويستر. الريش معروف وهو هنا عبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش والتمتّع، وقال الزمخشري[٢]: لباس الزينة استعير من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزيّنكم، لأن الزينة غرض صحيح، وكما قال تعالى ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۝٨﴾ [النحل] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ۝٦﴾ [النحل] انتهى.

ويحسّنه قوله تعالى ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۝١٤﴾ [النحل]. وقرىء: ولباسَ: بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرىء بالرفع وهو مبتدأ و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، خبر عن قوله «ولباس»[٣] والرابط بينهما اسم الإشارة كما يربط المضمر وكأنه قال: ولباس التقوى هو خير. والإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى ما تقدّم من إنزال اللباس والرياش ولباس التقوى. والمعنى: من آيات الله الدالّة على فضله ورحمته على عباده. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ هذه النعم فيشكرون الله تعالى عليها.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يستهوينكم ويغلب عليكم. وهو نهي للشيطان والمعنى نهيهم أنفسهم عن الإصغاء إليه والطواعية لأمره، كما قالوا: لا أرينّك هنا، ومعناه [٢٠٧/ب] النهي عن الإقامة بحيث يراه. و﴿كَمَا﴾ في موضع نصب أي: فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم من الجنة.

---

(١) ق: بهم.

(٢) الكشاف ٢: ٧٤.

(٣) عبارة ق: وقرىء بالرفع وهو مبتدأ وذلك خبر مبتدأ، وخير خبر عن قوله ولباس.

و﴿يَنزِعُ﴾ حال من الضمير في «أخرج» أو من «أبويكم» لأن الجملة فيها ضمير الشيطان[1] وضمير الأبوين. ونسب النَّزْع والإراءة إلى الشيطان لما كان متسبّباً فيه.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ قال الزمخشري[2]: الضمير في «إنه يراكم» ضمير الشأن والحديث انتهى. لا ضرورة تدعو إلى هذا، بل الظاهر أنه ضمير عائد على الشيطان، أي: أنّ الشيطان وهو إبليس يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها. وهم أجسام لطيفة معلوم من هذه الشريعة وجودهم، كما أن الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة. ولا يُستنكر وجود أجسام لطيفة جداً لا نراها نحن؛ ألا ترى أن الهواء جسم لطيف، لا ندركه نحن وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده؟ وقد صحّ تصوّرهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريرة حين جعل يحفظ تمر الصدقة[3]، والعفريت الذي رآه رسول الله ﷺ وقال فيه: «لولا دعوة أخي سليمان لربطتُه إلى سارية من سواري المسجد»[4]، وكحديث خالد بن الوليد حين سُيّر لكسر ذي الخَلَصة[5]، وكحديث سواد بن قارب مع رئيّه من الجن[6]. إلاّ أنّ رؤيتهم في الصور نادرة كما أن الملائكة تبدو في صور كحديث جبريل عليه

(١) ق: ضمير الشأن.

(٢) الكشاف ٢: ٧٥.

(٣) انظر البخاري ٢: ٨١٢.

(٤) أخرجه البخاري ١: ١٧٦ من حديث أبي هريرة.

(٥) جاء في الأصنام ص٣٥ أن رسول الله ﷺ لمّا فتح مكّة سيّر جرير بن عبد الله لهدم ذي الخلصة، فهدم بنيانه وأضرم فيه النار.

(٦) انظر السيرة النبوية ١: ٢٢٣، والفتح الرّباني ٢٠: ٢٠٥.

السلام[١]. وقوله ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ تعليل للنهي وتحذير مِن فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدهم ويغتالكم من حيث لا تشعرون. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيّرنا، ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ ناصريهم وعاضديهم في الباطل.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الظاهر أنه إخبار مستأنف عن هؤلاء الكفّار بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش. وقولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ تقليد لآبائهم في فِعْل ذلك، والتقليد ليس طريقاً لحصول العلم. وقولهم ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ افتراء على الله تعالى، وكانوا يقولون: لو كره الله ذلك لنَقَلَنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بفعل الفحشاء. وإنما لم يردّ التقليد لظهور بطلانه فأبطل تعالى دعواهم أن الله أمر بها، إذ مدرك ذلك إنما هو الوحي على لسان الرسل والأنبياء ولم يقع ذلك. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبّخهم على كذبهم ووقفهم على ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هي دعوى واختلاق.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ معطوف على ما ينحلّ إليه[٢] المصدر الذي هو القسط؛ [أي] بأن أقسطوا وأقيموا. وكما ينحلّ المصدر لأَنْ والفعل الماضي نحو: عجبت من قيام زيد، وخرج، تقديره: من أن قام زيد وخرج، ولأَنْ والمضارع نحو[٣]: [من الوافر]

للُبْـــسُ عبـــاءةٍ وتَقَـــرَّ عينـــي   [أحبُّ إليّ من لُبْس الشُّفوفِ]

(١) أخرجه مسلم ١: ٣٧ من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) ق: عليه.

(٣) البيت من شواهد الكتاب ٣: ٤٥، لميسون بنت بحدل. وانظر أمالي الشجري ١: ٢٨٠، والمقتضب ٢: ٢٧.

تقديره: لأَنْ ألبس عباءة وتقرّ عيني. ولمّا أشكل هذا التخريج جعل الزمخشري «وأقيموا» على تقدير: وقل [فقال[1]: وقل] أقيموا وجوهكم. قال ابن عباس: المعنى إذا حضرت الصلاة، فصلّوا في كل مسجد، ولا يقل أحدكم: أصلّي في مسجدي. ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ الدعاء على بابه أمر به مقروناً بالإخلاص. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ هذا إعلام بالبعث أي: كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت. والكاف في «كما» للتشبيه و«ما» مصدرية. والمعنى: تعودون بإنشائه تعالى مثل بدئه إياكم، شبّه الإعادة بالبدء.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ تقسيم للمؤمن والكافر. وانتصب «فريقاً» على أنه مفعول بهدى، و﴿فَرِيقًا﴾ الثاني انتصب بإضمار فعل يفسّره ما بعده تقديره: وأضل فريقاً. وهذا من باب الاشتغال فسّره فعل ناصب[2] من معنى قوله ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾. ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ لتعليل الفريق الذي حقت عليهم الضلالة.

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) الكشاف ٢: ٧٥.

(٢) ق: فسّر فكل ناصب.

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ [٢٠٨/ أ] زِينَتَكُمۡ ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، وكانوا لا يأكلون في أيام حجّهم دسماً، ولا ينالون من الطعام إلا قوتاً تعظيماً لحجّهم فنزلت[1]. والزينة فِعلة من التزيين وهو اسم ما يتجمّل به من ثياب وغيرها كقوله تعالى ﴿ وَٱزَّيَّنَتۡ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أي: بالنبات. والزينة هنا المأمور بأخذها هو ما يستر العورة في الصلاة. وفي صحيح مسلم[2] عن عروة أن العرب كانت تطوف عراة إلا الحمس وهم قريش، إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً فتعطي الرجال الرجال والنساء النساء. وفي غير مسلم[3] من لم يكن له صديق بمكة يعيره ثوباً طاف عرياناً أو في ثيابه وألقاها بعدُ فلا يمسّها أحد وتسمّى اللّقى، وقال بعضهم[4]:

[من الطويل]

كفى حَزَناً كرّي[5] عليه كأنه   لَقًى بين أيدي الطائفين حريم

فلما بعث الله تعالى رسوله وأنزل عليه «يا بني آدم خذوا زينتكم» أذّن مؤذن رسول الله ﷺ: ألا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[6]. ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ الظاهر أنه أمر بإباحة الأكل والشرب من [كل ما يمكن أن يؤكل أو يشرب مما لم يُحظر أكله وشربه في الشريعة، وإن كان النزول على سبب خاص كما ذكروا من امتناع المشركين من أكل] اللّحم والدسم أيام إحرامهم. والنّهي عن الإسراف يدل على تحريمِ بقوله تعالى «إنه

(١) انظر أسباب النزول ص١٥١.

(٢) ٢: ٨٩٤ من حديث هشام بن حكيم عن أبيه، لا عروة.

(٣) انظر مثلاً: الفتح الرباني ١٢: ١٣.

(٤) البيت في اللسان «حرم» غير منسوب.

(٥) ق: كدّي.

(٦) ق: عرياناً.

لا يحب المسرفين». والظاهر تعلّق الإسراف بالأكل والشرب كما يوجد للمترفين في الدنيا من مغالاة التأنق في الأكل بحيث يغرم على الدجاجة الواحدة نحوٌ من عشرين درهماً[١]، وكما يغرم على الرطل من الحلوى نحو من أربعين درهماً. ولقد شاهدنا بعض أكابرهم رسم بأن يُعمل له خميرة وردٍ في مئين من القناني، في كل قنينة أربع[٢] أواق، فقيل له الورد كماءٍ حِلٌّ[٣] وهو غالٍ. فقال: أليس موجوداً؟ فقيل له: بلى[٤]. فقال: كل موجود ليس بغالٍ!. وكما بَلَغنا عن بعض الناس أنه يأكل الفستق مقشوراً بالسكّر النبات في القطايف، وقد سئل في حال من يأكل قشر الموز من الجوع والفقر فقال ذلك الآكل: كلنا فقراء!. وأما تأنّقهم في الأواني الصينيّة ومغالاتهم في أثمانها فكثير، ويُسألون درهماً لفقير فلا يبرّون به.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ هي ما حسّنتَهْ الشريعة وقرّرته ممّا يُتجمّل به من الثياب وغيرها. وأضيفت إلى الله تعالى لأنه هو الذي أباحها. و«الطيبات» هي المستلذّات من المأكول والمشروب بطريقه وهو الحِلّ. ومعنى الاستفهام إنكار تحريم هذه الأشياء وتوبيخ محرّميها، وقد كانوا يحرّمون أشياء من لحوم الطّيبات وألبانها. والاستفهام إذا تضمّن الإنكار لا جواب له. ومعنى ﴿أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: أبرزها وأظهرها وفصّل حلالها من حرامها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرىء: خالصةٌ، بالرفع وقرأ باقي السبعة بالنصب. فأما النصب فعلى الحال والتقدير: قل هي مستقرة للذين

---

(١) ق: درهم.
(٢) ق: أربعة.
(٣) ق: كما دخل، ولعل الصواب ما أثبتّه.
(٤) ق: نعم.

امنوا في حال خلوصها لهم يوم القيامة، وهي حال من الضمير المستكنّ في الجار والمجرور الواقع خبراً لهي، و«في الحياة» متعلق بآمنوا. وأما الرفع فجوّزوا [فيه] أن يكون خبراً لـ«هي»، و«للذين آمنوا» متعلق بـ«خالصة»، و«في الحياة» متعلق بـ«آمنوا»، ويصير المعنى: قل هي خالصة يوم القيامة لمن آمن في الدنيا. ولا يعني يوم القيامة وقت الحساب، وخلوصها كونهم لا يعاقبون عليها، وإلى هذا المعنى يشير[1] ابن جبير. وجوّزوا فيه أن يكون خبراً بعد خبر، والأول هو «للذين آمنوا» و«في الحياة الدنيا» متعلق بما يتعلق به «للذين» وهو الكون المطلق؛ [أي]: قل هي كائنة في الحياة الدنيا للمؤمنين وإن كان يشركهم فيها في الحياة الدنيا الكفار، وخالصة لهم يوم القيامة. ويراد بيوم القيامة استمرار الكون في الجنّة. وهذا المعنى من أنها لهم ولغيرهم في الدنيا خالصة لهم يوم القيامة هو قول ابن عباس وجماعة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ [٢٠٨/ ب] ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ تقدم تفسير الفواحش في أواخر الأنعام[2]. ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ قال ابن عباس: هنا «ما ظهر منها» ما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الأبناء نساء الآباء، والجمع بين الأختين، وأن تنكح المرأة على عمّتها وخالتها. «وما بطن» وهو الزّنى. وما عطف عليها بدل من «الفواحش» وهو بدل تفصيلي لانقسام الفواحش إلى ظاهرة وباطنة، ونظيره قوله[3]: [من الطويل]

وكنتُ كذي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صحيحةٍ ورِجْلٍ رمى فيها الزمانُ فشَلَّتِ

و﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾ عام يشمل الأقوال والأفعال التي يترتب عليها الإثم.

---

(١) ق: يصير.

(٢) الآية ١٥١.

(٣) البيت لكثيّر عزّة في ديوانه ص٩٩.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ التعدّى وتجاوز الحدّ مبتدئاً كان أو منتصراً. وقوله ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادة بيان وليس يُتصور بغيٌ بحقٍّ [لأن ما كان بحقّ] لا يسمّى بغياً. وتقدم تفسير «ما لم ينزّل به سلطاناً» في الأنعام[1] فأغنى عن إعادته.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: ولكل واحد من الأمة عمر ينتهي إليه بقاؤه في الدنيا، فإذا مات، علم ما كان عليه من حق أو باطل. وقرىء: جاء آجلهم بإبدال همزة «أجلهم» ألفاً، وقرىء أيضاً بحذفها، وقرىء أيضاً بإقرارها همزة. وجواب «إذا» قوله «لا يستأخرون». وقال الحوفي «ولا يستقدمون» معطوف على «يستأخرون» انتهى. وهذا لا يمكن لأنّ إذا شرطية، فالذي يترتب عليها إنما هو مستقبل، ولا يترتب على مجيء الأجل في المستقبل إلا مستقبل، وذلك يُتصور في انتفاء الاستئخار لا في انتفاء الاستقدام، لأن الاستقدام سابق على مجيء الأجل في الاستقبال، فيصير نظير قولك: إذا قمت في المستقبل لم يتقدم قيامك في الماضي. ومعلوم أنه إذا قام في المستقبل، لم يتقدم قيامه هذا في الماضي، وهذا شبيه بقول زهير[2]:

بدا ليَ أني لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا

ومعلوم أن الشيء إذا كان جائياً إليه لا يسبقه. والذي تُخرّج عليه الآية أن قوله «ولا يستقدمون» منقطع من الجواب على سبيل استئناف إخبار، أي: وهم لا يستقدمون الأجل أي: لا يسبقونه. وصار المعنى أنهم لا يسبقون الأجل ولا يتأخرون عنه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا

(١) الآية ٨١.

(٢) ديوانه ص٢٨٧.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ
مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا
هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم
مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ هذا الخطاب هو لبني آدم في الأزل، وقيل: مراعىً به وقت الإنزال، وجاء بصورة الاستقبال، لتقوى الإشارة بصحة النبوّة إلى محمد ﷺ. و«ما» في «إمّا» تأكيد، وجواب الشرط: «فمن اتقى وأصلح».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لمّا ذكر المكذبين ذكر من هو أسوأ حالاً منهم وهو من يفتري الكذب على الله تعالى، وذكر أيضاً من كذّب بآياته. «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب» ذكرو أقوالاً كثيرة؛ والذي يظهر أن الذي كُتب لهم في الدنيا من رزق وأجل وغيرهما ينالهم فيها، ولذلك جاءت التغْيِيَةُ بعدها بحتّى. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ تقدم الكلام على «حتى إذا» في أوائل الأنعام[1]. والمعنى أنهم ينالهم حظّهم ممّا كتب لهم إلى أن

(١) الآية ٣١.

تأتيهم رسل الموت يقبضون أرواحهم فيسألونهم سؤال توبيخ وتقرير: أين معبوداتكم من دون الله تعالى؟ فيجيبون بأنهم ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: هلكوا واضمحلّوا. والرّسل: ملك الموت وأعوانه. و«يتوفونهم» في موضع الحال.

وكتبت «أين ما» متصلة، وكان قياس كتابتها الانفصال، لأن «ما» موصولة كهي في: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۝١٣٤﴾ [الأنعام] إذ التقدير: أين الآلهة التي كنتم تعبدون. ومعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تستغيثونهم لقضاء حوائجكم. وجواب سؤالهم ليس مطابقاً من جهة اللفظ، لأن سؤاله عن مكان، وأجيب بفعلٍ، وهو مطابق من جهة المعنى إذ [٢٠٩/أ] تقدير السؤال: ما فعل معبودوكم[1] من دون الله معكم؟ قالوا: ضلّوا عنّا. ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ استئناف إخبار من الله تعالى بإقرارهم على أنفسهم بالكفر.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: يقول الله لهم أي: لكفّار العرب وهم المفترون الكذب والمكذّبون بالآيات وذلك يوم القيامة. وعبّر بالماضي لتحقق وقوعه، وقوله ذلك على لسان الملائكة. ويتعلق «في أمم» في الظاهر بـ«ادخلوا» والمعنى: في جملة أمم، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف، فيكون في موضع الحال. و﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: تقدمتكم في الحياة الدنيا أو تقدم دخولها في النار. وقدم الجنّ لأنهم الأصل في الإغواء والإضلال، ودلّ ذلك على أن عصاة الجن يدخلون النار. و«في النار» متعلق بـ«خَلَتْ» على أن المعنى: تقدم دخولها، أو بمحذوف هو صفة «لأمم» أي: في أمم سابقة في الزمان كائنة من الجن والإنس كائنة في النار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: «كلّما» للتكرار ولا يستوي ذلك في الأمة

(١) ق: معبودكم.

الأولى، فاللاحقة تلعن السابقة أو يلعن بعض الأمة الداخلة بعضها. ومعنى «أختها» أي: في الدين، والمعنى كلما دخلت أمة من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وغيرهم من الكفار. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾: «حتى» غاية لما قبلها، والمعنى أنهم يدخلون فوجاً ففوجاً لاعناً بعضهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها. وأصل «اداركوا» تداركوا، أدغمت التاء في الدال، فاجتُلبت همزة الوصل.

وأخرى هنا بمعنى آخِرة مؤنث آخِر مقابل أول لا مؤنث آخَر بمعنى غير كقوله تعالى ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام]. واللام في «لأولاهم» لام السبب أي: لأجل أولاهم، لأن خطابهم مع الله تعالى لا معهم. «أضلّونا» شرعوا لنا الضلال وجعلونا نضلّ وحملونا عليه. ﴿ضِعْفًا﴾ زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومسبّبو كفرنا. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: لكلٍّ من الأخرى والأولى عذاب مضاعف زائد إلى غير نهاية، وذلك أن العذاب مؤبّد فكلّ ألمٍ يعقبه آخر. وقرأ الجمهور بالتاء على الخطاب للسائلين، أي: لا تعلمون ما لكلّ فريق من العذاب أو لا تعلمون المقادير وصور العذاب. أو خطاب لأهل الدنيا أي: ولكن يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدار ذلك. وهذه الجملة ردٌّ على أولئك السائلين وعدم إسعاف لما طلبوا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: قالت الطائفة المتبوعة للطائفة المتَّبِعة. واللام في «لأخراهم» لام التبليغ نحو: قلت لك اصنع كذا، لأن الخطاب هو مع أُخراهم، بخلاف اللام في «لأولاهم» فإنها كما ذكرنا لام السبب لأن الخطاب هناك هو مع الله تعالى. وقبل قوله «فما» جملة محذوفة وتقديرها: فما أجابكم الله تعالى إلى ما طلبتم من تضعيف العذاب لنا. ﴿فَمَا [كَانَ] لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ باتّباعكم إيّانا في الدنيا، بل كفرتم اختياراً لا أنّا حملناكم على ذلك إجباراً. وأنّ قوله ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ من كلام الأولى خطاباً

للأخرى على سبيل التشفّي منهم، وأنّ ذوق العذاب بما كسبتم من الآثام لا بسبب دعواكم أنّا أضللناكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ أي: عن قبولها والتفكّر فيها والإيمان بها، والاستكبار هو نتيجة التكذيب. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قرىء: لا تفتح، مخفّفاً ومثقّلاً وبياء الغيبة. «أبواب السماء» قال ابن عباس لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ولا لما يريدون به طاعته [٢٠٩/ب] تعالى، أي: لا يصعد لهم عمل صالح فتفتح له[1] أبواب السماء. وقيل: المعنى لا تفتح لهم أبواب السماء في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنّة. ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ﴾ الولوج التقحّم في الشيء. «الجمل» الحيوان المعروف، والجمل حبل السفينة، ولغاته تأتي في المركبات[2]. ﴿سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ثقبه. وتضمّ سين «سمّ» وتفتح وتكسر. وكل ثقب في أنف أو أذن أو غير ذلك فالعرب تسمّيه سَمّاً. و«الخِياط» المِخْيَط وهما آلتان كإزار ومئزر ولحاف ومِلْحف وقناع ومِقْنع. و«يلج» هذا نفي مُغَيّا بمستحيل، وذكر الجمل لأنه أعظم الحيوان المزاول للإنسان جثّة، فلا يلج إلا في باب واسع، فلا يدخلون الجنة أبداً. وقال الشاعر[3]: [من الوافر]

لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ   فَلَمْ يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

وقرأ ابن عباس في جماعة، وأبان عن عاصم: الجُمَّل، بضم الجيم والتشديد وفُسّر بالقلس الغليظ وهو حبل السفينة، تُجمع حبال وتُفتل وتصير

(١) ق: لهم.

(٢) انظر البحر ٤: ٢٩٧، وكذا اللسان «جمل».

(٣) البيت للعباس بن مرداس في الحماسة ٣: ١١٥٥.

حبلاً واحداً. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل [ذلك] الجزاء نجزي أهل الجرائم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب، كما قال تعالى ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر]. والغواشي: جمع غاشية، قال ابن عباس: هي اللحف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لما أخبر تعالى بوعيد[1] الكفار أخبر بوعد المؤمنين. وخبر «والذين» الجملة من «لا نكلّف نفساً» أي: منهم، أو الجملة من «أولئك» وما بعده، وتكون جملة «لا نكلف» اعتراضاً بين المبتدأ والخبر، وفائدته أنه لما ذكر قوله «وعملوا الصالحات» نبّه على أن ذلك العمل وُسْعهم وغير خارج عن قدرتهم. وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عِظَم محلّها يُوصَل إليها بالعمل السهل من غير مشقة.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الغل]: الحقد والإحنة الخفية في النفس وجمعها غلال، ومنه الغلول: أخذ الشيء في خفاء. «ونزعنا» أي: أذهبنا في الجنة ما انطوت عليه صدورهم من الحقود. ونزع الغلّ في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل منازلهم، وكنّى بالصدر عن الشخص. والذي

(١) ق: بوعد.

يظهر أن النزع للغلّ كناية عن خَلْقهم في الآخرة سالمي القلوب طاهريها متوادّين متعاطفين كما قال تعالى ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]. و﴿تَجْرِى﴾ حال، قاله الحوفي، قال: والعامل فيه «نزعنا». وقال أبو البقاء: حال والعامل معنى الإضافة. وكلا القولين لا يصحّ لأنّ «تجري» ليس من صفات الفاعل الذي هو ضمير «نزعنا»، ولا من صفات المفعول الذي هو «ما في صدورهم»، ولأنّ(١) معنى الإضافة لا يعمل إلا إذا كانت إضافةً يمكن للمضاف أن يعمل إذا جُرّد من الإضافة رفعاً ونصباً فيما بعده. والظاهر أنه خبر مستأنف عن صفة حالهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: وفّقنا لتحصيل هذا النعيم الذي صرنا إليه بالإيمان والعمل الصالح، إذ هو نعمة عظيمة، يجب عليهم بها حمده والثناء عليه. «وما كنا» وقرىء: ما كنّا. ومعنى «لنهتدي» أي: من ذوات أنفسنا، «لولا أن هدانا الله». وجواب لولا الجملة قبلها وهو «وما كنّا لنهتدي»، ولا ينكر تقديم جواب لولا عليها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴿١٠﴾﴾ [القصص] وقوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ[٢١٠/ أ] رَبِّهِۦ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف](٢) وإن كان الأكثر في لسان العرب تأخير جواب لولا كقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النور]. و«أن هدانا» في موضع رفع بالابتداء تقديره: لولا هداية الله إيانا.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالموعود الذي وعدونا في الدنيا، قَضَوا بأنّ ذلك حقٌّ قضاءَ مشاهدةٍ بالحسّ، وكانوا في الدنيا يقضون بذلك قضاء

---

(١) ق: وكان.

(٢) ق: وهمّت به لولا.

استدلال. ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ يُحتمل أن يكون النداء من الله تعالى، وهو لقلوبهم أسرّ وأرفع لقدرهم، ويحتمل أن يكون من الملائكة. ويحتمل أن تكون [أنْ] المخففة من الثقيلة أي: ونودوا بأنّه تلكم الجنة، واسمها ضمير الشأن يحذف إذا خفّفت. ويحتمل أن تكون «أنْ» مفسّرة لوجود شرطيها وهما أن يكون قبلها جملة في معنى القول وبعدها جملة وكأنه قيل: تلكم الجنّة. و«تلكم» اسم إشارة والذي بعدها خطاب للجماعة، والمعنى أن البعد فيها باعتبار سَبْق الوعد بها في الدنيا، و«الجنة» صفة لـ«تلكم»، و«أورثتموها» خبر عن تلكم، والهمزة في «أورثتموها» بدل من واو بدلاً جائزاً، لأن أصل المادة الواو والراء والثاء تقول: وَرِثَ يَرِثُ، ولو قرىء: وُورثتموها لكان عربياً لأن «فاعِل» من ذوات الواو نحو واري إذا بنيت للمفعول يجوز أن تبدل [واوه] همزة فتقول: أوري، وأصله وُوري.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ
يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾
۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ
أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا
مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا
نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ
فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: من فريقي الجنّة والنار بعلامتهم التي يتميّزون بها من ابيضاض وجوه واسوداد وجوه. وفي هذه الجملة التجنيس[١] المغاير، وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً، فـ«الأعراف» اسم و«يعرفون» فعل. والرجال: قوم تساوت حسناتهم وسيّئاتهم وقفوا هنالك ما شاء الله تعالى لم تبلغ حسناتهم بهم دخول الجنة ولا سيّئاتهم دخول النار. وروي في مسند ابن أبي خيثمة[٢] عن جابر عن رسول الله ﷺ حديث فيه: «قيل: يا رسول الله من استوت حسناته وسيّئاته؟. قال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها، وهم يطمعون».

﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ﴾ الضمير في «نادَوْا» عائد على «رجال». و«أن» تفسيرية أو مخفّفة من الثقيلة كما تقدّم. و﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ جملة حالية العامل فيها «نادَوْا» [أي: نادَوْا] غيرَ داخلي الجنّة. ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملة حالية أيضاً أي: يطمعون في دخولها. وأجاز الزمخشري[٣] أن يكون «لم يدخلوها وهم يطمعون» صفة لرجال. وهو بعيد، للفصل بين الموصوف والصفة بجملة «ونادوا» وليست جملة اعتراض.

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ الضمير في «أبصارهم» عائد على رجال الأعراف يسلّمون على أهل الجنة وإذا نظروا إلى أهل النار دعوا الله تعالى في التخلص منهم، قاله ابن عباس وجماعة. وفي قوله «صُرفت» دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة، وأنّ نظرهم إلى أصحاب النار

---

(١) ق: من التجنيس.

(٢) حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه وأورده ابن كثير ٣: ١٧١ وقال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) الكشاف ٢: ٨٢.

بكونهم صُرفت أبصارهم تلقاءهم، فليس الصرف من قِبَلِهم بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك: لأن ذلك المُطَّلَع مَخُوفٌ من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلّبس به. والمعنى أنهم إذا حُملوا على صرف أبصارهم، ورأوا ما هم عليه، استغاثوا بربّهم من أن يجعلهم معهم. ولفظة «ربنا» مشعرة بوصفه تعالى بأنه مصلحهم وسيّدهم وهم عبيده، فبالدعاء به طلب رحمته واستعطاف كرمه. و«تلقاء» تفعال من اللقاء، استعمل ظرف مكان، تقول: زيد تلقاء عمرو، أي: مكان لقائه وجهته.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ الآية، هذا النداء وأولئك الرجال في النار، ومعرفتهم [إياهم] في الدنيا بعلامات. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدنيا: المال والولد والأجناد والحجّاب والجيوش. و«ما أغنى» استفهام توبيخ وتقريع، و«ما» في «ما أغنى» يجوز أن تكون نافية، و«ما» في «وما كنتم» مصدرية أي: وكونكم تستكبرون. وقرأت فرقة: تستكثرون بالثاء المثلثة من الكثرة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ هذا يقتضي سماع كلٍّ من الفريقين كلام الآخر، وهذا جائز عقلاً على بعد المسافة بينهما من العلوّ والسّفل، وجائز أن يكون ذلك مع رؤية واطّلاع من الله تعالى، وذلك أخزى وأنكى للكفار، وجائز أن يكون ذلك وبينهم الحجاب والسّور. وعن ابن عباس أنه لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا: يا ربّ لنا قرابات من أهل الجنة فأْذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم، فنظروا إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل النار فلم يعرفوهم قد اسودّت وجوههم وصاروا خَلْقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأخبروهم

بقراباتهم، فينادي الرجلَ أخوه فيقول: يا أخي قد احترقتُ فأغثني. فيقول: إن الله حرّمهما على الكافرين. ويحتمل أن تكون [أن] مصدرية ومفسّرة [٢١١/أ] وكلام ابن عباس يدلّ[١] على أن هذا النداء كان عن رجاء وطمع في حصول ذلك، وقيل: [هو] مع اليأس لأنهم قد علموا دوام عقابهم وأنه[٢] لا يفترّ عنهم، ولكنّ اليائس من الشيء قد يطلبه كما يقال: إنّ الغريق يتعلّق بالزّبد، وإن علم أنه لا يغنيه.

و«أفيضوا» أمكن من: اسقونا لأنها تقتضي التوسعة، كما يقال: أفاض الله عليه نعمه أي: وسّعها. وسؤالهم الماء لشدّة التهابهم واحتراقهم، ولأن من عادته إطفاء النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن البنية البشرية لا تستغني عن الطعام إذ هو مقوّيها[٣]، أو لرجائهم الرحمة بأكل طعام أهل الجنة، و«أو» على بابها من كونهم سألوا أحد الشيئين، وأتى «أو ممّا رزقكم الله» عامّاً. والعطف بأو يدلّ على أن الأول لا يندرج في العموم، وقيل: أو بمعنى الواو لقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾، وقيل: المعنى: حرّم كلًّا منهما، فأو على بابها. و«ما رزقكم الله» عامّ فيدخل فيه الطعام والفاكهة والأشربة غير الماء، أو تضمّن «أفيضوا» معنى: ألقوا، فيتعدى للماء ولغيره. و«ما» في «ممّا» موصولة والعائد عليها محذوف تقديره رزقكموه، ومعنى التحريم هنا المنع كما قال[٤]: **[من الطويل]**

---

(١) ق: يقتضي يدل.

(٢) ق: وأنهم.

(٣) ق: مقولها.

(٤) لم أتعرّف تمامه وقائله وانظر البحر ٤: ٣٠٥.

حرامٌ على عينيّ أن تطعما[1] الكرى

وإخبارهم بذلك هو عن أمر الله تعالى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ تقدم تفسيرها في الأنعام[2] فأغنى عن إعادته. ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عمّا يفعل بهم، قال ابن عباس وجماعة: يتركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ معطوف على «ما نَسُوا» و«ما» فيهما مصدرية، والكاف في «كما» للتعليل أي: لنسيانهم وكونهم جحدوا بآيات الله.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الضمير في «جئناهم» عائد على من تقدم ذكره، ويكون الكتاب على هذا جنساً، أي: بكتاب إلهي، إذ الضمير عام في الكفار، و﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ صفة لكتاب، و﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الظاهر أنه حال من فاعل «فصّلناه». وانتصب «هدى ورحمة» على الحال، وقيل مفعول من أجله أي: لأجل الهدى. وقرىء بالرفع، أي: هو هدى ورحمة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: مآل أمره وعاقبته، قال ابن عباس: مآله يوم القيامة. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يظهر عاقبة ما أخبر به من الوعد والوعيد، يسأل تاركو اتّباع الرسل: هل لنا من شفعاء. والناصب ليوم: «يقول»، والجملة بعد «يوم» في تقدير مصدر أي: يوم إتيان تأويله. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: تركوا العمل به واتّباعه. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ هو معمول القول، و«مِن» زائدة و«شفعاء» مبتدأ و«لنا» في موضع الخبر، و﴿فَيَشْفَعُواْ﴾ جواب الاستفهام منصوب بحذف النون. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ هو على إضمار هل أي: هل

---

(١) ق: تطعم.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٠.

نرد، وجوابه «فنعمل»، عطف جملة استفهام فعلية على جملة استفهام اسمية. ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبطل عنهم افتراؤهم على الله تعالى ما لم يقُلْه ولا أمر به، وكذبُهم في اتخاذهم آلهة [من] دون الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، لما ذكر تعالى أشياء من مبدأ خلق الإنسان وانقسامهم إلى مؤمن وكافر ومعادهم وحشرهم إلى جنة ونار، ذكر مبدأ العالم واختراعه، ثم بعد إلى النبوة والرسالة، إذ مدار القرآن على تقرير المسائل الأربع: التوحيد والقدرة والمعاد والنبوّة. و«ربكم» خطاب عامّ للمؤمن والكافر. ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في صحيح مسلم[(١)] عن أبي هريرة قال «أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: خلق الله عزّ وجلّ التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق [٢١١/ب] الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم

---

(١) ٤: ٢١٤٩.

الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل».

وأما استواؤه تعالى على العرش فحمَلَه على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قوم. والجمهور من السلف السفيانان ومالك والأوزاعي والليث وابن المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها وإمرارها على ما أراد الله تعالى من غير تعيين مراد، وقوم تأوّلوا ذلك على عدّة تأويلات، ومسألة الاستواء مذكورة في علم أصول الدين. و«العرش» السقف، وكلُّ ما علا وأظلّ فهو عرش.

﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ التغشية التغطية، والمعنى أنه يُذهب الليل نور النهار، [فالليل للسكون والنهار للحركات. وفحوى الكلام يدل على أن النهار يُغشيه الله الليل]. وهما مفعولان [لأنّ] التضعيف والهمزة مُعدّيان. وقرىء بالتضعيف والهمز. وقرأ حميد بن قيس: يَغْشَى الليلُ، بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضمّ اللام كذا قال عنه أبو عمرو[1] الداني. وقال أبو الفتح بن جني عن حميد بنصب «الليل» ورفع «النهار». قال ابن عطية: وأبو الفتح أثبت [انتهى].

هذا الذي قاله من أنّ أبا الفتح أثبت كلاماً لا يصحّ، إذ رتبة أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبط رواياتها واختصاصه بذلك، بالمكان الذي لا يدانيه أحد من أئمة القراءة فضلاً عن النحاة الذين ليسوا مقرئين ولا رَوَوْا القرآن عن أحد ولا روى عنهم القرآن أحد، هذا مع الديانة الزائدة والتثبّت في النقل وعدم التجاسر ووفور الحظّ من العربية؛ فقد رأيت له كتاباً في «كلا وكلتا» وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلاّ على اطّلاعه

(١) ق: عمر، وكذا في المواضع التالية.

على ما لا يكاد يطّلع عليه أئمة النحاة ولا المقرئين، إلى سائر تصانيفه.

والذي نقله أبو عمرو الداني عن حميد أمكن من حيث المعنى لأن ذلك موافق لقراءة الجماعة، إذ «الليل» في قراءتهم وإن كان منصوباً هو الفاعل من حيث المعنى، إذ همزة النقل والتضعيف صيّرته مفعولاً. ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى لأن المنصوبَيْن تعدّى إليهما الفعل، وأحدهما فاعل من حيث المعنى فيلزم أن يكون الأول منهما كما لزم ذلك في: ملّكتُ زيداً عَمْراً، إذ رتبة التقديم هي الموضّحة أنه الفاعل من حيث المعنى، كما لزم ذلك في: ضرب موسى عيسى.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ الجملة من «يطلبه» حال من الفاعل من حيث المعنى وهو «الليل» إذ هو المحدَّث عنه قبل التعدية، وتقديره: حاثّاً. ويجوز أن يكون حالاً من النهار وتقديره: محثوثاً. ويجوز أن ينتصب نعتاً لمصدر محذوف أي: طلباً حثيثاً أي: حاثّاً أو محثّاً. ونسبة الطلب إلى الليل مجازية، وهو عبارة عن تعاقبه اللازم فكأنه طالبٌ له لا يدركه بل هو في أثره بحيث يكاد يدركه. وقدّم «الليل» هنا كما قدّمه في ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴿٦١﴾﴾ [الحج] وفي ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] وفي ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وانتصب «مسخرات» على الحال من المجموع أي: وخلق الشمس. وقرىء بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر. [وقرأ أبان بن ثعلب برفع «والنجوم مسخرات» فقط على الابتداء والخبر]. ومعنى «بأمره» أي: بمشيئته وتصريفه وهو متعلق «بمسخّرات»، أي: خلَقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره وكما يريد أن يصرّفها، سمّى ذلك أمراً على التشبيه كأنهنّ مأمورات بذلك.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ لمّا تقدّم ذِكْر الخلق وأَمْره فيها قال ذلك، أي: له

الإيجاد والاختراع وجرى ما خلق واخترع على ما يريده، وما يأمر به، لا أحد يشركه في ذلك ولا في شيء منه. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: علا وعَظُم. ولمّا تقدّم [٢١٢/أ] «إن ربكم» صدر الآية، جاء آخرها «تبارك الله رب العالمين». وجاء «العالمين» أعمّ من «ربكم» لأنه [ذكر] خلق تلك الأشياء البديعة وهي عوالم كثيرة، فجاء «العالمين» جمعاً(١) لجميع العوالم، واندرج فيه المخاطبون بـ«ربّكم» وغيرهم. و«تبارك» فعل جامد لا يتصرّف، فلا يقال منه مضارع ولا اسم فاعل ولا فعل أمر؛ لا يقال: يتبارك ولا متبارِك ولا تبارَكْ.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الظاهر أن الدعاء هو مناجاة الله تعالى بندائه لطلب أشياء ولدفع أشياء. وانتصب «تضرعاً وخفية» على الحال أي: متضرّعين وَمُخْفِين، أو ذوي تضرّع واختفاء في دعائكم. و[في] الحديث الصحيح(٢) «إنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً».

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا اللفظ عام، يدخل فيه أوّلاً الدعاء على غير هذين الوجهين من عدم الخفية والتضرّع، بأن يدعوه وهو ملتبس بالكبر والزّهو، أو أن ذلك دأبه في المواعيد والمدارس، فصار له ذلك صنعة وعادة فلا يلحقه تضرّع ولا تذلّل، وبأن يدعوه بالجهر البليغ والصياح، كدعاء الناس عند الاجتماع في المشاهد والمزارات. وقال العلماء: الاعتداء في الدعاء على وجوه كثيرة منها الجهر الكثير والصياح.

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ هذا نهي عن إيقاع الفساد في

(١) عبارة ق: وهي عن ألم كثيرة في العالمين جمعاً.
(٢) رواه مسلم ٤: ٢٠٧٧ من حديث أبي موسى.

الأرض وإدخال ماهيّته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان. ومعنى «بعد إصلاحها» أي: بعد أن أصلح [الله] خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلّفين. ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ لمّا كان الدعاء من ا لله تعالى بمكانٍ، كرّره، فقال أولاً «ادعوا ربكم تضرّعاً وخفية» وهاتان الحالتان من الأوصاف الظاهرة، لأن الخشوع والاستكانة وإخفاء الصوت ليست[1] من الأفعال القلبية. ثم كرّر الأمر[2] بالدّعاء خوفاً وطمعاً وهما من الأوصاف القلبية أي: وجلين مشفقين وراجين مؤمّلين، فبدأ أولاً بأفعال الجوارح ثم ثانياً بأفعال القلوب. وانتصب «خوفاً وطمعاً» على أنهما مصدران في موضع الحال، أو انتصاب المفعول له. وعَطْف أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون الخوف والرجاء متساويين.

وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء.

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والرحمة مؤنثة، فقياسها أن يخبر عنها إخبار المؤنث فيقال: قريبة. قال الفرّاء[3]: إذا استعمل في النسب والقرابة فهي مع المؤنث بتاء ولا بدّ، تقول: هذه قريبة فلان، وإذا استعملت في قرب المسافة أو الزمن فقد تجيء مع المؤنث بتاء وقد تجيء بغير تاء، تقول: دارك منّي قريب، وفلانة منّا قريب، ومن هذا قول الشاعر[4]:

عشيّةَ لا عَفْراءُ منكَ قريبةٌ ... فتَدْنُو ولا عَفْراءُ منكَ بعيدُ

[من الطويل]

---

(١) ق: ليسا.

(٢) ق: أمر.

(٣) معاني القرآن ١: ٣٨٠، والنصّ منقول بتصرف.

(٤) البيت في سمط اللآلي ١: ٤٠١ لعروة بن حزام.

فجمع في هذا البيت بين الوجهين، انتهى. وقال تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب] وقال الشاعر[1]: [من الطويل]

له الويل إن أمسى ولا أمُّ هاشم قـريـبٌ ولا البَسْبـاسـةُ ابنـةُ يشكـرا

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ لمّا ذكر تعالى الدلائل على كمال ألوهيّته وقدرته وعلمه من العالم العلوي، أتبعها بالدلائل من العالم السفلي، وجعل الخبر موصولاً في «إن ربكم الله الذي»[2] وفي «وهو الذي» دلالة على كون ذلك معهوداً عند السامع مفروغاً من تحقق النسبة فيه والعلم به، ولم يأت التركيب: إن ربكم خلق، ولا: وهو يرسل الرياح. قرىء: نُشُراً، جمع نَشور كصَبور وصُبُر. وقرىء: نُشْراً بإسكان الشين تخفيفاً [٢١٢/ب] من الضمّ كرُسُل ورُسْل. ونَشْراً: مصدر نَشَر. وبُشْرى، والألف للتأنيث وهو مصدر بشّر كرُجعى. ومعنى ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلّ النّعم وأحسنها أثراً. والتعبير عن أمام الرحمة بقوله «بين يدي رحمته» من مجاز الاستعارة، إذ الحقيقة هو ما بين يدي الإنسان من الأجرام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ هذه غاية لإرسال الرياح، والمعنى أنه تعالى يرسل الرياح منشّرات أو مبشّرات إلى سَوْقَ السحاب وقت إقلاله إلى بلد ميّت. و«السحاب» اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث فيذكّر كقوله تعالى ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة] ويؤنث ويوصف ويخبر عنه بالجمع كقوله تعالى «ثقالاً» وثقله بالماء الذي فيه. ونسب السَّوق إليه تعالى بنون العظمة التفاتاً، إذ فيه خروج من ضمير الغيبة في «رحمته» إلى ضمير المتكلم في

---

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٦٨.

(٢) الآية ٥٤ المتقدمة.

«سقناه» لما فيه من عظيم المنّة وجليل النعمة. وذكّر الضمير في «سقناه» رعياً للفظه كما قلنا إنه يذكّر. واللام في «لبلد» لام التبليغ كقولك: قلت لك. وقال الزمخشري[١]: لأجل بلد. فجعل اللام لام العلّة ولا يظهر، وفرقٌ بين قولك: سقتُ لك مالاً، وسقت لأجلك مالاً، فإن الأول معناه: أوصَلْتُه لك وأَبْلَغْتُكَهُ[٢]، والثاني لا يلزم منه وصوله إليه بل قد يكون الذي وصل إليه المال غير الذي علّل به السَّوق؛ ألا ترى صحّة قول القائل: لأجل زيد سقتُ لك مالك؟. ووَصْفُ البلد بالموت استعارة حسنة لجدبه وعدم نباته، كأنه من حيث عدم الانتفاع به كالجسد الذي لا روح فيه.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الظاهر أن الباء ظرفية والضمير عائد على «بلدٍ ميت» أي: فأنزلنا فيه الماء وهو أقرب مذكور فحسن عَوْده إليه. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ظاهره العموم. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [أي: مثل هذا الإخراج وهو إخراج النبات نخرج الموتى] من قبورهم أحياءً إلى الحشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بإخراج الثمرات وإنشائها خروجكم للبعث إذ الإخراجان سواء؛ فهذا الإخراج المشاهَد، نظيره الإخراج الموعود به.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾. «الطّيب» الجيّد التّربة الكريم الأرض. ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ المكان السّبخ الذي لا يُنبت ما يُنتفع به وهو الرديء من الأرض. ولما قال «فأخرجنا به من كل الثمرات» تمّم هذا المعنى بكيفيّة ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والأرض السّبخة. وفي الكلام حال محذوفة أي: يخرج نباته وافياً حسناً، وحذفت لفهم المعنى، ولدلالة البلد الطيب عليها، ولمقابلتها بقوله «إلا نكداً»، ولدلالة «بإذن ربه» لأن ما أذن تعالى في

---

(١) الكشاف ٢ : ٨٤.

(٢) ق : وأبلغتك هو.

إخراجه لا يكون إلا على أحسن حال. و«بإذن ربّه» في موضع الحال. وخصّ خروج النبات[1] الطيب بقوله «بإذن ربه» على سبيل المدح له والتشريف ونسبة الأشياء الشريفة الطيّبة إليه تعالى وإن [كان] كلا النّباتَيْن يخرج بإذنه تعالى. ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بتيسيره. وحذف من الجملة الثانية الموصوف أيضاً والتقدير: والبلد الذي خبث، لدلالة «والبلد الطيب» عليه، فكلٌّ من الجملتين فيه حذف.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي: مثل هذا التصريف والترديد والتنويع، ننوّع الآيات ونردّدها وهي الحجج الدالّة على الوحدانية والقدرة التامّة الباهرة والفعل بالاختيار. ولمّا كان ما سبق ذكره من إرسال الرياح مبشرات ومنشّرات سبباً لإيجاد النبات الذي هو سبب إيجاد الحياة وديمومتها، كان ذلك أكبر نعمة على الخلق فقال «لقوم يشكرون» أي: يشكرون هذه النعمة التي لا تكاد توازيها نعمة. وخصّ الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بهذه النعم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

---

(١) ق: نبات.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ لما ذكر تعالى في هذه السورة مبدأ الخلق الإنساني، وهو آدم عليه السلام، وقصّ من أخباره ما قصّ، واستطرد من ذلك [٢١٣/أ] إلى المعاد ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاوة إلى النار، قصّ تعالى على نبيّه ﷺ أحوال الرسل الذين كانوا قبله وأحوال من بُعثوا إليه، على سبيل التسلية له، عليه السلام، والتأسّي بهم، فبدأ بنوح عليه السّلام، إذ هو آدم الثاني وأول رسول بُعث إلى من في الأرض، وأمّته أَدْوَمُ تكذيباً له وأقلّ استجابة له. وتقدّم رفع نسبه إلى آدم عليهما السلام[١]. وكان نجّاراً، بعثه الله إلى قومه، وهو ابن أربعين سنة، قاله ابن عباس. قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: ما بالهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع «قد» وقلّ عنهم نحو[٣]: [من الطويل]

حلفتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ   لَنَامُوا [فما إنْ من حديثٍ ولا صالِ]

قلت: إنّما كان ذلك لأن الجملة القَسَميّة لا تساق إلا تأكيداً لجملة القسم التي هي جوابها، فكان مظنّة لمعنى التوقّع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم انتهى. وبعض أصحابنا يقول: إذا أُقسم على جملة مصدّرة بماضٍ مثبت متصرّف وكان قريباً[٤] من زمان الحال، أتيتَ مع اللام بقد الدالّة على التقريب من زمن الحال، ولم تأت بقد بل باللام وحدها إن لم تُرد التقريب.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ في ندائه قومه تنبيه لهم لما يلقيه إليهم واستعطاف وتذكير

(١) انظر تفسير الآية ٣٣ من آل عمران.

(٢) الكشاف ٢: ٨٤.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٣٢.

(٤) ق: وكان فيها من.

بأنهم قومه، فالمناسب أن لا يخالفوه. ومعمول القول جملة الأمر بعبادة الله تعالى وحده ورفض آلهتهم المسمّاة ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً وغيرها، والجملة المنبّهة على الوصف الداعي إلى عبادة الله تعالى وهو انفراده بالألوهية المرجوّ إحسانه المحذور انتقامه دون آلهتهم. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ[1] غَيْرُهُۥٓ﴾ [قرىء: غيرِه] بالجرّ نعتاً للإله على اللفظ، وقرىء: غيرُه بالرفع نعتاً للإله على الموضع، و«من» زائدة و«إله» مبتدأ و«لكم» خبره. و﴿أَخَافُ﴾ على بابها من الخوف لأنه يجوز عنده أن يؤمنوا[2] أو يؤمن بعضهم. و﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم حلول العذاب بهم في الدنيا وهو الطوفان. وفي هذه الجملة إظهار الشفقة والحنوّ عليهم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الملأ: الأشراف وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغمار عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلوّ فيها. و«نراك» الظاهر أنّها من رؤية البصر. و﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ جعلوه ظرفاً لنوح عليه السلام. ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح. وجاءت جملة جوابهم مؤكّدة بإنّ واللام.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ لم يَرد النفي منه على لفظ ما قالوه، فلم يأت التركيب: لست في ضلال مبين، بل جاء في غاية الحسن من نَفْي أن يلتبس به ويختلط ضلالة ما واحدة، فأنّى يكون في ضلال؟ فهذا أبلغ في الانتفاء من الضلال إذ لم تعتلق به ضلالة واحدة. وفي ندائه لهم ثانياً والإعراض عن جفائهم ما يدل على سعة صدره والتلطّف بهم. ولمّا نفى عنه التباس ضلالةٍ ما به، دلّ على أنه على الصراط المسقيم، فصحّ أن يستدرك كما تقول: ما زيد بضالٍّ لكنّه مهتدٍ. فلكنّ واقعة بين نقيضين لأنّ الإنسان لا يخلو من أحد

---

(١) ق: من الله.

(٢) ق: أن يكونوا يؤمنوا.

الشيئين: الضلال والهدى، ولا تُجامع الضلالة الرسالة. وفي قوله ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيه على أنه ربّهم لأنهم من جملة العوالم، أي: من ربّكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة حيث وجّه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفراده تعالى بالعبادة.

و﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ استئناف على سبيل البيان لكونه رسولاً، أو جملة في موضع الصفة لـ«رسول» ملحوظاً فيه كونه خبراً لضمير متكلم كما تقول: أنا رجل آمر بالمعروف، فتراعي لفظ أنا، ويجوز: يأمر بالمعروف، تراعي لفظ رجل. والأكثر مراعاة ضمير المتكلم والمخاطب، فيعود الضمير ضمير متكلم أو مخاطب، قال تعالى ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل] بالتاء، ولو قرىء بالياء لكان عربياً مراعاةً للفظ [٢١٣/ب] «قوم» لأنه غائب. وجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ باعتبار ما أوحي إليه في الأزمان المتطاولة، أو باعتبار المعاني المختلفة من الأمر والنهي والزجر والوعظ والتبشير والإنذار، أو باعتبار ما أوحي إليه وإلى من قبله. وتقدم الكلام على «نصح»(١) وتعديتها باللاّم إلى المفعول وبغير اللام نحو نصحت زيداً ونصحت لزيد كقول الشاعر(٢):

[من الطويل]

نَصَحْتُ بني عوفٍ فلم يَتَقَبَّلُوا وَصاتي ولم تَنْجَحْ لديهم وسائلي

وفي قوله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إبهام عليهم، وهو عام ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي يخاف عليهم ولم يسمعوا قطّ بأمّة عذّبت فتضمّن التهديد والوعيد. وما أحسن سياق هذه الأفعال: قال أولاً «أبلغكم رسالات ربي» وهذا مبدأ أمره معهم وهو التبليغ كما قال ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى]

---

(١) انظر تفسير الآية ٢١ من هذه السورة.

(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص٦٧.

ثم قال «وأنصح لكم» أي: أخلص لكم في تبيين الرشد والسّلامة في العاقبة إذا عبدتم الله تعالى وحده، ثم قال «وأعلم من الله ما لا تعلمون» من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبّه على مبدأ أمره[1] معهم ومنتهاه.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ﴾ الآية، تضمن قولهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف] استبعادهم واستمحالهم ما أخبرهم به من خوف العذاب عليهم، وأنه بعثه الله تعالى إليهم بعبادته وحده ورَفْض آلهتهم وتعجبوا من ذلك. والهمزة للإنكار والتوبيخ، أي: هذا ممّا لا يُتعجّب منه إذ له تعالى التصرف التّام بإرسال من يشاء لمن يشاء. قال الزمخشري[2]: الواو للعطف والمعطوف [عليه] محذوف كأنه قيل: أكذّبتم وعجبتم أن جاءكم انتهى. وهذا كلام مخالف لكلام سيبويه والنّحاة، لأنهم يقولون إن الواو لعطف ما بعدها على ما قبلها من الكلام ولا حذف هناك، وكان الأصل: وَأَعَجبتم، لكنه اعتنى بهمزة الاستفهام، فقُدّمت على حرف العطف، لأن الاستفهام له صدر الكلام.

﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ على إسقاط حرف الجر تقديره: لِأَنْ جاءكم، وهو تعليل لعجبهم. ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: كتاب. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم[3]. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ به أي: فجاءكم الذكر للإنذار بالمخوف، [والإنذار بالمخوف] لأجل وجود التقوى منهم، ووجود التقوى

(١) ق: أمرهم.
(٢) الكشاف ٢: ٨٦.
(٣) تقدّم في ق والمطبوع شرح «ذكر من ربكم على رجل» على شرح «أن جاءكم» فأعدته إلى سياقه.

لرجاء الرحمة وحصولها. فعلّل المجيء بجميع هذه العلل المرتّبة، لأن المرتّب على السبب سبب.

وفي قوله ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ إعلام بعلّة الغرق وهو التكذيب. و﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات تدلّ على إرساله. و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ يذكّر ويُفرد كقوله تعالى ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء] ويجمع كقوله تعالى ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]. ويتعلق «في الفلك» بما تعلّق به الظرف الواقع صلة أي: والذين استقرّوا معه في الفلك، ويحتمل أن يتعلق بـ«أنجيناه» أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان. و﴿عَمِينَ﴾ من عمى القلب أي: غير مستبصرين. ويدلّ على ثبوت هذا الوصف كونه جاء على وزن فَعِل، ولو قصد الحدوث لجاء على فاعل. وقال معاذ النحوي: يقال: رجل عَمٍ في أمره: لا يبصره، وأعمى: في البصر، قال الشاعر[1]: [من الطويل]

[وأَعْلَمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَه]   ولكنّني عن عِلْمِ ما في غدٍ عَمِي

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ

---

(١) هو زهير والبيت في ديوانه ص٢٩.

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ «إلى» متعلقة بمحذوف تقديره: وأرسلنا إلى عاد. و«عاد» اسم الحي ولذلك صَرَفَهُ، وبعضهم جعله اسماً للقبيلة فمنعه الصرف، قال الشاعر[(١)]: [من الرجز]

لو شَهِدَ عادَ في زمان عادِ   لَأَبْتَــزَّهــا مبــارِكَ الجــلادِ

سمّيت القبيلة باسم أبيهم وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وهود: قال [٢١٤/أ] شيخنا الأستاذ الحافظ أبو الحسن الأبذي النحوي المعروف، إن هوداً عربي، والذي يظهر من كلام سيبويه لمّا عدّه مع نوح ولوط وهما عجميّان، أنه عجميٌّ عنده انتهى. وهود[(٢)]: هو عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. ونزل أرضَ اليمن فهو أبو اليمن كلّها. و﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول بأرسلنا المحذوفة، و«أخاهم» ليس من عاد بل هو مجاز كما تقول: يا أخا العرب، للواحد منهم. وقيل من عاد وهو هود بن عبدالله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، فعلى هذا يكون من عاد. ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تقدم الكلام على هذا[(٣)].

---

(١) البيت في الكتاب ٣: ٢٥١، وفي الإنصاف ٢: ٥٠٤ غير منسوب فيهما.

(٢) في المعارف ص١٤ وتفسير القرطبي ٧: ٢٣٦: هو هود بن عبد الله بن رباح بن جاوب بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٩ من السورة.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى مخافة أن يحلّ بهم واقعة تشبه واقعة قوم نوح.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أتى بوصف الملأ بالذين كفروا ولم يأت بهذا الوصف في قوم نوح، لأن قوم هود كان في أشرافهم من كان آمن به، منهم مرثد بن سعد بن عفير، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن فلذلك قالوا ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء]. ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: في خفّة حلم وسخافة عقل. و«في سفاهة» يقتضي أنه فيها قد احتوت عليه كالظرف المحتوي على الشيء. وأتبعوا ذلك بقولهم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فدلّ ذلك على أنه أخبرهم بما يحلّ بهم من العذاب إن لم يتّقوا الله تعالى.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ تقدّمت كيفية هذا النفي في قوله ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف] وهناك جاء: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف] وهنا جاء «وأنا لكم ناصح أمين». لما كان آخر جوابهم جملة اسمية، جاء قوله كذلك؛ فقالوا هم: «وإنا لنظنك من الكاذبين» قال هود: «وأنا لكم ناصح أمين». وجاء بوصف الأمانة وهي الوصف العظيم الذي حمله الإنسان، ولا أمانة أعظم من أمانة الرسالة وإيصال أعبائها إلى المكلّفين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ تقدم الكلام عليه[1]. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ﴾. «إذ» ظرف لما مضى، وناصبه محذوف تقديره: واذكروا إنعامه عليكم وقت جعلكم خلفاء، فإنعامه: مفعول اذكروا. قال الزمخشري[2]: «إذ» مفعول به وهو منصوب باذكروا، أي: اذكروا وقت جعلكم.

(١) الآية ٦٣ المتقدمة.

(٢) الكشاف ٢: ٨٧: والعبارة فيه بالمعنى.

وهذا ليس بجيّد لأن إذ من الظروف التي لا تتصرّف فلا تكون مبتدأة ولا فاعلة ولا مفعولة. ومعنى ﴿خُلَفَآءَ﴾ أي: ملوكاً في الأرض استخلفكم فيها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ هذا يدل على قرب زمانهم من زمان نوح. ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ ظاهر بعض التواريخ أن البسطة الامتداد والطول والجمال في الصور والأشكال، ويحتمل أن يكون المعنى: «وزادكم بسطة» أي: اقتداراً في المخلوقين وتسليطاً عليهم واستيلاءً. ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآلاء: النعم، واحدها إِلَيّ نحو مِعىً وأمعاء. ذكّرهم أوّلاً نعماً مخصوصة من جعلهم خلفاء وزيادة البسطة، وذكّرهم ثانياً نعمه مطلقاً، وناط بِذِكْرِ نِعمهِ رجاءَ فلاحِهم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾ الظاهر أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله تعالى بالعبادة، مع اعترافهم بالله تعالى، حُبًّا لما نشؤوا عليه وتألّفاً لما وجدوا آباءهم عليه. ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ دليل على أنه كان يعدهم بعذاب الله تعالى إن أقاموا على الكفر. وقولهم ذلك يدل على تصميمهم [على تكذيبه] واحتقارهم لأمر النبوّة واستعجال العقوبة إذ هي عندهم لا تقع أصلاً.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ قال ابن عباس: الرجس: السخط أي: حلّ بكم وتحتّم عليكم. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ هذا إنكار منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصام، وهو ذكر ألفاظ ليس تحتها مدلول تستحق به العبادة، فصارت المنازعة باطلة بذلك. ومعنى «سمّيتموها[1] [٢١٤/ب] أنتم وآباؤكم» أي: أحدثتموها قريباً

(١) ق: سمّيتموها سمّيتم.

أنتم وآباؤكم وهي صمود وصداء والهباء[١]، وقد ذكر ذلك مرثد بن سعد في شعره[٢]: [من الوافر]

عَصَتْ عادٌ رسولَهُمُ فَأَضْحَوْا   عِطاشاً ما تَبُلُّهُمُ السّماءُ
لهم صنمٌ يقال له صَمودٌ   يقابله صَداءٌ والهَباءُ
فَبَصَّرَنا الرسولُ سبيلَ رَشْدٍ   فأَبْصَرْنا الهدى وجلا العماءُ
وإنّ إله هودٍ هُوْ إلهي   على الله التوكّلُ والرّجاءُ

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا غاية في التهديد والوعيد، أي: انتظروا عاقبة أمركم في عبادة غير الله تعالى، وفي تكذيب رسوله، وهذا غاية في الوثوق بما يحلّ بهم وأنه كائن لا محالة.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني من آمن معه برحمة سابقة لهم من الله تعالى وفضل عليهم حيث جعلهم آمنوا[٣]، فكان ذلك سبباً لنجاتهم مما أصاب قومهم من العذاب. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك. وتقدم الكلام في «دابر» في قوله ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]. وفي قوله «الذين كذبوا» تنبيه على علّة قطع دابرهم. وفي قوله «بآياتنا» دليل على أنه كانت لهود عليه السلام معجزات، ولكن لم تذكر لنا بتعيينها. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ جملة مؤكدة لقوله «كذّبوا بآياتنا»، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى أنهم ممّن علم الله تعالى أنهم لو بقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممّن يَقْبل إيماناً ألبتّة.

---

(١) انظر الأصنام ص١١٠-١١١.
(٢) لم أعثر عليه، وانظر البحر ٤: ٣٢٦.
(٣) ق: حيث جعلوا منهم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثمود اسم القبيلة سمّيت باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود أخو جديس وهما ابنا حاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى. وصالح عليه السلام هو ابن آسف[1] بن كاشح بن أرم بن ثمود بن حاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: آية ظاهرة جلية وشاهد على صحّة نبوّتي. وقوله «قد جاءتكم بيّنة من ربكم» كأنه جواب لقولهم[2]: ائتنا ببيّنة تدلّ على صدقك وأنك مرسل إلينا. و«من ربكم»

(١) ق: سالف. وفي الاسم اختلاف، انظر مثلاً تفسير القرطبي ٧: ٢٣٨ والمعارف ص١٤.

(٢) ق: لقوله.

متعلق بـ«جاءتكم» أو في موضع الصفة «لبيّنة».

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لمّا أبهم في قوله «قد جاءتكم بيّنة من ربكم» بيّن ما الآية، فكأنه قيل ما البيّنة؟ قال: هذه ناقة الله وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً نحو: بيت الله وروح الله، ولكونه خلقها بلا واسطة ذكر وأنثى، لا مالك لها غيره، ولأنها حجّة على القوم، ولما أودع فيها من الآيات الآتي ذكرها في قصة قوم صالح. و«لكم» بيان لمن هي موجبة عليه الإيمان وهم ثمود، لأنهم عاينوها وسائر الناس أُخبروا عنها، كأنه قال: لكم خصوصاً. وانتصب «آية» على الحال، والعامل فيها على ما نختاره فعل محذوف تقديره: انظروا إليها في حال كونها آية.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لمّا أضاف الناقة إلى الله أضاف محلّ رعيها إلى الله، إذ الأرض وما نبت فيها ملكه تعالى. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نهاهم عن مسّها بشيء من الأذى، وهذا تنبيه بالأدنى على الأعلى إذ كان قد نهاهم عن مسّها بسوءٍ إلزاماً لآية الله تعالى، فنهيُه عن نحرها وعقرها ومنعها من الماء[1] والكلأ أولى وأحرى. والمسّ والأخذ هنا استعارة، وهذا وعيد شديد لمن يمسّها بسوءٍ. والعذاب الأليم هو ما حلّ بهم إذ عقروها وما أعدّ لهم في الآخرة. وقوله «فيأخذكم» جواب النهي، والناصب للفعل أنْ مضمرة بعد الفاء.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ[٢١٥/ أ] جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ ذكّر صالح قومه نعماً خاصة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم. ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم بها وأسكنكم إياها. والمباءة: المنزل في الأرض، وهو من باء

(١) ق: المال.

أي: رجع. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ جملة حالية العامل فيها «بوّأكم» ومعناه تعملون كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] فتعدّى اتّخذ لمفعول واحد. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ[1] بُيُوتًا﴾ النحت: النجر والنشر في الشيء الصلب كالحجر والخشب وغير ذلك، وقال الشاعر[2]: [من البسيط]

أمّـا النهـارُ ففـي قَيْـدٍ وسِلْسِلَـةٍ والّليلُ في بطن منحوتٍ من السّاجِ

وانتصب «بيوتاً» على أنه حال مقدّرة، لأنها وقت النحت لم تكن بيوتاً بل صارت بيوتاً بعد ذلك كقولك: خِطْ [لي] هذا قباءً. قال ابن عباس: القصور لمصيفهم[3] والبيوت في الجبال لمشتاهم. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة في البقرة[4] في قصة استسقاء موسى لقومه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ قرأ ابن عامر: وقال الملأ، بواو العطف، والجمهور: قال، بغير واو. و«الذين استكبروا» وصف للملأ إمّا للتخصيص لأن مِن أشرافهم مَن آمن وهو جندع بن عمرو [وإمّا للذّم]. و«استكبروا» طلبوا الهيبة لأنفسهم وهو من الكِبْر، فيكون استفعل للطلب وهو بابها، أو يكون استفعل بمعنى فعل أي: كبروا بكثرة المال والجاه، فيكون مثل عجب واستعجب. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: استضعفهم رؤساء الكفّار واستذلّوهم وهم العامّة وهم أتباع الرّسل. و﴿لِمَنْ ءَامَنَ﴾ بدل من «الذين استضعفوا»، والضمير [في ﴿مِنْهُمْ﴾] إن عاد على المستضعفين كان بدل بعض من كلّ، ويكون الذين استضعفوا قسمين: مؤمنين وكافرين. وإن عاد على «قومه»

(١) ق: من الجبال.
(٢) البيت في المقتضب ٤ : ٣٣١ غير منسوب.
(٣) ق: لمصانعهم.
(٤) الآية ٦٠.

كان بدل كلٍّ من كلّ أعيد معه حرف الجر وهو اللام، وكان الاستضعاف مقصوراً على المؤمنين، وكان الذين استضعفوا قسماً واحداً. و«ومن آمن» مفسّر للمستضعفين من قومه، واللام في «للذين» للتبليغ، والجملة المقولة على جهة الاستهزاء والاستخفاف. وفي قولهم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ اختصاص بصالح، ولم يقولوا: من ربنا ولا: من ربكم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ وجواب المستضعفين وعدولهم عن قولهم: هو مرسل، إلى قولهم «إنّا بما أرسل به مؤمنون» في غاية الحسن؛ إذ أَمْر رسالته معلوم واضح لا يدخله ريب لما أتى به من المعجزات العظيمة الخارقة، فلا يحتاج أن يُسأل عن رسالته ولا أن يُستفهم عن العلم بإرساله، فأَخبروا بأنهم مؤمنون بما أرسل به لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلا التصديق بما جاء به. وتضمّن كلامهم العلم بأنه مرسل من الله تعالى. و«مؤمنون» خبر «إنّا»، و«بما أرسل» متعلق به، و«به» متعلق بـ«أرسل».

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نسب العقر إلى الجميع وإن كان صادراً من واحد لمّا كان عقرها عن تمالؤ[1] واتفاق. وقصة عاد وثمود مشهورة عند العرب قال الأفوه الأودي[2]: [من البسيط]

فينا معاشرُ لم يَبْنوا لقومهمُ ... وإن بنى قومهمْ ما أفسدوا عادوا

أي: عادوا للإفساد.

أَضْحَوْا كقَيْل بن عترٍ في عشيرته ... إذا أُهلكتْ بالذي سَدّى لها عاد
أو بعده كقُدارٍ حين بايعه ... على الغواية أقوامٌ فقد بادوا

(١) ق: تمادي.

(٢) وهو صلاءة بن عمرو، والأبيات في ديوانه ص٩.

وقيل: ابن عثر هو رئيس عاد قوم هود. ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمر ربّهم [٢١٥/ب] يقال: عتا يعتو عتوًّا. ﴿ٱئْتِنَا[١] بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من العذاب، لأنه كان سبق منه ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف] فاستعجلوه ما وعدهم به من ذلك إذ كانوا مكذّبين له في الإخبار بذلك الوعيد وبغيره، ولذلك علّقوه بما هم به كافرون وهو كونه من المرسلين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ روي أنّ السّقْب وهو ولد الناقة، لمّا عقروها رغا ثلاثاً، فقال صالح: لكلّ رغوةٍ أَجَلُ يومٍ، تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام. فقالوا هازئين به: متى ذلك وما آيته؟ فقال: تصبحون غداة مؤنس مصفرّةً وجوهكم، وغداة العَروبة محمرّيها ويوم شِيارٍ[٢] مسودّيها، ثم يصبّحكم العذاب يوم أوّل وهو يوم الأحد. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ [ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: أخذتهم] صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض، فقطّعت قلوبهم وهلكوا. وقد ذكر علقمة السَّقْب في شعره فقال[٣]: [من الطويل]

رغا فوقهم سَقْبُ السماء فداحِضٌ بشِكّته لم يُستلَبْ وسليبُ

وإنما نسبه للسماء لأنه آية من آيات الله تعالى. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ الجثوم: اللصوق بالأرض على الصدر مع قبض الساقين كما يرقد الأرنب والطير.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ الآية، ظاهر العطف بالفاء يدلّ على أنّ هذا التولّي كان

(١) ق: فائتنا.

(٢) كانت العرب تسمّي يوم الخميس مؤنساً. والجمعة العروبة والسبت شِياراً.

(٣) البيت في المفضليات ص٣٩٥.

بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم، فيكون الخطاب على سبيل التفجّع عليهم والتحسّر لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا، أو للاغتمام [لهم] وليسمع ذلك من كان معه من المسلمين فيزداد إيماناً وانتفاءً عن معصية الله تعالى واقتفاءً لما جاء به نبيّه عن الله تعالى، ويكون[1] معنى قوله ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ولكن كنتم لا تحبون الناصحين، فيكون حكاية حال ماضية، وقد خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ الآية، لوط هو ابن هاران ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وناحور وهم بنو تارح بن ناحور. وانتصب «لوطاً» بإضمار: وأرسلنا، عطفاً على الأنبياء قبله، و«إذ» معمولة لأرسلنا. وجوّز الزمخشري وابن عطية نصبه بـ«واذكر» مضمرة، زاد الزمخشري[2] أن «إذ» بدل من لوط، أي: واذكر وقت إذ قال لقومه. وتقدّم الكلام على كونِ إذ تكون معمولاً بها صريحاً لـ«اذكر»، وأن ذلك تصرّف فيها[3].

---

(١) ق: وليكون.

(٢) الكشاف ١ : ٩٢.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٩ من السورة.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الاستفهام هنا هو على جهة الإنكار والتوبيخ والتشنيع والتوقيف على هذا الفعل القبيح، و«الفاحشة» هنا إتيان ذكران الآدميين في الأدبار. ولمّا كان هذا الفعل معهوداً قُبْحه ومركوزاً في العقول فُحْشه أتى معرّفاً بالألف واللام، أو تكون أل فيه[١] للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جُعل جميع الفواحش، ولبُعد العرب عن ذلك البعد التام وذلك بخلاف الزّنى فإنه قال فيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء] فأتى [به] منكّراً أي: فاحشة من الفواحش، وكان كثير من العرب يفعله ولا يستنكرون فعله ولا ذكره في أشعارهم.

والجملة المنفيّة تدلّ على أنهم هم أوّل من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها. والمبالغة في «من أحد» حيث زيدت [مِن] لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم العالمين جميعاً. قال عمرو بن دينار: مارئي ذكر على ذكر قبل قوم لوط. و﴿مَا سَبَقَكُم﴾ جملة حاليّة من الفاعل أو من الفاحشة، لأنّ في «سبقكم بها» ضمير: هم وضمير: ها. وقال الزمخشري[٢]: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله «أتأتون الفاحشة» ثم وبّخهم عليها فقال: أنتم أوّل من عملها، أو على أنه جواب لسؤال مقدّر كأنهم قالوا: لِمَ لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد فلا تفعلوا ما لم تُسبقوا به.

وقال الزمخشري[٣]: والباء للتعدية، من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها [٢١٦/أ] قبله. ومنه قوله عليه السلام «سبقك بها عُكّاشة»[٤] انتهى.

---

(١) ق: أم تكون فيه.

(٢) الكشاف ٢ : ٩٢.

(٣) الكشاف ٢ : ٩٢.

(٤) أخرجه مسلم ١ : ١٩٨ من حديث أبي هريرة.

ومعنى التعدية هنا قلق جدًّا، لأن الباء المعدّية في الفعل المتعدي إلى واحد هي تجعل المفعول الأول يفعل ذلك الفعل بما دخلت عليه الباء فهي كالهمزة. وبيان ذلك أنك لو قلت: صككت [الحجر بالحجر، فمعناه: أصككتُ] الحجر الحجر، أي: جعلت الحجر يصكّ الحجر. وكذلك: دفعت زيداً بعمرٍو عن خالد، معناه: أدفعت زيداً عَمْراً عن خالد، أي: جعلت زيداً يدافع عَمْراً عنِ خالد، فللمفعول الأول تأثير في الثاني. ولا يتأتّى هذا هنا إذ لا يصحّ أن يقدّر: أسبقتُ زيداً الكرة، أي: جعلت [زيداً] يسبق الكرة، إلا بمجاز متكلّف وهو أن يجعل ضربك الكرة أول جعل ضربة قد سبقها أي: تقدمها في الزمان فلم يجتمعا.

﴿ إِنَّكُمْ[1] لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ هذا بيان لقوله «أتأتون الفاحشة». وأتى هنا من قولهم: أتى المرأة: غشيها، وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ. و«شهوة» مصدر في موضع الحال أي: مشتَهِين إن كانت حالاً من الضمير في «تأتون»، أو مشتَهَيْن[2] إن كان حالاً من «الرجال». ويجوز أن ينتصب مفعولاً من أجله أي: للشهوة. و«بل» هنا للخروج من قصة إلى قصة، ينبىء بأنهم متجاوزو الحدّ في الاعتداء. وجاء هنا «مسرفون» باسم الفاعل ليدلّ على الثبوت ولموافقتها ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأسماء. وجاء في النمل ﴿ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] بالمضارع لتجدّد الجهل فيهم ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في ختمها بالأفعال.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ الضمير

---

(١) ق: أتنكم.

(٢) ق: مشتهون.

المنصوب في «أخرجوهم» عائد على لوط ومن آمن به. ولمّا تأخّر نزول هذه السورة عن سورة النّمل أضمر ما فسّره الظاهر في النّمل من قوله ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]. [و«يتطهّرون»] قال ابن عباس ومجاهد: يتقذّرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من العذاب الذي حلّ بقومه. و«أهله» هم المؤمنون معه. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فلم تَنْجُ واسمها واهلة، كانت منافقة تُسرّ الكفر موالية لأهل سدوم. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقُوا في ديارهم فهلكوا. والجملة من قوله «كانت» تأكيد لما تضمّنه الاستثناء من عدم نجاة امرأته.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ ضمّن «أمطرنا» معنى: أرسلنا، فلذلك عدّاه بعلى كقوله ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال] والمطر هنا هي حجارة وقد ذكرت في غير آية. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذا خطاب للسامع قصتهم كيف كان مآل من أجرم. وفيه اتّعاظ وازدجار أن تسلك هذه الأمة مسلكهم. و«المجرمين» عام في قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، وهو من نظر التفكّر أو من نظر البصر فيمن بقيت له آثار منازل ومساكن كثمود وقوم لوط كما قال تعالى ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت]. و«كيف» خبر «كان» و«عاقبة» اسم «كان». والجملة في موضع نصب لأن «انظر» معلّقة عنها.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى
مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ
قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ قال الفرّاء: مدين اسم بلد وقُطر، والجمهور على أن مدين اسم أعجمي، فإن كان عربيًا احتمل أن يكون فَيْعَلاً مِن مَدَنَ بالمكان: أقام به، وهو بناء نادر، أو مَفْعلاً من دان فتصحيحه شاذ وكان قياسه مدان. وشعيب: اسم عربي تصغير شِعب أو شَعب. واختلف في نسب شعيب اختلافاً كثيراً، ذكر ذلك في البحر المحيط[1]. وشعيب: قيل هو ابن بنت لوط وقيل زوج بنته. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذا دليل على أنه جاء بالمعجزة، إذ كلّ نبيّ لا بدّ له من معجزة تدل على صدقه، ولكنه لم يعيّن هنا ما المعجزة ولا من أي نوعٍ هي.

(١) انظر ٤: ٣٣٦.

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أمرهم أوّلاً بشيء خاص وهو إيفاء الكيل والميزان ثم نهاهم عن شيء عام وهو قوله «ولا تبخسوا الناس أشياءهم». و«الكيل» مصدر: كنّى به عن الآلة التي يُكال بها. «ولا تفسدوا [٢١٦/ب] في الأرض» تقدم تفسير هذه الجملة قريباً(١). ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الإشارة بذلكم إلى إيفاء الكيل والميزان وترك البخس والإفساد. و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل التفضيل أو خير من الخيور.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ ظاهره العموم، قال الزمخشري(٢): «ولا تقعدوا بكل صراط» ولا تقتدوا بالشيطان في قوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] فتقعدوا بكل صراط أي: بكل منهاج من مناهج الدين. والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله «وتصدّون عن سبيل الله». فإن [قلت] صراط الحق واحد ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] فكيف قيل: «بكل صراط»؟ قلت: صراط [الحق] واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا واحداً يشرّع في شيء منها أوعدوه وصدّوه عنها انتهى.

حَمَل العقود والصراط على المجاز، وتقدّم أن الظاهر أنه حقيقة، وأنهم كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعّدون من أراد المجيء إليه، ويصدّونه، ويقولون إنه كذّاب، فلا تذهب إليه على نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ. ولا تظهر الدّلالة على أن الصراط سبيل الحق من قوله «وتصدون عن سبيل الله» كما ذكر، بل الظاهر التغاير لعموم

(١) انظر تفسير الآية ٥٦ المتقدمة.

(٢) الكشاف ٢: ٩٤.

كل صراط وخصوص سبيل الله، فيكون «بكل صراط» حقيقة في الطرق، و«سبيل الله» مجاز عن دين الله. والباء في «بكل صراط» ظرفية نحو: زيد بالبصرة، أي: في كل صراط وفي البصرة. [«توعدون» جملة حالية، أي: من جاء للإيمان بشعيب. «وتصدون» معطوف على «توعدون»].

قال الزمخشري: فإن قلت: إلام يرجع الضمير في «من آمن به»؟ قلت: إلى «كل صراط» تقديره: توعدون من آمن به وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو «سبيل الله» موضع الضمير زيادة في تقبيح أمرهم دلالة على عظم ما يصدّون عنه انتهى.

هذا تعسّف في الإعراب لا يليق أن يُحمل عليه القرآن لِمَا فيه من التقديم والتأخير ووضع الظاهر موضع المضمر من غير حاجة إلى ذلك، وعَوْدِ الضمير على أبعد مذكور مع إمكان عوده على أقرب مذكور الإمكان السائغ الحسن الراجح. وجعل «من آمن» منصوباً بـ«توعدون»، فيصير من إعمال الأول وهو قليل، وقد قال النحاة إنّه لم يَرِدْ في القرآن لقلّته. ولو كان من إعمال الأول لَلَزِمَ ذِكْرُ الضمير في الفعل الثاني، وكان يكون التركيب: وتصدّونه أو تصدّونهم، إذ هذا الضمير لا يجوز حذفه على قول الأكثرين إلا ضرورةً، وعلى قول بعض النحاة يُحذف في قليل من الكلام. ويدل على أنّ «من آمن» منصوب بـ«تصدّون» الآية الأخرى وهي ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران] فَنَصْبه بـ«توعدون» بعيد، هذا مع التكلّفات المضافة إلى ذلك فكان جديراً بالمنع لما في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة.

قال ابن عطية: يجوز أن يعود على شعيب في قول من رأى القعود على

الطرق للردّ[١] عن شعيب. وهذا بعيد لأن القائل «ولا تقعدوا» هو شعيب، فكان يكون التركيب: من آمن بي، ولا يسوغ هنا أن يكون التفاتاً لو قلت: يا هند أنا أقول لا تهيني من أكرمه، تريد: أكرمني، لم يصحّ.

﴿وَتَبۡغُونَهَا﴾ الضمير عائد على «سبيل الله» والسبيل يذكّر ويؤنث، وهي جملة حالية أي: باغيها، والتقدير: تبغون لها عوجاً ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ روي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله تعالى في نسلها بالبركة والنّماء فكثروا وفشوا. ﴿وَٱنظُرُواْ[٢] كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ هذا تهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم، وتمثيل لهم بمن حلّ به العذاب من قوم نوح عليه السلام وهود وصالح ولوط، وكانوا قريبي عهد بما أصاب المؤتفكة. وإعراب هذه [٢١٧/أ] الجملة كإعراب الجمل الواقعة إثر قصة قوم لوط[٣]. قال الزمخشري[٤]: «إذ» مفعول به غير ظرف أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم فكثّركم الله تعالى ووفّر عددكم. وذكر غيره أنه منصوب على الظرف فلا يمكن أن يعمل فيه: واذكروا، لاستقبال اذكروا وكون إذ ظرفاً لما مضى. والقلّة والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص أو إلى الفقر والغنى أو إلى قصر الأعمار وطولها، أقوال ثلاثة أظهرها الأول. وقال الزمخشري[٥]: إذا كنتم أقلّة أذلّة فأعزّكم بكثرة العَدد والعُدد [انتهى].

---

(١) ق: تفرّد.

(٢) ق: وانظر.

(٣) انظر الآيات ٨٠-٨٤ المتقدمة.

(٤) الكشاف ٢: ٩٤.

(٥) الكشاف ٢: ٩٤.

ولا ضرورة تدعو إلى حذف صفة وهي: أذلّة ولا إلى تحميل قوله «فكثّركم» معنى: بالعُدد؛ ألا ترى أن القلّة لا تستلزم الذلّة ولا الكثرة تستلزم العزّة، قال الشاعر[1]: [من الطويل]

تُعَيِّرُنـا أنّـا قليـلٌ عَـديـدُنـا فقلـتُ لهـا إنّ الكـرامَ قليـلُ
وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ

وقيل: المراد مجموع [الأقوال الأربعة]: كثَّر عددهم وأموالهم وأرزاقهم وطوّل أعمارهم وأعزّهم بعد أن كانوا على مقابلاتها.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ﴾ الآية، هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة، إذ أبرز المتحقق في صورة المشكوك فيه؛ وذلك أنه قد آمن به طائفة، بدليل قول المستكبرين عن الإيمان ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف] وهو أيضاً من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين. والذي أُرسل [به] هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة وإيفاء الكيل والميزان، ونهاهم عنه من البَخْس والإفساد والقعود المذكور. ومتعلق «لم يؤمنوا» محذوف دلّ عليه ما قبله وتقديره: لم يؤمنوا به. والخطاب بقوله «منكم» لقومه. وينبغي أن يكون قوله «فاصبروا» خطاباً لفريقي قومه من آمن ومن لم يؤمن. و﴿بَيْنَنَاۚ﴾ أي: بين الجميع، فيكون ذلك وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجة الصبر فصبروا على ما كُذّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، ووعيداً للكافرين [بالعقوبة] والخسار.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ جواب قسم محذوف. والقسم يكون على فِعْل المقسم كقوله «لنخرجنّك» وعلى فِعْل غيره كقوله «أو

(١) البيتان للسموأل في الحماسة ١: ١١١، ١١٢.

لتعودنّ». وهذا يدلّ على [صعوبة] مفارقة الوطن إذ قرنوا ذلك بالعَوْد إلى الكفر. وفي الإخراج والعَوْد طباق معنوي، والعود هنا بمعنى الصيرورة. ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: أيقع منكم أحد هذين الأمرين على كل حال حتى في حال كراهيتنا[١] لذلك؟. والاستفهام للتوقيف على شنعة المعصية بما أقسموا عليه من الإخراج عن مواطنهم ظلماً أو الإقرار بالعود في ملّتهم.

قال الزمخشري[٢]: الهمزة للاستفهام والواو واو الحال تقديره: أتعيدوننا في ملّتكم في حال كراهيتنا أو مع كوننا كارهين؟ انتهى. فجعل الاستفهام خاصاً بالعود في ملّتهم، وليس كذلك؛ بل الاستفهام هو عن أحد أمرين: الإخراج أو العود. وجعل الواو واو الحال وقدّره: أتعيدوننا في حال كراهتنا. وليست واوَ الحال التي يعبّر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واو العطف عطفت على حال محذوفة كقوله صلى الله عليه وسلم «رُدّوا السائل ولو بظلفٍ مُحْرَقٍ»[٣] ليس المعنى ردّوه في حال الصدقة عليه بظلف محرق، بل المعنى: ردّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلف محرق. وتقدم لنا إشباع القول في هذا المعنى[٤].

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ الآية، هذا إخبار مقيّد من حيث المعنى بالشرط، وجواب الشرط محذوف من حيث الصناعة وتقديره: إن عدنا في ملّتكم [فقد افترينا. وليس قوله] «قد افترينا على الله كذباً» هو جواب الشرط إلاّ على مذهب من

(١) ق: كراهيتها.

(٢) الكشاف ٢: ٩٦.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ٢: ٩٢٣ من حديث ابن بُجَيد الأنصاري. وظلف محرق: مشويّ.

(٤) انظر تفسير الآية ١٧٠ من البقرة.

يجيز تقديم جواب الشرط على الشرط، فيمكن أن يخرّج هذا عليه. ونظير هذا [٢١٧/ب] التركيب الفصيح قول الأشتر النخعي واسمه الحارث[١]:

[من الكامل]

بقّيتُ وفري وانحرفتُ عن العلا ... ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبوسِ

إن لم أَشُنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لم تَخْلُ يوماً من نِهاب نفوس

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ أي: وما ينبغي ولا يتهيّأ لنا أن نعود في ملّتكم «إلا أن يشاء الله ربنا». وهذا الاستثناء على سبيل عذق جميع الأمور بمشيئة الله تعالى وإرادته[٢]. وقال ابن عطية: ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبّد الله به المؤمنين [بشيء] ممّا يفعله الكفرة من القربان، فلمّا قال لهم: إنا لا نعود في ملّتكم، ثم خشي أن يتعبّده الله تعالى بشيء من أفعال الكفرة، فيعارض ملحد بذلك ويقول: هذه عودة إلى ملّتنا، استثنى مشيئة الله تعالى فيما يمكن أن يتعبّد به انتهى.

وهذا الاحتمال لا يصحّ؛ لأن قوله «بعد إذ نجّانا الله منها» إنما يعني النجاة من الكفر والمعاصي لا من أعمال البرّ. وقيل: هذا الاستثناء إنما هو تسليم وتأدّب. قال ابن عطية: ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان الكلام: إن شاء، قوي هذا التأويل انتهى. وليس يقوّي هذا التأويل، بل لا فرق بين: إلا أن يشاء، وبين: إلا إن شاء، لأنّ «إنْ» تخلّص الماضي للاستقبال كما تخلّص «أنْ» المضارع للاستقبال، فكلا الفعلين مستقبل.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ تقدّم تفسير نظيرها في الأنعام في قصة إبراهيم

(١) البيتان في شرح ديوان الحماسة ١: ١٤٩. واسمه هناك: مالك بن الحارث.

(٢) أي: وَسْمها بها.

عليه السلام[١]. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾ في دفع ما توعّدتمونا به وفي حمايتنا من الضلال، وفي ذلك استسلام لله تعالى وتمسّك بلطفه. ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: احكم. والفاتح والفتّاح: القاضي بلغة حمير، وقيل بلغة مراد، وقال بعضهم[٢]: [من الوافر]

ألا أَبْلِغْ بني عصَمٍ رسولاً ... فإنّي عن فُتاحَتِكم غنيُّ

وقال ابن عباس: ما كنت أعرف ما معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال لأفاتحكِ، أي: أحاكمك. وقال الفرّاء[٣]: أهل عُمان يسمّون القاضي الفاتح.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أي: كبراؤهم لأتباعهم تثبيطاً عن الإيمان. ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: مغبونون. قال الزمخشري[٤]: فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطّأته اللام في «لئن اتّبعتم» وجواب الشرط؟ قلت: قوله «إنكم إذاً لخاسرون» سادّ مسدّ الجوابين انتهى. والذي تقوله النحويون[٥] إن جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وجب مضيّ فعل الشرط. فإن عنى الزمخشري بقوله: سادّ مسدّ الجوابين، أنه اجتُزِىء به عن ذكر جواب الشرط فهو قريب. وإن عنى به أنه من حيث الصناعة النحوية، فليس

---

(١) الأنعام ٦: ٨٠.

(٢) هو الأسعر الجعفي كما في اللسان «فتح» مع اختلاف في الرواية. والبيت في مجاز القرآن ١: ٢٢٠.

(٣) معاني القرآن ١: ٣٨٥.

(٤) الكشاف ٢: ٩٧.

(٥) عبارة ق: وهو الذي يقول.

كما زعم؛ لأن الجملة يمتنع أن تكون لا موضع لها من الإعراب [وأن يكون لها موضع من الإعراب]، و«إذاً» هنا معناها التوكيد، وهي الحرف الذي هو جواب، ويكون معه الجزاء وقد لا يكوْن.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ تقدّم تفسير هذه الجملة[1]. قال قتادة: أُرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة، فأُهلكوا بالظُّلة، وإلى أصحاب مدين فصاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعاً.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ﴾ أي: كأن لم يقيموا ناعمي البال رخيّي العيش في دارهم. وفيها قوة الإخبار عن هلاكهم وحلول المكروه بهم والتنبيه على الاعتبار بهم كقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]. وفي كأن ضمير الشأن محذوف تقديره قبل الحذف: كأنه، والجملة بعدها في موضع الخبر منفيًا بـ«لم» وهو الكثير، وقد جاء النفي بلمّا في قول [٢١٨/أ] حماد الكلبي[2]:

وكأنْ لمّا يكون قطّ لم

والنّفي بلمّا قليل. ﴿ كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾: «هم» فصل[3] بين الاسم والخبر، ويجوز أن يكون بدلاً من الاسم في «كانوا». ولما كان قولهم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف] قوبلوا بقوله «هم الخاسرين». وأفاد الفصل الاختصاص.

---

(١) الأعراف ٧: ٧٨.

(٢) لم أجد تمامه وقائله، وانظر البحر ٤: ٣٤٦.

(٣) ق: فصلاً.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ تقدم تفسير نظيره في قصة صالح[1]. ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي: فكيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه. ونبّه على العلّة الموجبة لعدم الحزن عليهم وهي الكفر، إذ هو أعظم ما يعادي به المؤمن.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما حلّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخر أمرهم حين لا تجدي فيهم موعظة، ذكر تعالى أن تلك عادته في أتْباع الأنبياء، إذا أصرّوا على تكذيبهم. وجاء بعد «إلاّ» فعل ماضٍ وهو «أخذنا»، ولا يليها فعل ماضٍ إلا إن تقدم فعل أو صحب بقد فمثال ما تقدّمه فعل هذه الآية، ومثال ما أصحب قد قولك: ما زيد إلا

(١) الآية ٧٩ السابقة.

قد قام، قال الشاعر[١]: [من الطويل]

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً لنفسيَ إلا قد قضيت قضاءها

والجملة من قوله «أخذنا» حالية أي: إلاّ آخذين أهلها، وهو استثناء مفرّغ من الأحوال. وتقدّم تفسير نظير قوله «إلاّ أخذنا»[٢] إلى آخرها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: مكان الحالة السيئة من البأساء والضرّاء، الحالة الحسنة من السّراء والنعمة. و«مكان» هو محلّ الباء أي: بمكان السيئة. وفي لفظ «مكان» إشعار بتمكّن البأساء منهم كأنه صار للشدة عندهم مكان. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: كثروا وتناسلوا. ﴿وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أبطرتهم النعمة وأشِروا فقالوا: هذه عادة الدهر ضرّاء وسرّاء وقد أصاب آباءنا مثل ذلك، وليس ذلك بابتلاء وقصد، بل ذلك بالاتفاق لا على ما تخبر الأنبياء، جعلوا أسلافهم وما أصابهم مثلاً لهم ولما يصيبهم فلا ينبغي أن تنكر هذه العادة من أفعال الدهر. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ تقدّم الكلام على مثل هذا[٣]، لما فسدوا على التقديرين أخذوا هذا الأخذ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، أي: لو كانوا ممّن سبق في علم الله تعالى أن يتلبّسوا بالإيمان بما جاءت به الأنبياء، وبالطاعات التي هي ثمرة الإيمان، لتيسّر لهم من بركات السماء، ولكن كانوا ممّن سبق في علمه تعالى أنهم يكذّبون الأنبياء فيؤخذون باجترامهم. وكلٌّ من الإيمان والتكذيب والثواب والعقاب سبق به القدر. وأضيف الإيمان والتكذيب إلى العبد كسباً

(١) البيت لقيس بن الخطيم في ديوانه ص٤٩.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٢ من الأنعام.
(٣) الأنعام ٦: ٣١.

والموجد لهما هو الله تعالى لا يُسأل عمّا يفعل. والظاهر أن قوله ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يُراد بها معيّن ولذلك جاءت نكرة، وقيل: بركات السماء المطر وبركات الأرض الثمار.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الهمزة دخلت على «أمن»[1] للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك. والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلها. قال الزمخشري[2]: فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولِمَ عُطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله «فأخذناهم بغتة»[3]. وقوله «ولو أنّ أهل القرى» إلى قوله «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه. وإنّما عطفت بالفاء لأن المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أَبَعْدَ ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً أو أمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى انتهى.

وهذا الذي ذكره الزمخشري من أن حرف العطف الذي [٢١٨/ب] بعد همزة الاستفهام هو عاطف ما بعدها على ما قبل الهمزة من الجمل رجوع إلى مذهب الجماعة في ذلك، وتخريج لهذه الآية على خلاف ما قرّر من مذهبه في غير آية، أنه يقدَّر محذوف بين الهمزة[4] وحرف العطف يصحّ بتقديره عطف ما بعد الحرف عليه، وأن الهمزة وحرف العطف واقعان في موضعهما من غير اعتبار تقديم حرف العطف على الهمزة في التقدير، وأنه قدّم الاستفهام اعتناءً لأنّ له صدر الكلام.

(١) ق: أمنوا.
(٢) الكشاف ٢: ٩٨.
(٣) الآية ٩٥ السابقة.
(٤) ق: بين الآية الهمزة.

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الآية، أي: في حال الغفلة والإعراض والاشتغال بما لا يجدي كأنهم يلعبون. و﴿ضُحًى﴾ منصوب على الظرف أي: ضحوة. ويقيّد كل ظرف بما يناسبه من الحال؛ فيقيد البيات بالنوم وتقيّدت الضحى باللعب. وجاء «نائمون» باسم الفاعل لأنها حالة ثبوت واستقرار للبائتين، وجاء «يلعبون» بالمضارع، لأنهم مشتغلون بأفعال متجددة شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت.

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير لأن الجملة المعطوفة تكرير لقوله «أفأمن أهل القرى» «أو أمن» وتأكيد لمضمون ذلك، فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء. و﴿مَكْرَ﴾ مصدر أضيف إلى الفاعل وهو استعارة لأخذه العبد من حيث [لا يشعر]. وكرر المكر مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ ﴾ الآية، قال ابن عباس: «يَهْدِ»: يبين. والفاعل بِيَهْدِ يحتمل وجوهاً: أحدها أن يعود على الله تعالى ويؤيده قراءة من قرأ: نَهْدِ بالنون. والثاني أن يكون ضميراً عائداً على ما يُفهم من سياق الكلام السابق أي: أَوَلَم يَهْدِ ما جرى للأمم السالفة أهلَ القرى وغيرهم. وعلى هذين الوجهين يكون «أن لو نشاء» وما بعده في موضع المفعول بِيَهْدِ أي: أولم يبيّن الله أو ما سبق من قصص القرى ومآل أمرهم للوارثين إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم. والمعنى أنكم[1] مذنبون كهم وقد علمتم ما حلّ بهم، أفما تحذرون أن يحلّ بكم ما حلّ بهم، فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا.

(١) ق: أنهم.

والوجه الثالث أن يكون الفاعل بِنَهْدِ قوله «أن لو نشاء» فينسبك المصدر من جواب لو والتقدير: أولم نبيّن ونوضّح للوارثين مآلهم وعاقبتهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: علمهم بإصابتنا أو قدرتنا على إصابتنا إياهم على التقديرين إذا كانت [أنْ] مفعولة.

و«أنْ» هنا هي المخففة من الثقيلة لأن الهداية فيها معنى العلم واسمها ضمير الشأن محذوف، والخبر الجملة المصدّرة بلو و«نشاء» في معنى شئنا، لأنّ لو التي هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره إذا جاء بعدها المضارع صرفَتْ معناه إلى المضي. ومفعول «نشاء» محذوف دلّ عليه جواب لو، والجواب «أصبناهم»، ولم يأت باللام وإن كان الفعل مثبتاً إذ حذفها جائز فصيح كقوله تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة] والأكثر الإتيان باللام كقوله تعالى ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف]. والذين يرثون الأرض من بعد أهلها: أي: يخلفون فيها من بعد هلاك أهلها، وظاهره التسميع لمن كان في عصر رسول الله ﷺ من مشركي قريش وغيرهم.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الظاهر أنها جملة مستأنفة أي: ونحن نطبع على قلوبهم. والمعنى أنّ من أوضح الله تعالى [له] سبيل الهدى وذكر له أمثالاً ممّن أهلكه الله تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائم على غيّه لا يرعوي، يطبع الله على قلبه، فينبو سَمْعه عن سماع الحق. وأجاز الزمخشري في عطف «ونطبع» [٢١٩/أ] وجهين أحدهما ضعيف والآخر خطأ؛ قال الزمخشري(١): فإن قلت: بم يتعلق قوله «ونطبع على قلوبهم»؟ قلت: فيه أوجه: أنْ يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى «أولم يهد لهم» كأنه قيل:

(١) الكشاف ٢: ٩٩.

يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم، أو على «يرثون الأرض» انتهى.

فقوله إنه معطوف على مقدّر وهو: يغفلون عن الهداية ضعيف لأنه إضمار لا يُحتاج إليه إذ قد صحّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل، فهو معطوف على مجموع الجملة المصدّرة بأداة الاستفهام، وقد قاله[1] الزمخشري وغيره. وقوله إنه معطوف على «يرثون» [خطأ، لأنه إذا كان معطوفاً على «يرثون»] كان صلة لـ«الذين» لأن المعطوف على الصلة صلة، ويكون قد فصل بين أبعاض الصلة بأجنبي من الصلة وهو قوله «أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» سواء أقدّرنا «أن لو نشاء» في موضع الفاعل لـ«يَهْدِ» أو في موضع المفعول، فهو معمول ليهد لا تعلّق له بشيء من صلة «الذين» وهو لا يجوز.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، و«القرى» هي بلاد قوم نوح وهود وصالح وشعيب بلا خلاف بين المفسّرين. وجاءت الإشارة بـ«تلك» إشارة إلى بُعْد هلاكها وتقادمه، وحصل الربط بين هذه وبين قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف]. و«نقصّ» يحتمل إبقاؤه[2] على حاله من الاستقبال فالمعنى: قد قصصنا عليك من أنبائها ونحن نقصّ عليك أيضاً منها مفرّقاً في السور، ويجوز أن يكون عبّر بالمضارع عن الماضي أي: تلك القرى قصصنا، والأنباء هنا أخبارهم مع أنبيائهم ومآل عصيانهم. و«تلك» مبتدأ و«القرى» خبر و«نقصّ» جملة حالية نحو قوله تعالى ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل]. وفي الإخبار بالقرى معنى التعظيم لها ولمهلكها كما قيل في قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وفي

---

(١) ق: قال.

(٢) ق: ويحتمل بقيّه.

قوله صلى الله عليه وسلم «أولئك الملأ من قريش»[١]. ولما كان الخبر مقيّداً بالحال أفاد كالتقييد بالصفة. ومعنى من أنباء: «من» للتبعيض فدلّ على أنّ لها أنباءً أُخَر لم يقصّها[٢] عليه، وإنما قصّ عليه ما فيه عظة[٣] وازدجار وادّكار بما جرى على من خالف الرسل ليتّعظ بذلك السامع من هذه الأمة.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ الذي يظهر أن الضمير في «كانوا» وفي «ليؤمنوا» هو عائد على أهل القرى، وأنّ الباء في «بما» ليست سببيّة فالمعنى أنهم انتفت عنهم قابلية الإيمان وقت مجيء الرسل بالمعجزات [بما كذّبوا به من قبل مجيء الرسل بالمعجزات] بل حالهم واحد قبل ظهور المعجزات وبعد ظهورها، لم تُجْدِ عنهم شيئاً. وفي الإتيان بلام الجحود في «ليؤمنوا» مبالغة في نفي القابلية والوقوع، وهو أبلغ في تسلّط النّفي على الفعل بغير لام. و«ما» في «بما كذّبوا» موصولة والعائد منصوب محذوف أي: بما كذّبوه، وجوّز أن تكون مصدرية.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: لأكثر الناس أو أهل القرى والأمم الماضية. و«مِن» في «من عهد» تدلّ على استغراق الجنس. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾: إنْ هي المخففة من الثقيلة، ووجد بمعنى علم. ومفعول «وجدنا» الأولى «لأكثرهم» ومفعول الثانية «الفاسقين» واللام للفرق بين إنْ المخفّفة من الثقيلة وإنْ النافية، وتقدّم الكلام على ذلك في قوله ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، ودعوى [بعض] الكوفيين أنّ «إنْ» في نحو

(١) قاله عند رجوعه إلى المدينة مقبلاً من بدر، انظر دلائل النبوة للبيهقي ٣: ١٤٧.

(٢) ق: يقصّه.

(٣) ق: عظمة.

هذا التركيب هي النافية واللام بمعنى إلّا. وقال الزمخشري[١]: وإن الشأن والحديث وجدنا انتهى. ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، وكأن الزمخشري يزعم أنّ «إنْ» إذا خفّفت كان محذوفاً منها الاسم وهو الشأن والحديث، إبقاءً لها على الاختصاص بالدخول على الأسماء. وقد تقدّم لنا تقدير نظير ذلك ورددناه عليه[٢].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١)
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ

(١) الكشاف ٢: ١٠٠.

(٢) انظر تفسير الآية ١٦٤ من البقرة.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

[٢١٩/ب] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الآية، لما قصّ الله تعالى على نبيّه عليه السّلام أخبار الأنبياء وما آل إليه أمر قومهم ذكر موسى عليه السّلام. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ بين موسى وشعيب عليهما السّلام مصاهرة كما حكى الله تعالى في كتابه، ونسباً[1] لكونهما من نسل إبراهيم عليه السلام. ولما استفتح قصّة نوح عليه السلام بـ﴿أَرْسَلْنَا ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف] بنون العظمة، أتبع ذلك بقصة موسى فقال «ثم بعثنا». والضمير في «من بعدهم» عائد على الرسل من قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف]. وتعدية «فظلموا» بالباء على سبيل التضمين بمعنى كفروا.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه محاورة من موسى لفرعون وخطاب له بأحسن ما يُدعى به وأحبّها إليه، إذ كان مَن مَلَكَ مصر يقال له فرعون كنمرود في يونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وعلى هذا لا يكون فرعون وأمثاله علماً شخصياً بل يكون علم جنس كأسامة وثُعالة[2]. ولمّا كان فرعون قد ادّعى الربوبيّة فاتحه موسى عليه السّلام بقوله «إني رسول من رب العالمين» لينبّهه على الوصف الذي ادّعاه وأنه فيه مبطل لا مُحقّ.

ولمّا كان قوله ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ دعوى أردفها بما يدلّ على صحّتها وهو قوله «قد جئتكم». ولمّا قرّر رسالته فرّع عليها تبليغ

---

(١) ق: ونسب.

(٢) ثُعالة وثُعَل: كلتاهما الأنثى من الثعالب.

الحكم وهو قوله «فأرسل». ولم ينازعه فرعون في هذه السورة في شيء ممّا ذكره موسى عليه السلام، إلاّ أنّه طلب المعجزة ودلّ ذلك على موافقته لموسى وأن الرسالة ممكنة لإمكان المعجزة، إذ لم يدفع إمكانها بل قال «إن كنت جئت بآية». ومعنى [«حقيق»] جدير وخليق، وارتفاعه على أنه صفة لرسول أو خبر بعد خبر. و«أن لا أقول [على الله] إلاّ» حَسُن فيه أن يكون فاعلاً بـ«حقيق» كأنه قيل: يحقّ عليّ كذا ويجب. ويجوز أن يكون «أن لا أقول» مبتدأ و«حقيق» خبره. وقال الزمخشري[١]: وفي القراءة المشهورة وهي قوله «على أن لا أقول» إشكال، ولا يخلو من وجوه: أحدها أن يكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس كقول الشاعر[٢]: [من الطويل]

[ونركب خيلاً لا هوادةَ بينها] وتَشْقى الرماح بالضّياطِرةِ الحُمْرِ

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح انتهى هذا الوجه. وأصحابنا يخصون القلب بالشعر ولا يجيزونه في فصيح الكلام فينبغي أن يُنزّه القرآن عنه، وعلى هذا يصير معنى هذه القراءة معنى قراءة نافع. قال الزمخشري[٣]: والثاني أن ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق أي: لازماً له. قال الزمخشري[٤]: والثالث أن يُضمّن «حقيق» معنى حريص، تضمين «هيجني» معنى ذكرني في بيت الكتاب،

---

(١) الكشاف ٢: ١٠٠.

(٢) البيت لخداش بن زهير في اللسان (ضطر) بالياء المشدّدة المفتوحة: حقيق عليّ.

(٣) الكشاف ٢: ١٠١.

(٤) الموضع نفسه.

انتهى. يعني بالكتاب كتاب سيبويه والبيت المنشد[١]: [من البسيط]

إذا تغنّى حمامُ الأيك هيّجني ولـو تسلّيـتُ عنهـا أمَّ عمّـارِ

قال الزمخشري[٢]: والرابع وهو الأوجه والأدخل في لغة القرآن أن يغرق موسى عليه السلام في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد رُوي أن عدو الله فرعون قال [له] لما قال «إني رسول من رب العالمين»: [كذبت]، فيقول: أنا حقيق عليّ قول الحق، أي: واجب عليّ قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به انتهى. ولا يصحّ هذا الوجه إلا إن عنى أنه يكون «على أن لا أقول» صفة له: كما تقول: أنا على قول الحق أي: طريقتي وعادتي قول الحق.

وقال ابن مقسم: «حقيق» من نعت الرسول [٢٢٠/أ] أي: رسول حقيق من رب العالمين أُرسلتُ على أن لا أقول على الله إلا الحق، وهذا معنى صحيح واضح. وقد غفل أكثر المفسرين من أرباب اللغة عن[٣] تعليق «على» برسول، [ولم يخطر لهم تعليقه إلا بقوله «حقيق» انتهى.

وهذا الكلام فيه تناقض في الظاهر لأنه قدّر أولاً العامل في على «أُرسلتُ» وقال أخيراً إنهم غفلوا عن تعليق «على» برسول]. فأما الأخير فلا يجوز على مذهب البصريين لأن «رسولاً» قد وُصف قبل أن يأخذ معموله وذلك لا يجوز. وأما التقدير الأول وهو أيضاً «أُرسلتُ» وتفسير لفظ «رسول» فهو تقدير سائغ. ويُتأوّل كلام ابن مقسم أخيراً في قوله عن تعليق «على» برسول

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٢٣٥، مع اختلاف في الرواية.
(٢) الكشاف ٢: ١٠١.
(٣) ق: على.

أي: ممّا دلّ عليه رسول.

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ ﴾ الآية، لمّا عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه وهو مجيئه بالبيّنة والخارق المعجز، استدعى منه فرعون خرق العادة الدالّ على الصدق. وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتجويزه ذلك، ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرّر في ذهن فرعون أن موسى عليه السلام لا يقدر على الإتيان ببيّنة. والمعنى إن كنت جئت بآية من ربك فأحضِرْها عندي لتصحّ دعواك وتثبت صدقك.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ هذه إذا الفجائية وفيها خلاف مذكور في البحر[1]. بدأ بالعصا دون سائر المعجزات، لأنها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة منها انقلابها ثعباناً. وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل في انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيرها وتلقّفها لحبال السّحرة وعصيّهم وإبطالها لما صنعوا من كيدهم وسحرهم. والإلقاء حقيقةٌ في الأجرام[2].

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أي: جذب يده، قيل: من جيبه، وهو الظاهر لقوله تعالى ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل]. و«للناظرين» أي: للنظارة. وفي ذكر ذلك تنبيه على عظم بياضها لأنه لا يعرضها للنظارة إلا إذا كان بياضها عجيباً خارجاً عن العادة. وقال ابن عباس: صارت نوراً ساطعاً يضيء ما بين السماء والأرض [له] لمعان مثل لمعان البرق، فخرّوا على

(١) انظر ٤: ٣٥٧.

(٢) يعني هو حقيقة في الأجرام ومجاز في المعاني نحو: ألقى المسألة.

وجوههم. وما أعجب هذين الخارقين العظيمين: أحدهما في نفسه وذلك اليد البيضاء، والأخرى في غير نفسه وهي العصا. وجمع بذينك تبدّل الذّوات من الخشبية إلى الحيوانية، وتبدّل الأعراض من السّمرة إلى البياض الساطع، فكانا دالَّين على جواز الأمرين، وأنهما كلاهما ممكن الوقوع، وكان موسى عليه السلام أسمر.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ ﴿٣٤﴾ ﴾. والجمع بينهما أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام، فحكى هنا قولهم وهناك قوله، أو قاله ابتداءً، فتلقّفه منه الملأ. ولما كان الانقلاب وبياض اليد ممّا هو مستحيل في العادة، وهم ينكرون النبوّات، نسبوه إلى السحر، ووصفوه بـ«عليم» لمبالغته عندهم في السحر.

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ استشعرت نفوسهم ما صار إليه أمرهم من إخراجهم من أرضهم، وخلوّ مواطنهم منهم وخراب بيوتهم، فبادروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمر كما استشعروا، إذ أغرق الله تعالى فرعون وآله، وأخلى منازلهم منهم. ونبّهوا على هذا الوصف الصعب الذي هو معادل لقتل النفس، قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء]. وتحتمل «فماذا» أن تكون كلها استفهاماً وتكون مفعولاً ثانياً لـ«تأمرون» على سبيل التوسّع فيه بأن حذف منه حرف الجرّ كما قال: أمرتك الخير، ويكون المفعول الأول محذوفاً لفهم المعنى أي: أيَّ شيء تأمرونني، وأصله: بأي شيء. ويجوز أن تكون «ما» استفهاماً مبتدأ و«ذا» موصولة بمعنى الذي، خبرٌ عنه، و«تأمرون» صلة «ذا»، ويكون قد حذف مفعولي[1] «تأمرون» وهو ضمير [المتكلم والثاني وهو المضمر العائد على

(١) ق: مفعول.

الموصول، والتقدير: فأيّ شيء الذي تأمروننيه؟ أي: تأمرونني به. وكلا الإعرابين في «ماذا» جائز في قراءة من كسر النّون، إلا أنه حذف ياء المتكلم، وأبقى الكسرة دلالة عليها.

وقدّر ابن عطية الضمير العائد على «ذا» إذا كانت موصولة مقروناً بحرف الجر فقال: وفي «تأمرون» ضمير] [٢٢٠/ب] عائد على الذي تقديره: تأمرون به انتهى. وهذا ليس بجيد لفوات شرط جواز حذف الضمير إذا كان مجروراً بحرف جر، وذلك الشرط هو أن لا يكون الضمير في موضع رفع، وأن يجرّ ذلك الحرف الموصول أو الموصوف به أو المضاف إليه، ويتحد المتعلّق به الحرفان لفظاً ومعنى، ويتحد معنى الحرف أيضاً. والعذر لابن عطية أنه قدّره على الأصل، ثم اتّسع فيه فتعدّى إليه الفعل بغير واسطة الحرف، ثم حذف بعد الاتّساع.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: قال من حضر مناظرة موسى عليه السلام من عقلاء ملأ فرعون وأشرافه. قيل: ولم يكن فرعون يجالس ولد غيّةٍ[1] وإنما كانوا أشرافاً، ولذلك أشاروا عليه بالإرجاء ولم يشيروا عليه بالقتل وقالوا: إن قتلتَه دخلت على الناس شبهة، ولكن اغْلِبْهُ بالحجّة. وقرىء بالهمز وبغير همز فقيل هما بمعنى واحد والمعنى: أَخِّرْه واحبسه، وقيل: ارجيه بغير همز بمعنى أطمِعْه، جعله من رجوت، أدخل عليه همزة النقل أي: أطمعه وأخاه ولا تقتلهما حتى يظهر كذبهما، فإنك إن قتلتهما ظُنَّ أنّهما صدقا.

قال ابن عطية: وقرأ ابن عامر: أرجئهِ بكسر الهاء بهمزة قبلها، قال الفارسي: وهذا غلط انتهى. نسبة ابن عطية هذه القراءة إلى ابن عامر ليست

(١) يقال: هو ولد غيّة بالفتح والكسر: زَنية.

بجيدة[١]، لأن الذي روى ذلك إنما هو ابن ذكوان لا هشام، وكان ينبغي أن يقيّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان.

ولم يَجْرِ لهارون ذكرٌ في صدر القصة، وقد تبيّن في غير آية أنهما ذهبا معاً، وأُرسلا إلى فرعون، ولمّا كان موافقاً له في دعواه ومؤازراً له أشاروا بإرجائهما. ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: مدائن مصر وقراها. والحاشرون: قال ابن عباس: هم أصحاب الشرط، «حاشرين» أي: حاشرين السّحرة. وفي الكلام حذف تقديره: فبعث فأتوه، فلما جاء السّحرة وأُعلموا بما صدر من موسى عليه السلام من انقلاب العصا وبياض اليد، وأن هذا [من السحر - قالوا لفرعون «إن لنا لأجراً». وقرىء: أئِنّ بهمزة الاستفهام. وقرىء: إنّ] على جهة الإثبات، فجاز أن يكون الاستفهام من بعض السحرة والإثبات من بعضهم. وفي خطاب السحرة بذلك لفرعون دليل على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وربما يحصل للعالم بالشيء من الترفّع على من يحتاج إليه وعلى من لا يعلم مثل علمه. و«نحن» إما تأكيد للضمير، وإمّا فصلٌ، وجواب الشرط محذوف.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: نعم إن لكم لأجراً وإنكم، فعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة بعد «نعم» التي هي نائبة عنها. والمعنى: لمن المقرّبين منّي، أي: لا أقتصر على الجعل والثواب على غلبة موسى بل أزيدكم أن تكونوا المقربين، فتحوزون إلى الأجر الكرامة[٢] والرفعة والجاه والمنزلة.

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ قبل هذا محذوف تقديره: فحضر موسى بعصاه.

---

(١) ق: ليس بجيّد.

(٢) ق: فتجوزون إلى الأجر الرامة.

والذي يظهر أن تخييرهم إياه ليس من باب الأدب كما قال الزمخشري[١]، بل ذلك من باب الإدلال بما يعلمونه من السحر وإيهام الغلبة والثقة بأنفسهم وعدم الاكتراث والاهتبال بأمر موسى عليه السلام. وأجازوا في «أن تلقي» و«أن نكون» النصب أي: اختر أو افعل إما إلقاءك وإما إلقاءنا والمعنى فيه البداءة، والرفع [أي]: إما إلقاؤك مبدوء به وإمّا إلقاؤنا فيكون مبتدأ، وإما أمْرُك الإلقاء أي: البداءة به أو إمّا أمْرُنا الإلقاء فيكون خبر مبتدأ محذوف. ومفعول «تلقي» محذوف تقديره: [أن تلقي عصاك، ومفعول «الملقين» محذوف تقديره:] حبالنا وعصيّنا.

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾ أمرهم موسى عليه السلام بالتقدّم وثوقاً بالحق وعلماً أنه تعالى يبطله كما حكى الله تعالى عنه ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس]. ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي أَرَوُا العيون بالحيل والتّخيلات ما لا حقيقة له كما قال تعالى [٢٢١/أ] ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]. وفي قوله «سحروا أعين الناس» دلالة على أن السحر لا يقلب عيناً وإنما هو من باب التخييل. ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [أي: أرهبوهم] واستفعل هنا بمعنى أفعل كأبلّ واستبلّ، والرهبة الخوف والفزع. وقال الزمخشري[٢]: استرهبوهم وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم. وقال ابن عطية: «واسترهبوهم، بمعنى وأرهبوهم، فكأن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس انتهى. ولا يظهر ما قالا لأن الاستدعاء والطلب لا يلزم منه وقوع المستدعى والمطلوب. والظاهر هنا حصول الرهبة فلذلك قلنا إن استفعل فيه موافق أفعل.

---

(١) انظر الكشاف ٢: ١٠٢.

(٢) الكشاف ٢: ١٠٣.

ووصف السحر بـ«عظيم» لقوّة ما خيّل أو لكثرة آلاته من الحبال والعصي؛ روي أنهم جاؤوا بحبال من أدم وأخشاب مجوّفة مملوءة زئبقاً، وأوقدوا في الوادي ناراً فحميت بالنار من تحت والشمس من فوق فتحركت وركب بعضها بعضاً، وهذا من باب الشعبذة والدك[1].

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ الظاهر أنه وحي إعلام كما رُوي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال له: إنّ الحقّ يأمرك أن تلقي عصاك. وكونه وحي إعلام فيه تثبيت للجأش وتبشير بالنصر. و«أن» يُحتمل أن تكون المفسّرة بمعنى أي، لأنه تقدّمها معنى القول وهو «أوحينا»، فالمعنى: أي: ألق عصاك، وأن تكون الناصبة دخلت على فعل الأمر فينسبكُ منهما[2] مصدر تقديره: بالإلقاء. وفي الكلام حذف قبل الجملة الفجائية أي: فألقاها فإذا هي تلقف، وتكون الجملة الفجائية إخباراً لما ترتّب على الإلقاء. وقرىء: تلقَّفُ بحذف التاء وأصلها: تتلقف، وبإدغام التاء في التاء في[3] «تلقف». وقرىء تلقَف مضارع لَقِف. و«ما» موصولة أي: ما يأفكونه أي: يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوّرونه، أو مصدرية أي: تلقف إفكهم تسمية للمفعول بالمصدر.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن عباس والحسنّ: ظهر واستبان. وقال أرباب المعاني: الوقوع ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقرّه. قال القاضي: «فوقع الحق» يفيد قوة الظهور والثبوت بحيث لا يصحّ فيه البطلان، كما لا يصحّ في الواقع أن يصير إلا واقعاً. ومع ثبوت الحق

---

(١) الدّك: شدة الوطء والكيد.

(٢) ق: منها.

(٣) ق: هي.

بطلت، وزالت تلك الأعيان التي أفكوها، وهي الحبال والعصي.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: غُلب جميعهم في مكان اجتماعهم أو وقت اجتماعهم وانقلبوا أذلّاء. و﴿صَٰغِرِينَ﴾ حال.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لمّا كان الضمير قبلُ مشتركاً جُرّد المؤمنون وأفردوا بالذكر.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ساجدين قائلين. و«قالوا» في موضع الحال من الضمير في «ساجدين» أو من «السّحرة». وعلى التقديرين فهم ملتبسون بالسجود لله تعالى شكراً على المعرفة والإيمان وبالقول المنبىء عن التصديق الذي محلّه القلوب. ولما كان السجود أعظم القرب إذ «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١) بادروا [به] متلبّسين بالقول الذي لا بدّ منه عند القادر عليه؛ إذ الدخول في الإيمان إنما يدلّ عليه القول، وقالوا «رب العالمين» [وفاقاً لقول موسى عليه السلام ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأعراف]]. ولما كان قد يوهم هذا اللفظ غير الله كقول فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات] نَصُّوا بالبدل على أنه رب العالمين ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وأنهم فارقوا فرعون وكفروا بربوبيّته. والظاهر أنّ قائل ذلك جميع السّحرة.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قرىء: آمنتم على الخبر، وأآمنتم على الاستفهام. والضمير في «به» عائد على «رب العالمين». و«قبل أن آذن لكم» [فيه] وهنٌ في أمره لأنه إنما جعل ذنبهم بمفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى[٢٢١/ب] ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: إنّ صنعكم هذا لحيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء وتواطأتم على

(١) رواه مسلم ١: ٣٥٠ من حديث أبي هريرة.

ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهاً على الناس لئلاّ يتبعوا السّحرة في الإيمان. روي عن ابن مسعود وابن عباس أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السّحرة شمعون فقال له موسى عليه السلام: أرأيتكم إن غلبتكم أتؤمنون بي؟ فقال[1] له: نعم، فعلم بذلك فرعون فقال ما قال.انتهى.

ولما خاف فرعون أن يكون إيمان السّحرة حجّة قومه ألقى في الحال نوعين من الشبهة أحدهما أنّ هذا تواطؤ منهم، لا أنّ ما جاء به حقّ، والثاني أنّ ذلك طلبٌ منهم للمُلْك. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد. ومفعول «تعلمون» محذوف أي: ما يحلّ بكم، أَبْهَمَ في متعلق «تعلمون» ثم عيّن ما يفعله بهم فقال مقسماً:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ لما ظهرت الحجّة عاد إلى عادة ملوك السّوء، إذا غُلبوا، من تعذيب من ناوأهم[2]، وإن كان مُحقًّا. ومعنى ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: يد يمنى ورجل يسرى. وهذا التوعّد الذي توعّده فرعون السّحرة ليس في القرآن نصّ على أنه أنفذه وأوقعه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ[3]﴾ هذا تسليم واتّكال على الله تعالى وثقة بما عنده، والمعنى أنّا نرجع إلى ثواب ربّنا يوم الجزاء على ما نلقاه من الشدائد.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآية، والذي يظهر من تعديته بمِن أنّ المعنى «وما تنقم منّا» أي: ما تنال منّا كقوله ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ

(١) ق: فقالوا.

(٢) ق: ناوأه.

(٣) ق: لمنقلبون.

مِنْهُ ﴿٩٥﴾ [المائدة] أي: يناله بمكروه، ويكون فعل وافتعل فيه بمعنى واحد كقدر واقتدر، وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ مفعولاً من أجله استثناءً مفرّغاً، أي: ما تنال منا وتعذّبنا بشيء من الأشياء إلا لأن آمنّا بآيات ربّنا. وعلى هذا المعنى يدل تفسير عطاء، قال عطاء: ما لنا عندك ذنب تعذّبنا به إلا أن آمنّا. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ تقدم الكلام عليه في البقرة[1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ تضمّن قول الملأ إغراء فرعون بموسى وقومه وتحريضه على قتلهم أو تعذيبهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [عُطِفَا على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾ أي: للإفساد ولتركك وترك آلهتك] وكان الترك هو لذلك، وبدؤوا أوّلاً بالعلّة العامّة وهي الإفساد، ثم أتبعوه بالخاصّة، ليدلّوا على أن ذلك الترك من فرعون لموسى وقومه هو أيضاً يؤول إلى شيء يختص بفرعون، قدحوا بذلك زند تَغَيُّظه على موسى وقومه ليكون ذلك أبقى عليهم إذ هم الأشراف، وبترك موسى وقومه بمصر يذهب ملكهم وشرفهم. ويجوز أن يكون النصب على جواب الاستفهام والمعنى: أنّى يكون الجمع بين تركك موسى وقومه للإفساد وبين تركهم إياك وعبادة آلهتك؟ أي: أن هذا مما لا يمكن وقوعه.

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٥٠ من البقرة.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ وإنّما لم يعاجل موسى وقومه بالقتال لأنه كان قد ملىء من موسى عليه السلام رعباً. والمعنى أنه قال: سنعيد عليهم ما كنّا فعلنا بهم قبلُ من قتل أبنائهم، ليقلّ رهطه الذين يقع الإفساد بواسطتهم. والفوقية هنا بالمنزلة والتمكّن في الدنيا. و«قاهرون» يقتضي تحقيرهم أي: قاهرون لهم فهم أقلّ من أن نهتم بهم، فنحن على ما كنّا عليه من الغلبة، أو أن غلبة موسى عليه السلام لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلاّ تتوهّم العامّة أنّه المولود الذي تحدّث المنجّمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيثبّطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتّباعه وأنه منتظَر بعدُ.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ لمّا توعّدهم فرعون جزعوا وتضرّعوا، فسكّنهم موسى عليه السلام، وأمرهم بالاستعانة بالله تعالى [٢٢٢/أ] وبالصبر، وسلاّهم، ووعدهم النصر، وذكّرهم ما وعد الله به بني إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ أي: أرض مصر، وأل فيه للعهد وهي الأرض التي كانوا فيها.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ أي: بابتلائنا بذبح أبنائنا مخافة ما كان يتوقع فرعون من هلاك ملكه على يد المولود الذي يولد منّا. و«أن» مصدرية مخلَصة الفعل للاستقبال. وكانت إذايتهم الأولى قبل مجيء موسى عليه السلام وإذايتهم الثانية بعد مجيئه، فلذلك جاءت «ما» مصدرية وجاء بعدها الفعل الماضي. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ هذا رجاء من موسى عليه السلام، ومِثْله من الأنبياء يقوّي قلوب أتباعهم فيصبرون إلى وقوع متعلق الرجاء. ومعنى ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: في استخلافكم من الإصلاح والإفساد، وهي جملة تجرى مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى. وفي الحديث «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف

تعملون[١].

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ الأخذ التناول باليد ومعناه هنا الابتلاء في المدة التي أقام نبيهم موسى عليه السلام يدعو إلى الله تعالى. ومعنى «بالسنين» بالقحوط والجدوب، والسّنة تطلق على الحول وتطلق على الجدب ضد الخصب، وقد اشتقّوا منها بهذا المعنى فقالوا: أَسْنَتَ القوم، إذا أجدبوا ومنه قول الشاعر[٢]: [من الكامل]

(١) رواه مسلم ٤: ٢٠٩٨ من حديث أبي سعيد الخدري. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ١: ٢٥٤.

(٢) البيت في المقاصد النحوية ٤: ١٤٠، وفي اللسان (سنت)، وهو منسوب فيهما لعبدالله بن الزبعرى. وهو في اللسان (هشم) غير منسوب.

عَمْرُو الذي هَشَمَ الثّريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُونَ عِجافُ

قال ابن عباس: أما السّنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم. وهذه سيرة الله تعالى في الأمم يبتليها بالنّقم، ليزدجروا ويتذكروا بذلك ما كانوا فيه من النعم.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أتى في الشرط بإذا في مجيء الحسنة، وهي لتحقق وجوده، لأن إحسان الله تعالى هو المعهود الواسع العام لخلقه بحيث إن إحسانه لخلقه عامّ حتى في حال الابتلاء. وأتى الشرط بإنْ في إصابة السيئة وهي للإمكان، إبرازاً أنّ إصابة السيئة ممّا قد يقع وقد لا يقع. ﴿يَطَّيَّرُوا﴾[1] أي: يتشاءموا، وأصله يتطيّروا فأدغم التاء في الطاء. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: طائرهم: نصيبهم أي: ما طار لهم في القَدَر مما هم لاقُوه، وهو مأخوذ من زجر الطير. سمّي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان يُعتقد أن كلّ ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ[2]﴾ الضمير في «قالوا» عائد على آل فرعون، ولم يزدهم الأخذ بالجدوب ونقص الثمرات إلا طغياناً وتشدّداً في كفرهم وتكذيبهم. ولم يكتفوا بنسبة ما يصيبهم من السيئات إلى أنّ ذلك بسبب موسى عليه السلام ومن معه، حتى واجهوه بهذا القول الدّالّ على أنه لو أتى بما أتى من الآيات فإنهم لا يؤمنون. وأتوا بـ«مهما» التي تقتضي العموم ثم فُسّر بـ«آية» على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آية، كما قالوا في قوله

---

(١) ق: وقد لا يقعوا تطيّروا.

(٢) ق: بأننا بآية.

﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء]، وتسميتهم[١] لها بـ«آية» على زعمك، ولذلك علّلوا الإتيان بقولهم «لتسحرنا بها». وبالغوا في انتفاء الإيمان بأن صدّروا الجملة بـ«نحن» وأدخلوا الباء في «بمؤمنين»، أي: أن إيماننا لك لا يكون أبداً. و﴿ مَهْمَا ﴾ مرتفع بالابتداء، أو منتصب بإضمار فعل يفسّره فعل الشرط فيكون من باب الاشتغال أي: أيَّ شيءٍ تحضر بإتيانه[٢]. والضمير في «به» عائد على «مهما» وفي «بها» عائد أيضاً على معنى «مهما» لأن المراد به: أيّة آيةٍ، كما عاد على «ما» في قوله تعالى ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا[٣] ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقرة]. و«مهما» كلمة بسيطة ليست [٢٢٢/ب] مركّبة من: مَهْ اسم الفعل وما، ولا أنّ أصلها: ما ما فأبدلت ألفها هاءً فقيل مهما. وقد جاء في الشرط مهما، قال الشاعر[٤]: [من الطويل]

أماويَّ مهما يَسْتَمِعْ في صديقه أقاويلَ هذا الناس ماويّ يَنْدمِ

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ قال الأخفش: الطوفان جمع طوفانة عند البصريين، وعند الكوفيين مصدر. قال ابن عباس: الطوفان: الماء المغرق، وقال جماعة: هو المطر أُرسل عليهم دائماً الليل والنهار ثمانية أيام، وقيل: ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: أُمطروا حتى كادوا يهلكون. وبيوت القبط وبني إسرائيل مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق. ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وفاض الماء على وجه

---

(١) ق: وتسميه.
(٢) ق: أي أيّ محضر بإتيانه.
(٣) ق: ننساها.
(٤) البيت في اللسان (مهه) والخزانة ٣: ٦٣١ غير منسوب.

أرضهم، وركد، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرّف ودام عليهم سبعة أيام.

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ جمع جرادة وهو اسم جنس بينه وبين مفرده تاء التأنيث. وابتُلوا بالجراد بعد ابتلائهم بالطوفان سبعة أيام فأكلت عامّة زرعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء فكشف عنهم بعد سبعة أيام.

وسلّط الله عليهم القمّل، قال ابن عباس: القمل هو الدّبا وهو صغار الجراد قبل أن تنبت له أجنحة ولا يطير. رُوي أن موسى عليه السلام مشى إلى كثيب أهيل فضربه بعصاه فانتشر كلّه قمّلاً بمصر فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض. وكان يدخل بين جلد القبطي وقميصه، ويمتلىء الطعام قمّلاً.

وأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع فملأت آنيتهم وأطعماتهم ومضاجعهم، ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي والتنانير وهي تفور، [وإذا] تكلّم أحدهم وثبَتْ إلى فيه.

ثم بعد ذلك ارسل الله عليهم الدم حتى صار ماؤهم دماً، حتى إن الإسرائيلي ليضع الماء في في القبطي فيصير في فيه دماً. وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك فكان يمصّ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطِيبُ ملحاً أجاجا. ومعنى تفصيل الآيات تبيينها وإزالة إشكالها. وحكمة التفصيل بالزمان أنه يُمتحن فيه أحوالهم، أَيَفُون بما عهدوا أم ينكثون[1].

وانتصب ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ على الحال. والذي دلّت عليه الآية أنه أرسل

(١) سمّاها مفصّلات لأنّ بين الآية والآية فصلاً من الزمان. انظر البحر ٤: ٣٧٣.

عليهم ما ذكر فيها، وأما كيفية الإرسال ومكث ما أرسل عليهم من الأزمان والهيئات فمرجعه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات؛ إذ لم يثبت [من] ذلك في الحديث النبوي شيء. ومع إرسال حسن الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى. ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ إخبار منه تعالى عنهم باجترامهم على الله تعالى وعلى عباده.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ الظاهر أن الرّجز هو ما كان أُرسل عليهم من الآيات التي تقدّمت قبلُ. ومعنى «وقع عليهم» أي: نزل عليهم وثبت. وفي قولهم ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وفي إضافة الربّ إلى موسى عليه السلام عدم إقرار بأنه ربّهم حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربّنا. ومعنى ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بما اختصّك به فنبأك، أو بما وصّاك به أن تدعو به فيجيبك كما أجابك في الآيات. والظاهر تعلّق «بما عهد» بـ«ٱدْعُ لنا ربّك» ومتعلّق الدعاء محذوف تقديره: ادعُ لنا ربك بما عهد عندك في كشف هذا الرجز. و﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ جواب لقسم محذوف في موضع الحال من «قالوا» أي: قالوا ذلك مقسمين لئن كشفت. وفي قولهم ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [٢٢٣/أ] دلالة على أنه طلب منهم الإيمان كما أنه طلب منهم إرسال بني إسرائيل. وقدّموا الإيمان لأنه المقصود الأعظم الناشيء منه الطواعية. وفي إسناد الكشف إلى موسى عليه السلام حيدة عن إسناده إلى الله تعالى لعدم إقرارهم بذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ في الكلام حذف دلّ عليه المعنى وهو: فدعا موسى فكشف عنهم الرجز. وأسند تعالى الكشف إليه لأنه هو الكاشف حقيقةً، فلمّا كان من قولهم أسندوه إلى موسى عليه السلام وهو إسناد مجازي، ولمّا كان إخباراً من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسناد حقيقي. و﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [قالوا]: متعلق بـ«كشفنا»، ولا يمكن حمله على التعلق به لأن ما دخلت عليه لمّا ترتّب جوابه على ابتداء وقوعه، والغاية بقوله «إلى

أجل» ينافي التعليق على ابتداء الوقوع، فلا بدّ من تعقّل الابتداء والاستمرار حتى تتحقق الغاية[١]. و﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ جملة في موضع الصفة لـ«أجل» وهي أفخم من الوصف بالمفرد لتكرّر الضمير، فليس في حُسْن التركيب كالمفرد[٢]. و«إذا» للمفاجأة، تدلّ على أنه لم يكن بعد بلوغ الأجل وبين النكث زمان يتخلّلهما، بل بنفس ما بلغوا الأجل نكثوا ما أقسموا عليه من الإيمان والإرسال.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أحللنا بهم النقمة وهي ضدّ النعمة. فإن كان الانتقام هو الإغراق فتكون الفاء تفسيرية، وذلك على رأي من أثبت هذا المعنى للفاء، وإلّا كان المعنى: فأردنا الانتقام منهم. والباء في «بأنهم» سببية. والآيات هي المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام. والظاهر عود الضمير في «عنها» إلى الآيات أي: غفلوا عمّا تضمّنته الآيات من الهدى والنجاة وما فكّروا فيها، وتلك الغفلة هي سبب التكذيب.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾ الآية، لمّا قال موسى عليه السلام ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف] كان كما ترجّى موسى عليه السلام فأغرق أعداءهم في اليم، واستخلف بني إسرائيل في الأرض. و﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل، كان فرعون يستعبدهم ويستخدمهم. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وأورثنا ذرّية القوم، لأن القوم المستضعفين لم يعودوا إلى ديار مصر بأعيانهم، إذ كانوا جاوزوا البحر وأقاموا بالأرض المقدسة، وإنما ورث مصر ذرّيتهم ومنهم سليمان بن داود عليهما السلام. و﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ منصوب على أنه مفعول ثانٍ

(١) وجعل بعضهم «إلى أجل» من تمام الرجز أي: الرجز كائناً إلى أجل، والمعنى أن العذاب كان مؤجلاً. انظر البحر ٤ : ٣٧٥.

(٢) هذا إذا وقع في غير القرآن فقيل: إلى أجل بالغيه. انظر المصدر السابق.

لـ«أورثنا». وجُعلت مشارق ومغارب مبالغة في كثرة بركتها. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: مضت واستمرّت، من قولهم: تمّ على الأمر إذا مضى عليه. ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الباء سببية و«ما» مصدرية أي: بصبرهم. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي: خرّبنا قصورهم وأبنيتهم. والتدمير الإهلاك وإخراب الأبنية. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: يرفعون من الأبنية المشيّدة كصرح هامان وغيره.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ لمّا بيّن أنواع نعمه على بني إسرائيل بإهلاك عدوّهم، أتبع بالنعمة العظمى من إراءتهم هذه الآية العظيمة وقطعهم البحر مع السلامة، والبحر بحر القلزم. ومعنى «وجاوزنا» قطعنا بهم البحر، يقال: جاوز الوادي إذا قطعه، والباء للتعدية، يقال: جاوز البحر، إذا قطعه، وجاوز بغيره البحر[1]: عبر به فكأنه قال: وجزنا ببني إسرائيل البحر، أي: أجزناهم البحر، وفاعَلَ بمعنى المجرّد يقال: جاوز وجاز بمعنى واحد. ﴿فَأَتَوْا۟﴾ أي: مرّوا. ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم من لخم وجذام. ﴿يَعْكُفُونَ﴾ أي: يقيمون. ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ أي: عبادة الأصنام لهم. والأصنام: قيل البقر حقيقة وقيل تماثيل من حجر وعيدان على صورة البقر. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى

(١) ق: وجاوزه بغير البحر.

[٢٢٣/ب]﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ الظاهر أن طلب مثل هذا كفر وارتداد وشقاق وعناد، خرجوا في ذلك على عادتهم في تعنّتهم على أنبيائهم وطلبهم ما لا ينبغي. وقد تقدّم من كلامهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة] وغير ذلك مما هو كفر. وربما كان القول من بعضهم فنُسب إلى جميعهم.
﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجّب موسى عليه السلام من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ووصفهم بالجهل المطلق، وأكّده بإنّ، لأنّه(١) لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع. وأتى بلفظ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل جهلتم إشعاراً بأنّ ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه [في] ماضٍ ولا مستقبل.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى العاكفين على عبادة تلك الأصنام. ومعنى «متبّر» مهلك مدمّر مكسّر، وأصله الكسر. قال الزمخشري(٢): وفي إيقاع «هؤلاء» اسماً لإنّ وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها واسم لعبدة الأصنام بأنهم هو المعرّضون للتبار وأنه لا يعدوهم البتّة، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذّرهم عاقبة ما طلبوا ويبغّض لهم ما أحبّوا انتهى. لا يتعيّن ما قاله من أنه قدّم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً، لأن الأحسن في إعراب مثل هذا أن يكون خبر إنّ «متبّر»، وما بعده مرفوع على أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله. وكذلك «ما كانوا» هو فاعل بقوله «وباطل»، فيكون إذ ذاك قد أخبر عن اسم إنّ بمفرد لا جملة، وهو نظير: إنّ زيداً مضروب غلامه، فالأحسن في الإعراب أن يكون «غلامه» مرفوعاً على أنه مفعول لم يُسَمَّ فاعله، و«مضروب» خبر إنّ. والوجه الآخر [وهو]

(١) ق: وأكّده بأنه لا جهل.
(٢) الكشاف ٢: ١١٠.

أن يكون مبتدأ و«مضروب» خبره جائز وهو مرجوح.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ما أحسن ما خاطبهم موسى عليه السلام: بدأهم أولاً بنسبتهم إلى الجهل، ثم ثانياً أخبرهم بأنّ عُبّاد الأصنام ليسوا على شيء بل مآل أمرهم إلى الهلاك وبطلان العمل، وثالثاً أنكر وتعجّب أن يقع هوعليه السلام في أن يبغي لهم غير الله إلٰهاً، أي: أغير الله المستحقّ للعبادة والألوهية أطلب لكم معبوداً وهو الذي شرّفكم واختصّكم بالنّعم التي لم يعطها مَن سلف من الأمم لا غيره؟ فكيف أبغي لكم إلٰهاً غيره؟.

ومعنى «على العالمين» على عالمي زمانهم أو بكثرة الأنبياء فيهم. وانتصب «أغير» مفعولاً بـ«أبغيكم» أي: أبغي لكم غير الله، و«إلها» تمييز عن «غير» أو حال. أو على الحال و«إلٰهاً» المفعول، والتقدير: أبغي لكم إلٰهاً غير الله، فكان «غير» صفة فلما تقدم انتصب حالاً. وقال ابن عطية: و«غير» منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال انتهى. ولا يظهر نصبه بفعل مضمر لأنّ «أبغي» مفرّغ له أو لقوله «إلهاً»، فإن تخيّل أنه منصوب بأبغي مضمرةً يفسّرها هذا الظاهر فلا يصحّ؛ لأن الجملة المفسِّرة لا رابط فيها لا من ضمير ولا من مُلابس يربطها بـ«غير»، فلو كان التركيب: أغير الله أبغيكموه، لصحّ المعنى. ويحتمل «وهو فضّلكم» أن يكون حالاً وأن يكون مستأنفاً.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ الخطاب لمن كان على عهد رسول الله ﷺ تقريعاً لهم بما فعل أوائلهم وبما جاؤوا به. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية في أوائل سورة البقرة[1] فأغنى عن إعادته.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٩ من البقرة.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ
لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ
وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ
سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟
عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون. فلما هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة. وانتصب «ثلاثين» على أنه مفعول ثانٍ على حذف مضاف، فقدّره أبو البقاء[1]: إتيان ثلاثين أو إتمام ثلاثين. وقال ابن عطية: «وثلاثين» نصب [٢٢٤/أ] على تقدير: وأجّلناه أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، والضمير [في] «وأتممناها» عائد على المواعدة المفهومة من «واعدنا». وقال

(١) إملاء ١: ٢٨٤.

الحوفي: الهاء والألف نصب بـ«أتممناها» وهما راجعتان إلى «ثلاثين» انتهى. ولا يظهر لأن الثلاثين لم تكن ناقصة فتمّمت بعشر. وحذف مميّز «عشر» أي: بعشر ليالٍ لدلالة ما قبله عليه. وفي مصحف أبيّ: وتمّمناها مشدّداً. والميقات ما وُقّت له من الوقت وضربه له. وجاء بلفظ «ربّه» ولم يأت على «واعدنا» فكان يكون التركيب: فتم ميقاتنا، لأنّ لفظ «ربه» دالّ على أنه مُصلحه وناظر في أمره ومالكه والمتصرف فيه. والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء. وانتصب «أربعين» على الحال، قاله الزمخشري وابن عطية. وقدّر الزمخشري الحال فيه فقال[1]: أي تمّ بالغاً هذا العدد. فعلى هذا لا يكون الحال «أربعين» بل الحال هذا المحذوف، فينافي قوله: «وأربعين ليلة» نصب على الحال. وقال ابن عطية أيضاً: ويصحّ أن يكون «أربعين» ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة، وقيل: «أربعين» مفعول به بـ«تمّ» لأن معناه بلغ. والذي يظهر أنه تمييز منقول من الفاعل وأصله: فتمّ أربعون ميقات ربّه، أي: كملت، ثم أسند التمام لـ«ميقات» وانتصب «أربعون» على التمييز.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ قرىء شاذًا: هارونُ بالضم على النداء [أي]: يا هارون. أمره حين أراد المضيّ للمناجاة والمغيب فيها أن يكون خليفته في قومه وأن يصلح في نفسه أو ما يجب أن يصلح في أمر قومه، ونهاه أن يتبع سبيل من أفسد. وفي النهي دليل على وجود المفسدين ولذلك نهاه عن اتباع سبيلهم. وأَمْرُه إياه بالإصلاح ونهيه عن اتّباع سبيل المفسدين هو على سبيل التأكيد لا لتوهمّ أنه يقع منه خلاف الإصلاح واتباع تلك السبيل لأن منصب النبوة منزّه عن ذلك. ومعنى ﴿اخْلُفْنِي﴾ استبِدّ بالأمر وذلك في حياته إذ راح

---

(١) الكشاف ٢: ١١١ في الموضعين.

إلى مناجاة ربّه، وليس المعنى أنك تكون خليفتي بعد موتي؛ ألا ترى أنّ[١] هارون مات قبل موسى عليهما السلام؟.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: للوقت الذي ضربه له أي: لتمام الأربعين كما تقول: أتيته لعشرٍ خلون من الشهر. ومعنى [اللام] الاختصاص والجمهور على أنه وحده خُصَّ بالتكليم[٢] إذ جاء للميقات. وقال القاضي: سمع هو والسبعون كلام الله تعالى. قال ابن عطية: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديمة الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس وابن جبير: أدنى الله موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقلام في اللوح. وقال الزمخشري[٣]: وكلّمه ربّه من غير واسطة كما يكلّم الملك. وتكليمه تعالى أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح. وروي أن موسى عليه السلام كان يسمع الكلام من كلّ جهة. وعن ابن عباس: كلّمه أربعين يوماً وأربعين ليلة وكتب له الألواح، وقيل إنما كلّمه في أوّل الأربعين انتهى.

وقال وهب: كلّمه في ألف مقام، وعلى إثر المقام يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام، ولم يقرب النساء مذ كلّمه الله تعالى انتهى. وقد أوردوا هنا الخلاف الذي في كلام الله تعالى وهو مذكور [هو] ودلائل المختلفين في كتب الأصول. و«كلّمه» معطوف على «جاء» وقيل حال. وعدل عن قوله: وكلّمناه إلى قوله «وكلّمه ربّه» للمعنى الذي عدل إلى قوله «فتمّ ميقات ربّه».

(١) ق: إلى.
(٢) ق: بالتكلّم.
(٣) الكشاف ٢: ١١١.

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أرني: هي بصريّة والمفعول الثاني محذوف تقديره: أرنيك أو أرني إياك[١]. قال السّدي وأبو بكر الهذلي: لمّا كلّمه وخصّه بهذه الرتبة [٢٢٤/ب] طمحت همّته إلى رتبة الرؤية وتشوّف إلى ذلك فسأل ربّه أن يريه نفسه. قال ابن عطية: ورؤيته تعالى عند الأشعرية وأهل السنّة جائزة عقلاً لأنه من حيث هو موجود تصحّ رؤيته. وقررت الشريعة رؤية الله تعالى في الآخرة ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل محالاً وإنما سأل جائزاً.

وقوله تعالى ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ ليس بجواب من سأل محالاً، وقد [قال] تعالى لنوح عليه السلام ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فلو سأل موسى محالاً لكان في الجواب زجرٌ ما وتبيين. وللزمخشري كلام كثير في الرؤية ذكرناه في البحر[٢]. «ولكن انظر إلى الجبل» تعليق الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذن بعدمها إذ لم يستقر. ونبّه بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقرّ فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقرّ. وهذا تسكين لقلب موسى عليه السلام وتخفيف عنه من ثقل أعباء المنع. والتجلي: الظهور، والدكّ مصدر دَكَكْتُ الشيء: فَتَتُّه وسحقته، مصدر في معنى المفعول، والدكّ والدقّ بمعنى واحد. قال ابن عزيز: دكًّا مستوياً مع الأرض. والخرُور: السقوط. «أفاق» ثاب إليه حسه وعقله.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ ترتّب على التجلّي أمران: أحدهما تفتّت الجبل وتفرّق أجزائه، والثاني خرور موسى مغشيًّا عليه. والتجلّي بمعنى الظهور الجسماني مستحيل على الله تعالى، قال ابن عباس وقوم: لمّا

(١) ق: أرني إليك إياك.

(٢) انظر ٤: ٣٨٣.

وقع نوره عليه تعالى تدكدك. ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ نزّه الله تعالى عن سمات الحدوث والنقص.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ لما طلب موسى عليه السلام الرؤية وَمُنِعَها، عدّد عليه تعالى وجوه نعمه العظيمة عليه، وأمره أن يشتغل بشكرها، وهذه تسلية منه تعالى له. و﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لفظ عام ومعناه الخصوص أي: على أهل زمانك. وقدّم «برسالاتي» على «وبكلامي» لأن الرسالة أسبق في الزمان، أو لأنه انتقل من شريف إلى أشرف. وأَمَره تعالى بأن يأخذ ما آتاه من النبوّة، لأنّ في الأمر بالأخذ مزيد تأكيد وحصول أجر بالامتثال. والمعنى: خذ ما آتيتك باجتهاد في تبليغه وجدّ في النفع به. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على ما آتيناك، وفي ذلك إشارة إلى القنع والرضى بما أعطى الله تعالى والشكر عليه.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أي: أمرنا له بالكتابة فأضاف الكتابة إلى نفسه تعالى لمّا كان آمراً بالكتابة. والضمير في «له» عائد على موسى. و«الألواح» جمع قلّة، والألف واللام فيها للعهد إذ عنى بها ألواح موسى عليه السلام. قيل: والضمير نابت عنه الألف واللام أي: في ألواحه. ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ محتاج إليه في شريعتهم. ﴿مَّوْعِظَةً﴾ للازدجار والاعتبار. ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ من التكاليف والحلال والحرام والأمر والنّهي والقصص والعقائد والإخبار بالمغيّبات.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ الظاهر أن الضمير في «خذها» عائد على الألواح. ومعنى «بقوة» قال ابن عباس: بجدٍّ واجتهاد فِعْلَ أولي العزم. وقال: أُمر أن يأخذ بأشد ما أمر به قومه. وقوله ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ ظاهره أنه أفعل التفضيل وفيها الحسن والأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر. ﴿سَأُو۟رِيكُمْ﴾ الإراءة هنا من رؤية العين ولذلك تعدّت إلى اثنين. و﴿دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ هي مصر. وثَمّ حال محذوفة تقديره: مدمّرةً، ألا ترى إلى قوله ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ

﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف]، وقيل أريحا التي كان بها العمالقة، وقيل من الأرض المقدّسة. قال الزمخشري[١]: كيف أقفرت منهم ودمّروا لفسقهم [٢٢٥/أ] لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكّل بكم مثل نكالهم انتهى. وقرأ الحسن: سأوريكم بواوٍ ساكنة بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف. ووجّهت هذه القراءة بوجهين: أحدهما ما ذكره أبو الفتح وهو أنه أشبع الضمّة ومطّها[٢]، فنشأ عنها الواو، قال: ويحسّن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكّن الصوت فيه انتهى. فيكون كقوله[٣]:

[من البسيط]

[وأنني حيثما يثني الهوى بصري   من حيثما سلكوا] أدنو فأنظورُ

أي: فأنظر. وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر. والثاني ما ذكره الزمخشري[٤] قال: وقرأ الحسن: سأوريكم، وهي لغة فاشية في الحجاز؛ يقال: أورني كذا وأوريته، فوجهه أن يكون من أوريتُه الزند كأن المعنى: بيِّنْهُ لي وأَنِرْه لأستبينه انتهى. وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقّفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن، وينبغي أن ينظر في تحقيق هذه اللغة أهي في لغة الحجاز أم لا. وقرأ ابن عباس وقسامة بن زهير: سأورثكم، قال الزمخشري[٥]: وهي قراءة حسنة يصحّحها قوله تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾ الآية، لمّا ذكر «سأريكم دار الفاسقين» ذكر ما يفعل

---

(١) الكشاف ٢: ١١٧.

(٢) ق: ومطلها.

(٣) البيت لابن هرمة في ديوانه ص٢٣٩.

(٤) الكشاف ٢: ١١٧.

(٥) الكشاف ٢: ١١٧.

بهم من صرفه إياهم عن آياته لفسقهم وخروجهم عن طورهم إلى وصفٍ ليس لهم. ثم ذكر تعالى من أحوالهم ما استحقّوا به اسم الفسق. ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ وصفهم[١] هذا الوصف الذميم وهو التكبّر عن الإيمان حتى لو عُرضت عليهم كل آية لم يروها آية فيؤمنوا بها، وهذا حتم منه تعالى على الطائفة التي قدّر أن لا يؤمنوا. ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الآية، أراهم الله تعالى السبيلين فرأوهما فآثروا الغيّ على الرشد كقوله تعالى ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ذلك الصرف عن الآيات هو بسبب تكذيبهم بها وغفلتهم عن النظر فيها والتفكر في دلالتها. والمعنى أنهم استمر تكذيبهم، وصار لهم ذلك ديدناً[٢] حتى صارت تلك الآيات لا تخطر لهم ببال، فحصلت الغفلة عنها والنسيان لها حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئاً منها. والظاهر أن الصرف سببه التكذيب والغفلة من جميعهم ويحتمل أن الصّرف سببه التكذيب، ويكون قوله ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ استئناف إخبار منه تعالى عنهم، أي: من شأنهم أنهم كانوا غافلين عن الآيات وتدبّرها، فأورثَتْهم الغفلة التكذيب بها. والظاهر أن «ذلك» مبتدأ وخبره «بأنهم» أي: ذلك الصرف كائن بأنهم كذّبوا، وجوّزوا أن يكون منصوباً فقدّره ابن عطيّة: فعَلْنا ذلك، وقدّره الزمخشري[٣]: صرفهم الله تعالى ذلك الصرف بعينه.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ

(١) ق: صرف.
(٢) ق: ديناً.
(٣) الكشاف ٢: ١١٧.

أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا
وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ الآية، إن كان الاتخاذ بمعنى اتخاذه إلهاً معبوداً فصحّ نسبته إلى القوم، وذُكر أنهم كلّهم عبدوه غير هارون، ولذلك قال ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف]، وقيل إنّما عبده قوم منهم لا جميعهم لقوله تعالى ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف]. وإن كان بمعنى العمل كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت] أي: عملت وصنعت، فالمتّخِذ إنما هو السامريّ واسمه موسى بن ظفر من قرية تسمّى سامرة، ونُسب ذلك إلى قوم موسى مجازاً كما قالوا: بنو تميم قتلوا فلاناً، وإنما قتله واحد منهم ولكونهم راضين بذلك.

ومعنى ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد مضيّه للمناجاة. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ يتعلق بـ«اتّخذ»، وبها يتعلق «من[1] بعده» وإن كانا حرفي جر بلفظ واحد. وجاز ذلك لاختلاف مدلوليهما لأن «مِن» الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض. وقرىء: [٢٢٥/ب] من حَلْيهم، مفرداً ومن حُلِيّهم جمعاً. وأصله حُلُوْيٌ

(١) ق: بمن بعده وإن كان.

على وزن فُعولن فاجتمعت واو وياء فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها، ثم كسر ما قبلها لتصحّ الياء[١]، ثم أتبعت حركة الحاء لحركة اللام فقيل: حِلِيّ كما قالوا[٢]: عِصِيّ. والعجل ولد البقرة القريب الولادة. ومعنى ﴿جَسَدًا﴾ جثة جماداً ليس مصوراً [بالخطّ] في حائط ولا رقماً في ثوب. وكان ذلك بسبب ما كان تقدم من أنهم مرّوا بقوم يعبدون البقرة فقالوا تلك المقالة الشنيعة. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ ظاهره أنه قامت به الحياة ولذلك كان له خوار. وقيل: لمّا صنعه السامري أجوف تحيّل لتصويته بأن جعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وجعله في مهبّ الريح فتدخل في تلك الأنابيب فيظهر له صوت يشبه الخوار، فإذا خار، سجدوا له، وإذا سكت رفعوا.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ إن كان «اتخذ» بمعنى[٣] عمل، وصنع، فلا بدّ من تقدير محذوف يترتّب عليه هذا الإنكار وهو: فعبدوه وجعلوه إلٰهاً لهم، وإن كان المحذوف إلٰهاً أي: اتخذوا عجلاً جسداً له خوار إلٰهاً فلا يحتاج إلى حذف جملة. وهذا استفهام إنكار حيث عبدوا جماداً أو حيواناً عاجزاً، عليه آثار الصنعة، لا يمكن أن يتكلم ولا يهدي. وقد ركز في العقول أنّ من كان بهذه المثابة، استحال أن يكون إلٰهاً، وهذا نوع من أنواع البلاغة يسمّى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسميه المذهب[٤] الكلامي.

والظاهر أن ﴿يَرَوْاْ﴾ بمعنى يعلموا. وسلب تعالى عنه هذين الوصفين دون

---

(١) هذا التعليل ينطبق على قراءة من قرأ: حُلِيّهم جمعاً بالضمّ والتشديد، على ثُدِيّ.

(٢) ق: كما قال. وهذا التعليل ينطبق على قراءة لم يذكرها المصنف وهي قراءة من قرأ: من حِلِيّهم جمعاً بالكسر والتشديد، على عِصِيّ.

(٣) ق: بمنع.

(٤) ق: الاحتجاج.

باقي أوصاف الإلهيّة لأن انتفاء التكليم يستلزم انتفاء العلم، وانتفاء الهداية إلى سبيل [يستلزم] انتفاء القدرة. وانتفاء هذين الوصفين وهما العلم والقدرة يستلزمان انتفاء باقي الأوصاف، فلذلك خُصّ هذان الوصفان بانتفائهما. ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: أقدموا على ما أقدموا عليه من هذا الأمر الشنيع وكانوا واضعين الشيء في غير موضعه، أي: من شأنهم الظلم فليسوا مبتكرين وضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ قال الزمخشري[1]: لمّا اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأنّ عادة من اشتدّ ندمه وحسرته أن يعضّ يده غمًّا فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها، و«سقط» مسند إلى «في[2] أيديهم» وهو من باب الكناية انتهى. وأصل السقوط الوقوع من علوّ. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ الآية، انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه. ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلهاً أعظم الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كل شيء، ومن نتائجها غفران الذنب.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية، أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فُتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غاضب، ويدل على هذا القول قوله تعالى ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥﴾ [طه]. و﴿غَضْبَٰنَ﴾ صيغة مبالغة، والغضب غليان في القلب بسبب حصول ما يؤلم[3]. و﴿أَسِفًا﴾ حزيناً والفعل منه أسِف يأسف. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ تقدم الكلام على بئسما في أوائل

---

(١) الكشاف ٢: ١١٨.

(٢) ق: إلى ما في.

(٣) ق: ما لم يؤلم.

البقرة[١]. ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: من بعد انفصالي عنكم للمناجاة، ذمّهم على عبادة غير الله تعالى. و﴿أَعَجِلۡتُمۡ﴾ استفهام إنكار، يقال: عجل عن الأمر إذا تركه، وأعجله عنه غيرُه. والمعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى عليه السلام حافظين لعهده وما وصّاكم به؟. ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ أي: ألواح التوراة وكان حاملاً لها فوضعها بالأرض غضباً [٢٢٦/أ] على ما فعله قومه من عبادة العجل وحميّةً لدين الله تعالى. والظاهر أنه أخذ برأسه أي: أمسك رأسه جارّه إليه، والظاهر أن سبب هذا الأخذ هو غضبه على أخيه كيف عبدوا العجل وهو قد استخلفه فيهم، وأمره بالإصلاح، وأن لا يتبع سبيل من أفسد، وكيف لم يكفّهم عن ذلك. ﴿قَالَ ٱبۡنَ[٢] أُمَّ﴾ الآية، ناداه نداء استعطاف وترفّق وكان شقيقه، وهي عادة العرب تتلطف وتتحنّن بذكر الأم كما قال[٣]: [من الخفيف]

يا بن أمي ويا شُقَيِّقَ[٤] نفسي   أنت خلَّفْتَني لدهرٍ شديدِ

وقرىء بكسر الميم اجتزاءً بالكسرة عن الياء، إذ أصله: يا بن أمّي. وقرىء: يا بن أمَّ بفتح الميم المشدّدة اجتزاءً بالفتحة عن الألف، إذ أصله: يا بن أُمّا، والألف منقلبة عن الياء كما قال[٥]: [من الرجز]

يا بنة عمّا لا تلومي واهجعي   [ألم يكن يبيضُّ لو لم يصلعِ]

---

(١) انظر تفسير الآية ٩٠ من البقرة.

(٢) ق: يا بن أمّ.

(٣) البيت لأبي زبيد الطائي في رثاء أخيه، وهو في المقتضب ٤: ٢٥٠.

(٤) ق: شقيقي.

(٥) البيت لأبي النجم في النوادر ص١٩، والمقتضب ٤: ٢٥٢.

يريد: يا بنة عمّي. ومعنى ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ وجدوني ضعيفاً. ولمّا أبدى له[١] ما كان منهم من الاستضعاف له ومقاربة قتلهم [إياه] سأله ترك ما يسرّهم بفعله فقال ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: لا تسرّهم بما تفعل بي فأكون ملوماً منهم ومنك، قال الشاعر[٢]: [من الكامل]

[فلرحمة المتوجّعين مرارةٌ] والموتُ دون شماتة الأعداء

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ لمّا اعتذر إليه أخوه، استغفر لنفسه وله، قالوا: واستغفاره لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعجلته في إلقاء الألواح، واستغفاره لأخيه من فعلته في الصبر لبني إسرائيل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ الظاهر أنه من كلام الله إخباراً عمّا ينال عُبّاد العجل، ومخاطبة لموسى عليه السلام بما ينالهم، ويدلّ عليه قوله آخر الآية «وكذلك نجزي المفترين».

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا إلى الله تعالى. ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد عمل السيئات. ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ داموا على إيمانهم وأخلصوا فيه. «والذين» مبتدأ وخبره «إن ربك» والعائد على المبتدأ محذوف تقديره: لغفور رحيم بهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ

(١) ق: لهم.

(٢) لعله لابن أبي الشبل البغدادي، انظر الوفيات ٤: ٣٩٣.

هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ
ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ الآية، سكوت غضبه كان، والله أعلم، بسبب اعتذار أخيه وكونه لم يقصّر في نهي بني إسرائيل عن عبادة العجل ووعد الله تعالى إياه بالانتقام منهم. وسكوت الغضب استعارة؛ شبّه خمود الغضب [بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته، جعل الغضب] كأنه إنسان يناجي موسى ويهيّجه لما فعل قومه من اتخاذهم العجل، ولذلك ألقى الألواح ثم إنه سكت عنه. وهذا من بديع الاستعارة: جعل سكون الغضب سكوتاً. وقرأ معاوية بن قرّة: ولمّا سكن بالنون عوض التاء. ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ هو جواب «لمّا»، وكان ألقاها غضباً على قومه فلما سكت الغضب أخذها. ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: [فيما] نقل وحوّل منها. واللام في «لربهم» مقوية لوصول الفعل الذي هو «يرهبون» إلى المفعول المتقدم كقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف].

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ اختار افتعل من الخير وهو التخيّر والانتقاء. و«أختار» من الأفعال التي تعدّت إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بواسطة حرف الجر، ثم يحذف حرف الجر ويتعدّى إليه الفعل فتقول: اخترت زيداً من الرجال واخترت زيداً الرجالَ، قال الشاعر[1]: [من البسيط]

اخترتُك الناسَ إذ رثّتْ خلائقهم   واعتلّ من كان يُرجى عنده السُّولُ

﴿لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ قال وهب بن منبه: قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إنّ طائفة تزعم أن الله لا يكلّمك فخذ منّا من يذهب معك ليسمعوا كلامه فيؤمنوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار سبعين من خيارهم، ثم ارتقِ بهم الجبل أنت وهارون واستَخْلِفْ يوشع، ففعل. فلما سمعوا كلامه سألوا موسى أن يريهم [٢٢٦/ب] الله جهرة فأخذتهم الرجفة. وفي الكلام حذف تقديره: فرجف بهم الجبل وصعقوا.

﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ﴾ مفعول «شئت» محذوف تقديره: لو شئت إهلاكنا، وجوابه «أهلكتهم» ولم يأت الجواب باللام. ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾ ضمير المتكلم معطوف على الضمير المنصوب في «أهلكتهم». ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ الظاهر أنه استفهام استعلام: أيقع إهلاك المختارين وهم خير بني إسرائيل بما فعل غيرهم إذ من الجائز في العقل ذلك، ألا ترى قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ۝٢٥﴾ [الأنفال] وقوله عليه السلام[2] وقد قيل: «أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال:نعم إذا كَثُر الخَبَث». وكما ورد[3]:

---

(١) البيت للراعي النميري في ديوانه ص١١٦، وفي رواية الديوان إقواء.

(٢) أخرجه مسلم ٤: ٢٢٠٨ من حديث زينب بنت جحش، ومالك في الموطأ ٢: ٩٩١ من حديث أم سلمة، والبخاري ٦: ٢٦٠٩.

(٣) أخرجه البخاري ٢: ٧٤٦ من حديث جبير بن مطعم عن عائشة بلفظ مقارب.

إن قوماً يُخسف بهم. قيل: وفيهم الصالحون؟ فقيل: يبعثون على نيّاتهم. وكلامنا هذا معناه «بما فعل السفهاء منا» وهم عُبّاد العجل.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ «إن» نافية بمعنى ما، و«هي» ضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام أي: إن الفتنة إلا فتنتك أي: راجعة إليك إذ أنت موجد الخير والشر، وأنت موقع ضلال مَن فَتَنْتَه وهداية من شئت، وهذا هو الاعتقاد الصحيح أن الله تعالى يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء. ومفعول «تشاء» محذوف تقديره: من تشاء إضلاله ومن تشاء[1] هدايته. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائم بأمرنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ سأل الغفران والرحمة له لهم لما كان قد اندرج قومه في قوله «أنت ولينا». وفي سؤال المغفرة والرحمة له ولهم - وكان قومه أصحاب ذنوب - أكّد استعطاف ربه تعالى، وغفران تلك الذنوب فأكّد ذلك ونبّه بقوله «وأنت خير الغافرين».

ولما كان هو وأخوه عليهما السلام من المعصومين من الذنوب، فحين سأل المغفرة له ولأخيه وسأل الرحمة لم يؤكد المغفرة بل قال ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف] فنبّه على أنه تعالى أرحم الراحمين، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]؟. وكان تعالى خير الغافرين لأن غيره يتجاوز [عن] الذنب طلباً للثناء أو الثواب أو دفعاً للصفة الخسيسة عن القلب وهي صفة الحقد. والباريء تعالى منزه عن أن يكون غفرانه لشيء من ذلك.

﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: ما يحسن من نعمة وطاعة وغير ذلك. وحسنة الآخرة هي الجنة لا حسنة دونها. ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تعليل

(١) ق في المواضع الثلاثة: يشاء.

لطلب الغفران والرحمة. وقرأ الجمهور: هُدنا بضم الهاء من هاد يهود أي: تبنا إليك، قاله ابن عباس. وقرأ زيد بن علي وأبو وجزة: بكسر الهاء من هاد يهيد إذا حرّك، أي: حرّكنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، قال الشاعر(١):

[من السريع]

قد علمَتْ سلمى وجاراتُها أَنّي مِنَ الله لها هائِدُ

أي: مائل. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ الظاهر أنه استئناف إخبار عن عذابه ورحمته. ومفعول «من أشاء» محذوف تقديره: أشاء إصابته به. وقرأ زيد بن علي والحسن وطاوس وعمرو بن فائد: من أساء، من الإساءة. وقرأ بها سفيان بن عيينة مرّة، واستحسنها، وذُكر أن الشافعي صحّف «من أشاء» بقوله: من أساء، ثم وجدت قراءة كما ذكرنا. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي: أقضيها وأقدّرها والضمير عائد على الرحمة لأنها أقرب مذكور. وفهم المفسرون من قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الأوصاف أن المتّصفين بذلك هم أمّة محمد رسول الله ﷺ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ الآية، هذا من بقيّة خطابه تعالى لموسى عليه السلام، وفيه تبشير له ببعثة محمد ﷺ وذكر لصفاته وإعلام له أيضاً أنه ينزل كتاباً يسمّى الإنجيل. ومعنى الاتباع الاقتداء به فيما جاء به اعتقاداً وقولاً [٢٢٧/أ] وفعلاً. وجمع هنا بين الرسالة والنبوّة لأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفاً من النبوّة، أو لأنها بالنسبة إلى الآدمي والملك أعمّ

(١) في شعر عمرو بن معد يكرب ص١٥٤:

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطّر الفارس إلا أنا

ولعلّ البيت الذي أورده المصنّف ملفّق من بيتين أو لعلّه سواه. وانظر أيضاً الكتاب ٢: ٣٥٣، وشرح الحماسة للمرزوقي ١: ٤١١، وشرح شواهد المغني ٥: ٢٥٦.

فبدىء به. و﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ هو الذي على صفة أمة العرب: أنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب، فأكثر العرب لا تكتب ولا تقرأ، وكونه صلى الله عليه وسلم أمّياً من جملة المعجز. ومعنى ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجدون وصفه ونعته. قال ابن عباس: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بخلع الأنداد وبمكارم الأخلاق وصلة الأرحام. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: المستلذّات، ويبعد تفسيره هنا بالحلال.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهو ما كانت العرب تستخبثه كالحية والعقرب والحشرات والدم والميتة ولحم الخنزير، وما جاء في الشرع النّهي عن أكله كذي مخلب من الطير وذي ناب من السّباع، وما أمر بقتله كالحدأة والغراب والفأرة والعقرب وغير ذلك. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ تقدّم تفسير الإصر في البقرة[1]. ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا مثل لما كُلّفوا من الأمور الصعبة كقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتماً من القاتل عمداً كان أو خطأً، وترك الاشتغال يوم السبت، وتحريم العروق في اللحم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ أثنوا عليه ومدحوه. وقرىء: وعَزَروه، بالتخفيف. وقرىء بزاءين أي: وعَزّزُوه. و«النّور» القرآن وهو على حذف مضاف أي: أنزل مع نبوّته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لمّا ذكر تعالى لموسى عليه السلام صفة محمد ﷺ، وأخبر أن من أدركه وآمن به أفلح، أمر تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بإشهار دعوته ورسالته إلى الناس كافة والدعاء إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله وكلماته واتّباعه. ودعوة رسول الله ﷺ عامة للإنس والجن وتقتضيه الأحاديث النبوية. و«الذي» في موضع نصب على

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٨٦ من البقرة.

المدح أو رفع، وأجاز الزمخشري[١] أن يكون مجروراً صفة «لله» تعالى وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله «إليكم». وقال أبو البقاء[٢]: ويبعد أن يكون صفة لله تعالى أو[٣] بدلاً منه لما فيه من الفصل بينهما بـ«إليكم» وبالحال، و«إليكم» متعلق بـ«رسول»، و«جميعاً» حال من ضمير «إليكم».

وقال الزمخشري[٤]: «لا إله إلا هو» بدل من الصلة التي هي «[له] ملك السماوات والأرض» وكذلك «يحيي ويميت». وفي «لا إله إلا هو» بيان للجملة قبلها لأنّ مَن مَلَك السماوات والأرض كان هو الإله على الحقيقة. وفي «يحيي ويميت» بيان لاختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره انتهى. وإبدال الجمل [من الجمل] غير المشتركة في عامل لا نعرفه، وكأن الزمخشري لاحظ أنّ كلاًّ من الجملتين يصحّ أن يكون صلة. والظاهر أن تكون هذه جملاً مستقلة من حيث الإعراب وإن كان متعلقاً بعضها ببعض من حيث المعنى.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ لما ذكر أنه[٥] رسول الله ﷺ، أمرهم بالإيمان بالله تعالى وبه، وعدل عن ضمير المتكلم إلى الظاهر وهو الالتفات، لما في ذلك من البلاغة بأنه هو النبي السابق ذكره في قوله تعالى «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي»[٦] وأنه هو المأمور باتّباعه الموجود

(١) انظر الكشاف ٢ : ١٢٣.

(٢) إملاء ١ : ٢٨٧. وليست الجملة الأخيرة فيه: وجميعاً حال من ضمير إليكم.

(٣) ق : وبدلاً.

(٤) الكشاف ٢ : ١٢٣.

(٥) ق : أنّ.

(٦) الآية ١٥٧ السابقة.

بالأوصاف السابقة. والظاهر أن كلماته هي الكتب الإلهية التي أنزلت على من تَقَدَّمه وعليه.

ولمّا كان الإيمان بالله تعالى هو الأصل يتفرّع عنه الإيمان بالرسول والنبي، بدأ به ثم أتبعه بالإيمان بالرسول ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدّال على نبوّته وهو كونه أمّياً وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين [٢٢٧/ب] مع نشأته في بلدٍ عارٍ من أهل العلم لم يقرأ كتاباً ولم يخطّ ولم يصحب عالماً ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلّماً.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ
لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ
عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ﴾ الآية، لما أمروا بالإيمان بالله

ورسوله وأمروا[١] باتّباعه، ذكر أنّ من قوم موسى من وُفّق للهداية وَعَدل ولم يَجُر، ولا تكون له هداية إلا باتّباع شريعة موسى عليه السلام قبل مبعث رسول الله ﷺ وباتّباع شريعة رسول الله ﷺ بعد مبعثه. فهذا إخبار عمّن كان من قوم موسى بهذه الأوصاف فكان المعنى أنهم كلهم لم يكونوا ضُلاّلاً بل كان منهم مهتدٍ كعبد الله بن سلام، وأصحابه.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ و«اثنتي عشرة» حال. وأجاز أبو البقاء[٢] أن يكون «قطّعنا» بمعنى صيّرنا، وأن ينتصب «اثنتي عشرة» على أنه مفعول ثانٍ لـ«قطّعنا». ولم يعدّ النحويون «قطّعنا» في باب ظننت، وجزم به الحوفي فقال: «اثنتي عشرة» مفعول لـ«قطّعناهم» أي: جعلناهم اثنتي عشرة، وتمييز «اثنتي عشرة» محذوف لفهم المعنى تقديره: اثنتي عشرة فرقة، و«أسباطاً» بدل من «اثنتي عشرة». وتقدم تفسير الأسباط في البقرة[٣]. و﴿أُمَمًا﴾ قال أبو البقاء[٤]: نعت لـ«أسباط» أو بدل بعد بدل. ولا يجوز أن يكون «أسباطاً» تمييزاً لأنه جمع، وتمييز هذا النوع لا يكون إلا مفرداً.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ تقدم تفسير نظيره في البقرة[٥]. «فانبجست» أي: عرقت[٦]، وانفجرت: سالت. وقال الواحدي: الانبجاس: الانفجار، يقال: بجس وانبجس بمعنى واحد.

---

(١) ق: وأمر.

(٢) إملاء ١: ٢٨٧.

(٣) انظر تفسير الآية ١٣٦ من البقرة.

(٤) إملاء ١: ٢٨٧.

(٥) انظر تفسير الآية ٦٠ من البقرة.

(٦) عرقت: ترشحت.

قال الزمخشري[١]: «أناس» اسم جمع غير تكسير نحو رُخاء وثُناء وتُؤام وأخوات لها. ويجوز أن يقال إن الأصل الكسر والتكسير، والضمة بدل من الكسرة كما أُبدلت في نحو سكارى وغيارى انتهى. لا يجوز ما قال، لأن سيبويه نص في كتابه[٢] على أن فُعال جمع تكسير أصل كما أن فِعال كذلك. ولم يُسمع كسر همزة أُناس كما سُمع الضم في فُعالى.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ تقدمت هذه القصة وتفسيرها في البقرة[٣]، وكأن هذه مختصرة من تلك؛ إذ هناك «وإذا قلنا ادخلوا» وهنا «وإذ قيل لهم اسكنوا»، وهناك «رغداً» وسقط هنا، وهناك ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ وهنا «سنزيد»، وهناك «فأنزلنا على الذين ظلموا» وهنا «فأرسلنا عليهم». وبينهما تغاير في بعض الألفاظ لا تناقض فيه؛ فقوله «وإذ قيل لهم» وهناك «وإذ قلنا» فهنا حذف الفاعل للعلم به وهو الله تعالى، وهناك «ادخلوا» وهنا «اسكنوا» والسكنى ضرورة تعقب[٤] الدخول، فأمروا هناك بمبدأ الشيء وهنا بما تسبّب عن الدخول، وهناك «فكلوا» بالفاء وهنا بالواو، فجاءت الواو على أحد محتملاتها من كون ما بعدها وقع بعد ما قبلها. وقيل: الدخول حالة منقضية فحسن ذكر فاء التعقيب بعده، والسكنى حالة مستمرة فحسن الأمر بالأكل معه لا عقيبه، فحسنت الواو الجامعة للأمرين في الزمن الواحد وهو أحد محاملها. وقيل: ثبت «رغداً» بعد الأمر بالدخول لأنها حالة قدوم فالأكل

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٤.

(٢) انظر ٣: ٦٣٩.

(٣) في الآيتين ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وأثبتُّهما لتسهيل المقارنة.

(٤) ق: تتعقب.

فيها ألذّ وأتمّ وهم إليه أحوج بخلاف السكنى فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها ألذّ ولا هم أحوج إليه. وأما التقديم والتأخير في «وقولوا» و«ادخلوا» فقال الزمخشري(١): سواء قدّموا الحطّة على دخول الباب أو أخّروها فهم جامعون [في] الإيجاد بينهما انتهى.

وقوله: سواء قدّموا وأخّروها تركيب غير عربي وإصلاحه: سواء أقدموا أم أخّروها كما قال تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم]. ويمكن أن يقال: ناسب تقديم الأمر بدخول الباب سجّداً مع تركيب «ادخلوا هذه القرية» [٢٢٨/أ] لأنه فعل دالّ على الخضوع والذّلة و«حطّة» قول، والفعل أقوى في إظهار الخضوع من القول، فناسب أن يذكر مع مبدأ الشيء وهو الدخول، ولأنّ قبله «ادخلوا» فناسب الأمر بالدخول للقرية الأمر بدخول بابها [على هيئة الخضوع، ولأن دخول القرية لا يمكن إلا بدخول بابها] فصار باب القرية كأنه بدل من القرية أعيد معه العامل بخلاف الأمر بالسكنى.

وأما «سنزيد» هنا فقال الزمخشري(٢): موعد بشيئين: بالغفران والزيادة، وطرح الواو لا يخلّ بذلك لأنه استئناف مرتّب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين. وزيادة «منهم» بيان «فأرسلنا» و«أنزلنا». و«يظلمون» و«يفسقون» من وادٍ واحد [انتهى]. وقرأ الحسن: حطّةً بالنصب على المصدر أي: حطّ ذنوبنا حطّة. ويجوز أن ينتصب بـ«قولوا» على حذف، التقدير: وقولوا قولاً حطّة، أي: ذا حطّة، فحذف ذا وصار «حطة» وصفاً للمصدر المحذوف كما تقول: قلت حسناً وقلت حقًّا أي: قولاً حسناً وقولا حقًّا.

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٥.

(٢) الكشاف ٢: ١٢٥.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية، الضمير في «واسألهم» عائد على من بحضرة الرسول من اليهود. وذكر أن بعض اليهود المعارضين للرسول عليه السلام قالوا له: لم يكن من بني إسرائيل عصيان ولا معاندة لما أُمروا به، فنزلت هذه الآية موبّخةً لهم ومقررةً كذبهم ومعلنةً بما جرى على أسلافهم من الإهلاك، والمسخ.وكانت اليهود تكتم هذه القصة فهي ممّا لا يُعلم إلا بكتاب أو وحي من الله تعالى، فإذا أعلمهم بها من لم يقرأ كتابهم عُلم أنه من جهة الوحي. وقوله «عن القرية» فيه حذف أي: عن أهل القرية. والقرية هي إيلة وقيل طبريّا قاله ابن عباس وجماعة. ومعنى ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: بقرب البحر مبنيّة بشاطئه[1]. ويحتمل أن يكون معنى الحضارة على جهة التعظيم لها أي: هي الحاضرة في قرى البحر، والتقدير: حاضرة قرى البحر، أي: يحضر أهل قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يجاوزون أمر الله تعالى في العمل يوم السبت. وقد تقدم منه تعالى النهي عن العمل فيه والاشتغال بصيد أو غيره[2]، إلا أنه في هذه النازلة كان عصيانهم، أي: حدث عصيانهم. وقرىء: يُعِدّون، من الإعداد، وكانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير عبادة الله. و«إذ» ظرف والعامل فيه قال الحوفي: «إذ» متعلقة بِسَلْهُم[3] انتهى. ولا يُتصور لأنّ «إذ» ظرف لما مضى و«اسألهم» مستقبل ولو كان ظرفاً مستقبلاً لم يصحّ المعنى لأن العادين وهم أهل القرية متقدمون فلا يمكن سؤالهم، والمسؤول غير أهل القرية العادين.

---

(١) ق: باثناطيه.

(٢) انظر البقرة ٢: ٦٥، والنساء ٤: ١٥٤.

(٣) ق: بسيلهم.

وقال الزمخشري[١]: «إذ يعدون» بدل من «القرية»، والمراد بالقرية أهلها كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال انتهى. وهذا لا يجوز لأنّ «إذ» من الظروف التي لا تتصرف ولا يدخل عليها حرف جر، وجَعْلها بدلاً يجّوز دخول «عن» عليها، لأن البدل هو على نيّة تكرار العامل، ولو أدخلت عن عليها، لم يَجُز، وإنما تُصُرِّفَ فيها بأن أضيف إليها بعض الظروف الزمانية نحو: يوم إذ كان كذا. وأما قول من ذهب إلى أنها يُتصرف فيها بأن تكون مفعولة باذكر، فهو قول من عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفاً. والعامل في «إذ» محذوف تقديره: واسألهم عن قصة أهل القرية وقت عَدْوهم.

و﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ العامل في إذ «يعدون»[٢] أي: إذ عَدَوْا في السبت إذ أتتهم، لأن إذ ظرف لما مضى يصرف المضارع للمضيّ. وقال الزمخشري[٣]: ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل انتهى. يعني بدلاً من «القرية» بعد بدل «إذ يعدون» وقد ذكرنا أن ذلك لا يجوز. ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة، [٢٢٨/ب] الواحد شارع، والعامل في «ويوم» قوله «لا تأتيهم» وفيه دليل على أنّ ما بعد لا للنفي يعمل فيما قبلها، وفيه ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والتفصيل بين أن تكون «لا» جواب قسم فيمنع، أو غير ذلك فيجوز وهو الصحيح. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البلاء بأمر الحوت. ﴿نَبْلُوهُم﴾ أي: بلوناهم وامتحنّاهم.

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٥.

(٢) وإذ تأتيهم العامل في إذ يعدون. وردت هذه العبارة في ق قبل قليل بعد قوله «من إبقائها» ظرفاً.

(٣) الكشاف ٢: ١٢٥.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟
مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن
مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ
وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ
يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ
ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟
أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين جرّبوا الوعظ فيهم فلم يروه يجدي. والظاهر أن القائل غير المقول لهم: «لم تعظون قوماً» فتكون ثلاث[1] فرق: فرقة اعتدوا، وفرقة وعظت ونهت، وفرقة اعتزلت فلم تَنْهَ ولم تَعْتَدِ. وهذه الطائفة هي القائلة للواعظ «لم تعظـون قوماً». وقرىء: معذرةٌ، بالرفع أي: موعظتنا إقامة عذر إلى الله تعالى. وقرىء: معذرةً، بالنصب، وقال أبو البقاء[2]: من نصب فعلى المفعول له، أي: وعَظْنا للمعذرة، وقيل هو مصدر أي يعتذرون معذرة، وقالهما

(١) ق: ثلاثة.

(٢) إملاء ١ : ٢٨٧.

الزمخشري[١].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الضمير في «نسوا» للمنهيين أي: تركوا ما ذكّرهم به الصالحون. وجَعْل الترك نسياناً مبالغة، إذ أقوى أحوال الترك أن ينسى المتروك. و«ما» موصولة بمعنى الذي. و«السوء» عام في المعاصي وبحسب القصص يختصّ هنا بصيد الحوت. و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العاصون، نبّه على العلّة في أخذهم وهي الظلم. وقرىء: بِيْس، على وزن فِعْل، وبالهمز. [وبئيس] على وزن فعيل. وبَيْئَس، على وزن فيعَل. هذه المشهورات وذكر في البحر اثنتين[٢] وعشرين قراءة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: استعصوا. والعتوّ هو الاستعصاء والتأبّي[٣] في الشيء. وباقي الآية تقدم تفسيره في البقرة[٤]. والظاهر أن العذاب والمسخ والهلاك إنما وقع بالمعتدين في السبت، والأمة القائلة «ولِمَ تعظون قوماً» هم من فريق الناهين الناجين، وإنما سألوا إخوانهم عن علّة وعظهم وهو[٥] لا يجدي فيهم شيئاً البتّة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى قبح أفعالهم واستعصاءهم أخبر تعالى أنه حكم عليهم بالذّل والصّغار إلى يوم القيامة. «تأذن» أعلم، من الأذان وهو الإعلام. وأُجري مجرى القسم فتُلُقّي بما يُتلقّى به القسم وهو قوله «ليبعثن». ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ إخبار يتضمن سرعة إيقاع

(١) الكشاف ٢ : ١٢٦.

(٢) ق: اثنين. وانظر البحر ٤ : ٤١٢.

(٣) ق: والتأني.

(٤) انظر تفسير الآية ٦٥ من البقرة.

(٥) ق: وهم.

العذاب بهم. ﴿وَإِنَّهُۥ[1] لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ترجية لمن آمن منهم ومن غيرهم ووعدٌ لمن تاب منهم وأصلح.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ أي: فِرَقاً متباينين في أقطار الأرض، فقلّ أرض لا يكون فيها منهم شرذمة، وهذا حالهم وهم في كل مكان تحت الصّغار والذلّة. و«أمماً» حال، وقال الحوفي: مفعول ثانٍ. وتقدم قوله هذا في ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ ١٦٠﴾ [الأعراف]. و[﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾] من آمن منهم، أي: من آمن بعيسى ومحمد عليهما السلام [أو من آمن بالمدينة.] و﴿ذَٰلِكَۖ﴾ إشارة إلى الصلاح [أي: ومنهم قوم دون أهل الصلاح] لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير من حذف مضاف، أو يكون «ذلك» المعنيّ به أولئك فكأنه قال: ومنهم قوم دون أولئك. وقد ذكر النحويون أن اسم الإشارة المفرد قد يستعمل للمثنى والمجموع فيكون «ذلك» بمعنى أولئك على هذه اللغة ويعتدل التقسيم. [و«دون» ظرف في موضع الصفة لمبتدأ محذوف خبره في المجرور قبله، أي: ومنهم قوم دون ذلك].

قال ابن عطية: فإن أريد بالصلاح الإيمان فـ«دون» بمعنى غير يراد بها الكفرة انتهى. إنْ أراد أنّ «دون» ترادف غير، فهذا ليس بصحيح، وإن أراد أنه يلزم ممّن كان دون شيء أن يكون غيره فصحيح. ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالصحّة والرخاء والسعة و«السيئات» مقابلاتها. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إلى الطاعة ويتوبون عن المعصية.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [قال ثعلب: الناس كلهم يقولون]: خَلَف صدقٍ

---

(١) ق: وإن ربك.

للصالح وخَلْف [٢٢٩/أ] سوءٍ للطالح، ومنه قول الشاعر[١]: [من الكامل]

ذهب الذين يُعاش في أَكْنافِهِمْ وبقيتُ في خَلْفٍ كَجلْدِ الأَجْرَبِ

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولا يعملون بها. و﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو ما يأخذونه من الرُّشا والمكاسب الخبيثة، و«العَرَض» ما يعرض ولا يثبت. وفي قوله «عرض هذا الأدنى» تخسيس لما يأخذونه وتحقير له. ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قطع على الله تعالى بغفران معاصيهم، أي: لا يؤاخذنا الله تعالى بذلك، و«لنا» في موضع المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، تقول: غفر الله لزيد الذنب، فتحذف الفاعل والمفعول وتقيم المجرور مقام الفاعل فتقول: غُفر لزيد.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الظاهر أن هذا استئناف إخبار عنهم بانهماكهم في المعاصي، أي: وإن أمكنتهم الرُّشا والمكاسب الخبيثة لم يتوقّفوا عن أخذها ثانيةً ودائماً، فهم مصرّون على المعاصي. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، هذا توبيخ وتقريع وتقرير لما تضمّنه الكتاب من أخذ الميثاق أنهم لا يكذبون على الله تعالى. قال ابن زيد: كان يأتيهم المحقّ برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحكموا له به. و«أن لا يقولوا» في موضع رفع على البدل من «ميثاق الكتاب» و«درسوا» معطوف على قوله «ألم يؤخذ» وفي ذلك أعظم توبيخ وتقريع وهو أنهم تمرّدوا على ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء

(١) البيت للبيد في ديوانه ص١٥٣.

على الله. ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي: ولثواب دار الآخرة خير من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة المعقبة خزي الدنيا والآخرة.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [قرىء بالتشديد والتخفيف، أي: يتمسكون بالكتاب] أي: بما تضمّنه من حلال وحرام وعبادة. والتمسّك بالكتاب يستلزم إقامة الصلاة، لكنها أُفردت بالذكر هنا تعظيماً لشأنها لأنها عماد الدين [والصلة] بين العبد [وربّه]. و«الذين» استئناف إخبار [وهو] مبتدأ خبره «إنّا لا نضيع» إلخ، والرابط بينهما العموم في المصلحين أو ضمير محذوف تقديره: المصلحين منهم.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ النتق الجذب بقوة، وفسّره بعضهم بغايته وهو القلع، وتقول العرب: نتقت الزبدة من فم القربة، والناتق: الرحم التي تقلع الولد من الرجل، وقال النابغة الذبياني(1): [من الكامل]

لم يُحرَموا حُسْنَ العزاء وأمُّهم طفحتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ

و«فوقهم» العامل فيه «نتقنا» ضُمِّن معنى رفعنا بالنتق الجبلَ فوقهم، كقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ۝٦٣﴾ [البقرة]. «كأنه ظلة» في موضع الحال من «الجبل». والظلّة هنا معناها الغمامة. «وظنوا» هنا باقية على بابها من ترجيح أحد الجائزين. ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ تقدم تفسيرها في البقرة(2).

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ

(1) ديوانه ص١٠٢.

(2) انظر تفسير الآية ٦٣ من البقرة.

تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

«وإذ أخذ ربك من بني آدم» قال الزمخشري[1]: هذا من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه تعالى نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها فيهم، وجعلها مميّزة بين الضلال والهدى، فكأنه سبحانه وتعالى أشهدهم على أنفسهم، وقرّرهم وقال «ألست بربكم»؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بالوحدانية. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ وفي كلام العرب: ومعلوم أنه لا قولَ ثَمَّ وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى انتهى.

ومفعول «أخذ»: ذرّيتهم[2]. ويحتمل في قراءة الجمع أن يكون مفعول «أخذ» محذوفاً لفهم المعنى [٢٢٩/ب] و«ذرّياتهم»: بدل من ضمير «ظهورهم» كما أن «من ظهورهم» بدل من قوله «من بني آدم» والمفعول المحذوف هو الميثاق كما قال ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥﴾﴾ [النساء]. وتقدير الكلام: وإذ أخذ ربك من ظهور ذريات بني آدم ميثاق التوحيد وإفراده بالعبادة. واستعار أن يكون أخذ الميثاق من الظهر كأن الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوف عنده شيء ثقيل[3] يُحمل على الظهر. ﴿أَلَسۡتُ﴾ دخلت همزة الاستفهام على النفي فصار معناه التقرير، وهذا النوع من التقرير يجاب بما يجاب به النفي الصريح؛ فإذا قلت: ألست من بني فلان؟ أجبت ببلى وصار معناه: أنت من بني فلان، فكذلك هنا أجيب ببلى، ومعناه: أنت

---

(١) الكشاف ٢: ١٢٩.

(٢) ق: ذرّياتهم.

(٣) ق: قيل.

ربنا. ﴿شَهِدْنَآ﴾ الظاهر أن الضمير لله تعالى. ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ إشارة إلى الميثاق والإقرار بالربوبية.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ قرىء: أو يقولوا، بالياء وبالتّاء. المعنى أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم مذكّر بما تضمّنه العهد من توحيد الله تعالى وعبادته لكانت لهم حجتان: إحداهما[1]: كنا غافلين، والأخرى: كنا تبعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلّنا[2]، فوقعت الشهادة لتنقطع عنهم الحجج. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هذا من تمام القول الثاني، أي: كانوا السبب في شركنا لتأسيسهم الشرك وتقدّمهم فيه وتركه سنّة لنا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصّلنا فيه الآيات السابقة نفصّل الآيات اللاحقة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم وعبادة غير الله تعالى إلى توحيده وعبادته.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ

(١) ق: أحدهما.

(٢) ق: وأضللنا.

بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ
فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ
خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ قال الجمهور هو بلعام وهو رجل كنعاني أوتي بعض كتب الله تعالى. والانسلاخ من الآيات مبالغة في التبرّؤ والبعد، أي: لم يعمل بما اقتضته نعمتنا عليه. وقرأ الجمهور: فأتبعه الشيطان، من أتْبَع رباعياً أي: لحقه وصار معه، وهي مبالغة في حقه إذ جعل كأنه هو إمام للشيطان يتبعه، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات] أي: عدا وراءه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: ولو شئنا أن نشرّفه ونرفع قدره بما آتيناه من الآيات لفعلنا. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ترامى إلى شهوات الدنيا ورغب [فيها] واتّبع ما هو ناشىء عن الهوى. وجاء الاستدراك هنا تنبيهاً على السبب الذي لأجله لم يُرفع ولم يُشرّف كما فُعل بغيره ممّن أوتي الهدى فآثره واتّبعه. و«أخلد» معناه رمى بنفسه إلى الأرض أي: لما فيها من الملاذّ والشهوات قاله ابن عباس. وقال الزمخشري(١): وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، فحططناه، ووضعنا منزلته، فوقع قوله «فمثله كمثل الكلب» موضع: فحططناه أبلغ حطّ، لأن تمثيله بالكلب في أخسّ أحواله وأذلّها في معنى ذلك انتهى.

قوله: وكان حق الكلام إلخ، سوء أدب على كلام الله تعالى. وأما قوله:

---

(١) الكشاف ٢: ١٣١.

فوقع قوله «فمثله» إلخ، فليس واقعاً موقع ما ذكر، ولكن قوله «ولكنه أخلد إلى الأرض» وقع موقع: فحططناه، إلا أنه تعالى لما ذكر الإحسان إليه أسند ذلك إلى ذاته الشريفة فقال «آتيناه آياتنا» «ولو شئنا لرفعناه بها»، ولما ذكر ما هو في حق الشخص إساءة أسنده إليه فقال «فانسلخ منها» وقال «ولكنه أخلد إلى الأرض» [وهو تعالى في الحقيقة هو الذي سلخه منها وأخلده إلى الأرض] فجاء على حدّ قوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ۝٧٩﴾ [الكهف] وقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ ۝٨٢﴾ [الكهف] في نسبة ما كان حسناً إلى الله تعالى، ونسبة ما كان بخلافه إلى الشخص.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ الآية، أي: فصفته - إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يحملها - كصفة الكلب إن كان مطروداً لهث وإن كان رابضاً لهث، قاله ابن عباس(١). وهذه الجملة الشرطية في موضع الحال أي: لاهثاً في الحالتين [٢٣٠/أ] قاله الزمخشري وأبو البقاء(٢). وتفسيرهما [لاهثاً] من حيث المعنى لا أنّ جملة الشرط هي الحال. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: ذلك الوصف وصف الذين كذبوا بآياتنا، صفتهم كصفة الكلب لاهثاً في الحالتين، فكما شبّه وصف المؤتىٰ الآيات المنسلخ منها بالكلب في أخَسِّ حالاته، كذلك شُبّه به المكذّبون بالآيات حيث أُوتُوها وجاءتهم واضحات تقتضي التصديق بها فقابلوها بالتكذيب وانسلخوا منها.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ ساء بمعنى بئس، وتقدم لنا أن أصلها التعدّي(٣)، تقول:

---

(١) العبارة: فمثله كمثل الكلب.. قاله ابن عباس، وردت في ق في غير موضعها قبل قليل، قبل قول الزمخشري مباشرة.

(٢) الكشاف ٢: ١٣١، والإملاء ١: ٢٨٩.

(٣) انظر تفسير الآية ٦٦ من المائدة، والآية ٣١ من الأنعام.

ساءني الشيء يسوؤني، ثم لما استُعملت استعمال بِئْس بُنيت على فِعْل وجرت عليها[(١)] أحكام بئس. و«مثلاً» تمييز للمضمر المستكن في «ساء» فاعلاً، وهو مفسّر بهذا التمييز، وهو من الضمائر التي يفسّرها ما بعدها، ولا بدّ أن يكون المخصوص بالذّم من جنس التمييز فاحتيج إلى تقدير حذف إما في التمييز أي: ساء أصحاب مثل القوم، وإما في المخصوص أي: ساء مثلاً مثلُ القوم. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيٓ﴾ لما تقدّم ذكر المهتدين والضالّين أخبر تعالى أنه هو المتصرف فيهم بما شاء من هداية وضلال. وتقرّر من مذهب أهل السنّة أنه تعالى هو خالق الهداية والضلال في العبد، و«من» شرطية مفعولة بـ«يَهْدِ» وحمل على لفظها في الجواب وهو قوله «فهو المهتدي». و«مَن» الثانية كذلك وحُمل على معناها في الجواب في قوله «فأولئك» فناسب الإفراد هناك لأن المهتدي قليل، وناسب الجمع في الثانية لأن الضالّين كثير.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ هذا إخبار منه تعالى بأنه خلق لجهنم كثيراً من الصنفين. ومناسبة هذا لما قبله أنه لمّا ذكر أنه هو الهادي وهو المُضِلّ أعقبه بذكر من خُلق للخسران والنار، وذكر من أوصافهم ما ذكر وفي ضمنه وعيد للكفار. والمعنى: لعذاب جهنم: واللام للصيرورة، على قول من أثبت لها هذا المعنى. ولمّا كان مآلهم إليها جعل ذلك سبباً على جهة المجاز.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية، لمّا كانوا لا يتدبّرون شيئاً من الآيات ولا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا يسمعونها سماع تفكّر، جعلوا كأنهم فقدوا الفقه بالقلوب والإبصار بالعيون والسماع بالآذان. وليس المراد نفي هذه

(١) ق: وجردت إليها.

الإدراكات عن هذه الحواس، وإنما المراد نفي الانتفاع بها فيما طُلب منهم من الإيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه في العواقب والنظر للاعتبار والسماع للتفكر، ولا يهتمون بغير الأكل والشرب. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم آخر وهو كونهم أضلّ من الأنعام. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ هذه الجملة بيّن تعالى بها سبب كونهم أضلّ من الأنعام وهو الغفلة عمّا أعدّ الله تعالى لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية، قال مقاتل: دعا رجل الله في صلاته، ومرة دعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فنزلت. ومناسبتها لما قبله أنه تعالى لمّا ذكر أنه ذرأ كثيراً من الإنس والجن للنّار، ذكر نوعاً منهم وهم الذين يلحدون في أسمائه وهم أشدّ الكفار عتيًّا أبو جهل وأضرابه. و«الحسنى» هنا تأنيث الأحسن. ووُصف الجمع الذي لا يعقل بما وُصف به الواحد كقوله تعالى ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] وهو فصيح، ولو جاء على المطابقة للجمع لكان التركيب: الحُسَن على وزن الأُخَر كقوله تعالى ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة] [٢٣٠/ب] لأنّ جمع ما لا يعقل يُخبَر به ويوصَف بجمع المؤنثات وإنَ كان المفرد مذكراً. قال ابن عطية: و«الأسماء» هنا بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره انتهى. لا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تعالى وهي الأوصاف الدالّة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف، كما تقول: جاء زيد الشجاع

الكريم[١]. وكون الاسم الذي أمر تعالى أن يُدعىٰ به حسناً هو ما قرّره الشرع ونصّ عليه في إطلاقه على الله تعالى.

ومعنى ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي: نادوه بها كقوله: يا ألله يا رحمن يا رحيم يا ملك وما أشبه ذلك. [﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يقال]: لحد وألحد لغتان بمعنى واحد وهو العدول عن الحق والإدخال فيه ما ليس منه، قاله ابن السكيت. ومعنى «يلحدون في أسمائه» أي: يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه وغير ذلك من الأسماء التي لم يثبت في الشرع إطلاقها على الله تعالى. و﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ وعيد شديد، واندرج تحت قوله ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الإلحاد في أسمائه وسائر أفعالهم القبيحه.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى من ذرأ للنار ذكر مقابلهم. وفي لفظة «وممّن» دلالة على التبعيض وأن المعظم[٢] من المخلوقين ليسوا هداة إلى الحق ولا عادلين به.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ قال أبو عبيد: الاستدراج أن تدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا تهجم عليه، وأصله من الدرجة وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة، ومنه: درج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم: ماتوا بعضهم في إثر بعض. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: بالاستدراج أو بالهلاك. وقال الأعشى في الاستدراج[٣]: **[من الطويل]**

فلو كنت في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقّيتَ أسبابَ السماء بسلّمِ

(١) ق: والكريم.

(٢) ق: العظم.

(٣) البيتان في ديوانه ص١٥٩، مع اختلاف في الرواية.

ليستدرجَنْك القول حتى تَهِرَّه ... وتعلمَ أنّي عنكمُ غيرُ مفخمِ

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ ﴾ معطوف على «سنستدرجهم» فهو داخل في الاستقبال، وهو خروج من ضمير التكلّم بنون العظمة إلى ضمير تكلّم المفرد. والمعنى: أُؤَخرهم[1] ملاوة من الدهر أي: مدة فيها طول، والملاوة بفتح الميم وضمّها وكسرها ومنه ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم] أي: طويلاً. وسمَّى فِعْلَه ذلك بهم كيداً لأنّه شبيه[2] بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان. والمتين من كل شيء القوي، يقال: مَتن متانة.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ قال الحسن وقتادة: سبب نزولها أن رسول الله ﷺ صعد ليلة على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان يا بني فلان، يحذّرهم ويدعوهم إلى الله تعالى. فقال بعض الكفار حين[3] أصبحوا: هذا مجنون بات يُصَوِّتُ حتى الصباح، وكانوا يقولون: ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات][4] فنفى الله عزّ وجل عنه ما قالوا، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله تعالى. والآية باعثة لهم على التفكر في أمر الرسول عليه السلام وانتفاء الجِنّة عنه. وهذا الاستفهام قيل: معناه التوبيخ، وقيل: معناه

(١) ق: أؤخره.

(٢) ق: تشبيه.

(٣) ق: حتى.

(٤) ق: شاعر.

التحريض على التأمل. والجِنّة: الجن، والمعنى: من مسّ جنّة أو من تخبّط جنة. والظاهر أن «يتفكروا» معلق على الجملة المنفية وهي في موضع نصب بـ«يتفكّروا» بعد إسقاط حرف الجر، لأن التفكر من أفعال القلوب فيجوز تعليقه. والمعنى: أولم يتأمّلوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن رسول الله ﷺ، فإنه منتفٍ عنه لا محالة، ولا يمكن لمن أمعن الفكر أن ينسب ذلك إليه.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، لمّا حضّهم على التفكر في حال رسول الله ﷺ، وكان مفرّعاً على تقرير دلائل التوحيد، أعقبه بما يدلّ على التوحيد [٢٣١/أ] ووجود الصانع الحكيم والملكوت: الملك العظيم، وتقدم شرح ذلك في الأنعام(١). ولم يقتصر على ذكر النظر في الملكوت بل نبّه على أن كل فرد من الموجودات محلّ للنظر والاعتبار والاستدلال على الصانع ووحدانيته كما قيل(٢): [من المتقارب]

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ　　　تـدلُّ علـى أنّـه واحـدُ

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ أن: هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف ضمير الشأن، وخبرها [«عسى»] وما تعلقت به. وقد وقع خبراً لها الجملة غير الخبرية في مثل هذه الآية وفي مثل ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ ۝٩﴾ [النور] فـ«غضب الله عليها» جملة دعاء وهي غير خبرية. وأجاز أبو البقاء(٣) أن تكون «أنْ» هي المخففة من أنّ الثقيلة، وأن تكون مصدرية. يعني أن تكون الموضوعة على

(١) انظر تفسير الآية ٧٥ من الأنعام.
(٢) البيت لأبي العتاهية في ديوانه ص١٠٤.
(٣) إملاء ١: ٢٨٩.

حرفين وهي الناصبة للفعل المضارع. وليس بشيء لأنهم نصّوا على أنها توصل[١] بفعل متصرف مطلقاً يعنون ماضياً ومضارعاً وأمراً، فشرطوا فيه التصرف، و«عسى» فعل جامد فلا يجوز أن يكون صلة لأن. و«عسى» هنا تامّة، و«أن يكون» فاعل بها نحو قولك: عسى أن يقوم زيد، واسم «يكون» قال الحوفي: «أجلهم» و«قد اقترب» الخبر. وقال الزمخشري[٢] وغيره: اسم «يكون» ضمير الشأن [انتهى]. فيكون «قد اقترب أجلهم» في موضع نصب في موضع خبر «يكون»، و«أجلهم» فاعل بـ«اقترب». وما أجازه الحوفي فيه خلاف. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ معنى هذه الجملة وما قبلها توقيفهم وتوبيخهم على أنه لم يقع منهم نظر ولا تدبّر في شيء من ملكوت [السماوات] والأرض ولا في مخلوقات الله تعالى ولا في اقتراب آجالهم، ثم قال: فبأي حديث أو أمر [يقع] إيمانهم وتصديقهم إذ لم يقع بأمر فيه نجاتهم ودخولهم الجنة؟ ونحوه قول الشاعر[٣]: [من الطويل]

فعن أي نفسٍ بعد نفسي أقاتل

والمعنى إذا لم أقاتل عن نفسي فكيف أقاتل عن غيرها.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ نفى نفياً عامّاً أن يكون هادٍ لمن أضلّه الله تعالى، فتضمّن اليأس من إيمانهم والمقت لهم. ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قرىء: ونذرهم، بالنون ورفع الراء. وقرىء: ويذرهم بالياء ورفع الراء، وهو استئناف إخبار، قطع الفعل أو أضمر قبله: ونحن، فتكون جملة

(١) ق: توصف.

(٢) الكشاف ٢: ١٣٣.

(٣) لم أقف على قائله وتمامه، وانظر البحر ٤: ٤٣٣.

اسمية. وقرىء: ونَذَرْهم، بالنون والجزم على أنه مجزوم عطفاً على محل «فلا هادي له» فإنه في موضع جزم جواباً للشرط. والجملة من «يذرهم» تقدم تفسيره في أوائل البقرة[١] فأغنى عن إعادته.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾ قال ابن عباس: الضمير لليهود؛ قال حسل[٢] بن أبي قشير وشمويل بن زيد: إن كنت نبيّاً فأَخْبِرْنا بوقت الساعة فإنّا نعرفها. فإن صدقت آمنّا بك [فنزلت][٣]. ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا ذكر التوحيد والنبوّة والقضاء والقدر أتبع ذلك بذكر المعاد. وأيضاً فلما تقدّم قوله ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف] وكان ذلك باعثاً لهم على المبادرة إلى التوبة - أتى بالسؤال عن الساعة ليُعلم أن وقتها مكتوم عن الخلق فيكون ذلك سبباً للمسارعة إلى التوبة. و«الساعة» القيامة، موت من كان حينئذ حيًّا وبَعْث الجميع يقع عليه [اسم] الساعة. واسم القيامة والساعة من الأسماء الغالبه كالنجم للثريا.

و﴿ مُرْسَىٰهَا ﴾ مصدر أي متى ارساؤها [أي] إثباتها وإقرارها. والرسوّ ثبات

---

(١) انظر تفسير الآية ١٥ من البقرة.

(٢) ق: حسن.

(٣) انظر أسباب النزول ص١٥٣.

الشيء الثقيل ومنه: رسا الجبل وأرسيت السفينة، والمرسى: المكان الذي ترسو فيه. وقال الزمخشري[(١)]: «مرساها» إرساؤها أو[(٢)] وقت إرسائها أي [٢٣١/ب] إثباتها وإقرارها انتهى. وتقديره وقت إرسائها ليس بجيد لأن «أيان» اسم استفهام عن الوقت فلا يصح أن يكون خبراً عن الوقت إلا بمجاز، لأنه يكون التقدير: في أي وقتٍ وقتُ إرسائها. و«أيان مرساها» مبتدأ وخبر. وحكى ابن عطية عن المبرد أن «مرساها» مرتفع بإضمار فعل. ولا حاجة إلى هذا الإضمار، و«أيان مرساها» جملة استفهامية في موضع البدل من «الساعة» والبدل على نية تكرار العامل وذلك العامل معلق عن العمل، لأن الجملة فيها استفهام. ولمّا علّق الفعل وهو يتعدى بعن، صارت الجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، فهو يدل في الحقيقة على موضع «عن الساعة» لأن موضع الجر نصب.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: استأثر بعلمها. ولما كان السؤال عن الساعة عموماً ثم خُصّص بالسؤال عن وقتها جاء الجواب عموماً عنها بقوله «قل إنما علمها عند ربي» ثم خُصّصت من حيث الوقت فَقيل ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ وعِلْم الساعة من الخَمْس التي نصّ عليها من الغيب أنه لا يعلمها إلا هو تعالى. والمعنى: لا يكشفها ولا يظهرها لوقتها الذي قدّر أن تكون فيه إلا هو.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ قال السّدي: معنى «ثقلت» خفيت في السماوات والأرض فلا يعلم أحد من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين متى تكون، وما خفي أمره ثقل على النفوس انتهى. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ أي فجأة على غفلة منكم وعدم شعور بمجيئها. ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ﴾ «عنها» متعلق

(١) الكشاف ٢: ١٣٤.

(٢) ق: أي.

بـ«يسألونك». والحفاوة: الاعتناء بالشيء، ويتعدى بالباء والمعنى: حفيّ بها أي مُعْتَنٍ [بها] وبالسؤال عن حالها.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ الآية، قال ابن عباس: قال أهل مكة: ألا يخبرك [ربك] بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري وتربح، وبالأرض التي تجدب فترحل عنها إلى ما هي أخصب؟ فنزلت[1]. ووجه مناسبتها لما قبلها ظاهر جداً، وهذا منه عليه السلام إظهار للعبودية وانتفاء عمّا يختص بالربوبية من القدر وعلم الغيب ومبالغة[2] في الاستسلام، فلا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضارّ حتى لا يمسّني شيء منها. وظاهر قوله ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ انتفاء العلم عن الغيب على جهة عموم الغيب كما روي عنه عليه السلام «لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلاّ أن يُعْلِمَنيه ربي»[3] بخلاف ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدّعون الكشف، وأنهم بتصفية نفوسهم يحصل لها اطلاع على المغيّبات وإخبار بالكوائن التي تحدث. وما أكثر ادّعاء الناس لهذا الأمر وخصوصاً في ديار مصر حتى إنهم لينسبون ذلك إلى رجل متضمّخ بالنجاسة يظل دهره لا يصلي ولا يستنجي من نجاسة ويكشف عورته للناس حين يبول، وهو عارٍ من العلم والعمل الصالح، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٥٤.

(٢) ق: مبالغة.

(٣) ق: أبي. وانظر السيرة النبوية ٤: ١٦٦، وانظر أيضاً مختصر المقاصد الحسنة ص١٧٤.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ
فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا
صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ
لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ
يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم سؤال الكفار عن الساعة ووقتها، وكان فيهم من لا يؤمن بالبعث، ذكر ابتداء خلق الإنسان وإنشاءه، تنبيهاً على أن الإعادة ممكنة كما أن الإنشاء ممكن[١]، وتقدم تفسير نظيرها[٢]. ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ ﴾ أي: ليطمئن ويميل إليها لأن الجنس إلى الجنس أميل وآنس به. وإذا كان «منها» على حقيقته فالسكون[٣] والمحبّة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبّه محبّة نفسه أو أكثر لكونه بعضاً [منه]. وأنّث في قوله «منها» ذهاباً إلى لفظ النفس، ثم ذكّر في قوله

(١) ق: ممكناً.

(٢) انظر تفسير الآية ١ من النساء.

(٣) ق: حقيقة فالسكوت.

«ليسكن» حملاً على معنى النفس ليبيّن أن المراد بها الّذكَر آدم أو غيره. وكان الذكر [هو] الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشّاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [٢٣٢/أ] الغشيان كناية عن الجماع. ومعنى الخفّة أنها لم تَلْقَ به من الكرب ما يعرض لبعض الحبالى. و«حملاً» مصدر[1]، أو أن يكون ما في البطن، والحَمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو على رأس شجرة، وبالكسر: ما كان على ظهر أو على رأس [غير] شجرة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال الحسن: استمرت به، أو فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخراج ولا إزلاق. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ دخلت في الثقل كما تقول: أصبح وأمسى، أو صارت ذات[2] ثقل كما تقول: أتمر الرجل وألبن، إذا صار ذا تمرٍ ولبن.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: مالك أمرهما، ومتعلق الدعاء محذوف يدلّ عليه جواب جملة القسم أي: دَعَوَا الله ورغبا إليه في أن يؤتيهما صالحاً، ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إن آتاهما صالحاً. ومَن جَعَل الكلام لآدم وحواء - وهو الظاهر - جعل [الشّرك] تسميتهما [الولد الثالث عبد الحارث، إذ كان قد مات لهما ولدان قبله كانا قد سمّيا كل واحد منهما عبدالله] فأشار عليهما إبليس، لعنه الله، أن يسمّيا هذا الثالث عبد الحارث حرصاً على حياته. فالشرك الذي جعل لله تعالى هو في التسمية فقط. وقال الزمخشري[3]: في الكلام محذوف تقديره: جعل أولادهما له شركاء فيما آتاهما، بدليل «فتعالى الله عمّا يشركون» فجمع، لأن آدم وحواء معصومان

(١) ق: مصدراً.

(٢) ق: ذا.

(٣) الكشاف ٢: ١٣٧، ونقل المصنف عبارة الزمخشري بفحواها.

عن الشرك، فتعيّن أن المراد أولادهما. وقرأ السلمي: عمّا تشركون، بالتاء خطاب للكفّار، وكذلك الياء. وتمّت قصة آدم وحوّاء عند قوله «فيما آتاهما» ثم استأنف تنزيه الله تعالى وتقديسه عمّا وقع من الكفّار من الإشراك بالله تعالى، ويدل على انتقال الكلام من قصة آدم وحوّاء إلى حال الكفّار، الآيات الجائية بعد هذا وهو قوله «أيشركون» الآية، وصدر(١) الآية في قوله «هو الذي خلقكم» إذ ضمير الخطاب يشمل المشركين وغيرهم. ومنصب آدم عليه السلام منزّه [عن] أن يجعل لله شريكاً، إذ هو نبي مرسل مكلَّم. وقرىء: شِرْكاً بالإفراد، وشركاء بالجمع.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: أيشركون الأصنام وهي لا تقدر على خلق شيء كما يخلق الله تعالى. [﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: يخلقهم الله تعالى] ويوجدهم كما أوجدكم. ويحتمل أن يكون «وهم» عائداً(٢) على ما عاد عليه ضمير الفاعل في «أيشركون» أي: وهؤلاء المشركون يُخلقون، أي: كان يجب أن يعتبروا لكونهم مخلوقين(٣) فيجعلوا إلٰههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ الظاهر أن الخطاب للكافرين، انتقل من الغيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات والتوبيخ على عبادة غير الله تعالى. ويدلّ على أن الخطاب(٤) للكفار قوله بعدُ: «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم». وضمير المفعول عائد على ما عادت عليه هذه الضمائر، قيل: وهي الأصنام. والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى

---

(١) ق: ومصدر.

(٢) ق: عائد.

(٣) ق: مخلوقون.

(٤) ق: الخطا.

ورشاد[١]، أو إلى أن يهدوكم كما تطلبون من الله الهدى والخير، «لا يتبعوكم» على مرادكم ولا يجيبوكم[٢]، أي: ليست فيهم هذه القابلية لأنها جماد لا تعقل. وعادل همزة الاستفهام في قوله «ادعوتموهم» بقوله «أم» والجملة الاسمية بعدها من المبتدأ والخبر، لأنها[٣] في معنى الفعل إذ التقدير: أم صَمَتُّم. وحَسَّن المجيءَ بالجملة الاسمية كونُها فاصلة كالفواصل قبلها. قال ابن عطية: وفي قوله «أدعوتموهم أم أنتم صامتون» عطف الاسم على الفعل إذ التقدير: أم صَمَتُّم. ومثل هذا قول الشاعر[٤]: [من الطويل]

سواءٌ عليكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ ليلةً بأهلِ القبابِ من نُميرِ بنِ عامرِ

انتهى. ليس هذا من عطف الاسم على الفعل، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة [٢٣٢/ب] الفعلية. وأما البيت فليس من عطف الاسم على الفعل، بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم[٥] المقدّر بالجملة الفعلية؛ إذ أصل التركيب: سواء عليك أنفرت أم بِتَّ ليلة، فأوقع النفر موضع: أنفرتَ. وتقدم الكلام في «سواء» وعلى ما بعدها في أوائل البقرة[٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، هذه الجملة على سبيل التوكيد لما قبلها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرة على شيء من نفع أو ضرّ أي [أن]

---

(١) ق: ورشاداً.

(٢) ق: يجيبونكم.

(٣) ق: لأن.

(٤) البيت في المقاصد النحوية ٤: ١٧٩ غير منسوب.

(٥) ق: الاسمية.

(٦) انظر تفسير الآية ٦ من البقرة.

الذين تدعونهم وتسمّونهم آلهة من دون الذي أوجدها وأوجدكم هم عباد. وسمّى الأصنام عباداً وإن كانت جمادات لأنهم كانوا يعتقدون أنها تضرّ وتنفع. وقال الزمخشري[١]: «عبادٌ أمثالكم» استهزاء بهم، أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال «ألهم أرجل يمشون بها» انتهى. وليس كما زعم، لأنه تعالى حكم على هؤلاء المدعوّين[٢] من دون الله تعالى أنهم عباد أمثال الداعين، فلا يقال في الخبر من الله تعالى «فإن ثبت ذلك» لأنه ثابت، ولا يصح أن يقال: ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالكم فقال «ألهم أرجل»، لأن قوله «ألهم أرجل» ليس إبطالاً لقوله «عباد[٣] أمثالكم» لأن المِثْلِيَّةَ ثابتة إما في أنهم مخلوقون أو في أنهم مملوكون مقهورون، وإنما ذلك تحقير[٤] لشأن الأصنام وأنهم دونكم في انتفاء الآلات التي أُعدّت للانتفاع بها مع ثبوت كونهم أمثالكم فيما ذكر. ولا يدل إنكار هذه الالآت على انتفاء المثليّة فيما ذكر، وأيضاً فالإبطال لا يُتصور بالنسبة إليه تعالى، لأنه يدل على كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى.

قرأ سعيد بن جبير: إن، خفيفة، وعباداً أمثالكم، بنصب الدّال واللام. واتفق المفسرون على تخريج هذه القراءة على أنّ «إنْ» هي النافية أُعملت عمل ما الحجازية، فرفعت الاسم ونصبت [الخبر] فـ«عباداً أمثالكم» خبر

(١) الكشاف ٢: ١٣٨.

(٢) ق: المدعون.

(٣) ق: عباداً.

(٤) ق: تحقيراً.

منصوب. قالوا: والمعنى بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أقلّ وأحقر إذ هي جمادات لا تفهم ولا تعقل. وإعمال إنْ إعمال ما الحجازية فيه خلاف، أجاز ذلك الكسائي وأكثر الكوفيين، ومن البصريين ابن السراج والفارسي وابن جني، ومنع من إعمالها الفرّاء وأكثر البصريين، واختلف النقل عن سيبويه والمبرد. والصحيح أن إعمالها لغة، ثبت ذلك في النثر والنظم [وقد] ذكرنا ذلك مشبعاً في شرح التسهيل[١].

وقال النحّاس: هذه قراءة لا ينبغي أن يُقرأ بها لثلاث جهات: إحداها[٢] مخالفة للسّواد. الثانية أن سيبويه يختار الرفع في خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما، فتقول: إن زيد منطلق، لأن عمل ما ضعيف، وإنْ بمعناها، فتكون أضعف منها. والثالثة[٣] أن الكسائي رأى أنها في كلام العرب، لا تكون بمعنى ما، إلا أن يكون بعدها إيجاب انتهى. وكلام النحّاس هذا هو الذي لا ينبغي لأنها قراءة مروية عن تابعي جليل ولها وجه في العربية. وأما ثلاث الجهات التي قد ذكرها فلا يقدح شيء منها في هذه القراءة. أما كونها مخالفة للسواد فهو خلاف يسير جدًّا لا يضرّ، ولعله كتب المنصوب على لغة ربيعة في الوقف على المنوّن المنصوب بغير ألف، فلا يكون فيه مخالفة للسواد. وأمّا ما حكى عن سيبويه، فقد اختلف الفهم عن كلام سيبويه في إنْ. وأمّا ما حكاه عن الكسائي، فالنقل عن الكسائي أنه حكى إعمالها، وليس بعدها إيجاب.

والذي يظهر لي أن هذا التخريج الذي خرّجوه من أنّ إنْ للنفي ليس

(١) طبع جزء منه بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٨هـ، وليس ذلك فيه.

(٢) ق: أحدها.

(٣) ق: والثالث.

بصحيح؛ لأنّ قراءة الجمهور تدلّ على إثبات كون الأصنام عباداً أمثال عابديها، وهذا التخريج يدلّ على نفي ذلك [٢٣٣/أ] فيؤدي إلى عدم مطابقة أحد الخبرين، وهو لا يجوز بالنسبة إلى الله تعالى. وقد خرّجتُ هذه القراءة على وجهٍ غير ما ذكروه، وهو أن تكون إنْ هي المخففة من الثقيلة، وأعملها عمل المشدّدة. وقد ثبت أنّ إنْ المخفّفة يجوز إعمالها عمل المشدّدة في غير المضمر بالقراءة المتواترة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا ﴿١١١﴾﴾ [هود] وبنقل سيبويه عن العرب، لكنه نصب في هذه القراءة خبرها كما نصبه عمر بن أبي ربيعة في قوله[1]: [من الطويل]

[إذا اسودّ جنح الليل فلتأت ولتكن   خطاك خفافاً] إنّ حُرّاسنا أُسْدا

وقد ذهب جماعة من النحاة إلى جواز نصب أخبار إنّ وأخواتها واستدلّوا على ذلك بشواهد ظاهرة الدّلالة على صحة مذهبهم وتأولها المخالفون. فهذه القراءة الشاذّة تتخرّج على هذه اللغة، أو تتأول على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب وهو أنهم قالوا: إن تقديره: أقبلت رواجعاً[2]، فكذلك تُؤوّل هذه القراءة على إضمار فعل تقديره: إن الذين تدعون من دون الله خلقناهم عباداً أمثالكم، وتكون القراءتان قد توافقتا على معنى واحد وهو الإخبار أنهم عباد، ولا يكون تنافٍ بينهما وتخالف لا يجوز في حق الله تعالى. وقرىء أيضاً: إنْ، مخففة، ونصب: عباداً، على أنه حال من الضمير

---

(١) البيت في الخزانة ٤: ٢٩٤ غير منسوب، وليس في ديوانه.

(٢) ذلك في قول العجاج:

يا ليت أيامَ الصّبا رواجعا

فتأوّلوا المنصوب على إضمار فعل تقديره: أقبلت رواجعا. والبيت في شرح المفصل ٨: ٨٤ غير منسوب. وهو من شواهد الكتاب ٢: ١٤٢.

المحذوف العائد من الصلة على «الذين»[(١)]، وأمثالكم: بالرفع على الخبر. أي: إنِ الذين تدعون من دون الله - في حال كونهم عباداً - أمثالكم في الخلق أو في الملك، فلا يمكن أن يكونوا آلهة.

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ هذا استفهام إنكار وتعجب في تبيين أنهم جماد لا حراك لهم، وأنهم فاقدون لهذه الأعضاء ومنافعها التي خلقت لأجلها، فأنتم أفضل من هذه الأصنام إذ لكم هذا التصرف. وهذا الاستفهام الذي معناه الإنكار قد يتوجّه الإنكار فيه إلى انتفاء هذه الأعضاء وانتفاء منافعها، فتسلّط النفي على المجموع كما فسّرناه، لأن تصويرهم هذه الأعضاء للأصنام، ليست أعضاء حقيقية. وقد يتوجّه النفي إلى الوصف أي: وإن كانت لهم هذه الأعضاء النافعة. و«أم» هنا منقطعة، فتتقدر ببل والهمزة، وهو إضراب على معنى الانتقال لا على معنى الإبطال. وإنما هو تقدير على نفي كل واحدة من هذه الجمل، وكان ترتيب هذه الجمل هكذا لأنه بدأ بالأهم ثم أتبع بما دونه إلى آخرها.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ لما أنكر تعالى عليهم عبادة الأصنام وحقر شأنها وأظهر كونها جماداً عارية عن شيء من القدرة أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم ذلك، أي لا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ما تشاؤون، وهو أمر تعجيز أي: لا يمكن أن يقع منكم[(٢)] دعاء لأصنامكم ولا كيد لي، وكانوا قد خوّفوه آلهتهم. ومعنى «ادعوا شركاءكم» استعينوا بهم على إيصال الضرّ إليّ. ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: امكروا بي ولا تؤخّرونِ عما تريدون بي من الضرّ. وسمّى الأصنام شركاءهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله،

(١) ق: الذي.

(٢) ق: منهم.

تعالى الله عن ذلك.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الآية، لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرّه، وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء، عقب ذلك بالاستناد إلى الله تعالى والتوكل عليه، والإعلام أنه تعالى هو ناصره عليهم. وبيّن جهة نصره عليهم بأن أوحى إليه، وأعزّه برسالته، ثم إنه عزّ وجلّ يتولى الصالحين من عباده وينصرهم على أعدائهم [٢٣٣/ب] ولا يخذلهم. وقرىء: وليَّ اللهُ، بياء مشدّدة(١).

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله. وهذه الآية بيان لحال الأصنام وعجزها عن نصرة أنفسها، فضلاً عن نصرة غيرها.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ تناسق الضمائر يقتضي أن الضمير المنصوب في «وإن تدعوهم» هو للأصنام. ونفى عنهم السماع لأنها جماد لا تحسّ، وأثبت لهم النظر على سبيل المجاز بمعنى أنهم صوّروهم ذوي أعين فهم يشبهون من ينظر ومن قلّب حدقته للنظر. ومعنى «إليك» أي: إليك أيها الداعي، وأُفرد لأنه اقتطع قوله ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من جملة الشرط واستأنف الإخبار عنهم.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

---

(١) أي بياء واحدة مشدّدة مفتوحة، ورفع الجلالة. وهي قراءة أبي عمرو في رواية عنه.

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ الآية، هذا خطاب لرسول الله ﷺ ويعمّ جميع أمته. وهي أمرٌ بجميع مكارم الأخلاق. وقد أمر بذلك رسول الله ﷺ وهي في قوله «يسّروا ولا تعسّروا»[(١)] وقال حاتم الطائي[(٢)]: [من الطويل]

خُذي العفو منّي تستديمي مودّتي ولا تَنْطِقي في سَوْرتي حين أَغْضَبُ

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ أي ينخسنّك[(٣)] بأن يحملك بوسوسة على ما لا يليق، فاطلب العياذ بالله منه، وهي اللواذ والاستجارة. قيل: لما نزلت «خذ العفو» الآية، قال رسول الله ﷺ «كيف والغضب»؟ فنزلت[(٤)]: «وإما ينزغنك». و«إن» شرطية و«ما» زائدة و«نزغ» هو الفاعل، وهو مصدر، يراد به اسم الفاعل أي: نازغ. وهذا التركيب جاء في القرآن كثيراً بزيادة ما، وبنون التوكيد، كقوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال] ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس] وختم بهاتين الصفتين لأن الاستعاذة تكون باللسان ولا تجدي إلا باستحضار معناها فالمعنى: سميع للأقوال عليم بما في الضمائر.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ ﴾ الآية، قرىء: طَيْف، مخففاً من طيّف، كما قالوا: مَيْت في ميّت. وقال الكسائي[(٥)]: الطيف: اللمم، والطائف: ما طاف حول الإنسان، [وقال ابن عطية]: وكيف هذا وقد قال الأعشى[(٦)]: [من الكامل]

---

(١) رواه مسلم ٣: ١٣٥٩ من حديث أنس بن مالك.

(٢) ليس في ديوانه، وانظر البحر ٤: ٤٤٨.

(٣) ق: يمسنّك.

(٤) انظر تفسير الطبري ٩: ١٠٦، والإكليل ص١٣٢.

(٥) ق: قال ابن عطية وقال الكسائي.

(٦) البيت في ديوانه ص٢٥٧.

وتُصيح عن غبِّ السُّرى وكأنها ألَمَّ بها من طائفِ الجنّ أولقُ

انتهى. لا يُتعجب من تفسير الكسائي الطائف [بأنه] ما طاف حول الإنسان بهذا البيت، لأنه يصحّ فيه معنى ما قاله الكسائي، لأنه إن كان تعجبه وإنكاره من حيث خصّص[1] الإنسان، فالذي قاله الأعشى تشبيه لأنه قال «كأنها»، وإن كان تعجبّه من حيث فسر بأنه ما طاف حول الإنسان، فطائف الجن يصحّ أن يقال طاف حول الإنسان. وشبّه هو الناقة في سرعتها ونشاطها وقطعها الفيافي في عجلة بحالتها إذا ألمّ بها أولق من طائف الجن. والنزغ من الشيطان أخفّ من مسّ الطائف من الشيطان، لأن النزغ أدنى حركة، والمسّ الإصابة. والطائف: ما يطوف [به] ويدور عليه فهو أبلغ لا محالة، فحال المتقين في ذلك غير حال الرسول.

وانظر لحسن هذا البيان: حيث كان الكلام للرسول كان الشرط بلفظ «إنْ» المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيء بإذا الموضوعة للتحقق أو الترجيح. وعلى هذا فالنزغ يمكن أن يقع ويمكن أن لا يقع، والمسّ واقع لا محالة أو مرجح وقوعه. وهو إلصاق البشرة بالبشرة وهو هنا استعارة. وفي تلك الجملة أُمر هو صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة. وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط، وجاء الخبر «تذكروا» فدلّ على تمكّن مسّ الطائف حتى حصل نسيان فتذكّروا ما نسوه. والمعنى: تذكّروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبنفس التذكر حصل إبصارهم وفاجأهم إبصار الحق والسّداد، فاتّبعوه وطردوا عنهم مسّ الطائف. و«اتَّقَوا» عامة في كل ما يُتَّقى.

(١) ق: خصوص.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ الضمير في «وإخوانهم» عائد على ما تقدّم [٢٣٤/أ] من الكفار، «وإخوانهم» مبتدأ [و«يمدونهم» خبر]، والضمير في «يمدّونهم» المنصوب يعود على ما عاد عليه الضمير في «وإخوانهم». وقرىء: يُمدّونهم من أمدّ، ويَمُدّونهم، من مدّ وهما بمعنى واحد. و«في الغي» متعلق بيمّدونهم. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي: لا يكفّون عن إمدادهم في الغواية.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ روي أن الوحي كان يتأخر عن النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: هلاّ اجتبيتها[1]! ومعنى هذه اللفظة في كلام العرب: تخيّرتها واصطفيتها. قال ابن عباس: هلاّ اخْتَرَعْتَها واختلقتَها من قِبَلك ومن عند نفسك. و«لولا» هي للتحضيض بمعنى هل لا. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى﴾ الآية، بيّن أنه ليس مجيء الآيات إليه إنما هو مُتَّبِعٌ ما أوحاه الله تعالى إليه ولست بمفتعلها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا الموحىٰ إليّ الذي أنا أتّبعه، لا أبتدعه، وهو القرآن بصائر، أي: حجج وبيّنات يُبْصَر بها وتتضّح الأشياء الخفيات. وهي جمع بصيرة كقوله ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۝١٠٨﴾ [يوسف] أي: على أمر جليّ منكشف. وأخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سور وآيات، وقيل هو على حذف مضاف أي: ذو بصائر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: دلالة على الرشد ورحمة في الدين والدنيا. وخصّ المؤمنين لأنهم هم الذين يستبصرون وهم الذين ينتفعون بالوحي، يتبعون ما أمر به ويجتنبون ما يُنهون عنه فيه ويؤمنون بما تضمّنه.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذْكُر

(١) انظر تفسير الطبري ٩: ١٠٩.

رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية، روي أنها نزلت في المشركين، كانوا إذا صلى رسول الله ﷺ يقولون ﴿لَا تَسْمَعُوا[1] لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] فنزلت جواباً لهم[2]. ولمّا ذكر أن القرآن بصائر وهدى ورحمة أمر باستماعه إذا شُرع في قراءته، وبالإنصات وهو السكوت مع الإصغاء إليه. لأن ما اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريّ بأن يُصْغىٰ إليه حتى تحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها، فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلالة ويُرحم بها. والظاهر استدعاء الاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءة القرآن.

[﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآية، لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءته] ارتقى من أَمْرهم[3] إلى أَمْر رسول الله ﷺ بذكر ربّه في نفسه أي: بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد، وهي الحالة الشريفة العليا. ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول، أي: يذكره بالقول الخفي الذي يُشعر بالتذلّل والخضوع من غير صياح ولا تصويت، كما تناجىٰ الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال صلى الله عليه وسلم للصحابة وقد جهروا بالدعاء «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، اربعوا على

(١) ق: لا تسمع.
(٢) انظر أسباب النزول ص١٥٤، ولباب النقول ص١٠٥.
(٣) ق: من أمره تعالى.

أنفسكم»[١]. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مالك أمرك والناظر في مصلحتك. و«في نفسك» متعلق بـ«اذكر» و«تضرعاً وخيفة» مفعولان من أجله أي: لتضرع وخيفة، أو مصدران منصوبان على الحال أي: متضرعاً وخائفاً. «ودون الجهر» معطوف على قوله «في نفسك» أي: ذكراً في نفسك وذكراً دون الجهر.

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ إن كان جمعاً لغداة فهو مقابل بالجمع وهو «والآصال»، وإن كان مصدراً لغدا فيكون على حذف تقديره: بأوقات الغدوّ. والظاهر اقتصار الأمر بالذكر على هذين الوقتين، وقيل: المراد بهما الأوقات، واقتصر عليهما لأنهما ظرفان للأوقات. و«الآصال» هي العشايا جمع أصيل وهي العشية. ولمّا أمره تعالى بالذكر أكّد ذلك بالنهي عن أن يكون من الغافلين، أي: اسْتَدِم الذكر ولا تغفل عنه طرفة [٢٣٤/ب] عين. ومعلوم أنه عليه السلام تستحيل عليه الغفلة لعصمته عليه السلام فهو نهيٌ له والمراد أمّته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هم الملائكة عليهم السلام. ومعنى العنديّة الزّلفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفّرهم على طاعته وابتغاء مرضاته. ولمّا أمر تعالى بالذكر ورغّب في المواظبة عليه، ذكر مَن شأنُهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة: الأول نفي[٢] الاستكبار عن عبادته، وذلك هو أصل إظهار العبودية. ونفي الاستكبار هو الموجب للطاعات كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان، لأن المستكبر يرى لنفسه شفوفاً[٣] ومزيّة فيمنعه ذلك من الطاعة. الثاني: إثبات التسبيح منهم له تعالى وهو التنزيه

(١) رواه مسلم ٤: ٢٠٧٧ من حديث أبي موسى.
(٢) ق: في.
(٣) ق: شغوفاً.

والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته عزّ وجلّ. والثالث: السجود له.

ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار فكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية ذكرهما. فالقلبية تنزيه الله تعالى عن السوء، والجسمانية السجود وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى. وفي الحديث: «أطَّتِ السماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد»[1]. سؤال[2]: في تقديم الجار والمجرور في «وله يسجدون» إشعار[3] بأنهم لا يسجدون لغيره [فكيف] وقد سجدوا لآدم؟ فأجيب عنه بأن الذين سجدوا لآدم ملائكة الأرض خاصة، ويردّ عليه قوة العموم في: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر]!. ويمكن أن يجاب بأن السجود كان لله في الحقيقة وآدم كالقِبلة.

---

(١) رواه أنس بن مالك مرفوعاً وإسناده ضعيف. انظر النهاية ١ : ٥٤، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٢ : ٥٣٢.

(٢) ق: سواك.

(٣) ق: أي إشعار.

فهرس المجلد الثاني